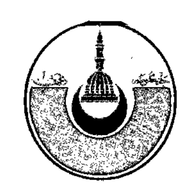








المجلد الأول

انعقد بدبي في الفترة من ١٣ إلى ١٩ المحرم ١٤٢٤ هجري الموافق ١٦ إلى ٢٢ مارس ٢٠٠٣م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المؤتمر العلمي لدار البحوث

الملتقى الأول

القاضي عبد الوهاب البغدادي

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

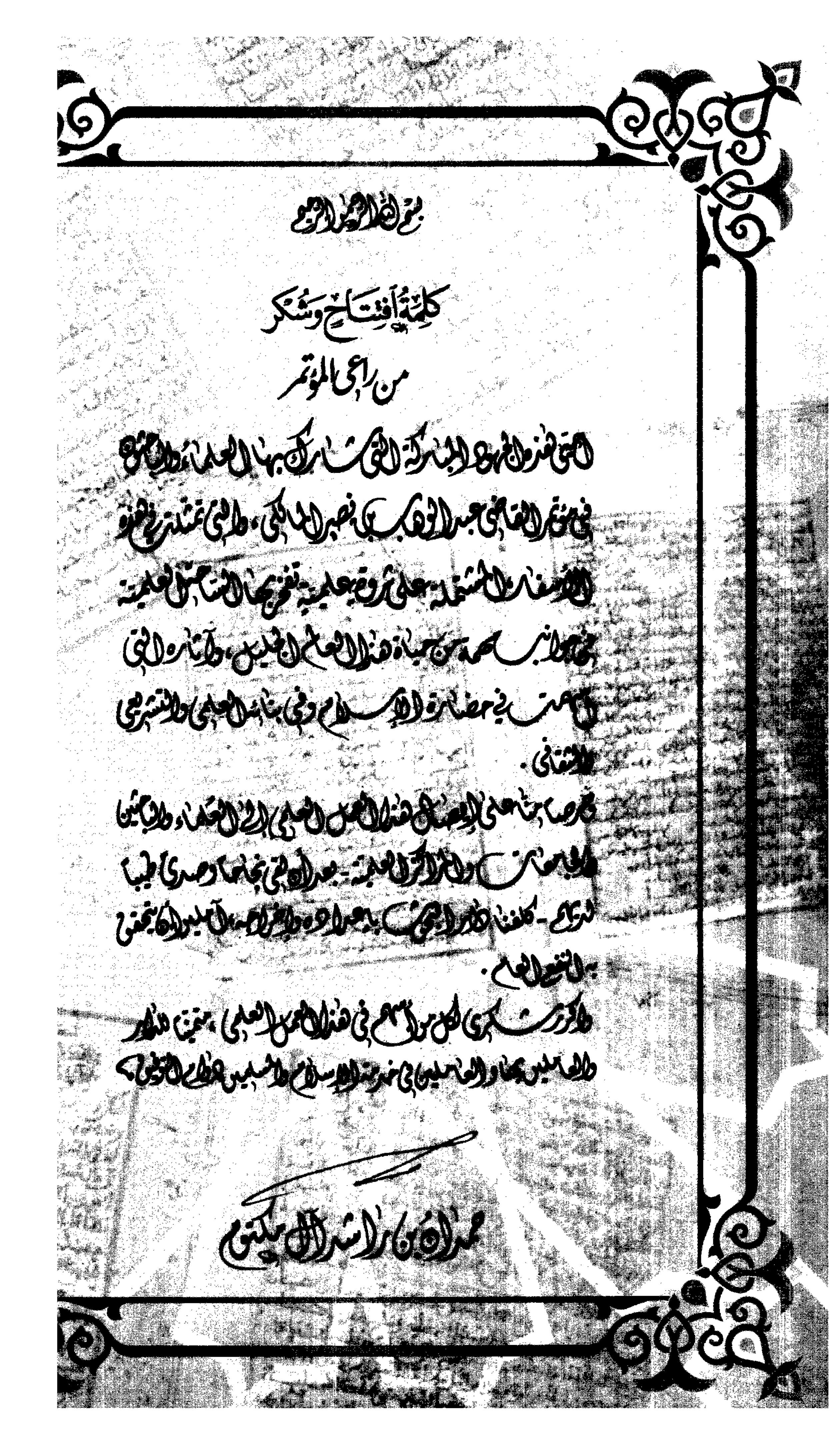
دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث

الإمارات العربية المتحدة - دبي - هاتف: ٣٤٥٦٨٠٨، فاكس: ٣٤٥٣٢٩٩، ص.ب: ٢٥١٧١
الموقع www.bhothdxb.org.ae البريد الإلكتروني irhdubai@bhothdxb.org.ae



سمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم
نائب حاكم دبي وزير المالية والصناعة
راعي المؤتمر

افتتاح وشكر من راعي المؤتمر العلمي



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة افتتاح وشكر

من راعي المؤتمر

أثمن عالياً الجهود المباركة التي شارك بها العلماء والباحثون في مؤتمر القاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي، والتي تمثلت في هذه الأبحاث المشتملة على ثروة علمية تغتني بها الساحة العلمية في جوانب مهمة من حياة هذا العالم الجليل، وآثاره التي أسهمت في حضارة الإسلام وفي بنائها العلمي والتشريعي والثقافي.

حرصاً منا على إيصال هذا العمل العلمي إلى العلماء والباحثين والجامعات ومراكز البحث العلمية - بعد أن لقي نجاحاً وصدى طيباً لدى الجميع - كلفنا دار البحوث بإعداده وإخراجه، آملين أن يتحقق به النفع العام.

وأكرر شكري لكل من أسهم في هذا العمل العلمي، متمنياً للدار والعاملين بها والعاملين في خدمة الإسلام والمسلمين عظيم التوفيق.

حمدان بن راشد آل مكتوم

افتتاحية وشكر
من دار البحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وبعد:

فنقدم إلى العلماء والباحثين هذا السفر العظيم الذي يمثل عصارة عقول أسهمت في إبراز جوانب مختلفة من حياة شخصية عظيمة، كان لها أثر بارز في الساحة العلمية، في فترة تعد من أزهى عصور الدولة الإسلامية الممتدة عبر التاريخ.

وهذه الإسهامات بلا شك ليست وليدة فترة زمنية محددة بمحيط المؤتمر الزمني، بل غالبها معالجات لها جذور في شخصية الباحث واهتماماته العلمية.

ولقد كان لشخصية القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المترامية الأطراف في فنون العلم، مجال خصيب للباحثين، فاغترفوا من حياضه، وقدموا بحوثاً أصيلة تشعبت مواردها بتشعب مصادرها، وكشفت صفحة مشرقة من حياة هذا العالم الجليل، ورصدت ثراء علمياً تفاعلت معطياته وأينعت ثمراته، وقدمت للساحة العلمية أصنافاً من ضروب المعرفة، ونتائج الأفكار.

وحين تحركت همة الدار لرصد الحركة العلمية لهذه الشخصية الفذة، لم تكن تتوقع هذا الزخم العلمي الذي ترجمه المشاركون الأفاضل في بحوثهم القيمة، بل صرح بعض الباحثين بأنه حين اطلع على فكرة المؤتمر، والاهتمام بهذه الشخصية بالذات لتكون محوراً له، لم يكن يتوقع الأهمية التي تكشفت له بعد أن عايشها، وسبر أبعادها، ووقف على أصالة منبتها، ورسوخ قدمها، وتفنن مداركها، وصلاتها الواسعة بحواضر العلم، والاطلاع على نتاج أفكارها.

ولقد كان للجهود الكريمة التي بذلها الباحثون فيما قدموه من أوراق علمية أصيلة للمؤتمر، أكبر الأثر في إنجاحه حتى كان - بحمد الله - موضع إجماع من المؤتمرين، بأنه من المؤتمرات التي نالت النجاح بكل المقاييس، وذلك فضل من الله ومنه، وله الحمد في الأولى والآخرة.

دعـاء وشكـر

ولقد أرشدنا المولى سبحانه وتعالى إلى القيام بواجب الشكر لمن أسدى المعروف، وسن لنا نبيه صلوات الله وسلامه عليه هذا المنهج في الاعتراف بالجميل: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له».

وإذا ذكر أهل الفضل والإحسان، والبذل في سبيل الخير، وخدمة هذا الدين، فإن الأيادي البيضاء التي امتدت بالبذل والعطاء، والإسهام المتواصل فيما فيه نفع للإسلام والمسلمين، لهي حرية بأن ترفع لها الأكف بالدعاء، بأن يجزل الله المثوبة لسمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم... الذي رعى هذا المؤتمر وتبناه، وأن يمتعه بالصحة والعافية ودوام التوفيق، وأن يجعل أياديه البيضاء دائمة النفع، متواصلة العطاء، وأن يجعل ذكره في الخالدين، ممن رفعت لهم رايات العز والسؤدد، وتعطرت صفحات تاريخهم بأحسن الفعال، وأكرم الخصال، وأن يديم له الذكر الحسن فيمن أكرم من رب العالمين بلسان صدق في الآخرين.

كما أنه لا يفوتني أن أنوه بالجهود المضنية التي بذلت من الأخوة العاملين في الدار، فقد واصلوا العمل ليل نهار عدة شهور في دأب لا يمل، وصبر لا يكل، كل في موضع اختصاصه، حتى كلل الله ذلك المسعى بالتوفيق والتسديد، كما

أوجه شكري إلى الأخوة الكرام الذي آزرونا في أعمال اللجان المنظمة من دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وكذلك المؤسسات والدوائر الحكومية والخاصة على إسهاماتها الكريمة :

وفي مقدمة هذه الإدارات والمؤسسات :

- ديوان سمو حاكم دبي. وعلى رأسه سعادة د. خليفة بن محمد بن سليمان رئيس الديوان.

فلقد كان لدائرته الفضل الذي لا ينكر في سرعة تلبية متطلبات هذا المؤتمر ودعمه.

- غرفة تجارة وصناعة دبي. التي يسرت لنا قاعة المحاضرات التي انعقد فيها المؤتمر.

- مركز دبي للطيران (دناتا) ممثلاً في السيد طارق.

- شرطة دبي.

- دائرة إعلام دبي. ممثلة في تلفزيون دبي وجريدة البيان.

- بلدية دبي.

- وكالات الأنباء ومندوبوها، ومندوبو محطات التلفزة والإذاعات.

- إدارة الهجرة والجنسية بدبي.

- دائرة الطيران المدني.

- دائرة التشريفات.

- دائرة الصحة بدبي .

- فندق تاج بالاس والعاملون فيه .

- جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم .

ولشركة ألوان للإنتاج الفني وافر الشكر ، فقد أضفت على المؤتمر ألواناً من فنها الأصيل وإبداعها المميز الذي كان له أثر بارز في نجاح الإخراج الفني لهذا المؤتمر .

وأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يحفظ هذه البلاد وسائر بلاد المسلمين من الفتن ، وأن يدفع البلاء عن ديار المسلمين ، وأن يسلم إخواننا في العراق وفي فلسطين من شر أعداء الإسلام والمسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصَلَّى الله وسَلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أ. د. أحمد محمد نور سيف

المدير العام لدار البحوث رئيس اللجنة العليا للمؤتمر

رئيس مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دبي

التعريف برجال البحوث

الأهداف والوسائل

أنشئت دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي- رسمياً- بموجب القانون رقم (٤) لسنة ١٩٩٦م، وتسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

١ - إبراز محاسن الإسلام، وأنّه دين الإنسانية الصالح لكل زمان ومكان.

٢ - خدمة كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يتصل بهما من علوم مساعدة، وما يخدمهما من دراسات.

٣ - العناية بمذهب الإمام مالك تحقيقاً لكتبه وخدمة لرجاله، وما يتصل بذلك من دراسات وعقد لقاءات وندوات، مع العناية بكتب المذاهب الأخرى.

٤ - التبصير بالعقيدة السليمة، عقيدة السلف الصالح التي تنبذ الخلاف، وتبعد الأمة عن مضار العصبية والتشرذم، وتستهدف جمع القلوب على التآخي والمحبة، تحت مظلة أهل السنة والجماعة.

٥ - إحياء التراث الإسلامي، جمعاً وتحقيقاً ودراسة مما يلبي حاجة المسلمين إلى تبصيرهم بدينهم، وحل مشاكلهم.

٦ - إعداد الدراسات الجادة التي تعين على نشر الوعي السليم والبعد عن الغلو، وما يجره على الأمة الإسلامية من ويلات.

٧ - توجيه الشباب الوجهة الصالحة، التي تنفعهم في دينهم ودنياهم، وتعود على مجتمعاتهم بالخير والنماء.

٨ - ترجمة الأعمال العلمية التي تخدم قضايا المسلمين.

٩ - التعاون مع دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، والمراكز العلمية والمؤسسات التعليمية ، في عقد الندوات واللقاءات والمشاركات العلمية .

١٠ - إصدار مجلة للدار ، واستغلال جميع وسائل الإعلام المتاحة ، لإيصال رسالة الدار إلى جميع الفئات المختلفة من الناس .

وسائل تحقيق هذه الأهداف :

انطلاقاً من الأهداف السابقة ، فإنَّ العمل المثمر ينبغي أن يستهدف الجوانب المختلفة التي تحقق تلك الغاية .

وهذا يستدعي تكامل جوانب الإعداد والتوجيه في المقام الأول ، والاستفادة من جميع الفرص المتاحة التي توصل إلى هذه الغاية .

والتراث الإسلامي من أهم الركائز في تجديد الروافد التي تخدم قضايا الإسلام والمسلمين ، وتبصرهم بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وتدفعهم لخدمة دينهم ووطنهم وأمتهم ، ويتحقق ذلك بإحياء هذا التراث ، تحقيقاً ونشراً، وإعداد الدراسات الجادة التي تعالج مشاكل العصر ، وتساير احتياجاته، وتقدم الحلول على هدي من الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح .

ولا بد في أداء هذه الرسالة من تسخير جميع الوسائل المتاحة للتثقيف والتعليم .

١ - ففي وسائل البحث وإحياء التراث ونشره يمكن تحقيق ما يلي:

(أ) إصدار سلسلات من الكتيبات الصغيرة في الأغراض التالية :

- في المنهج التربوي الإسلامي .

- في عقيدة أهل السنة والجماعة .

- في شرائع الإسلام .

- في قبسات من حياة السلف .

- في التعريف بالفرق الإسلامية .

- في المقارنة بين منهج أهل السنة والجماعة والفرق المخالفة .

وقد تم تشكيل مجلس علمي في الدار لدراسة الموضوعات التي تمس الحاجة إليها ، واختيار ما يصلح من الأبحاث المقدمة للتحكيم ، ثم للنشر .

(ب) إحياء التراث ويعنى بتحقيق ونشر ما يلي :

- كتب في التفسير وعلوم القرآن .

- كتب في الحديث وعلومه .

- كتب في عقيدة أهل السنة والجماعة .

- كتب في مصادر الفقه المالكي .

- كتب ذات قيمة علمية في سائر فروع المعرفة .

(جـ) البحوث والدراسات في المجالات التالية :

- اختيار ما تمس إليه الحاجة من الكتب المعتمدة في المذهب المالكي لخدمته وإخراجه مدللاً معللاً .

- إعداد دراسات مختلفة ، تنافح عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، وترد

على المخالفين على أسس من الإنصاف والإقناع .

- نقد كتاب أو هدم فكرة تناوىء الإسلام أو تفتري عليه .

- التعريف بأحوال المسلمين ، وأسباب التخلف وأساليب العلاج .

- إعداد دراسات تبين العقائد الفاسدة التي ابتلي بها المسلمون في واقعهم المعاصر .

- نشر الرسائل التي تنهج بالشباب المتمسك بدينه نهج التعقل في التعرف على نصوص الشريعة .

٢- في المجال الإعلامي :

- إخراج مجلة دورية تخدم الأهداف السابقة، وتتابع واقع المسلمين وتعالج مشاكلهم .

- إعداد نشرات لاصقة توزع على المساجد والمدارس والأماكن العامة ، توجه العامة - ولا سيما الشباب - إلى الأمور الضرورية من أحكام الشريعة وآدابها، وتدعو إلى السلوك الأمثل في الأخلاق ومراعاة الآداب ، وحسن التعامل مع أفراد المجتمع، والمشاركة في مسؤولياته .

- الإفادة من الأشرطة المسجلة التي تخدم الأغراض السابقة ، من محاضرات أو دروس، وتوزيعها في المساجد والأندية والمدارس .

- المشاركة في أجهزة الإعلام المختلفة ، في التلفزيون والإذاعة والصحف والمجلات ، بحلقات متنوعة وموضوعات مختلفة تخدم الأهداف السابقة .

وقد شكلت لجنة إعلامية تتولى دراسة الوسائل التي يمكن اتباعها لتحقيق

الأهداف المنشودة ، والإشراف على عملية التنفيذ .

٣ - في المجال التعليمي :

المجال التعليمي ميدان فسيح لتوجيه الشباب وتثقيفهم وحمايتهم من الأفكار الوافدة ، ولذا ينبغي أن يُحصنوا بالتوجيه السليم في كل هذه الميادين، ومن ذلك :

(أ) المناهج التعليمية :

وهذه ركيزة أساسية ينبغي العناية بها، فلا يقدم للطلاب إلا ما يكون مؤدياً لتنشئتهم التنشئة الصالحة ، بعيداً عن التوجهات الضارة التي تشوش أذهانهم أو تدخل عليهم أفكاراً منحرفة ، أو تقودهم إلى الغلو والتطرف في التفكير والسلوك .

ولذا ينبغي أن تنوع الجهود فيما يأتي :

- مراجعة المواد الدينية والتاريخية المقررة، والتأكد من سلامتها وتنقيتها من الشوائب ، في كل المراحل التعليمية ، وتقديم المفردات المقررة البديلة .

- التوسع في المواد الدينية ولا سيما مادة العقيدة على مذهب أهل السنة والجماعة ، ومادة الفقه المذهبي (المذاهب الأربعة) ، وذلك حماية من تيار التطرف بدعوى الاجتهاد .

(ب) إعداد مناهج لمعاهد علمية دينية تؤهل المتخصصين للدراسات الإسلامية، ولتلبية الحاجة إلى الأئمة والدعاة والخطباء ومدرسي المواد الشرعية ومتعلقاتها .

(جـ) إعداد برنامج للدراسات العليا الشرعية :

تقوم الدار بتقديمه للراغبين في مواصلة دراساتهم في علوم الشريعة .

وقد تم تشكيل لجنة من داخل الدار لوضع التصور العام والخطوات الواجب اتخاذها للقيام بهذا العمل .

(د) إعداد برنامج للدورات العلمية :

قامت الدار بوضع برنامج لدورات علمية في أسس البحث العلمي وتطبيقاته ، وقواعد تحقيق التراث ، وعلم المكتبات والفهرسة والتوثيق ، وهي بمثابة دورات تدريبية لطلبة المرحلة الجامعية لإكسابهم الخبرة العلمية والعملية التي تسهل عليهم الانخراط في سلك التحقيق والبحث العلمي .

٤ - في المجال الدعوي والاجتماعي والثقافي العام :

ينبغي أن تُستغل في ذلك دُور التثقيف الأخرى من أندية ومراكز ومكتبات، ومناسبات دينية، وملتقيات علمية - في داخل البلاد وخارجها- للوقوف على أحوال المسلمين ، والإسهام في معالجة المشاكل والصعوبات التي تعترض العمل الإسلامي، وذلك بالقيام بما يلي :

- إعداد نادٍ ثقافي يخدم الأغراض العامة، ويكون فرصة لتوجيه الشباب وتهذيبهم وتربيتهم ، ويلبي احتياجاتهم المختلفة .

- عقد الندوات والمحاضرات العلمية والملتقيات الفكرية داخل البلاد وخارجها ، لمتابعة ما يجد في الساحة من تطورات وأفكار وأنشطة علمية وفكرية، ولخدمة التراث وإحياء معالم الحضارة الإسلامية ، المتمثلة في رجالاتها ومنجزاتها ،وفي دراسة قضاياها المعاصرة .

- إعداد الموسوعات الإسلامية ، وترجمتها إلى اللغات الأجنبية .

- ترجمة الأعمال المميزة التي توضح مقاصد الشريعة ، وتبرز خصائصها ، وتنوه بآثارها في رقي الحضارة الإسلامية وما أفادته الشعوب من إنجازاتها العلمية .

- تقويم ما يحال إلى الدار من الدوائر والجهات والهيئات المختصة .

- إجازة طباعة الكتب الدينية في الإمارة ، وقد اتخذ مجلس الأوقاف رقم ٩/ ٧٩ وبتاريخ ٧١/ ٢١/ ٧٩٩١م قراراً بذلك ، وسيتم تنفيذه حال المصادقة عليه من ديوان سمو الحاكم .

- استضافة بعض الشخصيات العلمية من الخارج ممن لهم مكانة علمية وفكرية ، ونهج متزن في معالجة القضايا المعاصرة .

- إيفاد بعض العاملين في الدار أو خارجها للتعرف على بعض الاهتمامات التي تقوم الدار بدراستها في البلاد التي تشتد فيها الحاجة إلى التوجيه والتعليم ومدّ يد العون .





لجان المؤتمر

لجان المؤتمر

رئيس اللجنة العليا

الأستاذ الدكتور أحمد محمد نور سيف

أمين عام المؤتمر

الدكتور عبد الله بشير محمد البشير

اللجان العلمية

لجنة الإشراف العلمي (لجنة التنظيم)

الدكتور عبد الحكيم الأنيس	(رئيساً)
الدكتور نور الدين صغيري	(عضواً)
الشيخ سيد أحمد نورائي	(مقرراً)
السيد حسني حسن محمد	(متعابعاً)

لجنة الإشراف العلمي (لجنة الإعداد والمراجعة)

الدكتور بدوي عبد الصمد الطاهر	(رئيساً)
الدكتور أحمد عبد العزيز الحداد	(عضواً)
الدكتور محمود أحمد الزين	(عضواً)
الدكتور محمد الأمين ولد محمد سالم	(عضواً)
الشيخ أحمدنا ولد محمد مالك	(عضواً)
الشيخ محمود سعيد ممدوح	(عضواً)
الشيخ محمد العربي بوضياف	(مقرراً)

الدكتور محمد عيادة الكبيسي (متابعاً)

اللجان التنظيمية

رئيس اللجان التنظيمية

الأستاذ طارق سيف النومان «دار البحوث»

المراقب العام

الدكتور نور الدين صغيري

لجنة الإعداد والضيافة

السيد علي الريس «دائرة الأوقاف» (رئيساً)

الشيخ صفاء الدين عبد الرحمن «دار البحوث» (نائباً)

الشيخ سامح علي ناصر الناخبي «دار البحوث» (عضواً)

السيد محمد فتحي طلبة «دار البحوث» (عضواً)

السيد فهد عبد القادر الهاجري «دائرة الأوقاف» (عضواً)

السيد يونس أحمد «دائرة الأوقاف» (عضواً)

السيد محمد علي مشاعل «دائرة الأوقاف» (عضواً)

اللجنة الفنية (عضواً)

السيد عصام عبد المولى محمد «دار البحوث» (رئيساً)

السيد صبحي يغمور «دائرة الأوقاف» (نائباً) (نائباً)

السيد جمال الدين محمد هاشم «دار البحوث» (عضواً)

السيد حسن عبد القادر العزاني «دار البحوث» (عضواً)

السيد إيهاب حسني عكيلة «دار البحوث»	(عضواً)
السيد محيي الدين حسين يوسف «دار البحوث»	(عضواً)

لجنة التزويد بالمطبوعات

الشيخ موفق ياسين قطيفاني «دار البحوث»	(رئيساً)
السيد عادل السيد أحمد جمعة «دار البحوث»	(نائباً)
السيد عبد الكريم محمد نجار باشي «دار البحوث»	(عضواً)

لجنة الاستقبال

السيد محمد فزيع «دائرة الأوقاف»	(رئيساً)
السيد أبو بكر أحمد نور سيف «دائرة الأوقاف»	(نائباً)
الشيخ محمد سعد خلف الله «دار البحوث»	(عضواً)
الشيخ شكري عبد الرحمن بن عبد الله «دائرة الأوقاف»	(عضواً)
الشيخ عبد الرحمن خلف داود «دائرة الأوقاف»	(عضواً)
السيد غسان عبد الرحمن العبيدلي «دائرة الأوقاف»	(عضواً)

لجنة النقل والمواصلات

السيد أحمد سعيد محمد «دار البحوث»	(رئيساً)
السيد عبد الناصر الكواري «دائرة الأوقاف»	(نائباً)
الشيخ محمد ربيع محمد زين «دار البحوث»	(عضواً)
الشيخ محمد عبد الهادي محمد «دائرة الأوقاف»	(عضواً)
الشيخ/ عبد الله عبد الهادي محمد «دائرة الأوقاف»	(عضواً)

السيد/ محمد صالح الهاشمي «دائرة الأوقاف»	(عضواً)

اللجنة الإعلامية

السيد/ يوسف الحمادي «دائرة الأوقاف»	(رئيساً)
الدكتور/ محمد عيادة أيوب «دار البحوث»	(نائباً)
الشيخ/ أحمد عبد الله المغربي «دار البحوث»	(عضواً)
السيد/ هلال الفيلي «دائرة الأوقاف»	(عضواً)
السيد/ محمد توفيق أحمد «دائرة الأوقاف»	(عضواً)
السيد/ بهاء الدين السنهوري «دائرة الأوقاف»	(عضواً)
السيد/ أشرف محمد شبل «دائرة الأوقاف»	(عضواً)
الأستاذ/ محمد البشير فرحان	(عضواً)

اللجنة المالية والإدارية

السيد/ حسني حسن محمد «دار البحوث»	(رئيساً)
السيد/ فيصل صالح الملا «دار البحوث»	(نائباً)
السيد/ محمد عبد الله الهاشمي «دار البحوث»	(عضواً)

المتحدث باسم المؤتمر

الدكتور/ عبد الله بشير	(أمين عام المؤتمر)
الدكتور/ عبد الحكيم الأنيس	(رئيس اللجنة العلمية)

محاور الملتقى



المحاور العلمية[١]

المحور الأول:

المذهب المالكي، بين ملامح مدرسته الأولى، وخصائص المدرسة العراقية، وهو على قسمين:

القسم الأول: المدرسة المالكية الأولى، وفيه:

- المدرسة المالكية الأولى (عصر الإمام مالك).
- المدارس المالكية المتعاقبة، ومظاهر تأثرها أو استمدادها من المدرسة الأولى.
- العوامل التاريخية والإقليمية لظهور هذه المدارس المختلفة، وتنوع وسائلها، ومضارعتها لغيرها.
- الفروق والأشباه بين المدارس المالكية فيما بينها، ومدارس المذاهب الأخرى.
- التصانيف والمؤلفات المالكية، وتفاوتها في المناهج بتفاوت المدارس الأولى.
- تبني المدارس المالكية المتعاقبة مذهب أهل السنة والجماعة، وجهود رجالات المذهب في نشر قواعده، ودحض مفتريات خصومه.

---

(١) نلفت النظر إلى ان المحاور اثبتت هنا على صيغتها الأولى التي وجهت إلى العلماء والباحثين، وعندما أرادت الدار إخراج البحوث في كتاب يجمعها، رأت أن يكون ترتيب البحوث موضوعياً، وهذا اقتضى أن يقع بعض التصرف في عناوين المحاور في هذا الكتاب.

■ المصادر الأصولية عند المالكية، وأسباب تأخر بروز التصنيف فيها.

القسم الثاني: المدرسة المالكية بالعراق، وفيه:

■ الظروف التاريخية والإقليمية لنشأة المدرسة العراقية.

■ السمات الأساسية للمدرسة، ومظاهر الالتقاء والافتراق بينها وبين المدارس المالكية الأخرى.

■ التصانيف والتآليف التي تميزت بها، وأبرز الفروق والأشباه بينها وبين غيرها.

■ ملامح الطبقات التأسيسية، وخصائصها، وآثارها في المذهب.

■ منهجية المشيخات والتلقي من الحلقات العلمية بالمدرسة العراقية، ومظاهر توافقها أو تباينها مع المدرسة المالكية الأولى خاصة، والأخريات عامة (دراسة كيفية وخصائص التلقي والعرض العلمي).

■ المراتب العلمية والإدارية لمؤسسي المدرسة، وأثر ذلك على انتشار المذهب المالكي بالعراق.

■ الصراع والتحولات السياسية والعقدية بالعراق، ودور المدرسة العراقية فيه.

المحور الثاني

الدراسات الشخصية والعلمية للقاضي عبد الوهاب البغدادي، وفيه:

■ عصر القاضي عبد الوهاب، وأحواله السياسية والاقتصادية والعلمية، ومدى تأثيرها في بناء شخصيته العلمية.

- الدور الذي قام به في إرساء قواعد المذهب المالكي بالعراق.
- مظاهر الاستمداد العلمي، أو التأثر والتأثير في شخصيته العلمية.
- صلاته العلمية الوثيقة بمدرسة القيروان، وجهوده في خدمتها، وذلك من خلال شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني.
- مصنفاته وتآليفه العلمية، وأبرز معالمها وسماتها.
- معالم التأسيس الأصولي في فكره من خلال كتبه ومقدماته الأصولية.
- دراسات منهجه الاستدلالي من خلال كتابيه: «الإشراف على مسائل الخلاف»، و«المعونة»، ومدى دلالته على أخذه بخاصية التدليل المعاكسة للتجريد الشهير في المذهب.
- مظاهر التأثر بمعالمه الأصولية والفقهية عند المتأخرين، وذلك من خلال الشروح والتعليقات والحواشي على تصانيفه الأصولية والفقهية.

المحور الثالث:

المتأخرون من المالكية ومظاهر تأثرهم، بين المدرسة العراقية خاصة، والمدارس المالكية الأخرى، وفيه:

- مظاهر الاتباع والتقليد عند المتأخرين من المالكية.
- المتأخرون بين التجريد والاستدلال.
- مظاهر ارتباط التصنيف العقدي والسلوكي بالمنهج الفقهي عند المتأخرين، ودواعي ذلك.

■ مظاهر تأثر المتأخرين بالمدرسة العراقية.

■ انتشار المذهب المالكي في دول الخليج العربي، وفي دولة الإمارات العربية المتحدة بخاصة، ومعالم ذلك في الإفتاء والنظام القضائي.

■ الجهود المعاصرة في خدمة المذهب المالكي ونشر تصانيفه، وذلك من خلال المؤسسات العلمية: الحكومية والخاصة.

■ استمداد القوانين الغربية المعاصرة من الفقه المالكي (تحليل ونتائج).

ضوابط وشروط الأوراق العلمية

سعياً لتحقيق أكبر قدر ممكن من الاستفادة العلمية من المؤتمر، فقد وضعت الضوابط والشروط الآتية:

أولاً: الالتزام بالمحاور العلمية للمؤتمر.

ثانياً: الالتزام بضوابط البحث العلمي المعلومة.

ثالثاً: ألا يكون قد سبق نشره، أو تقديمه للنشر في أي جهة علمية.

رابعاً: ألا يكون قد سبق تقديمه كورقة علمية في أي مؤتمر أو ندوة.

خامساً: كتابة الأوراق العلمية وملخصاتها على الحاسوب.

سادساً: إرفاق السيرة الذاتية المفصلة للباحث.

سابعاً: يرفق مع الورقة العلمية ملخصٌ للبحث لإلقائه في جلسات المؤتمر في حال قبوله.

ثامناً: تحال كل الأوراق العلمية الواردة إلى جهات التحكيم والتقييم العلمي المتخصصة.

تاسعاً: في حال قبول الورقة علمياً واجتيازها مرحلة التقويم العلمي يخاطب معدها بذلك.

عاشراً: تتحمل الجهة المنظمة للمؤتمر كافة نفقات السفر والإقامة للمشاركين علمياً.

جداول الجلسات

جداول الجلسات

القاعة : غرفة تجارة وصناعة دبي

الاثنين ١٤ / ١ / ١٤٢٤ هـ - ١٧ / ٣ / ٢٠٠٣م :

الفترة الصباحية

الجلسة الأولى : (٩:٠٠ - ١١:٣٠)

رئيس الجلسة : أ : د : عبد الوهاب أبو سليمان (عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية)

مقرر الجلسة : د : نور الدين صغيري .

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٩:٠٠ - ٩:٣٠	تقرير عن مراحل الإعداد للمؤتمر العلمي	أمين المؤتمر العلمي
٩:٣٠ - ١٠:٠٠	هل المصالح المرسلة من خصائص المذهب المالكي	أ . د . محمد سعيد رمضان البوطي كلية الشريعة ـ جامعة دمشق
١٠:٠٠-١٠:٣٠	منهجية الإمام مالك الأصولية : الخصائص والآثار	د . محمد بن حمادي التمسماني كلية أصول الدين بتطوان ـ جامعة القرويين
١٠:٣٠-١١:٠٠	السمات الأساسية للمدرسة المالكية بالعراق ومظاهر الالتقاء والافتراق بينها وبين المدارس المالكية الأخرى	أ . د . محمد حسين قنديل كلية الشريعة ـ جامعة الكويت
١١:٠٠-١١:٣٠	المدرسة المالكية العراقية : النشأة والمميزات	أ . د . حميد الأحمر كلية الآداب-جامعة سيدي محمد بن عبد الله
١١:٣٠ - ١٢:٠٠ (الاستراحة)		

الجلسة الثانية: (١٢:٠٠ – ٢:٠٠)

رئيس الجلسة: السيد علي الهاشمي (مستشار رئيس الدولة)

مقرر الجلسة: د.محمد الأمين محمد سالم

التوقيت	الموضوع	المتحدث
١٢:٠٠-١٢:٣٠	المدرسة الفقهية المالكية بالعراق – عوامل نشأتها، أبرز أعلامها، خصائصها ومميزاتها	د. عبد المنعم التمسماني جامعة عبد الملك السعدي ـ تطوان
١٢:٣٠-١:٠٠	التأثير المتبادل بين المدرسة المالكية بالعراق والقيروان	د. نعيم عبد العزيز الكثيري كلية الشرطة ـ دبي
١:٠٠-١:٣٠	عصر القاضي عبد الوهاب البغدادي وأحواله السياسية والاقتصادية والعلمية ومدى تأثيرها في بناء شخصيته العلمية	د. سالم بن محمد القرني كلية الشريعة وأصول الدين ـ جامعة الملك خالد
١:٣٠-٢:٠٠	عبد العزيز بن الماجشون فقهه وآثاره في المذهب المالكي، حسب كتبه المخطوطة	د. ميكلوش موراني جامعة بون ـ المانيا

الفترة المسائية

الجلسة الثالثة: (٥:٠٠ – ٦:٣٠)

رئيس الجلسة: أ. د. أحمد طه ريان (كلية الشريعة والقانون ـ جامعة الأزهر)

مقرر الجلسة: أ. محمد العربي بوضياف

التوقيت	الموضوع	حدث
٥:٠٠-٥:٣٠	الجدل الفقهي عند مالكية بغداد	د. محمد العلمي كلية الشريعة بفاس ـ جامعة القرويين
٥:٣٠-٦:٠٠	التصنيف الأصولي عند المالكية - دراسة وتحليل	د.عبد الجليل زهير ضمرة كلية الشريعة ـ جامعة اليرموك ـ الأردن
٦:٠٠-٦:٣٠	ملامح الحوار المذهبي في الفكر الفقهي والأصولي عند فقهاء مدرسة مالكية العراق	د. رضوان بن غربية كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة الجزائر
٦:٣٠ – ٧:٠٠ (الاستراحة وصلاة المغرب)		

الجلسة الرابعة: (٧:٠٠ – ٩:٣٠)

رئيس الجلسة: أ. د. محمد الروكي

مقرر الجلسة: أ. عمر محمد سيد عبد العزيز

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٧:٠٠-٧:٣٠	منهج الاستدلال والنقد والترجيح عند القاضي عبد الوهاب من خلال أهم مؤلفاته	أ. د. محمد جميل كلية الشريعة - أكادير - المغرب
٧:٣٠-٨:٠٠	عصر القاضي عبد الوهاب البغدادي السياسي ـ والاقتصادي ـ والعلمي	أ. د. محمد أمحزون كلية الآداب ـ جامعة مولاي إسماعيل ـ مكناس
٨:٠٠-٨:٣٠	التقعيد الفقهي عند القاضي عبد الوهاب من خلال كتابه المعونة: القواعد المميزة للفقه المالكي نموذجاً	د. عبد الله الهلالي كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة سيدي محمد عبد الله ـ المغرب
٨:٣٠-٩:٠٠	دعائم الفكر الأصولي للقاضي عبد الوهاب البغدادي	أ. د. محمد السيد الدسوقي كلية الشريعة ـ جامعة قطر
٩:٠٠-٩:٣٠	جهود المغرب في بعث التراث المالكي ونحو تعاون علمي لإنجاز مشروع متكامل لإحياء هذا التراث	د. عبد السلام الهراس جمعية العمل الاجتماعي والثقافي ـ المغرب

يوم الثلاثاء ١٥ / ١ / ١٤٢٤ هـ - ١٨ / ٣ / ٢٠٠٣م

الفترة الصباحية

الجلسة الخامسة: (٩:٠٠ – ١١:٠٠)

رئيس الجلسة: أ. د. محمد سعيد رمضان البوطي (كلية الشريعة ـ جامعة دمشق)

مقرر الجلسة: أ. محمد عبد الله التمين

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٩:٠٠-٩:٣٠	مصنفات القاضي عبد الوهاب البغدادي حلقة وصل بين علماء المشرق والمغرب	أ. د. إدريس الخرشافي كلية الشريعة ـ جامعة القرويين بفاس
٩:٣٠-١٠:٠٠	رصد مسار وصدى كتب القاضي عبد الوهاب البغدادي في الغرب الإسلامي	د. محمد الوثيق المغرب
١٠:٠٠-١٠:٣٠	ملامح وأبعاد تأثر القوانين الغربية بالفقه المالكي	د. محمد الأمين محمد سالم دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي
١٠:٣٠-١١:٠٠	المقارنات التشريعية بين الفقه المالكي والقانون الفرنسي	د. عبد الله إبراهيم الموسى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الأحساء
١١:٠٠ - ١١:٣٠ (الاستراحة)		

الجلسة السادسة: (١١:٣٠ – ١:٣٠)

رئيس الجلسة: د. أحمد عبد العزيز الحداد

مقرر الجلسة: د. بدوي عبد الصمد الطاهر

التوقيت	الموضوع	المتحدث
١١:٣٠-١٢:٠٠	أثر القاضي عبد الوهاب على الدرس الفقهي المالكي بالغرب الإسلامي	د. إدريس السفياني ـ جامعة محمد الخامس ـ الرباط
١٢:٠٠-١٢:٣٠	دراسات منهج القاضي عبد الوهاب الاستدلالي من خلال كتابيه الإشراف والمعونة ومدى دلالته على الأخذ بخاصية التدليل	أ. د. حمدي عبد المنعم شلبي كلية الشريعة والقانون ـ جامعة الأزهر ـ دمنهور
١٢:٣٠-١:٠٠	المذهب المالكي في دراسات المستشرقين المعاصرين	د. حسن عزوزي كلية الشريعة ـ فاس
١:٠٠-١:٣٠	جهود المالكية في مواجهة الفرق المخالفة في الغرب الإسلامي	د. عبد السلام شقور كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ تطوان

يوم الاربعاء ١٦ / ١ / ١٤٢٤ هـ - ١٩ / ٣ / ٢٠٠٣م

الفترة الصباحية

الجلسة السابعة: (٩:٠٠ – ١١:٠٠)

رئيس الجلسة: أ.د. عبد السلام محمد الشريف (جامعة الفاتح – ليبيا)

مقرر الجلسة: د. محمد الأمين ولد محمد سالم

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٩:٠٠-٩:٣٠	مصادر الاستدلال ومنهجه لدى القاضي عبد الوهاب من خلال كتابيه الاشراف والمعونة	د. عبد الرحمن الشعلان كلية الشريعة ـ جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض
٩:٣٠-١٠:٠٠	منهج القاضي عبد الوهاب في توظيف المصطلح الأصولي من خلال كتابه الإشراف	د. العربي البوهالي المغرب
١٠:٠٠-١٠:٣٠	المنهج الاستدلالي عند القاضي عبد الوهاب من خلال الاشراف والمعونة	د. علي ميهوبي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ الجزائر
١٠:٣٠-١١:٠٠	الفكر الأصولي عند القاضي عبد الوهاب	د. عمر صالح بن عمر كلية الشريعة ـ جامعة الشارقة
١١:٠٠ - ١١:٣٠ (الاستراحة)		

الجلسة الثامنة: (١١:٣٠ – ١:٣٠)

رئيس الجلسة: د. محمود أحمد الزين

مقرر الجلسة: د. عبد القدوس أسامة الكليدار

التوقيت	الموضوع	المتحدث
١١:٣٠-١٢:٠٠	منهجية التصنيف السلوكي في التأليف الفقهي المالكي	أ. أحمد سالم القطعاني باحث في العلوم الإسلامية ـ ليبيا
١٢:٠٠-١٢:٣٠	الفقه المالكي وأحواله في ظل الفقه الحنبلي بمكة المكرمة في القرن الرابع عشر	د. محمد بن علوي المالكي
١٢:٣٠-١:٠٠	المقاصد الشرعية عند القاضي عبد الوهاب	أ.د. نور الدين الخادمي جامعة الزيتونة ـ تونس
١:٠٠-١:٣٠	ظاهرة الانتصار للمذهب عند القاضي عبد الوهاب من خلال كتابه المعونة: دراسة في الأسس العلمية والمقومات المنهجية	د. محمد المصلح جامعة محمد الأول ـ وجدة / المغرب
١:٣٠ - ٢:٠٠	تراث القاضي عبد الوهاب عند المغاربة والأندلسيين	أ.د. حسن الوراكلي جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة

الفترة المسائية

الجلسة التاسعة (٥:٠٠ – ٦:٣٠)

رئيس الجلسة : أ.د.محمد جميل (كلية الشريعة – أكادير – المغرب)

مقرر الجلسة : د. أحمد عبد العزيز الحداد

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٥:٠٠-٥:٣٠	المتأخرون بين التجريد والتدليل	أ. د. الصادق الغرياني كلية الآداب ـ جامعة الفاتح ـ ليبيا
٥:٣٠-٦:٠٠	الفقه المالكي بين التجريد والتدليل – نحو منهج معاصر للإصلاح المذهبي	أ. محمود سلامة الغرياني كلية القانون ـ
٦:٠٠-٦:٣٠	هجرة القاضي عبد الوهاب البغدادي من بغداد إلى مصر	د. عبدو بن علي الحاج الحريري كلية التربية ـ جامعة صنعاء ـ عمران
٦:٣٠ – ٧:٠٠ (الاستراحة وصلاة المغرب)		

الجلسة العاشرة: (٧:٠٠ – ٩:٣٠)

رئيس الجلسة: أ. د. أحمد عبيد الكبيسي

مقرر الجلسة: د. عبد الحكيم الأنيس

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٧:٠٠-٧:٣٠	القاضي عبد الوهاب البغدادي شاعراً	د. محمد مصطفى بن الحاج كلية الآداب ـ جامعة الفاتح ـ ليبيا
٧:٣٠-٨:٠٠	المدرسة المالكية بإفريقية في عهد سيادة القيروان	أ. د. محمد أبو الأجفان جامعة أم القرى – مكة المكرمة
٨:٠٠-٨:٣٠	القاضي عبد الوهاب البغدادي أديباً وشاعراً	أ. د. عباس محجوب جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية – أم درمان
٨:٣٠-٩:٠٠	لمحة عن عناية فقهاء المالكية بالتصنيف الفقهي المدلل	أ. محمد العربي بوضياف دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث
٩:٠٠-٩:٣٠	القاضي عبد الوهاب البغدادي شاعراً	د. وائل علي السيد مصر

يوم الخميس ١٧ / ١ / ١٤٢٤ هـ - ٢٠ / ٣ / ٢٠٠٣م

الفترة الصباحية

الجلسة الحادية عشرة: (٩ – ١١)

رئيس الجلسة: أ. د. عبد الوهاب أبو سليمان (عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية)

مقرر الجلسة: د. نور الدين صغيري

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٩:٠٠-٩:١٥	مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي ومظاهر استمدادها من المدرسة الأولى	د. مصطفى أحمد علي القضاة الأردن
٩:١٥-٩:٣٠	السمات المميزة لرجال المدرسة المالكية الأولى في المدينة المنورة وأثرها في المدارس اللاحقة	أ.د. أحمد علي طه ريان كلية الشريعة والقانون ـ جامعة الأزهر
٩:٣٠-٩:٤٥	مراحل تأسيس المدرسة الفقهية المالكية بالعراق ومميزاتها	أ. مختار بن عبد الرحمن نصيرة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ الجزائر
٩:٤٥-١٠:٠٠	المدرسة المالكية بصقلية، تاريخها، وأعلامها، وعلاقتها بالمدرسة البغدادية	أ. سعد بن يحيى المغرب
١٠:٠٠-١٠:١٥	وشائج الصلة المتميزة بين مذهبي الإمامين أبي حنيفة ومالك	أ. د. محمد محروس الأعظمي كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية ـ الجامعة الإسلامية العالمية ـ ماليزيا
١٠:١٥-١٠:٣٠	المراتب العلمية لمؤسسي المدرسة البغدادية وأثر ذلك على انتشار المذهب المالكي بالعراق	أ. د. عزت علي عيد عطية كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر
١٠:٣٠-١٠:٤٥	صمود المذهب المالكي وبعض أعلامه الكبار بالمغرب الإسلامي في فترات عصيبة	د.عبد العزيز فارح المغرب
١٠:٤٥-١١:٠٠	المصادر الأصولية عند المالكية - دراسة في النشأة والمدونات والخصائص	د. مولاي الحسين الحيان كلية التربية ـ جامعة أم القرى
١١:٠٠ - ١١:٠٣ (الاستراحة)		

الجلسة الثانية عشرة: (١١:٣٠ – ١:٣٠)

رئيس الجلسة: أ.د. أحمد علي طه ريان (كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر)

مقرر الجلسة: أ. محمد عبد الله التمين.

التوقيت	الموضوع	المتحدث
١١:٣٠-١٢:٠٠	على خطى القاضي عبد الوهاب «تعريف بمشروع الفقه المالكي بالدليل»	د. بدوي عبد الصمد الطاهر دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث
١٢:٠٠-١٢:١٥	القاضي عبد الوهاب وسيرته بين العقل والنقل	د. محمد عبد النبي كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة الجزائر
١٢:١٥-١٢:٣٠	فصل الخطاب في سيرة القاضي عبد الوهاب : شخصيته، وعصره، وآثاره	د. ياسين جاسم المحيمد جامعة الإيمان ـ صنعاء
١٢:٣٠-١٢:٤٥	ريادة القاضي عبد الوهاب البغدادي الفقهية أسبابها وآثارها	أ.د. فاروق حماده كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة محمد الخامس - المغرب
١٢:٤٥-١:٠٠	الجوانب العلمية في شخصية القاضي عبد الوهاب، وصور التأليف عنده	د. مصطفى فوضيل معهد الدراسات المصطلحية ـ فاس
١:٠٠-١:١٥	مصنفات وتآليف القاضي وأبرز معالمها وسماتها	أ. د. يوسف الكتاني جامعة القرويين - المغرب

الفترة المسائية

الجلسة الثالثة عشرة: (٥:٠٠ – ٦:٣٠)

رئيس الجلسة: د. أحمد عبد العزيز الحداد

مقرر الجلسة: د. بدوي عبد الصمد الطاهر

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٥:٠٠-٥:١٥	القاضي عبد الوهاب البغدادي ومنهجه في التصنيف الفقهي من خلال كتابيه المعونة والإشراف	أ.د. نزيه حماد كندا
٥:١٥-٥:٣٠	صلات القاضي عبد الوهاب العلمية بمدرسة القيروان وجهوده في خدمتها من خلال شرحه لبعض كتب ابن أبي زيد القيرواني	د.حمزة أبو فارس كلية القانون ـ جامعة الفاتح ـ ليبيا
٥:٣٠-٥:٤٥	القاضي عبد الوهاب البغدادي وأثره في المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي	د. قطب الريسوني معهد العلوم الإسلامية والعربية ـ نواكشوط
٥:٤٥-٦:٠٠	نشأة المدرسة المالكية بالمغرب وصلة القاضي عبد الوهاب البغدادي بها من خلال مصنفات المالكيين المغاربة والأندلسيين	أ. د. إبراهيم القادري بوتشيش كلية الآداب ـ جامعة مولاي إسماعيل ـ مكناس
٦:٠٠-٦:١٥	شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني للقاضي عبد الوهاب البغدادي: دراسة لمضامينه الحجاجية	د.عبد الحميد العلمي كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ فاس
٦:١٥-٦:٣٠	قراءة في شرح القاضي عبد الوهاب لعقيدة ابن زيد القيرواني	د. محمد السرار كلية الشريعة ـ فاس
٦:٣٠ - ٧:٠٠ (الاستراحة وصلاة المغرب)		

الجلسة الرابعة عشرة: (٧:٠٠ – ٩:٠٠)

رئيس الجلسة: المستشار. السيد علي الهاشمي

مقرر الجلسة: د. محمد الأمين ولد محمد سالم

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٧:٠٠-٧:١٥	المنهج الاستدلالي عند القاضي عبد الوهاب من خلال الإشراف والمعونة	د. أحمد عبد العزيز الحداد دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي
٧:١٥-٧:٣٠	منهج القاضي عبد الوهاب في الاستدلال بإجماع أهل المدينة	د. حسان بن محمد فلمبان جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة
٧:٣٠-٧:٤٥	معالم تربوية في فكر القاضي عبد الوهاب البغدادي	أ. كلثم عمر عبيد الماجد دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
٧:٤٥-٨:٠٠	القاضي عبد الوهاب البغدادي: منهجه في الاستدلال وطريقته في الاختيار والترجيح: نصوص مختارة من المعونة	د. الصديق عمر يعقوب كلية الدعوة الإسلامية ـ طرابلس
٨:٠٠-٨:١٥	التنظير الافتراضي في المنهج الفقهي للقاضي عبد الوهاب البغدادي، مظاهر ذلك فيما يتعلق بعلوم الطب من مسائل	د. السيد محمود عبد الرحيم مهران مصر
٨:١٥-٨:٣٠	الجهود المعاصرة في خدمة المذهب المالكي ونشر تصانيفه وذلك من خلال المؤسسات العلمية الحكومية والخاصة	د. الفاتح الحبر عمر جامعة أم درمان الإسلامية ـ السودان
٨:٣٠-٨:٤٥	آراء القاضي عبد الوهاب الأصولية من خلال شرح البرهان للمازري	د. قيس بن محمد الشيخ المبارك السعودية
٨:٤٥-٩:٠٠	موقف القاضي من مناهج الاستدلال بأخبار الآحاد	د. لخضر لخضاري كلية الحضارة والعلوم الإسلامية ـ وهران -الجزائر
٩:٠٠ - ٩:١٥	الاستدلال مصدر من مصادر التشريع في المذهب المالكي	أ. أحمد تيجاني هارون بنين
٩:١٥ - ٩:٣٠	القياس عند القاضي عبد الوهاب البغدادي	د. أحمد جمال الزمزمي السعودية
٩:٣٠ - ٩:٤٥	المدرسة المالكية الأولى - عصر الإمام مالك	د. الحسين آيت السعيد المغرب

يوم السبت ١٩ / ١ / ١٤٢٤ هـ - ٢٢ / ٣ / ٢٠٠٣م

الفترة الصباحية

الجلسة الخامسة عشرة : (٩:٠٠ - ١٢:٠٠)

رئيس الجلسة : أ.د. محمد جميل (كلية الشريعة - أكادير - المغرب)

مقرر الجلسة : أ. محمد العربي بوضياف

التوقيت	الموضوع	المتحدث
٩:٠٠-٩:١٥	طريقة الجدل في الخلاف العالي عند القاضي عبد الوهاب من خلال كتابه «شرح الرسالة»	د. الناجي لمين دار الحديث الحسنية - الرباط
٩:١٥-٩:٣٠	الجهود المعاصرة في خدمة المذهب المالكي	أ. د. سالم محمد مرشان كلية الآداب - جامعة المرقب - ليبيا
٩:٣٠-٩:٤٥	استمداد القوانين الغربية المعاصرة من الفقه المالكي	د. عبد السلام محمد الشريف كلية القانون - جامعة الفاتح - ليبيا
٩:٤٥-١٠:٠٠	دراسة بعض أحكام القانون المدني الليبي ونظائرها في مذهب الإمام مالك - عرض وتحليل	د. جمعة محمود الزريقي محكمة استئناف طرابلس المغرب
١٠:٠٠-١٠:١٥	استمداد القوانين الغربية المعاصرة من الفقه المالكي - تحليل ونتائج	د. إبراهيم عبد الرحمن إبراهيم كلية الشريعة والقانون - جامعة الزعيم الأزهري - السودان
١٠:١٥-١٠:٣٠	القاضي عبد الوهاب أصولياً	د. صبحي محمد جميل كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة
١٠:٣٠-١٠:٤٥	مكانة القاضي عبد الوهاب ودوره في المذهب المالكي	د. عبد الحق حميش كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة
١٠:٤٥-١١:٠٠	المدرسة العراقية - نشأتها، وخصائصها، وأعلامها	د. عبد الفتاح الزنيفي جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء



كلمات
افتتاح المؤتمر



كلمة الافتتاح للأستاذ الدكتور أحمد محمد نور سيف

المدير العام لدار البحوث رئيس اللجنة العليا للمؤتمر
رئيس مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وبعد:

فلقد كان مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة أعظم حدث في تاريخ الأمة الإسلامية، وكانت هجرته منطلقاً للدعوة الإسلامية من عقالها الذي فرضته عليها قوى الكفر والوثنية.

وأصبحت المدينة دار السنة ودار الهجرة، ومعقل الإسلام وقاعدته الكبرى التي انطلقت منها رايات الإسلام تنشر العدل والرحمة بين الناس.

ولقد بدأ الرسول ﷺ بمجرد قدومه ببناء مسجده ليكون المنطلق لهذه الدعوة، وفي هذا المسجد ربى صحابته الكرام مهاجرين وأنصاراً على التراحم والتآخي والبذل والعطاء، والتفاني في خدمة هذا الدين.

وكيف يستطيع أي قائد وزعيم أن يرقى بأمته أعظم درجات الكمال، ويبوئها مقام الريادة والإمامة، إذا لم يراع الفروق الفردية في تربية أبنائه، ومن يَلي مسئوليته.

لذا فقد اعتنى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بأصحابه أعظم عناية، ووجه كل طاقة من طاقات أصحابه الكرام إلى ما خلقت له، فكان يتفرس في كل واحد منهم، ويضعه في المقام الملائم له.

يبني الرجالَ وغيرُهُ يبني القُرى ... شتان بين قرىً وبين رجالِ

واستطاع هذا النبي الكريم والطراز العظيم، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، واختاره وقدمه، وجعله سيد المرسلين، والرحمة المهداة إلى العالمين، والسراج الذي أشرق نوره، فأحيا به الأرض بعد موتها - استطاع أن يخرج أول جيل من خيار هذه الأمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

لقد تربى على يديه أعظم نخبة من الهداة المهديين تلقوا منه الوحيين، وتسامت في ساحته ملكاتهم، وتلقوا في مدرسته، أعظم الدروس، وتأسوا بأقواله وأفعاله وسائر أحواله، واستحقوا بذلك شرف الصحبة، وعلو الرتبة.

ولقد هيأهم رسول الله ﷺ، ليكونوا أمناء على هذا الدين حماة له، كما دربهم على طرق الفهم والاجتهاد في استنباط الأحكام، ليواكبوا ركب الحياة في كل زمان ومكان. وليتذكروا دائماً هم ومَنْ بعدهم أن هذه الرسالة خالدة، وسر خلودها كامن في أحكام راشدة وحلول لمشاكلهم سديدة، تستظل دائماً بهدي الكتاب والسنة النبوية.

وعلى يد هؤلاء الصحب الكرام تربى التابعون، وصار كل خلف صالح يحمل الأمانة عمن سبقه، بعزيمه وصدق واخلاص.

وحين خرج أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة يعلّمون الناس ويفقهونهم في أمر دينهم ودنياهم، نشأت حواضر للإسلام من أؤلئك الصحابة الكرا،م وظهرت في العراق مدرسة تضاهي مدرسة المدينة تأسست على يد عبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب وأنس بن مالك، وآخرين رضى الله عنهم أجمعين.

واحتلت مدرسة المدينة مكانة عظيمة في النفوس، إذ كان بها عدد من كبار الصحابة، ومَنْ عرف بعدهم من كبار التابعين، من الفقهاء السبعة وغيرهم.

وكان الإمام مالك رحمه الله الوريث لهذه المدرسة، والقبلة التي تقصد في الحديث والفقه، وصدق عليه الحديث المشهور: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة».

وصدقت فيه فراسة شيوخه وأقرانه، وظهر مذهبه، وانتشر شرقاً وغرباً، ولم يتهيأ لمذهب من المذاهب هذا الانتشار والاهتمام والتطبيق في حياة صاحبه إلا لعالم المدينة، فقد واصل مسيرته في بلاد الغرب، وعبر مضيق طارق ليستقر في بلاد الأندلس حكما بين الناس.

واستطاع هذا المذهب بما أوتي من مرونة وحيوية أن يلبي حاجات الناس بفضل مجتهديه وعلمائه الأعلام في كل الظروف والأحوال.

وكما يقول المثل: «والفضل ما شهد به العلماء المنصفون من أرباب المذاهب الأخرى».

وأذكر هنا كلاماً للإمام أبي زهرة رحمه الله ـ وهو من اتباع الإمام أبي حنيفة رحمه الله ـ يقول عن سر نمو هذا المذهب وحيويته: لقد كان الاجتهاد في هذا المذهب، مفتوحاً في التخريج لم يغلق، بل لقد قرر فقهاؤه أنه لا يمكن أن يغلق هذا النوع من الاجتهاد.

وفَتْح باب التخريج وحده لم يكن كافياً لذلك النمو وتلك الحيوية التي نجدها في أحكامه، حتى إننا لنقرر غير مجازفين أنه مذهب الحياة والأحياء.

قد اختبره العلماء في عصور مختلفة، فاتسع لمشاكلهم، واختبره علماء القانون في عصرنا الحاضر، فكان مسعفا لهم في كل ما يحتاجون إليه من علاج.

لذلك فإننا نسند ذلك النمو، وتلك الحيوية إلى مجتهديه وكثرة أصوله.

أما المجتهدون، فقد أشرنا إلى مسالكهم «يعني في كتابه».

وأما كثرة أصوله، فإنه أكثر المذاهب أصولاً، حتى إن علماء الأصول من المذهب المالكي، يحاولون الدفاع عن هذه الكثرة.

والأمر لا يحتاج إلى دفاع، لأن تلك الكثرة حسنة من حسنات المذهب المالكي، يجب أن يفاخر بها المالكيون.

وكانت كثرة الأدلة، من شأنها أن تعلو بذلك المذهب، لا أن تخفضه، ومن شأنها أن تجعله مرنا في التطبيق، فلا تضيقه.

وعن قدرة المذهب على تلبية متطلبات الحياة في البيئات المختلفة يقول الشيخ أبو زهرة:

وقد اتسعت الاقطار التي حكمت بالمذهب المالكي، وتباينت أحوالها وأعرافها، ففي الأندلس حيث الحضارة والعمران، وحيث العلم والمدنية وحيث الفلسفة والحكمة كان من فقهاء المذهب المالكي في ذلك المذهب الجليل مَنْ جمع بين الفقه العميق، والفلسفة والحكمة، فهذا ابن رشد الحفيد -حامل لواء الفلسفة في الأندلس، والذي تلقى عنه الأوربيون فلسفة أرسطو، والذي نازل الغزالي عند هجومه على الفلاسفة- كان فقيها ممتازاً من فقهاء المالكية، وله الكتاب القيم في الفقه المقارن المسمى بداية المجتهد ونهاية المقتصد، وكثيرون غيره من فقهاء الأندلس كان لهم في الفقه القدح المعلى، ولهم قدم في الأدب والحكمة وغيرهما.

وان اجتزنا البحر في مضيقه حيث ربض طارق بن زياد، وجدنا المذهب المالكي رابضاً في بلاد المغرب لا ينازعه فيها منازع، وهو فيها مترعرع خصب،

يسن الأحكام للبادية وللجبال ، كما سنها في الأندلس حيث الحضارة وحيث الخصب، وهو يسن للبرابرة حيث كانت بعض الجفوة البدوية، كما سن لأهل الأندلس، حيث كانت النفوس تَرِقّ وتَعْطِف .

ولئن قطعنا الصحراء حتى وصلنا إلى الوادي الخصيب لنجدن مصر بريفها الجميل، ونيلها الوادع، وهنالك نجد المذهب المالكي أيضاً، يصاقب المذهب الشافعي، ويكون له الغلب أحياناً، وللمذهب الشافعي مثله، فالسلطان بينهما يتداول، ولكن المذهب المالكي في الريف أغلب، والشافعي في المدائن أظهر، ثم هنالك في الحجاز تجد المذهب الجليل مقاماً، وكان له في العراق أتباع وإن لم يكن لهم غلب .

في هذه البيئات المختلفة، وفي هذه المنازع المتباينة، وفي هذه الأقاليم المتنائية كان التخريج في ذلك المذهب، فكل عالم ومفت يستنبط من الأحكام ما يتفق مع المصلحة، ويخضع لعرف بلده تحت ظل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولقد استطاع الفقه الإسلامي بكل مدارسه أن يبني للإسلام حضارة عظيمة تتجدد مع مرور الليالي والأيام .

وعلى علماء الإسلام تقع المسئولية في حمل هذا المشعل لتستضي البشرية بنوره وهديه وتسعد بعدله .

ومن هنا نشأتْ فكرة هذا المؤتمر الذي اتخذ من ألفية القاضي عبدالوهاب البغدادي شيخ المالكية في العراق منطلقاً للمدارسة والمداولة والمباحثة في جهاد هذا الإمام الجليل وجهوده، وأثره في الفقه الإسلامي عامة والفقه المالكي خاصة، وتناولِ موضوعاتٍ أخرى مهمة في المذهب، من قبل القاضي ومن بعده، له بها وثيقَ الصلة .

وشعارنا في هذا المؤتمر قول القاضي عبد الوهاب: «إن التقليد لا يثمر علماً ولا يفضي إلى معرفة».

ونطمح أن تتكاتف الجهود وتتعاضد الهمم لاستيعاب مستجدات الحياة في كل جوانبها في ضوء موروثنا الفقهي الكبير، وفي الناس اليوم حاجة ماسة إلى معرفة الأحكام، وبيان الحلال والحرام، وهذا واجب من الواجبات على عاتق دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث في دبي، التي ترجو أن يزيدها الله توفيقاً في النهوض بها، إلى جانب ما تجتهد فيه من تصحيح المسار العلمي وترسيخ الثوابت العلمية والقواعد الفكرية في عصر يموج بالآراء والأفكار.

ونرجو بذلك أن تكون قد حققت ما يُراد منها، شاكرةً في الوقت نفسه راعي الحفل **سمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم نائب حاكم دبي وزير المالية والصناعة حفظه الله** على ما بذله ويبذله في خدمة الإسلام والمسلمين.

وفقكم الله، وسدد على طريق الخير خطاكم. وكلنا شوق لما ستصيرون إليه من قرارات وتوصيات، وحياكم الله وأهلا بكم في دبي.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يوم من أيام دبي

سمو الشيخ حمدان بن راشد وزير المالية والصناعة ، نائب حاكم دبي، راعي المؤتمر.

سعادة الأستاذ الشيخ أحمد محمد نور سيف رئيس المؤتمر

السادة العلماء

الإخوة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يوم من أيام دبي، ولكن قبل أن ندخل في هذا اليوم لا بد أن أحدثكم قليلاً:

قبل ألف عام خرج القاضي عبد الوهاب المالكي من بغداد، وإذا كان الراحلون يعودون إلى أوطانهم فإن عبد الوهاب لم يعد، كان أهله ينتظرون أن يطرق عليهم الباب ذات مساء، ولكن ذلك لم يحصل. وحين طار نبأ رحيله إلى الله في مصر كانت نجوم السماء في بغداد ترمق أهله حزينة معهم، وكانت دجلة تجري والهةً أسفاً على إنسان شفاف طالما أنست بعلمه وأدبه على ضفافها، وكان ضمير الزمان يتفتح ليضم إلى سجله في تلك اللحظات الخاشعة واحداً من أبرز العلماء الذين خدموا العلم والدين. والآن بعد ألف عام يعود القاضي، ليس إلى بغداد ولكن إلى دبي. فاسمحوا لي أن أناجيه قائلاً:

يا سارياً وله في الدار مُتَّسَعُ	**ألا رجعتَ كما الغادون قد رجعوا؟**
خرجتَ تبحثُ عن مأوىً تكون به	**إنْ ضاقَ قلبُك كيف الأرضُ تتسعُ؟**
وهل ترىٰ بدلاً مما تغادرُهُ	**إذا تزاحمَ شوقُ الروحِ والجَزَعُ؟**

الحــرُّ في الدهر مــا ينفكُ يؤلـمُــهُ غبنٌ ويصــدعُــهُ حــزنٌ فــينصــدعُ

وربما جــاءتِ الدنيــا تخــادعُــهُ وكيف مَنْ كان عفَّ النفسِ ينخدعُ ؟

مـضىٰ غـريباً وفي عـينيـه دمـعـتُـهُ حـرّى وقــد نال منه الحــزنُ والولـعُ

فليت شعـريَ عَنْ بغـدادَ مـا فـعلتْ وعن أحـبـائه والأهلِ مـا صنعـوا ؟

إذا تأملتَ في الدنيــا وسـيـرتِهـا أبصــرتَ كـيف ينالُ العـالمَ الوجعُ

رحلتَ تبــحــثُ عن ظلٍ تفيء له تبُثُّ فــيــه من العلمِ الذي منعــوا

وكنتُ أدريكَ لم ترحلْ طواعــيــةً لكنمـا سـاءَكَ التـضـيـيعُ والضَـرَعُ

فـأيُّ شـخـصٍ قليلِ العلمِ قـد رفـعـوا وأيُّ شخصٍ بعيدِ الغورِ قد وضعوا !

تمضي وفي القلبِ همُّ الدِّينِ تحـملُهُ تُريدُ نصــرتَهُ مــا قــادَكَ الطمعُ

مِنْ معشرٍ طلبوا الأُخرى وما التفتوا إلى الـحُطَامِ ومــا ملُّوا ولا نزعــوا

أولئك القـومُ في الأسـحـارِ نزهتُـهُمْ لولاهُمُ كــانتِ الدنيــا بنا تقعُ

غابوا عن الكون في تسبيحِ خالقهم واستـغرقـوا إنْ همُ قـامـوا وإنْ ركـعـوا

إذا تراءتْ لهم في الليل نفـحـتُـهُ سَمَوْا عن الحسِّ في الأذكارِ وارتفعوا

وإن تجلَّتْ مـن الآياتِ قــــدرتُـهُ رأيتَـهم في محـاريبِ الهـدى خشـعوا

أرواحُـهُمْ بعُـرى الرحـمنِ مُـمْسِكَةٌ فمـا استكانوا إلىٰ شيءٍ ولا خضـعوا

هُنا بأرضِ دبيٍّ الخـيـرِ نجـتـمعُ نذاكــرُ العلمَ في حبٍ وننتــفـعُ

ونسـتـعـيـدُ لمجدِ الفـقـهِ أزمنةً مَــرَّتْ ونُسْـمِعُ أهلينا ونسـتَـمِعُ

فـفـاخِـري يا دبيَّ الخيـرِ وابتـهـجي أتى إليكِ شيـوخُ الأرضِ واجتـمعـوا

في مـحـفـلٍ كلُّهُ علمٌ ومـعـرفـةٌ — يـزينـهُ العـمـلُ المبـرورُ والورعُ
ومـرحـبـاً سـادةَ الدنيـا وزينتَـهـا — أنتـمْ هنـا الأهلُ والأحـبـابُ والشِـيَعُ
اخـضـوضلَ العيشُ في إطلالكم وإذا — أيامُنا بكـمُ الأعـيـادُ والجُـمَـعُ
والشكـرُ للشـيـخِ مكتـومٍ وإخـوتـه — فـعـندهُـمْ مـجـدُ أهلِ الدينِ مـرتجعُ
من قـبلُ (راشـدُ) كـان الحقُ غـايتَـهُ — وكـان بـالبـرِ للأهلين يضـطـلعُ
شَقَّ الطريقَ (سـعـيـدٌ) في تبـتُّله — وجـاء (حـمـدانُ) يقـفـوه ويتَّـبعُ
يُسَـاهِرُ النجمَ في فكرٍ لدولتِـه — إذا سـجـا ليلُهُ والناسُ قـد هجـعـوا
يخـاف يومَ ابتـعـاثِ الناسَ مـوقـفَهُ — يومَ القـيـامـةِ حـيـثُ الهـولُ والهلعُ
إذا تـزاحـمـتِ الغـايـاتُ واضطربتْ — وماجَ في الأرضِ أهلُ الأرض واصطرعوا
تـراهُ مُلْتَـفِـتَـاً لله مُـرْتَـغِـبَـاً — كـأنه عن سـوىٰ الرحـمنِ مُنْقَطِعُ
(حمدانُ) والناسُ في ضيقٍ وفي كَدَرٍ — والطامـعـونَ بأهلِ الحقِ قـد طمـعـوا
آمـالُنا جَـمَّـةٌ في بعثِ أمـتنا — وأنتَ صـدرُكَ للآمـالِ يتـسـعُ
وأنتَ في خِـدْمـةِ الإسـلام تعلنُهـا — أنْ هكذا فـاعـملوا لله أو فـدعـوا
مَـرَّ الزمـانُ وكم ناسٍ قـد انقـرضـوا — لكنمـا العلمُ مـذكـورٌ ومنتـجَعُ
وكم ملوكٍ على الدنيـا قـد انطفـأوا — إلا الأُلى خـدمـوا الإسـلامَ قـد لمعـوا
وفي غـدٍ حـينمـا نـأتي وتتـبـعُنا — أعـمـالُنا بين مَنْ مـرُّوا ومَنْ ضَلَعـوا
ترىٰ هنالكَ مـا قـدَّمتَ مـبـتـهـجـاً — إذا تـبـادرتِ الألـطـافُ والخِلَـعُ
تـلقـىٰ الأمـانَ وهـل إلاه مِنْ أملٍ — إذا رأيتَ ذوي التـقـصـيرِ قَدْ فـزعـوا
غـداً لعـمـرُكَ يلقىٰ الناسُ مـا صنعـوا — وثَـمَّ يحـصـدُ أهلُ الزرعِ مـا زرعـوا

فـيـا أحِـبَّـاءَنا والهـولُ مُـقْـتَـحِمٌ   والخطبُ مِنْ جنبـاتِ الأرضِ مندفعُ
مـاذا تُخَـبِّئُ للأوطانِ حـاملةٌ   من الليـالي وماذا خلف ما اقترعوا؟
فَـهَلْ لنا عـودةٌ للهِ رابحـةٌ   وهل سنصنعُ ما الأسلافُ قَدْ صنعوا؟
صلحٌ مع اللهِ لا تعـروهُ شـائبـةٌ   علَّ الغـيـومَ عن الأوطانِ تَنْقَشِعُ
وتُشرقُ الشمسُ بعد الغيمِ صافيـةً   وينقـضي الهمُّ والإرجـافُ والجـزعُ
إذا احـتكمنا إلى القـرآنِ ثانيـةً   فـيـمـا نقـولُ ومـا نأتي ومـا ندعُ
وإن أخـذنا أحـاديثَ النَّبيِّ هدىً   يـهـدي الحـيـاةَ ويجلوها وينطبعُ
هناك تشـمخُ في الآفـاقِ رايتُنا   رفـرافـةً فـوقَ هام المجـدِ ترتفعُ

د. عبد الحكيم الأنيس

كلمة الوفود في افتتاح المؤتمر
ألقاها نيابة عنهم الأستاذ الدكتور محمد الروكي
أستاذ الفقه وأصوله بجامعة محمد الخامس بالمغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه ومصطفاه، وعلى آله وأصحابه وكل من اتبع هداه.

أما بعد: فها نحن اليوم في عرس علمي بهيج، وحفل ثقافي أريج، نلتقي على مائدة البحث والدرس في بلد عزيز آلى على نفسه أن ينهض بالعلم والمعرفة والثقافة الإسلامية، ويضطلع بإحياء تراث أمتنا في مختلف العلوم والفنون، وتجديد فكرها الأصيل، وحضارتها العريقة. نعم نلتقي اليوم في بلد دبي الشقيق الحبيب الذي أخذ على ذمته أن يدفع بالمسيرة العلمية إلى الأمام، ويتجه بها نحو التي هي أقوم وأرشد، ويرفع من مستوى البحث العلمي والدراسات الإسلامية وخدمة التراث إلى المرتقى الصاعد والقمة السامقة، من خلال مؤسساتها العلمية والثقافية، وفي طليعتها دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث التي منذ أن تأسست على هدى من الله وهي تجدّ السير في القيام برسالتها العلمية الجليلة إلى عامة الباحثين وكافة المشتغلين بالعلم الشرعي والمعرفة الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي، وقد استطاعت في وقت وجيز أن تحقق إنجازات علمية كثيرة العدد، عميقة المحتوى، شرَّفت وجه البحث العلمي، وأشرق بنورها تراثنا الإسلامي النفيس، تحقيقاً ودراسة وتكشيفاً وإخراجاً، ولاسيما ما يتصل من ذلك بالمذهب المالكي أصولاً وفروعاً ومدارس وأعلاماً وكتباً ومصطلحات وغير ذلك.. فقد اعتنت بذلك غاية الاعتناء، وأحسنت فيه أيما إحسان، وصار لها

بفضل جديتها وإخلاصها وعملها الدؤوب إشعاع علمي حضاري منتشر في الآفاق، نافذ إلى الأعماق، قائم على ترسيخ قواعد الفكر الراشد، الذي يهتدي بنور القرآن الكريم وهدي السنة النبوية، ويهدي إلى الحكمة والاتزان والاعتدال، مدعومةً في ذلك بالمساندة المادية والمعنوية التي تمدها بها حكومة دبي، وعلى رأسها سمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم حاكم دبي سندُها المتين وراعيها الأمين، ونائبه وزير المالية والصناعة سمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم الذي لم يقصر في تقديم يده لها، وحَدَبِه عليها، وتيسير السُبل أمامها. ولا أدل على ذلك من هذا المؤتمر العلمي المتميزَ الذي نشهد اليوم انتظام عقده، والتئام شمله، فقد بذلت الدار في إعداده جهداً مشكوراً، وسعياً مأجوراً، وعملاً مبروراً. ووفقت غاية التوفيق في اختيار موضوعه العلمي، حيث اتجهت عنايتها فيه صوب المدرسة المالكية بالعراق من خلال إمامها وشيخها القاضي عبد الوهاب البغدادي الذي انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في زمانه. وهو اختيار لعمري سديد، صادف محله وناسب زمانه ومكانه، فقد كان للمذهب المالكي وجود قوي بالعراق، ولاسيما في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، دام مدة غير يسيرة، كان جزء منها - وهو أزيد من قرنين - قمة في النضج والازدهار وظهور الأئمة المجتهدين في ضوء أصول المذهب المالكي، كالقاضي إسماعيل (ت٢٨٢هـ) وأبي بكر الأبهري (ت٣٧٥هـ) وابن القصار (ت٣٩٨هـ) وابن الجلاب (٣٩٨هـ) والقاضي الباقلاني (٤٠٣هـ) وخاتمتهم القاضي عبدالوهاب البغدادي (ت٤٢٢هـ) الذي آلت إليه حصيلة ما تناقلوه من المعارف الشرعية والعلوم الإسلامية والإرث الفقهي. وقد شهد له بالإمامة الفقهية والفحولة العلمية جماعة من العلماء من شتى المذاهب في مختلف الأعصار والأمصار من ذلك شهادة أبي بكر الباقلاني فيه حين قال مخاطباً أبا عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ): «لو اجتمعتَ في مدرستي أنت وعبدُ الوهاب بن نصر لاجتمع فيها

علم مالك، أنت تحفظه وهو ينصره، لو رآكما مالك لسُرَّ بكما»[١]. ومنها شهادة الحافظ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) فيه بقوله: «وكان ثقة، ولم نلق من المالكيين أحداً أفقه منه، وكان حسن النظر جيد العبارة»[٢]. ومنها قول ابن حزم الظاهري في معرض ثنائه على الباجي: «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثلُ أبي الوليد الباجي لكفاهم»[٣]. فأقر للقاضي عبد الوهاب بالإمامة في الفقه وجعله مقدماً. وحلاَّهُ الحافظ الذهبي بالإمام العلامة شيخ المالكية[٤]. واعتبره ابن الأثير صاحب (جامع الأصول) من الذين جددوا للأمة دينها على رأس المائة الرابعة[٥]. كما صنفه السيوطي ضمن المجتهدين[٦].

وقد تجاوزت الإشادة به حيز الفقه والاجتهاد وحذق العلوم الشرعية، إلى الإشادة به في الأدب والشعر، وجاء ذلك من أبناء بجدتها وبُراةِ أقواسها، فقد قال فيه أبو العلاء المعري[٧]:

والمالكي ابن نصر زار في سفرٍ بلادنا فحمدنا النأي والسفرا

إذا تفقه أحيا مالكاً جَدَلاً وينشر الملك الضليل إن شعرا

وصنفه ابن بسَّام ضمن الأدباء والشعراء المشهود لهم بالفضل وحسن الصنعة[٨].

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض: ٧/٢٤٦.
(٢) تاريخ بغداد: ١١/٣١.
(٣) نفح الطيب للمقري: ٢/٦٨-٦٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٧/٤٢٩.
(٥) نقلاً عن المعيار للونشريسي: ١٠/٩.
(٦) حسن المحاضرة: ١/١٤١.
(٧) انظر الذخيرة لابن البسام: القسم الرابع ص٥١٦.
(٨) الذخيرة: قسم ٤/٥١٥.

وإلى جانب هذه الشهادات والإشادات فكتبه مؤكّدة مصدّقة، وإن كان جزء كبير منها ما بين ضائع ومفقود، لكن ما وصلنا منها يكفي للدلالة على إمامته وجدارته العلمية والفقهية، وقد سبق لدار البحوث أن اعتنت ببعضها كـ«الإشراف»، حيث أصدرت تخريج أحاديثه وآثاره إصداراً أنيقاً، وهو بعنوان «الإتحاف بتخريج أحاديث الإشراف».

وهذا المؤتمر العلمي الذي سعت دار البحوث إلى تنظيمه، وسهرت على إعداد أعماله، وانتقاء عيون ما قُدم فيه من أبحاث، يعتبر إنجازاً علمياً رائداً في بابه، ولا شك أنه سيسدّ فراغاً في المكتبة الفقهية المالكية بما سيكشف عنه من كنوز الأمة الإسلامية وذخائرها العلمية وتراثها الفقهي في المدرسة المالكية العراقية عموماً، وفقه إمامها القاضي عبد الوهاب على وجه الخصوص، وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم وهي تعيش نهضتها العلمية وصحوتها الإسلامية، باحثةً عن أصول ذاتها ومقومات حضارتها، ما أحوجها إلى مثل هذه الموضوعات العلمية الأصيلة التي تربطها بمنابع حياتها ومناهل ثقافتها. وتجدد صلتها بعناصر قوتها، ومادة أمجادها.. ما أحوجها إلى مثل هذه الأعمال العلمية الرصينة التي تصل الحاضر بالماضي العريق وتبعث الثقة في النفس، وتحيي الأمل في القلب وتذكي القوة في الفكر، فيتجه منتفضاً لتصحيح واقع الذات، وتقويم وضعها، وبناء مستقبلها في ضوء القيم الحضارية الراشدة، والعروج به إلى المرتقى العالي والقمة الصاعدة.

نسأل الله تعالى أن يديم توفيقه على هذه الدار، وأن يبارك في جهودها وخُطاها، وأن يمدها بعونه حتى تتوسع أكثر، ويكون ما بيدها أغزر، فتتمَّ إنجاز مشروعها الحضاري الواسع في ضوء منهجها الراشد الحكيم.

والحمد لله رب العالمين.

كلمات

ختام المؤتمر

كلمة الختام للأستاذ الدكتور أحمد محمد نور سيف

المدير العام لدار البحوث رئيس اللجنة العليا للمؤتمر
رئيس مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية - دبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تتم به الصالحات ، وبفضله تُدرك الغايات ، وبتوفيقه ينال العبد ما يؤمله ويرجوه من الخيرات .

نحمدك اللهم حمداً يوافي نعمك ويكافىء ما أوليتنا من واسع بِرِّك وفضلك .

أيُّها السادة الحضور :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لا يسعني في ختام هذا الملتقى الكريم الذي كرمتمونا فيه بحضوركم ومشاركاتكم، وما قدمتموه من علمكم وتوجيهاتكم السديدة ، وما أثريتم به هذا الملتقى من طرح مفيد ومعالجات قيمة ، وإسهامات كريمة ، كان لها الأثر الكبير في إنجاح هذا المؤتمر وإعانته على أداء المهمة التي أقيم من أجلها، إلا أن أقدم لكم وافر التحية وجزيل الشكر والعرفان .

ولا يفوتني في هذا الموقف أن أتوجه بالشكر والامتنان لحكومة دبي وعلى رأسها حاكم دبي الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم ، وأخيه الشيخ حمدان ابن راشد آل مكتوم نائب حاكم دبي ، والشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ولي عهد دبي والأسرة الكريمة من آل مكتوم ، على ما أولوه ويولونه من كريم العناية

وعظيم الرعاية لخدمة الإسلام والمسلمين ، متمثلاً ذلك في أعمال يفوقها الحصر والعد في هذا المقام ، وما يقدمونه لهذا البلد من أسباب التقدم والعلم ومواكبة العصر في سائر المجالات .

ويأتي هذا المؤتمر العلمي الأول في دبي برعاية الشيخ حمدان بن راشد حفظه الله حلقة جديدة ومفخرة عظيمة من مفاخر هذه الأسرةَ التي آلت على نفسها إلا أن تقدم للنَّاس عامة والعرب والمسلمين خاصة، كل جديد ومفيد ، وأن تسعى إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين .

ولا شَكّ أن القيادة الحكيمة لهذه البلاد على يد الشيخ زايد بن سلطان، وضعت هذه البلاد في مصاف الدول التي تنشد العدل وتساند الحق وتسعى في رفعة الإسلام والمسلمين .

كما لا يفوتني أن أتوجه بجزيل الشكر لكلٍّ مَنْ أسهم في إقامة هذا المؤتمر وإنجاح مهمته على الصورة اللائقة التي نلمس آثارها الطيبة على وجوه السادة المشاركين والضيوف والشخصيات البارزة التي مثلت بلادها في هذا الحفل الكبير .

والله نسأل أن يكلل المساعي بالفلاح والرشاد وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على خير خلقه النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

كلمة الوفود في ختام المؤتمر
ألقاها نيابة عنهم فضيلة الدكتور السيد محمد بن علوي المالكي
من علماء مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمَّا بعد :

﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ .

ولا شَكَّ عندنا في أنَّ مجالسَ الذكر في الدنيا هي روضة من رياض الجنَّة ، وأن الواجب على الإنسان أن يلتفت إليها بكل ما أوتي من قوة ، وأن ينال منها ما يتيسَّر له على قدر همته ونشاطه ، وأهليته واستعداده ، لما جاء في الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » .

فنحن نعتقد أن حلقات العلم وندواته ومدارسه التي تدار فيها مذاكراته ومناقشاته ومطارحاته هي من مجالس الذكر ، خصوصاً إذا انضمت إليها النيات الصالحة التي تقلب المباحات إلى طاعات ، وتوصل العبد إلى روضات الجنات ، ولقد عشنا في هذا الأسبوع دارسين متذاكرين متعلمين مستفيدين من ثمرات هذا العلم النافع المبارك ، وفي بركات هذا الإمام العظيم القاضي عبد الوهّاب البغدادي رحمه الله رحمة واسعة ، وهو أكبر دليل على اتصال عمل هذا الإمام العظيم إلى عصرنا الحاضر وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا غرابة في هذا بعد أن جاء في الحديث : « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ... » ،

أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم . وكم كان القاضي عبد الوهاب رحمه الله نافعاً لأمته ؟! لا فيما قدمه من بحوث وكتب ورسائل، أو عَلّمه من علم، أو تركه من تراث، أو دعا إليه من فضيلة فحسب ، بل إنّه يتعدى ذلك إلى أنّه كان سبباً للأطروحات والبحوث العلمية التي نالها من نالها بفضل الله ، ثم بفضل القاضي عبد الوهاب ، دراسةً وتحقيقاً وتأليفاً ومقارنةً وتعليقاً وتحليلاً لمؤلفاته وتراثه العظيم ، والتي كانت قنطرة لأصحابها في الوصول إلى ما حُرم منه القاضي عبد الوهاب في حياته الدنيا من مناصب ومراتب ومنح وتحف ورواتب دنيوية وشهادات علمية وألقاب فاخرة كبيرة ، وكلها في الحقيقة على حساب القاضي عبد الوهاب الذي حرم من هذا الخير الدنيوي ، وهو القائل (لما عشنا متنا) ، وهو القائل لأهل بغداد : (لو ضمنوا لي كسرة خبز كل يوم ما خرجت منها، أو كما قال :

يا لهف نفسي على شيئين لو جمعا   عندي لكنت إذن من أسعد البشر

كفاف عيشٍ يقيني كل مسألةٍ   وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

وصدق القائل حين قال :

كم عالم عالمٍ ضاقت مذاهبه   وجاهل جاهلٍ تلقاه مرزوقا

هذا الذي جعل الألباب حائرة   وصير العالم النحرير زنديقا

هذا إذا لم يُسَلِّم لله تعالى .

لقد وُفِّقَتْ دار البحوث للدراسات الإسلامية بدبي حيث اختارت شخصية الإمام الجليل المجدِّد المجتهد القاضي عبد الوهاب المالكي البغدادي ليكون منطلقاً للمؤتمر الأول .

ودليل هذا التوفيق ؛ كثرةُ البحوث المشاركة ، حيث وصلت إلى ستة وثمانين بحثاً ؛ وكثرةُ الرغبات المشاركة ، حيث وصلت إلى قريب من ثلاثمائة رغبة للمشاركة من أصقاع العالم الإسلامي ، ونوعيةُ المشاركين من كبار العلماء والفقهاء والباحثين الذين لهم باع طويل وقدم راسخ في مجال البحث والتحقيق .

ثم اجتماعُ الشيوخ والشباب من العلماء المشاركين القادمين من المشرق والمغرب تلبية لدعوة دار البحوث الموقرة ، وهو دليل على بعد نظرها ورغبتها في توسيع دائرة العمل العلمي والبحثي والدَّعَويِّ، وفسح المجال أمام الشباب . . يأخذون دورهم في خدمة أمتهم وخدمة حضارتهم .

وإنِّي باسم الإخوان المشاركين والضيوف الحاضرين، أتقدم بالشكر الجزيل لدولة الإمارات العربية المتحدة عامة ولحكومة دبي خاصة ، وعلى رأسها صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم ، وأخواه سمو الشيخ حمدان ابن راشد آل مكتوم ، وسمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم .

والشكر الخاص لسمو الشيخ حمدان بن راشد لرعايته لهذا المؤتمر ، وحضوره لحفل الافتتاح وحفل تسليم المصحف الكريم ، وهي لفتة كريمة ليست بغريبة منه ، بل هو يراها من الواجبات تدل على حبِّه للعلم والعلماء، ورغبته الأكيدة في خدمة الدين والنهوض بأمر المسلمين .

والشكر الخاص الموفور إلى حضرة أخينا العلامة الأستاذ الدكتور الشيخ أحمد بن مولانا العارف بالله شيخنا الشيخ محمد نور سيف ، الشكر له على جهوده في هذه الميادين العلمية والدعوية ، وإلى العاملين معه في اللجان الإدارية

والتنظيمية ، أهنئهم على تنظيمهم وضبطهم للأمور ورعايتهم للضيوف، وسعة خاطرهم وحلمهم وصبرهم على ما قد يصدر من الضيوف في هذا الباب ، مما قد يقع عادة في مثل هذه التجمعات .

وحفظ الله ديار المسلمين من كل سوء ، وكف عنَّا أذى المعتدين وكيد الكائدين وبغي الباغين ، وصَلَّى الله وسَلَّم على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

البيان الختامي للمؤتمر
ألقاه الدكتور عبد الله بشير محمد البشير الأمين العام للمؤتمر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فتحت رعاية سمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم نائب حاكم دبي وزير المالية والصناعة، وبرئاسة فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد بن الشيخ محمد نور سيف مدير عام دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث رئيس مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي، انعقد المؤتمر العلمي الأول لدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث عن : [القاضي عبدالوهاب المالكي شيخ المدرسة المالكية بالعراق]، وذلك في الفترة من ١٣-٩ محرم ١٤٢٤هـ الموافق ١٦-٢٢ مارس ٢٠٠٣م، وبحضور جمع غفير من فقهاء المسلمين والعلماء المهتمين بالدراسات الإسلامية في العالم، وقد تناول المؤتمر قضايا فقهية مهمة من خلال دراسة فقه القاضي عبد الوهاب وشخصيته العلمية وأثرها في الفقه المالكي، حيث قدم العلماء والباحثون أكثر من [١٨١] بحثاً، أجيز منها بعد التحكيم العلمي [٨٦] بحثاً، موزعة على مختلف محاور المؤتمر.

وقد أُثريت هذه البحوث بالعديد من المناقشات والمداخلات العلمية المفيدة، التي أعطت المؤتمر مزيداً من الحيوية والثراء العلمي .

وقد انتهى المؤتمر إلى التوصيات التالية :

أولاً: توصيات عامة:

١- نظراً للظروف الصعبة التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية، يناشد المشاركون في المؤتمر العالم الإسلامي دولاً وأفرادا تقديم العون السياسي والمادي والمعنوي للشعب الفلسطيني حتى يتم تحرير أرضه، والشعب العراقي حتى يتجاوز محنته.

٢- دعوة الأمة الإسلامية لتوحيدكلمتها، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾، ولتجاوز خلافاتها في هذه الظروف الحرجة التي تردت فيها أحوالها بصورة محزنة.

٣- إطلاق حرية الكلمة المخلصة للأمة وفق الضوابط الشرعية، فهي كفيلة أن تهيئ أجواء التفاهم بين أفراد الأمة وولاة أمرها، فتُسد الثغرات والفجوات، ويُقضى على الفتن والأحقاد.

٤- تقوية جسور التواصل العلمي بين دار البحوث ومختلف المراكز العلمية التي تهتم بالعلوم الفقهية والدراسات الإسلامية في مختلف أنحاء العالم.

٥- عقد مؤتمرات علمية للاهتمام بالقضايا الفقهية المعاصرة التي تهم المسلمين، وتمس حياتهم، والنظر فيها نظرة اجتهادية مبنية على اعتبار الواقع المعاصر، ومآلات الأفعال في إطار المقاصد الشرعية، وتحقيق التقارب بين وجهات النظر.

٦- أن يكون لدار البحوث مؤتمر علمي دوري، تعضيدا للمجامع العلمية، وتنويراً للمجتمع.

٧- يحيي المؤتمرون الدعم الموصول من حكومة دبي لدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث للقيام بأعمالها وتحقيق أهدافها المرسومة.

٨- ينوه المؤتمرون بالجهود العلمية لدار البحوث في إحياء التراث وتحقيقه ونشره، وبما أسدت إصداراتها من إثراء علمي عميق سد فراغاً كبيراً في الساحة العلمية على مستوى العالم الإسلامي.

ثانياً: توصيات خاصة:

١- العناية بالفقه المالكي الذي هو المذهب الأول في الدولة، وذلك بالبحث عن نفائسه التي لا تزال باقية في الكثير من خزائن المخطوطات في العالم، من أجل تحقيقها ونشرها والإفادة منها.

٢- العناية بخدمة المذهب المالكي بالدليل، سواء أكان ذلك بتحقيق كتب متقدمي المالكية ونشرها - خصوصاً التي تعنى بالدليل - أم بتأليف كتب جديدة تعنى بهذا الجانب.

ومن هنا فإن المؤتمر يُشيد بالمشروع الذي تبنته الدار في خدمة المذهب المالكي بالدليل آملاً مواصلة السير فيه.

٣- الاعتناء بتراث القاضي عبد الوهاب - دراسة وتحقيقاً ونشراً - بعد أن أثبتت الدراسات أهميته، وذلك بإخراجه بشكل موسوعي، مع الاعتناء بمؤلفات المدرسة المالكية في العراق.

٤- العناية بأصول الفقه المالكي، وذلك بإخراج كتبه والتعريف بأعلامه ومدوناته ومصطلحاته.

٥- الاهتمام بعقيدة أهل السنة والجماعة ودحض الشبهات المعاصرة حولها.

وفي الختام فإن المشاركين في هذا المؤتمر من علماء وفقهاء وباحثين يتوجهون بخالص الشكر وجزيل الامتنان لحكومة دبي، وعلى رأسها صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، وسمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم نائب حاكم دبي، وسمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ولي العهد، حفظهم الله ورعاهم.

وإن المؤتمرين يتقدمون ببالغ الامتنان لسمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم لرعايته واستضافته هذا المؤتمر، ودعمه المتواصل لدار البحوث الإسلامية، وجهوده المميزة في أعمال الخير، كما يتوجهون بالشكر الجزيل لدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث التي سهرت على المؤتمر إعداداً وتنظيماً، وعلى رأسها سماحة الشيخ الأستاذ الدكتور أحمد بن الشيخ محمد نور سيف، مدير عام دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، رئيس المؤتمر، ويدعون الله تعالى أن يفرّج عن الأمة الإسلامية ويجنبها الويلات والمحن، وأن يوحدها على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفقه الأئمة المجتهدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

على ثنيات الوداع

سعادة شيخنا مهندس هذا المؤتمر، ومَنْ لبركة إخلاصه الفضل - بعد الله - في نجاحه وتألقه، الأستاذ الدكتور أحمد محمد نور سيف.

السادة العلماء المشاركون.

الإخوة الحضور.

أولاً ثلاث كلمات للتاريخ.

القاضي عبد الوهاب:

قَـدْ كـان شـيخُ المالكيـةِ في الورىٰ ... في العلم والتـقـوىٰ بغـيـرِ خـلافِ
رَحَـمَـاتُ ربٌ الكون تملأ قَـبْـرَهُ ... بالنُّورِ والبـركـاتِ والألطافِ

دبي:

والشكرُ مـقـروناً بخـيـرِ تحـيـةٍ ... لـ «دبي» في هذا العطاءِ الضافي
أرضٌ تجـودُ بلا حـسـابٍ قـصـدُها ... نشـرُ الثـقـافـةِ مِنْ مـعينٍ صـافِ
فـاللهُ يُحْـسِـنُ بالعطاء جـزاءَها ... كَـرَمـاً ويُضْـعِفُ بذلها ويُكافي

دار البحوث:

ويُديم من «دار البـحـوث» منارةً ... تهـدي سـبـيلَ الحقِ والإنصـافِ

ولراعيها الدؤوب الصامت:

ويطيلُ عُـمْـرَ الشـيخِ أحـمـدَ سـالماً ... ويُعـيـنُهُ في جُـهْـدِهِ ويُعـافي
ويزيدُ في عَـزَمـاته وجـهـادِهِ ... أبداً ويَـجْـزِيهِ الجـزاءَ الوافي

على ثنيات الوداع

السادة العلماء .

الإخوة الحضور:

أَزِفَ التــــودُّعُ والفــــراقْ　　والجـــمعُ آذن بافـــتـــراقْ

حــزمــوا حــقــائبَــهم ضــحىً　　والــركـــبُ أزمــع لانــطـــلاقْ

يـا زيـنـةَ الـدنـيــــا لَـقَــــدْ　　عــــشـنـا بـكـمْ أحـلـى تـلاقْ

أنـواركُـمْ شــــعَّـتْ هـنـا　　والـعـــمـــرُ طابَ بـكـم وراقْ

ســعـــدتْ دبيٌّ بـكم وقَـــدْ　　عــاشتْ لَيَــالِيَـــهــا الرّقـــاقْ

تـاهـتْ بـظـلٍّ وجــــودِكـم　　وتـألـقـتْ أسـنـى ائـتــــلاقْ !

والآن إذ أنـــســتْ بِـــكُــمْ　　أرواحُـنـا حـــانَ الفـــراقْ !

الآن إذْ أوطـــانُــنـــا　　ثـكـلـىْ ومـــدمــعُـنا يُـراقْ !

الآن تـنـوون الـرحـــيـــلَ　　أهـكـذا عـــهــد الرِّفـــاقْ؟

بـــالله إنْ شَـــطَّـتْ مـــنــا　　زِلْـنا ورحـبُ الـصــبــرِ ضــاقْ

بـالله لا تـنـســـــوا دبـيَّ　　ولا الـلـقــــاءَ ولا الـعــــراقْ

د. عبد الحكيم الأنيس

٢١/٣/٢٠٠٣م

بحوث الملتقى

دليل بحوث الملتقى
بالترتيب الموضوعي



المحور الأول
مدارس المذهب المالكي بين ملامح مدرسته الأولى وخصائص المدرسة العراقية

القسم الأول: المدرسة المالكية الأولى وبعض المدارس الأخرى

١- المدرسة المالكية الأولى - عصر الإمام مالك، د. الحسين آيت سعيد.

٢- السمات المميزة لرجال المدرسة المالكية الأولى في المدينة المنورة وأثرها في المدارس اللاحقة. أ. د. أحمد علي طه ريان.

٣- المدرسة المالكية بأفريقية في عهد سيادة القيروان. أ. د. محمد أبو الأجفان.

٤- نشأة المدرسة المالكية بالمغرب والأندلس وعلاقة القاضي عبد الوهاب بأعلامها. الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش.

٥- المدرسة المالكية بصقلية: تاريخها، وأعلامها، وعلاقتها بالمدرسة البغدادية. الأستاذ سعد بنيحيى.

٦- مدرسة المغرب الأقصى في الفقه الإسلامي، ومظاهر استمدادها من المدرسة الأولى. الدكتور مصطفى أحمد علي القضاة.

القسم الثاني: المدرسة المالكية بالعراق وصلاتها بالمدارس الأخرى

١- المدرسة الفقهية المالكية بالعراق: عوامل نشأتها، أبرز أعلامها، خصائصها ومميزاتها. الدكتور عبد المنعم التمسماني.

٢- المدرسة المالكية العراقية: النشأة والمميزات. الأستاذ الدكتور حميد لحمر.

٣- المدرسة المالكية العراقية: نشأتها، خصائصها، أعلامها. الدكتور عبد الفتاح الزنيفي.

٤- مراحل تأسيس المدرسة الفقهية المالكية بالعراق ومميزاتها. الأستاذ مختار بن عبد الرحمن نصيرة.

٥- المراتب العلمية والإدارية لمؤسسي المدرسة المالكية بالعراق. الاستاذ الدكتور عزت علي عيد عطية.

٦- السمات الأساسية للمدرسة المالكية بالعراق، ومظاهر الالتقاء والافتراق بينها وبين المدارس المالكية الأخرى. الأستاذ الدكتور محمد حسين قنديل.

٧- الجدل الفقهي عند مالكية بغداد. الدكتور محمد العلمي.

٨- ملامح الحوار المذهبي في الفكر الفقهي والأصولي عند فقهاء مدرسة مالكية العراق. الأستاذ الدكتور رضوان بن غربية.

٩- التأثير المتبادل بين المدرسة المالكية بالعراق والمدرسة المالكية بالقيروان. الدكتور نعيم عبدالعزيز الكثيري.

١٠- صلاة القاضي عبد الوهاب العلمية بمدرسة القيروان، وجهوده في خدمتها من خلال شرحه لبعض كتب ابن أبي زيد. حمزة أبو فارس.

١١- القاضي عبد الوهاب البغدادي وأثره في المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي. د. قطب الريسوني.

١٢- أسباب تعدد المدارس في المذهب المالكي، وأهم مميزات المدرسة البغدادية. الأستاذ الحبيب ابن طاهر.

المحور الثاني
الدراسات الشخصية والعلمية للقاضي عبد الوهاب

ويتمثل في قسمين:

- القسم الأول: عصره، سيرته، مكانته العلمية

عصره وسيرته:

١- عصر القاضي عبد الوهاب البغدادي السياسي والاقتصادي والعلمي. الأستاذ الدكتور محمد أمحزون.

٢- عصر القاضي عبد الوهاب البغدادي وأحواله السياسية والاقتصادية والعلمية، ومدى تأثيرها في بناء شخصيته العلمية. الدكتور سالم بن محمد القرني.

٣- فصل الخطاب في سيرة القاضي عبد الوهاب: شخصيته، عصره، آثاره. الدكتور ياسين جاسم المحيمد.

٤- القاضي عبد الوهاب وسيرته بين العقل والنقل. الدكتور محمد عبد النبي.

٥- القاضي عبد الوهاب: نظرات في حياته. الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي.

٦- هجرة القاضي عبد الوهاب من بغداد إلى مصر. الدكتور عبدو بن علي الحاج.

مكانته العلمية ومصنفاته:

١- الدراسات الشخصية والعلمية للقاضي عبد الوهاب البغدادي. الدكتور صالح بن عبدالله الظبياني.

٢- الجوانب العلمية في شخصية القاضي عبد الوهاب وصور التأليف عنده. الدكتور مصطفى فوضيل.

٣- مكانة القاضي عبد الوهاب ودوره في المذهب المالكي. عبد الحق حميش.

٤- كتب القاضي عبد الوهاب البغدادي ومؤلفاته، وأبرز معالمها وسماتها. الأستاذ الدكتور يوسف الكتاني.

٥- تراث القاضي عبد الوهاب البغدادي عند المغاربة والأندلسيين. الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي.

٦- مصنفات القاضي عبد الوهاب البغدادي حلقة وصل بين علماء المشرق والمغرب. الأستاذ الدكتور إدريس الخرشافي.

٧- رصد مسار وصدى كتب القاضي عبد الوهاب البغدادي في الغرب الإسلامي. الدكتور محمد الوثيق.

القسم الثاني: الجوانب العلمية للقاضي عبد الوهاب

الجانب العقدي:

١- شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني للقاضي عبد الوهاب: دراسة لمضامينه الحجاجية. الأستاذ الدكتور عبد الحميد العلمي.

٢- قراءة في شرح القاضي عبد الوهاب لعقيدة ابن أبي زيد القيرواني رحمهما الله. الدكتور محمد السرار.

الجانب الأصولي:

١- الفكر الأصولي عند القاضي عبد الوهاب البغدادي. الدكتور عمر بن صالح بنعمر.

٢- آراء القاضي عبد الوهاب البغدادي الأصولية من خلال شرح البرهان للمازري. الدكتور قيس المبارك.

٣- دعائم الفكر الأصولي للقاضي عبد الوهاب البغدادي. الأستاذ الدكتور محمد السيد الدسوقي.

٤- منهج القاضي عبد الوهاب في توظيف المصطلح الأصولي من خلال كتابه الإشراف. الأستاذ الدكتور العربي البوهالي.

٥- مصادر الاستدلال ومنهجه لدى القاضي عبد الوهاب البغدادي من خلال كتابيه الإشراف والمعونة. الدكتور عبد الرحمن بن عبد الله الشعلان.

٦- منهج الاستدلال والنقد والترجيح عند القاضي عبد الوهاب من خلال أهم مؤلفاته. الأستاذ الدكتور محمد جميل.

٧- المنهج الاستدلالي عند القاضي عبد الوهاب البغدادي من خلال كتابيه: الإشراف والمعونة. الدكتور أحمد عبد العزيز الحداد.

٨- القاضي عبد الوهاب البغدادي ومنهجه في الاستدلال، وطريقته في الاختيار والترجيح - منتخبات من مصنفه المعونة: نصوص وتحليلات -. الدكتور الصديق عمر يعقوب.

٩- المنهج الاستدلالي للقاضي عبد الوهاب من خلال كتابيه: الإشراف والمعونة، الأستاذ علي ميهوبي.

١٠- دراسات في منهج القاضي عبد الوهاب البغدادي الاستدلالي من خلال كتابيه: الإشراف والمعونة، الأستاذ الدكتور حمدي عبد المنعم شلبي.

١١- القاضي عبد الوهاب البغدادي دراسة منهجه الاستدلالي من خلال كتابيه: الإشراف والمعونة. الأستاذ الدكتور محمد عبد الغفار الشريف.

١٢- موقف القاضي عبد الوهاب البغدادي من مناهج الاستدلال بخبر الواحد. الدكتور أبو عبدالرحمن لخضر لخضاري.

١٣- القياس عند القاضي عبد الوهاب البغدادي. الدكتور أحمد الزمزمي.

١٤- منهج القاضي عبد الوهاب في الاستدلال بعمل أهل المدينة: دراسة نظرية وتطبيقية. الدكتور أبو بكر كافي.

١٥- منهج القاضي عبد الوهاب البغدادي في الاستدلال بإجماع أهل المدينة. الدكتور حسان فلمبان.

١٦- المقاصد الشرعية عند القاضي عبد الوهاب البغدادي. الدكتور نور الدين مختار الخادمي.

الجانب الفقهي:

١- ريادة القاضي عبد الوهاب البغدادي الفقهية: أسبابها وآثارها. الأستاذ الدكتور فاروق حمادة.

٢- طريقة الجدل في الخلاف العالي عند القاضي عبد الوهاب البغدادي من خلال كتابه شرح الرسالة. الدكتور الناجي لمين.

٣- التقعيد الفقهي عند القاضي عبد الوهاب من خلال كتابه المعونة: القواعد المميزة للفقه المالكي نموذجاً. الدكتور عبد الله الهلالي.

٤- التنظير الافتراضي في المنهج الفقهي للقاضي عبد الوهاب البغدادي - مظاهر ذلك فيما يتعلق بعلوم الطب من مسائل. الدكتور السيد محمود عبد الرحيم مهران.

٥- ظاهرة الانتصار للمذهب عند القاضي عبد الوهاب من خلال كتابه المعونة - دراسة في الأسس العلمية والمقومات المنهجية. الدكتور محمد المصلح.

٦- القاضي عبد الوهاب البغدادي ومنهجه في التصنيف الفقهي من خلال كتابيه: المعونة والإشراف. الاستاذ الدكتور نزيه حماد.

٧- أثر القاضي عبد الوهاب على الدرس الفقهي المالكي بالغرب الإسلامي. الأستاذ الدكتور إدريس السفياني.

الجانب الأدبي والتربوي:

١- القاضي عبد الوهاب بن نصر أديباً شاعراً. الأستاذ الدكتور عباس محجوب.

٢- القاضي عبد الوهاب البغدادي شاعراً. د. وائل علي السيد.

٣- القاضي عبد الوهاب شاعراً. الأستاذ الدكتور محمد مصطفى بن الحاج.

٤- معالم تربوية في فكر القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي. الأستاذة كلثم بنت عمر عبيد الماجد.

المحور الثالث
دراسات علمية في المذهب المالكي

دراسات أصولية:

١- منهجية الإمام مالك الأصولية: الخصائص والآثار. الدكتور محمد بن حمادي التمسماني.

٢- المصادر الأصولية عند المالكية: دراسة في النشأة والمدونات والخصائص. الأستاذ الدكتور مولاي الحسين بن الحسن الحيان.

٣- الاستدلال مصدر من مصادر التشريع في المذهب المالكي. الأستاذ أحمد تيجاني هارون.

٤- هل المصالح المرسلة من خصائص المذهب المالكي. الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

٥- أهمية إجماع أهل المدينة في المصادر الأصولية عند المالكية، مع نماذج تطبيقية. الدكتور جمال محمد فقي رسول.

٦- التصنيف الأصولي عند المالكية: دراسة وتحليل. الدكتور عبد الجليل زهير ضمرة.

دراسات تشريعية وفقهية:

١- الفقه المالكي بين التدليل والتجديد - نحو منهج معاصر للإصلاح المذهبي. الأستاذ محمود سلامة الغرياني.

٢- المتأخرون بين التجريد والتدليل. الدكتور الصادق الغرياني.

٣- لمحة عن عناية فقهاء المالكية بالتصنيف الفقهي المدلل. الأستاذ محمد العربي بوضياف.

٤- منهجية التصنيف الأصولي السلوكي في التأليف الفقهي المالكي. الأستاذ أحمد القطعاني.

٥- وشائج الصلة المتميزة بين مذهبي الإمامين أبي حنيفة ومالك رضي الله عنهما. الأستاذ الدكتور محمد محروس الأعظمي.

٦- الفقه المالكي وأحواله في ظل الفقه الحنبلي بمكة المكرمة في القرن الرابع عشر. الدكتور السيد محمد بن علوي بن عباس المالكي.

٧- المذهب المالكي في دراسات المستشرقين المعاصرين. الدكتور حسن عزوزي.

٨- عبد العزيز بن عبد الله الماجشون: فقهه وآثاره في المذهب المالكي. الدكتور ميكلوش موراني.

أثر الفقه المالكي في القوانين الغربية:

١- استمداد القوانين الغربية المعاصرة من الفقه المالكي - تحليل ونتائج. الأستاذ الدكتور عبدالسلام محمد الشريف العالم.

٢- استمداد القوانين الغربية المعاصرة من الفقه المالكي - تحليل ونتائج. الدكتور إبراهيم عبدالرحمن إبراهيم.

٣- ملامح وأبعاد تأثر القوانين الغربية بالفقه المالكي. الدكتور محمد الأمين ولد محمد سالم.

٤- المقارنات التشريعية بين الفقه المالكي والقانون الفرنسي - دراسة وتحليل. الدكتور عبد الله بن إبراهيم الموسى.

٥- دراسة بعض أحكام القانون المدني الليبي ونظائرها في مذهب الإمام مالك - عرض وتحليل. الدكتور جمعة محمود الزريقي.

الدفاع عن المذهب والجهود في خدمته:

١- صمود المذهب المالكي وبعض أعلامه الكبار بالغرب الإسلامي في فترات عصيبة. الدكتور عبد العزيز فارح.

٢- جهود المالكية في مواجهة الفرق المخالفة في الغرب الإسلامي. الدكتور عبد السلام شقور.

٣- الجهود المعاصرة في خدمة المذهب المالكي. الأستاذ الدكتور سالم محمد مرشان.

٤- الجهود المعاصرة في خدمة المذهب المالكي ونشر تصانيفه من خلال المؤسسات العلمية: الحكومية والخاصة. الدكتور الفاتح الحبر عمر أحمد.

٥- جهود المغرب في بعث التراث المالكي، ونحو تعاون علمي لإنجاز مشروع متكامل لإحياء هذا التراث. الأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس.

٦- على خطى القاضي عبد الوهاب (تعريف بمشروع الفقه المالكي بالدليل). الدكتور بدوي عبدالصمد الطاهر.

المحور الأول

مدارس المذهب المالكي بين ملامح مدرسته الأولى وخصائص المدرسة العراقية

القسم الأول

المدرسة الأولى وبعض المدارس الأخرى

المدرسة المالكية الأولى
عصر الإمام مالك

إعداد

د. الحسين آيت سعيد*

* أستاذ التعليم العالي بجامعة القاضي عياض في كلية الآداب بمراكش. ولد سنة (١٩٥٣م) بمراكش، حصل على الماجستير في السنة وعلومها من جامعة محمد الخامس بالرباط عام (١٩٩٠م) وكان عنوان بحثه: «الحافظ ابن حجر وجهوده في علم الجرح والتعديل»، وحصل على الدكتوراه من جامعة القاضي عياض عام (١٩٩٤م) وكان عنوان بحثه: «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لابن القطان الفاسي - دراسة وتحقيق». له العديد من الكتب والدراسات.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لا نتوخى في هذا البحث أن نترجم للإمام مالك، ولا أن نرسم له صورة جلية كما آلت إلينا، لأن ذلك مسبوق إليه، ومستفاض فيه، ومدون بأدق تفاصيله وحقبه ومراحله، صنفت فيه مجلدات مستقلة ضخمة، وعرض له أثناء الكلام على الفحول الكبار، والنبلاء العظام غير واحد في مصنفات قديمة وحديثة، سارت بذكرها الركبان ، وانتشرت في الأقطار انتشار الشمس في الأكوان، وترجم في عشرات المصادر المتخصصة وغير المتخصصة، ويكفي في هذا المضمار آن نشير لبعضها لمن يوم الاطلاع عليها، تذكيراً وترشيداً، وتنبيهاً وتسهيلاً.

فممن أفرده بالتأليف من الأقدمين:-

- أبو بكر : جعفر بن محمد الفريابي، المتوفى ٣٠١/هـ له كتاب أسماه: مناقب الإمام مالك.
- وأبو العرب التميمي : محمد بن أحمد، المتوفى /٣٠٣/هـ له كتاب : فضائل مالك
- وأبو الحسن: علي بن الحسن بن محمد بن العباس بن فهر المصري، له كتاب في فضائل مالك، في اثنى عشر جزءاً.
- وأبو عبدالله التستري: محمد بن أحمد. المتوفى /٤٥٣/هـ له نحو عشرين جزءا في مناقب مالك.

وهناك غير هؤلاء ممن أفرده بالترجمة، أو ذكره أثناء تراجم الكبار[١].

وعليه فالخوض في ترجمته، خوض في أمر أشبع بحثاً، واستفيض في دقه وجله.

وإعادة ذلك بأي صيغة، هو تسويد للورق، وإضاعة للمداد، واستخفاف بالوقت، إذ لايزيد الباحث فيه شيئا مهما بلغ كعبه، واتسعت دائرة معارفه، اللهم إلا تنميق العبارة، والتقديم والتأخير، وأما المضمون فلن يؤتى فيه بجديد.

وخاصة أنه يتعلق بترجمة علم من الأعلام المشهورين، وليس بمغمور حتى يحتاج للتعريف به، ولا بمعاصر لنا حتى ندعي أننا علمنا عنه ماجهله غيرنا.

---

(١) انظر ترتيب المدارك، للقاضي عياض - ١/٨-٩-١٠/.

والذين عاصروه وشافهوه وجالسوه، قد رسموا له صورة طبق ما شاهدوا وعاينوا، وهي لاتقبل الزيادة ولا النقصان عما نقلوا، كما ليست محل اجتهاد للاستدراك عليهم فيها.

ومن ثم لن ننشغل بالسيرة الذاتية للإمام مالك، وإنما سنبحث ماهو ألصق بمعارفه وعلومه، وكيفية بنائه لها، وبنائه عليها، وكيف تكونت مدرسته الفقهية التي تؤول إليه، وأُسست على اجتهاداته وآرائه بكل ما يستدعي ذلك من تداخل وتمازج بين النقل والعقل، والواقع، ورعاية المصالح.

والمدارسُ الفقهية، وإن تعددت رُؤاها، واختلفت اجتهاداتها، المنبئة عن قوتها أو ضعفها، إلا أنك تطيق أن تدرك هذه القوة وذلك الضعفَ باستعمال معيار الأصول، ذلك أن قوة أي مدرسة، إنما تنبثق من أصولها التي تُبنى عليها، وأسسها الأولى التي تحراها مؤسسها، فعلى قدر الارتباط بها، والبناء على مضامينها، والتفريع عليها، تتحقق للمدرسة خاصيتان:

الأولى: خاصية التجذر الذي يذكر دوماً بمراحل التأسيس، ويزود روّاد المدرسة بالانتماء العريق لجيل الأسوة الذي يحُتذى، ورموز المعلمة الذين بهم يقتدى.

والثانية: خاصية التشييد التفريعي الذي تتسع مدلولاتُه، وتنماز جزئياتُه، وتتباين لبناته، ولكنها كلها مشدودة بحبال تلك الأصول الأولى، ومستحكمة الوُصْلة بينها وبين الأُوَل.

ومن ثم فلن تلحظ بين التأصل والتفريع نشازاً ولا تنافياً، مع امتداد الأزمنة، وتغايرِ الأمكنة، وجدّةِ النوازل، وسعة ميادين التطبيق والتنزيل، ذلك أن سمات الأصول الاطرادُ والثبات، وميزات الفروع إذا أنيطت بأصولها، عدمُ الاضطراب والتناقض.

وأي بناء في مراحله الأولى إذا توخي به الاستمرار، فلا بد له من قواعد متينة، يراعى في سبكها ونسج سداها ولُحمتها، الدقةُ والقوة معاً، فأما الدقة فتصبغها بلون الاستقامة المتناهية، لأن أي اعوجاج فيها، سينعكس سلباً على كل ما يحمل عليها.

وأما القوة فتمدها بقدرة حمل الأعباء مهما تشابكت وتشاكست.

فإذا كان هذا مرموقاً في البناء المادي، فذلك ملحوظ أيضاً في البناء المعنوي، فالمدارس والمذاهب المندثرة، لم يكن زوالها مسبباً عن نقص في شخصيات البناة، ولا عن تقواهم

وورعهم، وإنما كان ذلك ناشئاً في الغالب عن المناهج التي حيكت عليها تلك المدارس، إذ لم تكن تتسم بالشمولية والمتانة.

هذا وإن أعرق أصول وأمتن قواعد، هي أصول وقواعد المذهب المالكي، كما أشاد بذلك ابن تيمية والذهبي وغيرهما كما سيأتي.

وشهادتهما شهادة خبراء بخبايا المذاهب وخفاياها، أصولها وفروعها، وهي شهادة لها قيمتها العلمية، لأنها مبنية على استقراء.

هذه الأصول التي أسس عليها مالك رحمه الله مذهبه، هي التي سيتولى هذا العرض بيانها من خلال العناوين الآتية:

- تمهيد في بيان أن فقه مالك فقه موروث.
- المذهب المالكي أرسخ المذاهب أصولاً وفروعاً.
- المذهب المالكي في طوره الأول [عصر المؤسس].
- أصول مالك التي بنى عليها مذهبه، وأقوال المالكية وغيرهم فيها.
- بسط الكلام عن تلك الأصول، وإثبات أدلتها الدالة على اعتمادها من كلام الإمام نفسه، أو كلام أصحابه، ويتضمن هذا المحور سبعة عشر أصلاً، مستدلا له من الموطأ وغيره، مبيناً مافيه الخلاف مما ليس كذلك، مع تعقب الأقوال ونقدها، والموازنة بينها وبين غيرها، لينجلي بذلك الصبح لذي عينين، وليتأكد من رام الصواب من بغيته.

تمهيد في بيان أن فقه مالك فقه موروث :

إن مذهب الإمام مالك - النجم الساطع، والنور اللامع- له جذور متجذرة، آيلة إلى فقه الصحابة، وأقضية الخلفاء الراشدين، وخاصة أقضية عمر.

ومن ثم فيمكن للمرء أن يجزم بأن فقه الفقهاء السبعة بالمدينة موروث، امتزج فيه النص بالفتوى، وبالقضاء، وبالعرف الذي جرى عليه العمل.

وهذا كله يجعل المرء إذا أراد استجلاء حقيقة المذهب المالكي، عليه أن يحيط بهذا الموروث من شتى جوانبه، دراية، ورواية، وشرحاً وتعليلاً، وهو - بحمد الله - مدون ومحفوظ بأدق موازين الحفظ ووسائله، ولا بد لفهمه، وتنزيله منازله، والتعامل معه بجدارة من أمرين اثنين:

أحدهما: عقلية نصية، تدرك منطلقاته التي هي النصوص بمعناها الواسع.

وثانيها: إدراك عللها ومقاصدها التي بدونها لن يفهم شيء من ذلك الموروث.

وإذا صح لنا بالحجة والبرهان، أن ندعي أن مذهب مالك، ليس مذهباً فردياً، وإنما هو مذهب جماعي، توالى على تأسيسه واستقلاله فيما بعد، أفهامٌ عديدة، أدركنا قيمة هذا المذهب، لأن تراكم الأفهام وتواردها على معنى واحد، يجعل المرء مطمئناً إلى ما تناولته وانتهت إليه من تلك الأنساق المعرفية، التي اتحدت فيما بعد وتلاحمت، ولن نبعد أيضاً إذا قلنا: إن مذهب الشافعي - ومذهب أحمد بن حنبل - رحمهما الله - ليسا إلا وجهاً من أوجه المذهب المالكي في أصوله وفروعه، ذلك أن الشافعي - رحمه الله - لم ينُبل بين الورى وأشرقت شمسه، إلا بعد ما أخذ الموطأ سماعاً من الإمام مالك، وتتلمذ له، وهو أجل تلامذته، وأجل من روى عنه الموطأ، وكان مالك يبالغ في إكرامه وتقديره، وكان معجباً بفصاحته وبلاغته، ولذا ما كان مالك يقرأ عليه أحد في حضوره سواه، قال الشافعي: "أنا قرأت على مالك فكان يعجبه قراءتي"[١]

وحينما قرأ عليه الموطأ، كلما أراد أن يقطع أعجبه حسن قراءته وإعرابه، فيقول: "يافتى: زد، حتى قرأه عليه في أيام يسيرة".

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ٢٣٧.

والقصد بهذا كله، أن نعرف مدى تأثر الشافعي بمالك في أصوله وفروعه، التي بنى عليها مذهبه، فيصح أن نجزم بأن مذهبه، ما هو إلا امتداد لمذهب مالك.

وأما الإمام أحمد، فهو من أجل تلامذة الشافعي، وأكثرهم له ملازمة، وأخصهم به، وكان من شدة إعجابه به، يقول: "ما كنا ندري ما الكتاب والسنة حتى سمعنا من الشافعي الكتاب والسنة والإجماع"(١).

فإذا كان فقه الشافعي لم يؤُل إلى أفضل من الإمام أحمد، فمعنى ذلك أنه أقام غالب مذهبه على مذهب الشافعي، والشافعي أقام غالب مذهبه على مذهب مالك، فصح أن هذين المذهبين يرجعان إلى فقه مالك، الراجع إلى فقه أهل المدينة النبوية، ولذا تجد خصائص وأصول هذه المذاهب الثلاثة متحدة، ويمكن إجمالها في أربعة.

١- منها: تعظيمهم للسنة النبوية، والالتزام بالاحتجاج بها، والمبالغة في الذود عنها وعدم الاعتداد بما سواها عند وجودها، وهذه ظاهرة لا تكاد تفارق هذه المذاهب الثلاثة، بل هي ظاهرة مطردة فيها.

٢- ومنها : عدم الجمود، وإدارة النصوص على معانيها، وربطُها بعللها، وتنزيلها على مقاصدها المتوخاة منها.

٣- ومنها: الاعتداد بفهم الصحابة واعتماده، وخاصة في مواطن الاحتمال، أو في مجال العبادات التي لاتخضع للاجتهاد.

٤- ومنها إنتاج فقه واقعي، بعيد عن الافتراض والتنظير، مرتبط بالحوادث الموجودة لا المتوقعة.

هذا التأثير والانتشار لمذهب أهل المدينة، له دلالته على صحة أصولهم وفروعهم المبنية عليها، ولن نغالي إذا قلنا: إن فقه أبي حنيفة في مراحله الأخيرة، تأثر بمذهب مالك، مع محمد بن الحسن الشيباني، بعد ما قرأ الموطأ على مالك، وقد تراجع عن كثير من القضايا نتيجة اطلاعه على نصوصها التي لم تكن عند أهل العراق، بل أحدث علم محمد بن الحسن المستمد من علم مالك، ثورة في فقة الحنفية، جعلته مرتبطاً بالدليل وباحثاً عنه. هذا الفقه المالكي، الذي شرق وغرب، وملأ الدنيا مباشرة أو بالوسائط، لا بد أن تكون له خصوصيات

(١) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي – ٥٧.

ذاتية وخصوصيات خارجية، تتجلى في أصوله التي بني عليها، فهي ألصق بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف.

وهذا الأصل نترك تقريره لمن ليس بمالكي حتى يقرره، ونكله إلى من تبحر في المعقول والمنقول، واستوعب المذاهب الإسلامية بأصولها وفروعها، حفظاً وإتقاناً، وفهماً واستيعاباً، حتى لا يقال : إن مالكياً من المالكية يمدح مذهبه.

وشهادة هذا المتبحر، لها قيمتها العلمية والتاريخية والإستقرائية، وهذا الحافظ، هو ابن تيمية – رحمه الله –.

ففي الفتاوى: وسئل شيخ الإسلام – رحمه الله– عن صحة أصول مذهب أهل المدينة، ومنزلة مالك المنسوب إليه مذهبهم في الإمامة والديانة، وضبطه علوم الشريعة، عند أئمة علماء الأمصار، وأهل الثقة والخبرة من سائر الأعصار، فأجاب – رضي الله عنه–:

"الحمد لله، مذهب أهل المدينة النبوية – دار السنة، ودار الهجرة، ودار النصرة، مذهبهم في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم، أصح مذاهب أهل المدائن الإسلامية شرقاً وغرباً في الأصول والفروع.

وهذه الأعصار الثلاثة، هي أعصار القرون المفضلة، وفي القرون التي أثنى عليها الرسول صلى الله عليه وسلم كان مذهب أهل المدينة أصح مذاهب أهل المدائن، فإنهم كانوا يتأسون بأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الأمصار، وكان غيرهم من أهل الأمصار دونهم في العلم بالسنة النبوية واتباعها...

ولهذا لم يذهب أحد من علماء المسلمين إلى أن إجماع أهل مدينة من المدائن، حجة يجب اتباعها غير المدينة، لا في تلك الأعصر ولا فيما بعدها، لا إجماع أهل مكة ولا الشام ولا العراق ولا غير ذلك من أمصار المسلمين.

فأما الأعصار الثلاثة المفضلة، فلم يكن بالمدينة بدعة ظاهرة البتة، ولا خرج منها بدعة في أصول الدين البتة، كما خرج من سائر الأمصار .. فالكوفة خرج منها التشيع والإرجاء، وانتشر بعد ذلك في غيرها، والبصرة خرج منها القدر والاعتزال والنسك الفاسد، والشامُ كان

بها النصب والقدر، فأما التجهم فإنما ظهر من ناحية خراسان، وهو شر البدع، وكان ظهور البدع بحسب البعد عن الدار النبوية...

ولم يزل العلم والإيمان بها ظاهراً إلى زمن أصحاب مالك، وهم أهل القرن الرابع، حيث أخذ ذلك القرن عن مالك وأهل طبقته...

وكان أهل المدينة فيما يعملون، إما أن يكون سنّة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما أن يرجعوا إلى قضايا عمر بن الخطاب ويقال: إن مالكاً أخذ جل الموطأ عن ربيعة، وربيعة عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن المسيب عن عمر، وعمر محدَّث...

وفي الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو لم أبعث فيكم، لبعث فيكم عمر" وكان عمر في مسائل أصول الدين والأصول والفروع، إنما يتبع ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يشاور علياً وغيره من أهل الشورى، ومما يوضح الأمر في ذلك، أن سائر أمصار المسلمين غير الكوفة، كانوا منقادين لعلم أهل المدينة، لا يعدون أنفسهم أكفاءهم في العلم...

والعلم إما رواية وإما رأي، وأهلُ المدينة أصح المدن رواية ورأياً، وأما حديثُهم فأصح الأحاديث، وقد اتفق أهل العلم بالحديث أن أصح الأحاديث أحاديث أهل المدينة، ثم أحاديث أهل البصرة، وأما أحاديث أهل الشام، فهي دون ذلك...

وأما أهل الكوفة، فلم يكن الكذب في أهل بلد أكثر منه فيهم، ففي زمن التابعين، كان بها خلق كثيرون منهم، معروفون بالكذب، لا سيما الشيعة فإنهم أكثر الطوائف كذباً باتفاق أهل العلم، ولهذا يُذكَر عن مالك وغيره من أهل المدينة أنهم لم يكونوا يحتجون بعامة أحاديث أهل العراق، لأنهم قد علموا أن فيهم كذابين.

ثم إن بغداد إنما صار فيها من العلم والإيمان ما صار، وترجحت على غيرها، بعد موت مالك وأمثاله من علماء أهل الحجاز، وسكنها من أفشى السنة فيها، وأظهر حقائق الإسلام، مثلُ أحمد بن حنبل، وأبي عبيد، وأمثالهما من فقهاء أهل الحديث، ومن ذلك الزمان ظهرت بها السنة في الأصول والفروع.

إذا تبين هذا، فلا ريب عند أحد، أن مالكاً – رحمه الله – أقوم الناس بمذهب أهل المدينة رواية ورأياً، فإنه لم يكن في عصره ولا بعده أقومُ بذلك منه، كان له من المكانة عند أهل الإسلام ما لا يخفى على من له بالعلم أدنى إلمام...

ومعلوم أنه بعد موت هؤلاء – يعني الثوري والأوزاعي والليث وأبي حنيفة – لم يكن في الأمة أعلمُ من مالك ... ولا رُحل إلى أحد من علماء المدينة ما رُحل لمالك لا قبله ولا بعده، رُحل إليه من المشرق والمغرب، ورَحَل إليه الناس على اختلاف طبقاتهم: من العلماء والزهاد، والملوك، والعامة، وانتشر موطؤه في الأرض، حتى لا يعرف في ذلك العصر كتاب بعد القرآن، كان أكثر انتشاراً من الموطأ...

والناس كلهم مع مالك وأهل المدينة، إما موافقٌ وإما منازع، فالموافق لهم عضد ونصير، والمنازع لهم معظم لهم، مجل لهم، عارف بمقدارهم، وما تجد من يستخف بأقوالهم ومذاهبهم إلا من ليس معدوداً من أئمة العلم....

ويمكن المتبعَ لمذهبه أن يتبع السنة في عامة الأمور، إذ قل من سنة إلا وله قول يوافقها، بخلاف كثير من مذهب أهل الكوفة، فإنهم كثيراً ما يخالفون السنة وإن لم يتعمدوا ذلك ثم من تدبر أصول الإسلام وقواعد الشريعة، وجد أصول مالك وأهل المدينة، أصح الأصول والقواعد، وقد ذكر ذلك الشافعي، وأحمد، وغيرهما...(١).

ومن البدهي أن هذه الخصائص تتوفر بالمقاييس العلمية في المذهب المالكي، نظراً لعوامل عديدة، تهيأت له دون غيره، فحاز بها الشرف من جهتين، وتأثل بها من زاويتين: زاوية الاستمساك بالسنة، وزاوية التمسك بآثار من مضى، وبين هذين يدور الفقه، وتستنطق نصوصه، ويتأمل في مآلاته وغاياته ن وماسوى ذلك فهو شقشقة وهدير لاطائل تحته، وعجعجة لا طحن لها، تصرف عن الصواب، وتصد عن الحق الذي لامرية فيه ولاارتياب.

---

(١) الفتاوى – ٢٠/ ٢٩٤ وما بعدها.

المذهب المالكي أرسخ المذاهب أصولاً وفروعاً:

هذا الرسوخ والسعة والمرونة في المذهب المالكي، ترجع إلى عوامل عدة:

١- أهلية مالك وجدارته بالفتوى والاجتهاد، هذه الأهلية تتجلى في أنه لم يتصد لهذا الأمر حتى شهد له أهله بذلك، وأمروه بالفتوى.

قال مالك: «ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، وأهل الجهة من المسجد، فإذا رأوه لذلك أهلاً جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك»[١].

وأفتى مالك في زمن شيوخه وبإقرارهم، وإرشادهم الطلبة إليه.

قال عاصم بن عمر: "كنا نأخذ عن مالك في حياة يحيى بن سعيد"[٢].

يعني الأنصاري، وهو شيخ مالك.

وقال أيوب السختياني: "قدمت المدينة في حياة نافع، ولمالك حلقة"[٣].

وقال مصعب: "كان لمالك حلقة في حياة نافع أكثر من حلقة نافع"[٤]

وكان ربيعة بن أبي عبدالرحمن إذا سأله الرجل فلم يفهم عنه يقول: سل هذا – يعني مالكاً–[٥].

٢- إمامته في تفسير كتاب الله، وإدراك معانيه، والغوص على جواهره ولآليه، وإدامة تدبره، وإمعان النظر في مقاصده ومآلاته، حتى صنف في ذلك.

قال القاضي عياض: "وله في تفسير القرآن كلام كثير وقد جمع، وتفسير يرويه عنه بعض أصحابه، وقد جمع أبو محمد: مكيٌّ مصنفاً فيما رُوي عنه من التفسير والكلام في معاني القرآن وأحكامه، مع تجويده له، وإحسانه ضبط حروفه..."[٦] وقال: "ومن ذلك

---

(١) المدارك ١-/١٤٢.
(٢) المصدر نفسه –١/١٤٠.
(٣) المصدر نفسه –١/١٤١.
(٤) المصدر نفسه –١/١٤١.
(٥) المصدر نفسه –١/١٤٣.
(٦) المدارك –١/٨١/.

كتابه في التفسير لغريب القرآن، الذي يرويه عنه خالد بن عبدالرحمن المخزومي، أخبرنا به أبو جعفر: أحمد بن سعيد...[١].

وقال خالد بن نزار "ما رأيت أنزع بكتاب الله عز وجل من مالك بن أنس"[٢].

وقال ابن وهب : قيل لأخت مالك بن أنس: ما كان شغل مالك بن أنس في بيته؟ قالت: المصحف والتلاوة[٣].

وليست هذه التلاوة المداوم عليها، تلاوة حروف، وإنما هي تلاوة تأمل واستدلال واستنباط، ويدل على ذلك انشغاله بها، واستغراقه فيها في خلو بيته الذي ليس فيه ما يشوش على صفاء ذهنه، ولا ما يكدر عليه غوصه على تدبره، وإلا فالتلاوة المجردة من هذه المعاني، لاتحتاج للتفرغ، بل تكون في كل مكان يوجد فيه المسلم، في المسجد، والسوق والطريق، والمجالس، إذ من عادة المسلم أن يقرأ ورده من القرآن في يومه وليلته كيفما تيسر له.

والمناظرة التي جرت بين الشافعي ومحمد بن الحسن، هي شهادة أخرى تدل على منزلة مالك، وسداده في العلم بكتاب الله عز وجل.

قال الشافعي: قال لي محمد بن الحسن: "أيهما أعلم بالقرآن، صاحبنا أو صاحبكم؟ – يعني أبا حنيفة ومالك بن أنس – قلت: الإنصاف تريد أم المكابرة؟ قال: الإنصاف، قلت ناشدتك الله، من أعلم بكتاب الله وناسخه ومنسوخه؟ قال اللهم صاحبكم، قلت: ناشدتك الله، من أعلمُ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: اللهم صاحبكم، قلت: فمن أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال: اللهم صاحبكم. قال الشافعي: قلت: فلم يبق إلا القياس، قال محمد: صاحبنا أقيس، قال الشافعي: القياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول، فعلى أي شيء يقيس، ونحن ندعي لصاحبنا مالا تدعونه لصاحبكم:–

وفي لفظ: وصاحبنا لم يذهب عليه القياس، ولكن كان يتوقى ويتحرى، ويريد التأسي بمن تقدمه"[٤].

---

(١) المصدر نفسه –٢/٩٣.

(٢) الجرح والتعديل– ١/١٨/ والمدارك – ١/٨١/.

(٣) المصدر نفسه .....

(٤) الجرح –١/١٢/١٣/ والمدارك، وغالب اللفظ له.

٣- إمامته في السنة النبوية، وهي الركيزة المفصلة لمجمل الأحكام القرآنية، وأي متفقه كان عنده نقص في صناعتها والتبحر فيها، فإن ذلك سينعكس على فقهه بالنقص، وأحياناً بالتناقض والتضارب، ومالك - رحمه الله - من المتبحرين في علم الرواية، والمتقنين لها، والمتفقهين فيها.

قال ابن مهدي: "ما أقدم على مالك في صحة الحديث أحداً"(١).

وقال يحيى بن سعيد القطان: "كان مالك إماماً في الحديث" وفي لفظ: "ما في القوم أصح حديثاً من مالك"(٢).

وقال ابن عيينة: "ما كان أشد انتقاء مالك للرجال، وأعلمه بشأنهم"(٣).

وقال ابن معين: "مالك من حجج الله علي خلقه"(٤).

وقال الشافعي: "إذا جاء الحديث عن مالك فشد به يديك"(٥).

وقال أحمد: "مالك إمام في الحديث وفي الفقه"(٦).

وقيل لأحمد: "يا أبا عبدالله، رجل يحب أن يحفظ حديث، قال: يحفظ حديث مالك، قلت: فرأي مالك؟ قال: فرأي مالك"(٧)

وإذ ثبت بهذه البراهين، صحة أصول مذهب مالك، ثبت ماينبني عليها ويتفرع على دلالاتها من القضايا الفقهية، والآراء الاجتهادية، قال القاضي: "فرحم الله الشافعي ومحمد بن الحسن، فلقد أنصفا، والذي قاله الشافعي هو حق اليقين، فإن الإجتهاد والقياس والاستنباط، إنما يكون على الأصول، فمن كان أعلم بالأصول، كان استنباطه أصح، وقياسه أحق، وإلا فمتى اختلت معرفته بالأصول، قاس على اغترار، وبنى على شفا جرف هار"(٨).

---

(١) الجرح والتعديل ١/١٤/.

(٢) المصدر نفسه -١٥.

(٣) المصدر نفسه -٢٣.

(٤) سير إعلام النبلاء - ٨/٩٤.

(٥) الجرح والتعديل - ١/١٤/.

(٦) السير ٨/٩٤/.

(٧) الجرح والتعديل - ١/١٦/.

(٨) المدارك - ٨١.

وهذه شهادات الشيوخ والأقران والتلاميذ لمالك بمتانة هذا الأصل عنده، وبلوغه فيه الذروة العليا من الإتقان والفهم، ومن كان بالسنة لصيقاً، كان حرياً بإصابة الصواب في اجتهاداته وآرائه، وكان فقهه أقرب إلى الاطراد ممن لم يكن كذلك.

٤- الإمامة في معرفة ما جرى به العمل، والسنةُ من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصره وما قضى به الخلفاء الراشدون ومن بعدهم، مع العلم بمواطن الاتفاق والاختلاف في ذلك، وما عُمل به مما لم يُعمل به.

وهذا يعني أن فقه مالك، فقه موروث، وفقه آثار واعتبار معاً، وحقيق بفقه تحلى بالصفتين معاً أن يكون أهلاً للعمل، وموئلاً للاطمئنان.

والعمل المستمر المعتمد عند مالك، أقوى من آحاد الأدلة، لأن ذلك عُمِل به جيلاً بعد جيل، فتواتَر معناه والعملُ به، والثاني إن صح، فإنّ عدم العمل به، قد يقدح في صلاحيته للعمل، لاعتبارات ليس هذا مجال تفصيل ما يصح منها مما لا يصح.

المذهب المالكي في طوره الأول: [عصر المؤسس]

انتهت الفتوى وطرائق الاجتهاد للإمام مالك في المدينة بصفة انفرادية بعد موت شويخه وأقرانه، وقُصد من جميع الأقطار الإسلامية، للأخذ عنه وتحمُّل كتاب الموطأ عنه، وشرّق الناس بفتاواه وبكتابه وغربوا، ولم يبق صقع من أصقاع الإسلام، إلا ودخله الموطأ بإحدى رواياته.

وكان ما روي عن مالك ونقل عنه من الفتاوى كثيراً جداً، فقد نقل عنه ابن القاسم وحده من أصحابه ما يضاهي أربعين ألف فتوى في المدونة، وفي أسمعة أصحابه الآخرين شيء كثير، ومرد ذلك إلى أسباب:

١- أن مالكاً انتهت إليه رئاسة العلم بالمدينة النبوية.

٢- ثقة الناس بعلم أهل المدينة، وبفتاواهم، وحبهم الخالص لعلمائها

٣- وراثة الإمام مالك لعلم من سبقه من علماء المدينة المنورة.

٤- شهادة كبار الحفاظ له بالإتقان والتحري، والسداد في الأقوال والأفعال، مع ورعه وإنصافه.

٥- ورود حديث حسن في عالم المدينة الذي ستضرب له أكباد الإبل، وهو قوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة: "يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلايجدون أحداً أعلم من عالم المدينة"(١).

وحمله جلة من العلماء على مالك، وأوّلوه به، ورأوا أنه وحده الذي ينطبق عليه، منهم سفيان بن عيينة، وعبدالرازق، وابن جرير، ولم يفْتِ بالمدينة أكثر من ستين سنة أحد يأخذ عنه أهل الشرق والغرب ويضربون إليه أكباد الإبل سوى مالك بن أنس. هذه الأمور كلها مجتمعة، إذا لوحظت فإنها تستشف منها خصائص وأمور تكتنف هذا المذهب في طور التأسيس، ويمكن إجمالها فيما يلي:-

أ- شدة إهتمام مالك - رحمه الله - بالاستدلال بالسنة والآثار، والناظر في الموطأ، يدرك أنها في جميع أبوابها مبنية على السنن، وليس ذلك بعجب بعد ماعلمنا مبلغ مالك في علم الرواية والدراية.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم - ٥/٤٧ وقال: حديث حسن.

ب- الحرص الشديد على الاقتداء والاهتداء بمن سلف من المتقدمين، ويتجلى ذلك في عمل أهل المدينة، الذي يجسد عند مالك النزوع إلى ما جرى به عمل من تقدم بالمدينة النبوية، وقد لا يخلو باب أو مسألة من المسائل في الموطأ إلا ويؤكد مالك - رحمه الله- هذا الأصل بقوله: "وعلى هذا الأمر عندنا"، أو "الأمر المجمع عليه عندنا "أو: وعلى ذلك السنة التي لا اختلاف فيها عندنا" أو "والذي أدركت عليه أهل العلم ببلدنا" وما أشبه هذه العبارات التي تنم بشدة اللصوق بمن مضى، والاعتداد بأقوالهم، وتوظيفها في القضايا العملية.

ج- التقليل من استعمال الرأي والقياس، بالنسبة لاستعمال الآثار، وهذا لايعني أن مالكاً لا يستعملهما، وإنما يعني أنه قلص منهما ولم يكثر، لأن ما معه من السنن والآثار، أغنته فيما يجد من الحوادث عن استعمال ذلك.

د- ربط الفقه والاستدلال والاستنباط بالدليل، وجعله الحجة للفتوى، فمالك لا يبوب على مسألة إلا ويذكر لها دليلاً، ولا يطلق القضايا على عواهنها، ولا يرسلها إرسالاً، كما هو دأب المتأخرين من المنتسبين لمذهبه.

وهذا الأمر هو ركيزة الفقه عند المتقدمين عامة، وإن كانوا يتفاوتون في ذلك، ففي تلك العصور لم يُعرف انفصال الفقه عن الدليل، ولا بعده عنه، لأنه إنما سمي دليلاً، لأنه دال على الفقه ومنتج له، وسبب له، وعلة فيه، والعقل لا يقبل انفصال المسبب عن سببه، ولا المعلول عن علته، والواقع العلمي للشرع لا يقبل ذلك أيضاً، لأن مرد الأمور، إلى تحكيم النصوص في القضايا كلها، لا إلى تحكيم أهوائهم وأذواقهم، فالنصوص هي الدساتير التي يخنع لها الجميع، وإنما يتحاور الفقهاء ويتناظرون في فهم المراد منها، وفي إدراك مقاصدها، وفي كيفية تنزيلها بعد فقهها، وفي باب مقاصدها وكيفيات تنزيلها يتفاضلون ويتفاوتون.

هـ- مراعاة المقاصد والمآلات، الذي يتجلى في سد الذرائع، واستعمال المصالح المرسلة، وهذا سنفصله بنماذجه.

و- الاحتفاء بأقوال الصحابة، وتحكيمها في فهم النصوص المحتملة وخاصة أقوال الخلفاء الأربعة، وأقوال ابن عمر - رضي الله عنهما-.

هذه أهم الخصائص التي بثها مالك في موطئه، واعتمدها في فقهه وبناء مذهبه، ومن درس الموطأ بعناية، فإنه يستطيع أن يدركها وأن يحيط بها علماً.

ومن ساقط القول وسفسطته، أن مالكاً لم يدون الأصول التي بنى عليها مذهبه، كما ذهب إليه بعض الباحثين: منهم الدكتور عمر الجيدي – رحمه الله – بقوله: "والحق أن الإمام لم يصرح بأنه التزم فيما كان يستنبطه من أحكام أصولاً وقواعد، اعتمدها أساساً في الاستنباط والاستنتاج إلا ما يفهم من صنيعه في اعتماده على الأصلين، وعمل أهل المدينة، وما يُستشف من عمله في الموطأ من أنه كان يعتمد أحياناً على القياس، إلا أن عمله هذا، يبقى دون إعطاء منهجية واضحة المعالم، تنهض دليلاً على ماذهب إليه ابن العربي في القبس، وعياض في المدارك، ومن ثم يجوز القول بأن ذلك يبقى من عمل أتباعه الذين جاءوا إلى الفروع، فتتبعوها ووازنوا بينها، فاستنبطوا منها ماصح لديهم أنه دليل قام عليه الاستنباط، فدونوا تلك الأصول، وأضافوها إلى الإمام مالك تساهلاً، فقالوا كان مالك يأخذ بكذا، ويستدل بكذا، وهي – كما علمت – ليست أقوالاً رويت عنه، وإنما هي من عمل أتباعه الذين حددوها، بناء على مافهموه من طريقته في استنباط الأحكام"(١).

ولعمري إن هذا الكلام يحتاج إلى أَزِمَّة تضبطه، لأن أول ما يؤخذ عليه أنه قلب الأمر الطبعي رأساً على عقب، إذ كيف يقبل ساذج، فضلاً عن ذكي أن يكون مذهب فقهي قائماً على أصول لم ينص عليها صاحبه، ولا أرشد إليها.

وكأني بالدكتور الجيدي – رحمه الله – يريد من الإمام مالك أن يقول له بصريح العبارة: قد بنيت مذهبي على كيت وكيت، وراعيت قاعدة كذا، ولم أراع كذا، فمثل هذا الأسلوب يستعمل مع العوام والسذجة، وأما الأذكياء، فهم في غنى عن هذه السطحية، فإذا كان مالك لم يدون أصوله فماذا دون في الموطأ، الذي درسه أكثر من أربعين سنة؟ وهل الموطأ كتاب تمحض للرواية، لم يشب بشيء من الفقه قط؟

والمعلوم لدارسي الموطأ – بل هو مجمع عليه – أن الموطأ كتاب حديث وفقه، والفقه لا بد له من أصول يستنبط منها.

(١) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي – ٥٩.

ومالك - رحمه الله - لم يقصد من تأليف الموطأ إلا تمهيدطرائق الفقه، وبيان دلالة، ومسالك استنباطه، وبذلك يكون أول كتاب مدون في الحديث وفي الفقه وأصوله، وأي فرق بين التصريح بأن هذه أصول اعتمدتها في الاستنباط، وبين ممارستها عملياً، وتكريرها، والتأكيد عليها، فمن يفرق بين الأمرين، كمن يفرق بين السنة القولية والفعلية، وينكر هذه الثانية.

وعياض، وابن العربي، أقعد بمذهب مالك، وأعرف بخباياه وأحوط بزواياه، من الدكتور الجيدي، الذي لو درس الموطأ بعناية، لعدل عن رأيه، ولعلم أن ما قالته حذام هو الصواب.

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

ولولا أن مثل هذه الأقاويل تعلق بأذهان بعض الطلبة، لكان إسقاطها وعدم حكايتها أجدى، ولكن لما سطرت وقرّت في مؤلفات أصحابها، تعين بيان بطلانها.

وإذ تقرر بالدليل القطعي أن مالكاً أصل أصولاً في موطئه، وفي فتاواه، عليها يسير في الاستنباط والاستدلال، فما عدد هذه الأصول، وكيف رتبت عند مالك، وماذا يلحظ منها بكثرة، وماذا يستعمل منها بقلة، وفي أي شيء منها ووفق أو خولف، وهل الصواب في ذلك معه أم مع المخالف، مع التركيز على ملحظ مالك في ذلك كله وإبانة قصده.

وهذا ماسيتناوله العنوان الآتي، بالتفصيل والبيان، ويسهب في تفاريعه وجزئياته ومضامينه وأحكامه.

أصول مالك التي بنى عليها مذهبه.

المقصود بالأصول، هي القواعد العامة، والكليات المطردة، التي يستهدي بها المجتهد، ويجعلها نصب عينه في اقتناص الأحكام من الدلائل الجزئية، وسواء أكانت تلك القواعد تتناول جميع أبواب الشريعة - كما هو شأن قواعد أصول الفقه - أم تتناول باباً أو أبواباً خاصة - كالقواعد الفقهية - وهذان النوعان مقصودان في أصول المذهب المالكي، كسائر المذاهب الفقهية السائدة، ويتميز المذهب المالكي بأصول انفرد بها، وأصول أكثر من استعمالها، وغيره قلل منها، وهي التي سنمعن النظر فيها لبيان أصالتها، ووجودها عند من تقدم من الصحابة وتابعيهم.

أ- ماهو عدد هذه الأصول؟

١) عدها أبو بكر بن العربي المتوفى / ٥٤٣ / هـ - عشرة، كما نقله عنه ابن هلال[١].

٢) وعدها القاضي عياض المتوفى -٥٤٤هـ- أربعة : الكتاب والسنة، والقياس، وعمل أهل المدينة[٢].

وذكر الشيخ أبو محمد صالح الهسكوري الفاسي المتوفى ٦٥٣هـ أن الأدلة التي بنى عليها مالك مذهبه ستة عشر:

- نص الكتاب.
- وظاهر الكتاب - وهو العموم-
- ودليل الكتاب - وهو مفهوم المخالفة
- ومفهوم الكتاب وهو باب آخر
- وتنبيه الكتاب - وهو التنبيه على العلة كقوله تعالى: (فإنه رجس أو فسقاً).
- ومن السنة أيضاً مثل هذه الخمسة، فهذه عشرة
- والحادي عشر الإجماع
- والثاني عشر القياس
- والثالث عشر عمل أهل المدينة

---

(١) نوازل ابن هلال.

(٢) المدارك - ١ / ٨٩ .

– والرابع عشر قول الصحابي

– والخامس عشر الاستحسان

– والسادس عشر الحكم بسد الذرائع

– واختلف قوله في السابع عشر، وهو مراعاة الخلاف، فمرة يراعيه، ومرة لا يراعيه، قال أبو الحسن: ومن ذلك الاستصحاب(١).

وكذلك عدها سبعة عشر الشيخ حسن مشاط(٢).

وقال الحجوي: إنها بلغت عشرين كما يأتي، وأضاف – عند ذكره قول الصحابي – المصالح المرسلة، وشرع من قبلنا، وقال: "فصارت الأصول عشرين"(٣).

وهذا إنما تلقفه عن القرافي في الفروق(٤).

وقال ابن السبكي: "إن أصول مذهب مالك، تزيد على الخمسمائة"(٥).

قال الحجوي: "ولعله يشير إلى القواعد التي استخرجت من فروعه المذهبية، فقد أنهاها القرافي في فروقه إلى خمسمائة وثمانية وأربعين، وغيره أنهاها إلى الألف والمائتين، كالمقري وغيره، لكنها في الحقيقة تفرعت عن هذه الأصول.

والإمام لم ينص على كل قاعدة قاعدة، وإنما ذلك مأخوذ من طريقته وطريقة أصحابه في الاستنباط..(٦).

أقول : كلام السبكي فيه مبالغة وإجمال، ويحتاج لتأمل.

---

(١) البهجة شرح التحفة للتسولي: كتاب القسمة ٢/١٣٣ عند قول ابن عاصم:

في غيرها من الطعام الممتنع فيه تفاضل ففيه تمتنع

(٢) الجواهر الثمينة ص١١٧ .

(٣) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ١ / ٣٨٥ / ٣٩٣ .

(٤) الفروق ١ /١٢٨ .

(٥) طبقات الشافعية الكبرى.

(٦) الفكر السامي ١ /٣٨٧ .

ب- تفصيل الكلام على هذه الأصول:

وأول هذه الأصول: كتاب الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والأئمة في الاحتجاج به على جهة العموم سواء، لا مزية فيه لأحدهم على الآخر، وإنما يتفاضلون في تفاصيل هذا الاحتجاج وطرائقه، وطريقةُ مالك في التعويل عليه أسد، ومنهجه في اقتناص الأحكام منه أوعب وأرشد، إذ لا يقتصر على دلالاته ومفاهيمه، وإنما يراعي مقاصده وغايته، وما يومئ إليه ويرشد له من الكليات الجامعة، ثم إنه فيما احتمل منه يديره على السنة المرفوعة، فإن لم تكن، فيديره على الآثار العملية التي ترجح احتمالاً على احتمال، أو تورث ذلك، حتى يكون ظنياً أو قطعياً. ومعلوم لدى المشتغلين بعلوم التأويل، أنه كلما كان المرء متبحراً في الآثار، عالماً بما جرى عليه علم المتقدمين، كان أبصر بمعاني الكتاب العزيز، وأغزر في مادة معارفه، وأغرف من وكف نداه ووابله، ومالك - رحمه الله - من هذه الطينة.

وثانيها: احتجاجه بعمومه، وهو الأصل عنده حتى يرد ما يخصصه، والمخصصات عنده خمسة عشر مخصصاً، ومنها العوائد، فهي مخصصة عنده للعموم[١].

ومن استدلاله بالعموم في الموطأ، قوله في الاعتكاف: «الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا أنه لا يكره الاعتكاف في كل مسجد يجمع فيه... لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ **وأنتم عاكفون في المساجد** ﴾[*] فعم الله المساجد كلها، ولم يخص شيئاً منها»[٢].

فهذا فيه إشارة لضعف حديث حذيفة مرفوعاً: «لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة»[٣] ولم يصب من صححه مع تشكيك ابن مسعود فيه.

ومن ذلك أيضاً قوله في الجهاد: «لا أرى البراذين والهُجُن إلا من الخيل، لأن الله تبارك وتعالى قال في كتابه: ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾[*][٤]. وفي الموطأ نماذج كثيرة جداً لا نطيل بها، لأن المقصود التذكير بأن مالكاً قد سطر هذا الأصل في كتابه.

---

(١) انظر شرح تنقيح الفصول للقرافي - ٢١١ .

(*) سورة البقرة، الآية (١٨٧).

(٢) الموطأ في الاعتكاف ١/٣١٣ .

(٣) أخرجه الطحاوي في المشكل ٤/٢٠ وفي متنه علة تمنع من صحته.

(*) سورة النحل الآية (٨).

(٤) الموطأ في الجهاد ٢/٤٥٧ .

وثالثها: احتجاجه بمفهوم المخالفة، وهو كثير جداً في الموطأ، مما يدل على أنه أصيل عند مالك، وسنكتفي فيه بذكر نموذجين: أحدهما قول مالك: لا يحل نكاح أمة يهودية ولا نصرانية، لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿**والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ فهن الحرائر من اليهوديات والنصرانيات، وقال تبارك وتعالى: ﴿**ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات**﴾ فهن الإماء المؤمنات، قال مالك: «فإنما أحل الله – فيما نرى – نكاح الإماء المؤمنات ولم يحلل نكاح إماء أهل الكتاب، اليهودية أو النصرانية»[١].

وثانيهما حديث ابن عمر: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر على كل حر أو عبد، ذكر أو أنثى من المسلمين»[٢].

فالعبد الكافر، والزوجة الكتابية، لا يجوز لسيده أو زوجها أن يخرج عنهما زكاة الفطر عند مالك، لأن التنصيص على الإسلام يخرج غير المسلم عنده من الحكم، خلافاً لأبي حنيفة.

ورابعها: احتجاجه بمفهوم الكتاب، وهو مفهوم الأولى، ويسمى مفهوم الموافقة، وحَدُّه إعطاء الحكم الذي ثبت في اللفظ المنطوق به، للمسكوت عنه، كقوله تعالى: ﴿**ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً**﴾[٣].

فمن كان مؤتمناً على أداء قنطار، كان أداؤه ما دون القنطار أولى، ومن كان غير مؤتمن على أداء دينار، كان عدم أدائه أقل منه، أحرى وأولى.

ومما يستدل به لمالك على قوله بمفهوم الموافقة – وإن كان لا خلاف فيه بين جميع الأئمة إلا الحنفية – ما أورده من حديث سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ قال: «من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿**أقم الصلاة لذكري**﴾»[٤].

---

(١) الموطأ في النكاح – باب النهي عن نكاح إماء أهل الكتاب – ٢ / ٥٤٠ والآية الأولى من سورة المائدة: رقم(٥) والثانية من سورة النساء: رقم (٢٥).

(٢) الموطأ في الزكاة ١ /٢٨٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية (٧٥).

(٤) الموطأ: كتاب وقوت الصلاة ١ / ١٤ والحديث أرسله مالك، وهو موصول عن أبي هريرة عند مسلم في كتاب المساجد حديث (٥٥).

فإذا كان الناسي يقضي الصلاة، فالمتعمد أولى بالقضاء عند مالك، بجامع التفريط في كل، وتفريط العامد، أشد من تفريط الناسي، هكذا قرر مالك هذه المسألة، آخذاً فيها بمفهوم الموافقة، وفي المسألة خلاف قوي معروف.

وخامسها: احتجاجه بتنبيه الكتاب، وهي دلالة الإيماء، التي يعني بها اقتران الحكم بوصف، لو لم يكن ذلك الوصف علة لذلك الحكم، لم يكن له معنى ، ومثاله عند مالك، حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله»[١].

فقوله: «فإن الشيطان»... تنبيه على علة الأمر بالأكل باليمين.

وسادسها: إلى العاشر، ما يقابل هذه من السنة، وهي نص السنة، وظاهر السنة ودليل السنة، ومفهوم السنة، وتنبيه السنة.

وفي الموطأ عشرات الأمثلة لذلك، فلا نطيل بها.

الأصل الحادي عشر: احتجاجه بالإجماع، وقد وقع الخلاف في الإجماع الذي يحتج به مالك، أهو إجماع المسلمين، أم إجماع أهل المدينة؟ فذهب بعض المالكية – كما نقل ابن حزم – إلى أن مالكاً يحتج بإجماع أهل المدينة دون ما سواه[٢] وكذلك نقل جماعة من الأصوليين هذا المعنى في باب الإجماع.

وليس هناك نص صريح عن مالك أنه لا يحتج إلا بإجماع أهل المدينة، وإنما فهم ذلك من فهمه من ظواهر كلامه التي قد تفيد ذلك إذا عزلت عن سياقها، وانقطعت صلتها بنصوص أُخَر لمالك في الموضوع، وسنبين ذلك في عمل أهل المدينة.

وبالجملة فمالك لا ينكر إجماع المسلمين، بل هو حجة عنده، وهو وإن أكثر في الموطأ من نقل إجماعات أهل المدينة، فإنه لم يخلها من ذكر إجماع المسلمين، ونكتفي بذكر موضعين ذكر فيهما الإجماع العام.

أولهما: ما ذكره بقوله: وقد أرخص الله للمسافر في الفطر في السفر، وهو أقوى على الصيام من المريض... وهو الأمر المجتمع عليه[٣].

---

(١) الموطأ، كتاب صفة النبي ﷺ ٢/٩٢٣ .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم ٤/٢٠٢ .

(٣) كتاب الصيام باب ما يفعل المريض في صيامه ١/٣٠٢ .

فتأمل كيف حكى في المسألة إجماع المسلمين، فهذا دليل على أنه يقول بالإجماع بمعناه العام.

وثانيهما: ما ذكره بقوله: «ولا يحل بيع الطعام قبل أن يستوفى، لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك، غير أن أهل العلم قد اجتمعوا على أنه لا بأس بالشرك، والتولية، والإقالة في الطعام وغيره»[١].

فتأمل كيف حكى إجماع أهل العلم على هذه الأمور الثلاثة، لأنهم أنزلوها منزلة المعروف، ولم ينزلوها منزلة البيع.

وإذ ثبت تصريحه بالإجماع العام في هذين المقامين وغيرهما، لم يبق للتخمين عليه أنه لا يقول إلا بإجماع أهل المدينة موقع، ووجب تأويل ظواهر كلامه التي تفيد خلاف ذلك إلى ما يوافقه.

الأصل الثاني عشر: عمل أهل المدينة، وقد أكثر مالك منه في موطئه، واعتمده وقدمه على أحاديث الآحاد إذا عارضته، واعتد به تفسيراً وتأويلاً، وتنزيلاً، بما لا نظير له عند غيره من الفقهاء، ففَهم من ذلك من فهم أنه يقدمه على إجماع المسلمين، فصوبوا إليه فيه سهام النقد، واعترضوا عليه فيه، حتى وصل بعضهم إلى أن يقَوِّله ما لم يقل وأن يَحمِّل كلامه ما لا يحتمل..

وهاك هذه الظواهَر المغرِّرة لمن اعترض على مالك:

- عن إسحاق قال: قال مالك: سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة، لم أحدث بها إلى اليوم، قلت: لم يا أبا عبد الله؟ قال لم يكن العمل عليها فتركتها[٢].

- قول مالك لليث بن سعد في رسالته المشهورة إليه: اعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه... فإنما الناس تَبع لأهل المدينة... وإن خالفهم مخالف، أو قال أمراً غيره أقوى منه وأولى تُرك قوله، وعمل بغيره... فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أر لأحد خلافه، للذي بأيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها[٣].

---

(١) كتاب البيوع ٢/٦٤٩.

(٢) الحلية لأبي نعيم ٦/٣٢٢.

(٣) ترتيب المدارك ١/٤١-٤٢-٤٣.

- نقل عن مالك أنه قال: «إذا أجمع أهل المدينة على شيء، لم يعتد بخلاف غيرهم»[١].

- وحكي عنه أنه قال: «إذا أجمع أهل المدينة على شيء صار إجماعاً مقطوعاً عليه، وإن خالفهم فيه غيرهم»[٢].

هذه النصوص، هي متمسَّك من يرى من المالكية والأصوليين أن مالكاً لا يحتج إلا بإجماع أهل المدينة.

والجواب أن هذه النصوص إنما تفيد اعتزاز مالك بعلم أهل المدينة وبفتاواهم، وبما كان معمولاً به عندهم، وليس فيها ما ينفي احتجاجه بإجماع المسلمين، وعباراته ترشد إلى ذلك.

- منها قوله في رسالة الليث: «أو قال أمراً غيره أقوى منه وأولى ترك قوله» يدل أن مالكاً يرى أن هناك قوياً من الآراء وأقوى، فهذا اعتراف برأي الغير أنه قوي، إلا أنه ترك لما هو أقوى منه، وهو ما عليه أهل المدينة، فلو كان يرى عمل أهل المدينة إجماعاً يبطل ما عداه، لما ساغ له هذا التفضيل الذي استعمله.

ثم إن ما ذكره من ترك المرجوح والأخذ بالأرجح، هو الذي عليه عامة الفقهاء والأصوليين.

- ومنها قوله: «فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أر لأحد خلافه» يفيد أن عمل أهل المدينة لا يحتج به مالك إلا بهذين الشرطين:

أن يكون معروفاً منتشراً بينهم، وأن يكون قد اتصل به العمل من القديم، ولا أظن أن مثل هذا العمل يستطيع فقيه أن يطعن فيه أو يتجاوزه، فلو كان مالك يعتبره هو الإجماع دون ما سواه لقال: «لم يحل لأحد خلافه» لأن هذا هو حقيقة إجماع المسلمين، ولكنه احترس في كلامه فقال: «لم أر» فجعل هذا الحكم رأياً له واجتهاداً منه، وليس بقطع منه على أن المخالف يفسق أو يكفر بذلك، كما هو حكم الإجماع الحقيقي.

- ثم إن ما نقله البزودي وابن تيمية، فهو منقول بغير إسناد، وينبغي التوقف فيه، وأنا أستبعد صحة ذلك عن مالك، ويؤكد ذلك أن ما في المسودة، نقل بصيغة التمريض، مما يدل على الشك فيه.

---

(١) كشف الأسرار للبزدوي ٣ / ٩٦١ .

(٢) المسودة لآل تيمية ٢٩٧ .

- اعتبار عمل أهل المدينة حجة يجب الرجوع إليها، ليس رأياً لمالك وحده، بل هو رأي لمن تقدمه أيضاً وتبعه هو عليه.

فمن ذلك قول زيد بن ثابت: «إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة»[١].

وقال أبو بكر بن حزم: «إذا وجدت أهل هذا البلد قد أجمعوا على شيء، فلا تشكن فيه أنه الحق»[٢].

وقال الشافعي: «إجماع أهل المدينة، أحب إلي من القياس»[٣].

وهذا كله يدل على أن الاحتجاج بعمل أهل المدينة، ليس بمستنكر عند أهل العلم، ولا بغريب عنهم، ومالك - رضي الله عنه - تميزت طريقته فيه بكونه أكد عليه، ووسع مجراه، واحتج له واحتج به، وأطال الكلام فيه، ليبين أصالته وجدارته بالأخذ به، ولم يطل في حكاية الإجماع بمعناه العام، لأنه أصل مسلم عند جميع من يعتد بهم، فلا مزية فيه لأحد على غيره، وأراد مالك بالتأكيد على عمل أهل المدينة، أن يمحصه وأن يحرره، لكونه يعلم أن فيه نزاعاً نشأ من عدم إدراك المراد من المصطلحات التي استعملها فيه مالك تارة، ومن علاقته بالإجماع بمعناه العام، فهذا اللبس، هو الذي أراد مالك باعتماده هذا الأصل إزاحته، فقد أورد هذا الأصل في موطئه - كما أحصيته منها في أربع وثلاثين وثلاثمائة مسألة فقهية [٣٣٤] واستعمل لذلك ما يناهز سبعين مصطلحاً، وهذه بعضها:

١- الأمر المجتمع عليه عندنا.

٢- مضت السنة التي لا اختلاف فيها عندنا.

٣- وذلك الذي لم يزل عليه أهل العلم ببلدنا.

٤- وهذا الأمر عندنا، والذي أدركت عليه أهل العلم ببلدنا.

٥- الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا.

٦- لم يزل الأمر عندنا على هذا.

٧- ولم يزل ذلك من عمل الناس الجائز بينهم، والذي لم يزل عليه أهل العلم ببلدنا.

٨- فرق بين ذلك السنةُ والعمل المعمول به.

---

(١) المدارك ١/٣٨٨.

(٢) المصدر نفسه ١/٤٠.

(٣) المصدر نفسه ١/٥٨.

٩- ليس في ذلك أمر مجتمع عليه عندنا.

١٠- ما سمعت أحداً ممن مضى يحد فيه حداً.

١١- ليس العمل على هذا.

١٢- هو أحسن ما سمعت من أهل العلم، وأدركت عمل الناس على ذلك.

١٣- وليس لذلك عندنا حد معروف.

١٤- ما أدركت أحداً من أهل بلدنا يرى ذلك ولا يفتي به.

١٥- ليس هذا الحديث بالمجتمع عليه، وليس عليه العمل.

١٦- ذلك يعجبني، على ذلك رأيت الناس.

١٧- وعلى هذا أدركت من أرضى من أهل العلم.

١٨- هذا الأمر القديم الذي لم تزل الناس عليه.

ويمكن تصنيف هذه المصطلحات إلى ثلاثة أصناف:

أحدها: ما وقع عليه إجماع أهل المدينة خلفاً عن سلف، وهو الذي يتعمل له مصطلحات: «الأمر المجمع عليه عندنا» «مضت السنة التي لا اختلاف فيها عندنا» وأشباهها.

وثانيهما: ما فيه خلاف بينهم، ورجح فيه قولاً من أقوالهم وتبناه، باعتبار أن عمل الناس عليه، وهو الذي يعبر عنه بقوله: «وعلى هذا أدركت من أرضى من أهل العلم» وقوله: «وهو أحسن ما سمعت من أهل العلم» ونحوها.

وثالثها: حكاية عدم الخلاف بين جميع المسلمين، والاحتجاج بإجماعهم في المسألة، ويستعمل له مصطلح «ذلك من سنة المسلمين التي لا اختلاف فيها» و«السنة التي لا شك فيها ولا اختلاف» و«ليس من سنة المسلمين».

فإذا تأملت هذه المصطلحات، وجدت أن عمل أهل المدينة أخذ حيزاً شاسعاً، بالنسبة لما أجمع عليه المسلمون، وذلك للفت النظر لهذا الأصل الأصيل لاعتبارات حقيقية وواقعية، تجعله جديراً بالتمسك به.

وإذا صح لنا يقيناً أن مالكاً لم يعن بإجماع أهل المدينة إجماع الأمة، فماذا يقصد به؟

وهل هو حجة عنده يقدّم على النص والإجماع والقياس، أو هي أقوى منه؟

لا شك أن مالكاً – رحمه الله – يجعل مرتبة هذا الإجماع بعد مرتبة إجماع الأمة، فيخصص به النصوص، ويقيدها، ويردها به إذا عارضته، فهو عنده أقوى من خبر الآحاد والقياس، كما بيناه في بعض النصوص السابقة، ونبينه في النصوص اللاحقة.

– قال ابن وهب وابن القاسم: «رأيت العمل عند مالك، أقوى من الحديث»(١) يعنيان حديث الآحاد الذي يعارضه العمل، وتقديم العمل على خبر الآحاد، ليس مذهباً لمالك وحده، وإنما هو رأي من تقدمه، ومن جاء بعده، وجذوره تمتد إلى الصحابة – رضوان الله عليهم – فقد رُوي أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال على المنبر: «أحرج بالله عز وجل على رجل روى حديثاً العمل على خلافه»(٢).

وسئل ابن الماجشون: لم رويتم الحديث ثم تركتموه؟ فقال: «ليعلم أنا على علم تركناه»(٣).

وقال ابن مهدي: «السنة المتقدمة من سنة أهل المدينة، خير من الحديث»

وقال: «إنه ليكون عندي في الباب الأحاديث الكثيرة، فأجد أهل العرصة على خلافه فيضعف عندي»(٤).

وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: «ألف عن ألف، أحب إلي من واحد عن واحد»(٥)

وقال ابن أبي الزناد: «كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء، ويسألهم عن السنن والأقضية التي يعمل بها فيثبتها، وما كان منها لا يعمل به الناس ألقاه، وإن كان مخرجه عن ثقة»(٦).

هذا الإجماع المدني الذي ترد به النصوص الصحيحة إذا عارضها، اختلف المالكية وغيرهم في المراد به عند مالك، هل هو الإجماع القديم، أو الإجماع الحديث المبني على الاستدلال؟ فذهب المحققون منهم إلى أن إجماع أهل المدينة الذي يجعله مالك حجة لا تجوز مخالفته، هو الإجماع الذي طريقه النقل والحكاية ينقله جيل عن جيل من زمن الصحابة

---

(١) المدارك ١/٤٥.
(٢) المدارك ١/٤٥.
(٣) المصدر نفسه ١/٤٥.
(٤) المصدر نفسه ١/٤٥.
(٥) المصدر نفسه ١/٤٦.
(٦) المصدر نفسه ١/٤٦.

إلى زمن مالك، وهذا مذهب القاضي عياض، وحكاه عن أكثر شيوخه. وقال القاضي عبد الوهاب: «ولا خلاف بين أصحابنا في هذا»[١].

وإليه ذهب الصيرفي وغيره من أصحاب الشافعي.

وأما الإجماع المبني على النظروالاجتهاد، فقد اختلف فيه المالكية، فذهب جماعة من المغاربة، والقاضي أبو الحسن بن أبي عمر البغدادي، وأبو مصعب، وأحمد بن المعذل، إلى أنه حجة كالأول، واتفق هؤلاء على أنه مذهب مالك، وهو مقدم عندهم على خبر الآحاد والقياس، ورد عليهم القاضي عياض في نسبتهم ذلك لمالك بقوله: «ولا يصح عنه كذا مطلقاً»[٢].

وذهب جمهورهم إلى أن هذا النوع ليس بحجة، قال القاضي عياض: «وهو قول كبراء البغداديين، منهم ابن بكير، وأبو يعقوب الرازي، وأبو الحسن بن المنتاب... قالوا: لأنهم بعض الأمة، والحجة إنما هي بمجموعها، وهو قول المخالفين أجمع... وأنكر هؤلاء أن يكون مالك يقول هذا، وأن يكون مذهبه ولا أئمة أصحابه»[٣].

ثم قسم القاضي عياض النوع الأول من إجماع أهل المدينة إلى أربعة أقسام:

١- ٢- نقل شرع من جهة النبي ﷺ من قول أو فعل، كالصاع، والمد، وأنه عليه السلام كان يأخذ منهم بذلك صدقاتهم، وفطرتهم، وكالأذان، والإقامة، وترك الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة، وكالوقوف والأحباس، فنقلهم لهذه الأمور منم قوله وفعله، كنقلهم موضع قبره، ومسجده، ومنبره ومدينته، وغير ذلك مما يعلم ضرورة من أحواله وسيره، وصفة صلاته من عدد ركعاتها وسجداتها وأشباه هذا...

٣- نقل إقراره عليه السلام لما شاهده منهم ولم ينقل عنه إنكاره، كنقل عهدة الرقيق، وشبه ذلك.

٤- نقل تركه لأمور وأحكام لم يلزمهم إياها، مع شهرتها لديهم، وظهورها فيهم، كترك أخذ الزكاة من الخضروات، مع علمه عليه السلام بكونها عندهم كثيرة.

---

(١) المدارك ١/٤٩.

(٢) المدارك ١/٥١.

(٣) المدارك ١/٥٠.

فهذا النوع من إجماعهم في هذه الوجوه، حجة يلزم المصير إليها، ويترك ما خالفه من خبر واحد أو قياس، فإن هذا النقل محقق، معلومُه موجب للعلم القطعي، فلا يترك لما توجبه غلبة الظنون، وإلى هذا رجع أبو يوسف وغيره من المخالفين ممن ناظر مالكاً وغيره من أهل المدينة في مسألة الأوقاف والمد والصاع، حين شاهد النقل وتحقَّقه..(١).

فهذه الأقسام الأربعة، ترجع في حقيقتها إلى السنة القولية، والفعلية، والتركية، والتقريرية، فنقلُ الكافة لها، يوجب أن ما يعارضها مما دونها، يترك لها.

ونحو هذا التقسيم سلك ابن تيمية، لكنه بشيء من التفصيل والتدقيق على عادته في الإيضاح والبيان فقال: «والتحقيق في مسألة إجماع أهل المدينة، أن منه ما هو متفق عليه بين المسلمين، ومنه ما هو قول جمهور أئمة المسلمين، ومنه ما لا يقول به إلا بعضهم، وذلك إن إجماع أهل المدينة على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: ما يجري مجرى النقل عن النبي ﷺ، مثل نقلهم لمقدار الصاع، والمد، وكترك صدقة الخضروات والأحباس، فهذا مما هو حجة باتفاق العلماء...

المرتبة الثانية: العمل القديم بالمدينة، قبل مقتل عثمان بن عفان، فهذا حجة في مذهب مالك، وهو المنصوص عن الشافعي، قال في رواية يونس بن عبد الأعلى «إذا رأيت قدماء أهل المدينة على شيء، فلا تتوقف في قلبك ريباً أنه الحق» وكذا ظاهر مذهب أحمد أن ما سنه الخفاء الراشدون، فهو حجة يجب اتباعها... فالمحكي عن أبي حنيفة يقتضي أن قول الخلفاء الراشدين حجة، وما يعلم لأهل المدينة عمل قديم على عهد الخلفاء الراشدين مخالف لسنة الرسول ﷺ.

المرتبة الثالثة: إذا تعارض في المسألة دليلان، لحديثين وقياسين، جهل أيهما أرجح، وأحدهما يعمل به أهل المدينة، ففيه نزاع، فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح بعمل أهل المدينة، ومذهب أبي حنيفة أنه لا يرجح بعمل أهل المدينة...

وأما المرتبة الرابعة: فهي العمل المتأخر بالمدينة، فهذا هل هو حجة شرعية يجب اتباعه أم لا؟ فالذي عليه أئمة الناس، أنه ليس بحجة شرعية، هذا مذهب الشافعي، وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم، وهو قول المحققين من أصحاب مالك كما ذكر ذلك القاضي عبدالوهاب في كتابه أصول الفقه وغيره، وذكر أن هذا ليس إجماعاً ولا حجة، عند المحققين

(١) المدارك ١/٤٨-٤٩ .

من أصحاب مالك، وربما جعله حجة بعض أهل المغرب من أصحابه، وليس معه للأئمة نص ولا دليل، بل هم أهل تقليد . قلت : ولم أر في كلام مالك ما يوجب جعل هذا حجة، وهو في الموطأ إنما يذكر الأصل المجمع عليه عندهم، فهو يحكي مذهبهم، وتارة يقول : « الذي لم يزل عليه أهل العلم ببلدنا » يصير إلى الإجماع القديم، وتارة لا يذكر[١].

وبالمقارنة بين تفصيل ابن تيمية وما ذكره القاضي عياض، يتضح لك أن القاضي عياض أجمل في النوع الثاني من إجماع أهل المدينة، وهو ما كان عن اجتهاد، ولم يبين هل هو من العمل القديم زمن الصحابة أو من العمل الجديد، وفصل في هذا النوع ابن تيمية، فبين أن ما كان عملاً لأهل المدينة عن طريق الاجتهاد زمن الخلفاء الأربعة، فهو حجة، ولا يعلم في هذا النوع أنه يخالف سنة رسول الله ﷺ وأما ما كان عملاً لهم عن اجتهاد بعد الخلفاء الأربعة، فليس بحجة.

ويمكن أن يفهم كلام القاضي عياض على نحو آخر، بأن يكون العمل القديم بالمدينة زمن الخلفاء الأربعة، قد أدرجه فيما يجري مجرى النقل ، لحديث العرباض بن سارية مرفوعاً : « عليكم بسنتي وسنة الخفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ »[٢].

فما دام النبي ﷺ قد اعتبر ما سنه الخلفاء اجتهاداً سنة، فهو يلحق بسنته، ويكون النوع الثاني من إجماع أهل المدينة المبني على الاستدلال، هو الذي يقصده القاضي عياض، وهو العمل المتأخر بالمدينة، وحكى عن معظم المالكية أنه ليس بحجة، وهذا التوجيه لكلامه أولى من ادعاء الإجمال فيه، وخاصة أنه يشهد له حكايته أن القلة هي التي تحتج به، فلو كان يقصد العمل القديم والحديث معاً، لما صحت له هذه الحكاية، ولا كان مصيباً في ذلك، ويبقى كلام ابن تيمية في تقسيمه أوضح، وإن كان غالب ما ذكر قد استمده من عياض والقاضي عبد الوهاب.

وبالجملة فإجماع أهل المدينة الذي نوه به مالك، يحتاج لدراسات مستفيضة مطولة، ومتأنية – للوصول للحقيقة فيه يقيناً – على النحو الآتي :

– دراسة جميع المسائل التي حكى فيها مالك إجماع أهل المدينة دراسة موازنة، ليتبين ما فيه الخلاف مما ليس فيه، وإن كان فلمن، ولم؟

(١) الفتاوى ٢٠/٣٠٣ .
(٢) حديث صحيح : اخرجه أبو داود في كتاب السنة ٤/٢٠١ .

- دراسة جميع القضايا التي يحكي فيها مالك الإجماع القديم، للوصول إلى مرده، هل كان نصاً، أو اجتهاداً، ليتأكد بذلك من قول ابن تيمية: إنه لا يعلم عملاً قديماً يخالف سنة.

- دراسة العمل المتأخر بالمدينة الذي لمالك فيه اختيارات وترجيحات، للنظر في مستمده، وفي قيمته العلمية، مع تحديد الزمن الفاصل بين العمل القديم والحديث بالمدينة، هل هو بزمن الخلفاء، أو بموت آخر صحابي بالمدينة.

هذه الدراسة على هذا النحو، آمل - إن شاء الله - أن أقوم بها إن لم يقم بها أحد.

الأصل الثالث عشر القياس: وهو أصل عند جميع الأئمة سوى الظاهرية، وقد أكثر مالك من أمثلة القياس في الموطأ، قال ابن القصار: «ومن مذهب مالك - رحمه الله - القول بالقياس، وقد بينا الحجة له»[١].

قلت ومن أمثلته من الموطأ قوله: «القوم يصيبون الصيد جميعاً وهم محرمون، أرى أن على كل إنسان منهم جزاءه... ومثل ذلك القوم يقتلون الرجل خطأ، فتكون كفارة ذلك... على كل إنسان منهم»[٢].

وقال: «وكل شيء فدي، ففي صغاره مثل ما يكون في كباره، وإنما مثل ذلك مثل دية الحر الصغير والكبير، فهما بمنزلة واحدة سواء»[٣].

الأصل الرابع عشر: قول الصحابي، ويظهر من تصرف مالك أنه حجة عنده وقد أكثر من آثار الصحابة في الموطأ، تارة يجعلها تفسيراً لإجمال في المرفوع، وتارة يقيد بها العام والمطلق، وتارة يحتج بها لمسألة فقهية، إذا لم يجد فيها شيئاً مرفوعاً على شرطه، وتارة يبين بها العمل المستمر على نحو ما، وتارة يستدل بها على ترك ظاهر نص ما، إلى غير ذلك من تصرفاته فيه.

ثم إن أقواله المنقولة عنه تفيد هذا أيضاً، ففي مسألة قول عراقي لامرأته: «حبلك على غاربك» فسأله عمر - رضي الله عنه - ماذا يريد بذلك؟ فقال: الفراق. فقال عمر: «هو ما أردت»[٤].

---

(١) مقدمة في أصول الفقه، ورقة (٨) مخطوطة خاصة في ملكي.

(٢) الموطأ: كتاب الحج ١/٤٢٠.

(٣) المصدر نفسه ١/٤١٦.

(٤) الموطأ: كتاب الطلاق ٢/٥٥١.

نقل عن مالك أنه قال: «لو علمت أن عمر قال ذلك، لقلت به»[١].

فهذا دليل على أنه يرى أقوال الصحابة حجة، وخاصة الخلفاء منهم. قال القرافي: «وأما قول الصحابي، فهو حجة عند مالك والشافعي في القديم مطلقاً»[٢].

وقال الحجوي: «فقد احتج به مالك كما سبق، وهو من أصول مذهبه، لكن إن صح سنده، وكان من أعلام الصحابة، كالخلفاء، أو معاذ، أو أبي، أو عمر، أو ابن عباس، أو نظرائهم، لأنه يكون عن اجتهاد أو توقيف، ويشترط أن لا يخالف الحديث المرفوع الصالح للحجية، وإلا فالحديث مقدم لا القياس»[٣].

قلت: تقييد ذلك بأعلام الصحابة، لا يدل عليه تصرف مالك في الموطأ، ولم يقتصر فيه على الاحتجاج بعمل المشاهير أو أقوالهم، بل احتج فيه بغير المشاهير، فتنبه.

وقال ابن تيمية: «وأما أقوال الصحابة، فإن انتشرت ولم تنكر في زمانهم، فهي حجة عند جماهير العلماء، وإن تنازعوا، رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، ولم يكن قول بعضهم حجة، مع مخالفة بعضهم له باتفاق العلماء، وإن قال بعضهم قولاً، ولم يقل بعضهم بخلافه ولم ينتشر، فهذا فيه نزاع، وجمهور العلماء يحتجون به، كأبي حنيفة، ومالك، وأحمد في المشهور عنه، والشافعي في أحد قوليه، وفي كتبه الجديدة الاحتجاج بمثل ذلك في غير موضع، ولكن من الناس من يقول: هذا هو القول القديم»[٤].

ونحو هذا ذكر ابن القيم، ثم ذكر ستة وأربعين دليلاً على وجوب اتباع الصحابة، وأفاض فيها، وأجاب عما يرد عليها وما يقدح فيها[٥].

الأصل الخامس عشر: الاستحسان، وهذا الأصل وقع فيه اضطراب كبير، حتى استغلق واستبهم، فقد اختلف الأصوليون في حقيقته، وفي أمثلة وقوعه.

فأما حقيقته، فقد ذكروا فيها تعاريف كثيرة متناقضة فيما بينها، ومتباينة مع الأمثلة التي ينزلونها عليها، وهذا لاضطراب، سببه عدم وضوح المقصود بمصطلح الاستحسان، فمنهم من يجعله قياساً أولى، ومنهم من يجعله مخصصاً لعموم، ومنهم من يجعله مصلحة

(١) القبس لابن العربي ٢/٧٢٩.
(٢) تنقيح الفصول ٤٤٥.
(٣) الفكر السامي ١/٣٩١.
(٤) الفتاوى ٢٠/١٤.
(٥) أعلام الموقعين ٤/١١٩ وما بعدها.

مرسلة، وهذا يزيد المسألة غموضاً وتعقيداً، ولذلك أنكره الشافعي، وشنع على القائلين به، وقد أصاب في ذلك، لأن الاستحسان معنى يسمع، ولا تشم له رائحة، ولا تلمس له حقيقة وما كان كذلك فهو باطل تتنزه الشريعة عن مثله.

أ- التعاريف :

١) **الاستحسان**: «القول بأقوى الدليلين» وهذا التعريف نقله الباجي عن ابن خويزمنداد[١] ومثلوا له بجواز بيع العرايا، المخصوص من عموم منع بيع الجنس بجنسه متفاضلاً.

أقول: إذا كان هذا هو الاستحسان، فليس إلا تخصيص دليل بدليل، فقد دخل في جملة الأدلة الأربعة المتفق عليها، وهذا يناقض عدّهم له من الأدلة المختلف فيها.

٢) **تخصيص الدليل العام بالعادة لمصلحة**، كاستحسان جواز دخول الحمام من غير تعيين زمن المكث فيه، وقدر الماء.

قلت: لم يخرج الاستحسان بهذا المعنى عن كونه مخصصاً لدليل عام، وهو أن الأجرة في الحمام، تكون على قدر المكث، وعلى قدر الماء المستهلك، فعدل عن ذلك إلى عدم التقدير، فمثل هذا الدليل لم يخرج من دائرة التخصيص بالعرف.

٣) **استعمال مصلحة جزئية**، في مقابلة دليل كلي.

فعلى هذا فالاستحسان هو نوع من المصالح المرسلة، فإذا كان كذلك، فهو داخل في جنس المصالح، فلم اعتبروه أصلاً مستقلاً بنفسه.

٤) **دليل ينقدح في نفس المجتهد**، تقصر عبارته عنه[٢].

وهذا التعريف، يوجب الضحك، إذ كيف يكون أصل من الأصول المستمد من نصوص عديدة انقداحاً فحسب، ويعسر على المجتهد التعبير عنه، فهو بهذا وسواس من الوساويس، وانطباع من الانطباعات، وحديث نفس لا علاقة له بعلم، ولا بواقع ولا بشرع، والشريعة تأبى مثل هذا.

ومثل هذا التضارب في حقيقة الاستحسان، هو الذي دفع الشافعي إلى إنكاره، وإطالة الكلام في رده بحجج ناصعة في كتابه، إبطال الاستحسان[٣].

---

(١) إحكام الفصول في أحكام الأصول ٥٦٤ .

(٢) انظر هذه التعاريف في مراقي السعود مع شرحه نثر الورود ٥٧١-٥٧٢ .

(٣) وهو ضمن كتاب الأم انظر ٧/٣٠٩ وما بعدها.

حتى قال: «من استحسن فقد شرع»[١].

ب- مذهب مالك في الاستحسان: نَسَبَ القول بالاستحسان إلى مالك إمامُ الحرمين، وأنكره القرطبي، وقال: ليس معروفاً من مذهبه[٢].

ونقل ابن القاسم عن مالك أنه قال: «تسعة أعشار العلم الاستحسان»[٣].

وقال الأبياري: «الذي يظهر من مذهب مالك، القول بالاستحسان»[٤].

وقال بعض محققي المالكية: «بحثت عن موارد الاستحسان في مذهبنا، فإذا هو يرجع إلى ترك الدليل بمعارضة بعض مقتضاه».

فإذا كان الاستحسان هو ترجيح قياس على قياس، أو دليل على دليل أو تخصيص عام بمصلحة أو عرف، فلا غبار عليه، لأنه يرجع للأصول المتفق عليها ويبقى الاعتراض في جعله دليلاً مستقلاً مختلفاً فيه، وليس كذلك، وحين نجد هؤلاء المذكورين نسبوا لمالك القول به، فإننا نجد الاحتراس في نسبته له عند الباجي بقوله: «ذكر محمد بن خويزمنداد من أصحابنا أن معنى الاستحسان الذي ذهب إليه أصحاب مالك - رحمه الله - القول بأقوى الدليلين»[٥].

وكذلك فعل الشاطبي بقوله: «وهو في مذهب مالك الأخذ بمصلحة جزئية في مقابلة دليل كلي»[٦].

فتأمل كيف نسب الباجي ذلك لأصحاب مالك دونه، وكيف نسبه الشاطبي لمذهبه دونه، وذلك يؤذن بأن في ذلك غموضاً، والمسألة لا تزال بحاجة للاستقراء من كتب المالكية، وهي من المسائل المشكلة المصطلح الغامضة التطبيق.

الأصل السادس عشر: سد الذرائع: والمراد بالذريعة الوسيلة، فالوسيلة الجائزة إذا كانت تفضي إلى محرم فهي حرام، أو إلى مكروه فهي مكروهة.

---

(١) انظر البحر المحيط ٦/٨٧.

(٢) البحر المحيط ٦/٨٧.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٦/١٦.

(٤) البحر المحيط ٦/٨٩.

(٥) إحكام الفصول ٥٦٤.

(٦) الموافقات ٤/٢٠٥-٢٠٦.

قال القاضي عبد الوهاب: «الذرائع هي الأمر الذي ظاهره الجواز، إذا قويت التهمة في التطرق به إلى الممنوع»[١].

وقال القرافي: «سد الذرائع، ومعناه حسم مادة وسائل الفساد دفعاً لها، فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة للمفسدة، مَنع مالك من ذلك الفعل في كثير من الصور، وليس سد الذرائع من خواص مذهب مالك، كما يتوهمه كثير من المالكية»[٢] قلت: من خواص مالك فيها، الإكثار منها، وإبرازها، وله فيها حس خاص حتى نسب له الغلو فيها. فكل ما يظنه وسيلة لمكروه أو محرم، فإنه يمنعه وإن كان جائزاً، حتى قال الشاطبي – رحمه الله –: «حكمها مالك في أكثر أبواب الفقه»[٣].

وقال ابن القيم «وباب سد الذرائع، أحد أرباع التكليف...»[٤].

ثم سرد لها تسعة وتسعين مثالاً.

ومالك – رحمه الله – أيضاً قد ذكر لها أمثلة كثيرة في موطئه، منها بيوع الآجال التي بوب عليها مالك بقوله: باب ما جاء في الربا في الدين، فذكر قصة الرجل يكون له الدين على رجل إلى آجل، فيضع عنه صاحب الحق ويعجله الآخر، فكره ذلك ابن عمر ونهى عنه»[٥].

وإنما نهى عنه لما فيه من ذريعة إلى الربا.

ومن ذلك منْعُ مالك بيع العينة، وبيع الطعام قبل قبضه، والإقالة مع الزيادة أو النقصان، ومنع صوم ستة أيام من شوال، حتي لا يعتقد أنها تتمة لرمضان، وغيرها من القضايا الكثيرة التي يزخر بها الموطأ في كتاب البيوع وغيره.

وهذا الأصل – أعني سد الذرائع – أصل مقطوع به في الشريعة، لتواتر الأدلة الدالة عليه، ولا يختلف عامة الفقهاء في حقيقته، وإنما يختلفون في تطبيقات جزئياته، والمالكية من أرعى الناس للمقاصد والمآلات، حتى قال الذهبي: «إلى فقه مالك المنتهى، فعامة آرائه مسددة، ولو لم يكن له إلا حسم مادة الحيل، ومراعاة المقاصد لكفاه»[٦].

---

(١) الإشراف على مسائل الخلاف، للقاضي عبد الوهاب البغدادي ١ / ٢٧٥ .

(٢) الفروق ٢ / ٣٢ .

(٣) الموافقات ٤ / ١٩٨ .

(٤) أعلام الموقعين ٣ / ١٥٩ .

(٥) الموطأ: في البيوع ٢ / ٦٧٢ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٨ / ٩٢ .

الأصل السابع عشر: المصالح المرسلة:

أ- **تسمى أيضاً بالاستدلال المرسل**، وبالوصف المناسب، أو الاستصلاح، وعرفوها بأنها «ما لم يشهد له الشرع لا باعتباره ولا بإلغائه» وهذا التعريف مشكل، لأنهم يشترطون للعمل بالمصالح المرسلة ثلاثة شروط:

أحدها: أن تكون محققة لا مظنونة.

والثاني: أن لا تخالف نصاً شرعياً.

والثالث: أن تندرج تحت أصل عام(١).

فهذا الشرط الثالث، ينافي ما ذكروه في التعريف من أن المصالح المرسلة، ما لم يشهد لها الشرع لا بالاعتبار ولا بالإلغاء، فمتى كانت داخلة تحت نصوص عامة، فقد شهد لها الشرع بالاعتبار، ولا فرق بين أن يشهد لها بنص خاص، أو نص عام، فكلاهما حجة.

وعليه فلا بد من تقييد التعريف حتي يتفق مع الشروط وينضبط بها، ويكون واقعياً، فيقال: «المصالح المرسلة، هي التي لم يشهد لها الشرع لا بالاعتبار ولا بالإلغاء بنص معين» وهذا القيد قد تنبه له الشاطبي في الاعتصام، وأغفله كثير ممن تكلموا في المناسب المرسل، فوقعوا في التناقض في الأمثلة التي يذكرونها، والتعريف المطلق الذي يسوقونه.

ب- مذاهب العلماء في الاحتجاج بالمصالح المرسلة:

المصالح المرسلة، احتج بها مالك وأحمد، واعتبراها أصلاً في التشريع، وذهب الشافعي وأبو حنيفة إلى عدم اعتبار المصالح المرسلة أصلاً مستقلاً.

والحق أن الخلاف معهم في التسمية، وقد اعتمدا على المناسب المرسل في قضايا كثيرة، ويسمونها قياساً(٢).

ومالك قد اعتمدها كثيراً حتى قال إمام الحرمين: «وأفرط الإمام، إمام دار الهجرة مالك ابن أنس في القول بالاستدلال، فرُئِي يثبت مصالح بعيدة عن المصالح المألوفة، والمعاني المعروفة في الشريعة، وجره ذلك إلى استحداث القتل، وأخذ المال بمصالح تقتضيها في غالب الظن، وإن لم يجد لتلك المصالح مستنداً إلى أصول، ثم لا وقوف عنده بل الرأي رأيه، ما استدّ نظره فيه، وانتقض عن أوضار التهم والأغراض(٣).

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ٢/٨٠-٨١.

(٢) انظر البحر المحيط ٦/٧٨، والوصول إلى الأصول لابن برهان ٢/٢٨٨.

(٣) البرهان ٢/٧٢١.

قلت: وهذا كلام من لا يعرف مالكاً ولا مذهبه، وهو زلة من إمام الحرمين في حق هذا الإمام، ورحم الله من قال: «الإنسان يكون عالماً في شيء، وعامياً في شيء آخر» فلو خبر الجويني مذهب مالك، لوجده من أسد المذاهب وأقواها في رعاية المصالح.

إذا ثبت هذا فاي خصوصية لمالك في هذا الأصل؟

والجواب أن له فيه خصوصية، وهي الالتفات إليه، والاعتناء به، وبناء الأحكام عليه في الضروريات، والحاجيات، والتحسينات، فيما عدا العبادات، كما أفاداه الشاطبي بقوله: «ولذلك التزم مالك في العبادات عدَم الالتفات إلى المعاني، وإن ظهرت لبادئ الرأي، وقوفاً مع ما فهم من مقصود الشارع فيها من التسليم على ما هي عليه... بخلاف قسم العادات، الذي هو جار على المعنى المناسب، الظاهر للعقول، فإنه استرسل فيه استرسال المدل العريق في فهم المعاني المصلحية، نعم، مع مراعاة مقصود الشارع أن لا يخرج عنه، ولا يناقض أصلاً من أصوله، حتى لقد استشنع العلماء كثيراً من وجوه استرساله، زاعمين أنه خلع الربقة، وفتح باب التشريع، وهيهات، ما أبعده من ذلك – رحمه الله – بل هو الذي رضي لنفسه في فقهه الاتباع، بحيث يخيل لبعض أنه مقلد لمن قبله، بل هو صاحب البصيرة في دين الله...»[١].

قال ابن دقيق العيد: «الذي لا شك فيه أن لمالك ترجيحاً على غيره من الفقهاء في هذا النوع، ويليه أحمد بن حنبل، ولا يكاد يخلو غيرهما عن اعتباره في الجملة»[٢].

وقال ابن برهان: «هو أجل قدراً من أن يُنسَب إليه مثل ذلك، وإنما نقل عنه مسائل، تبتني على أصول خاصة، فظن طائفة من أصحابنا أنه أجاز التمسك بالاستدلال المرسل»[٣].

وقال ابن جُزي: «فحاصِل هذا أنه اعتبر المصلحة والذريعة أكثر من غيره، لا أنه انفرد بها»[٤].

وقال ابن العربي: «كان مذهب مالك أشرف المذاهب، لتتبعه المعاني، وإعراضه عن الظاهر»[٥].

---

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ٢/٩٢.
(٢) البرهان للجويني ٦/٧٧.
(٣) الوصول إلى الأصول لابن برهان ٢/٢٨٨.
(٤) تقريب الوصول إلى علم الأصول ١٤٩.
(٥) القبس ٣/١١١٧.

إذا تبين بهذا، أن التعليل المصلحي المشهود لجنسه شرعاً، معتبر عند مالك في الأحكام مطلقاً، تبين بذلك اتساع دائرة الاجتهاد عنده، بناء على هذا الأصل ولا بدع في ذلك، فمالك – رضي الله عنه – إنما اقتدى في ذلك بعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ففقْهُه، فقه مصلحي تعليلي، يستند إلى كليات الشريعة، وقواعدها العامة، وليس هوى أو استرسالاً فيما لا دليل عليه.

ج- نماذج من الموطأ للمصالح المرسلة:

منها قول مالك في تفسير قوله ﷺ: «ولا يخطب أحدكم على خطبة أخيه» أن ذلك منهي عنه إذا ركنت إليه واتفقا على صداق معلوم، ولم يعن بذلك إذا خطب الرجل المرأة فلم يوافقها أمره ولم تركن إليه أن لا يخطبها أحد، فهذا باب فساد يدخل على الناس[١].

فانظر كيف قيد النص بالمصلحة التي فيها دفع المشقة والمفسدة على الناس في أمر حاجي.

ومنها: أن من مات وعليه نذر من صدقة أو بدنة، فإنها تخرج من ثلث ماله لا من رأس المال، قال مالك: «لأنه لو جاز له ذلك في رأس ماله، لأخر المتوفَّى مثل ذلك من الأمور الواجبه عليه، حتى إذا حضرته الوفاة وصار المال لورثته، سمى مثل هذه الأشياء التي لم يكن يتقاضاها منه متقاض..»[٢].

والسبب في عدم وجوبها في رأس المال، اتهامه على أنه يريد بذلك إضرار الورثة حينما أوصى بذلك عند وفاته، فعومل بنقيض قصده، وهذا الأصل فيه رعاية مصلحة مناسبة، وقد استعمل شرعاً في مثل قوله ﷺ: «ليس للقاتل شيء»[٣]. وما ذاك إلا أنه يتهم بأنه قتل مورثه ليرثه، ومن استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه وكذلك استعمله عثمان في قضائه بتوريث المرأة من زوجها إذا طلقها في مرض موته[٤]. وكذلك عمر في قضية المفقود فقد قضى أن امرأته تنتظره أربع سنين، ثم تعتد عدة الوفاة ثم تحل[٥].

(١) الموطأ: كتاب النكاح ٢/٥٢٤.

(٢) الموطأ: كتاب الصوم ١/٣٠٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الديات، رقم ٤٥٦٤.

(٤) انظر الموطأ: الطلاق ٢/٥٥٧١.

(٥) الموطأ: الطلاق ٢/٥٧٥.

فهذا الحكم مصلحة مخضة، قال ابن العربي: «مسألة المفقود وقعت في زمن عمر فقضى فيها بالمصلحة، ورأى أن بقاءها تنتظره ضرر بها، وأن الاستعجال على الغائب قبل الاستيناء به ضرر عليه...»[١].

إلى غير هذه الأمثلة المصلحية التي يزخر بها الموطأ، مما يدل على أن مالكاً كانت له ملكة فقهية مبنية على التعليل والمصلحة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، فليس بجامد على النصوص، مغفلاً لمآلاتها ومعانيها، كما أنه ليس معرضاً عنها متجاوزاً لها، بل اعتمدها واعتمد التأمل في معانيها، وهذا من كمال فقهه وعلمه، وبصيرته في الدين.

د- لما كانت المصلحة المرسلة تعتمد على الوصف المناسب، فهي تلتبس بالقياس، ولذلك أدخلها من أدخلها فيه، ولم يجعلها أصلاً مستقلاً.

والفروق بينها وبين القياس، أن القياس يستند لدليل خاص، بخلاف المصالح المرسلة، فأدلتها إما نصوص عامة، أو كليات عامة فافترقا.

هـ- المصالح المرسلة تلتبس أيضاً بالبدعة، لأن غالب ما تقع فيه البدع، يدخل تحت العمومات، والقواعد الكلية، والفرق بينهما أن البدع إنما تتطرق لمجال العبادات، والمصالح المرسلة، مجالها العادات والمعاملات فافترقا.

و- وتلتبس أيضاً بالاستحسان، لأن فيه مراعاة المصلحة، والفرق بينهما أن الاستحسان - كما سبق - إنما يكون في ترجيح الأدلة، أو الأقيسة بعضها على بعض، بخلاف الاستصلاح، فمداره على تقدير المآل، والنظر في العواقب.

الأصل الثامن عشر: شرع من قبلنا، والمراد به شرائع الأنبياء السابقين وأحكامها التي لم ترد في شريعتنا، هل هي شريعة للنبي ﷺ ولأمته؟ هذه القضية فيها مذهبان: مذهب المنع - وهو الصواب - ومذهب الجواز، وينسب لمالك أنه أصل عنده.

قال ابن القصار: «ومذهب مالك - رحمه الله - يدل على أن علينا اتباعهم»[٢].

وقال ابن العربي: «ليس في مذهب مالك خلاف في أن شرع من قبلنا شرع لنا»[٣].

(١) القبس ٢/٧٥٣.

(٢) المقدمة، الورقة ٢٤.

(٣) القبس ٢/٧٨٨.

وقال: «شرع من قبلنا شرع لنا، لا خلاف فيه عند مالك، وقد نص عليه في كتاب الديات»[١].

وقال: «وخذوا - أخذ الله بكم ذات اليمين - قولاً بديعاً، وذلك أن مالكاً كثيراً ما يسترسل في الإسرائيليات، وقد نقلنا عنه في ذلك أقوالاً متعددة، في مسائل مختلفة في أصول الفقه، وجْهُ ذلك ولبابه، أن كل قول يرد من قبلهم على ألسنة من أسلم من علمائهم، يجوز أن يؤثَر عنهم، ما لم يعترض على ما في الشرع..»[٢].

قلت: ومن نماذج ذلك في الموطأ - كما أشار ابن العربي - ما ذكره في الديات بقوله: «والقصاص أيضاً يكون بين الرجل والنساء، وذلك أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص** ﴾.

فذكر الله تبارك وتعالى أن النفس بالنفس، فنفس المرأة الحرة، بنفس الرجل الحر، وجرحها بجرحه».

قال ابن العربي: «وقد تكلف مالك في تحقيق المراد من هذه الآية بقوله: ﴿ **وكتبنا عليهم فيها** ﴾ فأفادنا مسألتين أصوليتين: أما أحدهما فإن شرع من قبلنا شرع لنا»[٣] وما ذكره من حديث نومه عليه السلام عن صلاة الصبح عند قفوله من خيبر، وقوله فيه: «من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **أقم الصلاة لذكري** ﴾.

قال ابن العربي: «قد بينا أن مالكاً - رحمه الله - قصد في هذا الكتاب التبيين لأصول الفقه وفروعه، ومن جملتها مسألة ذكرها في مواضع من موطئه، وهي أن شرع من قبلنا شرع لنا، لا خلاف عن مالك فيه... والنكتة المشار إليها في هذا الحديث، قول النبي ﷺ: فإن الله عز وجل يقول: ﴿ **أقم الصلاة لذكري** ﴾ وهذا خطاب لموسى عليه السلام، أعلمنا النبي ﷺ أنه متوجه إلينا كتوجهه إلى موسى وأمته»[٤].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٠٥٠.

(٣) الموطأ: كتاب العقول ٢/ ٨٧٣، والقبس ٣/ ٩٨٨، والآية من سورة المائدة: ٤٥.

(٤) الموطأ: كتاب وقوت الصلاة ١/ ١٤، والقبس ١/ ١٠٣، والآية من سورة طه: ١٤.

ويظهر من هذه الأدلة التي وردت في الموطأ، وأشار إليها ابن العربي أن مالكاً لا يقول بشيء من الأحكام الواردة في الشرائع السابقة، إلا إذا وردت في كتاب ربنا، وسنة نبينا في سياق مدحها، والثناء عليها، الذي يؤخذ منه الحث على العمل بها، أو وجوبها.

وهذا ليس محل خلاف، لأنه آنذاك، تكون هذه الأحكام نحتكم إليها لا على أساس ورودها في شرع من قبلنا، وإنما لثبوتها في شرعنا، بغض النظر عن موافقتها أو مخالفتها لما كان عند الأنبياء السابقين(١).

وإنما محل الخلاف ومناط الحكم، هو الأحكام غير الواردة في الكتاب والسنة، ولا يدل عليها عندنا إجماع، ولا قياس، ووردت في الكتب السابقة، هل نعمل بها؟ - وحينئذ تعتبر مصدراً مستقلاً من مصادر التشريع - أو لا نعمل - وآنذاك لا تعتبر - هذا هو الذي ينبغي أن يحرر عند المالكية، ولم أعثر فيما علمت لمالك على نص يقول فيه بهذا، أو حكم شرعي حكَّم فيه نصاً من الكتب السابقة، ولهذا فاعتبار ابن العربي وغيره أنه مصدر مستقل عند مالك، يحتاج لتأمل، وأما ما يحكى عن مالك في تفسير القرآن من الإسرائيليات، فليست بداخلة في الأحكام، فهي إما شرح مجمل، أو تعيين مبهم، أو تقييد مطلق، أو تحديد عام، وقد ذكر ابن العربي جملة منها مما رواه ابن القاسم عن مالك فتأملها(٢).

وقد يكون اختلط على ابن العربي ما يرتبط بالأحكام من الشرائع السابقة مع ما يرتبط بباب الإخبار والحكاية عنهم، فهذا الثاني مأذون فيه شرعاً، ما لم يتحقق أنه كذب، وهذا هو الذي استعمله مالك في التفسير كغيره، وأما الأول الذي يرتبط بما في التوراة المحرفة من الأحكام، فلا أعلم مالكاً نقل منها ولو حرفاً واحداً، محتجاً أو مستأنساً، أو مستشهداً، وهذا الذي ينبغي تحريره عند المالكية.

---

(١) انظر أصول الفقه، للعربي اللوه ص٢٢٩ .

(٢) انظر القبس كتاب التفسير ٣/١٠٤٧-١٠٤٨ .

فهرست المصادر والمراجع

١- إبطال الاستحسان، للشافعي، ضمن الأم، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٣م.

٢- الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم، دار الآفاق، ط١، ١٩٨٠م، تحقيق أحمد شاكر.

٣- إحكام الفصول في أحكام الأصول، للباجي، تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٤- الإشراف على مسائل الخلاف، للقاضي عبد الوهاب البغدادي، ط١، مطبعة الإرادة.

٥- أصول السرخسي، لأبي بكر محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق أبو الوفاء الأفغاني، مكتبة المعارف.

٦- أصول الفقه، للعربي اللوه، ط٢، تطوان المغرب، ١٤٠٤هـ.

٧- أعلام الموقعين، لابن القيم، مطابع الإسلام، ١٣٨٨هـ.

٨- البحر المحيط، للزركشي، تحرير عمر الأشقر، وأخوه محمد، وعبد الستار أبو غدة.

٩- البرهان في أصول الفقه - لإمام الحرمين، تحقيق عبد العظيم الديب، ط٣، دار الوفاء ١٩٩٢م.

١٠- البهجة شرح تحفة ابن عاصم، لأبي الحسن عبد السلام التسولي، ط٢، - مصطفى الحلبي - ١٩٥١م.

١١- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف المغرب، ط٢، ١٩٨٣م.

١٢- تقريب الوصول إلى علم الأصول، لأبي القاسم ابن جزي الغرناطي، تحقيق محمد علي فركوس، دار الأقصى، ط١، ١٤١٠هـ.

١٣- الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، ط١، دائرة المعارف العثمانية الهند.

١٤- الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة، للشيخ حسن المشاط، تحقيق د.عبدالوهاب أبو سليمان، دار الغرب، ط٢، ١٩٩٠م.

١٥- الحلية، لأبي نعيم، دار الفكر.

١٦- سنن أبي داود، تعليق محي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

١٧- سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث.

١٨- سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٩، ١٩٩٠م.

١٩- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول، للقرافي، دار الفكر، ط١، ١٣٩٣هـ.

٢٠- شرح حدود ابن عرفة، لأبي عبد الله الرصاع التونسي، ط، وزارة الأوقاف - المغرب، ١٩٩٢م.

٢١- الاعتصام، للشاطبي، دار الفكر، مراجعة خالد عبد الفتاح، ط١، ١٩٩٦م.

٢٢- الفتاوى لابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف الرباط، إشراف المكتب التعليمي السعودي.

٢٣- الفروق للقرافي، عالم الكتب.

٢٤- الفكر السامي في تاريخ الففقه الإسلامي، للحجوي، تحقيق عبد العزيز القارئ، المكتبة العلمية المدينة، ط١، ١٣٩٦هـ.

٢٥- القبس شرح موطأ مالك بن أنس، للقاضي أبي بكر بن العربي، تحقيق ولد كريم، دار الغرب، ط١، ١٩٩٢م.

٢٦- كشف الأسرار على أصول الإمام البزدوي، لعبد العزيز البخاري، ط١، مكتب الصنائع، ١٣٠٧هـ.

٢٧- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، للدكتور عمر الجيدي منشورات عكاظ، ط، النجاح، الدار البيضاء.

٢٨- المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية، ط المدني، تقديم محيي الدين عبد الحميد.

٢٩- مشكل الآثار، للطحاوي، دار صادر، ط١، ١٣٣٣هـ، دائرة المعارف النظامية الهند.

٣٠- مقدمة في أصول الفقه، لابن القصار المالكي، مخطوطة خاصة.

٣١- مناقب الشافعي، للبيهقي، تحقيق أحمد صقر، ط١، ١٣٩٠هـ.

٣٢- مناقب الشافعي، لابن أبي حاتم، تعليق محمد زاهد الكوثري، دار الكتب.

٣٣- الموافقات، للشاطبي، دار المعرفة، تعليق الشيخ عبد الله دراز.

٣٤- موطأ الإمام مالك، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث.

٣٥- نشر الورود، على مراقي السعود، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق الشنقيطي محمد ولد سيدي، دار المنارة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٣٦- نشر البنود على مراقي السعود، لعبد الله الشنقيطي، اللجنة المشتركة بين المغرب ودولة الإمارات العربية المتحدة.

٣٧- نوازل ابن هلال، ترتيب علي الجزولي، طبعة حجرية.

٣٨- الوصول إلى الأصول، لابن برهان البغدادي، تحقيق عبد الحميد أبو زنيد، مكتبة المعارف الرياض، ١٤٠٣هـ.

مناقشات وتعقيبات

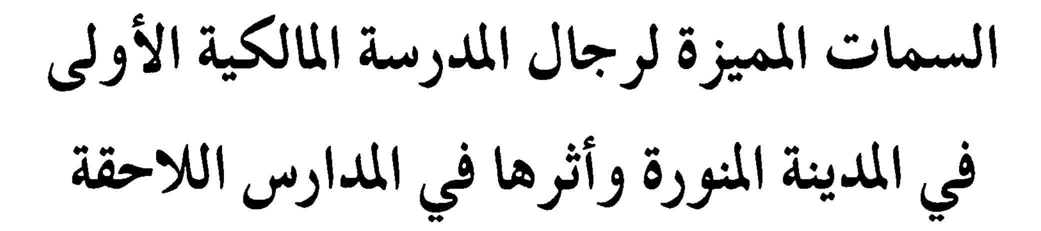
أ. د. عبد الوهاب أبو سليمان:

بالنسبة للأستاذ الدكتور حسين آيت سعيد، الواقع أنه قال: إن مذهب الإمام مالك مذهب جماعي، وهو مذهب أهل المدينة والصحابة، وكذلك مذاهب الأئمة الأخرى، ولكن إذا أردت فعلاً المذهب الجماعي من دون التحيز فهو مذهب الإمام أبي حنيفة.

الإمام مالك:

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان

بينما الإمام أبو حنيفة كان مجلسه مجلساً استشارياً يطرح الأمر، ثم يسأل محمد بن الحسن وأبا يوسف وجلساءه الباقين، ويناقش كل واحد منهما، ولذلك قالوا إن آراء محمد بن الحسن الشيباني هي في الواقع آراء أبي حنيفة. ولكنه كان يدير مجلسه العلمي إدارة مناقشة، وليس إدارة فرض الرأي. وشكراً.



السمات المميزة لرجال المدرسة المالكية الأولى في المدينة المنورة وأثرها في المدارس اللاحقة

إعداد

أ. د. أحمد علي طه ريان*

* رئيس قسم الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، ولد في بلدة الغربي قمولا، مركز الأقصر بمصر عام (١٩٣٩م). حصل على الماجستير في الفقه المقارن من جامعة الأزهر عام (١٩٦٨م) وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها والتخصص نفسه عام (١٩٧٣) وكان عنوان رسالته: «عقد الوكالة في الشريعة الإسلامية». له العديد من الكتب والدراسات.



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : فإني أتقدم بهذه الكلمة عن السمات المشتركة لرجال المدرسة المالكية الأولى، رغبة في الإسهام والمشاركة في فعالية الحدث العلمي الكبير التي تقيمه دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، بالتعاون مع دائرة الأوقاف بحكومة دبي، بمناسبة مرور ألف عام على وفاة الفقيه المالكي الكبير القاضي / عبد الوهاب بن نصر البغدادي.

وإنما آثرت الكتابة في هذا المجال - من مجالات الاحتفالية - لما لاحظته من التوافق بين الملامح التي تميز معظم رجال هذه المدرسة، وذلك من خلال الفرصة التي أتيحت لي للكلام عن مجموعة من هؤلاء الرجال في إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة في أعوام متتالية في شهر رمضان المبارك ولازال البرنامج مستمراً تحت عنوان؛ أعلام خفاقة في سماء الفقه الإسلامي، بدأته بالكلام عن الإمام مالك، ثم عن ابن القاسم ثم عن سحنون هذا الثلاثي العظيم الذي قدم للمسلمين أهم موسوعة فقهية عرفها المسلمون، مستمدة من أصلي الشريعة وهي الكتاب والسنة وما تفرع عنهما أو بني عليهما.

فانتابني العجب الشديد الذي كان يصل بي إلى الذهول أحياناً من فرط هذا التوافق وشدة تحققه في أفراد هذه المدرسة في كل مراحل حياتهم، من الدأب في الطلب والحرص على إنتقاء الشيوخ، مع الإخلاص بكل معانيه، والحزم مع التلاميذ وغير ذلك مما سنعرض له في هذه الكلمة. وموجز القول؛ أن الذين اختاروا مذهب مالك ليعبدوا الله على منهجه، صار كل واحد منهم كأنه مالك، في قوله وفعله، في أخذه ورده، بالرغم من تطاول القرون واختلاف الأعصار وتنوع الأمصار، حتى وصل الأمر بأحد هؤلاء في هذا العصر وهو يدرس للطلاب أحد كتب الفقه المالكي في أحد المساجد، فيقف أحد الناس الذين ليسوا من رواد المسجد على حلقة الدرس مخاطباً صاحب الحلقة : يا شيخ إني لم أرك من قبل، ولكني رأيت في منامي من يشير إليك؛ ويقول هذا يدرس الفقه على طريقة الإمام مالك، فلما دخلت هذا المسجد ورأيتك عرفت إنك الذي كان يشار إليك في المنام، وبعد مرور برهة من

الذهول؛ أين هو الآن من مالك، ومن طريقته الذي كان يدرس بها الفقه؛ تذكر أن الطريقة التي يدرس بها فعلا هي طريقة الإمام مالك التي كان يفضلها في تدريس العلم؛ وهي طريقة العرض؛ بأن كان أحد التلاميذ يقرأ الموطأ في حلقة الدرس ويبين الإمام ما كان يحتاج إلى بيان، فيتابع من يتابع سماعاً ويكتب من يكتب، ولم يستطع أحد من الخلفاء فمن دونهم، أن يثني الإمام عن هذه الطريقة، فما كان منه إلا أن حمد الله تعالى أن وفقه ليسير على طريقة مالك في عرض العلم[١] وإن كان دون قصد منه.

وليس القصد من رجال هذه المدرسة الذين سيشار إليهم في هذه الكلمة هم كل من التقى بالإمام مالك؛ من أستاذ أو طالب وإنما أقصد المجموعة التي طالت صحبة الإمام لهم من شيوخه، أو طالت صحبتهم له من تلاميذه ممن تأثر بهم الإمام أو تأثروا به ثم حملوا رسالته المتضمنة لأقواله وآرائه وآدابه إلى أنحاء الدنيا حيث انتشر مذهبه، وصار مرجعاً لأهل العلم من المشارق والمغارب.

كما أننا لن نحاول إستقصاء كل صفاتهم، فهذا يحتاج إلى تفرغ، مع الوقت الطويل ولكن سنتخير أظهرها وأشهرها فقط.

وسنقدم مشتملات هذه الكلمة إن شاء الله في عدد من المطالب؛ نبدؤها بمطلب عن اصطفاء الله تعالى لمالك رحمه الله ليحمل المنهج المتميز لأهل العلم بالمدينة المنورة مقابلاً به مناهج العلماء الآخرين في أمصار المسلمين، حتى سمي عند البعض مذهب أهل المدينة.

---

(١) روى الحاكم عن أبي أويس قال سئل مالك عن حديثه لسماع هو؟ فقال: «منه سماع ومنه عرض وليس العرض عندنا بادني من السماع». مالك بن أنس، ص٤٤، كما ينظر البخاري، ج١، ص٢٤، طبعة صبيح القاهرة، حيث ساق أدلة مالك على ذلك.

المطلب الأول
اصطفاء الإمام مالك ليكون أعلم أهل زمانه

قال صاحب تحقيق كتاب العوالي: أخرج الحميدي وأحمد والرازي والترمذي والنساءي والخطيب والحاكم وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي وابن عبد البر والذهبي بأسانيدهم بألفاظ مختلفة مع اتفاق معانيها عن أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ للحميدي: قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يضرب الناس آباط المطي في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة» قال قوم هو العمري، وقال قوم: هو مالكٌ.

وقال الترمذي عقب إخراجه لهذا الحديث؛ قال إسحاق بن موسى: وسمعت بن عيينة قال: هو العمري الزاهد، وسمعت يحي بن موسى يقول: قال عبد الرازق: هو مالك بن أنس.

وقد روي عن ابن عيينة أنه قال في هذا سئل عن عالم المدينه؛ فقال إنه بن أنس، وقال إسحاق بن موسى: سمعت بن عيينة يقول: هو العمري عبد العزيز بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب.

ثم قال المحقق بعد أن سرد روايات الحديث في المصادر السابقة؛ ولئن اضطرب سفيان ابن عيينة حيناً في تأويل هذا الحديث وتعيين المقصود منه، فقال تارة؛ إنه العمري، وقال أخرى: إنه مالك، فان الأمة أجمعت بعده بل وفي عهده؛ إنه مالك بن أنس الأصبحي الإمام.

وأكد الواقع إجماعها، فما من أحد من علماء المدينة بعد الصحابة وبعد السبعة الذين صار إليهم أمر الفتوى، ضربت إليهم أكباد الإبل من المشرق والمغرب، طلباً للعلم كما ضربت لمالك، فالفتوحات التي شغلت الناس في العصر الأول وإلى أوائل القرن الثاني للهجرة، لم تدع لهم من الفراغ للرحلة إلى طلب العلم، كما أتاح لهم الأمن والسلم اللذان إستتبا مع أواسط القرن الثاني، بقدر أمكن لفريق كبير من الراغبين في العلم، أن يتفرغ لطلبه وأن يرحل إبتغاء له، دون أ يخل ذلك بحاجه إستمرار الفتح والدفاع عن الحدود الإسلامية، إلى المزيد من النفير، وفي ذلك كان مالك هو النجم الذي تتجه إليه الهمم والأبصار، ليس لأنه أعلم فحسب بل أيضاً– لأنه الأشد تثبتاً، والأقدر على التوثيق والتمحيص، فما من احد–

بإجماعهم يومئذ- كان صيرفي الرجال والحديث مثل مالك بن أنس[١].

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: «أما إنه لا ينازعنا هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة، فيقول: المراد إمامي، ونحن ندعي أنه صاحبنا بشهادة السلف، وبأنه إذا أطلق بين أهل العلم؛ عالم المدينة، وإمام دار الهجرة، فالمراد به مالك عندهم دون غيره من علمائها، كما إذا قيل: قال الكوفي، فالمراد به أبو حنيفة دون سائر فقهاء الكوفة»[٢] وللإمام إبن تيمية في هذا المقام كلام نفيس، حيث أستعرض ما قيل في هذا الحديث وفند مآخذ المخالفين ورجح أن المراد به مالك بن أنس رحمه الله حيث قال: بعد أن ذكر الحديث: «فقد روي عن غير واحد كابن جريج وابن عيينة وغيرهما أنهم قالوا هو مالك. والذين نازعوا في هذا لهم مأخذان: أحدهما: الطعن في الحديث، فزعم بعضهم أن فيه انقطاعاً، والثاني: إن المراد غير مالك كالعمري الزاهد ونحوه. فيقال: ما دل عليه الحديث، وأنه مالك، أمر متقرر لمن كان موجوداً، وبالتواتر لمن كان غائباً؛ فإنه لا ريب أنه لم يكن في عصر مالك أحد ضرب إليه الناس أكباد الإبل أكثر من مالك وهذا يقرر بوجهين:

أحدهما: بطلب تقديمه على مثل الثوري والأوزاعي والليث وأبي حنيفه، وهذا فيه نزاع ولا حاجه إليه في هذا المقام.

والثاني: أن يقال: إن مالكاً تأخر عن هؤلاء كلهم، فأنه توفي سنه تسع وسبعين ومائه، وهؤلاء كلهم ماتوا قبل ذلك، فمعلوم أنه بعد موت هؤلاء لم يكن في الأمه أعلم من مالك في ذلك العصر، وهذا لا ينازع فيه أحد من المسلمين، ولا رحل إلى أحد من علماء المدينه ما رحل إلى مالك، لا قبله ولا بعده، رحل إليه من الشرق والمغرب، ورحل إليه الناس على إختلاف طبقاتهم، من العلماء والزهاد والملوك والعامه، وانتشر موطؤه في الأرض حتى لايعرف في ذلك العصر كتاب بعد القرآن كان أكثر إنتشاراً من الموطأ، وأخذ الموطأ عنه أهل الحجازوالشام والعراق، ومن أصغر من أخذ عنه الشافعي ومحمد بن الحسن وأمثالهما، وكان محمد ابن الحسن إذا حدث بالعراق عن مالك والحجازيين تمتلئ داره، وإذا حدث عن أهل العراق يقل الناس، لعلمهم بإن علم مالك وأهل المدينه أصح وأثبت».

---

(١) مقدمة كتاب العوالي بإيجاز، تحقيق محمد الحاج الناصر، بمساعدة آخرين دار الغرب الإسلامي، المطبعة الثانية عام ١٩٩٨م.

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج١، ص٨٥، دار مكتبة الحياة بيروت.

ثم يأخذ ابن تيميه رحمه الله الترجيح إلى وجه أخرى فيقول: «أجَّل من اخذ عنه الشافعي العلم اثنان: مالك وابن عيينه، ومعلوم عند كل احد أن مالكاً أجل من ابن عيينه، حتى إنه كان يقول: إني ومالكاً كما قال القائل:

وابن اللبون إذا ما لز في قرنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس»

ثم يأخذ ابن تيمية الترجيح إلى وجه ثالث فيقول: «ومن زعم أن الذي ضربت إليه أكباد الإبل في طلب العلم هو العمري الزاهد، مع كونه كان رجلاً صالحاً زاهداً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لم يعرف أن الناس احتاجوا إلى شيء من علمه ولا رحلوا إليه فيه، وكان إذا أراد أمراً يستشير مالكاً ويستفتيه، كما نقل أنه أستشاره لما كتب إليه أهل العراق أن يتولى الخلافة، فقال: حتى أشاور مالكاً، فلما أستشاره أشار عليه ألا يدخل في ذلك، وأخبره أن هذا لا يتركه ولد العباس حتى تراق فيه دماء كثيرة، وذكر له ما ذكره عمر بن عبد العزيز- لما قيل له: ولِّ القاسم بن محمد- إن بني أمية لا يدعون هذا الأمر حتى تراق فيه دماء كثيرة.

وهذه علوم التفسير والحديث والفقه وغيرهما من العلوم لم يعلم أن الناس أخذوا عن العمري الزاهد منها ما يذكر فكيف يقرن هذا بمالك في العلوم ورحلة الناس إليه؟».

ثم ينحو بالترجيح إلى وجه رابع فيقول: «ثم هذه كتب الصحيح التي أجل ما فيها كتاب البخاري أول ما يستفتح الباب بحديث مالك، وإن كان في الباب شيئ من حديث مالك لا يقدم على حديث مالك غيره، ونحن نعلم أن الناس ضربوا أكباد الإبل في طلب العلم، فلم يجدوا عالماً أعلم من مالك في وقته».

ثم يعرج بالترجيح إلى وجه خامس فيقول: «الناس كلهم مع مالك، وأهل المدينه، إما موافق وإما منازع، فالموافق لهم عضد ونصير، والمنازع لهم معظم، ولهم مبجل، وعارف بمقدارهم، وما نجد من يستخف بأقوالهم ومذاهبهم إلا من ليس معدوداً من أئمه العلم، وذلك لعلمهم أن مالكاً هو القائم بمذهب أهل المدينه، وهو أظهر عند الخاصة والعامة، من رجحان مذهب أهل المدينه على سائر الأمصار...» إلى آخر ما قال، مما لم يدع مقالاً لأحد في أن هذا الحديث إنما قصد به الإمام مالك لا غيره، مع التقدير الذ لا حد له لكل أقرانه في عصره[1].

(١) المجلد العشرون من الفتاوى الكبرى من ص٣٢٣ إلى ٣٢٦، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ.

لقد أطلت النقل عن ابن تيميه رحمه الله في ترجيحه أن هذا الحديث الشريف قد أريد به مالك رضي الله عنه ـ وإن كان أئمه المذاهب لهم الكثير من الأدله المقنعه في هذا الموضوع ـ بعداعن دعوى المحاباة المذهبيه التي كثيراً ما ترفع في الوجوه لإجهاض الحجج المناسبة وإن كانت ذات دلالات صريحه وقوية، ويبعد هذا عن مثل ابن تيميه رحمه الله إذا لا مصلحة له في ذلك إلا دفع المطاعن الظالمة التي قصد بها الغض من شأن الإمام مالك رضي الله عنه وحرمانه من هذا الشرف النفيس، وبالتالي التقليل من أهميه أتباعه، للعلم، بأن التابع يزداد شرفه بازدياد شرف متبوعه والعكس صحيح، لذلك كانت أمة محمد صلى الله عليه خير الأمم وأشرفها لخيرة رسولها وعلو شرفه.

المطلب الثاني
الدأب والفناء في طلب العلم

لقد اشتهر رجال هذه المدرسة بشدة المعاناة في تحصيل العلم وتحمل المشاق في لقاء الشيوخ غير مبالين بما ينالهم من متاعب مضنية بسبب تعرضهم لعوامل الجو المتغيرة من شمس محرقة في الصيف أو برد قارس في الشتاء لا تشغلهم حاجة أنفسهم من طعام أو شراب ولا يفت من عزيمتهم ما يتعرضون له من سخط الشيوخ وحدتهم بل ومقارعهم أحياناً، ثم ترك الكثير منهم لأولادهم وزوجاتهم وأوطانهم والانقطاع لطلب العلم سنين متطاولة، وفيما يلي بعض مقتطفات من جهادهم في طلب العلم وفنائهم فيه:

معاناة مالك في الطلب وصبره على حدة نافع وطول انتظاره على باب ابن هرمز:

يقول مالك: «كنت آتي نافعاً بناحية العقيق نصف النهار وما تظلني الشجر من الشمس إلى خروجه، فإذا خرج أَدَعُه ساعة كأني لم أرده، ثم أتعرض له فأسلم عليه، وأدعه حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا فيجيبني، ثم أجلس عنه وكان فيه حدة» بل وربما يطول مقامه ببابه فيضع ثوبه على رأسه ليقيه من تراب العقيق ورماله التي تسفى عليه.

كما يتخذ كساءاً محشواً ليجلس عليه أمام باب ابن هرمز يتقي به الحجر الذي كان ينتظر عليه حتى يؤذن له بالدخول على ابن هرمز، ويستمر على ذلك ثماني سنين متواصلة.

ويزاحم غيره في الدخول إلى ابن شهاب حتى يسقط بعض الطلاب على بعض على درج ابن شهاب من شدة الازدحام في الدخول ليحصل كل منهم على مكان أقرب من ابن شهاب في حلقته في بيته. ويختلف إلى ابن شهاب في يوم العيد بعد الصلاة، رغبة في الانفراد بابن شهاب، لمعرفته بانشغال بقية الطلاب بالطعام والشراب والزينة يوم العيد، ويعجب ابن شهاب من تصرفه هذا ويطلب تقديم الطعام والحلوى، وما يقدم في مثل هذا اليوم له، فيأبى ويقول إنما أتيت لكتابة الحديث، مع أن هذا ربما يعد ثقلاً من مالك يمس كرامته وحياءه لكنه فناء النفس في تحصيل محبوبها، وتشتد رغبة مالك في تحصيل العلم

وتشتد معاناته حتى أنه ينقض سقف بيته لينفق على نفسه ويقول في كلمته الجامعة: «لن ينال هذا الأمر حتى يذاق فيه طعم الفقر».

وقال رحمه الله: «كتبت بيدي مائة ألف حديث».

وهذه مجرد أمثلة من جهاده رحمه الله في تحصيل العلم دون أن يأبه لما يناله من عناء أو بذل جهد أو مال[١].

ولمالك قدوة بشيوخه الذين أفنوا صباهم وشبابهم في جمع العلم وتحصيله فشيخه ابن شهاب كان يدور على حلقات العلم والدرس يبحث عن مجلس علم وفي يده الألواح والصحف ليسجل كل ما يسمعه، هذا إلى جانب حفظه كل ما يسمعه وقد وهبه الله ملكة عظيمة في الحفظ والإتقان حتى أنه قد قال عن نفسه ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته. وكان إذا أقبل على كتبه لم يلتفت إلى شئ فقالت له امرأته: والله إن هذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر[٢]، وكان يطوف على من أدركه حياً من أصحاب رسول الله ﷺ في منازلهم ليسألهم عن الحديث وأخبار النبي ﷺ كما كان يقبل على أهل العلم من أبنائهم ليسألهم عما سمعوه من آبائهم.

صبره على درس ابن المسيب مع عدم الجرأة على سؤاله:

يقول ابن شهاب: «والله ما نشر أحد العلم نشري ولا صبر عليه صبري، ولقد كنا نجلس إلى ابن المسيب فما يستطيع أحد منا أن يسأله عن شيئ إلا أن يبتدئ الحديث، أوأن يأتي رجل فيسأله عن أمر قد نزل به، قد طالت مجالستنا إياه حتى ما كنا نسمع منه إلا الجواب»[٣].

وكما تأثر مالك بشيوخه في معاناة الطلب كذلك تأثر به تلاميذه، فقد صحب ابن وهب مالكاً عشرين سنة وكان قبل ذلك قد سمع العلم من علماء مصر وهو ابن ستة عشر عاماً[٤].

(١) ترتيب المدارك، ج١، بإيجاز من ص١١٩، ص١٨٩.

(٢) رسالة العالمية (الدكتوراه) فقه الإمام ابن شهاب الزهري مقارناً بفقه مجاهد وشريح، ص٢٦، لصاحبتها ليلى عبد الله محمد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨.

(٤) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٢٢.

وابن القاسم يقول: «ما خرجت إلى مالك إلا وأنا عالم بقوله» ومع ذلك لازم مالكا قرابة العشرين عاماً، إذ ترك زوجته حاملاً- بعد أن خيرها في البقاء على عصمته أو يطلقها فاختارت البقاء- فيقول: «أنخت بباب مالك سبع عشرة سنه، ما بعت فيها ولا اشتريت شيئاً» قال: «فبينا أنا عنده إذ أقبل حاج مصر، فإذا شاب ملثم دخل علينا فسلم على مالك، فقال: أفيكم ابن القاسم؟ فاشير إلي، فاقبل يقبل عيني ووجدت منه ريحاً طيبة، فإذا هي رائحة. الولد وإذا هو ابني وكان اسمه عبد الله»(١).

وكان من حرص ابن القاسم على جمع العلم: أنه كان يذهب إلى منزل مالك في الهزيع الأخير من الليل ليجلس على باب مالك فينتظر خروجه لصلاة الصبح ويحكي ابن القاسم ذلك فيقول: «كنت آتي مالكاً غلساً، فاساله عن مسألتين ثلاثة أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت إنشراح صدر، فكنت آتي كل سحر فتوسدت مرة في عتبته، فغلبتني عيني، فنمت، وخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر، فركضتني جارية سوداء له برجلها وقالت لي: إن مولاك قد خرج ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع واربعون سنة ما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة، ظنت الجاريه أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه». وقد أنفق ابن القاسم في رحلته لطلب العلم ألف مثقال من الذهب(٢)، وكذلك يحيى بن يحيى الليثي الذي أخذ علم مالك أولاً من زياد المعروف بشبطون من كبار تلاميذ مالك في الأندلس، ثم رحل إلى مالك في السنه التي توفي فيها، بعد أن جلس إليه قرابة هذا العام وأعجب مالك بعقله، فقد روي أنه كان عنده يوماً جالساً في جملة أصحاب مالك إذ قال قائل: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه إلا يحيى فقال له مالك: لم تخرج فتره إذ ليس بأرض الأندلس، فقال له يحيى: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك لا إلى أن أنظر إلى الفيل فاعجب به مالك وسماه العاقل.

ثم كانت له رحلة إلى المدينه ليلقى أصحاب مالك ثم كانت جلسته الطويلة عند ابن القاسم بمصر وبه تفقه(٣) وتتواصل مسيرة المعاناة في الطلب وتحمل المشاق في التحصيل إلى

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٣٨.

(٢) المرجع السابق، من ص٤٣٧ إلى ص٤٤٠ بإيجاز.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٥٣٥ إلى ص٥٣٧ بإيجاز.

الأجيال المتعاقبة من تلاميذ هذه المدرسة إلى تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم؛ فنجد هذه الصورة تتكرر لكن في أشكال أخرى: يأتي سحنون إلى تلاميذ مالك مثل علي ابن زياد والبهلول وابن غانم وأسد وغيرهم بشمال أفريقية فيأخذ ما عندهم، ثم ينتقل إلى مصر ليلتقي ما عند المصريين من علم مالك، وفي النهاية يستقر به المقام في مجلس أبن القاسم فحمل عنه علم مالك، في المدونه المعروفه باسمه، واحتمل سحنون طول المقام بجوار ابن القاسم مع قلة ما يأخذ منه من العلم كل يوم، يقول سحنون: كنت إذا سألت ابن القاسم عن المسائل يقول لي: (يا سحنون: أنت فارغ، إني لأحس في رأسي دوياً كدوي الرَّحى)، يعني من قيام الليل. وقال سحنون: وكان ابن القاسم قلما يعرض لنا إلا وهو يقول «اتقوا الله فإن قليل هذا الأمر مع تقوى الله عز وجل كثير وكثيره مع غير تقوى الله قليل».

وكان سحنون أيضاً كثيراً ما يقوله إذا قرئ عليه. ومع كل هذا العناء في الطلب يقول سحنون معبراً عن حبه لشيخه ورغبته الدائمة في مجاورته، لطلابه وكانوا سبعمائة صاروا كلهم أئمه يقتدى بهم في مواطنهم «لو بقي ابن القاسم أبداً لما وجدتموني بينكم أبداً»(١).

وهكذا تنتقل بركات هذه الطبقة الذهبية من رجال هذه المدرسة إلى التلاميذ ثم الأحفاد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إذا أخذ تراثها بالصدق والرغبة فيما عند الله تعالى.

---

(١) الرياض، ج١، من ص٢٤٨ إلى ص٣٥٢ بإيجاز.

المطلب الثالث
الحزم مع التلاميذ في الطلب من حسن التربية

العلم ثقيل، فقد قال الإمام مالك لمن سأله عن مسألة فلم يجبه، إنها مسألة بسيطه خفيفه؛ فقال: بسيطة خفيفة، ليس في العلم شيئ خفيف، يقول المولى جل شأنه: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾[١] الله يسميه ثقيل وأنت تقول خفيف. لكن مع ذلك فإن له رواءً وزهواً، وأحياناً: خيلاءً وترفعاً وأحياناً يكون فيه جموح ونفور، والشيوخ الكمل الذين بلغوا مبلغ الإرشاد؛ كالأطباء المهرة يعرفون لكل داء من هذه الأدواء الذي يعالجه، حتى يصفوا قلب صاحبه لطلب العلم الخالص من هذه الكدار ... ومن هذه الأدوية التي يعالج بها مثل هذه الأمراض: أخذ الطلاب بالحزم والشدة؛ وذلك بصور متباينة. فمن هذه الصور؛ ما نقل عن مالك في بعض مراحل مشيخته أنه كان له من يقف على رأسه بالمقرعة ليخرج عنه الطلاب إذا ما تشبثوا بالبقاء بين يديه لطلب المزيد، حيث يقول عبد الله بن مطيع: «أتينا مالكاً فحدثنا بأحاديث فاستزدناه فقال: حسب- فلما لم نتحرك عن المجلس- أخذتنا المقارع».

وقد تكون صورة الحزم بعدم الجواب؛ ولكن لأن السؤال لا يينبغي فقد سأل رجل مالكا عن مسألة فلم يجبه، فقال له: لم لا تجبني؟ فقال لو سألت عما تنتفع به أجبتك.

وقال بشر بن آدم سأل الأغضب مالكاً عن مسألة ثم عن أخرى فأجابه، ثم عن أخرى فلم يجبه. فقال له: لم؟فقال مالك: ياغلام خذ بيده فاذهب به إلى السجن، قال: إني قاضي أمير المؤمنين، قال ذلك أهون لك، قال : لا أعود، قال: خل سبيله.

قال ابن حارث دخل ابن المبارك وأصحابه على مالك فقالوا يا أبا عبد الله حدِّثنا، ولا تحدثنا، إلا بحديث الزهري، فقال مالك؛ يؤخذ بأيديهم ويقاموا عني، فقام القوم فلما كان من الغد قال ابن المبارك لأصحابه: إن مالكاً ابن أنس لا يضره إلا تسمعوا منه شيئاً، فعودوا إلى الرجل، فدخلوا عليه فلما أخذوا مجالسهم اعتبرهم وحدثهم من حديث الزهري كما أرادوا، لكن من غير طلب في هذا اليوم[٢].

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٥.

(٢) ترتيب المدارك: ج١، ص١٦٤، ص١٦٥.

وهكذا يكون الحزم من الشيوخ، فمن صبر على العلاج من التلاميذ فاز وأفلح. ومن غلبته نفسه واستعظم العلاج تهاوى إلى الدرك الأسفل من منازل العلم.

إلا أن مالكاً رحمه الله لم يأت من ذلك بدعاً، فقد ورث هذه العلاجات من شيوخه، فقبل قليل رأينا ابن شهاب ومن معه من إخوانه من طلبة العلم في مجلس ابن المسيب، لا يستطيع واحد منهم أن يسأل ابن المسيب في العلم، إلا أن يبدأ الكلام في العلم، أو يأتي رجل غريب ليسأل؛ فيكون حظهم هو سماع الجواب فقط. وكذلك يأبى ابن هرمز أن يجالسه طلاب العلم باستثناء مالك وعبد العزيز فيقول له محمد بن دينار من جلّة هؤلاء الطلاب: لم تستحل ما لا يحلُّ لك؟ فقال له: إني كبرت سني وأخاف أن يخالطني في عقلي مثل الذي خالطني في جسمي، ومالك وعبد العزيز فقيهان عالمان يسألاني عن الشيئ فأجيبهما فما رأياه من حق قبلاه وما رأياه من خطأ تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه. وغير هذا كثير من شيوخ مالك، ومن أظرف ألوان هذا الأدب الذي انتفع به صاحبه ووصفه مالك بأنه طالب علم؛ ما ذكر عن هشام بن جريج كان حدثاً وفي رحلته إلى الحج أتى مالك بن أنس- وقد رحل الناس- بورقتين من حديث، فقال له: أقرأ هذه الأحاديث فقد مضى الناس، فقال مالك: ينتظر أحدكم حتى إذا رحل الناس جاء فقال اقرأ لي، فقد رحل الناس، فالتفت هاشم إلى مالك، فقال أصلحك الله إن تكن حاجة أو أمر تأمر به انتهيت إلى طاعتك، ووقفت عند أمرك وفرحت بذلك في نادي قومي، وسدت به على عشيرتي، استودعك الله، فإن طاعتك فرض، وقولك حكم، أستودعك الله، قال مالك: مثل هذا طلب العلم، ردوه، فبعث في طلبه، فأتى به، فقرأ له ثم انصرف[1].

رحم الله أبا عبد الله وأسكنه الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ما أقواه على هذا الأمر، وما أحكمه فيه، وما أبصره بعلل طلب العلم، وما أنجح علااجاته فيه. وكذلك ورث هذه العلاجات رجال هذه المدرسة من تلاميذ مالك، فها هو زياد الملقب بشبطون يتوجه إلى يحيى بن يحيى حين جاء طالباً للعلم أن يصلح من شأن نفسه ليكون أهلاً لتلقي العلم حيث يقول له: يا بني إن كنت عازماً على التعلم فخذ من شعرك وأصلح زيك[2] وتقدم قريباً قول بن القاسم لسحنون إنك فارغ، ونَهَره.

(١) المرجع السابق، ج١، ص٥٣٥.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٥٣٥.

وتتواصل المسيرة في هذا الملمح من تلاميذ مالك لمن بعدهم؛ حيث يشتد سحنون على طلابه بل ويجلسهم للتلقي في الطريق بلا فرش ويجلس هو على عتبة الباب، وبعد أن يفرغ يأمرهم أن يقوموا قومة واحدة ولا يتخلف أحد. وتتكرر شدته فيهم بألوان مختلفة ثم يأتي إليهم ليبين أن ذلك لم يكن بقصد الإساءة وإنما ليجعلهم أهلا للعلم.

يقول الراوي: فلما كان من الغد خرج علينا وعلي يده الكتب للسماع، فلما قعد في موضعه أخذ الكتاب ليقرأ، فلما قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) وضع الكتاب من يده ثم تبسم قليلاً ثم قال: كبرنا وساءت أخلاقنا، ويعلم الله ما أصيح عليكم إلا لأ دبكم، – وما أريد بكم - يعلمها الله - مكروهاً، إلا إنا ابتلينا عند الكبر، ونحن أحوج ما كنا لأنفسنا، كأنه يريد أن يعتذر بما ابتلى به من أمر القضاء(وما أريد إلا لترعوا وتفقهوا وتعلموا بما سمعتم)(٤) هذه الأهداف المتوخاة من حزم الشيوخ وشدتهم على الطلاب أجملها سحنون رحمه الله في هذه الكلمة: [أن يتأدبوا، وأن يرعوا، وأن يفقهوا، وأن يعلموا بما علموا من العلم].

وقال رحمه الله مجملاً هذه المنحى كله من أدب الطلب: «إذا رأيت الطالب يصاح عليه وينهر فلا يبرح من مكانة فارجوه، وإذا رأيته إذا صيح عليه تنحى من مكانه ويقعد بعيداً، ثم لا يرجع فليس يفلح». رحم الله أبا محمد فقد استوعب أسرار هذه المدرسة لذا لم يكن عجباً أن يؤتمن على أهم خزائنها. وهي المدونة، كما انه لم يرزق أحد من الطلاب النجباء بعد مالك مثل ما رزق سحنون. إذا تخرج على يديه سبعمائة عالم صاروا أئمة في أوطانهم.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٣٦٨.

المطلب الرابع
رجاحة العقل

لقد أكمل المولى تبارك وتعالى للإنسان النعمة بعد أن خلقه وأحسن صورته بالعقل، إذا لولاه لا لتحق الإنسان بالحيوان بل ربما كان أسفل دركاً منه، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(١).

والعقل إن كان قاسماً مشتركاً بين جميع الناس، حيث منح المولى سبحانه كل من أراد تكليفه قدراً منه ليناط بصاحبه التكليف، إلا أنه سبحانه قد تفضل بالمزيد منه على عدد من الخلق وبدرجات متفاوتة ولحكمة يعلمها سبحانه، وقد أدرك الناس هذا الفضل على بعض الخلق بسبب حسن تصرفاتهم وبعدهم عن سفاسف الأمور، وأخذهم بمعاليها، وقد أدرك الناس ذلك عند مالك؛ كبيرهم وصغيرهم، حاكمهم ومحكومهم، عالمهم وجاهلهم، فقد كان يقول ربيعة ـ وهو شيخ مالك ـ إذا جاء مالك؛ جاء العقل، وقال ابن مهدي: لقيت أربعة: مالكاً، وسفيان، وابن المبارك وشعبة، فكان مالك أشدهم عقلاً، وقال هارون الرشيد عنه: ما رأيت أعقل منه، وقال ابن أبي أويس: كان مالك يستعمل الإنصاف ويقول: ليس في الناس أقل منه فأردت المداومة عليه، وقال الزهراني كان مالك إذا أصبح لبس ثيابه وتعمم ولا يراه أحد من أهله ولا أصدقائه إلا متعمماً، لابساً ثيابه، وما رآه أحد قط أكل أو شرب حيث يراه الناس، ولا يضحك، ولا يتكلم فيما لا يعنيه.

وقد أقام يحيى بن يحيى التميمي سنة كاملة بعد أن انتهى من سماع علم مالك ليأخذ أدبه وشمائله، وقال: إنما أقمت مستفيداً لشمائله، فإنما هي شمائل الصحابة والتابعين(٢).

ويمكننا أن نرجع ما تميز به الإمام رضي الله عنه من رجاحة العقل إلى أن ذلك كان بعضه مما استفاده من شيوخه إلى جانب استعداده الفطري لذلك. ففي بداية طلبه للعلم

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.

(٢) ترتيب المدارك: ج١، ص١٦، ص١١٧، ص١١٨ بإيجاز.

كانت وصية أمه له: أن يذهب إلى مجلس ربيعة فيأخذ من أدبه قبل علمه، وكان ربيعة معروفاً برجاحة العقل، كذلك كثرة تردده إلى مجلس جعفر الصادق أحد الشيوخ المحببين إلى قلبه، وكان جعفر الصادق رضي الله عنه ذا عقل كبير، فقد أحرق الرسالة التي أرسلها إليه أبو مسلم الخرساني ليعرض عليه البيعة بالخلافة أمام الرسول الذي أتى بها وقال للرسول: أبلغه مارأيت. فأعجب مالك بذلك أيما إعجاب.

وأرى: أن الإمام مالك حفظ نفسه من سطوة الخلفاء وإغرائهم برجاحة عقله أكثر مما حفظها بكثرة علمه؛ فالرشيد يرسل إليه ليأتيه ليسمعه العلم فيأبى، فتوغر الحاشية صدره عليه، فيرسل إليه ثانياً عازماً عليه بالمجيئ فيرد الإمام رحمه الله بقوله للرسول: «ياأمير المؤمنين إن هذا العلم منكم أخذ فإن عزرتموه عزروإن ذللتموه ذلّ، العلم يؤتى ولا يأتي» فيقنع الرشيد بهذه الإجابة لحسن مدخل الإمام رحمه الله إلى قلب الرشيد، ويعتذر أبو جعفر المنصور عما حدث لمالك من عامل المدينة الذي أوقع بمالك في المحنه؛ بأنه لم يأمر ولم يرضى إذا سمع بها، ويعرض على مالك أن يفعل بعامله بمثل ما فعل بمالك، فكان جواب مالك الحصيف؛ وهويعرف أن العامل ابن عم جعفر المنصور؛ فيقول: إنه عفا عنه بسبب قرابته من رسول الله ﷺ وقرابته من أمير المؤمنين فيسر أمير المؤمنين بهذه الإجابة العاقلة.

ويشترك مع مالك بقية رجال هذه المدرسة في تلك الخاصية التي تزين كل من اتصف بها، فها هو يحيى بن يحيى الليثي عاقل الأندلس يأبى القضاء الذي عرضه عليه أمير المؤمنين؛ فيقول له: إن المكان الذي هو فيه أنفع وخير لكم مما تريدون فإذا تظلم الناس من قاض أجلستموني فنظرت لكم في أحكامه وإن كنت قاضياً فتُظُلم مني كما يُتظلم من القضاة من تقعدون ينظر في أحكامي؟ فكفوا عنه.

قال ابن لبابة: «فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها ابن حبيب، وعاقلها يحيى بن يحيى»، قال الشيرازي: انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في العلم، وكان مالك يعجبه سمت يحيى وعقله.

قال أبو عمر بن عبد البر: «كان يحيى إمام بلده المقتدى به المنظور إليه المعمول عليه، وكان ثقة عاقلاً، حسن الهدي والسمت يُشَبَّه سمته بسمت مالك»[1]. وبهذا العقل

---

(١) ترتيب المدارك، ج٢، ص٥٣٧.

وبذلك السمت صارت له مكانة عظيمة عند الخليفة فكان لا يولي أحداً القضاة إلا بمشورته، كما كان الخليفة يشتشيره في كثير من أمره وأمور الرعية، حتى أنه شدد عليه وأفتاه بصيام شهرين حينما لعب به الشيطان ووقع على جارية من جواريه في رمضان ولم يجعل له حرية الاختيار بين العتق والإطعام والصيام، حسب ما جاء في حديث الموطأ الوارد في ذلك[1] وقال: لو جعلت له اختيار الطعام أو العتق لوقع كل يوم على جارية وأعتق وأطعم. ومما يضرب به المثل في عقل يحيى؛ أنه استطاع أن يأخذ حديث ابن وهب ومسائل ابن القاسم ويوفق بينهما على وجه حسن، قال رحمه الله: كنت آتي عبد الرحمن ابن القاسم؛ فيقول لي من أين يا أبا محمد؟ فأقوله له من عند ابن وهب، فيقول لي: اتق الله، فإن أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العمل، ثم آتي عبد الله بن وهب، فيقول لي من أين يا أبا محمد؟ فأقول من عند ابن القاسم، فيقول لي اتق الله، فإن أكثر هذه المسائل رأي، ثم يرجع يحيى فيقول: رحمهما الله تعالى فكلاهما قد أصاب في مقالته، نهاني ابن القاسم عن اتباع ما ليس عليه العمل من الحديث وأصاب، ونهاني ابن وهب عن كلفة الرأي وكثرته، وأمرني بالإتباع وأصاب، ثم يقول يحيى: اتباع ابن القاسم في رأيه رشد، واتباع ابن وهب في أثره هدى[2].

وهكذا نجد العقل عند الإمام ورجال مدرسته يعاضد العلم ويسانده، دون معارضة له أو مناقضة ، بل ربما مكن له في صدور الرجال؛ لأن العلم يحمل الحق والحق ثقيل على القلوب، فتسبقه راحة العقل فتمهد له القلوب فتشرحها وتوسعها له؛ فيدخل إليها علم حاملاً الحق معه، دون استيحاش من العلم أو ضيق من القلوب فيحصل الإتلاف والاطمئنان.

رحم الله الإمام يحيى فقد استطاع بعلمه وعقله أن يجعل لمذهب مالك دولة في الأندلس لا يجهر إلا به، ولا يحتكم إلا إليه، ولا تصح دعوى لم تقم على قواعده.

وهكذا استفاد تلاميذ هذه المدرسة من عقل مالك كما استفادوا من علمه ومنهجه، لقد أنار عقله الطريق إلى محبته وتقديره، وتقدير تلاميذه من بعده يوم أن أبى أن يستجيب

---

(١) الموطأ مع شرح الزرقاني عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أفطر في رمضان فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفر بعتق رقبة أو صيام شهرين أو إطعام ستين مسكيناً، ج٢، ص١٧١، ص١٧٢، دار الفكر بيروت.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، من ص٥٣٥ إلى ص٥٤١ بإيجاز.

لرغبة أبي جعفر المنصور في تعليق كتابه على الكعبة، وحمل الناس عليه، وهو أمر يورث العز والسؤدد لصحابه، لكنه رأى فيه غمطاً لعلم علماءالأمصار الأخرى، كما رأى أنه سيجلب عليه نقمة كل العلماء من المناهج الأخرى، فكان رفضه لذلك مجلبة لحب العلماء وتقديرهم له على اختلاف مشاربهم.

رحمه الله رحمة واسعة.

المطلب الخامس
الاستمساك بما كان عليه السلف

لقد كان الاستمساك بما كان عليه السلف هو الدعامة التي قامت عليها هذه المدرسة.

قال معن بن عيسى- وهو من أقرب تلاميذ مالك إليه- سمعت مالكاً يقول: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكلما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه».

قيل له ذات يوم :إذا قلت أنت يا أبا عبد الله لا أدري فمن يدري؟ قال: ويحك ما عرفتني؟ ومن أنا؟ واي شيئ منزلتي حتى أدري ما لا تدرون؟ ثم أخذ يحتج بحديث ابن عمر رضي الله عنهما: يقول- لا أدري فمن أنا؟ وإنما اهلك الناس العجب وطلب الرئاسة وهذا يضمحل عن قليل.

وقال مرة: «فقد ابتلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذه الأشياء فلم يجب فيها، وقال الزبير رضي الله عنه: لا أدري، وابن عمر لا أدري».

وقال: لم يكن من آمر الناس، ولا من سلفنا الذين يقتدى ويعول في الإسلام عليهم، أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ولكن يقول: أنا أكره كذا واحب كذا، أما حلال وحرام فهذا الإفتراء على الله، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(١)، لأن الحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرماه»(٢).

وكان مالك يحب الاستمساك بما عليه السلف بما هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة دون خوض في التأويل، فكان رحمة الله عليه كثيراً ما يتمثل في قول الشاعر:

وخير أمور الدين ما كان سنة   وشر الأمور المحدثات البدائع

كما يتمثل بقول عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سنناً الأخذ بها اتباع لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد بعد هؤلاء

(١) سورة يونس، الآية: ٥٩.

(٢) ترتيب المدارك: ط١٤٤، ١٤٥، ١٤٧.

تبديلها ولا النظر في الشيئ خالفها، من اهتدى بها استنصر، ومن انتصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وسائت مصيراً. وكان إذا حدث بهذا ارتج سروراً(١).

وكان رحمه الله يكره التحدث بالأحاديث التي توجد بها بعض العبارات الموهمة مشابهة الحوادث. قال الوليد ابن مسلم سألت مالكاً عن هذه الأحاديث مثل حديث التنزيل ونحوه فقال: «اقرأها كما جاءت» وكره أن يحّدث بها عوام الناس الذين لا يعرفون وجهها ولا تبلغها عقولهم(٢).

وكان رحمه الله يدافع عن أصحاب رسول الله ﷺ ويفتي بكفر من عابهم وأن لا حق له في الفيئ، وكان يجهر بذلك أمام العامة والخاصة.

قال مصعب الزبيري وابن نافع: دخل هارون المسجد فركع، ثم أتى قبر النبي ﷺ، ثم أتى مجلس مالك فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال مالك: وعليك السلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثم قال لمالك. هل لمن سب أصحاب رسول الله في الفيئ حق؟ قال لا ولا كرامة، قال: من أين قلت ذلك؟ قال: قال الله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾. فمن عابهم فهو كافر، ولا حق لكافر في الفيئ... واحتج مرة أخرى بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾... الآيات، قال: فهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا معه، وأنصاره، والذين جاءوا من بعدهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾... الآيه، فما عدا هؤلاء فلا حق له فيه(٣).

هذا الاستدلال يظهر الصلة التي تربط مالك رحمه الله بعمر رضي الله عنه، فهو تذكير بوراثة مالك لعلم عمر رضي الله عنه؛ قال حميد ابن الأسود: كان إمام الناس عندنا بعد عمر رضي الله عنه زيد بن ثابت، وبعده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقال ابن المديني: «وأخذ على زيد ممن كان يتبع رأيه أحد وعشرون رجلاً، ثم صار علم هؤلاء إلى ثلاثة، ابن شهاب وبكير بن عبد الله وأبي الزناد. وصار علم هؤلاء كلهم إلى مالك»(٤).

---

(١) ترتيب المدارك، ط من ١٧٠ إلى ١٧٢ بإيجاز.

(٢) ملامح من حياة الفقيه المحدث (مالك بن أنس) إمام دار الهجرة، ص٧٨ دار الاعتصام.

(٣) المرجع السابق، ص٧٩.

(٤) المرجع السابق، ص١١.

وقد ورث رجال هذه المدرسة عن شيخهم إعلاء شأن القرآن الكريم والاستمساك بما كان عليه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم؛ فابن غانم قاضي الجماعة بالقيروان يدعى لمائدة كبار القوم وعليها كنافة وكان يحبها فلما وضعت بين أيديهم خرق رجل من القوم موضع الزبد من وسط القصعة، فقال له سليمان بن زرعة من أصحابه ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾[١] فقال له ابن غانم: أتهزأ بكتاب الله تعالى؟ عليّ ألا كلمتك أبداً. ثم أمر بدابتة فقربت إليه، وانصرف راجعاً إلى القيروان[٢].

وخرج البهلول يوماً على أصحابه، وقد غطى خنصره بيده، وقد كان أهله سألوه حاجة فربط في خنصره خيطاً ليذكرها ثم قال: خفت أن أكون ابتدعت، فغطى إصبعه لئلا يراه أحد فيقتدي به، ثم وجه بعض أصحابه وأسّر إليه الأمر، فسأل ابن فروخ صاحبه عن ذلك، فجاءه فأخبره عنه؛ أن عبد الله بن عمر كان يفعل ذلك، فنحى بهلول كفه عن خنصره؛ وقال: الحمد لله الذي لم يجعلني ممن ابتدع بدعة في الإسلام[٣].

ونختم هذا المطلب برؤيا لرجل من تلاميذ هذه المدرسة المباركة التي توارث رجالها الحفاظ على ما جرى به العمل من السلف والتمسك بالسنة تأكد على هذه المعاني؛ فقد رأى سحنون في منامه كأن رسول الله ﷺ مات واجتمع الناس على دفنه ما خلا سحنون وحده، فأرسل سحنون إلى أبي شيخ- وكان مشهوراً بتأويل الرؤى- وقال للرسول: لا تخبره أني رأيتها، واغتم لها سحنون، لان البدعه بخلق القرآن قد ظهرت، فأتى رسوله أبا شيخ فسأله عن الرؤيا وكنى عن سحنون، فلما رأى تماديه على أن سحنون رأى هذه الرؤيا، قال له الرسول: فسرها لمن كانت، فقال له أبو شيخ: هذه سنة رسول الله ﷺ قد ماتت واجتمع الناس على دفنها خلا سحنون وحده، فإن رسول الله ﷺ مات قبل هذا الوقت بحين وكانت سنته حية، فأميتت في هذا الوقت بالبدعه وتعاون الناس على دفنها إلا سحنون وحده[٤].

والحمد لله رب العالمين؛ فقد عرف المالكيه في كل زمان ومكان بإقامتهم على ما قد ارتأوه من إمامهم من استمساك بعمل السلف وبعد عن أهل الأهواء، بالرغم مما تعرضوا له من

(١) سورة الكهف، الآية: ٧١.

(٢) رياض النفوس، ص٢١٨.

(٣) ترتيب المدارك، ص٣٣٦.

(٤) الرياض، ص٢٩٨.

إضطهاد ومجازر بسبب ذلك راح ضحيتها الكثير من علمائهم؛ ومعركتهم مع جيش الفاطميين، والتي ذهب فيها خمسه وثلاثون من علمائهم شهداء في معركه غير متكافئة، قرب مدينه المهدية التي كانت عاصمة لدولتهم في شمال (إفريقيا) لا زالت ماثلة للأذهان.

المطلب السادس
الإخلاص للعلم

لقد كان الإخلاص للعلم طابعاً عاماً لرجال هذه المدرسة بشهادة الجميع...

يقول الشيخ محمد أبو زهرة ـ وليس مالكي المذهب ـ: الصفة الثالثة التي كانت من أسباب إدراك مالك للحقائق وفهمه للحديث وكتاب الله تعالى: هي الإخلاص في طلب العلم، أخلص في طلبه لذات الله لا يبغي به علواً ولا استكباراً ولا مراءاً ولا جدالاً، ونقى نفسه من كل شوائب الغرض والهوى في دراسته، وأخلص في طلب الحقيقة واتجه إليها من غير عوج ولا أمت في سبيله.

وقال الشيخ أبو زهرة: «الإخلاص نور يشرق في النفس فيضيء الفكر ويسير على هدى مستقيم، والاتجاه المستقيم الخالي من شوائب الغرض والهوى والشهوة يكون معه فيض روحاني يدرك به الباحث الأمور من غير إلتواء ولا إمتراء، إذ أنه لا شيء يعكر صفو الفكر ويكون كالغيم على الحقائق يمنع العقل من إدراكها أكثر من انغماس النفس في الشهوات واستيلاء الهوى على الإدراك، واستغراق الأحاسيس المختلفة للمدارك، فإنها تجعل العقل يعمى عن الحقائق، فَتَعْمه البصيرة ولا تنفذ إلى الأمور».

وكان يدفعه إلى الإخلاص: أن العلم الذي يطلبه كان يتصل بالدين وهو قربة يتقرب بها إلى الله تعالى، وإنما الأعمال بالنيات فلا يحتسب له من الخير إلا بمقدار إخلاص النية واحتسابها لربه، ولذلك كان يقول رضي الله عنه: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه».

وقال أيضاً: إنه كان يدفعه إلى الإخلاص أنه كان يعتقد أن نور العلم لا يؤنس إلا عند من امتلأ قلبه بالتقوى والإخلاص ولذلك أثر عنه أنه كان يقول: «العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع»، فالإخلاص وترك ملاذ الدنيا وشهواتها ينير السبيل لطالب العلم في نظره، ولذلك كان يقول: «ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة».

وقد قال لتلميذه ابن وهب يوصيه: «إن كنت تريد بما طلبت ما عند الله فقد أصبت ما تنتفع به، وإن كنت تريد بما تعلمت الدنيا فليس في يدك شيء»[1].

---

(١) مالك: حياته وعصره، آراؤه وفقهه. للشيخ محمد أبو زهرة دار الفكر العربي، ط١٩٩٧م، ص٧٠.

ونجتزىء بهذا القدر من شهادة المرحوم أبو زهرة، لدلالتها على ما نريد الإشارة إليه مما منَّ الله تعالى به على شيخ هذه المدرسة، لنعطي المجال لبعض مظاهر هذا الإخلاص؛ لعل فيها عبرة لمن يحاول أن يسير في هذا الدرب الوعر الموحش؛ وسنعود إليه لنعرف آثار هذا الإخلاص على الإمام.

قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا سئل عن المسألة، قال للسائل: انصرف حتى انظر فيها، فينصرف، ويتردد فيها، فقلنا له في ذلك؛ فبكى وقال: إني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأي يوم - وزاد في رواية أخرى - كان مالك إذا جلس نكَّس رأسه ويحرك شفتيه بذكر الله ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً، فإذا سئل عن مسألة تغير لونه وكان أحمر بصفرة، فيصفر وينكس رأسه ويحرك شفتيه ثم يقول: ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله فربما يسأل عن خمسين مسألة فلا يجيب منها في واحدة. وكان يقول رحمه الله: «من أحب أن يجيب عن مسأله فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب».

وقال: «ماشيء أشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام، كان هذا هو القطع في حكم الله، ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا وإن أحدهم إذا سئل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه»[١].

ونعود إلى الشيخ أبي زهرة لنلمس مظاهر الإخلاص كما يراها هو:

يقول الشيخ أبو زهرة؛ ولإخلاص مالك في طلب العلم التزم أموراً، وابتعد عن أمور:

فكان مما التزمه: التمسك بالسنة والأمور الظاهرة الواضحة البينة ولذلك كان يقول: خير الأمور ما كان منها ضاحياً بيناً، وإن كنت في أمرين أنت منهما في شك فخذ الذي هو أوثق.

والتزم الإفتاء فيما يقع من المسائل دون أن يفرض خشية أن يضل وأن يبعد عن سنة رسول الله ﷺ وأن يندفع إلى المغالاة في الأمور وفرض غير المعقول.

والتزم الأناة في التفكير، وكان يفكر التفكير الطويل العميق ولا يسارع إلى الإفتاء فإن المسارعة إلى الإفتاء قد تجر إلى الخطأ يقول ابن القاسم سمعت مالكاً يقول: إني لأفكر في

(١) ترتيب المدارك، ص١٤٤، ص١٤٥.

مسألة منذ بضع عشرة سنة ما تفق لي فيها رأي حتى الآن، وكان يقول: ربما وردت إلى مسألة فأسهر فيها عامة ليلتي.. وهذا قليل من كثير.

ومما ابتعد عنه: الجدال لأنه لا يليق بالعالم المخلص الذي يطلب العلم لذات الله والدين، وذلك لأن المجادلة نوع من المنازلة، ودين الله أعلم من أن يكون موضعاً لنزال المسلمين، ولأن الجدل يدفع في كثير من الأحوال إلى التعصب للفكرة من غير أن يشعر المجادل.. وقال للرشيد حين قال له ناظر أبا يوسف: إن العلم ليس كالتحريض بين البهائم والديكة.

وكان يقول: المراء والجدال في الدين يذهب بنور العلم من قلب العبد كما ابتعد عن الإكثار من التحديث لقد كان لا يحدث بكل ما يعلم، وكان يعد من يكثر من التحديث ومن يحدث بكل ما يعلم أحمق.

كذلك كان يبتعد عن الإكثار من الإفتاء، وكان يقول: من أكثر أخطأ.

كما كان يبتعد عن الكلام فيما يصدر عن القضاة من الأحكام، حتى لا يجرىء الناس على عصيانهم أو الطعن فيها أو الاستخفاف بالقضاة [1] وغير ذلك كثير.. .

ونشير في عجالة إلى أثر الإخلاص في العلم الذي ظهر على بعض رجال هذه المدرسة المباركة: حكي أن مالكاً قال في تلميذه عبد العزيز بن أبي حازم ـ حين لمس مظاهر الإخلاص بادية عليه ـ قوم فيهم ابن أبي حازم لا يصيبهم العذاب.

قال ابن شعبان توفي ابن أبي حازم في سجدة سجدها بالروضة بمسجد النبي ﷺ يوم الجمعة، في آخر سجدة منها[2].

ذكر ابن اللباد أنه لما مات أحد القضاة بأفريقية بعث الخليفة رسولاً من بغداد إلى والي أفريقية ليستشير علي بن زياد ـ أحد كبار تلاميذ مالك ـ في من يتولى القضاء فأرسل إليه الوالي فلم يجيء ابن زياد فغضب رسول الخليفة وتعجب كيف يرسل الوالي بناء على طلب الخليفة إلى رجل من الرعية فيتثاقل عن المجيء، فأخذه الوالي إلى دار علي بن زياد، فلما دخل عليه ولّى علي وجهه إلى الحائط جهة القبلة، فقال له الوالي: يا أبا الحسن هذا رسول الخليفة

---

(١) مالك لأبي زهرة، ص٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١ بإيجاز.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص٢٨٩.

يستشيرك في قاض يلي أفريقية، فقال: وهو مولٍّ وجهه جهة القبلة، ورب هذه القبلة ما أعرف بها أحداً يستوجب القضاء، قوموا عني[١].

وكتب البهلول مع سحنون إلى ابن زياد: يأتيك رجل يطلب العلم لله، فلما وصل سحنون أتاه عليٌّ إلى بيته بالموطأ، وقال: والله ما سمعته عليَّ إلا في بيتك، لأن البهلول كتب إليَّ أنك ممن يطلب العلم لله.

وأقول: فهل يمكن أن يوصف مثل هذا الرجل بأقل ما يقال: أنه وصل إلى مرحلة الفناء عن حظوظ الدنيا كلها.

ومن ألطف ما ينقل عن ابن زياد للدلالة على ما يبلغه أثر الإخلاص؛ أنه بعث إليه في دار الأمارة ليولَّى القضاء، فلما دخل دار الإمارة، جاء البهلول والصالحون حين بلغهم ذلك إلى دار الإمارة، فخرج عليهم يمسح العرق عن جبهته، فقالوا ماذا فعلت؟ قال: عافى الله وهو محمود، فقال له البهلول بما عزمت؟ قال أخشى أن يبدو لهم طلبي مرة أخرى، وعليه فلا أبيت الليلة هاهنا، فتوجه إلى تونس على حماره، وودعوه، وجاء رجل إلى البهلول وقال: رأيت في المنام كأن قنديلاً دخل من باب تونس حتى دخل دار بني دراج، فقال أتعرف الدار؟ قال: نعم قال: قوموا بنا، فقد جاء علي بن زياد، فانتهوا مع الرجل حتى أوقفهم على الدار فسألوا، فإذا علي قد دخلها في السحر، فدخل عليه البهلول فقام إليه علي وسلم عليه وجعل البهلول يسأله عن مسائل[٢].

وأقول إن قناديل هذه المدرسة قد وزعت على الدنيا في جهاتها الأربع، ومازالت أنوارها تضيء طريق الحق إلى رب العالمين، إلى يوم الناس هذا، وإلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى؛ وهناك مقولة سمعتها تتردد في كثير من الأماكن التي تواجدت فيها؛ وهو أن المالكية هم الأولياء.

وأنهى هذه الكلمة عن أثر الإخلاص، بهذه اللطيفة عن ابن القاسم الذي قال فيه الإمام مالك؛ حين سئل عنه؛ عافاه الله مثله كمثل جراب مملوء مسكاً.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢٨.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص٣٢٨، ص٣٢٩.

قال ابن القاسم: خرجت إلى الإسكندرية ومعي وديعة فارسينا في موضع مخوف في الطريق فآثرت السهر لحفظ الوديعة، فإذا في شط البحر رجل أبيض على برذون أشهب فشق البحر إليَّ حتى وقف على السفينة فقال لي: نم يا ابن القاسم فنحن نحرسها. وفي رواية أخرى: إن الوديعة كانت عشرة آلاف، وأن الفارس قال له: إن ربي أرسلني إليك أحرس لك هذه الأمانة، فكنت إذا استيقظت نظرت إليه يجول حوالينا، كان دأبه ذلك ثلاث ليال حتى مضى من مصر إلى الإسكندرية[١].

وغير ذلك كثير وكثير...

فرحم الله هؤلاء الأساطين الذين رفعوا شأن العلم عالياً، وضربوا أروع الأمثال في الإخلاص لإبلاغ كلمة الحق فعرف الناس قدرهم واستضاءوا بأنوارهم في حياتهم وبعد مماتهم، كما نرجوه سبحانه أن يأخذ بأيدينا في طريقهم، وأن يحشرنا في زمرتهم؛ لأننا نحبهم، والله على ما نقول شهيد، وقد قال الصادق المصدوق ﷺ (المرء يحشر مع من أحب)، فاللهم انجز لنا ما وعدتنا على لسان رسولك ﷺ.

وقد بشر ابن عبد الحكم في حياته بأنه سيكون مع ابن القاسم الذي توفي قبله ـ لما كان بينهما من الحب ـ فقد نقل صاحب ترتيب المدارك عن عبد الله بن عبد الحكم قوله: «كنت أرى في النوم كأني أموت فأجزع من الموت فيشتد شدة شديدة ويقال لي: أما ترضى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ومع عبد الرحمن ابن القاسم»[٢].

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٤٢، ص٤٤٧.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٤٦، ص٤٤٧.

المطلب السابع
شدة المراقبة لله تعالى

(لقد كانت مراقبة رجال هذه المدرسة لله تعالى : هو أخذ منهم بالدرجة الأولى بالإحسان) .

قال المصطفى عليه الصلاة والسلام في حديثه المشهور بأم السنة : حينما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان ـ بعد أن سأله عن الإسلام والإيمان ـ قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

فقد جعل عليه السلام إحسان العبادة في درجتين عظيمتين إلا أن الدرجة الأولى أعلى وأرفع بكثير من الثانية، وإن كانت الدرجة الثانية في ذاتها عالية ورفيعة وعلى ذلك فمن أدى العبادة محسناً لها مراقباً لربه فيها جاعلاً عظمة الله تعالى نصب عينيه حين الأداء، بحيث لا يذهب هذا المعنى من قلبه طوال فترة الأداء : فقد وصل بعبادته إلى الدرجة الأولى من الإحسان .

وقدسبقت الإشارة إلى الكثير من الأمثلة التي تدل بوضوح على شدة الخشية . وعمق المراقبة لله تعالى من الإمام رحمه الله تعالى ونضيف هنا إلى ما قلناه : ما حكاه القعنبي، وهو من أقرب التلاميذ إليه ـ قال : دخلت على مالك فوجدته باكياً، فسألته عن ذلك، فقال : « ومن أحق بالبكاء مني، لا أتكلم بكلمة إلا كتبت بالأقلام وحملت إلى الآفاق، وما تكلمت برأي إلا في ثلاث مسائل » ولعله يقصد بالثلاث مسائل[١] أي التي ليس لها أصل صريح في النصوص الشرعية وإنما هي من قبيل الاستحسان أو من المصالح المرسلة . وقد كان له رحمه الله باع طويل في هذين المصدرين .

وقد قيل له في كثرة قوله : لا أدري، فأجاب؛ بانه يرجع أهل الشام إلى شامهم، وأهل العراق إلى عراقهم، وأهل مصر إلى مصرهم، ثم لعلي أرجع عما أفتيتهم به . فال عمر بن يزيد : فأخبرت بذلك الليث فبكى، وقال : مالك والله أقوى من الليث، أو نحو هذا[٢] .

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص١٥٢ .

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص١٤٨ .

قال بعض تلاميذه: ما سمعت قط أكثر قولاً من مالك لا حول ولا قوة إلا بالله ولونشاء أن ننصرف بألواحنا مملوءة بقوله: لا أدري؛ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستقنين لفعلنا(١).

وقد تأثر رحمه الله في هذا الباب بشيوخه حيث قال: «ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا وإن أحدهم إذا سئل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه، ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام فيه والفتيا، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غدا لقالوا من هذا»(٢).

كما تأثر به تلاميذه وتلاميذهم ومن بعدهم ممن انتسب إلى هذه المدرسة المدنية الطيبة: يقول السيوري: كان ابن غانم وهو أحد تلاميذ مالك: يلبس من الثياب أرفعها ويجعل لخصومات النساء يوماً يجلس فيه للنظر بينهن، فيلبس يومئذ الفرو الخشن وخَلَقِ الثياب، وينظر ببصره إلى الأرض فلا يشك من لا يعرفه أنه أعمى، ويزيل الحجَّاب والكتَّاب عنه.

وكان له حظ من صلاة الليل فإذا قضاها وجلس في التشهد آخرها عرض كل خصم يريد أن يحكم له على ربه ؛ يقول في مناجاته: يارب فلان منازع فلاناً، وادعى عليه بكذا فانكر دعواه، فسألتُه البينة، فاتى ببينة شهدت بما ادعى، ثم سألتهُ تزكيتها فأتاني بمن زكاهم، وسألت عنهم في السر، فذكر لي يعني خيراً وقد أشرفت أن آخذ له من صاحبه حقه الذي تبين أنه حق له، فإن كنت على صواب فثبتني، وإن كنت على غير صواب فاصرفني. اللهم لا تُسْلِمني، اللهم سَلِّمني فلا يزال يعرض الخصوم على ربه حتى يفرغ منهم(٣).

ومن هذا الرعيل المبارك بهلول بن راشد؛ الذي دُفع إليه يوماً كتاب ففضه فإذا فيه: من امرأة من سمرقند من خراسان مجنتْ مجوناً لم يمجنه أحد إلا هي، ثم تابت إلى الله تعالى، وسألت عن العُبَّاد في أرضه، فوصف لها أربعة، بهلول بأفريقية أحدهم، فسألتك بالله يا بهلول: إلا دعوتَ الله لي في أن يديم لي ما فتح لي فيه.

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص١٤٨.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص١٤٥.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣١٩.

فسقط الكتاب من يده، وخر على وجهه يبكي حتى لصق الكتاب بطين دموعه، ثم قال: بهلول، سمرقند، خراسان الويل لك من الله إن لم يستر عليك.

يفرح الناس بالشهرة، ولكن البهلول وهو أحد رجال هذه المدرسة رآها وبالاً عليه وأنها قد تكون سبباً في هلاكه.

وقال سعيد بن منصور صاحب السنن: إنا لنقول أو أنه ليقال لنا: ما يطوف بهذا البيت أحد من خلق الله أفضل من القعنبي.

وقال أحمد بن الهيثم: كنا إذا أتينا القعنبي خرج إلينا كأنه مشرف على جهنم[١].

وقال يحيى: لما قرأ أسد على ابن القاسم الأسدية، وضع أشهب يده على مثلها فخالفه في جلها، فقلت لابن القاسم: ياأبا عبد الله لو أعدت نظرك في هذه الكتب، فإن صاحبك قد خالفك، فما لاءمك عليه أقررته، وما خالفك فيه أعدت النظر فيه، فقال: أفعل إن شاء الله.

فلما تقاضيته بعد أيام في ذلك، قال ياأبا محمد نظرت في مقالتك فوجدت إجابتي يوم أجبت لله وحده فرجوت أن أوفق، وإجابتي اليوم إنما نقضاً على صاحبي، فأخاف ألا أوفق في الأمر، فتركته.

وقال يحيى: وكان طوال ما يُقرأ عليه رافعاً إصبعه مبتهلاً إلى الله تعالى في التوفيق والسلامة[٢].

وذكر سليمان بن سالم أنه أتى رجل من صطفورة إلى سحنون فسأله عن مسألة فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام فقال له بعد ذلك مسألتي أصلحك الله، لي ثلاثة أيام فقال له: ما أصنع بك يا خليلي فيها؟ مسألتك نازلة وهي معضلة وفيها أقاويل وأنا متحير في ذلك، فقال له الصطفوري: أنت أصلحك الله لكل معضلة؛ فقال له سحنون: هيهات يا ابن أخي: ليس بقولك أبذل لك لحمي ودمي للنار، ما أكثر ما لا أعرف، إن صبرت رجوت أن تنقلب بحاجتك، وإن أردت أن تمضي إلى غيري تجاب في ساعة واحدة، فقال له: إنما جئت إليك ولا أستفتي غيرك، فقال: فاصبر عافاك الله، ثم أجابه بعد ذلك[٣].

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٣٣٢.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٩.

(٣) الرياض، ج١، ص٣٥٤.

أقول: إنهم أحق الخلق بالخوف والخشية من الله، لأنهم بتقواهم وعلمهم صاروا من أقرب الخلق إلى ربهم وعلى قدر القرب من الله والمعرفة به يكون الخوف وتحدث الخشية وذلك مصداقاً لقوله جل شانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

فإن من اقترب من الملوك عرف قدرتهم وشدة بطشهم فلذلك كانوا أكثر الناس حذراً منهم، ومراقبة لهم وأقرب الأوصاف لهؤلاء الأحباب؛ بعد أن بذلوا ما بذلوا، ومع ذلك؛ الرعب من ذي الجلال والإكرام يملأ قلوبهم ويحرمهم لذة الطعام والشراب والنوم؛ هو قوله جل شانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٦٠، ٦١.

المطلب الثامن
غلبة العبادة عليهم

لقد كانت غلبة العبادة على رجال هذه المدرسة أشد من غلبة العلم لأن طريق العبادة إلى رب العالمين طريق ممهد، واضح معبد، ولأنه المقصود الحقيقي من الخلق أجمعين، إنسهم وجهنم، غنيهم وفقيرهم، حاكمهم ومحكومهم، عالمهم وجاهلهم. حيث قال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ﴾(١).

إن غوائل العبادة قليلة بخلاف غوائل العلم فإنها كثيرة لذلك كان العباد أكثر من العلماء ومن جهة أخرى، فإن بين العلم والعبادة عموم وخصوص من وجه، فإن كل عالم عابد وليس كل عابد عالم. وذلك لأن العبادة تنبع عن المعرفة بالمعبود، فكل من زادت معرفته بالمعبود زادت عبادته له، وأعني بكل من العبادة والعلم، المعنى الحقيقي لكل منهما، لأنه قد يوجد مظهر العلم، وهو حفظ الكثير من النصوص سواء من الأصول أو الفروع، دون أن توجد حقيقته وهو المدلول عليها بالخشية من الله تعالى وهذا هو المعيار بين العلم الحقيقي والعلم المظهري حيث قال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾(٢) فمن لم تكن لديه، خشية من الله فليس من العلماء الحقيقيين، لأن الله تعالى سمى فريقاً من الناس بالعلماء ولكنه جل شأنه وصف علمهم بأنه علم بظواهر الحياة بعيداً عن خشية الله التي تدفع بأصحابها إلى التعرف عن طريق الآخرة دار الخلود حيث قال جل شأنه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُوْنَ﴾(٣).

وكذلك قد تكون هناك عبادة مظهرية، وليست حقيقية أي عبادة مقصود بها الوصول إلى شيء من متاع الدنيا ولم يقصد بها وجه الله تبارك وتعالى فهذا النوع من العباد لا يعرف الله تعالى أو تكون معرفته به قليلة حيث أشرك في عبادة ربه غيره من الخلق، لذلك قال أبو بكر رضي الله عنه عن الرجل الأقطع الذي أخذته الرأفة به فاستضافه في بيته فكان يقوم الليل

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الروم، الآية: ٧.

مصلياً قارئاً للقرآن، فلما اختفى حلي زوجة أبي بكر رضي الله عنه كان الأقطع يرفع بقية يده المقطوعة مع السليمة ويقول اللهم عليك بمن سرق بيت هذا الرجل الصالح ثم تبين بعد حين أنه الفاعل، فقال أبو بكر ما أقل معرفتك بربك. إن تضرعه بالدعاء على من فعل ذلك كان أشد على أبي بكر من الذهب المسروق، لما فيه من الجرأة على الله تعالي بسبب قلة معرفته به.

وقد ضرب رجال هذه المدرسة القدح المعلى في إثبات هذه الحقيقة وهي أن كل عالم حقيقي هو عابد في نفس الوقت، وذلك لقوة معرفتهم بعظمة مولاهم جل شأنه. فقد كان معلم هذه المدرسة كما قالت عنه فاطمة ابنته: «يصلي كل ليلة حزبه فإذا كانت ليلة الجمعة أحياها كلها».

قال أبو مصعب ـ من تلاميذه كان مالك يطيل الركوع والسجود في ورده، وكان إذا وقف في الصلاة كأنه خشبة يابسة لا يتحرك منه شيء، فلما ضرب قيل له: لو خففت في هذا قليلاً، قال: ما ينبغي لأحد أن يعمل لله عملاً إلا أحسنه، والله تعالى يقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[١].

وقال أبو بكر الأوسي: كان مالك قد أدام النظر في المصحف قبل موته بسنين وكان طويل القراءة طويل البكاء.

وقال المغيرة: خرجت ليلة بعد أن هجع الناس هجعة، فمررت بمالك بن أنس فإذا أنا به قائم يصلي، فلما فرغ من الحمد لله ابتدأ ألهاكم التكاثر حتى بلغ ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٢] فبكى بكاءً طويلاً وظل يرددها ويبكي، وشغلني ما سمعت ورأيت منه عن حاجتي التي خرجت إليها فلم أزل قائماً وهو يرددها ويبكي حتى طلع الفجر، فلما تبين له ركع، فصرت إلى منزلي فتوضأت ثم أتيت المسجد، فإذا به في مجلسه والناس حوله، فلما أصبح نظرت فإذا أنا بوجهه قد علاه نور حسن.

وذكر ابن القاسم أن خادم مالك قالت له: إن لمالك اليوم بضع وأربعون سنة قلما يصلي الصبح إلا بوضوء العتمة.

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة التكاثر، الآية: ٨.

وقال ابن المبارك رأيت مالكاً فرأيته من الخاشعين، وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه، وذلك أنى كثيراً ما كنت أسمعه يقول: «من أحب أن يفتح له فرجة في قلبه وينجو من غمرات الموت، وأهوال يوم القيامة فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية»(١).

وقد يكون تأثر في بعض ذلك ببعض شيوخه: فشيخه محمد بن المنكدر يقول: كابدت نفسي أربعين عاماً حتى استقامت، وكان لا يكاد يسأله أحد عن حديث إلا بكى.

وقد تأثر مالك: بشخصية ابن المنكدر الزاهدة تأثراً قوياً، إذ كان يقول: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة آتي ابن المنكدر، فانظر إليه نظرة فأبغض نفسي أياماً(٢).

ومن هؤلاء الشيوخ الذين تأثر بهم في عبادته الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين، ويعد من سادات أهل البيت وعباد التابعين، وعلماء أهل المدينة.

ويظهر تأثر مالك به من خلال حديثه عنه حيث يقول: كنت أرى جعفر الصادق وكان كثير التبسم والدعابة، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ أخضر وأصفر، ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال، إما مصلياً، وإما صائماً وإما يقرأ القرآن.

ومن مظاهر هذا التأثر ما يرونه من تغير لون مالك واصفراره إذا ذكر النبي ﷺ ويقولون له في ذلك فيقول: «لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون»(٣).

أما تأثر بقية رجال هذه المدرسة بشيخهم في هذا المجال فلا حدود له، وضرب كل منهم في ذلك بسهم وافر، ونشير فيما يلي إلى بعض الأمثلة لإثبات هذه القاعدة:

قال حارث: جمع ابن وهب: الفقه والرواية والعبادة ... وقال ابن وهب: حججت أربعاً وعشرين حجة ألقى فيها مالكاً(٤).

وقال ابن أخيه ما رأيت أكثر رباطاً منه. وقال: شهدت عبد الله بن وهب يقرأ عليه في منزله كتاب الأهوال الذي كان يرويه أنه بلغه عن أبي هريرة وشهده أبو أسامة البكاء فأخذ في البكاء، ثم إن أبا أسامة قام بتلك الرقة وابن وهب على حاله من البكاء والقارئ يقرأ،

(١) ترتيب المدارك، ج١، من ص١٧٧ إلى ص١٨٠.

(٢) مالك بن أنس، ص٣٤، ٣٥.

(٣) مالك بن أنس، ص٣٣، ٣٤.

(٤) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٢٦.

وابن وهب ينشج رافعاً صوته، حتى إني لأحسب من كان على خمسين ذراعاً يسمعه، فلم يزل كذلك حتى مال على الحائط الذي كان مستنداً إليه، ثم احتمل إلى منزله، فلم يزل على حاله لا يعقل حتى توفى، فكنا نرى أن قلبه انصدع[١].

وقال أسد: كان ابن القاسم: يختم في كل يوم وليلة ختمتين، فنزل لي حين جئته عن ختمة رغبة في إحياء العلم[٢].

وقال يحيى إمام ابن القاسم وتلاميذه: الورع أشد ما في هذا الدين، فقال ابن القاسم ما هو عندي كذلك، فقلت له: يا أبا عبد الله فكيف ذلك، فقال: إنا أمرنا ونهينا فمن فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، فذلك أورع الناس فقيل له: يا أبا عبد الله، لقد خف عليك ما ثقل على غيرك، فأي شيء وجدت من هذا الأمر أثقل؟ فقال: ما وجدت شيئاً أثقل عليّ من مكابدة أجزاء الليل[٣].

وقال ابن وهب حين مات ابن القاسم: كان أخي وصاحبي في هذا المسجد منذ أربعين سنة ما رحت رواحاً ولا غدوت غدواً قط إلى هذا المسجد إلا وجدته سبقني إليه. ونختم هذه الكلمة عن عبادتهم بشيء عن أحد غصون هذه الشجرة المباركة، فقد ذكر أحد سكان مدينة القصر بقرب القيروان بأنه خرج ليلة في القصر بعد العشاء الآخرة فإذا بقارئ يقرأ في بعض البيوت، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ...﴾[٤] ويردد الآية، فرجع الرجل إلى صلاة الصبح وهو على حالته، قال: واسمع وقع الدموع على الحصير إلى أن خرج لصلاة الفجر مستور الوجه فلم أزل أرقبه، إذا به محمد بن سحنون[٥].

ونكتفي بهذه الزهرات الفواحة من هذا البستان العاطر، وإن كان يعز علي أن أنهيه دون زفرة من زفرات راوية المدونة، حيث يحكي يحيى بن عمر عن بعض أحبابه فيقول: شهدت العيد مع عبد الرحمن بن القاسم، فلما انصرفنا دخل ابن القاسم المسجد فصلى، ثم

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٣١.
(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٤٠.
(٣) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٤٤.
(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٢، ٢١.
(٥) ترتيب المدارك، ج١، ص١٠٨.

سجد فطول حتى خفت أن يفوتني الغداء مع أهلي فدنوت منه فسمعته يقول، إلهي انقلب عبادك إلى ما أعدوه لهذا اليوم، وانقلب عبد الرحمن إليك يرجو مغفرتك في هذا اليوم العظيم، فإن كنت قد فعلت فبخ بخ وإن كنت لم تفعل فيا ويلي ويا حسرتي، قال: فجعلت على ثوبه علامة ثم سرت إلى أهلي فتغديت معهم ووطنت وقمت ثم جئت المسجد فوجدته على هيئته كما تركته.

فهؤلاء شيوخنا وأحبابنا ونرجو من الكريم العطوف الرؤوف الرحيم ألا نحرم من شفاعتهم لنسعد بلقائهم في دار النعيم بعد أن حرمنا من لقائهم في دار الفناء. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المطلب التاسع
إعظامهم للحديث الشريف

لقد كان إعلاؤهم للحديث الشريف بحسب شدة حبهم لصاحبه عليه الصلاة والسلام، وقد اشتهر مالك رضي الله عنه بتغير لونه حينما يأتي ذكر النبي ﷺ فيصفر ويخضر حتى صار ذلك سمة من سماته التي عرف بها وحين يحس من الجالسين عجباً في ذلك يبين لهم أن ما يرونه منه قليل من كثير مما شاهده من بعض شيوخه، فقد كان شيخه جعفر الصادق يحاول أن يتفادى ذكر الرسول ﷺ خشية هذا التلون الذي يعتريه عند ذلك ولا حيلة له فيه فإذا حدث أن ذكر الرسول ﷺ أخذته هذه الأطياف من الألوان، كما يحكي عن شيخه أيوب السختياني الذي كان يشتد نحيبه حين يأتي ذكر رسول الله ﷺ حتى يرحمه مالك، ولكنه رحمه الله كان يحاول أن يخفي سبب بكائه، بأن يتمخط وربما تعاطس ليوهم الحاضرين بأنه مزكوم.

وأن ما يعتريه إنما هو حالة مرضية[١] لكن مالكاً، وهو المحب لم ينطل عليه هذا الإدعاء، وعرف أن سبب نحيب أيوب رضي الله عنه هو أن درجة الحب عنده قد علت واشتدت واستولت على مجامع قلبه حتى وصلت إلى المرحلة التي لا يستطيع كتمانها، فأقبل عليه حينئذ يسمع منه الحديث بعد أن ترك منه السماع لعامين متتاليين، لأن المحب يشتد حرصه على حديث حبيبه، نعم كان الإمام جعفر لديه القدرة على الكتمان ولكن مشاعره الداخلية كانت تغلبه فتحدث لديه التغيرات رغم إرادته، كما كان الحال عند مالك فإنه كان يحاول إخفاء ما يجد من أثر الحب ومظاهره إلا أن مشاعره الداخلية كانت تغلبه فتحدث له هذه التغيرات، وسبحان مقسم القدرات كانت لدى مالك رضي الله عنه الرغبة العارمة في إبلاغ رسالة رسول الله ﷺ، ولأنه لو استسلم لانفعالات الحب كما فعل غيره ممن غلب الحب عليهم وانشغلوا به وهم كثير وكثير لن يستطيع أداء هذه المهمة التي رأى أنها قد تعينت عليه بعد أن تمكن من أدواتها وسيطر على أعِنَّتها، وكان في ذلك الخير للمسلمين قاطبة. وأنا أقول ذلك من باب القياس والنظر، لأن الأصواف التي كان يوصف بها

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ص٣، ص٧، الناشر المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

مالك حين يذكر رسول الله ﷺ وتلك التي قد نقلها عن بعض شيوخه في مثل هذه الحالة هي من أوصاف المحبين الذين اشتدت عندهم درجته وكانوا من أولى القدرة على الكتمان، وقد قال الشاعر القديم.

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

وكيف لا ومالك صباح مساء أمام الحجرة الشريفة ناظراً إليها مشغولاً بحديث صاحبها وسيرته، بل جدران المدينة ومشاهدها، وطرقها، وحوانيتها في عهده، كلها تذكره به ﷺ، وبما عليه من الخلق العظيم.

وقد قال المثنى بن سعيد القصير: سمعت مالك بن أنس يقول: «ما بت ليلة إلا رأيت رسول الله ﷺ»[٢].

لذلك قال يحيى بن عبد الله لأبي زرعة وهو يحدثه عن الثقة في حديث مالك: ليس هذا زعزعة عن زوبعة ترفع الستر وتنظر إلى النبي ﷺ وأصحابه بين يديه: مالك بن نافع عن ابن عمر[٣].

ومن مظاهر هذا الحب والتوقير:

قال عبد العزيز بن عبد الله: سئل مالك أسمع من عمرو بن دينار؟ فقال: رأيته يحدث والناس قيام يكتبون، فكرهت أن أكتب حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم، قال الزبيري مرَّ مالك بأبي الزناد وهو يحدث فلم يجلس إليه، فلقيه بعد ذلك، فقال له: ما منعك أن تجلس إليّ، قال: كان الموضع ضيقاً فلم أرد آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم[٣].

وقال ابن أبي أويس: كان مالك إذا جلس للحديث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدَّث، فقيل له في ذلك، فقال أُحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً، وكان يكره أن يحدث في الطريق مستعجلاً، وقال أحب أن أفهم حديث رسول الله ﷺ[٤].

---

(١) حلية الأولياء، ج٦، ص٣١٧.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص١٣٦.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٢٢، ١٢٣.

(٤) ترتيب المدارك، ج١، ص٥٥.

وروى هذا من طريق آخر عن مطرف، قال كان مالك إذا أتاه الناس خرجتْ إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون منه الحديث أو المسائل؟ إن قالوا المسائل، خرج إليهم فأفتاهم، وإن قالوا الحديث قال لهم أجلسوا ودخل مغتسلة فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً ولبس ساجه وتعمم ووضع على رأسه طويلة، وتلقى له المنصة فيخرج إليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع، ويوضع عود، فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ.

ومن هذه المظاهر تعظيمه لأهل المدينة وتقديمهم في الدخول إليه، وتوصية الخلفاء بهم خيراً.

قال يحيى كنا نجتمع على بابه فإذا توافينا صرخ الآذن ليدخل أهل المدينة ثم ليؤذن لغيرهم[١].

وقال مصعب: لما قدم المهدي المدينة استقبله مالك وغيره من أشرافها على أميال فلما أبصر بمالك انحرف المهدي إليه فعانقه وسلم عليه وسايره، فالتفت مالك إلى المهدي فقال: «يا أمير المؤمنين إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار فسلم عليهم فإن ما على وجه الأرض قوم خيراً من أهل المدينة ولا خيراً من المدينة» فقال له ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: «لأنه لا يعرف قبر نبي على وجه الأرض اليوم غير قبر محمد ﷺ، ومن قبر محمد عندهم فينبغي أن يعلم فضلهم على غيرهم» ففعل المهدي ما أمره به مالك.

فلما دخل المدينة ونزل، وجه بغلة إلى مالك ليركبها ويأتيه، فرد البغلة، وقال: «إني لأستحي من الله أن أركب في مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ» وأتاه ماشياً، وكانت به علة فاتكأ على المغيرة المخزومي، وعلى بن حسن العلوي، وعلى بن أبي علي اللهلي.

وهؤلاء علماء المدينة وأشرافها، فلما بصر به المهدي، قال: يا سبحان الله ترك ركوب البغلة إجلالاً لرسول الله ﷺ فقيض الله له هؤلاء فاتكأ عليهم، والله لو دعوتهم أنا إلى هذا ما أجابوني.

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٥٤.

فقال المغيرة يا أمير المؤمنين نحن قد افتخرنا على أهل المدينة لما اتكأ علينا[١].

وغير ذلك كثير وكثير...

ومن رجال هذه المدرسة من عرض عليه علاج عينيه بعد أن فقد بصره خارج المدينة فلم يقبل، حيث فضل البقاء بالمدينة مع العمى عن علاج عينيه خارجها ومع احتمال عودته إليها مرة أخرى، فابن الماجشون كان قد عمي، فقيل له: لو خرجت إلى العراق وعالجت بصرك فإن بها من يعالجها، فقال: لا أفارق المدينة[٢].

ويسأل رجل ابن أبي أويس وهو جالس في الروضة داخل المسجد، فقال له: رحمك الله، أي شيء تقول في القرآن، فإنه قد اختلف علينا فيه؛ فغضب وقال: بقيت أنا حتى أسأل عن هذا؟ أو يذكر في مجلسي؟ ناشدتك الله والقبر، ومن فيه، والمنبر ومن علاه، وأشار إليهما؛ إما أن تقوم عني وإما أن أقوم عنك، هذا مما يذكر في مجلس؟[٣].

وقال محمد بن مسلمة رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت له: عمن أكتب العلم؟ قال: عن يحيى بن يحيى[٤]. أي التميمي النيسابوري وهو تلميذ لمالك.

وقال عبد الله بن عبد الحكم: كنت عند عبد الرزاق فنهرني مرة وأبى أن يكتب فبقيت مغموماً، فرأيت النبي ﷺ فذكرت له قصتي مع عبد الرزاق، وقال لي: أكتب عن أربعة: عبد الله بن سلمة وإسماعيل ويحيى وعبد الملك بن سلمة كلهم رووا عن مالك[٥].

ومعلوم أن الرائي والمشار إليه من محبي رسول الله ﷺ.

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٢١٢، ٢١٣.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص٣٦٢.

(٣) ترتيب المدارك، ج١، ص٣٧٠.

(٤) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٠٨.

(٥) ترتيب المدارك، ج١، ص٣٩٩.

المطلب العاشر
تمتعهم بفراسة المؤمن أو صفاء السريرة

لم يتكلم مالك كثيراً عن الأسرار التي يمنحها الله لبعض خلقه ليروا بها بعض الأشياء التي لا يراها غيرهم، وقد تكون أموراً تتعلق بالمستقبل وكان يرى أن الانشغال بظاهر القرآن والسنة هو لب الرسالة، لكن من يقرأ في سيرة الإمام يجد فيها إشارات واضاحة لا تخطؤها العين التي تريد البحث في هذا الجانب من جوانب الشريعة.

لقد جاء واضحاً في القرآن الكريم أن التقوى ـ وهي الالتزام بالأوامر والنواهي ـ تورث هذا العلم، فالعلم هنا بمعناه العام، لأن النص الكريم جاء عاماً، لم يحده بعلم دون علم حيث قال جل شأنه: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ ومن هذا المنطلق رد مالك رضي الله عنه على من أراد منه الخوض في الأسرار الباطنية؛ إن من أتقن علم الظاهر يصل إلى علم الباطن.

وقال أيضاً: «إن من أراد أن يفتح الله له فرجة في قلبه فلتكن أعماله في السر أكثر منها في العلانية».

وقال: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم نور يضعه الله في القلوب» وقد مكّن الله لمالك رضي الله عنه من ذلك كله، فقد بلغ في إتقان علم الظاهر شأوا عظيماً قلَّ أن يبلغ شأوه فيه أحد، كما كانت أعماله في السر أكثر منها في العلانية، كما بلغ في الالتزام بمعاني التقوى ما شهد به شيوخه فضلاً عن أقرانه وتلاميذه.

وهذه هي المؤهلات لصفاء السريرة، وليس من الغريب أو العجيب أن يرى الناس من مالك نفاذ بصيرة، تجعله ينظر إلى المسقبل ويتحدث عنه مع تلاميذه الذين صاروا على وشك المفارقة له بعد أن حصلوا من علمه على القدر الذي يكونون به أئمة في أمصارهم.

إن كثيراً من الناس يرون أن مالكاً كان ذا فراسة وقد تردد ذلك حتى في كتب الأقدمين الذين كتبوا عن مالك رضي الله عنه، وإني أرى أن ما كانت لدى الإمام ليست هي الفراسة التي يفهمها عامة الناس؛ لأن هذه الفراسة علم له قواعده وضوابطه بحيث يخبر عن مستقبل بعض الناس بناءاً على ما يظهر من أشكالهم وألوانهم وطولهم وقصرهم وشكل عظامهم واستدارة عيونهم وشكل أنوفهم وهكذا ...

إلا أن هذه الفراسة كثيراً ما كانت تخطئ ولا يتحقق الشيء الناتج عنها، لكن مالكاً كان يوصي تلاميذه عند مفارقته بأن ينشطوا في مجال معين من العلم أو العمل الذي يرى أنهم مستعدون له، وذلك من خلال معايشتهم له وطول إقامتهم معه، وما يراه من استعداد كل منهم للانتفاع به في باب معين من أبواب العلم أو العمل في الحياة، وقد تقع من مالك بدون ذلك كله. فإن كان يقصد بالفراسة؛ هو هذا القدر من الصفاء الباطني الذي قد يصاحبه قدر من الملاحظة فلا بأس أن يطلق عليه فراسة وقد قيل: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله.

قال القاضي عياض رضي الله عنه: كان الشافعي صاحب فراسة، فقيل له في ذلك فقال: أخذتها من مالك.

وذلك أني لما سرت إلى المدينة ولقيت مالكاً وسمع كلامي نظر إليَّ ساعة وكانت له فراسة، ثم قال لي: ما اسمك؟ قلت محمد، قال يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن.

وقال أسد ابن الفرات: لزمت أنا وصاحب لي مالكاً، فلما أردنا الخروج إلى العراق أتيناه مودعين له؛ فقلنا له: أوصنا؛ فالتفت إلى صاحبي وقال أوصيك بالقرآن خيراً، والتفت إلي وقال أوصيك بهذه الأمة خيراً.

قال أسد: فما مات صاحبي حتى أقبل على العبادة والقرآن، وولي أسد القضاء.

ووقع لمالك أيضاً أنه نظر يوماً إلى ثلاثة من أصحابه من أهل أفريقيا ابن فروخ وابن غانم والبهلول بن راشد، فقال في ابن غانم: هذا قاضي بلده، وفي البهلول: هذا عابد بلده، وفي ابن فروخ: هذا فقيه بلده[١] . فكانوا كما قال رحمه الله. وقال لابن القاسم: اتق الله وعليك بنشر هذا العلم[٢].

فكان هو القائم على نشر المذهب من خلال روايته علم مالك في المدونة لأسد بن الفرات ثم لسحنون من بعده.

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٢٣٢.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص٤٣٥.

وما عدا المدونة والموطأ من أمهات كتب المذهب هي نوادر وزيادات كما سماها ذلك في كتاب له ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة بعد أن جمعها في هذا الكتاب.

ثم سرى ذلك إلى بقية رجال هذه المدرسة، فابن القاسم يتفرس في سحنون، وقد جاء طالباً للعلم ومعه سلاحه وخيله يريد الخروج للجهاد بعد أخذ شيء من العلم، ويقول لصاحب له يسمى ابن رشيد: قل لصاحبك يعني سحنون يقعد، فالعلم أولى به من الجهاد وأكثر ثواباً، ويعطي هذه الخيل التي قدم بها هو لمن في مثل حاله يؤديها عنه، فما قدم علينا من إفريقية مثل سحنون ولا ابن غانم(١).

وقد كانت فراسة ابن القاسم في موضعها فصبر سحنون وصابر حتى صار صاحب أهم كتاب في الفقه المالكي.

وكذلك نجد هذه السمة في كثير من أتباع هذه المدرسة؛ فقد قال سحنون في ابنه محمد ما أُشبِّهه إلا بأشهب .. ويقول: ما غبنت في ابني محمد إلا أني أخاف أن يكون عمره قصيراً، وكان يقول لمؤدبه: لا تؤدبه: لا تؤدبه إلا بالكلام الطيب والمدح، فليس هو ممن يؤدب بالتعنيف والضرب واتركه على بختي، فإني أرجو أن يكون إمام وقته وفريد أهل زمانه(٢).

وقد كان ما توقعه سحنون لابنه محمد سواء في سنه أو في علمه، فقد صار فعلاً فريد أهل زمانه في العلم والعمل حتى قيل: لم يوجد بعد سحنون مثل ابنه، كما أنه توفى وعنده ست وخمسون سنة بينما توفى سحنون وعنده ثمانون سنة. رحمهما الله تعالى رحمة واسعة على ما قدما لأمتهما من العلم النافع والقدوة في العمل الصالح.

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٥٨٥.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص١٠٤، ١٠٥.

المطلب الحادي عشر
قوة الارتباط الروحي بينهم

كانت الثقة المتبادلة بين رجال هذه المدرسة قد غرست بينهم رباطاً روحياً لا ينفصم جمع بين قلوبهم في كل العصور.

ومعلوم أن الثقة بين التلاميذ وبين الشيوخ هي المعين الذي تنبع منه الاستفادة، وبقدر عمق هذه الثقة يكون مدى الاستفادة، وإلا كيف نفسر مقولة الإمام بالتزاحم على درج باب شيخه ابن شهاب، مما كان يترتب عليه سقوط بعض الطلاب على بعض، ويحدث هذا كل يوم، ثم التزاحم على مجلس مالك حتى يفرق الطلاب عن المجلس بالمقارع وتتكرر تلك المعاناة كل يوم، ولكن مع ذلك يتكرر الازدحام من الطلاب ويتكرر الضرب، دون شعور بالنقص من كرامة الطالب أو النيل من مروءته، وكأن ما يحدث للطلاب من ذلك هو المتعة التي تولد لديهم الإدمان.

وبصورة أخرى: فإن الثقة في الشيوخ وتحقق الفائدة هي التي كانت تحمل ابن شهاب وزملاءه على الصبر والتصابر على مجلس ابن المسيب، في انتظار أن يأتي رجل يسأله فيسمعون الجواب أو ربما الشيخ يتكلم بشيء فيحملونه عنه دون أن يخطر على بال أحد أن هذا إضاعة للوقت والجهد، مع كثرة الشيوخ وتعدد الحلقات في المسجد النبوي لغيره.

وبصورة ثالثة؛ فإن الثقة في نافع وما يحمله من علم ابن عمر رضي الله عنهما هي التي كانت تدفعه أن يظل على بابه حتى منتصف النهار ورمال العقيق تسفى عليه دون أن يجرأ على ضرب الباب أو النداء، بل حتى حين يخرج نافع لا ينبغي أن يشعر أن أحداً كان في انتظاره خشية غضبه، ونفس الصورة تتكرر مع تلاميذ مالك؛ أليست الثقة هي التي دفعت ابن القاسم أن يهجر أهله ووطنه مدة عشرين عاماً متواصلة مع كثرة الشيوخ وتعدد حلقاتهم في مساجد مصر خصوصاً مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، ونفس الصورة تتكرر؛ فإن الثقة هي التي دفعت سحنون أن يترك حلقات العلم في مسجد عقبة بن نافع بالقيروان ويترك أهله ووطنه ويصبر نفسه مع ابن القاسم هذه السنوات الطوال. وكذلك الحال مع

يحيى بن يحيى الليثي الذي هجر بلاده وأهله ليجاور ابن القاسم السنين الطوال ليأخذ عنه العلم ويستعيد منه سماع الموطأ.

والثقة وإن كانت ضرورية بين الطلاب والشيوخ. لكنها بين رجال هذه المدرسة كانت أعلى وأرفع وأقوى لأن الشيوخ في هذه المدرسة لم يكونوا محلاً للعلم فقط بل كانوا يجمعون إلى العلم معاني أخرى متعددة فقد كانت الشمائل التي يتمتع بها الشيوخ تستحق أن تكون محلاً للطلب أيضاً تتفق في تحصيلها السنوات، كذلك كانت التقوى التي تملأ قلوب الشيوخ كانت تستحق أن تكون محلاً للطلب أيضاً لتعلم كيفية الاقتداء، وذلك لأن رجال هذه المدرسة كانوا يرون أن الشمائل والتقوى من لوازم العلم؛ فالعلم بدون الشمائل التي تعليه وترفعه، وبدون التقوى التي تنير له القلوب لا يكون علماً نافعاً ولا يستحق أن تبذل فيه الأموال والأعمار.

يضاف إلى ما تقدم ما تميز به رجال هذه المدرسة من الحرص على التدقيق في التلقي، والضبط في النقل، والفهم لما يقال والبعد عن الغرائب وقد قالها مالك صراحة في أكثر من مناسبة؛ فقد أدركت سبعين رجلاً عند هذه الأساطين وأشار إلى أساطين المسجد النبوي - كلهم يقول: قال رسول الله ﷺ - ولو استسقى بأحدهم الغيث لسقوا ولكني لم آخذ عن أحد منهم شيئاً، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، حتى إن مالكاً ترك الأخذ عن عطاء ابن أبي رباح رضي الله عنه وقد بلغ من الشهرة في العلم مبلغاً عظيماً حتى أنه كان ينادي في الموسم، لا يفتي في المناسك إلا عطاء بن أبي رباح، وذلك بسبب أنه رآه يمسح غاشية المنبر ظناً منه أنه منبر النبي ﷺ؛ فقال كيف يفعل فعل العامة ولا يفرق بين منبر النبي ﷺ والمنبر الموجود حينئذ وقد صنعه بنو أمية بعد أن احترق منبر النبي ﷺ.

لهذه الأسباب وغيرها ازدادت الثقة برجال هذه المدرسة وانتشرت طريقتها ومذهبها في بلاد الإسلام، وكل من لم يدرك مالكاً أخذ يسأل عن الرجال الذين تلقوا العلم على يديه ليأخذ عنهم، وما ظهرت الأمهات التي جمعت مسائل المذهب إلا بعد موت مالك بزمن، حيث ظهرت المدونة ثم بعدها العتبية والواضحة والمجموعة والموازية وغيرها.

كما صحب ثقة الطلاب في الشيوخ ثقة الشيوخ بعضهم في بعض فأخذ بعضهم عن بعض دون غضاضة أو حساسية فيأخذ الليث عن مالك ويأخذ مالك عن الليث بل يأخذ

الشيوخ عن مالك مثل ربيعة وابن شهاب ويحيى بن سعيد ويأخذ أسد ويحيى وهما من تلاميذ مالك عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب.

كل ذلك أدى إلى الارتباط الروحي بين رجال هذه المدرسة ولم يحدث بينهم التنافس البغيض الذي يؤدي إلى التقاطع بل والتنابذ كما يحدث بين الأقران، وقد يحدث الحوار والاختلاف في وجهات النظر لكن يبقى الرباط الروحي المتولد عن ثقة بعضهم في بعض، فإن أشهب يحلف بالمشي إلى مكة أن ما قاله أصح مما قاله ابن القاسم، وبعد أن يتبين له صحة ما قاله ابن القاسم يمشي معه ابن القاسم إلى مكة ليبر أشهب بيمينه فمشيا جمعياً وحجا. ولما مات ابن القاسم وقف أشهب على قبره وقال: «رحمك الله يا أبا عبد الله لقد كنا نترك الكثير خوفاً من نقدك فسنهلك بعدك».

وتظل جذوة الحب بين القلوب مشتعلة ولا تخمد بمرور السنين الطوال، وهذا يفسر لنا بعض المواقف التي حدثت أو تحدث: يقول سحنون لتلاميذه بل لرجاله الذين صاروا أئمة يقتدى بهم: «عليكم بهذه الكتب ـ يقصد المدونة ـ فإنها كلام رجل صالح وروايته. ولو كان ابن القاسم حياً لما وجدتموني بينكم أبداً».

وفي القرن العشرين يذهب الإمام الأكبر شيخ الأزهر سليم البشري إلى زاوية المالكية (السادة المالكية) كما يطلق عليهم وفي يوم الجمعة الأخير الذي سبق وفاته جاء إلى الزاوية وبعد أن سلم عليهم خلع عمته وزيّه الأزهري ثم نام في مواجهة هؤلاء الأئمة حيث يرقد جثمان ابن القاسم وأشهب ويحيى بن يحيى وبعض قدامى المالكية ويقول موجهاً كلامه إلى ابن القاسم وأشهب ومن معهما؛ الله يشهد أني أحبكم ويتمدد على الأرض أمامهم بعض الوقت وفي يوم الجمعة التالي تحين منيته فيوصي أهله أن يدفن مع أحبته هؤلاء فيحمل نعشه إلى هذه الزاوية وهي لا تزال يصلى فيها الصلوات الخمس والجمعة وربما تكون الوحيدة في المقابر التي تظل تقام بها الشعائر، فيسمح له بمواراة جثمانه فيها، ولقد رأيت له ضريحاً صغيراً في مقابل الأضرحة الكبيرة لأئمة المذهب في هذا المسجد وكان ذلك في منتصف القرن العشرين وبعد حين ليس بالقليل وربما في أواخر القرن العشرين الميلادي يشتد الحنين بالشيخ مصطفى زيد الأستاذ بكليةدار العلوم بجامعة القاهرة، إلى شيخه الإمام مالك بالرغم من القرون التي تفصل بينها، وحتى وصل الحال به إلى البكاء إذا جاء ذكر الإمام مالك، وبعد

حين يعار الشيخ مصطفى زيد إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وتوافيه المنية هناك، فلا يوجد له مكان في البقيع إلا خلف الإمام مالك بحيث كانت رأس الشيخ مصطفى زيد بجوار رجلي الإمام مالك في مدخل البقيع.

وننهي هذه الجولة من ألوان الحب بين رجال هذه المدرسة بلون فريد؛ مرّ رباح بن يزيد ـ وكان ممن استغرق في العبادة ـ بعبد الله بن غانم، وكان على القضاء وكان بيد رباح قسط من الزيت،ن فقال له ابن غانم أحمله عنك يا أبا يزيد ـ قال ذلك مجاملاً ـ فقال له أبو يزيد: شأنك به، وابن غانم إذ ذاك على القضاء فدفع القسط إليه. وجعل رباح يشق به مجامع الناس فسلك به على حوانيت البزازين والمواضع المشهورة حتى انتهى إلى داره. قال له رباح: أتدري لما فعلت هذا بك؟ قال له: لا. قال له: بلغني أنك تجد في نفسك فأحببت أن أضع منك. فقال له ابن غانم: جزاك الله عني خيراً[١].

وهذا مجرد شذرات من القديم والحديث نسوقها لمجرد إثبات القاعدة وإلا فكتب التراجم مليئة بالمواقف التي تدل بوضوح على قوة الرابطة الروحية بين رجال هذه المدرسة في مختلف العصور، فإن وجد ما يخالف هذا فهو الشاذ الذي يزيد القاعدة ثبوتاً ولا يضعفها أو يلغيها.

---

(١) الرياض، ج١، ص٢١٩، ص٢٢٠.

المطلب الثاني عشر
ابتلاؤهم بالمحن وصبرهم عليها

هذه الابتلاءات لصفوة رجال هذه المدرسة هي شهادة تقدير وتميز لهم

لقد لاحقت هذه المحن رجال هذه المدرسة في كل مواقعهم كما لاحقت تلاميذهم وأحفادهم ومن انتمى إلى هذه المدرسة في كل العصور، ولا جرم أتوه، فهم أبعد الناس عن الإجرام بل هم من أشد مكافحيه والتنفير منه مع إيقاعهم حينما يتشاورون أو يكونون على القضاء أقسى العقوبات على من يضبط متلبساً بذلك.

لكن جهرهم بكلمة الحق حينما يسألون عنها؛ كانت سبيلهم إلى تلك الابتلاءات التي لم تزدهم إلا إصراراً على التمسك وزيادة رفع الصوت بها، واعتبار ذلك سبيلاً من سبل الدعوة وطريقاً موصلاً إلى الشهادة أخذاً بهذا الحديث الشريف: «أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» وهم أئمة الحديث وحملته وأشد الناس استمساكاً به، وهم يرون أنهم ليسوا بدعاً في ذلك، فقد سبقهم فيها زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، كما سبقهم شيوخ مالك المقتدى بهم حيث كان يقول مالك رضي الله عنه معتزاً: «ضربتُ فيما ضرب فيه محمد بن المنكدر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وابن المسيب».

ويذكر قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «ما أغبط أحداً لم يصبه في هذا الأمر أذى»[١]، وكانت محنته رضي الله على يد جعفر بن سليمان في مدة ولايته الأولى على المدينة بسبب فتوى مالك بعدم وقوع طلاق المكره، فكان ذلك سنة ست وأربعين ومائة في خلافة أبي جعفر المنصور، حيث ضرب رضي الله عنه من ثلاثين إلى مائة، ومدت يداه حتى خلعت كتفاه، وبقى مطابق اليدين لا يستطيع أن يرفعهما ولا أن يسوى رداءه.

ولما حج المنصور أقاد مالكاً من جعفر بن سليمان ليقتص منه، فقال: «أعوذ بالله والله ما ارتفع سوط منها عن جسمي إلا وأن أجعله في حل من ذلك الوقت، لقرابته من رسول الله ﷺ»[٢].

---

(١) مالك بن أنس، ص٩٧.

(٢) المرجع السابق.

وما فعل بملك فعل بالبهلول حينما وقف ضد العكي أمير القيروان لما رآه يتقارب مع طاغية الروم على حساب المسلمين، وكان البهلول رزق في الناس محبة فتحاشدوا معه على باب الأمير وطرح بعض الناس أنفسهم أمام باب الأمير فازداد العكي حنقاً وأخرج الأجناد فقضوهم، وأمر بتجريده وضربه بالسياط نحو عشرين سوطاً، وحبسه وجاءه ابن فروخ يبكي فقال له بهلول: ما أبكاك يا أبا عمر، قال: أبكي لظهر ضرب بغير حق، فقال: قضاء وقدر، وبعد ذلك عزل العكي أسوأ عزل وولي بعده تمام بن تمام، وجاءه العكي بعد أن تاب وحسن حاله: سأله أن يُحلّه، فقال: ما وقع على سوط إلا وأنا استغفر لك يا أبا يسر.

وقد برئ الضرب الذي ضرب لبهلول إلا سوط واحد تَنَغَّلَ حتى صار قرحة فكان سبب موته.

قال البهلول: «أقمت ثلاثين سنة أقول، إذا أصبحت وإذا أمسيت بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، فنسيتها يومي مع العكي فابتليت»(١).

ومن رجال هذه المدرسة أبو مسهر عبد الأعلى الغساني الدمشقي حيث سيق إلى بغداد أيام المأمون ليقر بكتاب المحنة الذي كتبه المأمون في خلق القران ونفي الرؤية وعذاب القبر، وإن الميزان ليس بكفتين وأن الجنة والنار غير مخلوقتين، فلما قريء الكتاب على أبي مسهر قال: أنا منكر لجميع ما في كتابكم هذا، بعد مجالسة مالك والثوري ومشائخ أهل العلم، أكفر بالله بعد إحدى وتسعين سنة ... فجر برجله وطرح في أضيق المحابس، فما أقام إلا يسيراً حتى توفى رحمه الله تعالى سنة ثمان عشرة ومائتين(٢).

وكانت محنة يحيى بن يحيى الليثي أيام الحَكَم بن هشام حيث كان أخاً ليحيى رأساً في الفتنة التي كان يقصد بها الإطاحة بالحكم بن هشام بسبب بعض تصرفات الحكم وعدم رضى يحيى عنها فظفر بالقائمين عليها وفتك بهم وقد فر يحيى مع أخيه وتعرض للقتل عدة مرات أثناء هروبه فقتل أخوه ونجا هو حتى وصل إلى طليطلة حيث منعه أهلها ولم يستطع جند الحكم الوصول إليه، ثم بعد أن هدأت الفتنة أرسل يحيى إلى الحكم يذكره بما كان

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤١٨، ٤١٩.

بينهما من التعاون فعفا عنه وعاد إلى ما كان عليه من الجاه العريض وشهرة فضله وعلمه، ولما استقر به المقام مرة أخرى بقرطبة باع جميع عبيده واستبدل بهم، فقيل له في ذلك؛ فقال: نكره أن يصحبنا من عرف ما دار علينا من الهرب والذل[١].

وتمر قافلة أهل المحن بعبد الله بن عبد الحكم من كبار تلاميذ مالك وهو قد خلف ابن القاسم وأشهب على مذهب مالك في مصر وكان صاحب مال عريض حيث استضاف الشافعي ومن معه حين قدومه إلى مصر، يقول أبو العرب التميمي عن عبد الله بن عبد الحكم؛ إنه امتحن في خلق القرآن على يد الأصم، وضرب بالسياط في مسجد مصر أقل من ثلاثين سوطاً أيام المأمون فمرض عبد الله وتوفي لإحدى وعشرين ليلة خلت من رمضان سنة أربعة عشرة ومائتين[٢].

وموجز محنة الحارث بن مسكين وكان من تلاميذ مالك الكبار، إنه حين قدم المأمون مصر جاءه الناس متظلمون من عامليه: ابن تميم وابن أسياط، فسأله المأمون عنهما، فقال: ظالمين غاشمين، فقال له: هل ظلماك بشيء؟ قال: لا. قال: فعاملتهما؟ قال: لا. قال: كيف شهدت عليهما؟ قال له: كما شهدت أنك أمير المؤمنين ولم أرك إلا الساعة، كما شهدت أنك غزوت ولم أحضر غزوتك، قال له: أخرج من هذه البلاد فليست لك ببلاد وأجمع قليلك وكثيرك فإنك لا تعاينها أبداً، وحبسه في رأس الجبل في خيمة. ثم انحدر المأمون إلى بعض بلاد عاربة مصر واحدره معه، فلما فتحها سأله عن مسألته الأولى، فرد عليه جوابه بعينه، قال: فما تقول في خروجنا هذا؟ فقال: أخبرني ابن القاسم أن الرشيد كتب إليه يسأله عن قتال أهل دهلك، فقال: إن كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان، فلا يحل قتالهم وإن كانوا إنما شقوا العصا فقتالهم حلال. فجاوبه المأمون بجواب قبيح سبه فيه وسب مالكاً وقال له: ارحل من مصر إلى مدينة السلام.. فأقام الحارث بالعراق ستة عشر عاماً حتى مات المأمون والمعتصم، وذكره الواثق لابن أبي دؤاد، فقال له: هو حاضر، فقال: ما ظننت أنه حي، فأرسل إليه يقول له سل حاجتك؛ فقال: حاجتي ألا تحملني إلى سر من رأي –إلى حيث يوجد مكان التعذيب– قال ابن أبي دؤاد للواثق: هو شيخ ضعيف، خفت أن أحمله

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٥٤٥، ٥٤٦.

(٢) ترتيب المدارك، ج١، ص٥٢٧.

فيموت، قال: فاكتب له يتوجه حيث شاء فانصرف إلى مصر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فلما ولي المتوكل الخلافة ولاه قضاء مصر.

قال محمد بن عبد الحكم، قال لي ابن أبي دؤاد: لقد قام حارثكم مقام الأنبياء[١].

كما أُخذ سحنون بمحنة خلق القرآن فأبى أن يقول ذلك، فأمر عامل القيروان أن يوجه إلى سحنون بأن يضرب خمسمائة سوط وأن يحلق رأسه ولحيته فقال وزيره ابن حميد: لا تفعل؛ فإن المكي إنما هلك في ضربه للبهلول بن راشد، فقال: هذا مثل البهلول؟ قال: نعم، فشكر الوزير على ذلك ولم ينفذ أمره، ولما بلغ سحنون ذلك، قال: لم أبلغ أنا مبلغ من ضرب، إنما يضرب مثل مالك وابن المسيب. ولما تولى أحمد بن الأغلب شدّد على الناس القول بخلق القرآن فتوجه سحنون إلى خارج القيروان إلى مكان يسمى القصر، ولما أُتي به سئل عن ذلك بحضرة رجال الحكم والقاضي قال: أما شيء ابتديه في نفسي فلا، ولكني سمعت ممن تعلمت منهم وأخذت عنهم كلهم يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، فقال القاضي: كفى فاقتله ودمه في عنقي، وقال بعضهم: يقطع أرباعاً ويجعل كل ربع بموضع بالمدينة، ويقال: هذا جزاء من لم يقل كذا، وقال داود بن حمزة: قتله بالسيف راحة، ولكن قتل الحياة؛ نأخذ منه الضمناء وينادى عليه بسماط القيروان؛ لا يفتي ولا يسمع أحداً ويلزم داره، ففعل ذلك، وأخذ عليه عشرة حملاء، ثم بعد حين عفى عنه وتقلد القضاء، وكان من أقضيته أن قضى بالسجن على القاضي الذي أفتى بقتله، لكن لا بسبب ذلك ولكن بسبب مظالم رفعت ضده من زوجته وآخرين وظل بالسجن حتى مات.

وننهي هذه القطوف بما ابتلي به صاحب الموازية التي قال فيها مخلوف: إنها من أجل الكتب التي ألفها المالكيون وأصحها وأوعبها ورجحها القابسي على سائر الأمهات. لكن هذا الإمام لم يسلم من أيدي الطغاة حيث امتحن بخلق القرآن فخرج إلى الشام مختفياً في أحد الحصون إلى أن مات بدمشق عام ٢٦٩هـ[٢].

---

(١) ترتيب المدارك، ج١، ص٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧ بإيجاز.

(٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص٦٨، دار الفكر وترتيب المدارك، ج٢، ص٧٢، ٧٣ بإيجاز.

ونقف عند هذا الحد من موكب أهل الابتلاء من رجال هذه المدرسة مكتفين بهذه القطوف التي كانت ولا تزال شهادات فخار واعتزاز رفعت قدرهم عند الله تعالى، ثم عند جلاديهم، وغيرهم من أهل الخير من الحكام ثم عند العامة حتى صاروا منارات يهتدي بهم من بعدهم ممن تعرض لمثل ما تعرضوا له، حيث منحهم المولى عز وجل القدرة على الثبات على الحق، ورفع لوائه، مما أضاء لمن بعدهم الطريق فساروا على نهجهم واتبعوا سبيلهم، مما مكن لهم من قلوب المسلمين في جميع الأعصار والأمصار، فرضي الله عنهم ورضوا عنه، ونفعنا بعلومهم وأسرارهم، وحشرنا في زمرتهم تحقيقاً لوعد الصادق المصدوق ﷺ: «يحشر المرء مع من أحب».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

القاهرة في ٧/٨/٢٠٠٢م

ثبت المراجع

١ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، مكتبة الحياة، بيروت.

٢ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٣ - رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية لأبي عبد الله محمد المالكي، دار الغرب الإسلامي.

٤ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية للشيخ محمد مخلوف، دار الفكر، بيروت.

٥ - صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة صبيح.

٦ - العوالي روايات مجموعة من المحدثين، تحقيق محمد الحاج الناصر، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

٧ - الفتاوى الكبرى للإمام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

٨ - فقه الإمام ابن شهاب الزهري مقارناً بفقه مجاهد وشريح لصاحبتها الدكتورة ليلى عبد الله محمد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات جامعة الأزهر بالقاهرة.

٩ - مالك للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ١٩٩٧.

١٠- ملامح من حياة الفقيه المحدث مالك بن أنس إمام دار الهجرة للأستاذ الدكتور أحمد علي طه ريان، دار الاعتصام بالقاهرة.

١١- الموطأ مطبوع مع شرح الزرقاني عليه دار الفكر، بيروت.

الفهرس

المدرسة المالكية بإفريقية في عهد سيادة القيروان

إعداد

أ. د. محمد بن الهادي أبو الأجفان*

* أستاذ في قسم الدراسات العليا الشرعية بكلية الشريعة بجامعة أم القرى، ولد في القيروان بتونس عام (١٩٣٦م)، حصل على الماجستير في الفقه المقارن من جامعة تونس سنة (١٩٨١م) عن رسالته: «ابن غازي وكلياته الفقهية»، كما حصل أيضاً على الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في التخصص نفسه عام (١٩٨٣م) عن رسالته: «المقري وكلياته الفقهية»، وحصل على الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وكان عنوان رسالته: «إرشاد السالك إلى أفعال المناسك لابن فرحون - دراسة وتحقيق». له العديد من الكتب والدراسات.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه وعلى آله وسلم تسليماً

المدرسة المالكية بإفريقية في عهد سيادة القيروان

أ.د. محمد بن الهادي أبو الأجفان

الحمد لله الذي هدانا إلى طريق الحق والصواب، وجعلنا من أتباع دينه الحنيف الموائم للفطرة التي فطر الناس عليها، وألهمنا الرشد والسداد، وأزكى الصلاة، وأتم السلام على نبيه الكريم الصادق الأمين الأسوة الحسنة المبلغ للرسالة، أول الموقعين عن رب العالمين.

وبعد،

فإن من مَبرات دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ودائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي أن ينعقد المؤتمر العلمي الأول حول القاضي عبدالوهاب البغدادي شيخ المالكية بمدرسة العراق بمناسبة ألفيته، تحت رعاية سمو الشيخ حمدان نائب حاكم دبي وزير المالية والصناعة في الشهر الأول من العام الجديد ١٤٢٤.

هذا المؤتمر الذي يهتم بمدارس المذهب المالكي ويدرس كل ما يتعلق بها، فيرسم الصور الواضحة عنها، ويبرز خصائصها وتآزرها في تشييد صرح المذهب عبر عهود تاريخه المديد.

وقد اخترت لبحثي الذي أسهم به في هذا المؤتمر أن يتناول إحدى مدارس المذهب، وهي التي تأسست عندما امتد المذهب امتداده الغربي منطلقاً من المدينة المنورة موطنه الأصلي، فانتشر بمصر ووصل إلى الغرب الإسلامي لتتوطد جذوره، ومن هذه البلاد ينفذ إلى بعض أقطار القارة.

اخترت **المدرسة المالكية الأولى للمذهب المالكي بإفريقية في عهد سيادة القيروان.**

وعنوان البحث يحدد الإطار الزماني والمكاني.

ويحسن بي تعريف مفردات العنوان، بياناً للمراد من البحث ولنحدد بصفة عامة موجزة ما يتناوله بحثنا.

المدرسة: كما عرفت في (المعجم الوسيط: ١ / ٢٨٠) ـ جماعة تعتنق مذهباً معيناً أو تقول برأي مشترك، يقال: مدرسة فلان، أي على رأيه ومذهبه، سواء كانت المدرسة فكرية أو أدبية أو فلسفية أو تشريعية.

ولم تكن المدرسة مستعملة بهذا المعنى قديماً، ومع هذا فنحن نقصد هذا المعنى الذي ساد وانتشر وأصبح مألوفاً، وبحكم مادة البحث وموضوعه فإننا نريد بها فيه مدرسة الاتجاه المالكي في التشريع.

والمذهب: ما ذهب إليه الإمام من آراء في المسائل الاجتهادية وكذلك ما ذهب إليه أتباعه بناء على قواعده وأصوله، وما كان منصوصاً عليه في الكتاب والسنة وعليه الإجماع فلا يعد مذهباً، لعدم الانفراد به أو اختصاص الفقيه به، فمسائل الخلاف هي التي يعد القول فيها مذهباً يعزى لصاحبه.

والمدرسة المالكية: هي المنسوبة للإمام مالك بن أنس، وتمثلها الجماعة التي اتبعته فيما روي عنه وما نقل من أقواله الاجتهادية، أو اتبعت ما أثر عن المجتهدين المقيدين بأصوله من أتباعه المؤهلين للاستنباط سواء فيما أيدوه فيه، أو خالفوه، أو فيما اجتهدوا فيه من المسائل المستجدة التي لم يسبق فيها نص أو حكم، وإنما كان الاجتهاد فيها بالتخريج أو القياس أو الربط بالقواعد، أو بغير ذلك مما ضبطه علماء أصول الفقه أو اعتبروه أدله.

وإفريقية: إقليم بشمال القارة الإفريقية يسمى أيضاً بالمغرب الأدنى، ويليه غرباً المغرب الأوسط ثم الأقصى، ويختلف امتداده الجغرافي في بعض العصور ولكنه في الغالب يمتد من طرابلس شرقاً إلى بجاية أو تاهرت غرباً، وهو ما يعني اليوم كامل البلاد التونسية مع الجزء الغربي من البلاد الليبية من حدودها التونسية إلى عاصمتها طرابلس مع التخوم الشرقية للبلاد الجزائرية حتى بجاية. وهذا هو المفهوم الخاص لإفريقية، ولها مفهوم عام يشمل القارة كلها، وليس يهمنا في هذا البحث إلا الخاص الذي جرينا عليه كلما استعملنا هذه العبارة، وإفريقية بهذا المعنى الخاص قاعدة ملكها هي مدينة القيروان التي أسسها عقبة بن نافع مع الفاتحين في القرن الهجري الأول، وتداول السيادة فيها ولاة الدولة الأموية والدولة العباسية.

ثم أمراء الدولة الأغلبية (١٨٤ ـ ٢٩٧)، ثم الدولة العبيدية (٢٩٧ ـ ٣٦٢)، ثم الصنهاجية من بني زيري (من سنة ٣٦٢ ـ إلى أن استبدلوها بالمهدية) وبذلك كانت محنة القيروان لأفول سيادتها، ثم بهجمة الهلاليين المخربين سنة ٤٤٩ .

فالمنطقة الجغرافية للمدرسة المالكية موضوع هذا البحث هي إفريقية، بالمعنى الخاص السالف، بعاصمتها قيروان الفاتحين، وما تبعها من مراكز قديمة النشأة مثل تونس وقفصة وتوزر، وحديثة التأسيس مثل المهدية التي أسسها العبيديون، وأضفت المركز الذي امتزج بالقيروان وبعلم القيروان واتجاهها وروحها وهو المركز الصقلي الذي كان طلبته خريجي المدرسة القيروانية، فلا غنىً عن اعتباره أحد مراكز إفريقية وإن فصله البحر عنها، فمذهبه مالكي وولاؤه قيرواني، وصلته بمدرستنا وثيقة، والجسر الثقافي بينه وبين القيروان ممتد .

والامتداد الزمني لحياة هذه المدرسة زهاء ثلاثة قرون تبدأ من نشأة المدرسة بدخول المذهب إلى القيروان وتونس حيث وردت إليهما أخبار إمام دار الهجرة وموطأه وفقهه، فتبنتا مذهبه الذي لم يلبث أن انتشر في ربوع البلاد الإفريقية، وقد ساعدت على ذلك عوامل يأتي تفصيلها، ونهض بالقيام بهذا المذهب علماء يأتي الحديث عنهم وعن جهودهم المتميزة وتفانيهم في خدمة المذهب ومناصرتهم والذب عنه، ومواجهة مناوئيه، هذا المذهب الذي كون عنصر ائتلاف بين سكان المنطقة، وحماهم من ضلال المبتدعين، ومن أطماع السلاطين الجائرين المتعصبين .

إن السيادة السياسية للقيروان بدأت من عهد تأسيسها واتخاذها عاصمة لولاة الأمويين ثم العباسيين، وانتهت في منتصف القرن الخامس عندما استهدفت للتدمير وتخلى عنها الصنهاجيون .

وبنهاية السيادة بها تنتهي الفترة التي يتناولها البحث وما بعدها جدير بأن يكون موضوع دراسات أخرى تجلي تطور المذهب بعد هذه الفترة، وتكشف عن جهود مدرسة المهدية وعن جهود مدرسة تونس في العهد الحفصي .

أما خطة بحثي فقد رأيت أن أرسمها على النحو التالي:

المقدمة، وسبعة مباحث، والخاتمة.

المبحث الأول تمهيدي: الاجتهاد الفقهي ومؤسس المذهب المالكي.

المطلب الأول: نبذة عن الاجتهاد الفقهي وثمرته.

المطلب الثاني: مؤسس المذهب المالكي.

المبحث الثاني: نشأة المدرسة المالكية الإفريقية وتطورها.

المطلب الأول: النشأة.

المطلب الثاني: التطور.

المبحث الثالث: دواعي انتشار المذهب بإفريقية.

المبحث الرابع: علاقة المدرسة الإفريقية بالمدارس المالكية الأخرى.

المبحث الخامس: جهود علماء المدرسة في مناصرة المذهب.

المبحث السادس: مشاهير فقهاء المدرسة.

المبحث السابع: المحن والمقاومة.

الخاتمة.

هذا، وإن المصادر التي أرخت لإفريقية ولمدرستها المالكية الأولى دخل الكثير منها في عداد المخطوطات المفقودة، فحرمنا إفادتها الغزيرة، ومع ذلك فإن ما بقي منها ووصلنا أتاح الاستمداد منها وتكوين الصورة الكاملة عن هذه المدرسة في إفريقية.

فمن المخطوطات المفقودة نذكر: كتاب «التاريخ» لأبي العرب محمد بن أحمد (-٣٣٣)، و«المعرب عن أخبار إفريقية والمغرب» لأبي علي الحسين البصري المعروف بـ «الوكيل» (حي سنة ٣٤٦)، و«تاريخ الأفارقة» لمحمد بن حارث الخشني (-٣٦١)، و«الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وما تعلق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار» لأبي بكر عتيق

ابن عتيق بن خلف التجيبي (-٤٢٢)، وكتب مناقب بعض العلماء لأبي عبدالله الحسين الأجدابي (-٤٣٢).

وقد حظينا بنقول من هذه الكتب المفقودة، إذ كانت من موارد الكتب التي وصلتنا، ووسعت معرفتنا بتاريخ القيروان وتراجم رجالها.

أما المصادر المتوفرة للتأريخ لهذه المدرسة الإفريقية المالكية فمختلفة، منها: كتب التاريخ والتراجم ومناقب العلماء والرحلات وفهارس الشيوخ، وهناك مراجع حديثة من عطاء باحثين معاصرين من الدارسين للحركة العلمية بالغرب الإسلامي، وبعضهم كانت دراسته لنيل درجة جامعية، وبعضهم جعلها تقديماً لتحقيق نص تراثي.

فمن كتب التأريخ، نذكر: «البيان المغرب» لابن عذارى المراكشي، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير، و«تاريخ ابن خلدون» الموسوم بـ«العبر» و«المقدمة» له، و«الحلل السندسية» للوزير السراج، و«نزهة الأنظار» لمحمود مقديش الصفاقسي، و«المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» لابن دينار.

ومن كتب الطبقات والتراجم نذكر: «طبقات أبي العرب التميمي»، و«طبقات الخشني»، و«أخبار الفقهاء والمحدثين» له، و«رياض النفوس» للمالكي، و«طبقات الشيرازي»، و«معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» للدباغ وابن ناجي، و«الانتقاء» لابن عبدالبر النمري القرطبي، و«وفيات ابن خلكان»، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني، و«سير أعلام النبلاء» للشمس الذهبي، ومن كتب المعاصرين «تراجم المؤلفين» لمحمد محفوظ، وكتاب «العمر» لحسن حسني عبدالوهاب بمراجعة المطوي والبكوش.

ومما هو خاص بطبقات المالكية: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض و«الديباج المُذْهَب في معرفة أعيان المذهب» للبرهان إبراهيم بن فرحون، و«شجرة النور الزكية» لمحمد مخلوف، و«طبقات المالكية» لمؤلف مجهول.

ولبعض الباحثين المعاصرين كتب تتناول جوانب من تاريخ المدرسة المالكية الإفريقية، نذكر منها: «القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية» لمحمد محمد زيتون،

و« تاريخ صقلية الإسلامية » لأمين توفيق الطيبي، و« معلمة الفقه المالكي » لعبدالعزيز بن عبدالله، و« إصلاح المذهب عند المالكية » لمحمد ابراهيم أحمد علي، و« الفكر السامي » لمحمد الحجوي الثعالبي، و« مباحث في المذهب المالكي » لعمر الجيدي، و« محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي » له.

ومن المؤلفات المعاصرة ما كان في أصله أطروحة جامعية مثل: « المذهب المالكي، مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته » لمحمد المختار المامي، و« الحياة العلمية في صقلية الإسلامية » لعلي بن محمد الزهراني، و« المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، نشأة، وخصائص » لمصطفى الهروس المغربي، و« الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس » لسعد عبدالله البشري، و« مدرسة الحديث في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري » للحسين بن محمد شواط، و« الحياة العلمية في إفريقية منذ إتمام الفتح حتى منتصف القرن الخامس الهجري » ليوسف بن أحمد حوالة، و« الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري » للطيفة بنت محمد البسام، و« تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي » لمحمد بن حسن شرحبلي، و« أصول فقه الإمام مالك النقلية » لعبدالرحمن الشعلان، و« الصراع المذهبي بإفريقية » لعبد العزيز المجدوب.

ومن كتب الرحلات وفهارس الشيوخ نشير إلى رحلة التجاني، ورحلة الورثلاني.

كما نشير إلى فهرس ابن عطية الأندلسي بتحقيق أبي الأجفان والزاهي، وإلى فهرست ابن خير الإشبيلي.

وانعقدت في السنوات الأخيرة **ندوات علمية** تناولت المذهب المالكي من بعض جوانبه، نختار أن نذكر منها ما حظيت بحوثه بالنشر، وهي: « ندوة الإمام مالك » نشرتها في ثلاثة أجزاء وزارة الأوقاف بالرباط، و« محاضرات ملتقى الإمام سحنون » نشرها مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان سنة ١٩٩٣، و« محاضرات ملتقى عبدالله بن أبي زيد القيرواني » نشرها المركز نفسه سنة ١٩٩٤، و« محاضرات ملتقى القيروان مركز مالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية القرن الخامس » نشرها المركز نفسه.

وهناك دراستان جادتان مفيدتان لمستشرقين تلقي كل واحدة منهما ضوءاً على بعض زوايا هذه المدرسة المالكية، إحداهما تتناول بعض بواكير مؤلفاتها الفقهية، والأخرى تعرف بجانب من نشاطها العلمي في العهد الصنهاجي، الأولى من إعداد مكلوش موراي، عنوانها: «دراسات في مصادر الفقه المالكي»، نشرت بالعربية بعد نقلها من الألمانية سنة ١٩٨٨، والثانية أعدها هادي روجي إدريس، عنوانها: «الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري»، نشرت بتعريب حمادي الساحلي.

وكان لتحقيق **بعض نوادر التراث الفقهي المالكي في السنوات الأخيرة** أثر في حفز همم محققيها إلى التقديم لها بدراسات مفيدة عرضت جوانب تتصل بمدرستنا الإفريقية، وحللت الأعمال العلمية التي كانت من عطاء أعلام المذهب، نذكر من ذلك مقدمات الكتب التالية:

«موطأ علي بن زياد»، و**«المعلم بفوائد مسلم» للمازري**، كلاهما بتحقيق شيخنا محمد الشاذلي النيفر الذي أفاض في مقدمة الموطأ في بيان دور أسد بن الفرات وشيخه علي بن زياد في غرس نواة المذهب بإفريقية وفي بيان دور سحنون في العناية بشجرتها التي أصبحت باسقة.

«التهذيب في اختصار المدونة» لأبي سعيد **البراذعي** بتحقيق محمد الأمين ولد محمد سالم ابن الشيخ، ودراسته في التقديم جيدة (صدر الجزء الأول عن دار البحوث والدراسات الإسلامية بدبي).

«الجامع في السنن والآداب» لابن أبي زيد القيرواني بتحقيق أبي الأجفان، وبطيخ، وله طبعة أخرى بتحقيق التركي الذي تعسف في نقد التحقيق الأول.

«الرسالة الفقهية» لابن أبي زيد القيرواني مع شرح غريبها **«غرر المقالة» لابن حمامة** بتحقيق أبي الأجفان، وحمو.

«أصول الفتيا في المذهب المالكي» لابن حارث **الخشني**، بتحقيق أبي الأجفان والمجدوب وبطيخ.

«**النوادر والزيادات**» **لابن أبي زيد** في جزئه الأول بتحقيق عبدالفتاح الحلو.

«**الجامع**» **لابن يونس** بتحقيق ثلة من طلبة الدراسات العليا بجامعة أم القرى، كلية الشريعة، وكل واحد منهم قدم للجزء الذي حققه.

«**النكت والفروق**» **لعبدالحق الصقلي**، بتحقيق جماعة من طلبة الجامعة نفسها، وقدم كل واحد منهم لجزئه.

«**التبصرة**» للإمام أبي الحسن **اللخمي**، أنجز الجزء الأول منها الطالب بالجامعة نفسها عمر السلمي، وقدم له بدراسة.

«**شرح التلقين**» للإمام أبي عبدالله **المازري**، حقق الجزء الأول منه شيخنا محمد المختار السلامي (ثلاثة مجلدات) وله دراسة جيدة قدم بها لتحقيق النص.

«**مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**» **للقاضي عياض** وولده محمد، قدم له بدراسة مفيدة محققه الدكتور محمد بن شريفة.

«**عقد الجواهر الثمينة**» **لابن شاس**، مقدمة أبي الأجفان لتحقيقه.

«**المذهب في ضبط مسائل المذهب**» لابن راشد **القفصي**، دراسة محققه أبي الأجفان تقديماً لتحقيق نصه، وقد نشره أخيراً المجمع الثقافي بأبوظبي.

وإضافةً إلى ما قدمنا من المصادر والمراجع، فإن الباحث الذي يتناول المدرسة المالكية بإفريقية لا يعدم بعض الإفادات عنها دفينة ضمن بعض كتب الفقه العامة وكتب الفتاوى والنوازل مثل كتب: ابن سهل الأندلسي أبي الأصبع عيسى الأسدي (-٤٨٦) (بتحقيق نورة التويجري) والشعبي (بتحقيق الصادق الحلوي)، وابن رشد (بتحقيق المختار التليلي)، والإمام الشاطبي (بتحقيقنا)، والإمام البرزلي (بتحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة)، وقاضي الجماعة ابن سراج الأندلسي (بتحقيقنا) وأبي العباس الونشريسي (بتحقيق جماعة من علماء المغرب) وكل هذه الفتاوى منشورة.

أرجو أن أكون موفقاً في رسم خطة هذا البحث، وفي تناول عناصرها التي أردت أن أبرز بها **أهمّ مراحل حياة هذه المدرسة الفقهية المالكية التي نشأت بتونس على يد علي ابن زياد، ونمت وتطورت على يد تلاميذه: أسد بن الفرات، وسحنون بن سعيد وغيرهما، وازدادت زكاءً وازدهاراً على يد طبقة طلبة سحنون وطلبة ابنه محمد، وبلغت أوج عطائها على يد مالك الصغير الشيخ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني وطبقته، ثم طبقة تلاميذه الذين عاشوا في عهد سيادة القيروان وإشعاعها الحضاري، هذه المدرسة التي كان لها تميزها، ودورها في تيار المذهب المالكي، إثراءً ومناصرة وذباً واجتهاداً، وكان لها أثرها في ظفر حبل التآلف بين سكان الغرب الإسلامي عبر العصور.**

وعسى أن يكون في عملي إضافة بالجمع والتنسيق لما تشتت من معلومات، مع تحليل وتعليق برؤية موضوعية.

وبهذا الجهد المتواضع، جهد المقل، آمل أن أكون وضعت لبنة في صرح ثقافة مذهب إمام دار الهجرة، هذا الصرح الذي تهدف دار البحوث بدبي بهذا المؤتمر إلى بنائه شامخاً، وإلى إلقاء ساطع الأضواء على مدارسه المختلفة التي انتشرت في كثير من أنحاء العالم الإسلامي، مناوئة للبدع والضلال، معتصمة بحبل السنة المتين وباتجاه السلف السليم، قائمة على أصول تضمن الاستمرار في الاجتهاد لاستنباط الأحكام للوقائع المستجدة ومراعاة المصالح وحماية الحقوق ونشر العدل وحل المشاكل.

أسأل الله العلي القدير أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم
وأن يحقق ما صبوت إليه من النفع به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة في الثاني من شهر رمضان المعظم ١٤٢٣ هـ

أ.د. محمد بن الهادي أبو الأجفان
الدراسات العليا الشرعية بكلية الشريعة
جامعة أم القرى

المبحث الأول تمهيدي: الاجتهاد الفقهي ومؤسس المذهب المالكي

المطلب الأول: نبذة عن الاجتهاد الفقهي وثمرته

إن ديننا الإسلامي دين الهداية إلى طريق الخير والفلاح، جاء لإصلاح الفرد وإصلاح مجتمعه، ولإسعاد الناس في حياتهم الدنيا وفي آخرتهم، فهو دين الحق والعدل يرشد إلى العقيدة الصحيحة وإلى الشريعة السمحة الحارسة للحقوق والمنظمة لعلاقة المسلم بربه، وعلاقته بأسرته وبسائر أعضاء مجتمعه، وعلاقته بحكومته وحتى لعلاقة أمته الإسلامية بالفرق والنحل الأخرى.

وتشتمل نصوص الوحي الإلهي على الكثير من الأحكام الشرعية التي يطالب المسلم بتطبيقها إرضاء لخالقه ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾(١).

ولما كان الإسلام دينا خالداً، وفي الواقع تجديد وتطور ونوازل متنوعة ووقائع مستجدة، فقد فتح باب الاجتهاد أمام الفقهاء الذين تتوفر فيهم شرائطه، باعتبارهم من أهل الذكر، ليستنبطوا الأحكام من أدلتها التفصيلية ومن مصادر الشريعة المعتبرة، وقواعدها الكلية، حتى يكون لكل حادثة جزئية حكم، ولا يوكل المكلفون للهوى والتشهي.

فرض الاجتهاد على الأمة فرضاً كفائياً، ووجب أن تنفر إلى مجاله طائفة تجتهد وتفتي وتتفقه في الدين وتعلم أحكام الشريعة ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾(٢).

وقد آتى الاجتهاد الشرعي ثماره الطيبة منذ العهد النبوي، فنبغ مجتهدون من الصحابة ثم من التابعين المنتشرين في الأمصار، وتضافرت جهود الفقهاء والمحدثين لتغذية الحركة الاجتهادية، وكذلك جهود علماء أصول الفقه ومفسري آيات الأحكام عبر العصور، وكان من حوافز الاجتهاد ظهور المستجدات، ومواجهة الأعراف في البلاد الفتوحة.

(١) آل عمران: ٨٥

(٢) التوبة: ١٢٢

وتأسست المذاهب التشريعية، فكان لها أصولها التي بنت عليها مذاهبها، وضوابطها في استنباط الأحكام.

وتعايشت المذاهب، ولقي بعضها مناصرة أتباعه الذين عملوا على دعمه ونشره، وانقرضت مذاهب أخرى لم يقم أتباعها بالمناصرة المستمرة وآل الأمر إلى انحصار التقليد في المذاهب الأربعة في عصر ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) الذي يقول: «وقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم، وسد الناس باب الخلاف وطرقه، لما كثر تشعيب الاصطلاحات في العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، وما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله، ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه، فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء، كل بمن اختص به من المقلدين»(١).

ثم إن الأدلة الشرعية التي هي مصادر الأحكام الفقهية خولت اختلاف المجتهدين في الكثير من المسائل، بل حتمته، فـ«لابد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص، وهي بلغة العرب، وأيضاً فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت، وتتعارض في الأكثر أحكامها، فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً، فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها، وأيضاً فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص، وما كان منها غير ظاهر في المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما، وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورية الوقوع، ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأيمة من بعدهم»(٢) كما يقول ابن خلدون.

وقال الزركشي: «إن الله لم ينصب على جميع الأحكام الشرعية أدلة قاطعة بل جعلها ظنية قصداً للتوسع على المكلفين، لئلا ينحصروا في مذهب واحد، لقيام الدليل القاطع عليه»(٣).

وقد نوه كثير من الأعلام بهذا الاختلاف الفقهي الذي وجد فيه المقلدون رحمة خرجت بهم من حرج الانحصار في مذهب واحد، ومن هؤلاء الأعلام الخليفة العادل عمر بن

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٤٤٨ ط دار الفكر.

(٢) المصدر نفسه: ٤٤٥ – ٤٤٦ .

(٣) نقلاً عن إرشاد الفحول: ٢٧٣ .

عبدالعزيز الذي يقول: «ما أحب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا، لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ أحد بقول رجل منهم كان في سعة»(١).

وقد ميز أبو بكر بن العربي الإشبيلي (ت٥٤٣هـ) بين اختلافهم المشروع وبين التفرق المنهي عنه بقوله: «إن التفرق المنهي عنه إنما هو المؤدي إلى الفتنة والتعصب وتشتيت الجماعة، فأما الاختلاف في الفروع فهو من محاسن الشريعة»(٢) واستشهد على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فلهُ أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»(٣).

وقال ابن العربي: «ليمض كل أحد على اجتهاده، فإن الكل بحبل الله معتصم، وبدليله عامل»(٤).

وقد ازدهر الاجتهاد المطلق على أيدي الأئمة مؤسسي المذاهب، كما ازدهر الاجتهاد المقيد على أيدي المنتسبين لهم الملتزمين بأصولهم، ومن الأصول ما تشترك فيه المذاهب ومنها ما يختص به البعض.

وكان شعار الجميع العزوف عن التخطئة في الفروع عند الاختلاف.

وكانت ثمرة هذا الازدهار الاجتهادي تعدد المذاهب التشريعية وتشجيع مجتهدي كل مذهب على التفريع والتنقيح والتهذيب والاستدلال، ونشاط حركة التدوين للمصنفات الفقهية التي اصبحت غنية بالأحكام مرجعاً للمدرسين والمفتين والقضاة.

---

(١) الموافقات، للشاطبي: ٤/ ١٢٥ - ط المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

(٢) احكام القرآن: ١٨٣ .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة، والدارقطني من حديث عقبة بن عامر وعبدالله بن عمرو. انظر (تلخيص الحبير: ٤/ ١٨٠).

(٤) أحكام القرآن: ٢٩١ .

وكان للمذهب المالكي حظه من الازدهار والانتشار، وكان له أعلامه الذين تفانوا في خدمته تأصيلاً وتفريعاً، واستدلالاً واستنباطاً وتخريجاً، مما جعل إسهامه في حركة التشريع والتقنين ذا قيمة.

المطلب الثاني: مؤسس المذهب المالكي

ومؤسس هذا المذهب المالكي ـ الذي يعنينا في هذا البحث ـ هو أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، نسبة إلى جده ذي أصبح القائد العربي القحطاني، قبيلته يمنية، وأمه تسمى عالية بنت شريك بن عبدالرحمن الأزدية، جده الأعلى صحابي جليل أبو عامر، نزل بالمدينة في العهد النبوي، وصاهر بني تيم، وارتبط معهم بالحلف والتناصر، وشهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابنه مالك من كبار التابعين وعلمائهم.

فبيت الإمام مالك شريف في الجاهلية وفي الاسلام، وأسرته «توعز إلى الناشئ فيها بأن يتجه إلى طلب الحديث والفتيا، إن كان عنده استعداد لهما، فإن الناشئ تتغذى مواهبه ومنازعه من منزع بيته وما يتجه إليه فتترعرع تحت ظلها المواهب، وتتجه المنازع»[1]. كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة يرحمه الله.

ويذهب أغلب مترجميه إلى أن ولادته كانت سنة ٩٣هـ، وهو ما صرح به هو نفسه فيما روي عنه، وكانت ولادته بالمدينة التي استقرت بها أسرته، ونبغ بها أعلام منها.

وبالمدينة نشأ وترعرع حاملاً لها أجل تقدير ولساكنها عليه الصلاة والسلام كل الاحترام والتعظيم والمحبة والولاء. أرسلته والدته إلى ربيعة بن أبي عبدالرحمن المعروف بـ «ربيعة الرأي» قائلة: **«اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه»**[2]. وانقطع إلى ابن هرمز سبع سنين أو ثمانية لم يخلطه خلالها بغيره[3].

---

(١) مالك، لأبي زهرة: ١/١٩.

(٢) ترتيب المدارك، للقاضي عياض: ١/١٣٠ ط المغرب.

(٣) المصر نفسه: ١/١٣٠.

وكانت المشيخة الذين أخذ عنهم بالمدينة وفيرة العدد(١)**، منهم:**

نافع مولى عبدالله بن عمر، وهو من أثبت الرواة.

محمد بن شهاب **الزهري** (ت١٢٥هـ).

العلاء بن عبدالرحمن **المخزومي** (ت١٣٠هـ).

محمد بن المنكدر **الهذلي** (ت١٣٠هـ).

زيد بن أسلم **العدوي** (ت١٣٦هـ).

وشيوخه من طبقة التابعين الذين رووا الأحاديث وبلغوا الهدى النبوي.

وقد حرص كثير من شيوخه على الأخذ عنه عندما ظهر نبوغه، وسمت مكانته، وعرف فضله وأمانته وسعة اطلاعه.

ويروى عن الإمام مالك قوله: «ما أحد ممن أخذت عنه العلم إلا اضطر إلي حتى سألني عن أمر دينه»(٢).

وقد اشتهر عنه تثبته في الرواية، وكان يقول: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون منه. لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، عند هذه الأساطين ـ وأشار إلى المسجد ـ، فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن»(٣).

وبهذا يكون الإمام مالك مسهماً في وضع المنهج العلمي لنقد الرجال وتمحيص الرواة.

وقد آتت جهود مالك في الطلب أطيب ثمارها، فبلغ أسمى المراتب العلمية، وتكونت لديه ملكة الاجتهاد، وحصل ثقافته الشرعية، وجمع أوفر نصيب من صحيح

---

(١) انظر ترتيب المدارك: ١/ ١٣٠ وما بعدها.

(٢) انتصار الفقير السالك، للشمس الراعي: ١٤٨ - ١٤٩ دار الغرب الإسلامي.

(٣) الانتقاء، لابن عبدالبر: ٤٦ ط مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب.

الأحاديث والآثار، واطلع على عمل أهل المدينة، وروى عنه تلاميذه «موطأه» وأخذوا عنه الأسمعة، وأعلن كثير من أعلام عصره شهادات فخر وتنويه به(١)، مثل ابن هرمز الذي قال عنه: «إنه أعلم الناس»، وسفيان بن عيينة الذي قال: «مالك إمام، مالك عالم أهل الحجاز.. حجة زمانه»، وأبو حنيفة القائل: «ما رأيت أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم منه»، والشافعي القائل: «ما أحد أمنَّ علي من مالك، جعلت مالكاً حجة بيني وبين الله، وإذا ذكر العلم فمالك النجم».

قال ابن عبدالبر: «الأخبار في إمامة مالك وحفظه وورعه وتثبته أكثر من أن تحصى، وقد ألف الناس في فضائله كتباً كثيرةً» (٢).

وقال البرهان بن فرحون: «قد اعترف له بالإمامة يحيى بن سعيد شيخه، والأوزاعي، والليث، وابن المبارك، وجماعة من هذا النمط، ومن بعدهم كالبخاري، وابن عبدالحكم، وأبي زرعة الرازي، ومن لا يعد كثرة»(٣).

وبعد الاعتراف له بالإمامة انتصب للإفتاء وللتدريس بالحرم المدني، فأدى رسالة العلم وبلغ أمانته، وكان يقول: «ما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك»(٤). ويؤثر عنه قوله: «لا خير فيمن يرى نفسه في حال لا يراه الناس فيها أهلاً».

وكان زحام الطلبة والمستفتين يشتد على بابه، خاصة أيام المواسم، ومنهم الوافدون من الأصقاع الإسلامية النائية، ومنهم ذوو السلطان(٥).

وكانت له آداب في مجلس العلم يحرص عليها ويحمل طلبته على التحلي بها، تدل على مدى تقديره للحديث وعلوم الشريعة ومدى جده في تدريسها وتبليغها، وهو يقول: «حق على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعاً لآثار من

(١) انظر: انتصار الفقير السالك: ١٣٩ - ١٤٠

(٢) التمهيد: ١/ ٧٤ - ٧٥ ط الأوقاف بالمغرب.

(٣) الديباج المذهب: ١٥ .

(٤) نقلاً عن كتاب: مالك لأبي زهرة: ٣٨

(٥) انظر شرح الزرقاني على الموطئ: ١/ ٣٠٢، انتصار الفقير السالك، للراعي: ١٩٣ .

مضى، وينبغي لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح، وبخاصة إذا ذكروا العلم». ويقول: «من آداب العالم أن لا يضحك إلا مبتسماً»(١).

ومن آدابه في الفتوى عدم التسرع وشدة الاحتياط والتثبت، وقد يسهر عامة ليله متأملاً في مسألة، وكان يوصي المفتين بقوله: «من أحب أن يجيب على مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب»(٢).

أخذ طلبته عنه مذهبه الفقهي وتأثروا بمنهجه في الاجتهاد، وكان منهم المدنيون والوافدون من اليمن والعراق ومصر وإفريقية والأندلس، ومنهم الراوون لموطأه الجامع بين الفقه والحديث وعمل أهل المدينة، وقد قضى أربعين سنة في تأليفه وتنقيحه، (٣) فاستحق الإشادة به في قول الناظم(٤):

إذا ذكرت كتب العلوم فخيرها	كتاب الموطا من تصانيف مالك
أصح حديثاً وأثبت سنة	وأوضحها في الفقه نهجاً لسالك
هو الحجة الغراء والعصمة التي	ينجي هداها من جميع المهالك

وعلى أصح الأقوال فإن وفاة الإمام كانت في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومئة.

(١) نقلاً عن كتاب: مالك لأبي زهرة: ٥٠

(٢) الديباج المذهب: ٢٣

(٣) ترتيب المدارك: ٢/ ٨٥ وانظر عن الموطئ: ترتيب المدارك: ٢/ ٨٦، إضاءة الحالك: ٦٣، أصول الإمام مالك للشعلان (أطروحة بكلية الشريعة الرياض).

(٤) التمهيد: ١/ ٦٥ .

المبحث الثاني: نشأة المدرسة المالكية الإفريقية وتطورها

المطلب الأول: النشأة:

عرفت ربوع إفريقية في عهد الولاة مذاهب تشريعية وافدة من المشرق كالمذهب الحنفي، وفي النصف الثاني من القرن الثاني رحلت ثلة من طلبة القيروان إلى المدينة المنورة حيث كان الإمام مالك بن أنس يلقي دروسه، ويروي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسانيده العالية عن التابعين الآخذين عن الصحابة، ويفتي ويجتهد بمعرفة شرعية ولغوية وأثرية واسعة ،معتمداً أصولاً صحيحة من قرآن وسنة وقياس وإجماع واستحسان ومصلحة وعمل جار لدى أهل المدينة، وغيرها، وكان تلاميذه المدنيون، والقادمون من مختلف الآفاق يدونون عنه أجوبة المسائل، فتعددت اسمعتهم التي كانت النواة الأولى للمذهب المالكي[١]، ورويت وانتشرت، وكانت مادة علمية مكنت من إثراء المذهب في فترة لاحقة بالقياس والتخريج عليها، وباعتماد الأصول التي انبنت عليها، لاستنباط فروع أخرى منها.

ولئن اشتهر أن هذه الثلة من الطلبة الأوائل القيروانيين الراحلين إلى إمام دار الهجرة للقائه والسماع منه ينيفون عن الثلاثين كما نقل عياض عن ابن حارث[٢]. فإن الباحث الحسين بن محمد شواط أداه استقصاؤه وتتبعه إلى إثبات: أنهم يبلغون أربعة وأربعين[٣].

هذا وقد تحدث القاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، مؤرخ المذهب المالكي، عن المذاهب التي عرفتها إفريقية، وعن ترجح كفة المذهب المالكي بها فقال: «أما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد[٤]،

---

(١) حضور المدونة الكبرى في المؤلفات والحلقات الدراسية المالكية، للشيخ محمد المنوني، ضمن محاضرات ملتقى الإمام سحنون بالقيروان سنة ١٤١٢ ص ٨٠ - ط مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ١٩٩٣.

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ٥١ .

(٣) مدرسة الحديث في القيروان: ١/ ٣٠٥ هامش ٨ .

(٤) أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي، روى عن مالك والليث وطبقتهما، وسمع منه أسد بن الفرات، والبهلول بن راشد، وسحنون، روى عن مالك الموطأ وكتباً أخرى، كان ثقةً حافظاً أميناً مرجعاً في الفتوى، ورعاً لم يكن في عصره بإفريقية مثله. (-١٨٣). (الشجرة: ٦٠، الفكر السامي ٢/ ٥٢١).

وابن أشرس[١]، والبهلول بن راشد[٢]، وبعدهم أسد بن الفرات[٣]، وغيرهم بمذهب مالك، فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون[٤]، فغلب في أيامه، وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه، فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا.

وكان بالقيروان قوم قلة في القديم أخذوا بمذهب الشافعي، ودخلها شيء من مذهب داود، ولكن الغالب عليها إذ ذاك مذهب المدينة والكوفة[٥].

هذا ويعتبر شيخنا محمد الشاذلي النيفر أن علي بن زياد كان «في الحقيقة مؤسس المدرسة التونسية بأجلى مظاهرها التي لاتزال إلى اليوم ممتدة الفروع، ثابتة الأصول»[٦]، ويقول شيخنا: «التكوين الأول للمالكية بإفريقية إنما هو لابن زياد، إذ فتح الأعين على مالك وعرفهم فضله وبين أصوله للناس، فالجسر الطويل الذي مر به رجال المدرسة المالكية من بعد إنما هو ابن زياد، فالبذرة الأولى التي بذرت من مذهب مالك هو الذي وضعها في التربة الصالحة»[٧].

---

(١) أبو مسعود بن أشرس التونسي، ثقة فاضل محدث، له سماع من مالك. (الشجرة ٦٢).

(٢) أبو عمر البهلول بن راشد القيرواني، جامع بين العلم والعمل والورع، سمع مالكاً والليث والثوري، وعنه سحنون ويحيى بن سلام. (ت١٨٣هـ). (الشجرة: ٦٠ - ٦٢).

(٣) أبو عبدالله أسد بن الفرات بن سنان، مولى بن سليم، أصله من نيسابور، ودخل مع أبيه في الجيش الفاتح، كان قدومه القيروان سنة ١٤٤، وسمع من علي بن زياد الموطأ وتعلم منه العلم، ثم رحل إلى المشرق فلقي مالكاً وطلب عليه العلم وسمع منه الموطأ، ثم ارتحل إلى العراق، فلقي أصحاب أبي حنيفة، وكتب الحديث بالعراق وتفقه بها، رحل إلى مصر بعد وفاة مالك فأخذ عن أصحابه ولزم ابن القاسم وأخذ عنه عنه الأسدية، وقدم بها إلى القيروان فسمعها منه خلق كثير، وانتشرت إمامته، ثم ولي قضاء إفريقية سنة ٢٠٣، ثم قاد الجيش في غزو صقلية، واستشهد محاصراً لسرقوسة سنة ٢١٣هـ (رياض النفوس ١/٢٥٤ وما بعدها).

(٤٨) أبو سعيد عبدالسلام بن سعيد بن حبيب بن حسان التنوخي، غلب عليه اسم سحنون، فقيه بارع ذو ورع صادق وصرامة في الحق وزهادة في الدنيا، أصله من حمص بالشام، وقدم به أبوه مع الجيش. ولد بالقيروان سنة ٢٦٠، وتوفي وهو يتولى القضاء سنة ٢٤٠هـ، يأتي مزيد كلام عنه في المطلب الثاني من هذا البحث. ترجمته ومصادرها في (رياض النفوس ١/٣٤٥ وما بعدها).

(٥) المدارك ١/٢٥-٢٦ .

(٦) موطأ الإمام مالك، قطعة منه برواية ابن زياد، مقدمة المحقق ك٢٩ ط دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٤م.

(٧) المصدر نفسه: ٣٠ . =

وإنما رجع الفضل في التأسيس لابن زياد، لأنه كان من الرعيل الأول الذي رحل إلى إمام دار الهجرة فأخذ علمه وروى موطأه، وعلم فروع مذهبه بعد عودته[١]، ودل طلبته على أعلام المدرسة المالكية المصرية الأولى، مما مهد للحوار العلمي بين المدرستين، وللتعاون الذي آتى أكله الطيب، وكان من ثماره تضافر الجهد في إبراز المدونة التي سيأتي الكلام عنها وشيكاً.

كان علي بن زياد يقيم بمدينة تونس قبل أن تصبح حاضرة إفريقية، وهي إذ ذاك المركز الثاني للمدرسة المالكية الإفريقية بعد القيروان، وكان ينتصب لتدريس المذهب بجامع الزيتونة المعمور، وهو إذ ذاك حديث العهد بالتأسيس، فكان علي بن زياد من الرواد الأوائل من مشيخة الزيتونة [٢] التي اعتبرت من أوائل الجامعات الإسلامية التي كانت من أهم ركائز النهضة ومنارات الإشعاع العلمي.

ونضيف إلى من سماهم **القاضي عياض** من طلبة مالك الإفريقيين المنتمين إلى الطبقة الأولى الآتين.

أبو محرز، محمد بن عبدالله بن قيس الكناني القيرواني القاضي (ت٢١٤هـ). فقد سمع من مالك وروى عنه[٣].

محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي، لم تذكر وفاته، وسماعه من مالك في ثلاثة أجزاء[٤].

= ويؤكد شيخنا النيفر أن ابن زياد ويحي بن يحي الليثي مؤسسان للمدرسة المالكية في إفريقية والأندلس وقد تخرجت منها ثلة من الأعلام نفعت بعلمها، فلم تنجح الشيعة والصفرية والظاهرية في أن تعمر بإفريقية والأندلس؛ ولهذا فإن هذين العالمين حريان بأن تشملهما دراسات للتوصل إلى الأسباب الفائقة التي توصلا بها إلى نشر المذهب المالكي الذي اتبعه ملايين المسلمين.

(١) هكذا نشأت المدرسة المالكية الأولى بإفريقية، وقبلها كانت إفريقية تتلقى علم أهل المدينة من طبقة التابعين وتلاميذهم بواسطة خالد بن أبي عمران التجيبي التونسي (ت١٢٩هـ) وهو شيخ علي بن زياد العبسي.

(٢) اعلام الفكر الإسلامي، لشيخنا محمد الفاضل بن عاشور: ٣٦.

(٣) الديباج: ٢/٣٥٢.

(٤) رياض النفوس: ١/٢٩٠. وترتيب المدارك: ٣/٣٢٣.

أبو محمد عبدالله بن عمر بن غانم الرعيني القيرواني فقيه إفريقية وقاضيها، عالم ثقة أمين (ت١٩٠هـ)، روى عن الإمام مالك وسمع من الثوري ومن عبدالرحمن بن أنعم، ولي القضاء سنة (١٧٢هـ)[١].

صقلاب بن زياد الهمداني القيرواني، فقيه من أهل الفضل والعبادة، سمع من مالك وغيره، وسمع عليه أبو سليمان زيد بن سنان وغيره. (ت١٩٣هـ)[٢].

ولئن كان هذا المقام لا يسع لحصرهم، فمن المفيد أن نسوق قول الباحث الحسين شواط: «في بداية العقد الخامس من القرن الثاني بدأت صلة القرويين والأفارقة عموماً بالإمام مالك ابن أنس.. وذلك عن طريق عبدالله بن فروخ (ت١٧٦هـ)، والبهلول بن راشد (ت١٨٣هـ)، وعبدالله بن غانم (ت١٩٠هـ). ثم تتالت عليه أفواج علمائهم حتى إن عدد الرواة عنه قد وصل إلى ٤٤ رجلاً فيما وصلت إليه بعد البحث والتتبع، خلافاً لما هو سائد من أنهم أكثر من ثلاثين رجلاً، منهم ستة حملوا عنه الموطأ، وأدخلوه إلى القيروان التي شاع فيها الموطأ بروايات غير إفريقية»[٣].

والموطأ يجمع خلاصة ما تلقاه مالك عن مشيخة المدينة الحافظين لعلم الصحابة والتابعين بها ولما نقل عنهم من الآثار، يجمعها بعد التحري والنظر والعرض على الأصول التي انبنت عليها الأفكار الشرعية، فهو «المشرع الروي، والمنهل العذب، لا معدل عنه لمبتغي الفقه المركز على أصوله الثابتة»[٤].

وبعد دخول إفريقية الموطأ كان له بالغ الأثر في بث الفقه المالكي ونشر أصوله والتعريف بمنهج إمامه، وبيان الحلال والحرام.

واستمرت رحلة طلبة إفريقية إلى المدرسة المالكية المدنية بعد وفاة مؤسسها، وكان من أبرز من رحل بعد وفاة الإمام مالك ممن لم يروه واقتصروا على الأخذ عن تلاميذه:

---

(١) شجرة النور: ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه: ٦٠ .

(٣) مدرسة الحديث في القيروان: ١/٤٢٥ .

(٤) موطأ الإمام مالك، سالف الذكر، مقدمة المحقق الشيخ النيفر: ٥٤ .

موسى بن معاوية **الصمادحي** (ت٢٢٥هـ)، وقد كانت رحلته سنة ١٨٤هـ ودامت خمس سنوات لقي فيها أعلاماً من طرابلس ومصر والحرمين والبصرة والكوفة وبغداد وبلاد خراسان، ولما عاد انتصب بجامع عقبة يسمع مروياته الكثيرة[١].

عون بن يوسف **الخزاعي** فقيه محدث صالح مع الورع والدين المتين، أخذ في رحلته عن ابن وهب صاحب مالك وغيره. (ت٢٣٩هـ)[٢].

عبدالسلام **سحنون** بن سعيد التنوخي القيرواني[٣]. انتهت إليه الرئاسة في العلم بالقيروان (ت٢٤٠هـ) يأتي الحديث عن دوره في تطور المذهب بإفريقية وشيكاً، له رحلة إلى أصحاب الإمام مالك للأخذ عنهم[٤].

لقد كان لهؤلاء الطلبة الإفريقيين دور مهم في نشر مذهبه ببلادهم بعد عودتهم، وقد تبوأوا فيها مكانة سامية وأصبحوا المرجع في الفتوى وفي بيان الاتجاه المالكي في الأحكام، ومن ذلكم أننا رأينا علي بن زياد في تونس يدرس فقه مالك، ويروي موطأه، ويمثل المرجع لرواد الفقه المالكي في القيروان وفي سائر مناطق إفريقية، يقول الإمام سحنون (ت٢٤٠هـ) سراج القيروان وكبير فقهائها: «كان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد ليعلمهم الصواب»[٥].

ومن علماء القيروان الذين شدوا الرحال إلى تونس للأخذ عن فقيهها المالكي علي بن زياد، نذكر:

---

(١) ترجمة ومصادرها في رياض النفوس: ١/٣٧٦ وما بعدها.

(٢) شجرة النور: ٦٩ .

(٣) ترجمته ومصادرها في رياض النفوس: ١/٣٤٥ وما بعدها.

(٤) للأخ الدكتور حمزة أبي فارس بحث مدونة الإمام سحنون، تعرض فيه لما ذكره المترجمون له عن عدد رحلاته وتواريخها، ورجح هذا الباحث أنه لم تكن له إلا رحلة واحدة إلى المشرق. انظر بحثه ضمن كتاب (محاضرات ملتقى الإمام سحنون: ٩٩ وما بعدها).

(٥) ترتيب المدارك: ٣/٨٢.

ويقول أبو سعيد بن يونس عنه: «أول.. من فسر لأهل المغرب قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه وكان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم، وهو معلم سحنون الفقه». المدارك: ٣/٨٠ .

انظر: موطأ الإمام مالك، مقدمة محققه شيخنا النيفر: ٣٨ وما بعدها.

البهلول بن راشد (ت١٨٣هـ).

أسد بن الفرات (٢١٣هـ).

سحنون بن سعيد (ت٢٤٠هـ).

المطلب الثاني: التطور

إن المدرسة المالكية الأولى بإفريقية بعد أن مرت بدور النشأة الذي تبنت فيه المذهب المالكي وفتحت له مجال دراسته وتطبيق فروعه.. انتقلت إلى مرحلة تطور أسهمت فيها المدرسة في خدمة المذهب ودعمه وإثرائه.

واكب دور النشأة المشار إليه ما عرف بدور التأصيل على يد مؤسس المذهب بالمدينة، كما واكب بداية دور التفريع الذي هو دور الاجتهاد المقيد الذي عرفته جميع المدارس المالكية في مختلف المراكز[١]، وكثرت فيه الفروع والمسائل ملبية حاجة جميع المجتمعات إلى الأحكام المناسبة لأوضاعها وأعرافها ومستجداتها.

وتواصل التفريع على يد المجتهدين المقيدين في مرحلة التطور المشار إليها والتي تمتد إلى آخر الفترة التي يتناولها بحثنا.

هذا التطور بدأ على يد عالم كبير له الأثر الفعال في تيار هذه المدرسة المالكية الإفريقية الأولى، وهو الإمام أبو سعيد عبدالسلام بن سعيد المعروف بـ« **الإمام سحنون** » (ت٢٤٠هـ). **ثم تواصل على يد ابنه الإمام محمد بن سحنون** (ت٢٥٦هـ).

ثم ظهر في القرن الرابع عالم قيرواني آخر **جدد المذهب** ورفع رايته، هو الشيخ أبو محمد **عبدالله بن أبي زيد** القيرواني (ت٣٨٦هـ) الموسوم بـ« مالك الصغير »[٢].

أما الإمام سحنون فقد ذكر القاضي عياض في نصه السالف أن المذهب غلب في أيامه بإفريقية، وأشار إلى بعض مواقفه الخالدة، وهو مبادرته إلى فض حلق المخالفين المناوئين، مما هيأ للمذهب أن يستقر بعده في هذه الربوع، ولأصحابه أن يواصلوا خدمته ونشره.

---

(١) انظر: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب، للشيخ ابن عاشور: ٧٠

(٢) ترجمته ومصادرها في دائرة المعارف التونسية، الكراس الثاني: ٣٥ وما بعدها، بيت الحكمة تونس ١٩٩١ – من إعدادنا – ومقدمة تحقيقنا لرسالته ولكتابه الجامع.

وأصحابه من القيروان ومن الوافدين إليه يعدون بالمآت، حتى قيل: «إنه ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بورك لسحنون في أصحابه، فإنهم كانوا أئمة بكل بلدة»(١).

ونقل ابن الحارث أن «سحنون أيمن عالم دخل المغرب كان أصحابه مصابيح في كل بلد، عد له نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسته»(٢).

وقد أفاض المترجمون لسحنون في سيرته، ونوهوا بجهوده في خدمة المذهب وعددوا مناقبه، وأشادوا بعدله في القضاء وإنجازاته في تنظيمه وتقنين إجراءاته وتنظيم خطة الحسبة ومراقبة السوق. (٣) **وأهم إنجاز له** معتبر في دعم المدرسة وخدمة مذهبها هو الذي قام به في تاليف **المدونة الكبرى**.

وخلاصة قصة تأليفها كما أشار إليها شيخنا محمد الفاضل بن عاشور:

أن أسد بن الفرات وسحنون أخذا مسائل مالكية عن علي بن زياد لما رحلا إليه ـ وهو بتونس ـ من القيروان، دون أسد مدونته عن شيخه، فلاحظ سحنون «فيما كتبه أسد نبوات أو اختلافات عما يظن أنه سمعه من علي بن زياد، فحدا به ذلك إلى أن يرجع في تحقيق ما وقع له فيه الشك، وما اتهم فيه ما أخذه عن أسد بن الفرات بالاضطراب أن يرجع إلى الذي كان مسلماً له من بين أصحاب مالك، وهو عبدالرحمن بن القاسم، فتوجه سحنون إلى مصر، وصدرت عنه المدونة التي تعتبر في الحقيقة أثرا لأربعة من الرجال على التعاقب، هم: علي بن زياد المدون الأول، وأسد بن الرفات مدون المدونة التي عرضها سحنون على ابن القاسم، وابن القاسم الذي صححت لديه مدونة أسد بن الفرات «الأسدية»، وسحنون الذي كتب خلاصة ما سمع من ابن القاسم، مع ما سمع من غيره من أصحاب مالك بإفريقية ومصر)(٤).

---

(١) المرقبة العليا، للنباهي: ٢٩

(٢) معالم الإيمان: ٩٨/٢ .

(٣) ترتيب المدارك: ٤/٤٥ وما بعدها.

(٤) المحاضرات المغربيات، للشيخ الفاضل بن عاشور: ٧٧، ط الدار التونسية للنشر.

وانظر (محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، لعمر الجيدي: ١٧٧).

وهكذا ترون أن تآزر المدرستين المالكتين المصرية والإفريقية كان من آثاره الخالدة هذه المدونة الفقيهة المالكية التي قام سحنون القيرواني بتحريرها وتدقيقها، ثم ضمنت لها المدرسة الإفريقية بعده الحياة والانتشار بما قام به علماؤها من جهود جليلة في خدمتها كما سنرى وشيكاً.

كانت هذه الجهود السحنونة من مظاهر التطور الذي عرفته هذه المدرسة بعد دور التأسيس والنشأة المتقدم.

ويسجل تاريخ المذهب في هذه المدرسة لسحنون أنه دون عن طريق معاصري مالك من أصحابه مشهور الفقه المالكي ما لم يدونه أحد ممن لقي مالكاً نفسه «وعلى هذا فإن جميع المالكيين مدينون للإمام سحنون بالفضل ومعترفون له بإحراز السبق في نشر العلم». كما يقول شيخنا محمد الشيباني(١).

ثم إن سحنونا لم يقتصر على روايات ابن القاسم(٢) وأقواله، بل ضمن المدونة مجموعة من روايات أصحاب مالك مثل: أشهب(٣)، وابن وهب(٤)، وابن مهدي(٥)،

(١) سحنون الفقيه المالكي، ضمن محاضرات ملتقى الإمام سحنون: ٥٠ - ٥١ .

(٢) عبدالرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري، روى عن مالك والليث وعبدالعزيز بن الماجشون ومسلم بن خالد الزنجي، وروى عن أصبغ، وكان عالماً زاهداً سخياً شجاعاً، استمرت صحبته لمالك عشرين سنة (ت١٩١هـ). (الانتقاء: ٥٠، تهذيب التهذيب:٦/ ٢٥٢، حسن المحاضرة، ١/ ٣٠٣، الديباج: ١١/ ٤٠٥، شذرات الذهب:١/ ٣٢٩، طبقات الشيرازي: ١٥٠، وفيات الأعيان: ٣/ ١٢٩).

(٣) أشهب بن عبدالعزيز بن داود القيسي العامري المصري، فقيه ثبت ورع، انتهت إليه رئاسة المذهب بعد ابن القاسم، صحب مالكاً وروى عن الليث والفضيل بن عياض، وأخذ عنه بنو عبد الحكم وسحنون وجماعة، وخرج عنه أصحاب السنن. (ت٢٠٤هـ). (الانتقاء: ٥١، تهذيب التهذيب: ١/ ٣٥٩، طبقات الشيرازي ١٥٠، ترتيب المدارك: ٣/ ٢٥٢، وفيات الأعيان: ١/ ٢٣٨).

(٤) عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري المصري، جامع بين الفقه والحديث والعبادة، كان حافظاً ثقة مجتهداً، ألف كتاب الجامع وغيره، (ت١٩٧هـ بمصر) (الانتقاء: ٤٨، ترتيب المدارك: ٣/ ٢٢٨، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٦).

(٥) ابن مهدي عبدالرحمن العنبري، سمع مالكاً وشعبة، وكان يذهب إلى قول مالك، وكان ثقة عالماً بالحديث، توفي بالبصرة (ت١٩٨هـ). (ترتيب المدارك: ٣/ ٢٠٢-٢٠٩).

وابن زياد.. كما توج كثيراً من الأحكام المالكية بالدليل من الأحاديث والآثار الصحيحة والحسنة، وإن لم يستوعب كل المسائل(١).

يقول الشيرازي: «اقتصر الناس على التفقه في كتب سحنون ونظر سحنون فيها نظراً آخر، فهذبها وبوبها، ودونها وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره وذيل أبوابها بالحديث والآثار، إلا كتباً منها مفرقة بقيت على أصل اختلاطها في السماع، فهذه هي كتب سحنون المدونة والمختلطة وهي أصل المذهب، المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإياها اختصر مختصرهم وشرح شارحوهم، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم»(٢).

ويدلنا على مكانة المدونة في المشرق أن القاضي عبدالوهاب (ت٤٢٢هـ) رجح مسائلها «لرواية سحنون لها عن ابن القاسم، وانفراد ابن القاسم بمالك، وطول صحبته له، وأنه لم يخلط به غيره إلا في شيء يسير، ثم كون سحنون أيضاً مع ابن القاسم بهذه السبيل، مع ما كانا عليه من الفضل والعلم»(٣).

أما صدى المدونة عند المدرسة الأندلسية فيعبر عنه القاضي أبو الوليد ابن رشد (ت٥٢٠هـ) بقوله: «هي أصل المالكيين، وهي مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك رحمه الله تعالى، ويروى أنه ما بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك رحمه الله تعالى، ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة».

والمدونة هي عند أهل الفقه، بمنزلة كتاب سيبويه عند أهل النحو، وكتاب إقليدس عند أهل الحساب، وموضعها من الفقه، موضع أم القرآن من الصلاة تجزئ عن غيرها ولا

---

(١) يعتبر الدكتور بدوي عبدالصمد أن إدخال الأحاديث والآثار في المدونة حصل به تعديل جوهري للأسدية وأرضي علماء إفريقية مستدلاً بما جاء في (المدارك: ٣/٢٩٨) ويلاحظ «أن القدر الذي أدخله سحنون في المدونة من الأحاديث والآثار بقصد الاحتجاج به لم يكن شاملاً لكل مسائلها.. فهو ليس كافياً لأن يؤثر في تحويل منهج التأليف في اتجاه منهج التأصيل والتدليل، ولكنه سن الاقتداء بمنهج الإمام مالك في الموطأ». (الإتحاف بتخريج أحاديث الإشراف: ١/٤٤).

(٢) نقلاً عن ترتيب المدارك: ٣/١٩٩ .

(٣) ترتيب المدارك: ٣/٢٤٦ .

يجزئ عنها غيرها»[١].

وهكذا يكون لسحنون الأثر الواضح في خدمة المذهب عامة وفي تطوير مدرسته الإفريقية خاصة.

وقد واصلت الطبقة العريضة من تلاميذ الإمام سحنون خدمة المذهب وتناقلت ما أثر عنه من الأقوال والآراء التي تمخضت عن اجتهاده أو كانت ثمرة اختياره وترجيحه[٢]، تلك الأقاويل والآراء التي مازالت في ثنايا الكتب الفقهية تشهد بمدى إثرائه لفروع المذهب.

واصل تلاميذه أداء الرسالة العلمية بعده، وكان من أبرزهم ابنه محمد[٣] الذي أسهم بنصيب وافر في حركة تطوير هذه المدرسة وكان له اثر مهم في تيارها الفقهي، وتعددت مؤلفاته المتناولة لفنون مختلفة في مقدمتها علوم الفقه حيث الف فيه كتابه الكبير الموسوم بـ«الجامع» الذي قال عنه محمد بن عبدالحكم: «هذا كتاب رجل يسبح في العلم سبحاً»[٤]، وتناولت بعض كتبه مناصرة مذهبه مثل كتاب الجوابات الذي رد فيه على أهل العراق وعلى الإمام الشافعي.

توفي محمد بن سحنون الإمام ابن الإمام تاركاً ثروة فقهية تضمنتها كتبه العديدة ونهض بتبليغها بعده طبقة تلاميذه ومن أدركه من طبقة تلاميذ أبيه، كانت وفاته سنة (ت٢٥٦هـ)[٥].

---

(١) المقدمات الممهدات: ٤٤-٤٥ /١

وقد اشتهرت المدرسة الإفريقية المالكية بطريقة في دراسة المدونة تختلف عن الطريقة العراقية، تحدث عنها المقري في (أزهار الرياض: ٣/٢٢): «ومنهج المدرسة القيروانية يعتمد تصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات مع تتبع الآثار وترتيب أساليب الاخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع» انظر: (أعلام الفكر الاسلامي، للشيخ ابن عاشور: ٦١).

(٢) تحدثنا عن أثر الإمام سحنون في المدرسة المالكية الأندلسية وعن وثيق صلته بطلبتها وانتشار مدونته فيها ضمن بحثنا الموسوم. بـ«علاقة الإمام سحنون بالأندلس» المنشور في كتاب (محاضرات ملتقى الإمام سحنون: ١٤٥ وما بعدها).

(٣) له ترجمة موسعة في رياض النفوس:٤٤٣/١ وما بعدها وبالهامش لائحة بمصادر ترجمته.

(٤) ترتيب المدارك: ٢٠٦/٤ .

(٥) رياض النفوس:٤٤٤/١

وما وصلنا مما ألف إلا كتابان، وهما:

«**آداب المعلمين**»، وهو كتاب صغير الحجم حقق ونشر أكثر من مرة(١)، ولقي عناية بعض رجال التربية والتعليم في عصرنا (٢) باعتباره يرسم منهجاً تربوياً إسلامياً ويوضح بعض أحكام المعلمين والمتعلمين ويتحدث عن علاقة كل طرف بالآخر، وكذلك يعرض بعض واجبات الأولياء.

«**الأجوبة**»، وهو كتاب في جزء، حققه ونشره صاحب دار سحنون بتونس منذ سنتين تقريباً، هو من صنف كتب الفتاوى والنوازل، وهو من أوائلها في المذهب، جمعه أحد تلاميذ ابن سحنون أجوبة شيخه فيما سئل عنه، ثم نقحه صاحبه وصححه، وأوصى بعدم اعتماد نسخة منه تسربت بالأخطاء، واساءت إلى الكتاب حتى حذر من اعتماد الكتاب في الفتوى من لم يطلع على نسخته المنقحة.

أما كتاب ابن سحنون الكبير الذي عدوه موسوعة فقهية، وسائر كتبه الأخرى فلم نسعد بوصولها إلينا، ولعلها كانت عرضة للعوادي، ومع ذلك فقد كثر النقل عنها وعرفناها من خلال تلك النقول. ولعل أكثر الناقلين عن موسوعته هو الشيخ ابن أبي زيد في كتابه «النوادر والزيادات على ما في المدونة وغيرها من الأمهات»(٣).

انطوى القرن الثالث المليء بجهود الأسرة السحنونية التي كان عميدها أبو سعيد عبدالسلام الذي كان من أقاربه فقهاء(٤)، وبجهود المتخرجين بهم من أعلام إفريقية والمغرب الأقصى والأندلس. وحل القرن الرابع فولد في نهاية عقده الأول بالقيروان الشيخ أبو محمد عبدالله بن أبي زيد عبدالرحمن النفزي القيرواني، مالك الصغير، نشأ بالقيروان آخذاً عن

---

(١) اعتنى بهذا الكتاب حسن حسني عبدالوهاب، والعروسي المطوي، ومحمود عبدالمولى.

(٢) الف عبدالرحمن عثمان حجازي كتاباً بعنوان «المذهب التربوي عند ابن سحنون رائد التاليف التربوي الإسلامي» ونشرته مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٩٨٦ .

(٣) نشرته دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة ١٩٩٩ .

(٤) إضافة إلى ابنه محمد سالف الذكر نذكر أيضاً ابنته خديجة التي وصفوها بأنها «عاقلة عالمة ذات صيانة ودين» وبأنها «كانت من خيار النساء» وكان أبوها يستشيرها في مهمات أموره، وكذلك أخوها محمد بعد وفاة أبيه، توفيت سنة (٢٧٠هـ). انظر: (شهيرات التونسيات ، لحسن حسني عبدالوهاب: ٤٧).

أعلام عصره مثل أبي بكر بن اللباد[١]، وعبدالله بن مسرور الحجام[٢]، والإبياني[٣]، والممسى[٤]، وأبي العرب[٥] صاحب االطبقات، وأبي سليمان القطان[٦]، وأبي عثمان الخولاني[٧]، وحبيب بن الربيع[٨]، وغيرهم.

- وفي رحلة حجه سمع من ابن الأعرابي وابن المنذر، واستجاز إمامي المالكية بالمشرق: الأبهري [٩] من المدرسة العراقية، وابن شعبان [١٠] من المدرسة المصرية.

أما تلاميذه فكثيرون، من أهل القيروان ومن الوافدين من ربوع إفريقية ومن المدرستين المغربية والأندلسية[١١]، كانت الرحلة تشد للأخذ عنه[١٢]، ولاستفتائه، ولاستجازته فيما

---

(١) أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح القيرواني المعروف بـ «ابن اللباد»، كان عليه اعتماد ابن أبي زيد في الفقه، (ت٣٣٣هـ). (الديباج: ٢/١٩٦، معالم الإيمان: ٣/٢١).

(٢) أبو محمد عبدالله بن مسرور التجيبي المعروف بـ «ابن الحجام»، سمع منه أهل مصر وطرابلس والأندلس وإفريقية (ت٣٤٦هـ). (رياض النفوس: ٢/٤٢٢.

(٣) أبو العباس عبدالله بن أحمد الإبياني، كان ابن أبي زيد يكتب إليه بالمسائل التي تشكل عليه. (ت٣٥٢هـ) (ترتيب المدارك: ٥/٣٤٧، الديباج: ١/٤٢٥.

(٤) أبو الفضل عباس بن عيسى الممسي، فقيه ورع ذو سمت حسن. (ت٣٣٣هـ). (معالم الإيمان: ٣/٢٧).

(٥) أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، من دار إمارة، الف كتبا في التاريخ. (ت٣٣٣هـ) (معالم الإيمان: ٣/٢٦).

(٦) أبو سليمان ربيع بن سليمان القطان، اخذ عن شيوخ القيروان ومصر ومكة (ت٣٣٣هـ) (طبقات علماء إفريقية: ١٧٩، معالم الإيمان: ٣/٣٠).

(٧) أبو عثمان سعدون بن أحمد الخولاني، سكن المنستير للرباط، وسمع من محمد بن سحنون. (ت٣٢٤هـ على الراجح) (رياض النفوس: ٢/٢٥١).

(٨) حبيب بن الربيع مولى أحمد بن أبي سليمان، أخذ عن مولاه وعن يحي بن عمر بن بسطام (ت٣٣٧هـ) (الديباج: ١/٣٣٦).

(٩) ترجمته في طبقات الشيرازي: ١٦٧، تاريخ بغداد: ١٦/٥، شذرات الذهب: ٣/٨٥، فهرست ابن النديم: ١/٢٩٧.

(١٠) ترجمته في ترتيب المدارك: ٥/٢٧٥.

(١١) انظر: ترجمتنا لابن أبي زيد في الكراس الثاني لدائرة المعارف التونسية: ٣٥ وما بعدها، بيت الحكمة، تونس ١٩٩١.

(١٢) ترتيب المدارك: / ، «معالم الإيمان: ٣/١١٠، شذرات الذهب: ٣/١٣١.

صنف من المؤلفات العديدة النافعة [١] التي كان من أهمها:

الرسالة الفقهية، هو كتاب دراسي كتب له الذيوع والانتشار. [٢]

النوادر والزيادات، سالف الذكر وهو موسوعة مالكية جمعت الكثير من المدونات الفقهية السابقة، وتضمنت نقولا كثيرة من بعض الكتب المفقودة اليوم.

مختصر المدونة[٣]:

ومن مؤلفاته ما تناول موضوعات معينة مثل: الحبس على أولاد الأعيان، ورسالة طلب العلم، ومنها ما تضمن رداً على بعض مقولات الشيعة كما نرى في القسم الأول من الرسالة الفقهية المتضمن لبعض القضايا العقدية، وكما في كتابه فضل قيام رمضان، [٤] حيث كان الشيعة في عصره ينكرون فضل قيامه وينهون عنه.

لقد كان مالك الصغير قطب المذهب في عصره، وشهد له الإمام أبو الحسن القابسي بأنه «إمام مؤيد موثوق به رواية ودراية».

ومن المؤرخين للمدرسة الإفريقية من غير رجالها نذكر، ممن شهد له، أبا إسحاق الشيرازي وأبا الفضل القاضي عياض، والحافظ الذهبي، ونورد شهادة كل واحد منهم.

يقول الشيرازي: «إليه انتهت الرئاسة في الفقه»[٦].

---

(١) جاء في (معالم الإيمان: ٣/ ١١١) (كلها نبيلة) وفي (ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٨) «مفيدة بديعة غزيرة العلم».

(٢) انظر: في (محاضرات ملتقى ابن أبي زيد) ثلاثة بحوث عن الرسالة، للشيخ الشيباني ص ١٥، والحسن الفيلالي ص ١١٩، ومحمد الحبيب عباس ص ١٤٣ وفي مجلة دعوة الحق المغربية عدد ٣ سنة ٢١ ص ٥٢ بحث لأحمد سحنون، عنوانه «ابن أبي زيد القيرواني ورسالته». وانظر عن الرسالة دراستنا لتقديم تحقيق الجامع: ٥٠ وما بعدها.

(٣) شرحه القاضي عبدالوهاب بكتابه الممهد.

وأفاد عياض أن المعول من مصنفات ابن أبي زيد على كتابيه: النوادر ومختصر المدونة (المدارك: ٦/)

وانظر: أعلام الفكر الإسلامي، لابن عاشور: ٤٨ .

(٤) معالم الإيمان: ٣/ ١١١، كتاب العمر: /

(٥) رياض النفوس ٢/ ٤٧١ .

(٦) طبقات الفقهاء: ١٦٠ .

ويقول عياض مشيراً إلى فضله في خدمة المذهب وتطوير المدرسة التي ينتمي إليها: «هو الذي لخص المذهب وضم نشره، وذب عنه وملأت البلاد تواليفه.. وعرف قدره الأكابر»(١).

وحلاه الذهبي بـ«الإمام العلامة القدوة الفقيه عالم أهل المغرب»(٢).

كان ابن أبي زيد مفخرة القيروان وإمام المغاربة ومالكا الثاني لدى أهل المذهب، وأثره في تيار المدرسة التي ينتمي إليها واضح، ناصر المذهب وذب عنه خاصة في كتابه «الذب عن مذهب الإمام مالك»(٣). وحاور المذاهب الأخرى، ودون فقه إمامه في كتب جليلة وموسوعة لم تحرم أجيال المالكية منها إذ تداولوها مخطوطة، وأتيحت لهم اليوم مطبوعة.

وأشاد باتجاه مذهب مالك وبفقه أهل المدينة ـ كما سترى قريباً ـ سعياً لدعمه ونشره وإبرازاً لفضله حتى يسود فقهه وتدرك ميزاته ودواعي ترجيحه.

توفي هذا العالم الذي شهدت المدرسة تطوراً على يديه سنة ٣٨٦هـ، ومراعاة لأثره الإيجابي في تيار المذهب اعتبرته الأجيال بعده أحد الشيخين اللذين لولاهما لذهب المذهب، والشيخ الثاني الأبهري من المدرسة العراقية(٤).

ونختم الكلام عنه وعن تطويره لمدرسته بهذه الكلمات الذهبية عن التي أبرز بها شيخنا ابن عاشور ما امتاز به مما خول له المكانة السامية بين أعلام المذهب، قال شيخنا العلامة ابن عاشور:

---

(١) ترتيب المدارك: ٤/٤٩٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧/١٠.

(٣) مخطوط بمكتبة تشستربيتي رقم ٤٤٧٥ يقع في ١٥٣ لوحة، به طمس وترهل، بمكتبتنا مصورة منه – كتب عنه الدكتور عبدالحميد العلمي دراسة القيت في ندوة عبدالله بن أبي زيد بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان في شوال ١٤١٣، ولكنها لم تنشر مع محاضرات هذه الندوة – وهي دراسة قيمة، استفدنا بسماعها وتمنينا لو رأيناها منشورة. ذكر هذا المخطوط سزكين في (تاريخ التراث العربي: ٢/١٦٠).

(٤) معالم الإيمان: ٣/١١٠.

«قد أعانه ذلك التكوين الممتاز على أن يرجع بالفقه إلى صفائه العلمي ويفكه من قيود الجدليات (١) والعصبيات، وأن يسلك في خدمة المذهب المالكي مسلكاً فرداً، يضبط ما تناثر في مصادره من الأقوال مما قاله مالك وخالفه فيه أصحابه، أو ما وافقوه فيه، أو ما انفرد أصحاب مالك ومن بعدهم بتقريره من الأحكام فدرس الأقوال الفقهية، وحقق الصور التي تتعلق بها حيث كان صورة واحدة واختلفت فيها الأنظاهر، أو صوراً مختلفة يرجع كل قول إلى واحد منها. ذلك هو المنهج المتميز في التاليف الذي اصطبغت به مؤلفات ابي أبي زيد التي طرقت فنون الشريعة بمعناها الواسع: الفقه، والعقيدة، والتفسير، والمواعظ، وكلها نبيلة»(٢).

ولم ينته أثر سحنون وابنه محمد، وأثر ابن أبي زيد بانتهاء فترة سيادة القيروان التي حددناها إطارا لهذا البحث، بل تواصل أثرهم عبر عصور تاريخ المذهب، ونفذ الى جميع مدارسه التي كانت تتعاون وتتآزر وتتبادل الكتب والرسائل والإجازات.

---

(١) من مصنفاته المفقودة كتابه «النهي عن الجدل».

(٢) أعلام الفكر الإسلامي: ٤٧ .

المبحث الثالث : دواعي انتشار المذهب بإفريقية

عرفنا ما للطلبةالآخذين عن الإمام مالك بن أنس من أثر في تعريف أهل بيئتهم بالإمام ومناقبه ومذهبه، وذلك بعد إيابهم من الرحلة إلى الإمام والسماع منه والأخذ عن أصحابه والتأثر بما كان يسود البيئة المدنية من توجيه نبوي وما يتناقله رواتها من أحاديث وآثار، وما يجري فيها من عمل متعارف متوارث عن الأجداد راجع إلى عهد النبوة وزمن الوحي النازل بالمدينة، مبيناً أحكام الدين وشريعة الله.

ولأهل هذه البيئة تعلق بالمدينة، لأنها تضم أحد الحرمين اللذين تهفو إليهما النفوس، وهما مهوى أفئدتهم، والمدينة دار الإيمان وأرض الهجرة ومبدأ الحلال والحرام، بها الحرم الآمن، يأزر العلم إليها كما تأزر الحية إلى جحرها(١)، وبها نشأت أول دولة إسلامية تطبق شرع الله وتحتكم إلى دستوره، وتحفظ بيضة الإسلام، وترسل الدعاة إلى الأقطار يفقهون الناس في دين الله.

ومما رجح المذهب المالكي لدى أهل إفريقية الحديث الذي بلغهم يبشر بالإمام مالك وينوه بعلمه، وهو ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُوشِكُ أن يضرِبَ النَّاسُ أكبادَ الإبل في طلب العلم ، أو يلتمسون العلم ، فلا يجدون أعلم من عالم المدينة»(٢).

ومن دواعي ترجيح هذا المذهب وانتشاره ما قاله الشمس الراعي الأندلسي: «كونه

---

(١) انظر :ترتيب المدارك: ١/ ٣٦، وفاء الوفاء، للسمهودي: ١/ ١٩ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ٢٩٩، والترمذي في جامعه: /١٠١٥٢، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم في المستدرك: ١/ ٩٠، والخطيب البغدادي في تاريخه: ٥/ ٢٠٦ .

وانظر كترتيب المدارك: ١/ ٩٠، والخطيب البغدادي في تاريخه: ٥/ ٢٠٦ .

وانظر: :ترتيب المدارك: ١/ ٦٨-٦٩، الانتقاء لابن عبدالبر: ١٩، التمهيد له: ١/ ٨٥، انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك، للراعي: ١٢٨ - ١٢٩، أوجز المسالك ١/ ١٤، شرح الزرقاني على الموطأ: ١/ ٣ ط حنفي، مصر.

مذهب أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم في مدينته ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنها مهبط الوحي ودار العلم»(١).

وقد اعتبر أهل إفريقية المذهب المالكي أرجح المذاهب الفقهية حجة وأقواها أدلة وأصحها أصولاً وأقومها مسلكاً وأولاها بالاتباع، لأنه يعتمد ما ورث عن أهل السنة والجماعة بالمدينة وعن فقهاء المدينة المعروفين بما جمعوا من الأحاديث والآثار وبما لهم فيها من السند العالي، وبما عهد عندهم من العمل والإجماع المنقولين جيلاً عن جيل، وصولاً إلى المبلغ الأمين ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وإلى من حوله ممن واكبوا الوحي وعرفوا أسباب نزول القرآن وما بينه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من آياته(٢).

كما أن أهل إفريقية كانوا مقدرين للاتجاه السلفي لإمام المذهب ولأهل المدينة المتبعين للآثار المناوئين لأهل الهوى ولذوي العقائد الباطلة والنحل الزائفة، فكانوا يتبعون علماءهم المرشدين إلى الصواب المبتلين بمعارضة الخارجين عن المنهج السني السليم كما سنرى قريباً في المبحث السابع.

لقد رسخت هذه المعاني في البيئة الإفريقية، ونوه بها علماء مدرستهم مثل ابن أبي زيد في كثير من كتبه، ونظمها بعض شعرائهم في أبيات كانوا ينشدونها مثل يحيى بن خالد السهمي (٣) قاضي الإمام سحنون على بلاد الزاب، فقد نظم في مدح أهل المدينة والتعلق بعلمهم وفقههم والتحذير من ذوي الأهواء والبدع قصيدته المعبرة عن اتجاه المدرسة وتقديرها لإمامها سحنون، ونصها: (الطويل)

أيا طالب العلم ابتغاء ثوابه	سموت إلى أسمى أمور الهدى أورا
وأقربها من كل رشد ونعمة	وأكثرها نفعاً وأعظمها أجراً
ولا تطلبن العلم إن كنت طالباً	إلى غير أهل العلم سراً ولا جهراً

(١) انتصار الفقير السالك: ٢٠٠ ـ بتحقيقنا.

(٢) انظر: تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، لمحمد شرحبلي: ١١٥ وما بعدها ـ ط وزارة الأوقاف بالمغرب.

(٣) ترجمته في: الحياة الادبية.

وكل ذوي الأهواء أهل ضلالة ... وإن أظهروا برا، فخذ منهم الحذرا
وعلم الحجازيين أهل مدينة الـ ... رسول، فطالبه ولا تعده فترا
فعلمهم النور الذي يهتدى به ... وآثارهم برهانها يثلج الصدرا
مدينتهم خير المدائن طيبة ... وخير قبور العالمين بها قبرا
وعلم الحجازيين بالغرب ينتهي ... إلى خيرهم فعلا، وأطيبهم خبرا
وأقومهم طُراً لسنة أحمد ... وأعظمهم لله في دينه نصرا
وأوسعهم علما وأصدقهم تقى ... وأورعهم جهرا وأورعهم سرا
فذاك الرضى سحنون فالزمه تستفد ... به البر والتقوى وتجتنب العسرا [١]

ولنشر في نهاية هذا المبحث إلى سبب لانتشار المذهب بالشمال الإفريقي والأندلس أشار إليه العلامة ابن خلدون في قوله: «البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم، ولم يأخذهم تنقيح الحضارة وتهذيبها، كما وقع في غيره من المذاهب. ولما صار مذهب كل إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس، احتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق، وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم. وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا، وهذه الملكة هي علم الفقه في هذا العهد. وأهل المغرب جميعاً مقلدون لمالك رحمه الله»[٢].

ولم يسلم لابن خلدون بعض الباحثين ما ذهب إليه، وممن عارضه وفند رأيه الشيخ محمد أبو زهرة الذي نفى البداوة عن المدينة في العهد الأموي كما نفاها عن البيئة الإفريقية

---

(١) الحياة الأدبية للمختار العبيدي: ط دار سحنون تونس.

(٢) المقدمة: ١٠٥٤ - ١٠٥٦ تحقيق علي عبدالواحد وافي، ط دار النهضة، مصر.

المغربية[١]، وكان شيخنا أحمد بن ميلاد[٢] معارضا له أيضاً، وقد ناقش رأيه في المحاضرات التي أخذناها عنه، وكان يصوب رأي أبي زهرة ويستشهد به.

أما الأستاذ علي عبدالواحد وافي[٣]، فهو يقتنع برأي ابن خلدون، ويؤول كلامه تأويلاً يبتعد عن فهم الشيخ أبي زهرة.

---

(١) مالك حياته وعصره لأبي زهرة: ٢٦٠ - ٣٦٣ ط دار الفكر العربي.

(٢) كان - رحمه الله - من أبرز مشيخة الزيتونة، أفادنا بدروسه في العامين الجامعيين: ١٩٦٣ - ١٩٦٤ و ١٩٦٤ - ١٩٦٥.

(٣) انظر: المقدمة: ١٠٥٥ — الهامش.

المبحث الرابع: علاقة المدرسة الإفريقية بالمدارس المالكية الأخرى

لم تكن المدرسة المالكية الأولى بإفريقية منغلقة منزوية، بل كانت منفتحة على سائر المدارس المالكية تتآزر معها في خدمةالمذهب، وتمد إليها جسور التواصل، وتربط بها أمتن العلاقات العلمية وأقوى الروابط الثقافية، وقد تجلى ذلك في:

أ- أخذ طلبة إفريقية عن أعلام المدارس الأخرى.

ب- أخذ طلبة المدارس الأخرى عن أعلام إفريقية.

ج- المراسلات، والإجازات.

د- تبادل المؤلفات العلمية.

هـ- التعاون في خدمة كتاب معين.

و- الرحلات من القيروان وإليها.

أ- رأينا سالفاً أن **طلبة القيروان أخذوا عن الإمام مالك وعن بعض أصحابه بالمدينة المنورة**، وأنهم كانوا الرعيل الأول من أعلام المذهب، ومهدوا له طريق الانتشار بإفريقية والمغرب والأندلس، وهم بذلك يضعون حجر الأساس لبناء صرح العلاقات بين مدرستهم وبين المدرسة المدنية، واستمرت بعد ذلك صلة طلبة إفريقية بمشيخة المدارس المالكية الأخرى، فلنذكر بعض الآخذين عن تلك المدارس:

فممن دخل مصر وسمع من علمائها الإمام **سحنون**، كما أسلفنا. ثم دخلها **محمد بن سحنون** (ت٢٥٦هـ)، فأقبل عليه العلماء وحاوروه وسمع من بعضهم، وبمصر كتبت بعض كتبه بالذهب وأهديت إلى الخليفة(١).

ثم دخلها **عيسى بن مسكين** (ت٢٩٥هـ) ليسمع من ابن المواز وابن عبدالحكيم وغيرهما (٢).

---

(١) رياض النفوس: ١/٤٤٤ - ٤٤٥.

(٢) الديباج: ٢/٦٦ وما بعدها، شجرة النور: ٧٢ - ٧٣.

ثم رحل إليها أبو الحسن القابسي(ت٤٠٣هـ) ليسمع من كثير من علمائها وكان فقيهاً أصولياً واسع الرواية[١]. كما سمع بها أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ) من جماعة[٢].

ونذكر ممن دخل العراق وأخذ عن أعلامه: عبدالله بن غانم (ت١٩٠هـ)[٣]، وأسد ابن الفرات (-٢١٣)[٤]، وموسى بن معاوية الصمادحي (ت٢٢٥هـ)[٥]، وأحمد بن معتب (ت٢٧٧هـ)[٦] ونذكر أيضاً أبا عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ) الآخذ بالعراق عن أبي بكر الباقلاني الذي أعجبه حفظه فقال: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبدالوهاب بن نصر - (ت٤٢٢هـ) (القاضي) - لاجتمع فيها علم مالك أنت تحفظه وهو ينصره، لو رآكما مالك لسر بكما»[٧].

وأخذ من القرويين بمكة عن المحدث أبي ذر الهروي (ت٤٣٥هـ) جماعة منهم أبو عمران الفاسي، وعثمان الصفاقسي (- حوالي ٤٤٤) ومحمد بن سعدود القروي (ت٤٧١هـ)[٨].

ب- أما الوافدون على القيروان من المدارس المالكية الأخرى، فهم أكثر من أن يعدوا، فقد كان شيوخ القيروان يستقبلونهم بحفاوة، ويفسحون لهم في مجالس العلم ودروس الفقه فيكرعون من مناهلها، وأوضح مثال لذلك طلبة سحنون الأندلسيون[٩]، وطلبة أبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني الوافدين من صقلية ومن سبتة ومن فاس ومن سجلماسة ومن الأندلس ومن غيرها[١٠].

---

(١) الديباج: ٢/١٠١-١٠٢، شجرة النور: ٩٧ .

(٢) شجرة النور: ١٠٦ .

(٣) مدرسة الحديث: ١/٣٤٨ .

(٤) رياض النفوس: ٢٥٤-٢٥٥ .

(٥) المصدر نفسه: ١/٣٧٦ .

(٦) المصدر نفسه: ١/٤٧٠ .

(٧) ترتيب المدارك: ٧/٢٤٦ .

(٨) مدرسة الحديث: ١/٤٣٩ .

(٩) محاضرات ملتقى الإمام سحنون: ١٥١ .

(١٠) انظر: ترجمة عبدالله بن أبي زيد القيرواني، الكراس ٢ دائرة المعرف التونسية ١٩٩١، ص: ٧٥ وما بعدها.

لقد تخرج من المدرسة الإفريقية طبقات من طلبة المالكية الذين استهواهم الإشعاع الفقهي القيرواني فشدوا الرحال للقاء أعلامها واستفادوا ثم أفادوا، وامتد ذلك طيلة فترة سيادة القيروان.

ج- وكانت **المراسلات بين رجال هذه المدرسة ورجال المدارس المالكية الأخرى** تمثل إحدى وسائل الاتصال الداعمة للعلاقات الودية والعلمية، والأمثلة كثيرة نقتصر منها على رسائل ابن أبي زيد التي كان يوجهها إلى ابن شعبان بمصر(١)، وإلى أهل سجلماسة في شأن تلاوة القرآن(٢).

وأما الإجازات فقد مثلت وسيلة أخرى للاتصال بين أعلام هذه المدرسة الإفريقية وبين أعلام سائر المدارس الأخرى، ربطتهم ببعضهم إجازات الحديث وإجازات الكتب الفقهية فالتحق بعضهم بأسانيد البعض الآخر تناقلوا المؤلفات بأسانيدها إلى مؤلفيها، وكثيراً ما تكون أسانيد عالية(٣).

فأهل الأندلس كانوا يتناقلون المدونة ويتداولونها بأسانيدها إلى صاحبها الإمام سحنون القيرواني(٤)، وأبو محمد ابن أبي زيد القيرواني يحصل على الإجازة من محمد بن القاسم بن شعبان المصري (ت٣٥٥هـ)، ومن إبراهيم المروزي نزيل مصر، ومن أبي بكر محمد الأبهري البغدادي (ت٣٧٥هـ)(٥٦)، ويجيز بدوره أبا عبدالله محمد بن مجاهد نزيل بغداد وأصحابه بعد أن استجازوه بعض مصنفاته(٦).

وفي فهرست ابن خير الإشبيلي ذكر لطائفة من كتب المدرسة الإفريقية أجيز بها بعض الأندلسيين، ووصلتهم بإسنادها إلى مؤلفيها من أعلام هذه المدرسة(٧).

---

(١) ابن شعبان هو أبو إسحاق محمد بن القاسم بن القرطي (ت٣٥٥هـ). انظر: ترتيب المدارك: ٥/ ٢٧٥.

(٢) ذكره عياض في (المدارك: ٦/)، وابن فرحون في (الديباج: ١/ ٤٢٩)

(٣) انظر: مثلا أسانيد ابن أبي زيد القيرواني التي ذكرها في مقدمة النوادر: ك ١٢ – ١٥.

(٤) انظر مثلا: فهرس ابن عيطة بتحقيقنا: ٧٢، ٩٢، ١١٣، ١٢٥، ١٣٨ – ط ٢، دار الغرب الإسلامي.

(٥) شجرة النور: ٩٦.

(٦) ترتيب المدارك: ٦/ ١٩٨، وانظر: مدرسة الحديث: ١/ ٤٣١.

(٧) انظر مثلا: في فهرس ان خير: ٢٤٠ – ٢٤١، ٢٤٦ – ٢٤٧.

د- وكان من المألوف تبادل المؤلفات العلمية بين المدرسة الإفريقية وبين سائر مدارس المذهب المالكي، وكثيراً ما يُرسَلُ المُصَنَّفُ من مدرسة إلى أخرى بمجرد أن ينتهي تأليفه، وكثيراً ما يطلب بعد بلوغ خبره قبل أن ينتهي صاحبه من تنقيحه ومقابلة نسخه[١].

وذلك يدل على مدى الحرص على مواكبة حركة التصنيف والتدوين وعلى الاستفادة من نتاج كبار العلماء، وهذا ما يزيد سوق الكتب نفاقاً ورواجاً، ومما يؤكد أن الحواجز لم تقم إزاء انتقال الكتاب الفقهي من مركز إلى آخر، وأحكام الفقه إذ ذاك لها السيادة في المجتمعات الإسلامية التي تشتد حاجة أهلها لمعرفتها وتطبيقها في كل مجالات حياتهم.

وما سنذكر من نماذج لتبادل الكتب الفقهية، يعطي صورة تمثل القليل من الكثير المعهود:

- وصل كتاب أسد بن الفرات المعروف بـ«الأسدية» العراق، فقرأها الأبهري خمساً وسبعين مرة[٢].

ومن العراق وصل إلى القيروان كتاب «المبسوط» للقاضي إسماعيل بن إسحاق فكان ابن أبي زيد ينقل منه في كتابه «النوادر والزيادات»[٣].

ومن المركز المصري وصل إلى القيروان كتاب محمد بن المواز «الموازية» فكان أبو الحسن القابسي يرجحه على سائر الأمهات[٤].

أما رسالة ابن أبي زيد فقد عرفت رواجاً وانتشاراً في سائر المراكز لا نظير له، بدأ انتشارها منذ انتهاء مالك الصغير من تأليفها؛ حيث كتب منها نسختين، بعث إحداهما إلى أبي بكر الأبهري إمام المالكية بالعراق فأظهر الفرح بها وأشاع خبرها بين الناس وأثنى عليها وعلى مؤلفها، وبعث الثانية إلى قاضي الجماعة بالأندلس أبي بكر بن زرب[٥].

(١) من ذلك مثلا رسالة ابن مجاهد لابن أبي زيد يطلب بعض مؤلفاته ورسالة ابن أبي زيد الرد - وهما ضمن مجموعة رسائل لابن أبي زيد أقوم بتحقيقها.

(٢) المدارك: ٦/١٨٦ .

(٣) دراسات في مصادر الفقه المالكي لمكلوش موراني: ١٩١ - ١٩٢ .

(٤) المدارك: ٤/١٦٩ .

(٥) انظر: معالم الإيمان: ٣/١١٢ . ابن زرب هو محمد بن بقي القرطبي قاضي الجماعة بها، كان إماماً حافظاً مفتياً، ولي القضاء سنة ٣٦٧، توفي وهو يتولاه سنة ٣٨١هـ (الشجرة: ١/١٠٠).

كما أرسل ابن أبي زيد إلى بغداد كتابه «مختصر المدونة» و«النوادر» لابن مجاهد وبعض أصحابه(١).

وهذان الكتابان وصلا إلى المغرب، فأصبح المعول عليهما هناك في التفقه(٢).

هـ- وكما **اهتم رجال مدارس المالكية بتبادل المصنفات**، فقد رأينا لعلمائهم جهوداً علمية تنصب على بعض الكتب الفقهية لخدمتها شرحا وإثراء وتهذيبا واختصاراً وتعقباً وبيانا».

ويصور ذلك مظهراً آخر لعلاقة المدرسة الإفريقية بالمدارس المالكية الأخري، ونذكر من هذا المظهر النماذج التالية:

- **المدونة السحنونية** التي رأينا تظافر جهود المدارس القيروانية والمصرية والمدنية في إبرازها.

ثم تواصلت عناية رجال مدارس: القيروان والمغرب والأندلس في خدمتها اختصاراً وتهذيباً وشرحاً. (٣)

- **الرسالة الفقهية القيروانية لابن أبي زيد** التي كان من أوائل المهتمين بها المثمرين لمتنها: الأبهري الذي ألف في دعمها بالدليل كتابه «**مسلك الجلالة في مسند الرسالة**»،(٤) والقاضي عبدالوهاب البغدادي (٥) الذي شرحها داعماً مسائلها بالدليل

(١) المدارك: ٦/١٩٧- ١٩٨، ونظر: الدولة الصنهاجية لهادي روجي إدريس: ١/ ١٣٧.

(٢) المدارك: ٦/ ٢١٧.

(٣) انظر: كتاب (ابن رشد وكتابه المقدمات) للمختار التليلي، فيه فصل عن الأعمال العلمية التي تناولت المدونة - ط الدار العربية للكتاب، تونس.

(٤) حاشية الأبهوري على الرسالة: ١/ ١٠، ظهر، مخطوط دار الكتب كالوطنية بتونس ١٤٨٧

(٥) نظم القاضي عبدالوهاب في مدح الرسالة الأبيات التالية: (الطويل)

رسالة علم صاغها العلم النهد ... قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد

أصول أضاءت بالهدى فكأنما ... بدا لعيون الناظرين بها الرشد

وفي صدرها علم الديانة واضح ... وآداب خير الخلق ليس لها ند

لقد أم بانيها السداد فذكره ... بها خالد ما جح واعتمر الوفد. (معالم الإيمان: ٣/ ١١٢)

محاوراً علماء المذاهب التشريعية الأخرى مرجحاً لمذهبه المالكي(١).

كما شرحها أبو بكر القبري الأندلسي تلميذ مؤلفها عبدالله بن أبي زيد(٢).

ومختصر المدونة لابن أبي زيد شرحه القاضي عبدالوهاب، وسمى شرحه «الممهد في شرح مختصر أبي محمد»(٣).

و- ثم إن الهمة العلمية الحافزة إلى توطيد العلاقات بين المدرسة الإفريقية وبين سائر مدارس المذهب **قد كانت الباعث لتكثيف الرحلات من القيروان إلى سائر مراكز المذهب**، خاصة إلى مصر والمدينة والعراق، ومن المراكز المالكية المعروفة في ذلك العهد إلى القيروان التي ينتصب أعلامها للتدريس والفتوى والإجازة خدمة لمذهب إمام دار الهجرة المنتشر في ربوعهم.

وللرحلة العلمية أهميتها في تكوين ملكة صاحبها، يقول ابن خلدون:

«الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها»(٤).

ويغنينا ما قدمنا في الفقرتين (أ، ب) عن مزيد التمثيل لحركة رحلات الطلبة والعلماء عبر المدارس المالكية.

---

(١) دراسة هذا الشرح موضوع بحث جامعي نال به أخونا حمزة أبو فارس درجة الدكتوراه من جامعة الزيتونة بتونس.

(٢) الشجرة: ١١١.

وأبو بكر القبري هو محمد بن موهب التميمي القرطبي أخذ عن شيوخ قرطبة. ثم رحل إلى القيروان فاختص فيها بابن أبي زيد وأخذ عن القابسي. (ت٤٠٦هـ). (الصلة: ٢/٤٩٧).

(٣) من هذا الشرح قطعة مخطوطة تشمل الجزء الخامس منه بالمكتبة الأزهرية برقم ٣٧١/٣٠١٠مغاربة، منها مصورة بمركز البحوث في جامعة أم القرى تحت رقم ٤٨ .

(٤) المقدمة: ٥٤١ ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

والملاحظ أن الباحث الدكتور يوسف حوالة قد أجاد في حديثه عن الرحلات العلمية التي قام بها علماء إفريقية وطلبتها في الفترة التي تناولها بحثه وهي تتطابق مع فترة بحثنا هذا[١].

(١) انظر: الحياة العلمية في إفريقية: ١/١١٢ - ١٤٢.

المبحث الخامس: جهود علماء المدرسة في مناصرة المذهب

أسلفنا أن الخلاف الفقهي مشروع وقد آتى أطيب الثمار، وقد نشأت عن ذلك مناصرة الأتباع لمذاهبهم، لدعمها وتعليم أحكامها وإثرائها بالكتب في مستويات مختلفة، لينتفع المقلدون للمذهب. ولم يخل مذهب من مناصرين مؤيدين ذابين عنه، وإن تفاوتت جهودهم في أهميتها. ويرجع الفضل في استمرار المذاهب - في كثير من الأحيان - إلى جهود مجتهديها في القيام بها.

وإذا قام بالمناصرة حاكم أو أمير، فهي مناصرة سلطانية يكون لها أثر في تركيز المذهب في منطقة حكمه بين رعيته، كما حصل للمذهب المالكي في المدرسة الأندلسية(١).

أما إذا قام بها العلماء فهي مناصرة علمية، لها الأثر الإيجابي في خدمة المذهب(٢).

والمناصرة التي عرفتها المدرسة الإفريقية في عهد سيادة القيروان كانت علمية، وكانت جهود رجال المدرسة في إنجازها متفاوتة؛ ومن برز فيها هفت إليه نفوس طلبة المذهب، وشدوا الرحال إليه، يدل على ذلك ما ساقه ابن فرحون في ترجمة أبي محمد عبدالله بن إسحاق بن التبان (ت٣٧١هـ) حيث يقول: «كان من العلماء الراسخين والفقهاء المبرزين، ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذب عن مذهب أهل الحجاز ومصر ومذهب مالك»(٣).

(وتكون هذه المناصرة بالتأليف في مناقب مؤسس المذهب، والترجمة له ولأعلام المذهب وطبقات رجاله. وأشهر من قام بذلك من رجال مدرستنا):

---

(١) ناصر الأمير الأموي هشام بن عبدالرحمن المذهب المالكي بالأندلس، فحمل أهلها على التزام المذهب وصير القضاء والفتيا جاريين على أحكامه في عشرة السبعين ومائة، كما ناصر المذهب المستنصر بالله بالأندلس. المدارك: ١/٢٢، ٢٧.

(٢) انظر: مقدمتنا لتحقيق كتاب «انتصار الفقير السالك»: ٧٧ وما بعدها

وبحثنا «مناصرة المذهب وأثرها العلمي» في مجلة جامعة الزيتونة ع ١ س ١ عام ١٩٩٢ .

(٣) الديباج: ١/٤٣١ .

أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم (ت٣٣٣هـ) المؤرخ المحدث[١] صاحب التصانيف في الطبقات والتاريخ. ومن مؤلفاته التي ترجم فيها لرجال المدرسة الإفريقية المالكية: «طبقات رجال إفريقية»، «عباد إفريقية»، «طبقات علماء إفريقية» (مطبوع متداول)، «مناقب سحنون»، «كتاب المحن»[٢]، يختص بمن استهدفوا لمحنة من العلماء والصالحين، كتاب التاريخ»، «فضائل مالك»، وقد كان أبو العرب ثقة صالحاً عالماً بالرجال[٣].

أبو بكر محمد بن اللباد (-٣٣٣) القيرواني، له كتاب «فضائل مالك»[٤].

أبو علي الحسن بن أبي سعيد المعروف بـ«ابن الوكيل» القيرواني ت٣٤٦هـ)، له كتاب «المعرب عن أخبار إفريقية والمغرب»[٥].

أبو عبدالله محمد بن حارث الخشني القيرواني ثم القرطبي (ت٣٦١هـ)، من مصنفاته التاريخية: «تاريخ الإفريقيين»، «طبقات علماء إفريقية»[٦] (مطبوع).

أبو جعفر أحمد بن الجزار (ت٣٦٢هـ)، الطبيب القيرواني الشهير، من كتبه: «مغازي إفريقية»، «تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب»، «التعريف بصحيح التاريخ»[٧].

ابراهيم بن الرقيق (حي سنة ٤١٧)، له: «تاريخ إفريقية والمغرب»[٨].

أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت٤٢٢هـ)، له: «الطبقات»، «كتاب الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وما يتعلق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار».

أبو عبدالله الحسين الأجدابي(-٤٣٢)، له كتب في مناقب بعض علماء إفريقية[٩].

---

(١) رياض النفوس، مقدمة التحقيق: ١/١٤م.

(٢) نشرته دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٨٣م بتحقيق يحيى وهيب الجبوري.

(٣) ترتيب المدارك: ٥/٣٢٣.

(٤) الديباج: ٢/١٩٦.

(٥) رياض النفوس – المقدمة ١/١٤م.

(٦) المصدر نفسه: ١/١٥.

(٧) المصدر نفسه: ١/١٥.

(٨) المصدر نفسه: ١/١٦.

(٩) المصدر نفسه: ١/١٦.

أبو بكر عبدالله المالكي (ت٤٣٨هـ)، صاحب «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية»، وله كتاب في مناقب القابسي، وآخر في مناقب محرز بن خلف(١).

ولئن لم تصلنا جميع مؤلفاتهم، فإن المؤرخين بعدهم كثيراً ما ينقلون من كتبهم التي أصبحت في عداد المفقود وفيها إفادات مهمة تثري كتب التراجم والتاريخ الموجودة اليوم.

وتكون المناصرة بخدمة فقه المدرسة والتأليف فيه، وهذا ما انصبت فيه عناية المصنفين في هذه الفترة لمدرستنا الإفريقية، حتى كثرت وتعددت، كما نرى في كتب برامج الشيوخ وتراجم الرجال، وما اخترت أن أمثل به من مصنفات الفقه سأشير إلى النوع الذي ينتمي إليه حتى نرى أنواع التآليف التي انصرفت العناية إليها، أو التي كانت باكورة التأليف في نوعها.

فمن نوع الأسمعة التي دونت بها أجوبة مالك، وهي المؤلفة في عصر إمام المذهب، نذكر: سماع القاضي أبي محرز محمد الكناني القيرواني (ت٢١٤هـ)(٢)، وسماع محمد بن معاوية الطرابلسي(٣)، وأسدية أسد بن الفرات (ت٢١٣هـ)(٤).

ومن نوع الكتب الموسوعة التي تناولت أبواب الفقه كلها فكانت موضوعاتها عامة، نذكر: «المدونة السحنونية»، و«النوادر والزيادات» لابن أبي زيد.

ومن النوع الذي اختصرت فيه كتب أخرى أوهذبت كتباً سابقة، نذكر: «تهذيب البراذعي» للمدونة(٥)، و«اختصار المستخرجة» ليحيى بن عمر الموسوم بـ«المنتخبة»(٦).

ومن نوع الشروح والتعاليق، نذكر: شروح وتعاليق أبي إسحاق التونسي (ت٤٤٣هـ) على الموازية، وصفها عياض بأنها حسنة متنافس فيها(٧).

(١) المصدر نفسه: ١/١٧-١٨.

(٢) الديباج: ٥/٣٢٥.

(٣) ترتيب المدارك: ١/٣٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٢٩٧.

(٥) نشرت منه الجزء الأول دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي بتحقيق محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ ومراجعة د. أحمد الأزرق سنة ١٤٢٠هـ، ووعدت الدار بنشر أجزائه الباقية تباعاً.

(٦) شجر النور: ٧٣.

(٧) ترتيب المدارك: ٨/٥٨.

ومن كتب الاستدلال ومناقشة المخالف: كتاب «الحجة في الرد على الإمام الشافعي»[١] ليحيى بن عمر الكناني (ت٢٨٩هـ)، وكتاب «الذب عن مذهب الإمام مالك» لعبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ).

ومن استدل ووجه أحكام المذهب: الإمام أبو بكر محمد بن عبدالله بن يونس الصقلي[٢] في كتابه «الجامع لمسائل المدونة»، وشرحها، وذكر نظائرها وأمثالها[٣]، وقد سماه ابن سراج الغرناطي بـ«مصحف المذهب» لأهميته.

ومن صنف الخلاف داخل المذهب، نشير إلى: كتاب ابن حارث الخشني الموسوم بـ«الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك»[٤].

ومن المتون الدراسية التي يحفظها الطلبة ويستظهرونها: «الرسالة الفقهية» لابن أبي زيد، وقد كتب لها الرواج والانتشار ونالت واسع الاهتمام بشرحها[٥].

ومن التأليف في فن الفرائض: كتاب لأبي الحسن علي بن محمد بن المنمر الطرابلسي (ت٤٣٢هـ)[٦].

ومن التأليف في مناسك الحج: كتاب لابن أبي زيد القيرواني[٧]، وآخر لأبي الحسن القابسي[٨].

ومن المجالات التي كان لهذه المدرسة بادرة التمهيد للتأليف فيها نذكر:

---

(١) انظر بحثنا عن هذا الكتاب ومؤلفه الموسوم بـ«يحيى بن عمر من خلال كتابه المخطوط: الحجة ف الرد على الإمام الشافعي»، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد: ٢٩، ج ٢ عام ١٩٨٥.

(٢) ولد بصقلية وسكن المهدية وبها توفي سنة ٤٥١هـ، ودفن بالمنستير. ترجمته في كتاب العمر: ١/٦٧٦، الفكر السامي: ٢/٢١٠، شجرة النور: ١١١.

(٣) حققته ثلة من طلبة جامعة أم القرى لنيل الدكتوراه ويجري طبعه في دار البحوث بدبي.

(٤) رأيت منه قطعة ذات ست عشرة لوحة من باب الإجارة، عليها تمليك لآل أبي رأس بالقيروان، تحتفظ بها مكتبة القيروان التي آلت إلى متحف الحضارة الإسلامية برقادة من أحواز القيروان.

(٥) اصطلاح المذهب: ٢٤٣، مقدمتنا لتحقيق «الرسالة الفقهية».

(٦) شجرة النور: ١١٠.

(٧) اصطلاح المذهب: ٢٤٠، مقدمتنا لتحقيق كتاكب «الجامع» لابن أبي زيد: ٤٧.

(٨) اصطلاح المذهب: ٢٦٩.

النوازل والفتاوى: وقد ظهر منها كتاب «الأجوبة» لابن سحنون[١]، وكتاب آخر لابن التبان[٢].

الحسبة: وقد ألف فيها يحيى بن عمر كتابه «أحكام السوق»[٣].

الضوابط والنظائر والفروق الفقهية: ألف فيها أبو عمران الفاسي كتاب النظائر[٤]، وأبو عبدالله محمد بن حارث الخشني (ت٣٦١هـ) كتابه «أصول الفتيا»[٥]، وأبو محمد عبدالحق الصقلي (ت٤٦٦هـ) كتابه «النكت والفروق» لمسائل المدونة[٦].

آداب العلم وأحكام التعليم: وقد ألف فيها ابن أبي زيد[٧]، والقابسي وابن سحنون[٨]، ولعل النصيب الأوفر من تآليف فقهاء هذه المدرسة كان يدور حول المدونة للإمام سحنون، وهذا ما تواصل حتى بعد سقوط سيادة القيروان بمدرسة إفريقية وبالمدرسة المغربية والأندلسية.

والملاحظ أن المذهب المالكي في عهد سيادة القيروان عرفت فيه مجموعة من الكتب، عرفت بالأمهات، ومجموعة عرفت بالدواوين أسهم في تصنيفها أعلام المدارس كلها.

فلنذكر منها ما كان من تصنيف رجال مدرستنا إبرازاً **لدورهم في وضع لبنات الأمهات والدواوين.**

فالأمهات أربعة: يأتي في مقدمتها «المدونة» للإمام سحنون[٩].

(١) طبعته دار سحنون بتونس بتحقيق حامد العلويني سنة ٢٠٠٠.

(٢) تراجم المؤلفين التونسيين: ١/٢٠٤.

(٣) نشرته بتونس الشركة التونسية للتوزيع بتحقيق فرحات الدشراوي.

(٤) منه نسخة بدار الكتب الوطنية تونس.

(٥) انظر مقدمتنا لتحقيقه.

(٦) حقق قسم العبادات منه: الأخ أحمد الحبيب، فنال درجة الدكتوراه من كلية الشريعة، جامعة أم القرى، وحقق بقيته ثلاثة من طلبة الجامعة نفسها، فنالوا بذلك درجة الماجستير.

(٧) انظر مصطلح المذهب: ٤٢ والهامش ٢.

(٨) كتاب القابسي وكتاب ابن سحنون مطبوعات.

(٩) ثانيتها: «الموازية» لابن المواز المصري، وثالثتها: «العتيبة» للعتبي الأندلسي، ورابعتها: «الواضحة» لابن حبيب الأندلسي. وانظر أطروحة المذهب المالكي لمامي: ٤٢٥.

والدواوين: حسب المصطلح المالكي ـ تشمل الأمهات بإضافة «المبسوطة» للقاضي إسماعيل، و«المجموعة» لأبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن عبدوس القيرواني (ت٢٦٠هـ)(١).

وبذلك يكون في الدواوين الستة كتابان قيروانيان يمثلان الإسهام الإفريقي في هذه المجموعة التي كان عليها المعول في المذهب.

ومع ما قدمنا من تحديد لمصطلحي الأمهات والدواوين، فإن بعض المالكية وسعوا دلالة الأمهات فشملت الدواوين وغيرها عندهم، فابن أبي زيد سمى كتابه «النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات» وعندما ذكر هذه الأمهات التي استفاد منها زياداته ذكر منها كتب محمد بن سحنون (ت٢٥٦هـ)(٢)، وبهذا تكون كتب ابن سحنون القيرواني من دواوين المذهب وأمهاته.

ومما يتصل بالمناصرة العلمية للمذهب ما كان يشهده الفضاء الثقافي لهذه المدرسة من الدروس التي يلقيها شيوخ المذهب، والمناظرات التي يخوضون مجالاتها.

ومن أهم مواطن التدريس: جامع عقبة بن نافع بالقيروان، حيث كانت تنعقد فيه حلقات العلم ويؤمها الطلبة من مختلف طبقات المجتمع، وكذلك جامع الزيتونة بتونس، وقد مثلا جامعتين علميتين لهذه المدرسة المالكية.

كما كانت الدروس تلقى ببعض المساجد في المدن، فلم يقتصر دور المسجد على العبادة بل كان منارة إشعاع علمي، وكانت بعض المساجد تحمل أسماء الشيوخ الذين يدرسون بها وقد أدركت منها مسجد أبي إسحاق التونسي بدربنا في القيروان.

كما شهدت بيوت بعض العلماء انعقاد مجالس العلم ورواية الحديث، ومن العلماء الذين شهدت بيوتهم هذه المجالس: بيت الإمام سحنون (ت٢٤٠هـ)، وبيت محمد بن يحيى بن سلام (ت٢٦٢هـ).

---

(١) انظر: اصطلاح المذهب: ١٤٣ – ١٥٤، والمذهب المالكي لمامي: ٤٢٥ .

(٢) انظر: النوادر والزيادات: ١/ ١٠-١١ .

وبما أن العلماء وطلبتهم كانوا يقضون أوقاتاً في الرباط والحراسة والمثاغرة في سبيل الله، فقد كانوا يدرسون فنون العلم ويتذاكرون في قصور الرباط المنتشرة بالسواحل، وأهمها قصر المنستير.

وكانت الكتاتيب موطن تعليم للمبتدئين وتلقينهم القرآن الكريم[١].

اما المناظرات: فيثار فيها اجتهاد جماعي في قضية ما، أو مذاكرة في بعض الأحكام، أو مناظرة في بعض المسائل الخلافية، وكثيراً ما تعقد في المجالس الأميرية[٢]، ومما أثير في مجالس زيادة الله بن الأغلب (٢٠١ - ٢٢٣هـ) مسألة عقاب الزنديق، وقد تذاكر فيها أسد وأبو محرز وزكريا بن محمد ونفذ الأمير ما رأوه[٣]، وكذلك مسألة النبيذ المسكر، تناظر فيها أسد وأبو محرز، وكان الأول يذهب إلى تحريمه، بينما يذهب الثاني إلى تحليله وهو حنفي المذهب.

وكان الأمير محمد بن الأغلب (٢٢٦ - ٢٤٢هـ) عندما يحضر العلماء مجلسه يقدم عليهم عون بن يوسف الخزاعي (ت٢٣٩هـ) الفقيه المحدث لسنه وجلالته.

وقد تجري المناظرة مع العلماء الوافدين إلى القيروان مثل أبي عبدالله محمد بن العطار الأندلسي (ت٣٩٩هـ) الذي ناظر بالقيروان وذاكر عبدالله بن أبي زيد القيرواني[٤].

---

(١) ورقات لحسن حسني عبدالوهاب.

(٢) انظر عن مناظرات مجلس إبراهيم الثاني الأغلبي كتاب: إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي للممدوح حسين: ٧٣ - ط دار عمار.

(٣) رياض النفوس: ١/٢٧٦.

(٤) شجرة النور: ١٠١.

المبحث السادس : مشاهير فقهاء المدرسة

أنجبت المدرسة كثيراً من الفقهاء الذين هيأت لهم البيئة الثقافية أن يكتسبوا فنون الشريعة وينمو ملكاتهم، وأتاحت لبعضهم أن يملكوا أدوات الاجتهاد في المذهب وأن يقوموا باستنباط الأحكام وبالاختيار والترجيح، وقد سلف – في هذا البحث – التنويه ببعضهم وذكر مناقبهم ومؤلفاتهم.

ويحسن بنا ذكر آخرين دون أن نستوعب الجميع إذ لا يسمح المقام بذلك، وإن كررت أحد السالفين فلميزة أخرى فيه لم تسبق.

ولنبدأ بمن يشملهم أحد **المصطلحات المذهبية**:

مصطلح «**المغاربة**»؛ يعنون به علماء من الغرب الإسلامي من بينهم فقهاء المدرسة الإفريقية: ابن أبي زيد، والقابسي، وابن اللباد، وأبو الحسن اللخمي وأضرابهم(١).

مصطلح «**المتقدمون**»؛ يعنون بهم من قبل ابن أبي زيد، وفيهم سحنون وابن اللباد ونظائرهما.

مصطلح «**المتأخرون**»؛ يعنون بهم ابن أبي زيد ومن بعده.

مصطلح «**الصقليان**»؛ يشمل ابن يونس، وعبدالحق الصقلي.

مصطلح «**المحمدان**»؛ يرمز إلى ابن المواز، وابن سحنون لقيرواني.

مصطلح «**الشيخ**»؛ يدل على أبي محمد عبدالله بن أبي زيد .

مصطلح «**الشيخان**»؛ المراد بهما فقيهان قيروانيان: ابن أبي زيد، والقايسي(٢).

ومن مصطلحهم عند اختلاف المدارس في مسالة فالذي عليه المتأخرون تقديم ما شهره

(١) المدرسة المالكية لمامي: ٤١٨ .

(٢) المدرسة المالكية :٤٢١ – ٤٢٢ .

قد سبق أن «الشيخان»؛ يراد بهما أيضاً ابن أبي زيد والابهري.

المغاربة والمصريون على ما شهره العراقيون، وتقديم المصريين على المغاربة، قال النابغة الغلاوي:

ورجحوا ما شهر المغاربة والشمس بالمغرب ليست غاربة[١].

ولنذكر **بعض أعلام هذه المدرسة**، ولنجعل الاختيار مبنياً على بعض ميزات العالم التي اشتهر بها:

العلم بمسائل الخلاف، اشتهر به محمد بن عبدوس (–٢٦٠)[٢]، محمد بن حارث الخشني (–٣٦١)، وأبو بكر بن اللباد (–٣٣٣)، وابن أخي هشام (–٣٧١)[٣].

كثرة الكتب في الفقه والآثار والتفنن في الحديث والفقه؛ اشتهر بذلك القاضي عيسى بن مسكين (–٢٩٥)[٤].

تنشيط الدراسات الفقهية؛ لئن أسهم فيها جل رجال هذه المدرسة فإن الباحث يوسف حوالة يسمى من القائمين بها: أبا جعفر أحمد بن داود المعروف بـ«الصواف» (ت٢٩١هـ)، وأبا سهل فرات العبدي (–٢٩٢)[٥].

المعرفة بعلم التوثيق والشروط؛ اشتهر به أبو الفضل العباس المسمى (ت٣٣٣هـ) مع تفوقه في الجدل[٦].

التضلع في التفسير والحديث؛ اشتهر به ربيع القطان (–٣٤٤)[٧].

حفظ المدونة؛ اشتهر به أبو بكر ابن عبدالرحمن (ت٤٣٢هـ) وكان يقول: «لو عدمت المدونة لكتبتها من صدري»، وقال عنه تلميذه السيوري: «ما رأيت أبا بكر بن

(١) كذا في المصدر المذكور: ٨٣، أما في نظم بو طليحيّة بكتاب اصطلاح المذهب: ٦٢٣، فالعجز كما يلي: والشمس بالمشرق ليست غاربة.

(٢) ترتيب المدارك: ٣/١٠٨.

(٣) انظر: الدولة الصنهاجية لهادي روجي إدريس: ١/٣٣١.

(٤) طبقات أبي العرب: ١٤٢ – ١٤٣.

(٥) الحياة العلمية في إفريقية ليوسف حوالة: ١/٣٤١.

(٦) الدولة الصنهاجية: ١/٣٣٠.

(٧) المصدر نفسه: ١/٣٣٠.

عبدالرحمن أخطأ في مسألة واحدة من المدونة)[١].

وكذلك اشتهر بحفظها أبو القاسم بن خلف القيرواني (ت٤٥٠هـ)[٢].

هذا وقد حلى القاضي عياض أبا القاسم عبدالخالق السيوري (ت٤٦١هـ) بقوله: «خاتمة علماء إفريقية وآخر شيوخ القيروان ذوي الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب» له تعليق على المدونة، قال ابن ناجي: «إن الواردين لقراءة العلم بالقيروان من محبتهم في المدونة أكثروا في ثمنها، فاشتروا بالقيروان منها حتى عدمت منها، فأتوا إلى الشيخ أبي القاسم السيوري وعرفوه، فأملاها عليهم من رأسه، ثم وجدت نسخة بالقيروان فقابلوا ما أملى عليهم الشيخ بها فوجدتا سواء»[٣].

وبالنسبة للعالمات من نساء إفريقية أسعفت كتب التراجم بمعرفة:

أسماء بنت أسد بن الفرات (ت٢٥٠هـ) التي اشتهرت بالفقه والحديث.

وخديجة بنت سحنون بن سعيد التي اشتهرت بالفقه المالكي[٤].

هذا وقد ذاعت شهرة بعض أعلام هذه المدرسة خارج حدود إفريقية وكانت تصلهم رسائل الاستفتاء في المسائل الفقهية، ويحتفظ كتاب النوازل الكبرى لابن سهل الأندلسي (ت٤٧٦هـ) ببعض تلك الرسائل إلى أبي عمران الفاسي، وأبي بكر بن عبدالرحمن القيروانيين وإجابتهما في مسألة تتعلق بمرجع الحبس[٥].

وقد نقل إجابتهما الإمام البرزلي في نوازله، ثم علق ذاكراً أنه يمكن أن يكون السبب في استفتائهما «أن فقهاء القيروان أكثر فقهاً من فقهاء قرطبة فأراد (المستفتي) مزيد علم

(١) الحياة العلمية في إفريقية: ١/٣٧٤-٣٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ١/٣٧٥، الحياة العلمية في إفريقية في عهد بني زيري للطيفة البسام: ٣٨.

(٣) معالم الإيمان: ٣/١٨١، وعنه ينقل يوسف حوالة في الحياة العلمية في إفريقية: ١/٣٧٦.

(٤) انظر: الحياة العلمية في إفريقية ليوسف حوالة: ١/٣٤٢-٣٤٣، وإفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي، لممدوح حسين: ٧٥-٧٦ ط دار عمار، عمان، الأردن ١٩٩٧م.

(٥) انظر: الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بـ«الأحكام الكبري» لأبي الأصبغ عيسى بن سهل: ٢/٦٦٩-٦٧١، تحقيق نورة التويجري، ط ١ سنة ١٩٩٥م.

فيها منهم، وكان أصحاب ابن أبي زيد والقابسي وابن شبلون وابن أخي هشام وغيرهم من فحول علماء الأمة بالقيروان متوافرين، وهي المشهورة بالفقه قديماً وحادثا إلى أن أضر بها العرب، وحق لها أن تأتي الفتاوى إليها حينئذ)[١].

ويبدو أن رجاحة العقل ظهرت مبكرة فاتسم بها الرعيل الأول من أعلام هذه المدرسة، ولاحظها إمام المذهب فقال لتلميذه القيرواني أبي محمد عبدالله بن أبي حسان اليحصبي: (أهل الذكاء والذهن والعقول من أهل الأمصار ثلاثة: المدينة ثم الكوفة، ثم القيروان)[٢].

شهد إمام المذهب بهذه الصفات التي بدت له لدى طلبته القيروانيين وهي صفات ضرورية للتفقه والاجتهاد، وتؤكد تراجم أعلام هذه المدرسة أنها استمرت فيهم يتوارثونها على تفاوت بينهم عبر العصور.

---

(١) فتاوى البرزلي: ١/ ٣٤٩.

(٢) رياض النفوس: ١/ ٢٨٦ .

وفيه قال ابن وهب: ما رأيت مالكا أميل منه إلى أحد كميله إلى ابن أبي حسان، وكان ابن حسان مفوهاً حاضر الحجة، قوياً على المناظرة، ذاباً عن السنة قليل الهيبة للملوك في حق يقوله.

المبحث السابع : المحن والمقاومة

رأينا في المبحث الخامس جهود علماء المدرسة الإفريقية في المناصرة العلمية لمذهبهم الفقهي، وذبهم عنه، ودعمهم له بالحجج وبالمصنفات وبالتعليم والتدريس، حتى ساد المنطقة، وسرت جذوره في أعماق تربة ثقافتها.

ونشير في هذا المبحث إلى نوع آخر من المناصرة قام بها علماء هذه المدرسة، وذلك عندما واجهتهم موجات تعصب مذهبي في العهد الأغلبي (١٨٤ - ٢٩٦هـ) ثم في العهد العبيدي (٢٩٧ - ٣٦٢هـ).

وفي العهد الأغلبي دار الصراع بين الحنفية والمالكية، وتحول (من خلاف فقهي بين مذهبين سنيين إلى خلاف في [بعض] الأصول والعقائد والمبادئ)(١). وكان الأحناف مقتربين إلى الأمراء الأغالبة مستغلين نفوذهم لديهم لاضطهاد المالكية، وكان اتجاه العامة نحو علمائهم المالكية، فكانوا يسعدون بولاية قاض مالكي، فكانت المالكية أقرب إلى الشعب، وأحظى بثقة الناس وجعل الأمراء الأغالبة منصب القضاء متداولاً بين رجال المذهبين، فإذا تولاه مالكي ناصر الاتجاه السني وشرد أهل البدع، وأصلح ما أفسد القاضي الحنفي قبله(٢).

وممن امتحن في هذا العهد الأغلبي الإمام سحنون وابنه محمد(٣).

وما أن استولى العبيديون على الحكم بإفريقية سنة (٢٩٧هـ) وبنوا دولتهم على أنقاض دولة الأغالبة التي أفل نجمها وانطوى بساط حكمها حتى اندلع صراع شديد بين علماء السنة، وهم أعلام مدرستنا المالكية الإفريقية موضوع بحثنا، وبين رجال السلطة للدولة العبيدية التي ناوأت السنيين العداء واضطهدت علماءهم بألوان من التنكيل والتضييق وحاولت قطع دراساتهم الفقهية المالكية. يذكر المؤرخ حسن حسني عبدالوهاب

---

(١) انظر: تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي لمحمد شرحبيلي: ١٠٩ - ط وزارة الأوقاف بالمغرب ١٤٢١ . وانظر: :إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلى لممدوح حسين: ٧١

(٢) تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي: ١٠٥ وما بعدها.

(٣) انظر: ترتيب المدارك: ٣/٦٩ وما بعدها. واقرأ كتاب المحن لأبي العرب.

أن الفاطميين أظهروا نحلتهم الشيعية علانية وأمروا بتعطيل تعليم أصول الشريعة على مذاهب السنة ومنعوا شيوخ القيروان من إلقاء دروسهم[١].

وأفادنا أبو بكر المالكي عند الترجمة لأبي بكر بن اللباد القيرواني (ت٣٣٣هـ) أن هذا الفقيه «لم يزل ممنوعاً من الفتوى والسماع واجتماع الطلبة حوله إلى أن توفي».

ثم يقول المالكي: «كان أبو محمد بن أبي زيد وأبو محمد بن التبان الفقيهان وغيرهما يأتون إليه في خفية، وكانوا ربما جعلوا الكتب في أوساطهم وحجرهم حتى تبتل بعرقهم خوفاً منهم على أنفسهم من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه»[٢].

ومن صور ظلم العبيديين أن عبيد الله المهدي قتل سنة ٣٠٩ الفقيه حسن بن مفرج والزاهد محمد الشذوني؛ لأنه بلغه أنهما يفضلان بعض الصحابة على علي[٣].

ويشير القاضي عياض إلى تفاقم الأمر وقسوة المحنة على أهل القيروان فيقول: «كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة، تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة، ولما أظهر بنو عبيد أمرهم، ونصبوا حسيناً الأعمى السباب ـ لعنه الله تعالى ـ في الأسواق للسب بأسجاع لقنها يتوصل منها إلى سب النبي صلى الله عليه وسلم في ألفاظ حفظها، وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت عليها قراطيس معلقة مكتوب فيها أسماء الصحابة اشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل ومثل به»[٤].

أدى هذا الاضطهاد العبيدي إلى المقاومة والثورة، ودفع إلى موازرة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي في تمرده على العبيديين، وكان يعلن اتجاهه السني ويخفي حقيقة أمره، فشارك كثير من العلماء القيروانيين في حملته ضد الشيعة، وخاضوا معركة ضارية على

(١) ورقات حسن حسني عبدالوهاب: ١/١٠٨.

(٢) رياض النفوس: ١/٢٨٧-٢٨٨ .

(٣) البيان المغرب: ١/١٨٧ .

(٤) ترتيب المدارك: ٥/٣٠٣ .

أسوار المهدية سنة ٣٣٣هـ[(١)]، وكانت المهدية قاعدة دولة بني عبيد أسسوها سنة ٣٠٨هـ، وانتقلوا إليها من القيروان التي لفظهم أهلها وجاهرهم كثير منهم العداء.

محص الله علماء المالكية في المعركة المذكورة، وكان من بين شهدائهم فيها الفقيه أبو الفضل عباس بن عيسى الممسي (ت٣٣٣هـ)، وقد «استشهد معه خمسة وثمانون رجلاً كلهم فاضل خير في حرب بني عبيد مع أبي يزيد، فالتقوا بالوادي المالح، فقتل في التحام القتال ولم توجد له جثة»[(٢)] كما قال المالكي.

وتواصل بعد هذه المعركة ابتلاء رجال المدرسة، واستمروا في مقاومتهم الباسلة، ومن ذلك أن الفقيه أبا إسحاق إبراهيم السبائي (ت٣٥٦هـ) كان «لايزال سلاحه في بيته لقتال بني عبيد مع كل بر وفاجر من المسلمين» وكان ملازماً داره منعزلاً عن المجتمع طيلة ثلاث وعشرين سنة[(٣)].

ومما أوجبه المعز لدين الله الفاطمي على أئمة المساجد والمؤذنين أن يضاف في كل أذان «حي على خير العمل» كما أمر بمخالفة أمور كانت جارية في القيروان على مقتضي المذهب المالكي في العبادة[(٤)].

ولقد سجل تاريخ المدرسة صمود كثير من رجالها في التشبث بمذهبهم وثبات موقفهم في صراعهم مع الشيعة طيلة فترة الامتحان.

فهذا أبو إسحاق بن البرذون يدعى للرجوع عن مذهبه قبيل قتله، فيقول: «أعن الإسلام تستتيبني؟!».

وهذا أبو محمد بن التبان يناظر دعاة العبيديين ويفحمهم بين يدي أميرهم عبيد الله الشيعي، فيدعوه الأخير إلى بيعته فيجيبه بقوله: «شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله

---

(١) تنظر: البيان المغرب لابن عذاري: ١/٢١٧-٢١٨، الكامل لابن الأثير: ٢/٥٢٥، شجرة النور - التتمة: ١٢٢ .

(٢) رياض النفوس: ١/٢٩٢-٢٩٣ .

(٣) معالم الإيمان: ٣/٧٣ .

(٤) البيان المغرب: ١/٢٢٣ .

وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا؟ لو نشرت بين اثنين ما فارقت مذهب مالك »[١].

وهذا الفقيه جبلة بن حمود المرابط بقصر الطوب، يترك الرباط ويسكن القيروان مبرراً ذلك بقوله: « كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي حل سباحتنا؛ لأنه أشد علينا من الروم »[٢].

بمثل هذا الصمود استمر أهل القيروان على مذهب مدرستهم و« بقيت عامة القيروان ما يقرب من مائة وخمسين سنة على مذهب أهل السنة والجماعة وفقهاء المدينة لاجماع علمائهم على بدعتهم »[٣] أي الشيعة.

ويقول ابن ناجي: « جزى الله مشيخة القيروان: هذا يموت، وهذا يضرب، وهذا يسجن، وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة »[٤].

واستطاعوا التمكين لمذهبهم، وكان ذلك من الحوافز التي دفعت بالفاطميين إلى الرحيل عن إفريقية سنة ٣٦٢ وقد نصبوا الزيريين في حكم البلاد، لاستشهارهم بالولاء للشيعة ورغم أن أميرهم المعز بن باديس (٤٠٧ - ٤٥٣) واصل مضايقاته للمشيخة المالكية فإنهم واصلوا مقاومة نحلته وذبوا عن مذهبهم، ومن أبرزهم أبو علي بن خلدون (-٤١٧) الذي وصف بأنه (كان شديداً على أهل البدع والروافض مغرياً بهم، يستند منه أهل السنة إلى ملجأ ووزر وقد دبر المعز قتله سنة (٤٠٧هـ) فارتجت البلاد لذلك »[٥].

هذا وقد نوه الدباغ بموقف أهل القيروان من المحن التي سبرتهم ومحصتهم في العهد الأغلبي ثم في العهد الزيري، وكان مما قال: « الذي كان أهل القيروان عليه قديماً من قوة الإيمان بالله، والانتصار للحق والصبر على الأذى في الله، والجهاد لإعزاز الدين، والقيام بالرد

---

(١) المصدر نفسه: ٦ / ٢٥٥.

(٢) رياض النفوس: ٢ / ٣٧.

(٣) فتاوى البرزلي: ٦ / ١٨٧.

(٤) نقلاً عن تطور المذهب المالكي في الغرب الاسلامي: ١١٢.

(٥) ترتيب المدارك: / : معالم الإيمان: ٣ / ١٥١-١٥٤.

على أهل الأهواء بالدلائل القاطعة والحجج الدامغة لتثبيت عقائد عامة الموحدين، فقد ناضلوا بالسيوف، وجادلوا باللسان في تقرير الدين وتثبيت قواعد اليقين.. ولم يزل أهل القيروان في جهاد الفرق الضالة والفئة المارقة، ولم يزل الشيخ الأوحد أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت٣٠٢هـ) وأبو محمد عبدالله بن إسحاق التبان يناظران على مذهب أهل السنة، ويرون ذلك من أعظم الجهاد، حتى أخمد الله نارهم، وقل عددهم، وظهر حزب الحق وأعلى الله كلمته»[١].

كان هذا الانتصار الذي أحرزه المالكية من عوامل تخلي الزيريين عن النزعة الشيعية وضعف ولائهم للدولة الفاطمية بمصر وفي سنة (٤٣٥هـ) أظهر المعز الدعاء للدولة العباسية، وخطب باسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله[٢]، ثم تطور الأمر إلى عداء الفاطميين ونقد مبادئهم وسبهم في المساجد[٣].

ولم تفلح محاولات الخليفة الفاطمي المستنصر إعادة المعز للطاعة ومال إلى معاقبته، فبعث بأفواج من قبائل بني هلال وبني سليم الذين كانوا يسكنون بالضفة الشرقية للنيل مسببين مشاكل وقتها لحكام مصر، بعثهم لنهب إفريقية وتقويض أمنها، وبدأ هجومهم سنة (٤٤٢هـ) وانتهى باحتلالهم القيروان سنة (٤٤٩هـ) فانتقلت الدولة الزيرية إلى المهدية بعدما حل بالقيروان من دمار وخراب وعطلت التجارة بها، وتوقفت الزراعة بريفها.

إنها محنة بددت شمل الأهالي وحملت بعض علمائها على الهجرة منها وأصابت حضارتها وأضعفت نشاطها العلمي.

وتدارك الله هذه المدرسة الإفريقية بجهود فقهائها الموزعين بين بعض المراكز الأخرى، خاصة منها المهدية وسوسة[٤].

---

(١) معالم الإيمان: ١/٢٤-٢٥.

(٢) الكامل لابن الأثير: ٩/٥٢١.

(٣) البيان المغرب لابن عذاري: ١/٢٧٧-٢٧٨.

(٤) المصدر نفسه: ١/١٩٤، العبر لابن خلدون: ١/١٥٩.

الخاتمة

لقد تأسست المدرسة المالكية الإفريقية مبكراً، فرأى الإمام مالك بن أنس ولادتها ونشأتها على يد تلاميذه من طلبة القيروان وتونس الراحلين إليه، وبارك عملهم ونوه بذكائهم، وقد حرص تلاميذ هؤلاء الطلبة على مواصلة الصلة بالمدينة وبأصحاب مالك منها ومن مصر والعراق وازدادت الصلة بالمدرسة المدنية دعماً عبر القرون الثلاثة التي عاشتها المدرسة قبل سقوط سيادة القيروان، فرواد هذه المدرسة القيروانية وأتباعها يعتقدون جدارة مالك بإمامة المذهب السني السليم، ونزاهته في عقيدته وسعة علمه بالشريعة، وجمعه بين الأحاديث والآثار وبين العقل والاجتهاد، وامتيازه بمنهج سلفي رشيد، وبدفاع عن العقيدةالصحيحة ورد شبه المبطلين.

ولم يدخر فقهاء هذه المدرسة جهداً في مناصرة المذهب بمختلف الوسائل المحققة لغرضهم المنشود: ألفوا ودونوا ورووا الأحاديث والآثار واستقبلوا طلبة المغرب والأندلس وذاكروهم وناظروهم واحتفوا بهم في مجالس دروسهم، وحاوروا أتباع المذاهب الأخرى، فإن كانت مذاهب عقدية اشتدوا في محاربتها لقطع دابرها واستئصال بدعها، وكان أشدهم في هذه المحاربة الإمام سحنون، وإذا كانت مذاهب فقهية كان الحوار والمناظرة بما يقتضيه المنهج الإسلامي من استعمال للدليل والتزام آداب الحجاج والمذاكرة.

وقد عرفتنا كتب التراجم بنماذج من مجالس المناظرة، وسمت الكثير من الكتب الفقهية المناصرة للمذهب، ومن كتب المناقب المسجلة لفضائل مؤسس المذهب والمترجمة لأصحابه، وللمجتهدين المقيدين بأصول مذهبه.

لقد تطورت الدراسات الفقهية التي احتضنتها المدرسة في عهد نشأتها ثم في عهد ازدهارها وأثرت مكتبة المدرسة بأنواع المصنفات التي خدمت الموطأ ثم المدونة، وبكتب الفنون التي دعمت فقه فروع المالكية مثل كتب الضوابط والنظائر والنكت والفروق، وامتاز بعض فقهاء المدرسة بغزارة الإنتاج وكثرة المصنفات، بما فيها الموسوعات.

وما لم نسعد بوصوله إلينا من تلك المصنفات الفقهية عرفنا جانباً منه بواسطة النقل عنه مما وصلنا من الكتب التي تأكدت أهميتها باحتفاظها بنصوص الفقه النادرة، مثل: «النوادر والزيادات» الذي أفادنا بكثير من نصوص الكتب المالكية التي دخلت في عداد التراث المفقود، مثل: كتب ابن سحنون المهمة وغيرها.

وأسعدنا أن ينصب اهتمام بعض المحققين الذين نفضوا الغبار عن نفائس لهذه المدرسة بالتحقيق والتعليق والدراسة و النشر، وقد رأينا لدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي (الإمارات العربية المتحدة) اهتماماً ببعض هذه النفائس، واستبشرنا بما وعدت الدار بإنجازه في هذا النطاق خدمة للمذهب وتعريفاً برجاله، وأداء لرسالة علمية تأكدت أهميتها وحاجة نهضتنا إليها.

هذا ولئن كان لمحنة القيروان في منتصف القرن الخامس أثر في نهضتها وعمرانها، فإن همة علمائها لم تفتر، وإن كان بعضهم غادر القيروان ونزل ببعض المدن الإفريقية الأخرى مثل الشيخ عبدالحميد الصائغ (ت٤٨٦هـ) نزيل سوسة، وتتجلى جهودهم العلمية بعد المحنة المذكورة في العطاء الفقهي لعبدالخالق السويري (ت٤٦٠ أو ٤٦٢هـ)، وعبدالله بن يحيى الشقراطسي التوزري (ت٤٦٦هـ)، وابن الصائغ (ت٤٨٦هـ) المذكور، وأبي الحسن علي اللخمي الربعي (ت٤٧٦هـ) نزيل صفاقس صاحب «التبصرة»، ومحمد بن سعدون البلوي (ت٤٨٦هـ).

إن هذه المدرسة الإفريقية المالكية استمدت عناصر بقائها واستمرار نشاطها العلمي وثرائها الفقهي من إيمان علمائها بسلامة المنهج المالكي وثقة الاتباع في الإمام السلفي مؤسس المذهب، ومعرفتهم بأسباب ترجيحه مع عدم تخطئة أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى.

ولئن حظيت مدارس مالكية في مراكز أخرى بالدعم السلطاني الضامن لنصرتها وازدهارها فإن هذه المدرسة الإفريقية المالكية واجهت من أولي الأمر في الدولة الأغلبية معارضة تشتد تارة وتلين أخرى لميل أمراء الدولة وانحيازهم إلى الحنفية في الفروع وإلى نحلة المعتزلة في العقائد لما يربط الدولة بالخلافة العباسية في بغداد في فترة كان خلفاؤها يتبنون

نحلة الاعتزال ويناصرون المذهب الحنفي، فعندما تشتد المعارضة ويحتدم الصراع يمتحن المالكية بالسجن والتنكيل وعندما تلين يسند القضاء لعالم مالكي استرضاء لجمهور السكان.

وفي عهد العبيديين واجهت المدرسة معارضة شرسة تهدف إلى تقويض المدرسة وتغيير اتجاهها ومخالفة أصولها ومبادئها وبث نحلة التشيع وتقوية شوكة الحكم العبيدي فكانت المحن أشد واستشهد الكثيرمن أهل السنة دفاعاً عن العقيدة وحماية للحق.

ولم تظفر هذه المدرسة بالمسالمة السلطانية إلا في أواخر عهد سيادة القيروان، وذلك سنة (٤٤٣هـ)، عندما تخلى المعز بن باديس الصنهاجي عن التبعية للفاطميين سياسياً ومذهبياً، فانحسم بذلك الخلاف المذهبي واجتمع الناس على مذهب مالك وتوج نضال رجال المدرسة بنصر مبين، ولكن سعادتهم بذلك لم تلبث أن شابتها محنة شراسة الهجمة الهلالية التي ألمعنا إليها وذكرنا أسبابها.

وقد سجل تاريخ المذهب المالكي فضل القيروان عاصمة مدرسته الإفريقية ولعلمائها فضلهم في دعم المذهب وترسيخه في المدارس الأخرى حتى بعد أفول سيادة القيروان، وتشهد مدارس تونس الحفصية، وتلمسان، وفارس في العهد المريني وما والاه والأندلس عبر تاريخها الإسلامي، تشهد كلها بهذا الفضل وتتناقل مؤلفات علماء القيروان وتبنى على ما ورثته عنهم، وكل ذلك يصور مدى تأثير هذه المدرسة في تيار المذهب المالكي بمختلف مراكزه عبر تاريخه.

ولا يتيح مقام هذا البحث استعراض شهادات الباحثين الذين أبرزوا مدى تأثير هذه المدرسة الإفريقية في المدارس المالكية المعاصرة لها والموالية لها، لذا أقتصر على شهادة باحث معاصر أعده من أبرز باحثي المغرب وأكثرهم اهتماماً بتاريخ مذهبنا، وهو الدكتور محمد بن شريفة الذي يقول:

«إن الفقه المالكي الذي انتشر في المغرب جاءنا في البداية من القيروان أكثر مما جاءنا من الأندلس، ونلحظ هذا حتى في سبتة التي ساد فيها النفوذ الأندلسي في عهد الناصر

والمستنصر المروانيين والمنصور بن أبي عامر، فجل المترجمين من أهل سبتة في المدارك أخذوا فقههم من القيروان»(١).

وما يردده بعض المعاصرين من أن صلاحية فقه المدارس الأولى للمذهب مقتصرة على عهد تلك المدارس وأهلها، ولا ينفع من بعدهم لتطور المجتمعات وحدوث النوازل والمستجدات ما يرددونه ناشئ عن الجهل بالفقه وبالتشريع الإسلامي وخصائصه وارتباطه بالوحي الذي ضمن له رب العزة الخلود، فالشريعة صالحة لمختلف الأزمنة والأمكنة، وبعض الأحكام الفقهية يرتبط بالأعراف المتغيرة أو بالمصالح وقد يؤدي ذلك إلى تغير أحكام بعض الفروع، وتشريعنا الإسلامي منزه عن النسبية، هو من لدن عليم خبير، ودور فقهاء المذاهب التشريعية كلها، في بيانه وخدمته، واضح لا يجحد فقد تآزروا في دعم الشريعة واجتهدوا في استنباط الأحكام الشرعية، **جزاهم الله عن خدمة دينه أحسن الجزاء**.

(١) مقدمة تحقيق «مذاهب الحكام في نوازل الأحكام» للقاضي عياض وولده: ٨، تحقيق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م.

ثبت مراجع البحث

١- **الإتحاف بتخريج أحاديث الإشراف**، بدوي عبد الصمد الطاهر صالح - دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ١٤٢٠ / ١٩٩٩م.

٢- **الأجوبة**، محمد بن سحنون - تحقيق: حامد العلوي - دار سحنون - تونس ٢٠٠٠م.

٣- **أحكام القرآن**، ابن العربي، أبو بكر محمد الإشبيلي - تحقيق: علي محمد البجاوي - دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي - مصر ١٩٥٦-١٩٥٨م.

٤- **أزهار الرياض في أخبار عياض**، المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني - صندوق إحياء التراث - الرباط ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٥- **اصطلاح المذهب عند المالكية**، محمد إبراهيم أحمد علي - دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي - الإمارات العربية المتحدة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٦- **أصول الإمام مالك**، الشعلان، عبد الرحمن - أطروحة دكتوراه بكلية الشريعة، جامعة الإمام ابن سعود بالرياض سنة ١٤١١هـ.

٧- **أصول الفتيا في المذهب المالكي**، ابن حارث الخشني، أبو عبد الله محمد بن أسد - تحقيق: محمد المجدوب ومحمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ - الدار العربية للكتاب، تونس، والمؤسسة الوطنية، الجزائر ١٩٨٥م.

٨- **أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي**، ابن عاشور، محمد الفاضل - مكتبة النجاح - تونس.

٩- **إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي**، ممدوح حسين - ط١ دار عمار، عمان - الأردن ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٠- **انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك**، الراعي شمس الدين محمد بن محمد الأندلسي - تحقيق: محمد أبو الأجفان - دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١م.

١١- **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف القرطبي - مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب.

١٢- **أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك**، الكندهلوي محمد زكريا - ط٣ على نفقة الشيخ زائد بن سلطان آل نهيان ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٣- **بو طليحية فيما اعتمد من الكتب والأقوال** (منظومة)، الغلاوي محمد النابغة الشنقطي - طبع ملحقاً بكتاب اصطلاح المذهب عند المالكية (ص٦٢٠-٦٣٤) - دار البحوث للدرسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٤- **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي - دار الكتاب العربي، بيروت.

١٥- **تاريخ التراث العربي**، فؤاد سزكين - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤٠٣-١٤٠٤هـ.

١٦- **تراجم المؤلفين التونسيين**، محمد محفوظ - دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢-١٩٨٦م.

١٧- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك**، القاضي عياض ابن موسى اليحصبي - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب - ١٩٨٣م.

١٨- **تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي**، شرحبيل محمد بن حسن - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٩- **تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني - مطبعة التضامن الأخوي - مصر ١٣٤٩هـ.

٢٠- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف القرطبي - تحقيق: سعيد أحمد أعراب وآخرين -ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب - الرباط ١٤٠٢-١٤٠٨هـ.

٢١- **تهذيب التهذيب**، ابن حجر، أبو العباس أحمد بن علي العسقلاني - دار صادر، بيروت ١٣٢٥هـ.

٢٢- **الجامع في السنن والآداب والتاريخ والمغازي**، ابن أبي زيد القيرواني عبد الله - تحقيق: محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ - ط٣ مؤسسة الرسالة، بيروت - المكتبة العتيقة، تونس ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٢٣- **حاشية على الرسالة**، الأجهوري علي - مخطوط، دار الكتب الوطنية بتونس ١٤٨٧ .

٢٤- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - ط١ دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٩٨٧م.

٢٥- **حضور المدونة الكبرى في المؤلفات والحلقات الدراسية المالكية**، المنوني محمد - بحث ضمن كتاب «محاضرات ملتقى الإمام سحنون بالقيروان ١٤١٢هـ» ص٨٠ - مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ١٩٩٣م.

٢٦- **الحياة الأدبية في القيروان**، العبيدي المختار - ط دار سحنون، تونس.

٢٧- **الحياة العلمية في إفريقية**، حوالة يوسف بن أحمد - مركز بحوث الدراسات الإسلامية بمعهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٨- **الدولة الصنهاجية في عهد بني زيري**، هادي روجي إدريس، تعريب: حمادي الساحلي - ط دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٢٩- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي - تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور - دار التراث للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٢م.

٣٠- **الرسالة الفقهية**، ابن أبي زيد القيرواني عبد الله - تحقيق: محمد أبو الأجفان والهادي حمو - مطبوع مع غرر المقالة لابن حمامة ط٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧م.

٣١- **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم**، المالكي، أبو بكر عبد الله - تحقيق: بشير البكوش، مراجعة: محمد العروسي المطوي - دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤١٤هـ.

٣٢- **ابن أبي زيد القيرواني ورسالته**، أحمد سحنون - بحث منشور بمجلة دعوة الحق المغربية عدد ٣-٢١ - وزارة الأوقاف المغربية، الرباط.

٣٣- **سحنون الفقيه المالكي**، الشيباني محمد الشنقيطي - بحث ضمن كتاب «محاضرات ملتقى الإمام سحنون بالقيروان ١٤١٢هـ» - مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ١٩٩٣م.

٣٤- **سير أعلام النبلاء**، الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان - أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١ - ١٤٠٥هـ.

٣٥- **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، مخلوف محمد بن محمد - المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة ١٣٤٩هـ.

٣٦- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي ط٢ - دار الميسرة، بيروت ١٣٩٩هـ.

٣٧- **شرح الموطأ**، الزرقاني محمد بن عبد الباقي - ط حننفي ، مصر (د.ت).

٣٨- **شهيرات التونسيات**، حسن حسني عبد الوهاب.

٣٩- **الصلة**، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك - المكتبة الأندلسية - الدار المصرية للتاليف والترجمة والنشر، مصر ١٩٦٦م.

٤٠- **طبقات الفقهاء**، الشيرازي أبو إسحاق الشافعي - تحقيق: إحسان عباس - دار الرائد العربي، بيروت ١٩٧٠م.

٤١- **عبد الله بن أبي زيد القيرواني**، محمد أبو الأجفان - بحث ضمن دائرة المعارف التونسية، الكراس الثاني - بيت الحكمة، تونس ١٩٩١م.

٤٢- **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، الحجوي محمد بن الحسن الفاسي - اعتنى به: أيمن صالح شعبان - دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٣- **الفهرست**، ابن خير الإشبيلي أبو بكر محمد - ط المكتب التجاري، بيروت - مكتبة المثنى، بغداد - مؤسسة الخانجي، القاهرة ١٩٦٨م.

٤٤- **فهرس ابن عطية القاضي أبي محمد عبد الحق المحاربي الأندلسي** - تحقيق: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي - ط٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣م.

٤٥- **كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين**، حسن حسني عبد الوهاب - مراجعة وإكمال: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش - بيت الحكمة، تونس - دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م.

٤٦- **مالك حياته وعصره**، أبو زهرة محمد.

٤٧- **محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي** - عمر الجيدي - منشورات عكاظ الجديدة، الدار البيضاء ١٩٨٧م.

٤٨- **المحاضرات المغربيات**، ابن عاشور محمد الفاضل - الدار التونسية للنشر، تونس.

٤٩- **محاضرات ملتقى عبد الله بن أبي زيد القيرواني** - شوال ١٤١٣هـ سلسلة الملتقيات - مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ١٩٩٤م.

٥٠- **مدرسة الحديث في القيروان**، شواط، حسين.

٥١- **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، القاضي عياض وولده محمد - تحقيق: محمد بن شريفة - دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م.

٥٢- **المذهب التربوي عند ابن سحنون**، حجازي عبد الرحمن عثمان.

٥٣- **المذهب المالكي**، مدارسه ومؤلفاته وخصائصه وسماته، ماي محمد المختار محمد - أطروحة ماجستير بكلية الشريعة بالرياض، قسم الفقه سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٥٤- **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، النباهي، أبو الحسن علي المالقي - تحقيق: أ. ليفي بروفنسال - دار الكتاب المصري، القاهرة ١٩٤٨م.

٥٥- **المستدرك على الصحيحين**، الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن حمدويه - بيروت لبنان.

٥٦- **المسند**، أحمد بن حنبل (الإمام) - ط١ المكتب الإسلامي - دار صادر، بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٥٧- **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، الدباغ أبو زيد عبد الرحمن، أكمله ابن ناجي أبو القاسم بن عيسى - المكتبة العتيقة، تونس ١٩٧٩م.

٥٨- **المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات**، ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي - تحقيق: محمد حجي - دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨م.

٥٩- **المقدمة**، ابن خلدون عبد الرحمن ولي الدين - ط دار الفكر - و ط دار النهضة.

٦٠- **مناصرة المذهب وأثرها العلمي**، محمد أبو الأجفان - بحث بمجلة جامعة الزيتونة ع١ س١ عام ١٩٩٢م.

٦١- **الموافقات في أصول الشريعة**، الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى - المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٦٢- **موطأ الإمام مالك**، قطعة منه برواية علي بن زياد - تحقيق محمد الشاذلي النيفر - ط٥ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٤م.

٦٣- **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، السمهودي، نور الدين علي بن أحمد - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - ط٢ دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧١م.

٦٤- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد - تحقيق: إحسان عباس - دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٢م.

٦٥- **يحيى بن عمر من خلال كتابه المخطوط «الحجة في الرد على الإمام الشافعي»**، محمد أبو الأجفان - بحث بمجلة معهد المخطوطات العربية مجلد٢٩ ج٢ عام ١٩٨٥م.

نشأة المدرسة المالكية بالمغرب والأندلس
وعلاقة القاضي عبد الوهاب بأعلامها

إعداد

أ. د. إبراهيم القادري بوتشيش*

* أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب جامعة مولاي إسماعيل بمكناس المغرب، حصل على الماجستير من جامعة محمد بن عبد الله بفاس عام (١٩٨٤م) وكان عنوان رسالته: «أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس من منتصف القرن الثالث حتى قيام الخلافة»، وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها عام (١٩٩١م) وكان عنوان رسالته: «الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين». له العديد من الكتب والدراسات.



مقدمة

لا يتأتى فهم انتشار المذهب المالكي بالمغرب والأندلس، بمعزل عن صلة الأعلام المالكيين بهذه المنطقة بنظرائهم من أقطاب المذهب في المشرق الإسلامي، حيث قام هؤلاء بدور طلائعي في تثبيت دعائم مدرسة مالكية متميزة، من خلال تكوين مجموعة من الأطر المالكية المغربية والأندلسية، وترويج مؤلفاتهم التي أصبحت حجر الزواية في المناهج الدراسية بالغرب الإسلامي، وكذلك من خلال أحكامهم وفتاواهم التي صار يحذو حذوها القضاة المغاربة، ولعل أبرز نموذج يعكس هذا الدور الهام الذي اضطلع به العلماء المالكيون المشارقة في التمكين للمذهب المالكي بالمغرب والأندلس، يتمثل في القاضي عبد الوهاب البغدادي الذي بلغت المدرسة المالكية المغربية في عهده ذروتها، مما يؤكد الصلة الوثيقة بين هذه الشخصية والنمو الذاتي للمذهب المالكي في الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

وبناء على ذلك، فإن هذا البحث سيسعى في محور أول إلى تتبع المذهب المالكي بالمغرب منذ نشأته في القرن الثاني الهجري، والعوامل التي ساعدت على تكوين مدرسة مالكية، سرعان ما عرفت إشعاعاً كبيراً خلال القرن الخامس الهجري بفضل القاضي عبدالوهاب البغدادي وغيره من علماء المشرق، وهو ما يحتم في المحور الثاني – من الدراسة –، البحث عن صلة هذا القاضي بأعلام المذهب المالكي بالمغرب، من خلال ما ورد في كتب الفهارس والمشيخات، وكتب الطبقات والتراجم المغربية والأندلسية التي سردت جزءاً من سيرته الذاتية، أو عرضت لمؤلفاته، فضلاً عن مصنفات النوازل التي جعل مؤلفوها المغاربة والأندلسيون من أحكامه وفتاواه مرجعيتهم الأساسية.

أولاً: عوامل نشأة المدرسة المالكية في المغرب والأندلس:

١- عامل البيئة:

يمكن تفسير نشأة مدرسة مالكية بالمغرب بعوامل بيئية وحضارية يأتي في مقدمتها تفسير ابن خلدون[١] الذي عزا فيه أخذ المغاربة بالمذهب المالكي إلى البداوة الغالبة عليهم،

(١) كتاب المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، طبعة ١٩٥٢، لجنة البيان العربي، ج٣، ص١٠٢٠-١٠٢١.

وملاءمة ظروفهم لبيئة الحجاز البدوية. كما ذكر في موضع آخر أن أهل المغرب بعيدون عن الصنائع، ولذلك فإن منتهى رحلتهم كانت الحجاز التي يسود فيها المذهب المالكي، وليس العراق الذي كان يعج بأنواع الصناعات وأصناف التجارات، فضلاً عن كونه موئلاً لمختلف المذاهب[١].

من ناحية أخرى فسر ابن خلدون انتشار المذهب المالكي في المغرب بطبيعة العقلية المغربية، فكان أول مؤرخ اجتماعي فطن إلى كون المذهب المالكي أكثر المذاهب ملاءمة لعقلية المغاربة لسهولته وبساطته، وميلهم الفطري إلى البساطة في كل شيء[٢]. فالمذهب المالكي لا يعوِّل على استخدام الرأي أو الجدل بقدر ما يعتمد على النص والنقل، وعلى الأثر والرواية، ومن ثم فهو مذهب ملائم لطبيعة المغاربة، لأنه عملي أكثر منه نظري، ويستند على الواقع، ويأخذ بالعرف والعادة، وأهل المغرب عموماً متمسكون بالسنة والجماعة وتجنب البدع كما يؤكد ذلك أبو بكر بن العربي[٣]، ناهيك عن كونهم سئموا الصراعات المذهبية التي جرت دون طائل، وهو ما يفسر قول الناصري[٤] «فبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانياً، وأقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم»، فأصبح شيوع المذهب المالكي عندهم عادة وفطرة لا تحتاج إلى دليل[٥].

---

(١) نفسه، ص١٠٨٨.

(٢) تبرز أوجه التوافق بين بساطة العقل البربري والمذهب المالكي في الرواية التالية: (قال أبو طالب المكي: كان مالك ابعد الناس من مذاهب المتكلمين، واشدهم بغضاً للعراقيين، والزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين، قال سفيان بن عيينة: سال رجل مالكاً فقال الرحمن على العرش استوى كيف استوى يا أبا عبدالله؟ فسكت مالك ملياً حتى علاه الرحضاء، وما رأينا مالكاً وجد من شيء وجده من مقالته وجعل الناس ينظرون ما يامر به ثم سُرّي عنه فقال: الاستواء منه معلوم والكيف غير معقول والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب وإني لاظنك ضالاً أخرجوه). انظر عياض، ترتيب المدارك، تحقيق عبد القادر الصحراوي، طبعة فضالة – المحمدية (د.ت) ج٢ ص٣٩–٤٠.

(٣) ترتيب الرحلة عن: عصمت دندش عبد اللطيف في مقالها: (دراسة حول رسائل ابن العربي)، مجلة المناهل، عدد ٩، سنة ١٩٧٧، ص١٨٧.

(٤) الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، طبعة البيضاء ١٩٥٤، دار الكتاب، ج١، ص١٠٤.

(٥) المعيار المعرب الونشريسي، نشر وزارة الأوقاف المغربية، بيروت ١٩٨١، دار الغرب الإسلامي، ج٢، ص١٦٩.

٢- شخصية الإمام مالك بن أنس:

إلى جانب، انتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس بعوامل ذاتية ترجع إلى شخصية الإمام مالك نفسه بما عرف عنه من كريم السجايا والخلال الحميدة، والتعلق الشديد بالسنة والأثر [١]، مما دفع المغاربة والأندلسيين إلى الوفود عليه، والانقياد لمذهبه، والاقتناع أنه أولى بالاقتداء والاتباع، ويقال: إن مثل هذه الصفات حببته إلى قلوب المغاربة وأكسبته ثقتهم عندما رجع طلابه يصفون أخلاقه وشمائله، كما أن الإمام مالكاً كان شديد الإعجاب بالطلبة المغاربة والأندلسيين لما لمسه فيهم من حسن الاستعداد والجد والحرص على الاتباع وحسن الاقتداء، فخصهم بمكانة متميزة حتى إنه كان يتتبع أخبارهم ويكتب لبعضهم، ولما توفي اتجه هؤلاء إلى تلامذته من أمثال ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم، فأخذوا عنهم ما فاتهم، وتمخض عن هذا الاتصال انتقال المذهب المالكي إلى المغرب [٢].

وفي نفس المنحى ثمة من الدارسين [٣] من فسر أسباب تمسك المغاربة بالمذهب المالكي ونفورهم من المذاهب الأخرى، بكون أئمة المذاهب الأخرى تتلمذوا على يد الإمام مالك ثم خرجوا عنه، فعن سبب عزوفهم عن المذهب الشافعي يذكر المقدسي [٤] ما يلي: «رأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي قالوا أخذ عن مالك ثم خالفه»، أما عن سبب نفورهم من مذهب الإمام أحمد بن حنبل، فلأنه أخذ بالخبر الضعيف وفضله على القياس حتى إن كثيراً من الفقهاء، لم يعدوا أحمد بن حنبل من الفقهاء، وإنما صنفوه في طبقات المحدثين [٥].

---

(١) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، عمر الجيدي، طبعة البيضاء ١٩٨٧، مطبعة النجاح الجديدة، ص٢٩-٣٠.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) (البيئة وأثرها في صياغة مذهبنا المالكي)، محمد العمراني، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٤٥، فبراير ١٩٨٥، ص٢.

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم نشره Degoge، طبعة ليدن ١٩٠٦، ص٤٢.

(٥) المدارك، عياض، تحقيق محمد بن تاويت الطنيجي، ١/٨٦ طبعة فضالة - المحمدية ١٩٨٣ (ط٢).

وبالمثل فإن الفقهاء المالكيين الذين تتلمذوا مباشرة أو بصفة غير مباشرة على يد الإمام مالك أعطوا النموذج الأخلاقي في الجهاد والتضحية، مما جعل أهل المغرب والأندلس يعجبون بهم وحسبنا أن هؤلاء كانوا يسمعون بالفقهاء المالكيين في إفريقية، والمحن التي اصطلوا بنارها على يد العبيديين، ومع ذلك وصلوا إلى درجة الاستشهاد، مما جعل مكانتهم تسمو في أعينهم، فصاروا يميلون إليهم [(١)] ، هذا فضلاً عن نضالية المذهب وشعبيته والتحامه بقضايا الأمة الإسلامية [(٢)] .

٣- الرصيد التاريخي:

بدأ المذهب المالكي في التسرب مبكراً إلى الأندلس في عصر الدولة الأموية بالأندلس، وبالذات في عهد هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، وهو ما جعل بعض الباحثين يفسرون ذلك برغبة أُمويي الأندلس في الاستقلال عن الخلافة العباسية [(٣)] ، وعن الدول الفاطمية التي تبنت المذهب الشيعي [(٤)] .

وفي هذا السياق أجمع كل من ابن حزم والقاضي عياض على أن الأمير المذكور لعب دوراً أساسياً في إلزام الناس بمذهب مالك عندما صيّر القضاء والفتوى عليه (فالتزم الناس بها من يومئذ هذا المذهب وحموه بالسيف) [(٥)] .

أما في المغرب فيمكن الرجوع بالرصيد التاريخي الذي ساعد في تكوين مدرسة مالكية في المغرب والأندلس إلى عصر الدولة الإدريسية الذي بدأ منذ سنة ١٧٢هـ، فعلى الرغم من اعتناق الأمير إدريس الأول المذهب الشيعي الزيدي، لم يحاول فرضه على أهل

(١) الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقية حتى قيام دولة المرابطين، محمد داود أبو العزم، طبعة مكة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص٣٢١ .

(٢) GIRARI "Les Almoravides: Etat, doctrine, oeuver" In: Dirassat Ifriquiyya n2, 1986, p28.

(٣) (الحضارة الإسلامية بالأندلس) احمد مكي، مجلة البيئة، مارس – دجنبر ١٩٧٠، ص١٩١ .

(٤) تكوين العقل العربي، الجابري، بيروت ١٩٨٤، ص٢٩٨-٢٩٩ .

(٥) المدارك، ج١ ص٢٦-٢٧، نفح الطيب للمقري، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٣٨٨هـ-١٩٦٦م، ج٣، ص٢٨٠ وكذلك ج٢، ص١٠، وفيه نقل قول ابن حزم بان المذهب المالكي انتشر بالرياسة والسلطان.

المغرب الذين أخذوا بالمذهب المالكي منذ أن تتلمذ بعضهم على يد الإمام مالك بن أنس، وفضل - بدلاً من ذلك - التعاون مع فقهاء المالكية في القضاء على المذاهب الخارجية، وفي مقدمتها برغواطة[١].

وسار ابنه إدريس الثاني على نفس النهج، فلم يدخل معركة خاسرة مع فقهاء المالكية بل يبدو أنه كان متعاطفاً معهم، وحسبنا أن مجموعة من الفقهاء المالكيين وفدوا في عهده من الأندلس بعد وقعة الربض سنة ٢٠٢هـ، سعى إلى استقطابهم جميعاً[٢].

وفي هذه الحقبة أيضاً تم إدخال كتاب الموطأ إلى المغرب، فكان لذلك أثره في تعميم المذهب المالكي وذيوعه في أوساط المغاربة، فما كاد القرن الرابع الهجري يشرف على البداية حتى كانت أصول المذهب وفروعه قد تجذرت في مرافق الحياة العامة[٣].

ونميل إلى تفسير موقف الأدارسة المرن من المذهب المالكي بكونه جاء كذلك نتيجة لموقف الإمام مالك من ثورة محمد النفس الزكية، ووقوفه إلى جانبه ضد العباسيين، ما دفع الأدارسة إلى التعاطف مع مذهبه[٤].

من جهتها لعبت إمارة نكور بشمال المغرب دوراً بارزاً في الحفاظ على المذهب ورعايته[٥]، إذ ظل بنو صالح الحميريين يؤدون رسالتهم في نشره إلى أن قضى على دولتهم موسى بن أبي العافية[٦].

ورغم أن الدويلات الزناتية التي حكمت المغرب خلال القرن الرابع الهجري وقفت بجانب الفاطميين لفترات قصيرة، فإنها والت الخلافة الأندلسية السنية[٧]. ونعلم أن

---

(١) الأثر السياسي والحضاري للمالكية، ص١٧٠-١٧١.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، تحقيق س. كولان ول. بروفنسال، دار الثقافة بيروت ١٩٨٠، ج٢، ص٧٧-

(٣) عمر الجيدي، م. س، ص١٧٦٠.

(٤) (أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره في المغرب)، عباس الجراري، بحث نشر ضمن اعمال ندوة الإمام مالك، طبعة فاس ١٩٨٠، ج١، ص١٨٠.

(٥) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، البكري، نشره دي سيلان، طبعة الجزائر ١٩١١، ص٩٢.

(٦) محمد داود أبو العزم م.س.، ص٢٤٦.

(٧) تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، أكنوش، طبعة البيضاء (د.ت)، مؤسسة إفريقية والشرق، ص٦٣.

القبائل الزناتية قامت بهجرة مكثفة من المغرب الأوسط نحو المغرب الأقصى خلال نفس الفترة، وهو عامل ساعد على تدعيم المذهب المالكي وترسيخ ركائزه. كما أن هجرة علماء إفريقية إلى المغرب بعد الخراب الذي حلّ بالقيروان خلال القرن الخامس الهجري إثر الغزو الهلالي، ساهم بدوره في ميلاد مدرسة مالكية بالمغرب والأندلس.

٤- دور المشرق الإسلامي:

لم يكن انتصار المذهب السني في الشرق الإسلامي وليد الصدفة، بقدر ما جاء نتيجة حتمية للصراع الذي خاضه ضد التيار الشيعي، وقد وصل هذا الصراع أحياناً إلى حد استعمال القوة والعنف، وتبادل الطرفان النصر والهزيمة [١]، غير أن القوة السنية بزعامة السلاجقة، عولت على أسلوب آخر في مقاومة التيار الشيعي، يتجلى في إنشاء المدارس النظامية، فمن أجل تكسير شوكة الشيعة، وإفشال مخططاتهم السياسية، أدرك الوزير السلجوقي نظام الملك أن تأسيس المدارس يعد خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف، فضلاً عما يرجى من ورائها من إحياء للثقافة السنية [٢]، ومن ثم اعتبرت المدرسة النظامية أول مدرسة بنيت لتحقيق هذا المشروع [٣].

والحق أن هذه المدارس خلفت نتائج طيبة، إذ مكنت من تخريج أطر كفأة من الموظفين والدعاة، وأسفرت بالتالي عن انتصار ساحق للمذهب السني، ممثلاً في المدرسة الأشعرية التي دعمها الإمام الغزالي بالمنطق والآراء الفلسفية فضلاً عن التصوف [٤].

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء السيوطي، محيّ الدين عبد الحميد بغداد، ١٩٨٧ (ط٣)، ص٤١٨-٤١٩-٤٢٢-٤٢٥-٤٢٧.

(٢) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، محمد غنيمة، تطوان ١٩٥٣، ص٥.

(٣) وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت (د.ت)، دار صادر، ج٤، ص٢١٧ - السيوطي، م.س، ص٤٢٠ - الشيال، أعلام الإسكندرية، طبعة مصر ١٩٦٥، ص٦٠.

(٤) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، عبد المجيد بدوي، القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، دار الوفاء للطباعة والنشر، ص١١٦.

وامتد تأثير هذا الانتصار إلى مصر التي ظهر بها أعلام المذهب، رغم بطش الحكم الفاطمي [١] . وتقوم شهادة القاضي عياض دليلاً على ذلك [٢] .

في غمرة هذا المد السني، بات بديهياً أن يصل تأثيره إلى المغرب والأندلس بفضل التجارة التي شكلت عاملاً مهماً في تسرب المذهب المالكي نحو هذه المنطقة، فإلقاء نظرة على المدن المغربية التي برز فيها أعلام المذهب، وفي سجلماسة وفاس وأغمات وسبتة، تبين أنها كانت على صلة تجارية وثيقة مع القيروان، وكانت ترتبط معها بطرق تجارية لم ينقطع ورود سلعها حتى أثناء فترات الصراعات السياسية [٣] . وهذا ما يفسر بقاء تلمسان – إحدى محطات الطرق التجارية – (دار العلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك ابن أنس رحمه الله) [٤] .

بيد أن أهم تجليات تأثير المشرق الإسلامي في ميلاد مدرسة مالكية بالمغرب يتجلى في الرحلات العلمية التي كان يقوم بها علماء المغرب والأندلس نحو المدارس النظامية في بغداد، ففي غمرة هذا الانتصار السني، شد العلماء المغاربة والأندلسيون الرحال إلى العراق، نذكر من بينهم أبو علي الصدفي [٥] . وأبو بكر الطرطوشي [٦] . وأبو بكر بن العربي [٧] . وغيرهم من العلماء الذين وجدوا المدارس النظامية في أوج إشعاعها، فعادوا لنشر المذهب السني المالكي في أقطارهم بالمغرب والأندلس.

---

(١) الديباج المذهب، ابن فرحون، طبعة الفحامين بمصر ١٣٥١هـ ص٢٧٦، وفيه يشير إلى أن الفاطميين طردوا أبا بكر الطرطوشي المالكي من الإسكندرية.

(٢) المدارك، ج١، ص٢٥-٢٦ .

(٣) المذهب المالكي في عهد المرابطين والموحدين، رضوان مبارك، رسالة جامعية مرقونة بكلية الآداب بالرباط، رقم ج٢-٢١٧، ص٤٩ .

(٤) البكري، م.س، ص٧٧ .

(٥) كتاب في تراجم الأولياء، مؤلف مجهول، (مخ) خ.ع.و.م.ر، رقم ج١٢٧١، ص٢٠١ .

(٦) الشيال، م،س،ص٦٠ .

(٧) انظر ما ورد عن رحلته مع والده إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله ولقائه مع أستاذه الإمام الغزالي في ترتيب الرحلة في الترغيب للملة (مسخ) خ.ع.و.م.ر، رقم ك١٢٧٥ .

٥- دور الفقهاء المالكيين المغاربة والأندلسيين:

لعب الفقهاء المالكيون والأندلسيون الذين رحلوا إلى العراق دوراً بارزاً في تثبيت دعائم المذهب المالكي ببلدانهم، نذكر من بينهم دراس بن إسماعيل الذي كان حافظاً للرأي على مذهب مالك[١]. وقيل: إنه أول من أدخل مدونة سحنون إلى فاس، وبه اشتهر الإمام مالك[٢]. وأبا محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي الذي كان من حفاظ مذهب مالك، وأبا عمران الفاسي تلميذ أبي بكر الباقلاني الذي درس في العراق على يد كبار شيوخ المالكية، ثم عاد إلى فاس بعد أن رسخ قدمه في المذهب المالكي، حتى إن أستاذه شبّه علمه بعلم مالك[٣]، وعنه أخذ الطلبة من أقطار الغرب الإسلامي، لعل أهمهم وجاج ابن زلو اللمطي الذي قام بعمل هام كان له الأثر الواضح في ذيوع المذهب المالكي بالمغرب، ويتجلى ذلك في بنائه مدرسة عرفت (بدار المرابطين)[٤]، وخصصت لتلقين مبادئ المذهب المالكي ومقاومة المذاهب الأخرى[٥]، ومنها تخرج الداعية المالكي الكبير عبد الله بن ياسين الجزولي.

وبعد الدور التمهيدي الذي قام به هؤلاء العلماء في ترسيخ المذهب المالكي بالمغرب والأندلس، جاء دور علماء القرن الخامس الهجري، ولا غرو فإن كبار أعلام المالكية ظهروا في هذه الحقبة المتزامنة مع حقبة السلاجقة كالقاضي عياض الذي وصفه أحد المؤرخين بأنه (أحد عظماء المالكية)[٦]، وأبو الوليد بن رشد الذي كان رأس المالكية بالأندلس، معروفاً بفتاويه وحلّه الإشكاليات المستعصية عن طريق قواعد التشريع المالكي فضلاً عن الفقيهين

---

(١) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، طبعة ١٩٦٦، ج١، ص١٤٦ .

(٢) جذوة الاقتباس، ابن القاضي، الرباط ١٩٧٣، دار المنصور للطباعة الوراقة، ج١، ص١٩٤ .

(٣) عياض، م.س، ج٧، تحقيق سعيد أعراب، ص٢٤٦ .

(٤) نفسه، ج٨، ص٨١ .

(٥) Cuoq, L histoire de I islamisation de IQuest, Paris, paul Guenthner p35.

(٦) النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، نشر المؤسسة المصرية للتاليف والترجمة، ج٥، ص٢٨٥ .

الشهيرين أبي بكر بن العربي، وابن ورد التميمي اللذين لم يتقدمهما أحد بعد وفاة ابن رشد [١]، ثم عبد الله بن أبي جعفر المرسي الذي (انتهت إليه رآسة المالكية) [٢]، ناهيك عن مجموعة أخرى من فطاحل الفقهاء المالكيين الذين تنبو عن ذكرهم هذه الورقات.

صبت جهود هؤلاء الفقهاء في ترسيخ المذهب المالكي عبر قناتين: التدريس والتأليف، فتدريس الفقه المالكي كان يعد أهم وسيلة لتثبيت دعائمه، لذلك جند الفقهاء أنفسهم لبلوغ هذه الغاية، وفي هذا الصدد ورد في ترجمة محمد بن سعيد بن مجاهد الأنصاري أنه (أنفق عمره في إسماع الحديث وتدريس المذهب المالكي) [٣].

وأحياناً جمع الفقهاء بين منصبي القضاء والتدريس [٤]، وظلت المدونة أهم الكتب التي تم إلزام الطلبة بدراستها حتى إنها اقترنت أحياناً براجم بعض الأعلام، من ذلك ما جاء في سيرة محمد بن عبد الله الخشني (ت٥٤٠هـ) الذي كان (مبرزاً في تدريسه قائماً على المدونة) [٥]، وكان الموطأ الذي وضع ابن رشد شروطاً لتدريسه [٦]، وبلغ درجة قصوى من الأهمية حتى إن القاضي عياض أورد على لسان ابن مهدي: (لا أعلم من علم الناس بعد القرآن أصحّ من موطأ مالك) [٧].

---

(١) ابن فرحون، م.س، ص٤١.

(٢) تذكرة الحفاظ، الذهبي، طبعة حيدر أباد والدكن، ١٣٣٤هـ (ط٢)، دائرة المعارف النظامية، ج٤، ص٦٩

(٣) الذيل والتكملة، ابن عبد الملك، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت ١٩٧٣، ج٦ ص٢٠٤.

(٤) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، نشر الفرد بل وابن أبي شنب، طبعة الجزائر ١٩١١، ج١ ص٤٩٣.

(٥) نفسه ص٤٤٧، ولدينا تراجم كثيرة حول اهمية تدريس الموطأ، انظر نفس المصدر ج١، ص١٥٠-٢٧٤-٤٢٠ ثم ج٢ ص٤٦٩-٤٨٢-٤٨٥-٥٦١-٧٥٤-٨٢٦-٨٢٧.

(٦) مما ورد في إحدى فتاواه: (الجواب عليه لا يصح لمن لم يعن بالعلم ولا سمعه ورواه أن يجلس لتعليمه في الموطأ ولا غيره من الأمهات وإن قرأها وتفقه على الشيوخ فيها، وإن لم يحملها إلا إجازة، جاز له أن يعلم ما عنده عن الشيوخ من معانيها وان يقرأها إذا صحح كتابه على رواية شيخه فيها وبالله التوفيق). انظر نوازل ابن رشد، (مخ) خ.ع.و.م.ر، رقم ك٧٣١، ص٣٥٥.

(٧) المدارك، ج٢، ص٧٠ وفيها ورد بيت للقاضي عياض:

إذا ذكرت كتب العلوم فخيرها   كتاب الموطأ من تصانيف مالك

انظر نفس المصدر ص٧٨.

ومن أجل تدعيم المذهب المالكي لم يبخل الفقهاء بأدنى جهد في تأليف الكتب التي تروج له، وحسبنا ما خلفه عياض من مصنفات كثيرة على رأسها كتاب (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك) و(تفسير غريب الموطأ والبخاري ومسلم) و(ضبط الألفاظ) الذي وصفه بأنه (لو كتب بالذهب ووزن بالجوهر لكان قليلاً في حقه)(١) . أما الفقيه أبو بكر بن العربي فقد استبسل في مقاومة التيارات غير السنية في كتابه الموسوم بـ (الرد على من خالف أهل السنة من ذوي البدع والإلحاد)(٢) ، علاوة على كتاب (العواصم من القواصم) الذي هاجم فيه التشيع في مسألة الخلافة(٣) ، والفكر الاعتزالي في مسزلة خلق القرآن(٤) ، وفي نفس المنحى اضطر أبو الوليد بن رشد إلى طلب الإعفاء من منصب القضاء حتى يتفرغ لتأليف كتابه البيان والتحصيل(٥) .

وهناك فيض من النصوص حول المصنفات التي ألفت خصيصاً للذب عن المذهب المالكي ومقاومة المذاهب الأخرى(٦) ، فعبد الله بن طلحة (ت ٥٤٠هـ) صنف كتاباً في الرد على ابن حزم الظاهري(٧) ، بينما ألف عبد الله بن أيوب الأنصاري (٥٦٢هـ) كتاباً أسماه (المنوطة على مذهب مالك بن أنس) في ثمانية أسفار(٨) ، في حين صنف علي بن أحمد

---

(١) شجرة النور الزكية، محمد مخلوف، بيروت ١٩٤٩، نشر دار الكتاب العربي، ص١٤١، انظر أسماء المصنفات الأخرى التي ألفها عياض في نفس الترجمة.

(٢) أزهار الرياض، المقري، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، فضالة - المحمدية ١٩٨٠، ج٣، ص٩٥، انظر مؤلفاته الأخرى في نفح الطيب، ج٢، ص٣٦ .

(٣) العواصم من القواصم: نشره محب الدين الخطيب، طبعة الرياض ١٩٨٤، كما نشره أيضاً عمار الطالبي في جزأين. انظر صفحات ١٨١-١٨٣-١٨٥-١٩٧-١٩٨-١٧٢ .

(٤) نفسه ص٢٥١ .

(٥) الأعلام البشرية الحضارية، عبد العزيز بن عبد الله، طبعة المحمدية، فضالة ١٩٧٥، ج١، ص١٠٦ .

(٦) يذكر ابن الزبير أن عبد الرحيم بن عمر الحضرمي (ت ٥٨٠هـ) ألف كتاباً في المذهب، انظر صلة الصلة، نشرة ل. بروفنسال، الرباط ١٩٣٨، ص٥٤٣، ويتضمن كتاب الغنية للقاضي عياض كثيراً من أسماء المؤلفات التي ألفت لهذا الغرض.

(٧) التكملة، ابن الأبار، ج٢، ص٨١٦ .

(٨) ابن عبد الملك، م.س، ج٤، ص١٤٨ .

ابن محمد الغساني كتاباً في شرح الموطأ سماه (نهج المسالك للتفقه على مذهب مالك) في عشر مجلدات[١]، ويذكر ابن الزبير[٢] أن القاضي ابن الرمامة ألف كتاب (تسهيل المطلب في تحصيل المذهب).

ولا يخامرنا شك في أن هذه المؤلفات لعبت دوراً دعائياً كبيراً لتأسيس مدرسة مالكية وتعزيز مكانتها، ونسوق كمثال على ذلك ما جاء في كتاب القاضي عياض[٣] الآنف الذكر: (وقد نظرنا طويلاً في أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نر مذهباً من المذاهب غيره أسلم منه.. فالاستمساك به نجاة).

أما أبو بكر بن العربي[٤] فبعد انتقاده كل المذاهب، وجه دعوته إلى الجمهور: (فلا تبالوا بما رووا، ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ولا تسمعوا للمؤرخ كلاماً إلا الطبري، وغير ذلك هو الموت الأحمر والداء الأكبر)، بينما دعا ابن رشد في إحدى فتاواه إلى عدم الأخذ بشهادة أهل الظاهر[٥]، محتجاً على بطلان شهادتهم بإبطال القياس، كما هاجم الفقيه ابن الحاج بدوره المعتزلة، واستنزل عليهم اللعنات في فتوى أصدرها ضدهم متهماً إياهم بالرأي الفاسد والمعتقد الباطل[٦]، ونعت كل فكرة غير سنية بالزندقة[٧].

وعلى نفس النهج، عقد القاضي عياض باباً من مؤلفه (ترتيب المدارك) رجح فيه مذهب مالك على كافة المذاهب الأخرى، فخلص إلى القول (اعلموا وفقكم الله أن ترجيح

(١) ابن فرحون، م.س، ص٢١١ – ابن الابار، م.س، ج٢، ص٨١٦ .

(٢) صلة الصلة، ص٥٠٢ .

(٣) المدارك، ج١، ص٢٢ .

(٤) العواصم من القواصم، ص٢٤٨ .

(٥) نوازل ابن رشد، ص٢٠٤ .

(٦) نفسه ص٣١٠ .

(٧) انظر نازلة حول زندقة ابن البرجي في نفس المصدر، ص٣٠٤ ومما ورد فيها (...وشهادة كلمة غامضة) وقد انفردت مع شهادة من شهد أنه سمعه ينشد القصيدة المتضمنة ذمّ أهل السنة، فالذي يوجبه الحكم عليه ان يضرب خمسمائة سوطاً ضرباً شديداً مبرحاً ويطاف به في الناس.. ثم يسجن عاماً ثانياً..).

مذهب مالك على غيره، وإنافة منزلته في العلم، وسمو قدره على طريق النقل والأثر لا ينكره إلا معاند أو قاصر)[١].

يتضح مما تقدم أن الفقهاء المغاربة والأندلسيين لعبوا دوراً أساسياً في الترويج للمذهب المالكي عن طريق التدريس والتأليف مما ساهم في بناء مدرسة مالكية بالمغرب والأندلس.

٦- دور الدولة المغربية في إرساء مدرسة مالكية:

وإذا كانت العوامل التي أتينا على ذكرها ساهمت بنسب متفاوتة في بناء مدرسة مالكية بالغرب والأندلس، فيجب ألا نغفل دور الدولة المغربية في هذا الصدد، خاصة دولة المرابطين التي حكمت من منتصف القرن الخامس الهجري حتى منتصف القرن الذي يليه، فالوحدة المذهبية تخدم الاستقرار والأمن، لذلك سعى المرابطون إلى جعل المذهب المالكي (محور حركتهم الإصلاحية)[٢]، واستماتوا في استئصال شأفة المذاهب الأخرى ولم يتورعوا عن استخدام القوة أحياناً، وبذلك أصبح المذهب المالكي مرتبطاً أشد الارتباط بالدولة، حيث تجسد دورها في إسناد منصب القضاء للفقهاء المالكيين دون غيرهم (فلم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك)[٣]، وإلقاء نظرة على أسماء القضاة الذين أسندت إليهم وظيفة القضاء كفيل بتدعيم هذا الرأي ففي ترجمة عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي، يذكر ابن الأبار[٤] أن أباه (كان من حفاظ المذهب المالكي، ومن المشاورين بفاس أيام لمتونة) وجل أسماء القضاة أو الذين تولوا خطة الشورى تقترن تراجمهم بتبحرهم في المذهب المالكي[٥].

(١) المدارك، ج١، ص٦٨.
(٢) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ، الجراري، البيضاء ١٩٧٦، ص١٧.
(٣) المعجب في تلخيص أخبار العرب، المراكشي، تحقيق محمد العريان ومحمد العلمي، البيضاء ١٩٧٨ (ط٧)، ص٢٥٤.
(٤) التكملة، ص٩٢٢.
(٥) نفسه، ص١٤-٢٥٧-٣٠٩-٤٩٨-٥٦٨.

علاوة على إسناد مناصب للفقهاء المالكيين، ركزت الدولة تشريعها القضائي وفق المذهب المالكي، وشددت على ضرورة الالتزام به نصاً وروحاً، ففي رسالة بعثها الأمير تاشفين بن علي إلى أهل بلنسية بعد استرجاعها سنة ٤٩٥هـ ورد ما يلي: (واعلموا رحمكم الله أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبدو على ما اتفق عليه السلف الصالح رحمهم الله من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه، فلا عدول لقاضٍ ولا مفتٍ عن مذهبه، ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم إلا به، ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال إلى الأئمة إلى سواه فقد ركب رأسه واتبع هواه)[١]، ولدينا من القرائن ما يثبت تدخل الدولة ومتابعتها لك العلوم المخالفة للمذهب المالكي[٢] الذي صار محور الدراسة في المساجد[٣].

ودعمت الدولة جهودها بنشر المذهب المالكي في السودان، فمنذ عهد الداعية المرابطي عبد الله بن ياسين، بدأ يتسرب إلى هذه الآفاق البعيدة، حيث تم إرسال الدعاة هناك، فأسلم بعض ملوكها واعتنقوا المذهب وعملوا على نشره بين قبائلهم والقبائل الأخرى المجاورة حتى غلبت التقاليد المالكية بفضل المدارس التي أنشئت هناك[٤].

---

(١) (نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين)، حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٥، مجلد١، عدد٣، ص١١٢-١١٣ والرسالة مؤرخة في العشر الأولى من جمادى الأولى عام ٥٣٨هـ.

(٢) كتاب التشوف، ابن الزيات، تحقيق احمد توفيق، البيضاء ١٩٨٤، منشورات كليات الآداب بالرباط، ص٩٨، ويذكر أن رئيس ناحية سجلماسة مر على أبي الفضل النحوي وهو يدرس اصول الفقه فقال: (أرى هذا الرجل أراد أن يدخل علينا علوماً لا نعرفها فأمر بإخراجه من المسجد) انظر نفس الرواية عند التنبكي، نيل الابتهاج، بيروت (د.ت)، دار الكتب العلمية، ص٣٥٠ .

(٣) (التعليم بالمغرب الأقصى في عصر المرابطين والموحدين)، حسن علي حسن حوليات كلية دار العلوم بالقاهرة، العام الجامعي ١٩٧٢-١٩٧٣م، ص٧٥ .

(٤) الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، حسن احمد محمود، طبعة ١٩٨٦ (ط٣)، دار الفكر العربي، ص٢٤٤ .

يتضح مما سبق أن مجموعة من العوامل المتنوعة ساهمت في إرساء مدرسة مالكية بالمغرب والأندلس، فماذا عن علاقة أعلام هذه المدرسة مع القاضي عبد الوهاب البغدادي؟ وذلك ما نتناوله في الشق الثاني من هذا البحث.

ثانياً: علاقة القاضي عبد الوهاب البغدادي بفقهاء المالكية بالمغرب والأندلس:

١- علاقة تقدير ومحبة متبادلة:

من الملفت للنظر أن الفقهاء المغاربة والأندلسيين كانوا يكنون تقديراً عظيماً واحتراماً عميقاً للقاضي عبد الوهاب البغدادي، ولا غرو فقد اعتبره الفقيه المغربي الونشريسي (ت٩١٤هـ) من بين الأئمة المجددين الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة لتجديد دينها وإصلاح أحوالها، فعدّه من هؤلاء الأئمة المجددين الذين جاؤوا على رأس المائة الرابعة[١]، بينما وصفه النباهي - وهو من قضاة الأندلس الذائعي الصيت - بعبارات تعكس هذا التقدير حيث قال: (ومن أعلم العلماء وصدور القضاة والرواة الشيخ الفقيه المالكي، أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون البغدادي)[٢]. وبلغ من تبجيل علماء المغرب والأندلس لهذه الشخصية ما جعلهم أحياناً يكتفون بالاعتماد عليه في فتاواهم دون غيره، وهو ما يبدو واضحاً من خلال ما لخصه الونشريسي بقوله: (ونقله هؤلاء الأشياخ الجلة - يقصد فقهاء المغرب - عن عبد الوهاب فقط)[٣].

ولا يساورنا الشك في أن المكانة العلمية التي اكتسبها القاضي عبد الوهاب، كانت وراء هذا التقدير الذي كان يكنه له علماء الغرب الإسلامي، ولم يكن هذا التقدير من جانب واحد، بل إن القاضي المذكور كان بدوره يبدي إعجاباً بتلامذته المغاربة

---

(١) المعيار، ج١٠، ص٩.

(٢) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠، دار الآفاق الجديدة، ص٤٠.

(٣) المعيار، ج١، ص٢٠٥.

والأندلسيين، ويكن المحبة لأهل المغرب والأندلس، حتى إنه بعد رحيله عن بغداد واستقراره في مصر، كان قد عقد العزم على القدوم إلى المغرب، لولا أنه زهد فيه عندما وصفت له أوضاعه، وفضل بدلاً من ذلك الأندلس التي كان يعتزم الاستقرار فيها نهائياً، (وقد كان خاطب فقهاء القيروان ورام القدوم على الأندلس، وكتب أيضاً في ذلك إلى مجاهد الموفق صاحب دانية فعاجلته منيته وتوفي بمصر في شعبان سنة ٤٢٢هـ)[١] .

من خلال النصوص السالفة الذكر يتضح أن علاقة القاضي عبد الوهاب البغدادي بعلماء المغرب والأندلس كانت مبنية على التقدير والاحترام والمحبة المتبادلة، حتى إنه كان يتمنى الإقامة بين ظهرانيهم في الأندلس لولا أن المنية لم تمنحه هذه الفرصة.

٢- تتلمذ المغاربة والأندلسيين على يد القاضي عبد الوهاب:

تتمثل الصورة الثانية من صور الصلات التي جمعت القاضي عبد الوهاب بعلماء المغرب والأندلس في تتلمذ مجموعة منهم على يده، فثمة إشارات تشير إلى أن العلماء المغاربة والأندلسيين شدوا الرحال إلى القاضي عبد الوهاب سواء عندما كان مقيماً في بغداد، أو عندما استقر في مصر، وفي هذا الصدد ذكر النباهي[٢] أن جماعة من أهل الأندلس من بينهم القاضي ابن شماخ الغافقي ومهدي بن يوسف تفقهوا على يديه، بينما ذكر ابن عطية[٣] في ترجمة الفقيه المقري أبي الحسن يحيى بن إبراهيم بن أبي زيد المرسي، أنه رحل سنة ١٤٢١هـ إلى مصر، فالتقى هناك بالقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي، وسمع منه كتاب التلقين، والراجح أن رحلة العلماء المغربة نحو هذا الشيخ دليل على سمو مكانته العلمية، وقرينة على نظرة التقدير والاحترام التي كان يكنها له المغاربة، حتى إنهم كانوا يتجشمون عناء الرحلة ومخاطرها في سبيل الارتواء من فيض نبعه.

(١) النباهي، م.س، ص١٤٢ .
(٢) نفسه، ص٤١ .
(٣) فهرست ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، بيروت ١٩٨٠ (ط١) دار الغرب الإسلامي، ص٨٤ .

٣- رواج مؤلفات القاضي عبد الوهاب بالمغرب والأندلس:

نظراً للمكانة العلمية التي كان يتبوؤها القاضي عبد الوهاب، والتقدير الذي كان يكنه له أهل المغرب والأندلس، فقد راجت معظم مؤلفاته بهذه المنطقة من العالم الإسلامي، وأصبحت تشكل حجر الزاوية في المناهج الدراسية بها.

في هذا المنحى يذكر القاضي عياض[١] في ترجمة شيخه ابن أبي سكرة أنه سمع منه العديد من المصنفات، ويخص بالذكر كتاب (تلقين المبتدئ) للقاضي عبد الوهاب، ومن جهته، يذكر ابن عطية[٢] في ترجمة الفقيه أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الأموي صاحب الشورى بقرطبة أنه درس على أحد المشايخ الذي أخبره بمؤلفات أبي محمد القاضي عبد الوهاب.

أما النباهي فيسرد مجموعة من مؤلفات القاضي المذكور، من بينها كتاب (التلقين) وكتاب (شرح الرسالة والنصرة لمذهب دار الهجرة) و(كتاب المعونة) و(أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملة)، وكتاب (الإشراف على نكت مسائل الخلاف)، وكتاب (الإفادة في أصول الفقه) ثم كتاب (التلخيص) وغيرها من الكتب، مما ينم عن شهرتها ورواجها في أوساط المغاربة والأندلسيين حيث كانت معتمدهم في الدراسة والتلقين[٣].

ومن اللافت للانتباه أن كتابات المغاربة والأندلسيين لم تقتصر على إظهار الجوانب الفقهية المتميزة عند القاضي عبد الوهاب فحسب، بل أسهمت في إبراز الجانب الشعري في شخصيته العلمية، فقد أورد محمد بن عياض مجموعة من الأبيات الشعرية الغزلية التي نظمها القاضي المذكور في صباه[٤]. ومن جهته أبرز أبوه القاضي عياض شاعرية

(١) كتاب الغنية، تحقيق ماهر زهير جرار، بيروت ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م (ط١)، دار الغرب الإسلامي، ص١٣٥.

(٢) فهرست ابن عطية، ص٨١.

(٣) المرقبة العليا، ص٤١.

(٤) التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، طبعة فضالة-المحمدية ١٩٨٢م-١٤٠٢هـ(ط٢)، ص٦٦، ومن هذه الأبيات الشعرية:

فجد بالوصال فدتك النفوس ... فلست على الهجر بالقادر
وفيك تعلمت نظم القريض ... فلقبني القوم بالشاعر

القاضي عبد الوهاب في الرواية التي ذكر فيها أن هذا الأخير دخل قرية تدعى أسعرد من بلاد الكرد بالقرب من جبل الجودي، فحلّ ضيفاً على ابن علون رئيس القرية، ووجد عنده مجموعة من الشعراء ينشدونه شعراً في كل فصل من فصول السنة، فيعرض أشعارهم على القاضي عبد الوهاب، وفي أحد الأيام تعمدوا التقليل من فضله وقدموا الرئيس عليه ليجربوا ما إذا كان يحسن الشعر، فنظم شعراً طويلاً من البحر الكامل(١).

وهكذا تتضح صلة القاضي عبد الوهاب بعلماء المغرب والأندلس من خلال إبراز هؤلاء مختلف الجوانب الثقافية المكونة لشخصيته العلمية، سواء من خلال سرد أخبار رحلة علماء الغرب الإسلامي إليه، أو من خلال سرد مؤلفاته وأشعاره.

٤- علماء المغرب والأندلس يكتبون سيرة القاضي عبد الوهاب البغدادي:

تتجلى الصورة الرابعة من صلة القاضي عبد الوهاب بعلماء المغرب والأندلس في اهتمام هؤلاء بترجمة حياته والاهتمام بذكر مؤلفاته، فضلاً عن سرد جزئيات أخرى من شخصيته، قد لا توجد في مصادر أخرى تناولت سيرته، ولا غرو فقد أورد النباهي ترجمته بتفصيل ضمن قائمة القضاة الذين ترجم لهم، فذكر أنه درس على يد العلامة محمد بن أبي بكر الباقلاني، وأنه تولى القضاء بعده بعدة مواضع ومنها الدينور التي علا فيها كعبه وشاع في الآفاق ذكره(٢)، ووصفه بأنه كان فقيهاً متأدباً، وأنه خرج في آخر عمره إلى مصر، فحصل له حال من الدنيا، كما ذكر شيوخه وتلامذته.

ومن جهة أخرى أورد لنا هذا القاضي الأندلسي في ثنايا الترجمة التي خصصها للقاضي عبد الوهاب أسباب خروج هذا الأخير من بغداد، موضحاً أنه نقل عنه كلام قاله

---

(١) الغنية، ص١١٤-١١٥، ومما نظمه:

يا شاعراً الفاظه في نظمها	درراً غدت وزبرجداً وزمرذا
خذها فقد نسقتها لك ساهراً	فيها وحق لمثلها أن يؤخذا
حتى تظل تقول من عجب بها	من قال شعراً فليقله هكذا

(٢) النباهي، م.س، ص٣٧-٤٠ .

في الشافعي وطلب لأجله، فخرج مضطراً عنها نحو مصر[(١)]، كما بيّن الفكرة التي كانت تراوده في الاستقرار بالأندلس كما سلف الذكر[(٢)]، وإذا كان يجعل سنة وفاته هي ٤٢٢هـ، فإن ابن عطية وهو فقيه مغربي عاش في عصر الموحدين أورد في ترجمته للقاضي المذكور أنه توفي سنة ٤٢١هـ[(٣)].

ويبلغ أوج اهتمام المغربة بسيرة القاضي عبد الوهاب، من خلال ما قاموا به من تصحيح للمعلومات التي كتب خطأً عنه في مصنفات كتاب آخرين، وهو ما سعى إليه القاضي عياض السبتي (ت٥٤٤هـ) حين صحح كلام الشيرازي في كتاب التعريف الذي زعم فيه أن القاضي عبد الوهاب رأى أبا بكر البصري، ولكنه لم يسمع منه شيئاً، في حين أن الصواب كما ورد عند القاضي عياض أنه حدّث عنه إجازة[(٤)].

وإلى جانب النباهي وابن عطية، نجد جماعة من كتاب السيرة المغاربة والأندلسيين يترجمون للقاضي عبد الوهاب، نذكر من بينهم محمد بن عياض بن القاضي عياض سالف الذكر الذي عرض له في كتاب (التعريف بالقاضي عياض)[(٥)]. كما ترجم له ابن بسام صاحب الذخيرة[(٦)]، وابن فرحون في (الديباج المذهب)[(٧)]، وعرض لسيرته كل من ابن الأبار في كتابه التكملة[(٨)] وابن عبد الملك في الذيل والتكملة[(٩)]. وكل هذه النماذج تعكس مدى علاقة القاضي عبد الوهاب بفقهاء المغرب والأندلس حيث ظل اسمه منحوتاً في الذاكرة المغربية والأندلسية.

---

(١) النباهي، ص٤١ .

(٢) نفسه، ص٤٢ .

(٣) فهرست ابن عطية، ص٨٤ .

(٤) النباهي، م.س، ص٤١ .

(٥) محمد بن عياض، م.س، ص٦٦ .

(٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥-١٩٧٨، ق٤ ج٢، ص٥١٥ .

(٧) الديباج المذهب تحقيق محمد أبو النور، نشر دار التراث بمصر، ج٢، ص٢٦ .

(٨) التكملة، نشر عزت العطار، طبعة القاهرة، ج٢، ص٦٧٣ .

(٩) الذيل والتكملة، السفر الثامن، قسم الغرباء، تحقيق محمد بن شريفة، ص١١٠ .

٥- اعتماد الفقهاء المغاربة والأندلسيين على فتاوى القاضي عبد الوهاب:

شكلت فتاوى القاضي عبد الوهاب مرجعاً أساسياً لفقهاء المغرب والأندلس حتى إن الفقيه المغربي الونشريسي اعتمد اعتماداً كبيراً في إصدار مجموعة من فتاويه على كتابيه المعونة والإشراف[1].

ومن خلال تصفح مجموعة من النوازل والفتاوى الواردة في كتاب المعيار، يتضح اعتماد الونشريسي وغيره من علماء المغرب والأندلس على هذا القاضي، ويمكن تلمس ذلك عبر النماذج الآتية:

١- في مجال العبادات:

أورد الونشريسي ما ذكره ابن الماجشون في فتوى نقلها ناقل عن القاضي عبدالوهاب في مسألة الرجل المسلم الذي يشتري ثوب ذمي، هل يستوجب ذلك غسله والصلاة به، فجاء نص جواب الفتوى مطابقاً لما أفتى بها القاضي عبد الوهاب من أن الثوب إذا كان رفيعاً يفسده الغسل، فإن ذلك لا يستلزم غسله، ويمكن للمسلم أن يصلي به[2]، ولعل هذه الفتوى تبرز مراعاة القاضي المذكور ضرورة المزج بين المحافظة على أحكام الشريعة ودفع الضرر عن المسلم.

من جهة أخرى نجد فقيهاً مغربياً آخر هو سيدي محمد بن مرزوق يعتمد بدوره على حكم القاضي عبد الوهاب في أن الجمع بين الصلاتين في السفر لا يختص بالمسافة الطويلة، علماً بأن مجموعة من علماء الغرب الإسلامي كانوا قد سبقوا سيدي محمد بن مرزوق في اعتماد نفس حكم القاضي عبد الوهاب كالفقيه الباجي وابن محرز واللخمي[3]، ولعل إجماع المشايخ المغاربة على أحكام هذا القاضي واستقاء فتواهم منه

---

(١) المعيار، ج١، ص٢٧١، ص١٠٩ .

(٢) نفسه، ص٨٢ .

(٣) نفسه، ج١، ص٢٠٤-٢٠٥ .

دليل على رسوخ قدمه ومكانته في مجال الإفتاء من جهة، وحجة على الصلات التي كانت تجمعهم بهذا الشيخ البغدادي من جهة أخرى.

وفي مجال العبادات دائماً، طرحت في نوازل المغاربة قضايا أخرى تم الاستناد فيها على القاضي عبد الوهاب، نذكر من بينها استناد الفقيه الونشريسي على فتواه حول عدد البيوتات التي تستلزم إقامة صلاة الجمعة داخل قرية معينة، فبعد أن بيّن حكم الإمام مالك الذي يرى أن (الجمعة لا تجب إلا في القرية الكبيرة المتصلة البنيان التي فيها الأسواق)، يردف إلى هذا الحكم حكم القاضي عبد الوهاب بأن معيار وجوب إقامة الجمعة في قرية من القرى، تستلزم أن يكون أهلها من العدد الذي يمكنهم الثواء وتتقرى بهم القرية[1].

وفي موضع آخر من كتاب المعيار، تم الاعتماد على القاضي عبد الوهاب أيضاً في نازلة تدور حول إمكانية إقامة الجمعة في جامعين بمدينة بسطة الأندلسية، فكان الجواب على النازلة يسير في اتجاه المنع، اعتماداً على أحكام القاضي عبد الوهاب، ويورد الونشريسي الحجة التي استدل بها القاضي عبد الوهاب حول هذاالمنع من أن النبي ﷺ لم يقم الجمعة إلا في مسجد واحد، ولو جازت في أكثر لبيّنه ﷺ قولاً وفعلاً[2].

٢- في مجال العلاقات مع دار الحرب:

شكلت العلاقات بين دار الإسلام ودار الحرب اهتماماً في أوساط فقهاء المغرب والأندلس، وكثيراً ما أثارت هذه العلاقات إشكاليات معقدة طرحت عليهم، فكانوا يستأنسون بفتاوى القاضي عبد الوهاب البغدادي، من ذلك على سبيل المثال اعتماد الونشريسي عليه في مسألة الرهائن المشركين الذين يدخلون الإسلام هل يردون إلى أصحابهم، وهو ما يتجلى في قول هذا الفقيه المغربي: (فإن رأيت في المعونة وفي الإشراف لعبد الوهاب في كتاب الجهاد - حين ذكر أخذ المسلمين رهائن من المشركين، وأسلموا بين

---

(١) المعيار، ج١، ص٢٢٥.

(٢) نفسه، ج١، ص٢٣١-٢٣٩.

أيدينا أنا نردهم إليهم، ولا يجوز لنا حبسهم خلافاً لمن أبى ذلك – ما نصه: ولأنا إذا لم نردهم لم نأمن من غدرهم بالمسلمين لأنهم إنما يتهمون ما داموا على دينهم)[١]، وواضح من هذه الفتوى أن القاضي عبد الوهاب كان بعيد النظر، مراعياً مصلحة المسلمين فضلاً عن روح الاحتياط والحذر من الغدر بالمسلمين أكثر من الاهتمام بأسر مجموعة من أفراد العدو، يمكن أن يلعبوا دوراً مخرباً يضر بمصلحة الجماعة الإسلامية.

وفي نازلة أخرى استند الونشريسي على حكم القاضي عبد الوهاب في مسألة هامة تتعلق بإمكانية المسلمين القيام بشن غارات على أطراف مراكز العدو الذي دخل معه السلطان المسلم في صلح، مع بقاء بعض المناطق الساحلية في يد العدو، فكان جواب النازلة – استناداً على رأي القاضي عبد الوهاب – إجازة الجهاد[٢]، وهو جواب يدل على الحس المرهف الذي كان يشعر به هذا الأخير تجاه أمته الإسلامية والترجمة الأمنية لمشاعر المسلمين تجاه العدو النصراني، ولو كان في حال صلح مع سلطان المغرب.

٣- في مجال المعاملات الاجتماعية:

من بين المشاكل الاجتماعية التي كانت تطرح في الأسواق المغربية، مسألة البيع بالغبن، أو البيع المضغوط الذي يكون البائع ضحيته نتيجة لإكراهات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وهي المسألة التي تعرض لها فقهاء المغرب والأندلس، وأفردوا لها أبواباً خاصة تشمل مجموعة من الأحكام التي صيغت حفاظاً على مصلحته، وفي هذا الصدد شكلت كتب القاضي عبد الوهاب مرجعيات أساسية لفقهاء المغرب، ولا غرو فقد استند عليه الونشريسي حين تعرض لمسألة البيع بالغبن، خاصة في كتاب (المعونة) الذي أورد فيه قيام بعض الباعة البغداديين بالغبن المسترسل[٣]، وبالمثل اعتمد عليه كذلك في مسألة خلط

---

(١) المعيار، ج٢، ص١٠٩ .

(٢) نفسه، ج٢، ص٢٠٨ .

(٣) نفسه، ج٥، ص٣٧٦ .

الزيت بالخل والعسل باللبن، حيث جوّز هذا الخلط ما لم تكن نتيجته تؤدي إلى حالة السكر[١].

وفي نفس المجال – مجال المعاملات الاجتماعية – استعان الونشريسي بالقاضي عبدالوهاب في تحريم وصل الشعر عند المرأة، ووصل الشعر معناه أن تقطع امرأة جزءاً من شعر رأسها، وتعطيه لامرأة ثانية، وقد برّر منعه – استناداً على حكم القاضي عبد الوهاب – الذي اعتبره ضرباً من التدليس[٢].

من حصاد هذه المجموعة من النوازل التي اعتمد فيها الونشريسي وغيره من فقهاء المغرب والأندلس على القاضي عبد الوهاب، يتضح مدى الثقة التي وضعها فيه هؤلاء، كما أن التجاءهم إلى أجوبته وأحكامه تدل على ما كان يتمتع به من مكانة علمية وأمانة لم تكن موضع شك لديهم، وتعكس في الوقت نفسه الصلة العلمية التي كانت تربط هؤلاء بعمدة المدرسة المالكية القاضي عبد الوهاب البغدادي.

خلال القول: أن المدرسة المالكية بالمغرب والأندلس عرفت نمواً تدريجياً بلغ أَوْجَهُ خلال القرن الخامس الهجري، وأن القاضي عبد الوهاب البغدادي مثّل حلقة وصل بين أعلام المذهب المالكي في المشرق والمغرب، نتيجة تتلمذ مجموعة من أقطاب المذهب المالكي بالمغرب والأندلس على يديه، وانتشار مؤلفاته بهذه الأصقاع، واستعمالها في مجال التدريس أو كمصادر كان يستند عليها القضاة المالكيون المغاربة والأندلسيون في إصدار أحكامهم وأجوبتهم، حتى أن فتاوى القاضي عبد الوهاب أصبحت مرجعيات لا محيد عنها، خاصة في النوازل التي كان يستعصي حلها بسهولة.

---

(١) المعيار، ج١١، ص٨٣.

(٢) نفسه، ج١١، ص١٤٦.

المصادر والمراجع المستعملة للبحث

١- المصادر الأصلية المخطوطة:

- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي الفقيه (توفي عام ٥٢٠هـ)

نوازل ابن رشد. خ.ع.و.م.ر - رقم ك٧٣١.

- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله المعارفي الإشبيلي (ت٥٣٤هـ)

ترتيب الرحلة للترغيب في الملة. خ.ع.و.م.ر - ضمن مجموع رقم ك١٤٧٥

- مؤلف مجهول: (عاش في القرن ٧هـ)

كتاب في تراجم الأولياء خ.ع.و.م.ر - رقم ج١٢٧١

٢- المصادر الأصلية المنشورة:

- ابن الأبار، عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت٦٥٨هـ)

التكملة لكتاب الصلة، جزآن، نشره (القرد بل) وابن أبي شنب، طبعة الجزائر ١٩٩١

- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني (ت٥٤٢هـ)

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الجزء الرابع - القسم الثاني

تحقيق د. إحسان عباس، طبعة ليبيا - تونس ١٩٨١ - الدار البيضاء.

- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (٥٧٨هـ)

كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم نشره وصححه السيد عزت العطار الحسيني، طبعة بغداد، القاهرة ١٩٥٥

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ)

النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة - الجزء الخامس

نشر المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ)

كتاب المقدمة. الجزء ٣، تحقيق د. عبد الواحد وافي، طبعة ١٣٧٦-١٩٥٢

مطبعة لجنة البيان العربي.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٧٨١هـ)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٤، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة بيروت (دون تاريخ)، دار صادر.

- ابن الزبير، أحمد إبراهيم بن الثقفي العاصمي الجياني (ت٧٠٨هـ)

كتاب صلة الصلة، نشرها ليفي بروفنسال طبعة الرباط ١٩٣٨ - المطبعة الاقتصادية

- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت٦٢٧هـ)

التشوف إلى رجال التصوف

تحقيق أحمد التوفيق - طبعة البيضاء ١٩٨٤ منشورات كلية الآداب الرباط

- ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت٧٠٣هـ)، الذيل والتكملة، السفر ٤-٦، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت ١٩٧٣ - السفر ٨، القسم ١، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط ١٩٨٤ .

- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (عاش بعد سنة ٧١٢هـ)

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق س، قولان وبروفنسال، طبعة بيروت ١٩٨٠

- ابن العربي، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المعارفي (ت٥٤٣هـ)

العواصم من القواسم، حققه وعلق على حواشيه، محب الدين الخطيب، طبعة الرياض ١٩٨٤

- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق المحاربي الأندلسي (ت١٥٤١هـ)

فهرست ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، طبعة بيروت ١٩٨٠ (ط١) دار الغرب الإسلامي.

- ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري (٧٩٩هـ)

الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، طبعة الفحامين بمصر سنة ١٣٥١هـ (ط١)

- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (٩٦٠-١٠٢٥هـ)

جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس - القسم الأول

طبعة الرباط ١٩٧٣ - دار المنصور للطباعة والوراقة.

- البكري، عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (٤٨٧هـ)

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره دي سلان، طبعة الجزائر ١٩١١

- التنبكي، بابا أحمد بن عمر بن أقيت بن عمر السوداني (٩٦٣هـ)

كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشر على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون، طبعة بيروت (دون تايخ)، دار الكتب العلمية.

- الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني (ت٧٨٤هـ)

تذكرة الحفاظ، ج٤، طبعة حيدر أباد والدكن ١٣٣٤هـ (ط١) دار المعارف النظامية

- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ)

تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيّ الدين عبد الحميد، طبعة بغداد (ط٣) ١٩٨٧

مكتبة الشرق الجديد بيروت - دار العلوم الحديثة.

- عياض، القاضي، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت٥٤٤هـ)

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ٨ أجزاء.

ج١ : تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، فضالة المحمدية ٨٣ (ط٢)

ج٢-٣-٤ : تحقيق عبد القادر الصحراوي، فضالة المحمدية (د.ت)

ج٦-٧-٨ : تحقيق سعيد أحمد أعراب، فضالة المحمدية ١٩٨١-١٩٨٢-١٩٨٣

- عياض : الغنية : فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، طبعة بيروت ١٩٨٢م-١٤٠٢هـ (ط١) دار الغرب الإسلامي .

- محمد بن عياض، أبو عبد الله محمد بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٧٥هـ)، التعريف بالقاضي، تحقيق د. محمد بنشريفة - طبعة فضالة المحمدية ١٩٨٢م-١٤٠٢هـ (ط٢) .

- المقدسي، شمس الدين البشاري (توفي حوالي ٣٨٠هـ)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشرة DEGOEGE، طبعة ليدن ١٩٠٦

- المراكشي، عبد الواحد (ت ٥٨١هـ)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، البيضاء ١٩٧٨ (ط٧) .

- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤٠هـ)

أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، الجزء ٣، تحقيق مصطفى السقى، إبراهيم الأبياري وشلبي .

- المقري، نفح الطيب، الجزء - ٢،٣ - تحقيق د. إحسان عباس

- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي (ت ١٣١٥هـ)

كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، البيضاء ١٩٥٤ - دار الكتاب .

- النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن الحسين المالقي (حوالي٧٩٣هـ)، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، طبعة بيروت ١٩٨٠م-١٤٠٠هـ - دار الآفاق الجديدة .

- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (توفي بفاس سنة ٩١٤هـ)

المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب

١- الأجزاء: ١-٢-٥-٩-١٠-١١ نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، طبعة بيروت ١٩٨١ - دار الغرب الإسلامي.

٣- الدراسات والمراجع العربية الحديثة:

- حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية (ط٣) ١٩٨٦، دار الفكر العربي.

- جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٥

- رضوان مبارك: المذهب المالكي بالمغرب في عهد المرابطين والموحدين.

- رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب بالرباط رقم ر-ج٢-٢١٧

- عبد العزيز بن عبد الله، الأعلام البشرية والحضارية، ج١ - مطبعة فضالة المحمدية ١٩٧٥

- عبد اللطيف أكنوش: تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، طبعة البيضاء (دون تاريخ) مؤسسة إفريقية والشرق.

- عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، طبعة القاهرة ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ (ط٢) دار الوفاء للطباعة والنشر.

- عمر الجيدي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي

طبعة البيضاء ١٩٨٧ - مطبعة النجاح الجديدة.

- محمد داود أبو العزم: الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقية حتى قيام دول المرابطين، طبعة مكة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م - المكتبة الفيصلية.

- محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، طبعة تطوان ١٩٥٣ دار الطباعة المغربية، معهد مولاي الحسن.

- محمد مخلوف: شجرة النور الزكية جزءان، بيروت ١٩٤٩، نشر دار الكتاب العربي

٤- الدوريات:

- أحمد مكي: (الحضارة الإسلامية بالأندلس) مجلة البينة، مارس-دجنبر ١٩٧٠

- حسن علي حسن: (التعليم بالمغرب الأقصى في عصر المرابطين والموحدين)

مجلة كلية دار العلوم القاهرة، العام الجامعي ١٩٧٢-١٩٧٣، طبعة القاهرة ١٩٧٤

- حسين مؤنس: (نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ٥٢٠/١١٢٦ إلى ٥٥٤٠/١١٤٥) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد ١٩٥٥، مجلد ١، عدد ٣.

- عصمت دندش عبد اللطيف: (دراسات حول رسائل ابن العربي) مجلة المناهل عدد ٩ سنة ١٩٧٧ ص١٤٩-١٨٨

- محمد العمراني: (البيئة وأثرها في صياغة مذهبنا المالكي)، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٤٥ سنة ١٩٨٥

٦- دراسات وأبحاث باللغات الأجنبية:

- GIRARI (Abbas): "Les Almoravides: Etat, doctrine, oeuver"
DIRASAT IFRIQUIYYA - issue n2 Avril 1986, pp:161-168.

Quoq (Jean): L Histoire de 1 Islamisation de 1 Afrique de 1 ouest des origines a 1a fin du 16 siecle. Ed paris (S.D.E.) Librairie orientaliste. Paul. Guenthner.

الاختزالات المستعملة في البحث وثبت المصادر:

ط- طبعة

(د.ت) دون ذكر تاريخ الطبع

(د.م) دون ذكر مكان الطبع

مخ- مخطوط

خ.ع.و.م.ر. - الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط

مج- مجلد



المدرسة المالكية بصقلية
تاريخها وأعلامها وعلاقتها بالمدرسة البغدادية

إعداد

أ. سعد بنيحيى*

* واعظ بالمجلس العلمي بالقنيطرة - المغرب، حصل على الماجستير من جامعة ابن طفيل بالقنيطرة في الفقه وأصوله عام (٢٠٠٢م) وكان عنوان رسالته: «المؤلفات الفقهية على المدونة بالغرب الإسلامي - كتاب النكت والفروق نموذجاً». له العديد من البحوث والدراسات.

الحمد لله الوهاب الذي أنزل الكتاب فهدى به العباد إلى الصواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الحساب.

وبعد:

تحمل هذه الورقة بين جنباتها محاولة لإبراز علاقة المدرسة المالكية البغدادية بالمدرسة الصقلية، وتأثر هذه الأخيرة بآراء العلماء البغداديين، ومنهجهم في دراسة المدونة مثلاً، والذي يعتمد على الأدلة والقياس والنظر الأصولي، والمنهج الجدلي، والغوص على المعاني وأسرار التشريع.

وقد اخترت الحديث عن المدرسة الصقلية وعلاقتها بالمدرسة البغدادية، لكون أعلام المدرسة الصقلية تتلمذوا لمشايخ المدرسة البغدادية أولاً، ولاعتماد الفقهاء الصقليين على مصنفات البغداديين ثانياً، ويظهر أن مصنفات الصقليين تختزن عدداً كبيراً من النقول عن مصنفات فقهية عراقية فقدت، وأخرى لم تطبع بعد.

وقد ترتب هذا البحث في فصل أول: تناولت فيه الحديث عن تاريخ المدرسة الصقلية وأعلامها.

وأتبعت ذلك بفصل ثان: تناولت فيه الحديث عن مظاهر تأثر المدرسة الصقلية بالمدرسة البغدادية عموماً، وبالقاضي عبد الوهاب رحمه الله بشكل خاص، وذلك من خلال مصنفين مغمورين للعلامة عبد الحق الصقلي رحمه الله، وهما كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة والمختلطة، وكتاب تهذيب الطالب وفائدة الراغب، والمشتمل على كثير من مسائل المدونة والمختلطة.

وختمت البحث بخلاصة موجزة لأهم نتائج البحث.

والله من وراء القصد، وما توفيقي إلا بالله...

منذ النصف الثاني من القرن الثالث أخذت العلوم الشرعية في الانتشار ببقاع الجزيرة الصقلية، حيث دخل مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه على يد ثلة من أصحاب سحنون وتلامذته، فكان عبد الله بن حمدون الكليبي (أو حمدويه) الصقلي المتوفى سنة ٢٧٠هـ – أحد من سمع من سحنون – ينشر مذهب مالك بصقلية[١]، وكان من أصحابه أيضاً الفقيه دعامة بن محمد الذي ولي القضاء لبني الأغلب ٢٩٧هـ، وسليمان بن سالم القاضي من أصحاب سحنون – أيضاً – ولي القضاء بصقلية ومات بها، وعنه انتشر الفقه بصقلية[٢]، وكان لقمان بن يوسف الغساني يدرس المدونة ويأخذها في اللوح مدة أربع عشرة سنة أقامها في صقلية، ويقال إنه كان عالماً باثني عشر صنفاً من العلوم[٣].

وكان أبو عمرو ميمون بن عمرو بن المعلوف من أصحاب سحنون أيضاً، ومعدود فيهم ذا دين وفضل، ولي مظالم القيروان ثم قضاء صقلية، توفي سنة ٣١٠هـ[٤].

وهكذا بدأت المدرسة المالكية تثبت أركانها بصقلية على يد هؤلاء الشيوخ الذين أدخلوا المدونة إليها بعد الفتح بقليل، فقاموا بتدريسها واختصارها وشرحها، وبينوا ما فيها من غريب، ونسجوا على منوالها.

كما اعتنت حلقات الدرس الفقهي بصقلية بموطأ مالك، وغيره من المؤلفات، ككتاب الملخص لأبي الحسن القابسي، والذي لخص فيه ما اتصل إسناده من أحاديث الموطأ، ومثل هذه الكتب كانت تصل إلى صقلية في الغالب عن طريق القيروان.

مع نهاية القرن الرابع الهجري بدأت المدرسة الفقهية بصقلية بإصدار أول مصنفاتها الفقهية، فقد ألف أبو سعيد البراذعي كتاب التهذيب في اختصار المدونة سنة ٣٧٢هـ بصقلية، فتعقبه عبد الحق الصقلي واستدرك عليه في كتاب سماه بتهذيب الطالب وفائدة الراغب، كما ألف كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة والمختلطة في أوائل القرن الخامس

(١) ترتيب المدارك: ٤/٢١٩.

(٢) طبقات الفقهاء: ١/١٦٢.

(٣) رياض النفوس فيطبقات علماء القيروان وإفريقية: ٢/١٩٣.

(٤) ترتيب المدارك: ٥/١١٠-١١١.

٤١٨هـ، وصنف أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس المتوفى ٤٥١هـ كتاب الجامع، والذي أضاف فيه إلى المدونة غيرها من الأمهات الفقهية.

وفي النصف الأول من هذا القرن دخلت إلى صقلية مؤلفات فقهية أخرى ككتاب التقريب لأبي القاسم خلف بن بهلول البربلي (ت٤٤٤هـ)، وقد عول فيه على نقل ابن أبي زمنين في لفظ المدونة، واستعمله الطلبة للمذهب في المناظرة، وانتفعوا به، حتى قال بعضهم: من أراد أن يكون فقيهاً من ليلته فعليه بكتاب البربلي.

ويحكي القاضي عياض: لما أكمل خلف بن القاسم بن بهلول البربلي كتابه دخلت منه نسخة صقلية وعبد الحق بها، فلما قرأه ونظر فيه إلى أقواله وما أدخله فيه من الكتب استحسنه، وأراد شراءه فلم يتيسر له ثمنه، فباع حوائج من داره واشتراه، فغلا الكتاب وتنافس فيه الناس عند ذلك[١].

وقد تخرج من هذه المدرسة علماء أفذاذ مثل:

- أبو بكر عتيق بن عبد الجبار الربيعي الفرضي الصقلي، فقيه فاضل، أديب في القرآن والفرائض، وتفقه عليه في المدونة، وكان إماماً في علم الفرائض، وعنه أخذها أهل صقلية وغيرهم[٢].

- أبو بكر بن أبي العباس، فقيه صقلية ومدرسها، أخذ عن أبي محمد بن أبي زيد، أخذ عنه ابن يونس[٣].

- أبو عبد الله محمد بن الفرج المازري المعروف بالذكي الصقلي، سكن قلعة بني حماد، وكان فقيهاً حافظاً، مدركاً نبيلاً، فهماً متقدماً في علم المذهب واللسان، متفنناً في علوم القرآن وسائر المعارف، توفي بأصبهان بعد الخمسمائة[٤].

---

(١) ترتيب المدارك: ٨/ ١٦٤.

(٢) ترتيب المدارك: ٧/ ٢٧٠.

(٣) ترتيب المدارك: ٧/ ٢٧٠.

(٤) ترتيب المدارك: ٨/ ١٠١-١٠٢.

- أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري، الفقيه المالكي[(١)] (ت٥٣٦هـ).

له تآليف مفيدة، عظيمة النفع، في الفقه والأصول والأدب، منها: «المعلم بفوائد مسلم»، و«التعليقة على المدونة»، و«شرح التلقين للقاضي عبد الوهاب»، و«شرح البرهان» لأبي المعالي الجويني، سماه «إيضاح المحصول في برهان الأصول».

- عبد المنعم بن الحسين الجرشي العتقي من أهل صقلية، يكنى أبا أحمد، كان فقيهاً مالكياً جليلاً، ذكره أبو مروان الطبني، وقال: لقيته بالمدينة من صقلية، وناهيك به تماماً وفضلاً، وقد دخل إلينا الأندلس قبل حركتي إلى المشرق، وعلقت عنه فوائد عجيبة ونكتاً حساناً[(٢)].

كما ظهر من علماء صقلية من له علم بالأصول وعلم الكلام، كأبي محمد، المعروف بابن صاحب الخميس الصقلي، وهو فقيه متكلم أصولي، فاضل مشهور موضعه، ذكره الميورقي فقال: كان فقيهاً، متكلماً، إماماً في علم الأصول، نافذاً في علم الفروع، متورعاً عن الفتيا. قال: هو أكبر من لقيت بصقلية[(٣)]. وكذلك أبو العباس أحمد بن محمد بن الجزار، قال عنه القاضي عياض: صقلي مشهور، مقدم ببلده، انفرد برئاسة الفتيا، والشهرة بالخير، والديانة والصيانة، وكان من أهل التحقيق بالفقه والأصول[(٤)].

وعلى العموم فإن الحركة العلمية بصقلية أخذت في الازدهار لولا الفتن التي عمت الجزيرة منذ مطلع القرن الخامس الهجري، والتي تسببت في هجرة عدد كبير من العلماء إلى مصر وتونس وغيرها من الأمصار التي كانت تشهد استقراراً نسبياً آنذاك، ومع ذلك

---

(١) ترجمته في: فهرس القاضي عبد الحق ابن عطية: ١٠٧، الغنية: ٦٥، ٢١٠، معجم البلدان: ٥/ ٤٠، وفيات الأعيان: ٤/ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ١٠٤، العبر: ٤/ ١٠٠، الديباج: ٣٧٤٤، رقم ٥٠٨، شذرات الذهب: ٢/ ١١٤، أزهار الرياض في أخبار عياض لشهاب الدين المقري: ٣/ ١٦٥، وانظر تقديم الشيخ محمد الشاذلي النيفر لكتاب المعلم بفوائد مسلم للمازري، ففيه ترجمة له مفصلة: ١/ ٨-١٠٤.

(٢) التكملة لكتاب الصلة: ٣/ ١٢٩.

(٣) ترتيب المدارك: ٨/ ٧٤-٧٥.

(٤) ترتيب المدارك: ٨/ ٧٥.

فقد احتفظت لنا كتب التراجم ببعض العلوم التي اشتغل بها الصقليون إلى جانب الفقه والأصول.

علم القراءات:

عرفت صقلية حلقات في علم القراءات يرأسها مشايخ كبار أمثال أبي محمد عبدالله فرج المدني، ومحمد بن إبراهيم بن الشامي المديني، وأبي بكر محمد بن علي الأزدي بن بنت العروق، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله الفتال، وهؤلاء شيوخ المدينة ومقدمون في الإقراء [١]، كما نبغ من أبناء هذه المدرسة أعلام كثر في علم القراءات القرآنية، نذكر من بينهم:

- أبو البهاء عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرئ الصقلي، قال عنه السلفي: «كان من أهل القراءات والحديث. روى لي شيئاً يسيراً من حفظه، وكتبت من أجزائه كذلك فوائد من حكاية وشعر. ولد سنة ٤٤٠هـ بصقلية، وتوفي سنة ٥١٧هـ بالإسكندرية» [٢].

- أبو الطاهر إسماعيل بن خلف الصقلي المتوفي سنة ٤٥٥هـ، كان إماماً في علوم الأدب، متقناً لفن القراءات، وقد صنف كتاباً في علم القراءات سماه العنوان [٣].

- أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق بن خلف المقرئ الصقلي المعروف بابن الفحام، كان من كبار القراء، وممن رحل من المغرب إلى المشرق في طلب القراءة على الشيوخ، فادرك في مصر ابن هاشم، وابن نفيس، وعبد الباقي بن فارس [٤]... له تأليف حسن سماه «التجريد في بغية المريد»، قال السلفي: «كتبت أنا منه أسانيد كل قراءة، وكان حافظاً للقراءات صدوقاً متقناً عالماً كبير السن، توفي في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة، وقد قال لي أبو الربيع سليمان بن عبد العزيز المقرئ الحمصي حمص الأندلس: «ما رأيت

---

(١) معجم السفر ١٩٠ .

(٢) نفسه ١٩٠ .

(٣) معرفة القراء الكبار رقم الترجمة ٣٢٦ .

(٤) نفسه.

أعلم بالقراءات ووجوهها منه لا بالمغرب ولا بالمشرق، وإنه ليحفظ القراءات كما نحن القرآن[١] ».

وكتابه « التجريد » من أشكل كتب القراءات حلاً ومعرفة.

علم الحديث:

أما علم الحديث، فقد اقتصرت الدراسات الحديثية بصقلية في الغالب على كتاب الموطأ شرحاً وتلخيصاً، وصحيح مسلم شرحاً له وتعليقاً، ورواية بعض كتب غريب الحديث.

فقد ألف محمد بن يونس التميمي المتوفى سنة ٤٤٧هـ، وهو علم من أعلام مازر، شرح موطأ مالك بن أنس رضي الله عنه، كما روى العباس بن عمرو الصقلي غريب الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي[٢]، يقول أبو عميرة الضبي: هذا الكتاب حسن، مشهور، ذكره أبو محمد بن حزم وأثنى عليه[٣].

وانصرف عتيق بن علي السمنطاري المتوفى سنة ٤٦٤هـ إلى تدريس الحديث، وألف كتاباً سماه « دليل القاصدين » وكان عبد الجليل بن مخلوف الصقلي[٤] المتوفى سنة ٥٤٤هـ يدرس مذهب مالك أربعين سنة، وسمع عليه الحديث كثيرون. وأخذ الطلبة عن أبي عبد الله المازري المتوفى سنة ٥٣٦هـ شروحاته وتعليقاته على صحيح مسلم...

وعلى العموم فقد كان لدى الصقليين تهيب من رواية الحديث، فابن الحذاء القيسي الصقلي أبى أن يروي لأبي طاهر السلفي شيئاً من الحديث خشية الوقوع في الخطأ أو الاتهام بالكذب. وسماعه كالآتي: أنا أبو بكر عتيق بن علي بن داود السمنطاري بصقلية

---

(١) معجم السفر ١٧٥ .

(٢) جذوة المقتبس ٢٢٩ .

(٣) بغية الملتمس.

(٤) ترجمته بترتيب المدارك: ٨/ ٧٤ .

أنا أحمد بن إسحاق المهراني ثنا أبو بكر النصيبي ثنا تمتام ثنا القعنبي عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله»[(١)].

يقول السلفي: «وقد كان يتمنع من الرواية، ولم يقرأ أحد عليه قط شيئاً من الحديث غيري بعد امتناع زائد، وخطب طويل جرى بيني وبينه حين وقفت على سماعه من السمنطاري، وإجازته له جميع رواياته»[(٢)].

علم اللغة والأدب:

كما حظيت علوم اللغة باهتمام الصقليين، فدرسوا كتب المشارقة وشرحوها واختصروها، وبرز من بين الصقليين علماء فطاحل باللغة، نذكر منهم:

– محمد بن أبي الفرج المالكي الكتاني الصقلي المعروف بالذكي النحوي، كان فاضلاً عارفاً باللغة والأدب، وكان آية في النحو وعلومه[(٣)]، وكان مولده بصقلية سنة ٤٣٧هـ، وقرأ الفقه على محمد بن يونس، والنحو على أبي علي الحيولي، ولم يخرج من صقلية إلا وهو إمام في الفقه والنحو، توفي بأصبهان سنة ٥١٢هـ[(٤)].

– أبو حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي، وصفه القفطي بأنه «فقيه محدث لغوي عالم بالعربية، مصنف في اللغة[(٥)]، ومن تصانيفه «تثقيف اللسان» دال على غزارة علمه»[(٦)].

– أبو القاسم علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع المتوفي سنة ٥١٥هـ، تتلمذ له كثير من الصقليين والمصريين، يعتبر كتابه «الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة» أهم

---

(١) رواه البخاري: ١/٢٠٣، ومسلم: ١/٤٣٥.
(٢) معجم السفر ٢٣٥.
(٣) إنباء الرواة: ٣/٧٣.
(٤) بغية الوعاة ٩٠.
(٥) إنباء الرواة: ٢/٣٢٩.
(٦) البلغة: ١/١٦١. وقد طبع كتاب تثقيف اللسان وتنقيح الجنان بتحقيق د. عبد العزيز مطر.

مصدر عن الحركة الأدبية والفكرية في صقلية إبان الحكم العربي الإسلامي لها، فقد احتوى على مائة وسبعين شاعراً، وعشرين ألف بيت من الشعر حسب رواية ياقوت الحموي[١]، ولابن القطاع تصانيف نافعة، منها كتاب «الأفعال» الذي أحسن فيه كل إحسان، ووصف بأنه أجود من الأفعال لابن القوطية، كما ألف كتاب «أبنية الأسماء» الذي جمع فأوعى، فيه دلالة على كثرة اطلاعه[٢].

كما أضحت صقلية مع بداية القرن الخامس محج كثير من المهتمين بالدراسات اللغوية والنحوية، فقد وفد عليها من أهل ميورقة: غالب بن عبد الله بن أبي اليمن بن محمد بن عامل القيسي النحوي في سنة أربعة وعشر وأربعمائة، ولقي بها أبا العلاء صاعد بن الحسن اللغوي، وقد أسنَّ فقرأ عليه[٣].

وبالرغم من وجود عدد كبير من علماء اللغة بصقلية، فإن اللغة العربية أصيبت باللحن بعد دخول الإسلام إلى صقلية بزمن قصير، وربما يكون ذلك أمراً طبيعياً لدخول عدد كبير من الصقليين في الإسلام، وقد نبه ابن حوقل إلى هذه الظاهرة في زيارته لصقلية، ولحظ أن اللحن يشيع على ألسنة عدد كبير من الناس وهم لا يأبهون لذلك[٤].

وكان من نتائج هذا التساهل أو الإهمال أن فشا اللحن في لغة الصقليين بصورة خطيرة وصفها ابن مكي في عصره بقوله: «فلما تمت الحجة، ووضحت المحجة، هجم الفساد على اللسان، وخالطت الإساءة الإحسان، ودُخِلت لغة العرب، فلم تزل كل يوم تنهدم أركانها، وتموت فرسانها، حتى استبيح حريمها، وهُجِّن صميمها، وعفت آثارها، وطَفِئت أنوارها، وصار كثير من الناس يخطئون وهم يحسبون أنهم مصيبون، وكثير من العامة يصيبون وهم لا يشعرون، فربما سَخِر المخطئ من المصيب، وعنده أنه قد ظَفِر بأوفر نصيب، وتساوى الناس في الخطأ واللحن إلا قليلاً»[٥].

---

(١) معجم الأدباء ص: ١٦٦٩ نقلاً عن الدورة الخطيرة ص٧، تحقيق الأستاذ: بشير البكوش.
(٢) وفيات الأعيان: ٣٢٣.
(٣) التكملة لكتاب الصلة: ٤/ ٤٩.
(٤) الشعر العربي في صقلية في القرن الخامس ص١١٣.
(٥) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ص٤١.

وإذا كنا نعرف هذا القدر من المعلومات عن الفقه والقراءات والحديث واللغة فنحن في الواقع نجهل كل شيء عن التفسير والمفسرين، عدا ما ذكر من أن محمد بن عبد الله المقرئ من أهل صقلية المقيمين بها، كان من أهل القرآن والتفسير.

فهذه العلوم التي انتشرت في صقلية جعلت منها مدرسة قائمة بذاتها داخل المذهب المالكي، وإن لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه من دراسة وتحقيق ونشر مصنفاتها إلا إذا استثنينا بعض مؤلفات الإمام المازري.

ولا شك أن المدرسة الصقلية تأثرت بالمدارس المالكية التي سبقتها كالمدرسة القيروانية، والمدرسة المصرية، والمدرسة الأندلسية، والمدرسة البغدادية، خصوصاً إذا علمنا أن معظم العلماء الصقليين قد أخذوا عن شيوخ هذه المدارس التي ذكرناها.

وفي الفصل الثاني من هذا البحث سأعمل على تبيان العلاقة بين المدرستين البغدادية والصقلية، وتأثر هذه الأخيرة بمنهج المدرسة المالكية البغدادية، وذلك من خلال مصنَّفين مغمورين للعلامة عبد الحق الصقلي رحمه الله، وهما: «النكت والفروق لمسائل المدونة والمختلطة،» وكتاب «تهذيب الطالب وفائدة الراغب» المشتمل على كثير من مسائل المدونة والمختلطة.

الفصل الثاني: أثر المدرسة المالكية البغدادية في المدرسة المالكية الصقلية:

من المعلوم أن أهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يرجعوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين[١].

---

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: ٣/ ٢٢.

وهذا المنهج متأثر بالبيئة العلمية المحيطة به، وهي البيئة التي ساد فيها مذهب أهل الرأي، بخلاف المدارس المالكية الأخرى التي اعتمدت منهج الأسمعة.

ومنهج المدرسة الصقلية يكاد يجمع بين الطريقتين في الاعتماد على الروايات والأسمعة من جهة، والتفريع للمسائل الفقهية والاستدلال لكل مسألة بما لها من أدلة من جهة أخرى، ويشمل هذا أدلة الكتاب والسنة وأدلة النظر والقياس وغيرها.

فما هي مظاهر هذا التأثر، وما هي الأدلة عليه؟

من المهم أن نُعرِّف بالعلامة عبد الحق الصقلي رحمه الله[١]، وبمؤلفيه النكت والفروق لمسائل المدونة والمختلطة، وكتاب تهذيب الطالب وفائدة الراغب المشتمل على كثير من مسائل المدونة والمختلطة، لأن ذلك يبين بعض مظاهر التأثر بالمعالم الأصولية والفقهية للمدرسة البغدادية.

عبد الحق الصقلي (ت٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م):

اسمه ونسبه:

هو أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي[٢] القرشي من أهل صقلية.

---

(١) لم أترجم للقاضي عبد الوهاب رحمه الله بتوسع تجنباً للتكرار، ولأن المحاور الأخرى للندوة تختص بشخصية القاضي عبد الوهاب. ترجمته بترتيب المدارك: ٨/ ٧١-٧٢-٧٣-٧٤، الديباج المذهب ١٧٤، سير أعلام النبلاد: ١٨/ ٢٤٥، شجرة النور الزكية ١١٦، الفكر السامي ٤/ ٢٥٠، معجم المؤلفين ٥/ ٩٤.

(٢) هكذا في باقي مراجع الترجمة عدا نسخة ترتيب المدارك المغربية تحقيق: د. سعيد أعراب. فقد ورد - التميمي دون السهمي، وهذا مخالف لطبعة دار الحياة - بيروت، للدكتور احمد بكير محمود ٣/ ٧٧٤.
وسهم: بطن من باهلة، من القحطانية، وهم بنو سهم ابن عمر ابن ثعلبة ابن غنم ابن قتيبة، وسهم ابن عمر بطن من قريش من العدنانية، وهم بنو سهم بن عمر بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كانوا بفسطاط مصر، وفرق منهم استقامت بالصعيد، ولهم حصة في وقف عمرو بن العاص على أهله بالفسطاط، وكانت دور بني سهل حول جامع عمرو بن العاص. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، ٢/ ٥٦٠.

سيرته:

ذكره ابن عمار المتكلم، فقال: إمام مشهور بكل علم متقدم، مدرس للأصول والفروع، وذكره ابن سعدون فقال: كان من الصالحين المتقين، فيه وقار أهل العلم وسكينتهم وإذعانهم للحق، كثير الإنصاف. وأنشد لهم ابن القطاع[١] من شعره:

أرى فتن الدنيا تزيد وأهلها	يخوضون بالأهواء في غمرة الجهل
فما إن يرى من مخلص ذو بصيرة	وما إن يرى من صادق القول والفعل
فيا سوء حالي حين أصبحت فارغاً	ولم أدخر زاداً وما زلت في شغلي

وذكره القاضي أبو الوليد الباجي في كتابه فرق الفقهاء[٢] فقال: اتفق انصرافي من المشرق في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، فوصلت من الشام إلى جزيرة صقلية، وفقيه الجزيرة إذ ذاك عبد الحق بن محمد بن هارون، وكان من أهل العلم والعقل والدين والحياة والفضل رضي الله عنه وأرضاه. وكنت جالسته كثيراً في مكة في مجلس أبي ذر، وضمنا السماع منه في أعوام[٣].

مولده وأسرته:

على الرغم من توفر ترجمة عبد الحق الصقلي في الكتب التي أشرت إليها إلا أن هناك جوانب كثيرة ومهمة في حياة عبد الحق ظل يكتنفها الستر والغموض، وذلك مثل تاريخ مولده وطلبه للعلم وأسرته.

---

(١) في نسخة دار الحياة ابن القطان: ٣ / ٧٧٤، ونسب الأبيات له، في حين نسب الحجوي الثعلبي هذه الأبيات لعبد الحق الصقلي ٣ / ٢٥٠، وهو مخالف لما جاء في الرد الخطير ومعجم العلماء والشعراء الصقليين.

(٢) وهو من كتبه المفقودة، وينقل عنه بعض المؤلفين مثل أبي عبد الله بن الأزرق الأندلسي في كتابه «روضة الأعلام»، ويبدو أنه يعرض بعض مسائل الخلاف بين علماء المذاهب الذين اتصل بهم الباجي، وقال بن هلال عن هذا الكتاب: رأيته بالإسكندرية. فصول الأحكام ص٦٠ .

(٣) وهذه الفائدة تفرد بها صاحب طبقات المالكية رحمه الله ص٢٧٢ .

وبما أن هذه المصادر لم تذكر لنا السن التي توفي عنها عبد الحق الصقلي، فإننا لا نستطيع التكهن بأي تاريخ لميلاده أو لمكانه. نفس الأمر يصدق على أسرته، فلم نعثر بين كتب التراجم سوى على أبيات شعرية ترثي أبناً له اسمه عمران، وهي منسوبة لابن القطاع:

أراك قريباً واللقاء بعيد وجسمك يبلى والزمان يبيد

وما كان يا عمران في الظن أنني أراك مقيماً في التراب تبيد

ولا أنني أبقى وراءك ساعة أعاين موجوداً وأنت فقيد

سأصبر في الدنيا – بنيّ – لعلني ألاقيك في الأخرى وأنت سعيد[(١)]

طلبه للعلم:

لا نستطيع الجزم بتحديد السن التي بدأ فيها عبد الحق الصقلي تلقيه العلم، إلا أن بعض الإشارات في ترجمته تدلنا على أن الرجل ارتحل في طلب العلم، وتفتّح على ثقافة عصره، وهذا ما يظهر من خلال توسع دائرة شيوخه وتلاميذه، وكذلك مؤلفاته وموارده.

شيوخه:

يذكر القاضي عياض أن عبد الحق الصقلي تفقه بشيوخ القرويين[(٢)] والصقليين وغيرهم، ومن هنا فقد رتبت شيوخه على الشكل الآتي:

أ- القرويون:

– أبو الطيب عبد المنعم بن إبراهيم الكندي: المعروف بابن بنت خلدون، قيرواني، هو ابن أخت الشيخ أبي علي خلدون السهمي، من نبلاء هذه الطبقة ومتقنيها، وكان له

---

(١) ترتيب المدارك «المغربية»: ٨/ ٧٤، الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة ١٠٢، معجم العلماء والشعراء الصقليين ٥٠، ولكنه نسبه لعبد الحق الصقلي في ٢٦٧ .

(٢) ورد في معجم السفر لأبي طاهر السلفي: ١/ ١٨٩ أن أبا عبد الله الحسين الأجدابي سمع من عبد الحق الصقلي بالقيروان، وهذا يدل على أن عبد الحق رحل إلى القيروان في فترة من فترات حياته أو مر بها في طريقه إلى الحج.

علم بالأصول، وحذق بالفقه والنظر، وبه تفقه اللخمي وعبد الحق وابن سعدون وغيرهم، ذكره بعض العلماء فقال: كان قدوة في العلم والدين، ورأيت أهل قفصة قد سألوه في مسألة بدؤوها بقولهم: «إن الله تعالى منّ علينا معشر المسلمين بأن جعلك إماماً لنا نقتدي به، راسخاً في العلوم، نفزع إليه»، وكانت له رحلة، ودخل مصر، وله على المدونة تعليق مفيد[١].

– أبو عبد الله مكي بن عبد الرحمن المنستيري: القرشي، من فقهاء إفريقية، وأصحاب القابسي، وكان كاتبه، ومختصاً به[٢].

– أبو القاسم السيوري: اسمه عبد الخالق بن عبد الوارث، قيرواني، آخر طبقته، من علماء إفريقية، وخاتمة أئمة القيروان، وذوي الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب، والمعرفة بخلاف العلماء، وكان زاهداً، فاضلاً، ديناً، نظاراً، وكان آية في الدرس والصبر عليه، ذكر أنه كان يحفظ دواوين المذهب، ويحفظ غيرها من أمهات كتب الخلاف، حتى إنه كان يذكر له القول لبعض العلماء فيقول: أين وقع هذا؟ ليس هو في كتاب كذا ولا كتاب كذا، ويعدد أكثر الدواوين المستعملة من كتب المذهب والمخالفين والجامعين، فكان في ذلك آية، له تعليق على نكت من المدونة، أخذ عنه عبد الحق الصقلي وابن سعدون وغيرهما، كانت وفاته بالقيروان سنة ستين وأربعمائة رضي الله عنه[٣].

– أبو إسحاق التونسي: واسمه إبراهيم بن حسن، تفقه بأبي بكر بن عبد الرحمن وأبي عمران الفاسي، وطبقته، ودرس الكلام والأصول على الأزدي، وكان جليلاً فاضلاً، إماماً صالحاً، منقبضاً، متبتلاً، تفقه به جماعته من الإفريقيين، وأخذ عنه عبد الحق وابن سعدون وعبد العزيز التونسي وابن أبي جامع وغيرهم من الجلة، وله شروح حسنة وتعاليق مستحسنة مستعملة متنافس فيها على كتاب ابن المواز وعلى كتب المدونة[٤].

---

(١) ترتيب المدارك: ٨/٦٧.

(٢) ترتيب المدارك: ٧/٢٦٢.

(٣) ترتيب المدارك: ٨/٦٥-٦٦.

(٤) ترتيب المدارك: ٨/٥٨-٥٩.

ب- الصقليون:

- أبو بكر بن أبي العباس فقيه صقلية ومدرسها، أخذ عن أبي محمد بن أبي زيد، أخذ عنه ابن يونس[١].

ج- الفاسيون:

- أبو عمران الفاسي اسمه موسى بن عيسى بن أبي حاج بن وليم بن الخير الغفجومي، وغفجوم فخذ من زناتة، قال السمنطاري: من هوارة، أصله من فارس، وبيته بها بيت مشهور.. استوطن القيروان، وحصلت له بها رئاسة العلم، وكان تفقه عند أبي الحسن القابسي، وسمع من أبي بكر الدويلي، وعلي بن أحمد اللواتي السوسي، ورحل إلى قرطبة وتفقه بها عند أبي محمد الأصيلي، وسمع بها من أبي عثمان سعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، ثم رحل إلى المشرق فحج ودخل العراق... درس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، قال عنه: لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر - وكان إذ ذاك بالموصل - لاجتمع فيها علم مالك: أنت تحفظه، وهو ينصره، لو رآكما مالك لسُرَّ بكما.

وسمع بالحجاز من أبي الحسن بن أبي فارس، وبمصر من عبد الوهاب بن نصر، توفي أبو عمران سنة ثلاثين وأربعمائة[٢].

- الفقيه أبو القاسم عبد الحق بن محمد بن عبد الرحمن بن العجوز: كان عالماً نبيلاً، حسن الخط، بصيراً بالأحكام والوثائق، عالماً بالاحتجاج، حضرت مجلسه في تدريس المدونة وغيرها فما رأيت أحسن منه احتجاجاً، ولا أبين منه توجيهاً، ولاه الجزيرة الخضراء القاضي أبو عبد الله بن عيسى من سبتة، إذ كانت من نظره، ثم ولاه قضاء سلا بتقديم قاضي الجماعة ابن منصور، ثم نقل إلى الحضرة، استخلفه فيها قاضي الجماعة، ثم

(١) ترتيب المدارك: ٧/ ٢٧٠.

(٢) ترتيب المدارك: ٧/ ٢٤٣-٢٥٢.

رحل إلى فاس فبقي فيها إلى أن توفي بها. أخذ عنه عبد الحق الصقلي حينما التقى به في الحج[١].

د- البغداديون والمشارقة:

- القاضي عبد الوهاب[٢]: الإمام العلامة شيخ المالكية، أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن حسين بن هارون بن أمير العرب مالك بن طوق التغلبي، البغدادي، الفقيه المالكي، من أولاد صاحب الرحبة، ولد يوم الخميس السابع من شوال سنة اثنتين وستين وثلثمائة ببغداد. سمع أبا عبد الله بن العسكري، وعمر بن محمد بن سنبك، وأبا حفص بن شاهين والأبهري، وتفقه على كبار أصحابه: ابن القصار، وابن الجلاب.

خرج في آخر عمره إلى مصر فمات بها ليلة الاثنين الرابع عشر من صفر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة رحمه الله تعالى، ودفن في القرافة الصغرى، بالقرب من ابن القاسم وأشهب رحمهما الله تعالى. وألف في المذهب والخلاف والأصول تآليف كثيرة مفيدة، منها: كتاب النصرة لمذهب إمام دار الهجرة، والمعونة لمذهب عالم المدينة[٣]، و«شرح رسالة ابن أبي زيد»[٤]، و«الممهد في شرح مختصر الشيخ أبي محمد»، و«شرح المدونة»، و«كتاب التلقين»[٥]، و«شرحه» لم يتم، و«التلخيص» في أصول الفقه، و«الإشراف على مسائل الخلاف»[٦]، وكتاب الفروق في مسائل الفقه، وغير ذلك.

---

(١) ترتيب المدارك: ٨/٢٠٤-٢٠٥.

(٢) تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب: ١١/٣١، وفيات الأعيان: ٣/٢١٩، سير أعلام النبلاء: ١٧/٤٢٩، العبر: ٣/١٥١، البداية والنهاية: ١٢/٣٢، الديباج المذهب لابن فرحون: ٢٦١ رقم ٣٤٣، شذرات الذهب: ٢/٢٢٣، معجم المؤلفين: ٦/٢٢٢.

(٣) فهرسة ابن خير ٢١٢.

(٤) فهرسة ابن خير: ٢١١.

(٥) فهرسة ابن خير: ٢١٠، باسم «كتاب تلقين المبتدي وتذكرة المنتهي».

(٦) فهرسة ابن خير: ٢١٠.

- إمام الحرمين: الإمام الكبير شيخ الشافعية إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني ثم النيسابوري ضياء الدين الشافعي صاحب التصانيف، ولد في أول سنة تسعة عشرة وأربعمائة[(١)]، توفي في الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ودفن في داره ثم نقل بعد سنتين إلى مقبرة الحسين فدفن بجنب والده[(٢)].

- أبو ذر الهروي: الحافظ الإمام المجود العلامة شيخ الحرم أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير بن محمد المعروف ببلده بابن السماك الأنصاري الخراساني الهروي المالكي صاحب التصانيف، وراوي الصحيح عن الثلاثة: المستملي والحموي والكشميهني، قال: ولدت سنة خمس أو ست وخمسين وثلاثمائة، تفقه عليه عبد الحق بن هارون السهمي وأبو الحسين بن المهتدي بالله وعلي بن عبد الغالب البغدادي وغيرهم[(٣)].

هـ- ومن غيرهم:

- عبد الله بن أحمد التميمي الشيخ العدل أبو محمد كان رجلاً صالحاً عدلاً ببلدنا، وحج قديماً في عشرة أربعين وأربعمائة، فلقي الفقيه عبد الحق الصقلي، والقاضي القضاعي، وأبا المعالي الجويني، وغيرهم، وسمع كتاب الإخبار عن فوائد الأخبار، من تأليف الشيخ الزاهد أبي بكر محمد بن أبي إسحاق، وكان يقول: إن عبد الحق سمعه منه بمصر، توفي رحمه الله بسبتة آخر عام إحدى وخمسمائة[(٤)(٥)].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٤٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٤٧٦، وانظر البحوث المقدمة في الندوة الدولية بمناسبة الذكرى الألفية لإمام الحرمين الجويني التي اقامتها كلية الشريعة بجامعة قطر سنة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٥٥٤.

(٤) الغنية ص١٥٩، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٥) هؤلاء الشيوخ الذين قدمت تراجم أسمائهم إنما استفدتهم من ترجمة القاضي عياض لعبد الحق الصقلي.

تلاميذه:

بالرغم من خلو ترجمة عبد الحق الصقلي من ذكر تلاميذ أخذوا عنه، فقد وقفت عند نفر ممن تتلمذوا له، وفيما يلي ذكر أسمائهم مع ترجمة موجزة:

– أبو حفص عمر بن يوسف بن محمد بن الحداء القيسي الصقلي، ولد بصقلية سنة ثلاثين وأربعمائة، وقرأ بها على أبي عبد الله محمد بن عبد القناد، وأبي محمد بن فرج المقرئين، والفقه على عبد الحق بن محمد بن هارون، وأبي بكر محمد بن عبد الله بن يونس، وأبي بكر بن عتيق السمنطاري، ثم توجه إلى الحجاز سنة ٤٥١هـ، ثم انتقل إلى الإسكندرية سنة ٤٧٢هـ، وأقام بها إلى أن مات، توفي في محرم سنة ٥٢٦هـ[(١)].

– عبد الرحمن بن سعيد بن هارون أبو المطرف بن الوراق الفهمي السرقسطي، أحد الحذاق بالقراءات، أخذ عن أبي عبد الله المغامي، والحسن بن مبشر، وأبي داود، وسمع من أبي الوليد الباجي وغيره، وأقرأ الناس بجامع قرطبة، وأم به، وكان ثقة محققاً[(٢)]. وأبو المطرف هذا أخذ عن القاضي عياض فهرست عبد الحق الصقلي وتصانيفه، كما سمع منه فهرست القاضي عبد الوهاب وتصانيفه ورواياته، حدثه بها ابن عتاب عن ابن شماخ عنه – أبو المطرف ابن هارن – عن عبد الحق عنه[(٣)].

– خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد العلامة أبو القاسم بن النحاس القرطبي الحصار المقرئ خطيب قرطبة، رحل وحج، وقرأ القراءات بمكة على أبي معشر عبد الكريم الطبري، وبمصر على كريمة المروزية، وعدة، وطال عمره، وبعد صيته، وكان مدار الإقراء عليه بقرطبة. قال ابن بشكوال: كان ثقة صدوقاً، بليغ الموعظة فصيح اللسان حسن البيان، جميل المظهر والملبس، فكه المجلس، سمعت خطبه في الأعياد والجمع. ولد سنة سبع

---

(١) معجم السفر ص٢٣٥-٢٣٦.

(٢) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للإمام الذهبي، ص٤٧٨ الترجمة ٤٢٠.

(٣) الغنية ٢٢٨-٢٢٩.

وعشرين وأربعمائة، ومات في صفر سنة إحدى عشر وخمسمائة رحمه الله[١]، أجازه أبو عمر بن عبد البر، وجالس بصقلية عبد الحق فأجازه[٢].

– مروان بن عبد الملك اللواتي: أصله طنجي، أبو محمد، سكن سبتة، ثم رجع إلى طنجة، وهو ممن طلب العلم وتفنن في فنون منه[٣]، له سماع عال من المصريين: ابن نفيس، وابن منير، وأبي محمد ابن الوليد، ونمطهم، وقرأ القرآن على المقرئين بها، وجالس الفقيه عبد الحق بصقلية[٤]، وكان ذا علم بالقرآن والنحو واللغة، ذا فهم في الفقه، آخذاً بأشعار العرب، خطيباً مصقعاً، فصيح الكلام جهوري الصوت على نهج الأعراب، ولي الفتيا والخطبة بسبتة وسمع الناس منه كثيراً، ودرس المدونة، وكانت وفاته سنة إحدى وتسعين وأربعمائة[٥].

– أحمد بن عبد الله العطار من أهل قرطبة يكنى أبا العباس ويعرف بالقونكي، له رحلة حج فيها، ولقي كريمة المروزية فروى عنها صحيح البخاري، ولقي عبد الحق الصقلي وغيره، وعاد إلي بلده فحدث، وروى عنه ابن بشكوال وسماه في معجم شيوخه، وأغفل ذكره في الصلة، وتوفي عقب رمضان سنة ثمان عشرة وخمسمائة[٦].

– محمد بن عمر بن قطري الزبيدي من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر وأبا عبد الله، روى عن أبي الوليد الباجي، وأبي العباس العذري، وأبي الليث السمرقندي، وأبي عبد الله بن سعدون القروي، وله رحلة حج فيها، وروى بمكة عن الحسين الطبري، وبصور عن أبي بكر بن ثابت الخطيب البغدادي، ولقي عبد الحق الصقلي، وابن بابشاذ النحوي، ومهدي

---

(١) معرفة القراء الكبار ٤٦٥-٤٦٦ .

(٢) الغنية ١٤٧ .

(٣) ترتيب المدارك: ٨/١٧٧ .

(٤) الغنية ص١٩٧ .

(٥) ترتيب المدارك: ٨/١٧٧-١٧٨ .

(٦) التكملة لكتاب الصلة: ١/٣٧ .

بن يوسف الوراق، وغيرهم، وكان عالماً بالنحو والأصول، وسكن سبتة، وعلَّم بها العربية، إلى أن توفي بها سنة إحدى وخمسمائة[1].

- أبو العباس أحمد بن محمد الجزار: صقلي مشهور مقدم ببلده، انفرد برئاسة الفتيا، والشهرة بالخير، والديانة، والصيانة، وكان من أهل التحقيق بالفقه والأصول، وبه تفقه أبو القاسم السرقسطي، ومتأخرو الصقليين، ولقيه أبو الوليد الباجي، وابن عمار، وغيرهما من الأندلسيين، قرين عبد الحق في رئاسة العلم بصقلية[2].

علمه:

إن تحلية ابن عمار في حق عبد الحق الصقلي لأكبر دليل على علم الرجل وتمكنه، فقوله: إمام مشهور بكل علم متقدم مدرس للأصول والفروع[3]، وشهادة ابن سعدون تؤكد ما قيل: فيه وقار أهل العلم وسكينتهم وإذعانهم للحق كثير الإنصاف، وفي تحلية أبي الوليد الباجي له بفقيه الجزيرة دليل آخر على علمه وفقهه، يضاف إلى هذا ما قاله الشيخ محمد مخلوف: الحافظ النظار العلم المتفنن. وبالرجوع إلى كتب التراجم، عثرنا على إسهامات علمية لعبد الحق الصقلي تشهد له برسوخ العلم إلى جانب مؤلفاته الفقهية.

أ- في القراءات:

ومن أمثلة توجيهه للقراءات يقول: إن هذه القراءات التي تنسب إلى ابن مسعود نقلت نقل آحاد.. والآحاد غير مقطوع به، والقرآن إنما يؤخذ بالنقل المقطوع به، التي نقلته الكافة عن الكافة، وقال: إنها قراءة تخالف مصحف عثمان رضي الله عنه المجتمع عليها[4].

---

(١) التكملة لكتاب الصلة: ١/٣٣٢.

(٢) ترتيب المدارك: ٨/٧٥.

(٣) ترتيب المدارك: ٨/٧٥.

(٤) النكت والفروق ص١٦ (ع).

يقول ابن مكي الصقلي: قال لنا الشيخ أبو محمد عبد الحق أيده الله: رأى بعض أهل العلم أن اللحن الذي لا يجوز مثل إظهار هذه النون الخفية، والتنوين عند الياء والواو، وتبديل الضاد ظاءاً، والظاء ضاداً، وأشباه ذلك، إذا كان في غير أم القرآن أن الصلاة خلف القارئ بذلك جائزة، قال: ومنع أبو الحسن القابسي رحمه الله من الصلاة خلفه، وإن كان لحنه في غير أم القرآن، قال الشيخ أبو محمد: وهذا صحيح، لأنه إذا غير القرآن كان متكلماً في الصلاة، إذ كلام الله عز وجل غير ملحون، فليس الذي تكلم به كلام الله تعالى، وإنما هو كلامه، فصار كمن تكلم في الصلاة متعمداً[١].

ب- في التفسير:

ذكر القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ**﴾ قول عبد الحق الصقلي، ورده على طوائف المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء، وسواهم من كل من ينخرط في هذه الأسماء[٢].

ج- في الحديث:

قال ابن مكي في باب ما تأولوه على غير تأويله، ومن ذلك ما توهمهم قول النبي ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[٣]، أن معناه حدثوا عن بني إسرائيل بما صح عندكم وبما لا يصح، وليس كذلك. قال لنا الشيخ أبو محمد عبد الحق أيده الله: إنما المعنى لا حرج عليكم ألا تحدثوا عن بني إسرائيل، لأن أول الحديث واجب، وهو قوله: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فالمعنى: واجب عليكم أن تبلغوا عني ولو آية، وليس بواجب عليكم أن تحدثوا بما صح عندكم من حديث بني

---

(١) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ص٣٠٣، تحقيق د. عبد العزيز مطر، دار المعارف القاهرة.

(٢) تفسير جامع أحكام القرآن: ١١ / ١، ونقل هذا القول عن ابن عطية، ونقله عنه الآلوسي في روح المعاني: ١٥/ ٢٩٧.

(٣) سنن أبي داود: ٣ / ٣٢٢، صحيح ابن حبان: ١٤ / ١٤٧.

إسرائيل، بل إن شئتم حدثوا، وإن شئتم لا تحدثوا، لا حرج عليكم في ذلك، كما عليكم الحرج إذا لم تبلغوا عني[١] .

وفاته:

توفي عبد الحق رحمه الله بعد مسيرة علمية حاشدة ارتحل فيها بين صقلية والقيروان والحجاز والإسكندرية، يحدثنا القاضي عياض بتردد عبد الحق على بلاد مصر إلى أن توفي بها بالإسكندرية بعد الستين والأربعمائة[٢] .

وذكر ابن فرحون نفس الأمر إلا أنه حدد تاريخ وفاته في سنة ست وستين وأربعمائة بالإسكندرية[٣] ، وهو ما نقله الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء[٤] ، لكن صاحب طبقات المالكية أورد خبراً جديداً بعد مناقشته لتاريخ وفاة عبد الحق ومكان دفنه فقال: سكن عبدالحق بعد هذا ببلاد مصر إلى أن توفي بالإسكندرية سنة ست وستين وأربعمائة، وهكذا في الديباج لابن فرحون والفكر السامي، ورأيت في مشيخة التجيبي حين ذكر دخوله بيت المقدس فقال: وللمسجد الأقصى أبواب منها باب المحراب بإزاء محراب داود عليه السلام بغربي الجامع وشرقي باب الرحمة، وبإزاء هذا القبر قبر عبد الحق الصقلي الفقيه، اختار أن يدفن هناك[٥] ، وقد عثرت في معجم السفر على رواية تشهد لما أورده صاحب طبقات المالكية مفادها أن عبد الحق صلى بمصر سنة تسع وخمسين وأربعمائة على أبي إسحاق الأشيري، قال: وتوفي عبد الحق بعدهما كذلك سنة تسع وخمسين ببيت المقدس، وقد رأيته وحضرت مجلسه بمصر، وسمعته يقول: سمعت عبدالجليل بن مخلوف الصقلي[٦] .

---

(١) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ص٢٤٦ .

(٢) ترتيب المدارك: ٨/ ٧٢-٧٤ .

(٣) الديباج المذهب ص١٧٤ .

(٤) ١٨/ ٣٠١، الفكر السامي: ٤/ ٢٥٠، شجرة النور الزكية ١١٦ .

(٥) طبقات المالكية ٢٧٢ .

(٦) وهو من شيوخ عبد الحق، راجع معجم السفر: ١/ ٢٣٢ .

وما يهمنا من هذه الروايات أن عبد الحق الصقلي نشأ بصقلية وتفقه بها، وارتحل إلى القيروان، ثم إلى الحجاز، ثم رجع إلى صقلية، ثم إلى الحجاز ثانية، ثم استقر بالإسكندرية حيث أخذ عنه عدد لا يستهان به من طلبتها.

آثاره:

اتفقت أخبار المترجمين لعبد الحق الصقلي أنه لم يؤلف سوى خمس مؤلفات: كتاب النكت والفروق وهو أول ما ألف، وكتاب تهذيب الطالب، واستدراك على مختصر البرادعي، وكتاب عقيدة، وجزء في ضبط ألفاظ المدونة.

وفيما يلي نشرة بمؤلفاته وأخباره حسب ما تمكنت الوصول إليه:

أ- وسأبدأ بالحديث عن كتاب **تهذيب الطالب وفائدة الراغب**، يقول عبد الحق في مقدمته: هذا كتاب قصدت فيه إلى الكلام على كثير من مسائل المدونة والمختلطة بما يشتمل جميعه على شرح مجمل، وتفسير مشكل، وتمام لمسائل ناقصة، وتفريق من مسائل مشتملة، وزيادات مشكلة، وزيادة معنى ما جرى ذكره من مسائلها، ومقدمة في أوائل الكتب، وبعض الرسوم ليتهذب بها الطالب وينتفع بها الراغب[١].

وقد صحت نسبة هذا المؤلف لصاحبه، وذلك بشهادة كل من ترجموا له ممن قدمنا أسماءهم، كما ذكر ابن عطية في فهرسه أنه أخذ كتاب تهذيب الطالب وفائدة الراغب عن الشيخ الجليل الفقيه أبي العباس أحمد بن عثمان بن مكحول، ومن طريق أبي عبد الله محمد بن عمر بن أبي العصافير الجياني[٢].

نسخ التهذيب:

توجد نسخ من تهذيب الطالب للخزائن التالية:

- خزانة القرويين بفاس: تتوفر على قسمين من هذا المخطوط.

---

(١) تهذيب الطالب ص١، مخطوط القرويين رقم: ٣٥٧.

(٢) فهرس ابن عطية ص١٢٨-١٣٧.

الأول: تحت عنوان تهذيب الطالب وفائدة الراغب المشتمل في كثير من المسائل المدونة والمختلطة، تحت رقم (٣٥٧) أوراقه (١٠٥) مقاسه (٢٦/١٩)، ويحتوي هذا الجزء على: كتاب الطهارة - كتاب الصلاة الأول - كتاب الصلاة الثاني - كتاب الجنائز - كتاب الصوم - كتاب الاعتكاف، وبما أن الكتاب غير كامل فإنه خالٍ من اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

وصفه الأستاذ العابد الفاسي رحمه الله بانه سطر واحد بخط أندلسي متلاش جداً خاصة الأطراف، تغيرت كتابته في الأوراق الأخيرة، مكتوب على ظهر الورقة الأولى أنه حبس على خزانة جامع الأندلس، وذلك شهر جمادى الأولى عام سبعة وثمانين وسبعمائة[١].

الثاني: السفر الثاني من الكتاب الكبير تحت رقم (١١٤٤)[٢] أوراقه (١١٧) مسطرته (٤٢) مقاسه (٢٤/١٨).

وصفه الأستاذ العابد الفاسي بقوله: جزء متوسط قديم بخط أندلسي أصابه التلاشي الشديد، يبتدأ بقوله: في زكاة الحلي وحلية السيف والأواني، ونحو ذلك من كتاب الزكاة، وفي آخر هذه الأوراق الأولى: تم كتاب الزكاة الثاني، وعقبه كتاب الحج، ثم كتاب الصيد وكتاب الضحايا، ثم كتاب الجهاد، ثم كتاب النذور والكفارات باليمين، وبآخر هذا الكتاب خط ناسخه، ثم كتاب النذور... في صدر شعبان من سنة عشرة وخمسمائة، يتلوه كتاب العتق، وعند نهاية هذا السفر قال ناسخه: كمل السفر الثاني يتلوه في أول الثالث: فيمن أعتق أحد عبيده، وفيمن نوى ما يقتضيه لفظه، هذه محتويات هذا السفر الثاني من الكتاب الكبير لعبد الحق. ورأيت أن الفراغ من نسخ كتاب النذور كان سنة ٥١٠هـ، فبين تاريخ نسخ هذا الجزء وبين وفاة المؤلف أربع وأربعين سنة، فهو متين الاتصال بعصر المؤلف رحمه الله[٣].

(١) فهرس القرويين: ١/٣٨٤.

(٢) اشار إليه بروكلمان في تاريخ الأدب العربي: ٣/٢٨٣.

(٣) انظر فهرس خزانة القرويين: ٣/٢٣٤-٢٣٥.

وبعد اطلاعي على المكرو فيلم رقم (٥٣٠) لم أعثر إلا على الكتب الآتية:

كتاب الحج الأول والثاني والثالث، كتاب الصيد، وكتاب الذبائح، وكتاب الضحايا، وكتاب الجهاد الأول والثاني.

- نسخة مكتبة الأزهر برواق المغاربة تحت رقم (٣١٥٧) وهي على جزئين:

الجزء الأول: يبتدأ بالحمد لله الواحد القهار... هذا كتاب قصدت فيه إلى الكلام على كثير من مسائل المدونة والمختلطة. نهايته... في الاستلحاق والحملاء، يدعون التناسب والتعصب بينهم... والقول الأول هو الأظهر في مذهبنا والله أعلم... أوراقه (١٤٨) عدد الأسطر (٣٣).

الجزء الثاني: تحت رقم (٣١٥٧) عدد أوراقه (١٨٥) عدد الأسطر (٣٣)، بدايته كتاب الولاء، نهايته القول في بيع البراءة في عهدة الثلاث... فالقول الأول أقيس على ما وصفنا بأعلم ذلك. تم الكتاب. والنسختان خاليتان من اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

وقد تم اختيار مجموعة مهمة من المخطوطات القيمة من مقتنيات رواق المغاربة ورواق الأتراك ورواق الشوام في جامع الأزهر، وتم نقل هذه المجموعة وتصويرها على المكروفيلم عام ١٩٦٣م بتدعيم من هيئة اليونسكو، وتوجد في دار الكتب القائمة تحت الطلب لهذه المادة المصورة، كما توجد أيضاً أفلام محفوظة في دار الكتب[١].

ب- كتاب العقيدة:

توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية تحت رقم (١١ش) فقه مالكي ضمن مجموع بخط مغربي دقيق[٢] بعنوان: مسائل الشيخ عبد الحق وأجوبتها للإمام الجويني، قال صاحب طبقات المالكية: وهي مؤلفة مشهورة بأيدي الناس، وقد جلبها أبو العباس

---

(١) دراسات في مصادر الفقه المالكي ص١٨، ومخطوط الأزهر المذكور توجد منه نسخة بجامعة أم القرى المكرمة. انظر سلسلة فهارس المخطوطات المصورة، فهارس الفقه المالكي ص٧٢-٣٧ .

(٢) عن كتاب العرب في صقلية دراسة في التاريخ والأدب ص١٠٠

الونشريسي في نوازله [١]، وقد ألف الإمام ابن حزم كتاباً في الرد على هذه العقيدة، سماه الرسالة البلقاء في الرد على عبد الحق بن محمد الصقلي [٢] .

ج- كتاب الاستدراك على مختصر البراذعي :

وهو من مؤلفاته التي لم أعثر على مكان وجودها [٣]، وقد وهم الحجوي الثعالبي في نسبة هذا المؤلف لعبد الحق الإشبيلي ابن الخراط، حيث قال: فله كتاب تعقب فيه على تهذيب البراذعي [٤]، وهو الخطأ نفسه الذي وقع في أول صفحة من كتاب النكت والفروق المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط، حيث نسب كتاب النكت إلى ابن الخراط، إلا أن هناك تصحيحاً لهذه النسبة في هامش الورقة، فجزى الله صاحبه بخير [٥] .

كما حلل الأستاذ محمد شرحبيلي الوهم الذي حصل للثعالبي فليراجع [٦] .

د- جزء في ضبط ألفاظ المدونة :

وهذا المؤلف لم أعثر على إشارة تدلنا عليه في فهارس المخطوطات التي قمت بتصفحها .

هـ- كتاب النكت والفروق :

عنوانه :

ورد في المخطوطات العربية المغربية [٧] بعنوان «النكت والفروق بمسائل المدونة والمختلطة» .

---

(١) طبقات المالكية ص٢٧١، المعيار المعرب: ٤/١١١ .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء: ١٨/١٩٥ .

(٣) دافع القاضي عياض عن مؤلف التهذيب للبراذعي، ورد على استدراك عبد الحق، يقول: إن البراذعي بنجوة عن انتقاد عبد الحق، فإن جميع ما انتقد عليه لفظ أبي محمد - رحمه الله - يقصد ابن أبي زيد . ترتيب المدارك: ٧/٢٦٥ .

(٤) الفكر السامي: ٤/٢٦٥ .

(٥) ص١٨٣ من مجموع رقم ٣٥٠ ق .

(٦) تطور المذهب المالكي ص٥٠٨ .

(٧) انظر نسخة ٢٥ من هذا البحث .

وفي المخطوطات الأزهرية باسم «نكت الأعيان مسائل المدونة والمختلطة»، وبالأسكريال باسم: «كتاب النكت والفروق من المدونة والمختلطة باختصار اللفظ في طلب التفرقة بن المسلمين ومعرفة اختلاف حكمائها»، ويشير فؤاد سزكين إلى أن هذه النسخة أصلية بخط المؤلف.

نسبته:

تثبت نسبة المؤلَّف إلى صاحبه بما ورد في ترجمته، وبمن أخذوا عنه من كتابه: القاضي عياض[١]، والإمام المازري في شرح التلقين، وجلال الدين ابن شاس في عقد الجواهر الثمينة[٢]، وأبي عبد الله الأنصاري الرصاع في شرح حدود ابن عرفة[٣]، وعبد الحق بن عطية في فهرسه[٤]، حاشية الدسوقي[٥]، التاج والإكليل[٦]، مواهب الجليل[٧].

ومن خلال هذه المصادر التي نقلت عن كتاب النكت والفروق تتضح لنا القيمة العلمية لهذا المؤلف، ويؤكد هذا أيضاً ما ذكره المقري في ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي الهراوي من أهل المرية، ويعرف بشمس الدين بن جابر الضرير صاحب البديعية المعروفة ببديعية العميان، ومن نظمه رحمه الله تعالى مورِّياً بأسماء الكتب بحر الطويل:

عرائس مدحي كم أبين لغيره ... فلما رأته قلن هذا من الأكفا

نوادر آدابي ذخيرة ماجد ... شمائل كم فيهن من نكت تلفى

مطالعها هن المشارق للعلا ... قلائد قد راقت جواهرها رصفا

رسالة مدحي فيك واضحة ولي ... مسالك تهذيب لتنبيه من أغفى

فيا منتهى سؤلي ومحصول غايتي ... لأنت امرؤ من حاصل المجد مستصفى

---

(١) الغنية ٢٢٨.
(٢) ٣/٦٠٠.
(٣) ٢/٧٠٥.
(٤) ص١٢١.
(٥) ١/٦٦-٦٨-٢٣٥...
(٦) ٢/١٣٢-١٥٣-٣١٠.
(٧) ١/٢٢٧-٣٣٧.

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتاباً، وهي العرائس للثعالبي، والنوادر للقالي وغيره، والذخيرة لابن بسام وغيره، والشمائل للترمذي، والنكت لعبد الحق الصقلي[(١)].

شبهة:

تناقل المترجمون لعبد الحق الصقلي عبارة بصيغة التمريض ومبنية للمجهول، مفادها: يقال: إنه ندم بعد ذلك على تأليفه، ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته فيه، واستدرك كثيراً من كلامه فيه، وقال: لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت، أو نحو هذا[(٢)].

وإذا تأملنا هذه العبارة في أولها وآخرها فإنه سيخالجنا الشك في مصداقيتها إذا علمنا أن عبد الحق نفسه يشير في كتابه تهذيب الطالب الذي ألفه آخراً إلى كتاب النكت والفروق، ويحيل عليه بقوله: وقد جرى من البيان في كتاب النكت والفروق في مسألة الجبائر ما أغنى عن إعادته ها هنا[(٣)]، ويقول في موضع آخر: وقد ذكرنا في كتاب النكت الانفصال من الذي احتج به أشهب، وأوضحنا المسألة هناك بما فيه الكفاية إن شاء الله، وبالله التوفيق[(٤)].

وفي بعض الأحيان نجده يتعقب قولاً ذكره في كتاب النكت، وهو ما وعد به في مقدمة التهذيب بقوله: ولم أذكر من كتاب النكت والفروق الذي جمعته في سنة ثمان عشرة وأربعمائة إلا شيئاً تعقبته، إذ أبين وجه التعقب فيه لما يحتاج إلى إيضاح وبيان أكثر مما وقع هنا، فأضربت عن غير ذلك مما ذكرت فيه إلا اليسير مما ذكرت فيه فيما آثرت ذكره، وبالله أستعين[(٥)].

---

(١) نفح الطيب: ٢/١١٤٤.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٨/٧٣، الديباج ١٧٤.

(٣) تهذيب الطالب ص٤٣ مخطوط القرويين.

(٤) تهذيب الطالب ص٨٢.

(٥) تهذيب الطالب ص٢.

نسخه :

النسخ المغربية :

– نسخة الخزانة الحسنية بالرباط :

أوله : الحمد لله العزيز الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

رقمه (٢٦١) عدد صفحاته (٢٨٨) مسطرته (٢٩) مقياسه (٢٥/١٧٠٩)، خطه خط أندلسي عتيق يضرب للإدماج والملاحة، مشكول، رسمت به الفواصل على طريقة الوراقة القديمة، وهو خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ[١] .

– نسخة الخزانة العامة : وهي ضمن مجموع تحت رقم (٣٥٠) من الصفحة (١٨٤) إلى (٤٤٦) أولها : بسم الله الرحمن الرحيم... الحمد لله العزيز الكريم الذي علم بالقلم... أبتدأ بكتاب الطهارة نهاية المخطوط آخرها : كتاب الديات... تم الكتاب بحمد الله وعونه وتوفيقه، كان الفراغ من نسخه التاسع من شهر رمضان الأبرك عام ثلاث وأربعين وسبعمائة قال ذلك وكتبه بخط يده الفاسي الخصاصي الحسني.. لطف الله به والحمد لله رب العالمين والصلاة الكاملة على محمد خاتم النبيين، عدد الأسطر (٢٧)، (٢١) كلمة في السطر.

وبجامعة أم القرى بمكة المكرمة توجد نسخة تحت رقم (٢٤٧) يقال إنها صورة عن نسخة للخزانة العامة رقم (٣٥٠) عدد أوراقها (١٣١) تاريخ نسخها (٧٤٣هـ) وعدد أسطرها (٢٧)[٢] .

– نسخة خزانة ابن يوسف : وهي تحت رقم (٤٩٩).

تاريخ نسخه : ضحوة الاثنين ٢٣ صفر (٧٤٠هـ) تحبيس : عبد الواحد بن أحمد بن محمد الحسني على خزانة جامع علي بن يوسف.

---

(١) فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية حسب أرقامها على الرفوف ١/١٢٩ مرقون ١٩٨٣ الأستاذ محمد المنوني رحمه الله.

(٢) انظر فهرس المخطوطات المصورة ص٣٦٥ .

نوع الخط : أندلسي مسطرة (٣٥) مقاس (٢٧٠ / ٢١٠) [(١)] .

– النسخة المصرية : بالمكتبة الأزهرية برقم (٢٧٠ / ٣١٥٦) .

عدد أوراقها (١٩) بخط مغربي بدايته الحمد لله العزيز الأكرم . . أما بعد فإن بعض أصحابنا من طلبة الفقه سألني . . . نهاية الكتاب، كتاب الشركة . . . فإن خسر أحدهم وربح الآخر . . . فإن انقطعت حجته فيما قدمنا فلا كلام له .

وهذه النسخة بعنوان « نكت أعيان المسائل المدونة والمختلطة والتعريف في مسائل شاعت ألفاظها وفرقت أحكامها » .

الصفحة الأولى أكلتها الأرضة [(٢)] .

– النسخة الأندلسية : « كتاب النكت والفروق من المدونة والفروق باختصار اللفظ في طلب التفرقة بين المسلمين ومعرفة اختلاف حكمائها » .

بالأسكريال : رقمه (٧٨) ورقاته (١٠٠) تاريخ نسخه (٤٥٩هـ) ناسخه مؤلفه عبد الحق الصقلي [(٣)] .

سبب تأليفه :

حدد عبد الحق الصقلي في مقدمة كتابه سبب التأليف، فقال : أما بعد فإن بعض أصحابنا من طلبة الفقه سألني العناية بجمع ما يقع لي، لأن المبتدأ في طلب الفقه، ومن لم يتسع فيه، محتاج إليه، في أعيان مسائل من المدونة والمختلطة . . . ورجاء سائلي في ذلك أن فيه معونة للمبتدئين ورياضة للمتوسطين، وعوناً على درك ما وراءه، فسارعت إلى ما رغب ابتغاء النفع به والمثوبة عليه [(٤)] .

---

(١) فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش ٢٤١ .

(٢) هذه النسخة مصورة عن المكروفيلم ضمن المخطوطات المصورة بجامعة أم القرى . انظر فهرس المخطوطات السابق الذكر ص٣٦٤ .

(٣) تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، ٢ / ١٤٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م .

(٤) النكت والفروق ص١ .

تاريخ تأليفه:

كان ابتداؤه في هذا الكتاب والفراغ منه في سنة ثمان عشر وأربعمائة، كما أشار في مقدمته.

مظاهر التأثر بالمعالم الأصولية والفقهية للمدرسة البغدادية:

إن الباحث في المصنفات الفقهية الصقلية، وخاصة كتابي النكت والفروق لمسائل المدونة والمختلطة، وكتاب تهذيب الطالب وفائدة الراغب المشتمل في كثير من مسائل المدونة والمختلطة، يظهر له بجلاء أثر المدرسة البغدادية في المدرسة الصقلية، وذلك من خلال الاستشهاد بأقوال أعلامها والنقل عن مصنفاتها، وهذه بعض تلك النقول عن أولائك الأعلام:

قال أبو محمد عبد الوهاب البغدادي رحمه الله في بعض تواليفه: الطهارة التي يتعلق بها أداء العبادات في الشرع على ضربين: طهارة عن حدث، وطهارة عن نجس. فالطهارة عن الحدث على ضربين: طهارة لازمة في جميع الجسد، وطهارة في بعضه. فأما الطهارة اللازمة في بعضه فتقع على وجهين: تارة أصلاً، وتارة بدلاً. فأما الأصل منها فهو الوضوء الشرعي بالماء المطلق الواجب في الأعضاء الأربعة، وأما البدل فهو التيمم بالصعيد الذي يلزم تارة عن الحدث الأدنى فيكون بدلاً عن الوضوء، وتارة عن الحدث الأعلى، وهو الجنابة والحيض والنفاس، فيكون بدلاً من الغسل، وصورته واحدة في كونه بدلاً عنهما، وإن اختلفت صورة أصليه، وهو عندنا طهارة على الحقيقة، وإن كان لا يرفع الحدث. فأما الطهارة التي تلزم جميع البدن في الغسل من الجنابة والحيض والنفاس.

قال عبد الحق: قد سمى أبو محمد عبد الوهاب التيمم بدلاً وهي عبارة مجيزة من أهل المذهب، وذكر عن بعض المتأخرين من أهل مذهبنا أنه قال: لا أقول إن التيمم بدل، وإنما أقول إنه عبادة مستأنفة، وأراه إنما قال ذلك لأن البدل يقوم مقام المبدل، ويسد مسده في كل الأحوال، والتيمم لا يقوم مقام الطهارة بالماء، ولا يسد مسدها في كل الأحوال، لأنه لا يصلى به صلوات ولا يرفع حدثاً، فهو بخلاف الطهارة بالماء، وإن كان يستباح به

الصلاة كما تستباح بالطهارة بالماء فهو بخلاف الذي ذكرناه، فاحترز بذلك من أن يسميه بدلاً.

قال عبد الحق: وأقسام جميع ما يقع عليه اسم طهارة على أربعة أضرب: فطهارة واجبة، وهي الطهارة من الحدث، وطهارة هي سنة، كالطهارة من النجاسة على القول المشهور في المذهب، كغسل الجمعة، وغسل الإحرام، وطهارة مندوب إليها، كالغسل لدخول مكة، ولوقوف عرفة، وغسل اليدين، وطهارة مجدد الوضوء، وطهارة مباحة، وهي الطهارة على باب التبرد، وإزالة الأوساخ عن البدن، فاعلم ذلك.

قال أبو محمد عبد الوهاب: أحكام الوضوء ثلاثة أنواع: فريضة، وسنة، وفضيلة، والسنة أوكد من الفضيلة، ففروضه ستة.. قال عبد الحق: ولم يذكر عبد الوهاب في فرائض الوضوء الموالاة لاختلاف أصحابنا فيها، وقد قال بعد كلامه الذي ذكرنا: ومن أصحابنا من يعد الموالاة مع الذكر، قال: والذي يجب أن يقال إن التفريق يفسد مع التعمد، والتفريق مع الطول المتفاحش الخارج عن الموالاة، ولا يفسد قليله ولا على وجه السهو.

قال القاضي أبو الحسن بن القصار في كتابه الكبير في مسائل الخلاف: وأما الموالاة فمن أصحاب مالك من قال إنها مسنونة، والظاهر من قول مالك أنها واجبة، وقال: إن فرق الوضوء مقدار ما يجف فيه الماء على وجهه في هواء معتدل لم يجزئه، ثم رجع بنا الكلام على ما ذكر عبد الوهاب في سنن الوضوء، قال: وسننه سبع، وهي غسل اليدين قبل إدخالهما في الإناء، والمضمضة، والاستنشاق، وغسل البياض الذي بين الصدغ والأذن، ومسح داخل الأذنين، وفي ظاهرهما خلاف، وتجديد الماء لهما، والترتيب، قال: وفضائله ثلاث، هي السواك قبله، والتسمية عند بعض أصحابنا، وتكرار مغسوله مرتين.

قال عبد الحق: قول أبي محمد عبد الوهاب: إن من سنن الوضوء غسل البياض الذي بين الصدغين والأذن – فيه نظر، لأن الناس بين قائلين: فقائل يقول ليس هو من الوجه، وهو

قول مالك، وقائل يقول إنه من الوجه، فأما إثبات كونه سنة فيفتقر إلى دليل، وسنذكر مسألة البياض الذي بين الصدغ والأذن بعد هذا إن شاء الله[1].

وقد أكثر العلامة عبد الحق الصقلي رحمه الله تعالى من النقل عن القاضي عبد الوهاب رحمه الله، وعن الشيوخ البغداديين في مواطن كثيرة من مؤلفيه، جاء في كتاب تهذيب الطالب:

ذكر أبو محمد عبد الوهاب في بعض تواليفه في غسل الإناء سبعاً من ولوغ الكلب هل هو واجب؟ فقال: اختلف أصحابنا في تخريج قول مالك، فمنهم من قال: إنه واجب على جهة التعبد، ومنهم من قال: إنه مستحب ليس بواجب، وتعلق من ذهب إلى وجوبه بأن ذلك ظاهر قول مالك، وبأنه ساوى بين الطعام والماء في رواية ابن وهب، والذين حملوا قوله على الاستحباب تعلقوا برواية ابن القاسم: إن كان يغسل ففي الماء وحده، وهذا الكلام يفهم منه ضعف أمر الغسل، وأنه ليس بالقوي، وذلك يناقض الوجوب، وقد شرح ابن أبي أويس عنه بأبلغ من هذا، وهو قوله: وليس غسل الإناء سبع مرات بالأمر القوي، وإنما هو حديث جاء، ولم يحد فيه حداً، وضعّف الحديث الوارد بالسبع، ومعنى ذلك تضعيف حمله على الوجوب، وورود الأمر بذلك، فظاهره على الوجوب، وحجة من حمله على الاستحباب أنه إذا ثبتت طهارة الكلب لم يبق لوجوب غسل الإناء من ولوغه كسائر الحيوان، ولا يجوز أن يعلل ذلك بالشك في نجاسته، لأن نفس النجاسة ما توجب عدداً في غسله، فالشك أولى، وينتقض ذلك بسؤر النصراني، وترجيح الوجوب أظهر لأن المقصد بأن يغسل الإناء هو التغليظ والتشديد، لينتهوا عن الاتخاذ، والاقتضاء في نفي الوجوب إبطاله لهذا الغرض والله أعلم، فرجح أبو محمد عبد الوهاب رواية ابن وهب: أن الإناء يغسل من الطعام، وإنما قال: وهذه الرواية أقيس، لأن قصر الخبر على الماء دعوى غير ثابتة، لأن ظاهره العموم، ولأن من قصره على الماء وحده إنما ذهب إلى أن عامة ما يلغ فيه الكلب هو الماء، وهذا ليس بصحيح، لأن الاعتبار عرف التخاطب دون عرف العقل، ألا ترى لو

---

(١) تهذيب الطالب، الصفحات ٧-٨-٩ من مخطوط القرويين بفاس.

قال: حرمت عليكم اللحوم لعم ذلك جميع اللحوم المعتاد أكلها وغير المعتاد. قال القاضي أبو الحسن بن القصار: فأما غسل الإناء من ولوغ الخنزير فليس بواجب، وروى مطرف عن مالك: أنه يغسل سبعاً كما قال في ولوغ الكلب، والدليل للرواية الأولى - أنه لا يجب غسله - هو أن وجوب غسل الإناء يحتاج إلى شرع، ولولا أن النص ورد في الكلب لما أوجبناه، وأيضاً فإن النبي عليه السلام غلظ في الكلب، لأنهم كانوا يقتنونه، فيؤذي الضيف ويروع المسلم، فغلظ عليهم فيه حتى ينتهوا ومالا يقتنون، فلا يجب غسل ما ولغ فيه، ووجه ما رواه مطرف هو أنه في غالب حاله يأكل الأنجاس ولا يجتنبها، وقد ورد النص في تحريمه من بين السباع، فإذا غلظ الغسل في الإناء من ولوغ الكلب ففيه أولى.

قال أبو محمد في النوادر: قال أبو بكر بن الجهم: وذكر نحوه ابن سحنون في كتاب الجوابات: أنه اختلف قول مالك في غسل الإناء سبعاً من ولوغ الكب، فقيل إنه جعل معنى الحديث في الكلب الذي لم يؤذن في اتخاذه، وقيل إنه جعله عاماً في كل كلب، والقول الأول قول أحمد بن المعذل[(١)].

قال عبد الحق: ورأيت في كتاب أحكام القرآن لابن خويز منداد قال: وأما ما لا نفس له سائلة إذا وقع في الماء، فظاهر المذهب وصحيحه أنه لا ينجس. قال: وهذه المسألة مبنية على قوله في الجراد، قال مرة: تؤكل إذا مات حتف أنفه، وكذلك في الحشرات مثل الخنافس والعقارب إذا أراد التداوي بها قطف رؤوسها حتي تموت ثم يتداوى بها، فإذا حكم بأن الجراد لا تؤكل حتف أنفه، فالذباب وسائر الحشرات مثله، ومتى وقع في شيء أنجسه. قال عبد الحق: وقياسه الحشرات وسائر خشاش الأرض على مسألة الجراد فيه نظر[(٢)].

قال أبو بكر الأبهري في الشرح: الحجر وما كان في معناه من كل شيء طاهر يجوز الاستنجاء به، إلا أن يكون شيئاً من المأكول، فإنه لا يجب أن يستنجي به، من طريق

---

(١) تهذيب الطالب ص١٦-١٧ .

(٢) تهذيب الطالب ١٣ .

الشرف والفساد، فإن استنجى به فقد أساء ولا شيء عليه، قال: ولست أعرف هذا لمالك وأصحابه نصاً، ولكن أقول ما توجبه أصول مالك[(١)].

وفي كتاب ابن الجلاب: فيمن يكثر عليه المذي لطول عزبة يتوضأ لكل صلاة شرط فيه لطول عزبة يستطيع رفعها بتزويج أو تسر، قال ابن الجلاب، وإذا أمذى صاحب السلس بالقبلة مذياً لشهوة فعليه الوضوء، وكذلك إذا بال صاحب سلس البول بول العادة لزمه الوضوء، ورأيت لأبي العباس اللبيابي في الرجل تكون به العلة في جوفه والشيخ الكبير يستنكحهما خروج الريح في كل وقت، لا يستطيعان حبس ذلك، أنهما بمنزلة سلس البول وصاحب المذي، وهما قد استرخت مواسكهما، فالحكم فيهم سواء[(٢)].

في كتاب الصوم من النكت والفروق:

قال بعض شيوخنا من القرويين: إذا وطئ في رمضان ثم كفر ثم وطئ تارة أخرى في ذلك اليوم وجبت عليه كفارة ثانية، وأما إن لم يكفر حتى وطئ مراراً فهذا الذي تجزئه كفارة واحدة، قال: ومثل هذا موجود في أصولهم كثير: من ذلك الذي يكرر ما تجب فيه الفدية من طيب أو لبس ومحرم أنه تجزئه من ذلك فدية واحدة، ولو أنه أخرج الفدية ثم عمد ففعل كُرر عليه الحد، واحتج بأنه إذا كفر ثم عمد بعد ذلك إلى الوطء فوطئ، فالوطء محظور عليه، وحرمة اليوم باقية لا يسوغ له انتهاكها، فوجب أن يكفر لفعله كما لو كان مستأنفاً أيضاً، ويخالفه غيره من شيوخنا، وقال: لا فرق بين أن يخرج الكفارة ثم يطأ أو يطأ مراراً، أنه ليس عليه في ذلك سوى كفارة واحدة؛ لأن صوم ذلك اليوم قد وجب عليه قضاؤه وقد هتك حرمته.

فتعلق عليه الكفارة فليس تكرار ذلك عليه، وقيل إن مثل هذا ذكره ابن القصار البغدادي في كتابه الكبير مسائل الخلاف[(٣)].

---

(١) تهذيب الطالب ٢١ .

(٢) تهذيب الطالب ٣٠ .

(٣) النكت والفروق ٢٨، من مخطوط الخزانة الحسنية.

قال إسماعيل القاضي: طواف القادم أول ما يدخل مكة سنة، والطواف الواجب الذي لا يسقط بحال هو طواف الإفاضة، وأهل العراق يسمونه طواف الزيارة، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فكان هذا هو الطواف المفترض في كتاب الله، قال ابن المنذر: وأجمع أهل العلم على أن هذا الطواف الواجب هو طواف الإفاضة، وهو المفترض في كتاب الله عز وجل: أما الطواف الأول عند دخول المحرمين مكة فهو سنة، وقد سن رسول الله ﷺ للقادمين المحرمين بالحج تعجيل الطواف عند دخولهم مكة، وقد كان هو فعل ذلك[1].

وفي كتاب الصلاة الثاني:

قال عبد الحق: سجود القرآن على مذهب مالك من السنن المندوب إليها، وليس بواجب كما يزعم بعض الناس، ويستدلون على وجوب ذلك بأن الله تعالى قد علق الذم بترك السجود في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾، والذم إنما يتعلق فيه بترك واجب، وهذا لا دليل فيه لهم، لأن هذه الاية وما بعدها إنما هي واردة في الكفار، ألا تراه تعالى قال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ إلى ما بعد ذلك، فهذا الذم إنما يتعلق بترك الإيمان لا على نفس السجود، وقد قال عمر رضي الله عنه: «ألا إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء» أو كما قال، قال: رأيت بعض البغداديين ذكر مثل قول عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ، وليس الغرض التطويل في إقامة الدليل على نفي وجوبها، وإنما القصد معرفة المذهب وقد بيناه[2].

هذه النصوص وغيرها لا شك أنها تدل على سعة اطلاع عبد الحق الصقلي على آراء المدرسة البغدادية عموماً، وعلى آراء شيخه القاضي عبد الوهاب رحمه الله خصوصاً، وتأثره بمنهجه في الاستدلال، وبسط المسائل الفقهية.

---

(١) كتاب الحج الأول من النكت ٤٨، من مخطوط الخزانة الحسنية.

(٢) النكت والفروق ص١٣، من مخطوط الخزانة الحسنية.

خاتمة

في نهاية هذا البحث بودي أن أضع بين يدي القارئ الكريم هذه الخلاصة لأهم النتائج وقد رأيت ترتيبها في النقاط الآتية:

- أن الأقطار الإسلامية عاشت وحدة منقطعة النظير في عصر غابت فيه الوسائل المتاحة في عصرنا اليوم.

- أن مدارس المذهب المالكي ساهمت في تدعيم وترسيخ قواعد المذهب بالأقطار الإسلامية.

- أن علماء المذهب المالكي بذلوا كل جهد في تدوين أقوال المذهب وتوثيقها في مصنفاتهم، فعلى الباحثين القيام بدورهم في تحقيق هذه المصنفات والإسراع بطبعها وتعميم فائدتها.

- أن المدرسة الصقلية استفادت من مشايخ المدرسة البغدادية وعلمائها.

- أن المصنفات الصقلية تختزن كثيراً من النقول عن مؤلفات عراقية لم تصلنا.

- تتلمذ العلامة عبد الحق الصقلي للقاضي عبد الوهاب، وأخذ عنه مؤلفاته، وروايتها للمغاربة والأندلسيين.

- اعتماد أقوال القاضي عبد الوهاب الفقهية في مؤلفات العلامة عبد الحق الصقلي، والاعتراض عليها في بعض الأحيان ومناقشتها.

- الأعلام الذين ورد ذكرهم في الأمثلة المتقدمة دليل على أثر المدرسة البغدادية في المدرسة الصقلية.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، وأن يجزي علماءنا وفقهاءنا خير ما يجازي به عالماً عن تلاميذه وطلبته، وأن لا يحرمهم من أجر علمهم الذي انتفعنا به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. سعد بنيحيى

المغرب.

مصادر ومراجع البحث

١- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، لشهاب الدين المقري، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات.

٢- إنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية ١٣٦٩ / ١٩٥٠ .

٣- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس للضبي، المكتبة الأندلسية بمدريد.

٤- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي ط١ ، ١٣٨٤ - ١٩٦٤ .

٥- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويت ١٤٠٧، ط١ .

٦- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار.

٧- تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ .

٨- تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية ببيروت.

٩- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، بتحقيق د. عبد العزيز مطر.

١٠- ترتيب المدارك للقاضي عياض، تحقيق: أحمد بكير محمود، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان.

١١- ترتيب المدارك للقاضي عياض، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

١٢- تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتي نهاية العصر المرابطي، د. محمد شرحبيلي، وزارة الأوقاف المغربية ١٤٢١ - ٢٠٠٠ .

١٣- التكملة لكتاب الصلة، لأبي عبد الله بن الأبار القضاعي، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥م، تحقيق: عبد السلام الهراس.

١٤- التكملة لكتاب الصلة، لأبي عبد الله بن الأبار، طبع بمدريد.

١٥- تهذيب الطالب لعبد الحق الصقلي، مخطوط خزنة القرويين رقم (٣٥٧).

١٦- الجامع الصحيح لأبي عبد الله البخاري، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ، ط٣، تحقيق: مصطفى ديب البغا.

١٧- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس لأبي عبد الله الحميدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

١٨- دراسات في مصادر الفقه المالكي موراني ميكلوش، ترجمة سعيد بحري وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٩ / ١٩٨٨ .

١٩- الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة لابن القطاع، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي ط١، ١٩٩٥ .

٢٠- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لإبراهيم بن فرحون اليعمري المالكي، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٢- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية لأبي بكر المالكي، تحقيق: بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط٢ - ١٩٩٤ .

٢٣- سلسلة فهارس المخطوطات المصورة بجامعة أم القرى المكرمة، فهارس الفقه المالكي.

٢٤- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (ت٧٤٨)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، ط٩، ١٤١٣، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢٥- شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف، دار الفكر.

٢٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٧- الشعر العربي في صقلية في القرن الخامس الهجري، د. فوزي سعد عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ .

٢٨- صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٢، ط١، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٩- طبقات الفقهاء لإبراهيم الشيرازي أبو إسحاق (ت٤٧٦هـ) تحقيق: خليل الميس، دار القلم - بيروت.

٣٠- طبقات المالكية مخطوط لمؤلف مجهول بالخزانة العامة تحت رقم ٣٩٢٨ د.

٣١- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، ط بولاق - القاهرة.

٣٢- العرب في صقلية دراسة في التاريخ والأدب، د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ط٢، ١٩٧٥ .

٣٣- الغنية للقاضي عياض، تحقيق: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٢ - ١٩٨٢ .

٣٤- فصول الأحكام، لأبي الوليد الباجي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٥ .

٣٥- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد الحجوي الثعالبي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦ / ١٩٩٥ .

٣٦- فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية حسب أرقامها على الرفوف، مرقون ١٩٨٣، الأستاذ محمد المنونى رحمه الله.

٣٧- فهرس ابن عطية، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية المحاربي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٤٠٠، ط١، تحقيق: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي.

٣٨- فهرس مخطوطات خزانة القرويين، د. محمد العابد الفاسي، دار الكتاب - الدار البيضاء، ط ١٣٩٩ / ١٩٧٩.

٣٩- فهرس ابن خير لأبي بكر محمد الإشبيلي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٩، ط١.

٤٠- معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، دار الفكر - بيروت.

٤١- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي.

٤٢- معجم السفر لأبي طاهر أحمد بن محمد السلفي ٥٧٦، المكتبة التجارية - مكة المكرمة، المحقق عبد الله عمر البارودي.

٤٣- معجم العلماء والشعراء الصقليين، د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٤.

٤٤- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٩٥٧.

٤٥- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٤، ط١، تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس.

٤٦- المعلم بفوائد مسلم للمازري، تحقيق: الشيخ الشاذلي النيفر، الدار التونسية ١٩٨٨.

٤٧- الندوة الدولية بمناسبة الذكرى الألفية لإمام الحرمين الجويني، أقامتها كلية الشريعة بجامعة قطر سنة ١٤١٩ / ١٩٩٩.

٤٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت ١٩٦٨ .

٤٩- النكت والفروق لعبد الحق الصقلي، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط ٢٦١ .

٥٠- وفيات الأعيان وأنباء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٨ .

مناقشات وتعقيبات

د. الشعلان:

لدي تعليق على بحث الأستاذ سعد بن يحيى المتعلق بالمدرسة المالكية بصقلية فالأستاذ قد ذكر أنه اعتمد على كتابين مغمورين والذي يعنينا منهما هو كتاب النكت لعبد الحق الصقلي.

فأقول إن هذا الكتاب ليس مغموراً كما ذكر الباحث، بل هو كتاب معلوم، وقد حقق في جامعة أم القرى في أربع رسائل علمية والباحثون بصدد البحث في طباعته.

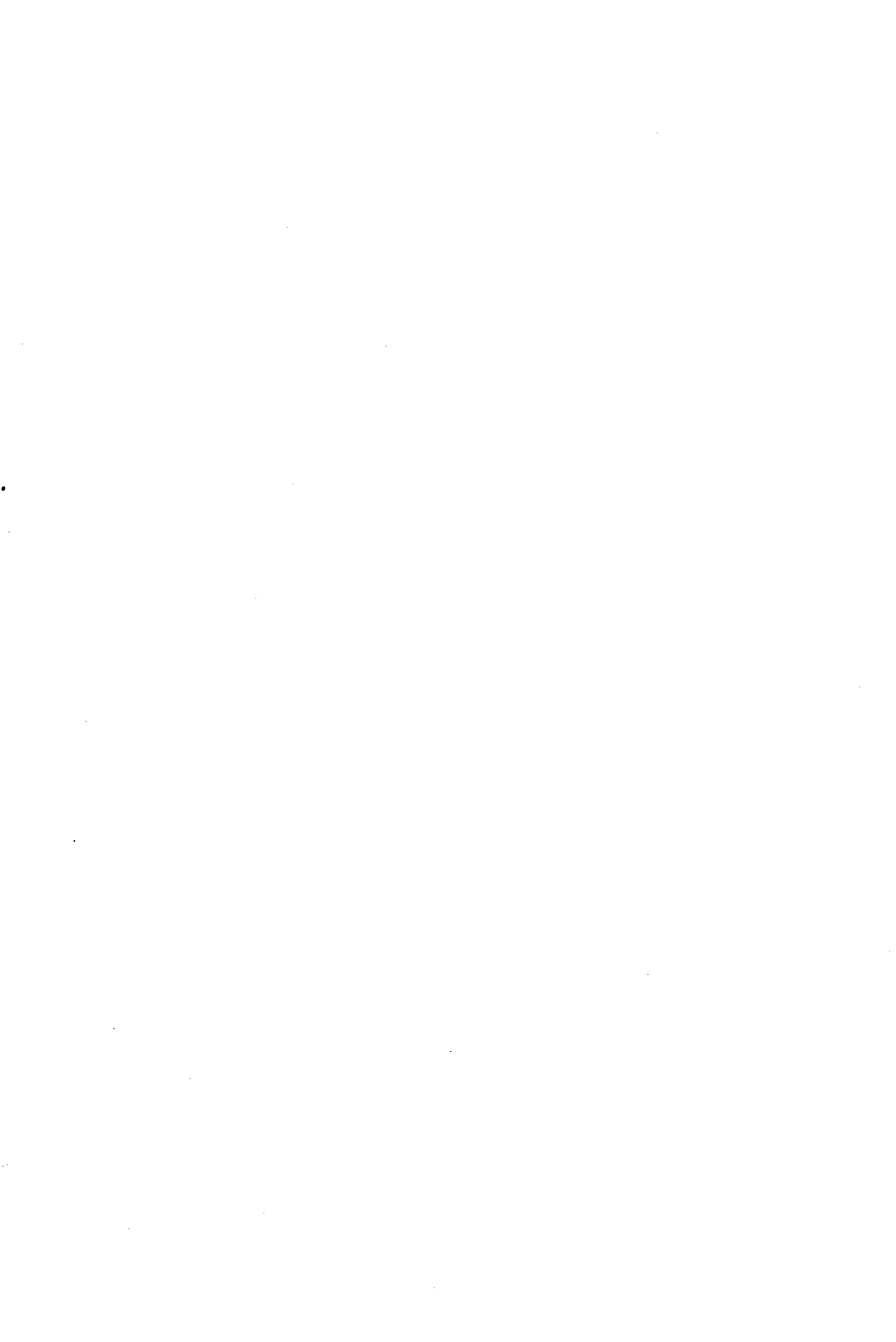
الأمر الآخر هناك مرجع مهم بالنسبة للمدرسة المالكية بصقلية وهو كتاب مطبوع ولا يحضرني في هذه الساعة اسمه ولعله صقلية المسلمة أو صقلية الإسلامية أو اسم نحو هذا.

مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي ومظاهر استمدادها من المدرسة الأولى

إعداد

د. مصطفى أحمد علي القضاة*

* أستاذ مساعد ورئيس قسم الفقه وأصوله بكلية الشريعة بجامعة اليرموك بالأردن، حصل على الماجستير في الفقه وأصوله من دار الحديث الحسنية بالرباط عام (١٩٨٦م) وكان عنوان رسالته: «أحكام المعوقين في الشريعة الإسلامية – أحكام العميان –» وحصل على الدكتوراه من الدار نفسها والتخصص نفسه عام (١٩٩٢م) وكان عنوان رسالته: «حقوق المعوقين بين الشريعة والقانون». له العديد من الكتب والدراسات.



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديهم، وسار على نهجهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن مذهب إمام دار الهجرة "مالك بن أنس" رحمه الله من مذاهب أهل السنة والجماعة التي تحظى بالإجلال والتكريم في بلاد المسلمين، شرقها، وغربها، وإن لإمامه مكانة عند العلماء لا يضاهيها مكانة.

وقد تتلمذ على هذا الإمام الجليل جمع كبير من طلبة العلم من مختلف البلاد، حاملين معهم فقه إمام دار الهجرة، وهكذا انتشر مذهبه: في الحجاز، ومصر، والعراق، وتونس، والأندلس، والمغرب الأقصى.

وحيث إن مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، أصبحت المدرسة الوحيدة القائمة حقيقة في العصر الحاضر، في بلدٍ لا ينافسه فيه غيره من المذاهب، ونظراً لآثارها الكبيرة في الفقه المالكي؛ ولأنها لم تحظ بدراسة علمية متكاملة، بخلاف المدارس الأخرى[(١)]، ولما أجده في نفسي من رغبة قوية للتعريف بهذه المدرسة الأصيلة[(٢)]، فقد ارتأيت كتابة هذا البحث، لتجلية خصائص هذه المدرسة، والتعريف بها، من حيث نشأتها،

---

(١) نظمت في مدينة فاس في المغرب ندوة الإمام مالك، سنة ١٩٨٥م . وكانت أبحاثها تتعلق بالمذهب المالكي ككل.

- نوقشت في الجامعة الأردنية رسالة دكتوراه بعنوان: المذهب المالكي وأثره في الحياة الأندلسية للباحث: سليمان حسين نجم، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٨٨م.

- ونظمت في قرطبة ندوة الأندلس سنة ١٩٩٣م.

- ونظمت في تونس ندوة : ملتقى المدرسة القيروانية بين الفقه والحديث سنة ١٩٩٥م.

- ونشر د. عبد المجيد الصلاحين، بحثاً بعنوان المدرسة العراقية في المذهب المالكي، خصائصها وآثارها في المذهب، مجلة دراسات الجامعة الأردنية المجلد ٢٥ العدد ١، ١٩٩٨م، عمان، الأردن.

(٢) كان لي شرف الدراسة في المملكة المغربية ثمان سنوات في مرحلتي الماجستير ودكتوراه الدولة، دار الحديث الحسنية، الرباط .

وتطورها، وأشهر أعلامها، وأثرها في الفقه المالكي، ومظاهر استمدادها من المدرسة الأولى في المدينة المنورة، وذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول: نشأة مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي وتطورها.

المبحث الثاني: أشهر أعلام مدرسة المغرب الأقصى.

المبحث الثالث: أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الأقصى.

المبحث الرابع: مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي.

المبحث الخامس: مظاهر استمدادها من المدرسة الأولى.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات التي خرجت بها الدراسة.

المبحث الأول

نشأة مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي وتطورها

يظهر أن دخول المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى قد تأخر نسبياً عن بقية الأقطار الأخرى، إذ تفيد بعض الروايات التاريخية أن المذهب المالكي انتقل إليه من الأندلس[١]، ويقال أن المغاربة قبل اعتناقهم للمذهب المالكي، كانوا يدينون بمذاهب مختلفة، من حنفية، وخارجية، ومعتزلة، وغيرها، كمذهب الأوزاعي مثلاً[٢].

وقد جزم الكتاني وغيره بأن الإمام إدريس[٣] كان على مذهب مالك، ودعا الناس

---

(١) الناصري، أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ط١، ص١٣٨، ط دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٥٥م.

(٢) الكتاني، محمد بن جعفر، الأزهار العاطرة، ص١٣٠، مخطوطة بالخزانة العامة في الرباط، رقم ٣٣٥٤.

(٣) مؤسس دولة الأدارسة "إدريس بن عبد الله الحسن" نجا من معركة (فخ) بين مكة والمدينة، التي جرت بين العباسيين والعلويين (١٦٩هـ-١٧٠هـ) وفر إلى مصر، ومنها إلى المغرب، ونزل في بلدة "وليلى" من أعمال مدينة طنجة في شمال المغرب سنة ١٧٢هـ، وبايعته قبائل البربر بعد أن عرفوا قرابته من الرسول ﷺ. أبو دياك، صالح محمد فياض، الوجيز في تاريخ المغرب والاندلس، ص١٧١، ١٧٢، ط١، ١٩٨٨م، نقلاً عن: الفاسي، علي ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ط٢، الرباط، ١٩٧٢م، الشلبي، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٣، ص٢٠٩، وما بعدها، ط٥، ١٩٧٤م، القاهرة.

للأخذ به واتباع منهجه، وجعله مذهباً رسمياً للدولة معززاً ذلك بقوله: «نحن أحق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه الموطأ»[١].

وقد أرسى الإمام إدريس أصول المذهب المالكي في المغرب الأقصى، بإسناد منصب القضاء لأول شخصية عربية هي: عامر بن محمد بن سعيد القيسي، تلميذ الإمام مالك[٢]، الذي سمع منه، وروى عنه كثيراً، ولما قدم المغرب سمع منه إدريس وغيره من الفقهاء ما رواه "مالك"، فكان "عامر" بذلك أول من أدخل الموطأ إلى المغرب الأقصى[٣].

وبدخول الموطأ إلى المغرب تحول المغاربة من المذهب الحنفي إلى المذهب المالكي إذ لم يكد القرن الرابع يطل، حتى كان المذهب المالكي قد بدأ ينتشر في المغرب الأقصى، وتتجذر أصوله، وفروعه في سائر مرافق الحياة[٤].

وقد تعزز المذهب المالكي في المغرب على أيدي العلماء الذين ارتحلوا لطلب العلم ومن هؤلاء: دراس بن إسماعيل[٥]، الذي يعود الفضل إليه في تأسيس مدرسة «فاس» في أوائل القرن الرابع الهجري[٦]. إذ يعد أول من أدخل «المدونة» وبواسطته انتشر المذهب في المغرب وذاع[٧]، وإذا كان الباحثون يعدون «الموطأ» أول كتاب حديثي دخل المغرب، فإنهم يعدون المدونة أول كتاب فقهي دخل إليه، وعلى هذا اعتبر دراس بن إسماعيل أول من أدخل فقه الإمام مالك إلى المغرب الأقصى[٨].

وفي سنة ١٩٢هـ أسس الإمام "إدريس بن إدريس" مدينة "فاس"، وجعلها عاصمة سياسية ومركزاً دينياً، وقد ضمت المدينة من قدموا عليه من الأندلس ومن قدموا عليه من

(١) الكتاني، الأزهار العاطرة، ص١٣٠.

(٢) ابن القاضي، احمد، جذوة الاقتباس، ص١٣، طبعة فاس ١٣٠٩هـ.

(٣) الناصري، الاستقصا، ص١٦٣، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ج١، ص٣٤.

(٤) الكتاني، الأزهار العاطرة، ص١٣٠.

(٥) سترد ترجمته لاحقاً، عند الحديث عن أشهر أعلام مدرسة المغرب الأقصى.

(٦) ابن عاشور، محمد الفاضل، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، ص٣٦، مطبعة النجاح، تونس.

(٧) الحجوي، محمد بن الحسن الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي،ص١١١، ط١، ١٩٩٥م.

(٨) مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية، ص٤٥١، المطبعة السلفية، ومكتبتها، بيروت.

القيروان[١]، فكانت تشمل عدوة الأندلس وعدوة القرويين[٢]، وعندما نتحدث عن فاس فإن الحديث عنها يرتبط بشيئين ارتباطاً باسمها ارتباطاً دائماً ألا وهما: الجامع، والجامعة، وأعني جامع القرويين[٣]، وجامعة القرويين، ففيهما بدأ التعليم للفقه المالكي في المغرب الأقصى، وتطور وتجذر في تلك الديار[٤].

ومن المعلوم أن المسجد كان مركزاً للتعليم منذ فجر الإسلام، ونستطيع القول: أن مسجد «المدينة» كان أول معاهد التعليم في المشرق، تبعه جامع البصرة، والكوفة، والفسطاط، ثم جامع الزيتونة بتونس سنة ١١٦هـ، وبعده جامع القرويين في المغرب الأقصى سنة ٢٤٥هـ، ثم الجامع الأزهر في مصر سنة ٣٥٩هـ[٥]، أما جامعة «القرويين»: فإن للقيروان في تونس الفضل الأول في تكوين جامعة «فاس» وكانت لها بمثابة الفرع من الشجرة[٦]، لكن "القيروان" لم تلبث أن تعثرت عثرتها الكبرى في القرن الخامس الهجري، بتغلب قبائل بني هلال القادمة من الشرق، فأصبحت أثراً بعد عين، ولم يكن حظ «الزيتونة» بأحسن حالاً، فبعد السنين الزاهرة التي عرفها الجامع والتي جمعت مراراً وتكراراً بين علماء فاس وعلماء تونس، فإن الأسبان لم يلبثوا أن قطعوا سيرتها أواسط القرن العاشر[٧]. كما كان للتدخل العثماني أيضاً أثراً في "تتريك" التعليم بالجامع الأعظم[٨].

---

(١) ولد سنة ١٧٥هـ، وبويع بالإمامة وله من العمر عشر سنوات، ونقل حاضرته من "وليلى" إلى فاس، وتوفي سنة ٢١٣هـ، التازي، عبد الهادي، جامع القرويين، ج١،ص ٥٦، ١٩٧٢م، بيروت.

(٢) التازي، جامع القرويين، ج١، ص٥٦ .

(٣) كلمة القرويين: تخفيف اللفظ: "القيروانيين" نسبة إلى القيروان، وهو معهود في كتب الفقه والنوازل، التازي، جامع القرويين، ج١ ص٥٦ .

(٤) قامت بإنشائه: "فاطمة أم البنين" بنت محمد الفهري القيرواني، وقد قدمت مع أبيها وأفراد أسرتها من إفريقية (تونس)، وتوفيت سنة ٢٤٥هـ. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٣٢، ص٣٣ .

(٥) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١١٣ .

(٦) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١١٣ .

(٧) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١١٣، نقلاً عن: ابن عامر، تونس عبر العصور، ص١٠١، وما بعدها، تونس.

(٨) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١١٣، نقلاً عن: التهامي، نقرة، القيروان عبر العصور، ص١١٣، تونس.

وقد انعكس تراجع دور القيروان وجامع الزيتونة على دور القرويين حيث عظم دورها وتعززت في الغرب الإسلامي من حيث رفع لواء المذهب المالكي.

كما تعزز مركز القرويين بالتفاف مدرسة قرطبة و القيروان حول فاس إذ هاجرت أربعمائة أسرة قيروانية منهم "آل الفهري" وثمانية (أو ثمانمائة في رواية أخرى) من قرطبة، وكان ذلك بزعامة رجل بربري من طنجة من قبيلة "نفرة" وهو: "يحيى بن يحيى الليثي" المتوفى سنة ٢٣٤هـ، وكان قد سمع الموطأ من مالك(١).

وبهذا اجتمع في فاس علم القيروان و قرطبة، إذ كانت القيروان حاضرة الغرب، وقرطبة حاضرة الأندلس، فلما اضطرب أمر إفريقية (تونس) بعبث العرب بها، واضطرب أمر قرطبة آخر ممالك بني أمية، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء، فراراً من الفتنة، فنزل أكثرهم إلى مدينة فاس، وأصبحت بذلك موئلاً للعلم والعلماء(٢). وهكذا امتدت شجرة الفقه المالكي من المدينة إلى بغداد، إلى القيروان، إلى قرطبة ففاس مؤكدة المقولة المأثورة: «العلم كقمح نتج بالمدينة، وصفي ببغداد، وطحن بالقيروان، وغربل بقرطبة، وأكل بفاس»(٣).

وبدأ تطور مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، وتعزز نفوذ المذهب بقيام الدولة المرابطية في القرن الخامس(٤). خاصة في زمن الأمير: علي بن يوسف بن تاشفين الذي عرف عنه اهتمامه بأهل الفقه، ومشاورته للفقهاء، وكان يشترط على القاضي عند توليته ألأ يقضي إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فعظم أمر الفقهاء في أيامه، وأقبل الناس إليهم، ولم يكن الأمير يقرب منه إلا من علم علم فروع مذهب مالك، فنفقت كتب المذهب للإقبال

(١) ابن عبدالله، عبد العزيز، الفقه المالكي والوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه، مجلة دار الحديث الحسنية، العدد الثاني، ص١٣٢، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٩٨١م.

(٢) مخلوف، شجرة النور الزكية، ص٤٥١.

(٣) التازي، جامع القرويين، ج١ ص١٠٩، نقلاً عن: الناصري، الاستقصاء، ص٣٢٩.

(٤) دولة إسلامية، قامت بالمغرب، أسسها أبو بكر بن عمر اللمتوني، سنة ١٠٥٣م، وبرز فيها يوسف بن تاشفين، مؤسس مدينة «مراكش»، وانتصر على الإفرنج في معركة «الزلاقة» سنة ١٠٨٦م، واستمد المرابطون هذه التسمية من نظام الرباط. الموسوعة العربية الميسرة، ص١٦٧٦، ١٦٧٧، إشراف: محمد شريف غربال، صورة عن طبعة ١٩٦٥م.

عليها، والعمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها، حتى أهمل النظر في الكتاب والسنة من مشاهير فقهاء ذلك الزمان، وترتب على كل ذلك امتداد نفوذ المذهب، وازدهاره[١]، حيث توسع المذهب المالكي باتجاه جنوب المغرب نحو الصحراء، التي انبثقت منها الدولة المرابطية، بدافع من «واجاج بن زلو» الذي اختار «عبد الله بن ياسين» بإيعاز من: أبي عمران الفاسي إمام المذهب المالكي في تونس[٢].

ولا يخفى أنَّ العالم: ميمون الصحراوي المتوفى سنة ٥٠٦هـ، وقيل: سنة ٥٣٠هـ، هو شيخ القاضي عياض[٣]، إمام المذهب المالكي في المغرب، وصاحب كتاب ترتيب المدارك، وقد نوه بانتشار المذهب آنذاك في المغرب الأقصى والصحراء وبلاد من أسلم من السودان[٤].

وقد كان اهتمام أهل الصحراء الغربية بمذهب الإمام مالك شديداً حيث ذكر اليوسي من رجال القرن الحادي عشر في حديثه عن الرجراجين أن أهل (دغوغ) الذين انتشروا في المغرب وصحرائه كان يحفظ المدونة منهم عن ظهر قلب (٧٦٦٠) رجلاً و(٥٠٠) من النساء[٥].

وبسقوط الدولة المرابطية، واستيلاء الدولة الموحدية[٦]، مر المذهب المالكي بفترة عصيبة، حيث ضُيق على فقهاء المالكية، وعارضوا مذهبهم معارضة صريحة، بل أحرقوا

---

(١) المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق: علي زينهم، ص ١٤٩-١٥١ .
- تيمور احمد، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الاربعة، ص ٦٧، ط٢، ١٩٩٥م.

(٢) ابن عبد الله، عبد العزيز، الفقه المالكي والوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه، ص٢٣٤ .

(٣) ابن إبراهيم، العباس، الإعلام في تاريخ مدينة مراكش، ج٧، ص٢٣٩ .

(٤) عياض، عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك تحقيق: جماعة من علماء المغرب، ص٦٦٥، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

(٥) السوسي، محمد المختار، المعسول، ج٤، ص٩، ط، الدار البيضاء، ١٩٦٠، المغرب.

(٦) دولة إسلامية قامت في شمال إفريقيا والاندلس، أسسها زعيم من البربر اسمه "محمد بن تومرت" بلغت ذروة مجدها في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور الذي انتصر على الأسبان في معركة "الآراك" وانهارت دولتهم سنة ١٢٦٩م، الموسوعة العربية الميسرة، ص١٧٧٢ .

كتبهم، ومنها: «مدونة سحنون»[١]. وخاصة في عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن حيث طلب من الناس ترك الاشتغال بعلم الرأي، وتوعد على ذلك بالعقوبة، بل أوقع المحن بذوي الفروع، وقتلهم، وضربهم بالسياط، وألزمهم بالأيمان المغلظة من عتق، وطلاق، على أن لا يتمسكوا بشيء من كتب الفقه، وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب، وحمل الناس على الظاهر من القرآن[٢].

غير أن هذه المحنة التي لحقت بأتباع المذهب المالكي لم تطل، فبزوال الدولة الموحدية، ومجيئ الدولة «المرينية»، عاد النفوذ للمذهب المالكي مرة أخرى، ومازال[٣]. فقد استطاع «بنو مرين» بسرعة أن يسترجعوا ما ضاع، وأن يبعثوا ما فقد من كتب المالكية، وفي صدرها كتاب "المدونة" التي نسخها فقهاء فاس من حفظ الفقيه: «أبي الحسن علي بن عشرين»[٤].

ومما ساعد على تطور الفقه المالكي في المغرب الأقصى؛ اهتمامهم بالخزائن العلمية، والكراسي العلمية.

فقد عرفت "القرويين" نوعاً من المجامع الأكاديمية، تجلت في هذه المكتبات العلمية العديدة، وقد عرف عن أهل فاس أنهم يتبارون في اقتناء الكتب وانتساخها، فهذا العالم: "يحيى الرابع" المتوفى سنة ٣٠٧هـ يقول فيه «البكري» إنه كان يتوفر على عدد من الوراقين لا شغل لهم إلا نسخ الكتب»[٥].

وكان أبرز ما يثير انتباه المتتبع لظهور الخزائن العلمية هذا العدد من العلماء الذين

---

(١) تعرضت المدونة للإحراق مرتين: الأولى في تونس على يد عباس الفارسي الذي كان محدثاً يبغض أهل الفقه والرأي، ويقع في "أسد بن الفرات" و "ابن القاسم". عياض، ترتيب المدارك، ج٣، ص٣٠٠ . والثانية: على يد الموحدين في المغرب. المراكشي، المعجب، ص٤٠٠ .

(٢) المراكشي، المعجب، ص٣٢١، ص٢٣٢ .

(٣) الحجوي ، الفكر السامي، ج٣، ص١٧٣ .

(٤) التازي، عبد الهادي، المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية، ندوة الإمام مالك، ج١، ص٩٤ .

(٥) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١٢٣ .

أخذوا يتوفرون على مكتبات عظيمة، ووصل العلم بذلك إلى مجالس علماء الشرق، فهذه مكتبة بني الغريديس (التغلبيين) لصاحبها قاضي فاس، وناظر جامع القرويين: «أبي عبد الله محمد الغرديسي التغلبي»[١].

وهذه مكتبة القاضي أبي القاسم عبد الرحيم بن الملجوم بفاس، التي كونها من مكتبة والده، ومكتبة عيسى الأزدي الزهراني، ومكتبة المؤلف: عبد الرحمن بن الملجوم حيث صارت أكبر مكتبة في المغرب في ذلك العهد[٢].

ولا تزال خزانة القرويين الكبرى في فاس تحتفظ إلى اليوم بنسخة من كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك وقد كتب سنة (٤٦٥هـ)، وكتاب الناسخ والمنسوخ لأبي بكر بن العربي عليها خط الحافظ: ابن مفوز سنة (٤٨١هـ)، واختصار الموطأ: للمهدي بن تومرت، وفي أوله سند عبد المؤمن بن علي بن المهدي إلى الإمام مالك، هذا إلى بقية من نسخة الموطأ في عدة أجزاء من رق الغزال، وكان نسخها في شعبان من سنة (٥٠٢هـ)[٣].

أما الكراسي العلمية: فقد استعملها علماء القرويين منذ وقت مبكر للاستعانة بها على تلقين طلبتهم، ولا سيما حين يكثر عددهم، وقد عرف عن بعض مجالس العلم بجامع القرويين ما كان يناهز عدد الحضور فيها آلافاً من الناس، فكان ضرورياً أن يتخذ الفقيه له كرسياً لإسماع كل هذا العدد[٤].

ويذكر أن أقدم رواية تنص على الجلوس للتدريس بالقرويين تذكر أن العالم ابن أبي جامع الأنصاري كان يعطي دروساً بالجهة الغربية من القرويين سنة (٥١٥هـ)، كما تذكر أن أبا الحسن علي القيسي كان يعطي دروسه سنة (٥٥٤هـ)[٥].

وهكذا ظهر المذهب المالكي في المغرب الأقصى، واستمر على انتشاره الباهر، ونموه

(١) المقري، شهاب الدين احمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج١، ص٢٣، إشراف: اللجنة المشتركة لإحياء التراث بين المملكة المغربية، ودولة الإمارات العربية المتحدة.

(٢) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٤٢ .

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٢٨ .

(٤) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١٢٥ .

(٥) التازي، جامع القرويين، ج١،ص١١٣، نقلاً عن: ابن الزبير، صلة الصلة، نشر بروفنصال، رقم٩٥، الرباط، ١٩٣٩م.

الزاهر إلى يومنا الحاضر، وبقيت جامعة القرويين منارة للعلم، ليس للمغرب فحسب، بل لمختلف بلاد المسلمين في تلك الجهات وغيرها.

وقد تخرج من هذه المدرسة علماء أجلاء، كان لهم الدور الفاعل في خدمة الفقه المالكي تعاقبوا جيلاً بعد جيل، ولم يتوقف عطاؤهم منذ احتضان المغرب لهذا المذهب الأصيل، وهذا ما نتعرف عليه في المبحث التالي.

المبحث الثاني

أشهر أعلام مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي

إذا أردنا أن نستقصي أعلام مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، فإن الأمر سيطول، كما أن طبيعة البحث تستوجب أن يكون محدوداً، ولهذا فإنني سأختار عددا منهم، ممن كان لهم أثر بارز في مسيرة مدرسة المغرب الأقصى، وعملوا على توطيد المذهب المالكي في تلك الديار. كما آثرت عدم الحديث عن علماء يحسبون على مدرسة المغرب، ويحظون بمكانة مميزة في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي عامة والمغرب الأقصى خاصة من أمثال: ابن رشد، واللخمي، وابن عربي، وابن عبد البر، و أبو عمران الفاسي، وغيرهم.

وفيما يلي نبذة عن أشهر علماء المغرب الأقصى، مرتبين حسب أسبقيتهم في المذهب:

١ـ أبو ميمونة: دراس بن إسماعيل الفاسي: وهو أول من أدخل "المدونة" إلى المغرب الأقصى، وكانت إليه الرحلة بالمغرب في وقته، وعليه مدار الفتيا، سمع من شيوخ الأندلس، ومن ابن اللباد بإفريقية (تونس)، ومن ابن أبي مطر بالإسكندرية، وسمع منه كتاب ابن المواز: ابن أبي زيد القيرواني، كما روى عن أقوام من أهل الأندلس وسبتة، توفي سنة ٣٥٧هـ(١).

٢ـ ابن العجوز: عبد الرحيم بن أحمد الكتامي، كان له في المغرب رياسة العلم، وإليه

---

(١) عياض، ترتيب المدارك، ج٦، ص٨١، ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ص٢٠٠ . دار الكتب العلمية، بيروت.

كانت تدور الفتيا، ورحل إلى الأندلس، وإفريقية (تونس)، ولازم ابن أبي زيد، واختص به، وسمع منه كتب النوادر والمختصر، وجاء بهما وبغيرهما إلى سبتة، وسمع منه دراس بن إسماعيل، توفي سنة ٤١٣هـ[١].

٣ـ ابن معيشة (الكناني): القاضي أبو محمد عبد الحق الكتاني الغرناطي، أحد رؤساء جامع القرويين على عهد المرابطين، كان يحتفظ بأربع خطط: فقيه، مشاور، إمام، قاضي، ويذكر التاريخ أنه كان على رأس علماء القرويين الذين حضروا مجالس المهدي بن تومرت في مسجد الطالعة، توفي سنة ٥٣٣هـ[٢].

٤ـ ابن الملجوم: القاضي أبو موسى عيسى بن يوسف، من فقهاء فاس وعلمائها الأفذاذ، تولى القضاء بفاس ومكناس، وكان عارفاً بالنوازل، ذاكراً للمسائل، متقدماً في الأحكام، توفي سنة ٥٤٣هـ[٣].

٥ـ عياض: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، ولد بسبتة[٤]، وسكن أجداده مدينة فاس، كان إمام وقته في مختلف العلوم، تحدثت الركبان بمجالسه، وبطريقة تأليفه، التي جمعت بين الأسلوب المغربي الذس يهدف إلى تمحيص الألفاظ، والأسلوب المشرقي الذي يقصد إلى المعنى، وله رحلة إلى الأندلس لطلب العلم، ورحلة إلى المشرق أيضاً[٥].

وكان عياض يجمع بين الرواية، والدراية، والحديث، والفقه، كما كان مفسراً بارعاً،

---

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص١٥٨ .

(٢) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١٦٢، نقلاً عن: ابن الأبار، معجم أصحاب الصدفي، ص٢٩٠ رقم ٢٧٢ ،نشر كوديرا، مجريط.

(٣) ابن بشكوال، الصلة، رقم٥٥٩، ط مصر، ١٣٧٤هـ، ابن فرحون، الديباج، المذهب، ص٢٨١، وما بعدها.

(٤) مدينة مغربية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وتخضع للاحتلال الأسباني في الوقت الحاضر.

(٥) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص٢٧٠، الظبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتمس، في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: روحية السيوفي ص٣٨٣، ط١، ١٩٧٩م.

ومؤرخاً معتمداً، ولذا فقد تنوعت موضوعات مؤلفاته، وكتبه، حيث شملت: الفقه، والحديث، والتفسير، والسيرة ، والتراجم[١]. وسعة رواية عياض هي التي أحلته المحل الأول في الفقه المالكي، وجعلت أبناء عصره يعولون عليه في حل ألفاظ مدونة الإمام سحنون[٢].

وله تآليف مفيدة، انتفع بها الناس، وكذا استعمال كل طائفة لها[٣]، ومن أشهر مؤلفاته الفقهية:

- كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة، ولم يؤلف في فنه مثله[٤].
وعليه المعول في حل ألفاظ المدونة، وتحليل رواياتها، وتسمية رواتها[٥].
- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، والأجوبة المحيرة على الأسئلة المتخيرة.

توفي سنة ٥٤٤هـ.

٦- المتيطي: القاضي أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم السبتي الفاسي، المحقق، العارف بالشروط، وتحرير النوازل، ألف كتاباً كبيراً في الوثائق، سماه: النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، اعتمده المفتون والحكام، توفي سنة ٥٧٠هـ[٦].

٧- المواق: القاضي أبو بكر خلف الأنصاري المعروف بالمواق، من أهل قرطبة، وانتقل إلى مدينة فاس فسكنها، كان حافظاً حافلاً في علم الفقه، والخلاف العالي، ملازماً للتدريس، لا يدانيه أحد في ذلك، وله: تنبيهات، ومقالات مفيدة. توفي سنة ٥٩٩هـ[٧].

٨- الخشني :أبو ذر مصعب بن مسعود، كان رئيساً في صناعة العربية، وكان يقرئ

---

(١) علي، محمد إبراهيم أحمد، اصطلاح المذهب عند المالكية، ص١٢٨، السنة، العدد٢٢، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٢) دورة القاضي عياض، السلاوي، عبد القادر، دور عياض في توطيد المذهب المالكي، ج١ ص١٦٢ . مراكش، المغرب.

(٣) المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، جـ٥ ، ص٧ .

(٤) المقري، أزهار الرياض، أخبار عياض، ج٤، ص٣٤٧ .

(٥) الحجوي، الفكر السامي، ج٢، ص٢٢٤ .

(٦) مخلوف، شجرة النور الزكية، ص١٦٣ .

(٧) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١٧٨، نقلاً عن: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، رقم ٥٩٦، نشر: كوديرا، مجريط.

العربية، ويُدرس كتاب الأحكام، وكان له إشراف مطلق على القرويين في فترة من الزمن، توفي سنة ٦٠٤هـ[١].

٩- ابن عشرين: أبو الحسن علي، الفقيه الحجة الحافظ، أخذ عنه فقهاء المغرب. كان يحفظ "المدونة"، ومن صدره نقلت بعد أن أحرقها الموحدون، ويروى أنه لما نسخت من صدره وإملائه في أول الدولة "المرينية" قوبلت بنسخة مصححة نجت من الحريق، فوجدوها كما هي لا خلاف بينهما، توفي سنة ٦٦٧هـ[٢].

١٠- أبو الحسن الصُّغَيِّر: علي بن محمد الزرويلي، كان فقيهاً، قيماً على تهذيب ابن البراذعي حفظاً وفهماً، وهو صاحب التقييد على المدونة الذي أكمله ابن غازي، كان يفتح مجلسه ما ينيف على الثمانين ديواناً، توفي سنة ٧١٩هـ[٣].

١١- ابن المواق: أبو العباس أحمد بن محمد التجيبي، استظهر كتاب الموطأ فضرب شيوخ المالكية بالأزهر الشريف الطبول على رأسه إشادة وتنويهاً، توفي سنة ٧٢٥هـ[٤].

١٢- أبو زيد الجزولي: الحافظ عبد الرحمن بن عفار، كان يحضر مجلسه في جامع القرويين أكثر من ألف فقيه، ومعظمهم يستظهر المدونة أو جلها، وقد اقتفى تلامذة طلبة الشيخ الزرويلي، فقيدوا على الرسالة من شيخهم تقاييد ثلاثة:

أحدها: الكبير وهو المشهور بالسبع؛ لأنه في سبعة أسفار، والآخر: المشهور بالمثلث، والأخير أصغر في اثنتين، وكلها مفيدة، توفي سنة ٧٤١هـ[٥].

١٣- القروي: أبو فارس عبد العزيز، الفقيه، ناظر المارستان بفاس، وشارح المدونة، وإليه يرجع الفضل في تخصيص التعليم في القرويين بكبار الطلاب، واقتصار تعليم

---

(١) كنون، عبدالله، النبوغ المغربي، ص١٤٩، ط٢، بيروت، ١٩٦١م.

(٢) التازي، جامع القرويين، ج١، ص١٨٩.

(٣) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص٢١٢، الناصري، الاستقصا، ج٣، ص١٧٨.

(٤) التازي، جامع القرويين، ج٢، ص٤٨٦، نقلاً عن: الكتاني، محمد بن جعفر، سلوة الأنفاس، ج٣، ص٢٤٤، ط حجرية، فاس، ١٣١٦هـ.

(٥) المقري، شهاب الدين، أزهار الرياض، ج٣، ص٢٣، ٢٤.

الأحداث، توفي سنة ٧٥٠هـ(١).

١٤ـ المقري: قاضي الجماعة، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد القرشي، الإمام المحقق الفقيه الأصولي، أحد محققي المذهب، الحامل لواء المنثور والمنظوم، ألف كتاب القواعد، اشتمل على ألف ومائتي قاعدة، وهو كتاب لم يسبق إليه، وحاشية بديعة على مختصر ابن الحاجب، توفي سنة ٧٥٦هـ(٢).

١٥ـ قاضي الجماعة أبي عبدالله : محمد بن أحمد بن بكر القرشي، قاضي الجماعة بفاس، كان نسيج وحده في المتأخرين، ألف كتاباً اشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمنها كل أصل من الرأي والمباحثة، وتوفي سنة ٧٥٩هـ(٣).

١٦ـ الرعيني: محمد بن سعيد، من أهل فاس وطلبتها وعلمائها، له عدد كبير من التآليف منها: تحفة الناظر ونزهة الخاطر في غريب الحديث، والجامع المفيد، والقواعد الخمس، واختصار المقدمات لابن رشد، والأسئلة والأجوبة، وغيرها، توفي سنة ٧٨٧هـ(٤).

١٧ـ زروق: أبو العباس أحمد بن أحمد البرنسي، أحد الجسور المهمة لربط المغرب بالمشرق، صاحب التآليف الجيدة في الفقه والتصوف، أخذ بمدينة فاس عن جماعة من العلماء، كما أخذ بالمشرق عن طائفة أخرى، له شرحان على "الرسالة"، وآخر على مختصر خليل، وشرح على إرشاد ابن عسكر، وشرح القرطبية، توفي سنة ٨٩٩هـ(٥).

١٨ـ علي الزقاق: أبو الحسن علي بن قاسم، وهو الذي يرجع إليه الفضل في جمع المسائل التي جرى بها العمل في لاميته المشهورة، وصاحب المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب، توفي سنة٩١٢هـ(٦).

١٩ـ الونشريسي: أبو العباس أحمد، حامل لواء المذهب في عهده بدون منازع، نزيل

---

(١) المقري، احمد التلمساني، نفح الطيب من غيض الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج٧، ص١٧٥، بيروت، ١٩٦٣م.

(٢) مخلوف، شجرة النور الزكية، ص٢٣٢ .

(٣) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص ٢٨٨ .

(٤) مخلوف، شجرة النور الزكية، ص٢٣٦ .

(٥) الناصري، الاستقصا، ج٤، ص٩٠ .

(٦) الناصري، الاستقصا، ج ١٤، ص١٦٤ .

فاس، ومفتيها، وفي هذه المدينة أكب على تدريس المدونة، وفرعي ابن الحاجب، وهو صاحب المعيار القديم في ١٢ مجلداً، وفيه قال ابن غازي: "لو أن أحداً حلف بالطلاق على أن أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك، وأصوله، وفروعه، لَبَرَّ في يمينه»، توفي سنة ٩١٤هـ[١].

٢٠ـ ابن غازي: أبو عبدالله بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي، شيخ الجماعة في فاس، انتهت إليه رواية السنة بإفريقيا الشمالية، له: شفاء الغليل لشرح مختصر خليل، وتكميل التقييد على المدونة، وحل مشكلات ابن عرفة، وسواها، توفى سنة ٩١٩هـ[٢].

٢١ـ الزجلي: أبو العباس أحمد بن الحسن بن عرضون، من العلماء الأعلام، له من التآليف: كتاب اللائق من الوثائق، وكتاب أحكام الأنكحة، وآداب الزواج، وتربية الأولاد، توفي سنة ٩٩٢هـ.

٢٢ـ الحميدي: قاضي الجماعة أبو مالك عبد الواحد، حامل لواء المذهب المالكي، ومرجع النوازل، اشتهر بالاجتهاد والتصرف في النصوص، له كرسي بالقرويين، توفي سنة ١٠٠٣هـ.[٣]

٢٣ـ ميارة: الإمام أبو عبد الله محمد فتحا بن أحمد الفاسي، حامل لواء المذهب المالكي، مستحضراً للقول، ذاكراً للنوازل، وله تآليف عديدة منها: شرحه الكبير والصغير على المرشد، وشرحه لتحفة ابن عاصم، وشرحه للامية الزقاق، وتنبيه المغترين في حرمة التفرقة بين المسلمين، توفي سنة ١٠٧٢هـ[٤].

٢٤ـ أبو علي اليوسي: أبو الحسن بن مسعود، له عدد من المؤلفات منها: شرح جمع الجوامع، القانون، المحاضرات، كان الإقبال على مجالسه عظيماً، لتضلعه في العلوم العقلية، توفي سنة ١١٠٢هـ[٥].

٢٥ـ البناني: محمد بن عبد السلام، كان يدرس الفقه في الصف الأول من جامع

---

(١) الناصري، الاستقصا، ج٥، ص١٦٥ .

(٢) الحجوي، الفكر السامي، ج٤، ص١٠٠ .

(٣) الجزنائي، جني روضة الآس، ص٣٥، بيل، وابن منصور، المغرب.

(٤) الكتاني، سلوة الأنفاس، ج١، ص١٦٥ .

(٥) الناصري، الاستقصا، ج٢، ص١٠٨ .

القرويين ضحوة، والحديث قبل ذلك في مسجد عياض، وله مجلس ثالث لصحيح البخاري بين العشائين في المدرسة المصباحية، وهو شارح الشفاء والاكتفاء، توفي سنة ١١٦٣هـ[١].

٢٦ـ العراقي الحافظ: إدريس بن محمد، حافظ المغرب، وعالم فاس، شارح الشمائل، صاحب التعاليق الحديثية الكثيرة، استدرك على الجامع الكبير ماينيف على خمسة آلاف حديث، توفي سنة ١١٨٣هـ[٢].

٢٧ـ الرهوني: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف، المشهور بحاشيته على الزرقاني المطبوعة في ثمانية أسفار، توفي سنة ١٢٣٠هـ[٣].

٢٨ـ التسولي: أبو الحسن علي بن عبد السلام، تولى القضاء في فاس، وله تآليف عديدة منها: شرح الشامل في عدة أسفار، وشرح التحفة والنوازل، وحاشية على شرح سيدي التاودي على الزقاقية، توفي سنة ١٢٥٨هـ[٤].

٢٩ـ المولى عبد الهادي العلوي، عبد الهادي بن عبدالله، وإليه وجه السلطان، المولى عبد الرحمن، الظهير الخامس، بإصلاح نظام التدريس بالقرويين، كان بصيراً بالمذهب المالكي، ضابطاً لقواعده، عارفاً بصناعة الأحكام، جامعاً للدواوين، له شرح على تيسير الوصول إلى جامع الأصول لابن الربيع، توفي سنة ١٢٧٢هـ[٥].

٣٠ـ الكتاني: جعفر بن إدريس، العلامة الحجة، المحدث، الشهير، له حاشية على صحيح البخاري، وأخرى على الترمذي، وكتاب السرب المختصر في رجال القرن الحادي عشر، وكتاب الدواهي، وغيرها، توفي سنة ١٣٢٣هـ[٦].

٣١ـ المهدي الوزاني: الفقيه العلامة، النوازلي، ممن أدرجوا في مرتبة الأولى عند بداية

---

(١) الكتاني: سلوة الأنفاس، ج١، ص١٤٧ .

(٢) التازي، جامع القرويين، ج٣ ص٨٠٤، نقلاً عن: الكتاب الذهبي، جمع وتنسيق عبد الهادي التازي، جامعة القرويين في ذكراها المئة بعد الألف، إدارة الشؤون الثقافية، وزارة التربية والوطنية، الرباط، المغرب، ص١٧٣ .

(٣) التازي، جامع القرويين، ج٣، ص٧٠٨ .

(٤) الكتاني، سلوة الأنفاس، ج١، ص٢٣٨ .

(٥) الكتاني، سلوة الأنفاس، ج١ ، ص١١٧ .

(٦) ابن زيدان، النقيب، الدرر الفاخرة في مآثر العلويين بفاس الزاهرة، ص١١٦، المغرب.

تصنيف العلماء في "فاس"، واستمر مشتغلاً بالتاليف والإفتاء والتدريس، ومن مؤلفاته: شرح منظومة ياقوتة الأحكام في أربع مجلدات، توفي سنة ١٣٤٢هـ[١].

المبحث الثالث

أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الأقصى

اختلف الباحثون في أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الأقصى، وتشبثهم به، حيث تقبله المغاربة، وتمسكوا به مذهباً وحيداً، وحيث أصبح شعاراً لشخصيتهم ورمزاً لوحدتهم.

ويمكن إرجاع ذلك إلى ما يلي:

١- ارتباط المذهب المالكي بالسنة النبوية، فالمرجع الأول في المذهب هو كتاب الموطأ وهو كتاب حديث، وقد دخل هذا الأصل إلى المغرب الأقصى منذ العهود الأولى للدولة المغربية، وفي الموطأ أهم المعالم البارزة التي تؤكد منهجية هذا المذهب، وأصوله الاستنباطية، وقواعده الاجتهادية، وقد حظي هذا الكتاب بعناية واهتمام المغاربة، دراسة لأحكامه، وشرحاً لنصوصه، وتفريعاً على أصوله[٢]. وسنعرض لبيان ذلك عند الحديث عن أثر المدرسة المغربية في الفقه المالكي.

٢- شخصية صاحب المذهب نفسه، فقد عُرف عنه التمسك بالسنة، ومحاربة البدعة، وتشبثه بآثار الصحابة والتابعين، وهذا ما دفع الناس في تلك الديار إلى أن يتيقنوا أن مذهبه أولى بالاتباع؛ لأنه أقرب إلى روح الشريعة، خاصة أنه يلتزم باتباع نصوص الكتاب والسنة، والقياس الواضح[٣]. ومما يعطي الإمام مالك رحمه الله شخصية متميزة عن الناس عامة، وفي المغرب الأقصى خاصة، الأثر الوارد في شأن عالم المدينة، الذي حمله بعض العلماء عليه، وهو قوله ﷺ: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم،

---

(١) ابن زيدان، الدرر الفاخرة، ص١٢٢.

(٢) النبهان، محمد فاروق، أبحاث إسلامية، ص٢٣١، ط١، ١٩٧٧م، بيروت.

(٣) الجيدي، عمر بن عبد الكريم، محاضرات في الفقه المالكي في الغرب الإسلامي، ج١، ص١٥ مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٤م.

فلا يجدون أعلم من عالم المدينة»[١].

قال "سفيان بن عيينة" : كنا نسمع أهل المدينة يقولون : «إنه مالك بن أنس»[٢]. وعضده كثير من أهل العلم كالقاضي : أبي محمد بن عبد الوهاب، الذي قال ما معناه : «لا يمكن أن ينازعنا في هذا الحديث من أهل المذاهب الأخرى، لكون السلف والخلف كانوا إذا قالوا : «عالم المدينة» لا يقصدون بذلك إلا مالك بن أنس[٣].

٣ـ ويرى العلامة ابن خلدون أن من العوامل الأساسية في انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب : رحلة المغاربة إلى الحجاز للحج والعمرة، وفي هذا يقول : «وأما مذهب مالك رحمه الله تعالى، فاختص بمذهبه أهل المغرب، والأندلس، وإن كان يوجد فيه غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل، لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، شيخهم يومئذ وإمامهم مالك بن أنس فرجع إليه أهل المغرب والأندلس، وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل إليهم طريقته»[٤].

فقد كان الحجاج المغاربة يلتقون في المدينة المنورة بالإمام مالك، أو بتلاميذه، وينقلون إلى بلدهم ما سمعوه من علماء المدينة من أحكام، وبخاصة فيما يتعلق بالمصدر المعتمد في المذهب المالكي : وهو ما جرى عليه العمل في المدينة، حيث كان الإمام مالك

---

(١) الشيباني، أحمد بن حنبل، المسند، المجلد٢، ص٢٩٩، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

ـ الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة رقم٢٨٢١، وقال : هذا حديث حسن صحيح، ط٢، ١٩٨٣ بيروت.

ـ النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب العلم، ج١، ص٩٠، وقال : صحيح على شرط الشيخين، دار المعرفة، بيروت.

ـ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، ج١، ص٣٨٦، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢م.

(٢) عياض، ترتيب المدارك، ج١، ص٦٨، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق : مصطفى العلوي، ومحمد البكري، ج١، ص٨٥، مطبعة فضاله، المحمدية، المغرب.

(٣) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، تحقيق : أحمد أبوالطاهر الخطابي، المقدمة، ص، ز، الرباط، المغرب، ١٩٨٠م.

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ص٢٤٥، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

يعتمده، ويدافع عنه، بل ويقدمه على الخبر والأثر(١).

٤- ومنهم من يَرُدُّ ذلك إلى موقف بعض السلاطين، إذ يذكر بعض المؤرخين: أن مالكاً رحمه الله سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس، فوصفوا له سيرته بقولهم: إنه يأكل خبز الشعير، ويلبس الصوف، ويجاهد في سبيل الله، فقال مالك: «ليت الله زين حرمنا بمثله»(٢). فوصل الخبر إلى ملك الأندلس فحمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي(٣).

وهذا الرأي ذهب إليه الإمام ابن حزم رحمه الله، إذ إنه يرجع سبب انتشار مذهب الإمام مالك إلى نفوذ الحكام وسلطانهم، فيقول في ذلك: مذهبان انتشرا بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة بالمشرق، وذلك عند تولّي تلميذه أبو يوسف القضاء، فكان لا يولي القضاء إلا أصحابه المنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك في الأندلس، وذلك أن يحيى ابن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبولاً في القضاء، وكان لا يولّى قاض من أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه، ومن كان على مذهبه(٤).

وقد أخذ بهذا الرأي القاضي عياض؛ حيث ذكر أن "هشام بن عبد الرحمن" ثاني خلفاء بني أمية في الأندلس أخذ الناس جميعاً بهذا المذهب، وصيّر القضاء والفتيا عليه، وذلك من عشر السبعين ومائة من الهجرة، في حياة الإمام مالك، فالتزم الناس به، وحموه بالسيف دون غيره(٥).

وإذا كان كلام ابن حزم والقاضي عياض يشير إلى سلاطين الأندلس فإن الأمر ينطبق على سلاطين المغرب الأقصى، حيث حملوا الناس على الأخذ بمذهب الإمام مالك، وقد علم هذا منذ دخول المذهب إلى تلك الديار، وأكثر من هذا فقد كان عدد من السلاطين

---

(١) النبهان، أبحاث إسلامية، ص٢٣٢.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٣٠، الناصري، الاستقصاء، ج١ ص١٣٩.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص٣٠.

(٤) الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح، جذوة المقتبس، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، ص١٨٣، ط، القاهرة.

- المقري، نفح الطيب، ص٢١٨.

(٥) الونشريسي، المعيار المعرب، ج٦، ص٣٥٦، ط، بيروت.

يحسبون في عداد علماء الفقه المالكي بدءاً من الإمام إدريس الأول (الأكبر) مؤسس الدولة الإدريسية ثم ابنه الإمام إدريس الثاني (الأصغر)، واستمر الأمر في مختلف العصور، ومن هؤلاء السلاطين:

- يحيى الأول بن محمد بن إدريس الثاني، المتوفي سنة ٢٤٩هـ[١].
- يحيى الرابع: وكان فقيهاً، وحافظاً للحديث، توفي سنة ٣٠٩هـ[٢].
- أبو عنان: فارس أبو عنان، وكان يعد في صفوف العلماء المبرزين توفي سنة ٧٥٩هـ.
- المنصور: واسطة عقد الدولة السعدية، أحمد المنصور الذهبي، كان عالماً متضلعاً في التفسير، والحديث، والفقه، ونال إجازة عدد من علماء المغرب والمشرق، توفي سنة ١٠١٢هـ[٣].

واستمرت رعاية سلاطين المغرب للمذهب المالكي من خلال رعاية جامعة القرويين، ومما يؤكد حرص سلاطين المغرب الأقصى على المذهب المالكي، وحث الأمة على التشبث به، رعايتهم المستمرة للقرويين، مع ما تمثله من مركز إشعاع للفقه المالكي. فالملك محمد الخامس[٤] بقي طوال فترة حكمه (٣٤ سنة) يعطي القرويين - بعلمائها وطلابها - كل العناية يرددها في خطبه، ويدافع عنها في مجالسه، ولما عاد من منفاه صعد منبرها التاريخي، وخطب الناس، فكان بذلك ثاني ملك يرتقي المنبر للخطبة في المغرب بعد الإمام إدريس بن إدريس[٥].

وأما ولده الملك الحسن الثاني[٦] فقد قال في خطاب له في مجلس النواب المغربي[١]: «نريد مغرباً في أخلاقه وتصرفاته واحداً موحداً، تجمعه اللغة والدين، ووحدة

(١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص٣٢.

(٢) التازي، جامع القرويين، المجلد٢، ص٤٩٣، نقلاً عن الكتاب، الذهبي، ص١٦٥.

(٣) التازي، جامع القرويين، ج٢، ص٥١٥.

(٤) توفي سنة ١٣٨٠هـ.

(٥) التازي، جامع القرويين، ج٣، ص٨٢٣.

(٦) توفي سنة ٢٠٠٠م.

المذهب، فديننا الإسلام، ولغتنا لغة القرآن، ومذهبنا الإمام مالك، ولم يقدم أجدادنا رحمة الله عليهم على التشبث بمذهب واحد عبثاً، أو رغبة في انتحال المذهب المالكي، بل اعتبروا أن وحدة المذهب كذلك من مكونات وحدة الأسرة»(٢).

وإذا كانت هذه أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار المذهب المالكي في المغرب الأقصى، فإن ثمة أسباباً أخرى ساهمت في هذا الانتشار كما يرى بعض الباحثين، ومن هذه الأسباب:

- مناهضة المذهب المالكي للمذاهب الأخرى، كمذهب الخوارج، والحنفية، والشيعة(٣).

- وتشابه البيئة في كل من الحجاز وبلاد المغرب، من حيث طباع الناس والمناخ(٤).

- ومن الباحثين المعاصرين من يرى أن من أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الأقصى صلة سكان المغرب الأصليين بالعرب اليمنيين، ويدلّل على ذلك بتشابه العمران، والوثائق والكتابات التي عثر عليها، وتم عرضها في قاعة البطحاء، بمناسبة يوم النداء العالمي لإنقاذ مدينة فاس(٥).

- وهناك من ذهب إلى أن السبب الأهم: هو قوة رجالات المذهب الذين كان لهم القدرة على استنباط الأحكام، واستخراجها، وصمدوا في وجه التحديات، مما أهلهم لنشر هذا المذهب الذي اتبعوه، والذي هو مذهب السنة، وإمامه إمام دار الهجرة(٦).

ولا شك أن كل الأسباب التي سبقت كان لها دور فاعل في نشر المذهب المالكي، وإن كنت أرى أن أهم هذه الأسباب يعود لشخصية صاحب المذهب ومكانته في نفوس المسلمين، ودور الحكام في حمل الناس على الأخذ به. فالمغرب الأقصى رفع شعار وحدة

---

(١) خطاب الملك "الحسن الثاني" في دورة مجلس النواب لشهر أكتوبر ١٩٧٠م.

(٢) مقدمة ندوة الإمام مالك، ج٣، ص٦.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ج٦، ص٧٣.

(٤) النبهان، ابحاث إسلامية، ص٢٣٢.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٤٥.

(٦) التازي، المذهب المغربي كشعار من شعارات الدولة المغربية، ندوة الإمام مالك ج، ص١٦، ص١٧.

المذهب منذ القدم وحتى عصرنا الحاضر، حيث اعتبر المذهب المالكي مذهباً رسمياً للدولة والأمة[١] . وأعلنوا وحدة القضاء، ووحدة المذهب الذي يقع به التقاضي، مع التزام القول المشهور، والراجح، وما جرى به العمل به[٢].

المبحث الرابع

أثر مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي

اختار المغرب الأقصى المذهب المالكي مذهباً فقهياً، وخدم علماؤه المذهب خدمة عظيمة، وتصدوا للبحث والتأليف في كل ما يتعلق بأصول المذهب وأحكامه، وكان لمؤلفاتهم دور كبير في تعزيز المذهب المالكي.

وهكذا قام المغرب بدوره في خدمة الفقه المالكي، من خلال تخريجه للعلماء منذ تأسيس جامع القرويين سنة ٢٤٥هـ، وحتى عصرنا الحاضر.

ويتجلى أثر مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي من خلال خدمة علمائه لأمهات الفقه المالكي، ومن خلال مصنفاتهم في مختلف مجالات الفقه شروحاً، وتعاليق، وتقاييد[٣].

وسنعرض فيما يلي نماذج لتلك المصنفات في مختلف مجالات الفقه لعلماء مغاربة؛ لأن طبيعة البحث لا تسمح باستقصاء كافة المصنفات، مع الإشارة إلى أن اهتمامهم تركّز على الموطأ والمدونة، وهما المصدر الأول والثاني في المذهب المالكي.

أولاً: بالنسبة "**للموطأ**":

فقد ذكر أنه لم يُعتَنَ بكتاب من كتب الفقه والحديث اعتناء الناس بالموطأ، واتفق

---

(١) الجيدي، محاضرات في المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ج١، ص٢٦ .

(٢) الناصري، محمد المكي، المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل، ندوة الإمام مالك، ج١، ص٦٧ .

(٣) الجيدي، الجذور الأولى للمذهب المالكي، في المغرب، مجلة دعوة الحق، العدد ٢٧٣، ص١٨١، ص١٨٢، ١٩٨٩م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.

الجميع على تقديمه، وتفضيله، وروايته[١]. ومن الذين اعتنوا به وشرحوه، أو تحدثوا عنه في أغراض مختلفة:

- أحمد بن نصر الداودي (ت٤٠٢هـ) له كتاب: النامي في شرح الموطأ[٢].
- أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الجياني، له شرح الموطأ[٣].
- أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى بن عبادة (٥٣٢هـ) له كتاب الإيماء إلى أطراف حديث مالك[٤].
- أبو عمران الزناتي المراكشي، له: شرح الموطأ[٥].
- التهامي بن المدني علي كنون، له تعليق على الموطأ سماه: أقرب المسالك[٦].
- عياض بن موسى اليحصبي، له: مشارق الأنوار في تفسير غريب الموطأ والصحيحين[٧].
- محمد بن عبدالله بن أحمد القيسي، له: أطراف المسالك برواة الموطأ عن الإمام مالك[٨].

ثانياً: «المدونة»:

فقد ظهر اهتمام علماء المغرب الأقصى بها؛ لأنها تعد المرجع الأهم بالنسبة لفقه المذهب المالكي فقام بشرحها أو التقييد عليها علماء أفذاذ ومن ذلك[٩]:

- التنبيهات للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ) وهو استنباط على كتب «المدونة»

---

(١) الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ص١٦٢ .

(٢) سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، ج٢، ص١٢٥، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية.

(٣) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص٥٦ .

(٤) عياض، ترتيب المدارك، ج٣ ص٨٢ .

(٥) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج١، ص١٥٠ .

(٦) الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ج١، ص١٦٨ .

(٧) الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ج١، ص١٦٨ .

(٨) سزكين: تاريخ التراث العربي، ج٢، ص١٢٢ .

(٩) ابن عبد الله، عبد العزيز، الفقه المالكي والوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه، مجلة دار الحديث الحسنية، العدد٢ ص٢٣٧، ٢٣٨ . وانظر: دورة القاضي عياض، مكانة عياض العلمية، سعيد بوركبه، ج١، ص٥٩ . مراكش، المغرب.

و«المختلطة»، والكتاب من كتب المالكية المعتمدة إلى الآن.

- تقييد على المدونة، لإبراهيم بن عبد الرحمن التسولي التازي (ت٧٤٧هـ).
- تقاييد الشيخ عبد العزيز بن محمد القروي الفاسي (ت٧٥٠هـ).
- تعليق على المدونة لأبي بكر عثمان بن مالك زعيم فقهاء المغرب.
- تقييد على تهذيب المدونة، لأبي سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي البرادعي (ت ٧١٩هـ).
- مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة، لعلي بن سعيد الرجراجي.
- تعاليق على المدونة لأبي الحسن الصغير (ت ٨٣٣ هـ) وغيرها كثير.

ثالثاً: ومن المصادر التقليدية للفقه المالكي في المغرب:

مختصر الشيخ خليل لأبي المودة ضياء الدين خليل بن إسحاق (ت ٧٧٦هـ).

وشروحه الكثيرة منها: شرح أحمد بن بابا التنبكتي، المسمى مبهمات خليل.

وشرح محمد بن عبد الكريم التواتي[١].

رابعاً: لامية الزقاق (ت٩١٢هـ):

وهي أحكام فقهية في مسائل، بها عمل أهل فاس، ويكثر حدوثها، ويحتاج الفقهاء لمعرفتها[٢].

وأهم الأعمال العلمية عليها:

- شرح لامية الزقاق لأبي عبد الله محمد بن أحمد ميارة (ت١٠٧٢هـ).
- تحفة الحذاق بشرح لامية الزقاق، لأبي عبد الله محمد التاودي بن سوده (ت١٢٠٩هـ).

خامساً: ومن المصنفات الفقهية في القضاء والسياسة الشرعية:

- تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام، لأبي بكر محمد بن محمد بن عاصم (ت٨٢٩هـ).

ومن شروحها[١]:

---

(١) ابن عبد الله، عبد العزيز، القضاء المغربي وخواصه، ندوة الإمام مالك، ج١، ص١٢٠.

(٢) الحجوي، الفكر السامي، ج٢، ص٢٦٥.

ـ الإتقان والإحكام في شرح تحفة الأحكام المعروف بشرح ميارة الفاسي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد ميارة (ت ١٠٧٢هـ).

ـ غاية الإحكام في شرح تحفة الأحكام، لأبي عبد الله حفص بن عمر بن عبد الله الفاسي (ت ١١٨٨ هـ).

ـ حلي المعاصم لبنت فكر ابن عاصم، لأبي عبد الله محمد التاودي بن سودة (ت ١٢٠٩هـ).

ـ ومنها أيضاً: التنبيه والإعلام في مستفاد القضاة والحكام، لأبي محمد بن عبد الله اليفرني الفاسي المشهور بالمكناسي (ت ٩١٨هـ)(٢).

ـ ومنها: (٣) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام، لابن فرحون إبراهيم علي اليعمري، وهي بثلاث نسخ في مكتبة تطوان.

ـ جواب في الفرق بين خطة القضاة والولاية، وخطة الحسبة، باعتبار عرف زماننا، لأحمد بن خالد الناصري (الخزانة العامة، الرباط).

ـ قلادة التسجيلات والعقود، وتصرف القاضي في الشهود، وكلاهما: لموسى بن عيسى المغيلي (ت ٧٩١هـ).

سادساً: مصنفات في النوازل:

قام علماء المغرب الأقصى بجهود جبارة في ميدان تطبيق القواعد الفقهية ـ في إطار المذهب المالكي ـ على الأحكام والنوازل، التي تتزايد بتزايد العمران، وتطور الزمان، وألفوا فيها التآليف الكثيرة، وتتبعوا مجريات الشؤون والأحوال، ففضوا المشكلات، وحلوا العويصات (٤).

وما خلفه العلماء المغاربة في هذا الباب، يجعلنا نقف وقفة تقدير وإعجاب لعقلية

(١) انظر: أبو يحيى، المدخل إلى مذهب الإمام مالك، ص٢٨٢ .

(٢) اليفرني، الفاسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله، التنبيه والإعلام في مستفاد القضاة والحكام، ص٢، ط حجرية.

(٣) ابن عبد الله، عبد العزيز، القضاء المغربي وخواصه، ندوة الإمام مالك، ج٣، ص٢٣١ .

(٤) مقدمة ، النوازل، عيسى العلمي، ج١، ص٩، طبع وزارة الأوقاف الإسلامية المغربية، الرباط، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

الفقهاء الذين أعطوا الدليل على أنّ هذا الفقه ثابت بأصوله وقواعده، ومتحرك بقياساته واستنباطاته، يلبي حاجات الناس جميعاً[١].

ومن أشهر المصنفات في النوازل:

- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام للقاضي عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ)[٢]. وقد اشتمل الكتاب على النوازل القضائية، وعلى النوازل في أبواب المعاملات والأحوال الشخصية، والجنائز والصلاة.

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأحمد بن يحيى الونشريسي (ت٩١٤هـ)، وقد جمع المؤلف في كتابه أجوبة علماء المالكية المتأخرين في الغرب الإسلامي من مصادرهم المتفرقة، وأضاف إلى تلك الأجوبة فتاويه الخاصة به أيضاً، ورتبه على أبواب الفقه المعروفة[٣].

وقد حظي الكتاب باهتمام فقهاء الأمصار به، ونقلوا عنه، ومما زاده قيمة اشتماله على نصوص من كتب فقهية مفقودة كما أنه يعتبر من المصادر الوثيقة في التاريخ، والاجتماع أيضاً[٤]، وفي ذلك يقول التنبكتي عنه: «جمع فأوعى وحصل فوعى»[٥]، وتدل نوازل المعيار على أن ابن رشد وهو المنظر المبرّز للفقه المالكي في الغرب الإسلامي، ومحط أنظار علماء العدوتين (الأندلس والمغرب الأقصى) ومجيب فتاويهم[٦].

- نظم العمل الفاسي ، لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت١٠٩٦هـ)، وقد نظم فيه النوازل التي جرى فيها عمل فاس بالحكم بقول ضعيف، نحو ثلاثمائة مسألة، وقد حظي بقبول الناس له رغم ما فيه في بعض المواضع من عدم التحرير[١]. وأهم الأعمال

---

(١) الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ج١، ص١٠٠ .

(٢) ابن فرحون، الديباج المذهب، ص٣٨٣ .

(٣) الكتاب مطبوع في اثني عشر جزءاً عدا الفهرس، تحقيق: جماعة من علماء المغرب، بإشراف، د. محمد حجي ج١، ص٥، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص١٣٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٦) العبودي، جاسم، دور المدرسة القيروانية بين الفقه والحديث، القيروان، ١٤-١٦ /٤/ ١٩٩٥م، تونس.

العلمية على نظم العمل الفاسي:

١ـ شرح المؤلف نفسه، إلا أنه لم يرتبه[٢].

٢ـ شرح التادلي، لأبي القاسم بن سعيد العميري التادلي (ت١١٧٨هـ)[٣].

٣ـ شرح العمل الفاسي، لأبي عبدالله محمد بن أبي القاسم السجلماسي (ت١٢١٤هـ)، وقد حظي شرحه بقبول المفتين والقضاة له[٤].

ـ النوازل الصغرى المسماة: المنح السامية الفقهية، لأبي عيسى محمد المهدي الوزاني الفاسي(ت١٣٤٢هـ)[٥]. قد رتبه على أبواب مختصر الشيخ خليل، وتظهر أهميته في أنه كتاب جمع فيه جل ما يحتاج إليه من النوازل الوقتية، وكذلك من الأحكام والفروع الفقهية التي لا غنى عنها.

ـ النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى، المسماة: المعيار الجديد الجامع المغرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب، لأبي عيسى محمد المهدي الوزاني، صاحب النوازل الصغري، وتظهر قيمة الكتاب العلمية في أنه يمثل موسوعة فقهية، بما استوعبه من نوازل وفتاوى عصره، واعتماده على الراجح، والمشهور، وما جرى به العمل في المغرب[٦].

ومن المصنفات في النوازل أيضاً:

ـ نوازل العربي الزرهوني (ت١٢٦٠هـ) وتقع في مجلدين[١].

(١) الحجوي، الفكر السامي، ج٢ ص٢٨٣.

(٢) القادري، محمد بن الطيب، نشر المثاني، لأهل التعرف الحادي عشر والثاني، ج٢، ص٣٢٦، ط، حجرية، فاس، المغرب.

(٣) كحالة، عمر، معجم المؤلفين، ج٢، ص٦٤١.

(٤) الحجوي، الفكر السامي، ج٣ ص٢٩٣.

(٥) الوزاني، أبو عيسى محمد المهدي، النوازل الصغرى، ج١، ص١١، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.

(٦) المدغري، عبد الكبير العلوي، مقدمة النوازل الجديدة الكبرى، فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى، المسماة المعيار الجديد، ج١، ص٤، تصحيح: عمر بن عباد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، المغرب.

- نوازل الشيخ عيسى بن علي الحسيني العلمي في مجلدين[٢].
- نوازل أبي الحسن علي بن الشيخ عيسى العلمي (ت١١٢٩هـ) في مجلد واحد[٣].

وقد تعرض الدكتور "عمر الجيدي" رحمه الله لكثير من المصنفات المخطوطة والمطبوعة في النوازل، ولا مجال لذكرها خشية الاستطراد[٤].

سابعاً: مصنفات في الفرائض:

وقد برع فيه كثير من علماء المغرب، نظراً لصلته الوثيقة بجانب هام من الشريعة الإسلامية، ومن أشهر مصنفاتهم في ذلك[٥]:

- الإيضاح والتحصيل على شرح الخرشي لفرائض "خليل" لأبي الفضل بوشتى بن الحسن بن محمد الصنهاجي (ت ١٣٦٥هـ).
- حلية الجواهر المكنونة في صدق الفرائض المسنونة، لأحمد بن سليمان الجزولي.
- منتهى التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح، لابن زاغو أحمد بن عبد الرحمن المغراوي.
- فرائض زيد بن ثابت، تقييد عليها، لأحمد بن محمد بن إبراهيم، قاضي العرائش واسفي (ت١٣٣٤هـ) (ط فاس).
- الفصول في الفرائض، لابن البناء، أحمد بن محمد الأزدي المراكشي. وشرحه: يعقوب بن أيوب بن عبد الواحد الموحدي.
- فتح الملك الجليل في حلِّ مقفل فرائض خليل، للعربي بن أحمد بن الشيخ التاودي ابن سودة.

---

(١) ابن عبد الله، عبد العزيز، القضاء المالكي وخواصه، ندوة الإمام مالك، ج٣، ص٢٣٩.

(٢) طبع من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، سنة ١٩٨٩م، تحقيق: المجلس العلمي بفاس سنة ١٩٨٦م. تحقيق: المجلس العلمي بفاس.

(٣) طبع من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، سنة ١٩٨٩م، تحقيق: المجلس العلمي بفاس.

(٤) انظر: تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ص١-٨٣.

(٥) ابن عبدالله، عبد العزيز، القضاء المالكي وخواصه، ندوة الإمام مالك ج٣، ص٢٤٥-٢٥١.

ثامناً: ومن المصنفات المشهورة بالتوثيق والوثائق:

المنهج الفائق والمنهل الرزئق والمعنى اللائق بآداب الموثق، لأبي العباس أحمد بن عبد الواحد الونشريسي (ت٩١٤هـ) إلا أنه لم يكمله[١].

وأما أهمية الكتاب فتظهر في كونه صار مرجعاً اعتمده من جاء بعده من الموثقين[٢]. وقد قال عنه الدكتور "الجيدي": "لو تم لأغنى عن أي كتاب آخر في هذا الفن"[٣].

ومن المؤسف أن أكثر هذه الذخائر لا يزال مخطوطاً ـ بالخزائن العامة والخاصة ـ في مختلف أنحاء المغرب الأقصى[٤]. وهي تنتظر بشوق أن تجد يَد الباحثين لتخرجها إلى عالمنا، وتلبسها حللاً جديدة، تلائم روح العصر، وتواكب المنهج الحديث، للتعرف على ما أسهمت به تلك المخطوطات وهذه الشخصيات من فكر، وما أضافته إلى فكرنا الفقهي من آراء وفتاوى جديرة بالاهتمام والعناية[٥]. فهي تمثل ثروة عظيمة، لو أتيح للباحثين اليوم فرصة الاطلاع عليها لاستطاعوا أن يثروا الفقه المالكي في مختلف المجالات، وهي مبثوثة في الخزائن المختلفة كالخزانة الملكية في الرباط (الخزانة الحسنية)، والخزانة العامة في الرباط أيضاً، وخزائن القرويين في فاس، وخزائن "مراكش"، أو في الخزائن الخاصة[٦].

إن من الواجب التأكيد على أن المغرب الأقصى عمل على تصدير المذهب المالكي لما وراء البحار، ولما وراء الصحراء، إلى تخوم إفريقيا، ومجاهل آسيا، وهكذا فإن كل الذين أرخوا للحركة الفكرية في دول إفريقيا، وعرّفوا بالوجود الإسلامي هناك، كانوا منصفين

---

(١) هامش إيضاح المسالك.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) تاريخ الفقه المالكي في الغرب الإسلامي، ج١، ص١٢١ .

(٤) ذكر الباحث أحمد العدوي، انه ذهب إلى الخزانة العامة إلى قسم المخطوطات تحديداً، وطلب الاطلاع على جزازات في القسم الفقهي وبالأخص كتب النوازل، ودهش عندما أمضى خمسة أيام كاملة، وهو يتصفح فقط كتب النوازل الموجودة على الرفوف، أو المسطورة ضمن فهارس الخزائن الأخرى، العدوي، أحمد، نظرات في الفتيا وبعض اعلامها في المغرب على مذهب الإمام مالك، ندوة الإمام مالك ج٣، ص١٦٧ .

(٥) النبهان، ابحاث إسلامية، ص٢٢٣ .

(٦) وقد اطلعت شخصياً على الكثير منها اثناء دراستي في المغرب لمدة ثمان سنوات.

عندما عزوا انتشار المذهب المالكي إلى رجالات سافروا من المغرب إلى تلك الأعماق، أو طلبة شدوا الرحال إلى جامعة القرويين ليعودوا إلى أوطانهم مزودين مؤهلين[١].

ولقد استمر تأثير المغرب الأقصى من خلال علمائه أو الطلاب الذين يفدون إليه منذ تأسيس جامعة القرويين إلى الآن في العمل على انتشار المذهب المالكي في إفريقيا وفي أوروبا من خلال الجاليات المغربية التي تتجه للعمل فيها، ولابد من التنويه هنا إلى أن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تنظم في كل عام إرسال دعاة وعلماء إلى مختلف البلاد الأوروبية، وكامتداد لرسالة القرويين أنشئت عام ١٣٨٣هـ «دار الحديث الحسنية»[٢] للدراسات الإسلامية العليا في العلوم الإسلامية والحديث، وتحظى برعاية كاملة من القصر الملكي المغربي، ويقوم على التدريس فيها صفوة علماء المغرب وعلماء من بلادٍ إسلاميةٍ أخرى[٣].

وهكذا يظهر لنا جلياً تأثير مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، وجهد علمائه في ترسيخ هذا المذهب الأصيل في تلك الديار. غير أن هذه المدرسة بقيت تمثل الامتداد الطبيعي للمدرسة الأول في المدينة المنورة، تسترشد بأصولها، وقواعدها، وهذا ما نتعرف عليه في المبحث التالي[٤].

المبحث الخامس

مظاهر استمداد مدرسة المغرب الأقصى من المدرسة الأولى

من السهل على الباحث المتتبع لمسيرة المذهب المالكي في المغرب الأقصى أن يلمس مدى تأثر هذه المدرسة بالمدرسة الأولى في المدينة المنورة، وإمامها مالك بن أنس رحمه الله، فالمغربي شديد الاعتزاز بالمذهب المالكي، وشديد الفخر بتمسكه بخدمته لهذا المذهب، حتى نستطيع

---

(١) التازي، المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية، ندوة الإمام مالك، ج١، ص١٠٠

(٢) وكاك، الحسين، دور الحديث في العالم الإسلامي، ص٣٨٠، ط١، ١٩٩٠م، رسالة ماجستير، كلية الشريعة باكادير، جامعة القرويين، مطبعة الجديدة الدار البيضاء، المغرب.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) كان لي شرف الدراسة فيها في مرحلتي الماجستير والدكتوراة.

القول: بأن المغرب الأقصى يشعر بأنه مؤتمن على المذهب المالكي(١).

وقد سبقت الإشارة إلى أن عامة أهل المغرب كانوا يميلون - ومازالوا - إلى مذهب مالك لاعتماده على الحديث والآثار، بخلاف مذهب أبي حنيفة، لاشتهاره بالرأي كما هو معروف(٢).

ويظهر استمداد مدرسة المغرب الأقصى من المدرسة الأولى على اعتبار أنها امتداد لمدرسة القيروان في إفريقية (تونس) ومدرسة قرطبة في الأندلس، وكلاهما كان امتداداً للمدرسة الأولى في المدينة المنورة. فيذكر القاضي عياض أن علي بن زياد(٣) ذهب إلى المدينة، وأخذ عن الإمام مالك موطأه، ثم ذهب إلى العراق، وأخذ عن سفيان بن عيينة مسنده، وهو أول من أدخلهما إلى الغرب الإسلامي(٤). وفسر لهم قول الإمام مالك، وهو معلم سحنون(٥). وكذلك رحل البهلول بن راشد وأسد بن الفرات(٦) إلى الحجاز، وكذلك سحنون، وإن كانت إفريقية (تونس) قد غمرها مذهب مالك بن أنس؛ لأنه رحل منها أكثر من ثلاثين رجلاً كلهم تلقى عن مالك، وسمع منه(٧).

وقد وضع أسد بن الفرات كتبه المعروفة بالأسدية، وكانت مبنية على الرأي، وغير مدعمة بالأحاديث والآثار، وما عليه السَّلف، فأنكر أهل إفريقية عليه ذلك،

---

(١) النبهان، ابحاث إسلامية، ص٢٣٤ .

(٢) أبو يحيى، المدخل إلى المذهب المالكي، ص٩٢ .

(٣) أبو الحسن علي بن زياد التونسي، كان تلميذاً لمالك، وألف عدة كتب حول آراء مالك، توفي حوالي ١٨٤هـ، وله عدة كتب في المدونة، الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق: د. إحسان عباس، ص١٢٩، بيروت ١٩٧٠م.

(٤) عياض، ترتيب المدارك، ج٣، ص٦٦ .

(٥) عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون، ولد سنة ١٦٠هـ أخذ عن تلاميذ مالك في مكة والمدينة والشام، من آثاره: المدونة الكبرى، توفي سنة ٢٤٠هـ، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد، وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، ج١ ص٣٦٦، ٢٦٧ تحقيق: إحسان عباس، بيروت.

(٦) أبو عبد الله بن سنان، ولد بحران سنة ١٤٢هـ، أخذ بالمدينة المنورة عن مالك موطأه، وغير ذلك، وذهب إلي مصر وله: كتاب الأسدية، وهو تهذيب لكتاب المدونة، الزركلي، خير الدين، الإعلام ج١، ص١٩١، الطبعة الثانية، القاهرة.

(٧) عياض، ترتيب المدارك، ج٤، ص٥١ .

ورفضوها[١] . فما كان من سحنون إلا أن رحل إلى ابن القاسم[٢] فعرضها عليه، فقام بتهذيبها، وتبويبها مرة أخرى مع سحنون، فأثمر عملهما هذا عن المدونة المعروفة[٣]، فوثق سحنون مسائلها، وردها إلى أصولها الأولى، واحتج لها بالأحاديث والآثار[٤] .

يقول ابن عاشور: فكان سحنون بهذا الصنيع هو الذي رد الفقه المالكي في المغرب إلى طريقته المدنية الأولى، مع الحفاظ على ما أفاده أسد بن الفرات من طريقة العراق، فأرجع فقه مالك إلى موطأه، وأورد من مسائله شيئاً صحيحاً مضبوطاً، لا وهم فيه ولا اشتباه[٥] .

فكان أن تميزت هذه المدرسة، بأنها بنيت على فقه الموطأ، المدعم بما صح من الأحاديث والآثار، وما عليه العمل[٦] .

ثم قامت المدرسة بتحقيق الفقه، فعكفت على المدونة اختصاراً، وتلخيصاً، وشرحاً وإيضاحاً، وجمعاً[٧] . واهتمت بضبط ألفاظ المدونة، وتحقيقها، وتصحيح الروايات، وتدعيمها بالأدلة من الأحاديث والآثار لا المعقول. فكان لها منهجها الخاص بها في تدريس المدونة[٨] والذي أطلق عليه اسم «الاصطلاح القروي»[٩] . وتعتبر المدونة أصل المذهب

---

(١) عياض، ترتيب المدارك، ج٣، ص٢٩٧، ص٢٩٨ .

(٢) أبو عبدالله عبد الرحمن العتقي، ولد بمصر سنة ١٣٢هـ ثم انتقل إلى المدينة وسمع بها دروس مالك عشرين عاماً، وهو أول مؤلف لكتاب "المدونة"، توفي سنة ١٩١هـ، الذهبي أبو عبد الله شمس الدين، تذكرة الحفاظ، ص٣٥٦، ص٣٥٧، دار إحياء التراث العربي، مكة المكرمة، ١٣٧٤هـ.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ج٣، ص٢٩٨ .

(٤) المرجع نفسه.

(٥) ابن عاشور، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، ص٢٧ .

(٦) النيفر، محمد الشاذلي، مقدمة موطا مالك، ص٦٤، ط٣، ١٩٨٠م.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٠ .

(٨) العلوي الشنقيطي، عبد الله بن إبراهيم، نشر البنود على مراقي السعود، ط١، ١٩٨٨م، بيروت، ج٢، ص٢٤٨ .

(٩) نسبة إلى القيروان، والاصطلاح القروي: هو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، على حسب ما وقع في السماع، المقري، أزهار الرياض، ج٣، ص٢٢ .

المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإياها اختصر مختصروهم، وشرح شارحوهم، وبها مناظرتهم، ومذاكرتهم[١].

كما ذكر القاضي عياض: أن مختصر المدونة، والنوادر - وكلاهما لابن أبي زيد القيرواني[٢] - عليهما المعول بالمغرب في التفقه[٣].

وقد تناول المالكية المدونة بطريقتين: طريقة أهل العراق، وتعتمد على القياس والتأويل، وتحقيق المسائل، وتقرير الدلائل، وطريقة القرويين، التي تعتمد على الضبط، والتصحيح، وتحليل المسائل، والمباحث، واختلاف التخاريج والمحامل[٤].

ويمكن القول: بأن المذهب استقر نهائياً على مستوى العلماء والجماهير في إفريقية (تونس)، ومنها انتقل إلى الأندلس، والمغرب، أو لعله استقر في إفريقية، والأندلس، وعَبْرهما عَرَف ازدهاره في المغرب، وغدا لشدة اقترانه وارتباطه به مذهباً مغربياً، أو يكاد[٥].

ولقد كان لتبادل الوفود والبعثات بين الأقطار الثلاثة: تونس، والأندلس، والمغرب الأقصى، أثر في ترسيخ المذهب على المستوى العلمي، خاصة بعد أن تأسس جامع القرويين في فاس سنة ٢٤٥هـ، وغدا مركز إشعاع في المنطقة كلها[٦].

وقد سار هذا التبادل في اتجاهين[٧]:

---

(١) عياض، ترتيب المدارك، ج٢، ص٤٧٢.

(٢) أبو محمد عبدالله، ولد بالقيروان سنة ٣١٠، ذاع صيته، عالماً عظيماً، ولقب بمالك الصغير، ورسالته أوضح عرف لفقه المالكية، ومن آثاره الرسالة، توفي سنة ٣٨٦هـ، ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج٣، ص١٣٠، ١٩٧٩م.

(٣) عياض، ترتيب المدارك، ج٢، ص٤٩٤.

(٤) ابن عاشور، أعلام الفكر الإسلامي، في تاريخ المغرب العربي، ص٦١.

(٥) الجراري، عباس، أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب واستمراره فيه، ندوة الإمام مالك، ج١، ص١٨٩.

(٦) المرجع نفسه.

(٧) الناصري، الاستقصا، ج١، ص٧٣.

الأول: من المغرب إلى القيروان، والأندلس، وكذا المشرق، ومن بين الذين يمثلون هذه المرحلة المبكرة: دراس بن إسماعيل (ت٣٥٧هـ) وأبو جيدة اليزناسني (ت٣٦٥هـ) وعبد الرحيم الكتامي المعروف: بابن العجوز (ت ٤١٣هـ).

ثانيهما: من القيروان، والأندلس، إلى المغرب، فبالإضافة إلى الهجرات المتقطعة، قصدت فاساً في هذه الفترة وفود منظمة، كان فيها العديد من العلماء، والفقهاء، سواء في هذا الإقليم أو ذاك.

أما القيروانيين: وكانوا ثلاثمائة أهل بيت، فقد وفدوا حوالي سنة ١٨٩هـ، ووصلوا مدينة فاس، وأقاموا في العدوة اليسرى وعمروها، وعرفت بعدوة القرويين، وأما الأندلسيون وكانوا جماً غفيراً، يقال: أربعة آلاف بيت، فنزلوا العدوة اليمنى من فاس وعمروها حتى أصبحت تسمى عدوة الأندلس، وقد بدأ توارد مسلمي الأندلس إلى المغرب بعد خروجهم بقسوة من ديارهم، إثر سقوط غرناطة في أيدي الأسبان سنة ٨٩٧هـ[١].

ومن مظاهر استمداد مدرسة المغرب الأقصى من المدرسة الأولى: الأخذ بمبدأ ما جرى به العمل. فمن المعلوم أن الإمام مالك رحمه الله يرى تقديم عمل أهل المدينة، ويأتي عنده في الدرجة التالية للإجماع، ولا يشترط في الخبر الواحد أن يعضده العمل، وإنما العمل عنده مقدم عليه، فإن لم يوجد عمل؛ وجب المصير إلى خبر الواحد[٢]. ومع مرور الزمن، وانتشار المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ظهر عندهم ما يسمى: «ماجرى العمل به»، وهو ما يتفق مع عمل أهل المدينة في المبدأ ويختلف عنه في الاعتبارات[٣].

والعمل كما استقر عليه الرأي عند المغاربة هو :العدول عن القول الراجح أو المشهور في بعض المسائل إلى القول الضعيف فيها، رعياً لمصلحة الأمة وما تقتضيه حالتها

---

(١) المقري، أزهار الرياض، ج١، ص٦٦، الناصري، الاستقصا، ج٤، ص١٠٤.

(٢) الجيدي: عمر بن عبد الكريم، العرف والعمل في المذهب المالكي، ص٣٤١، وما بعدها، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٩٨٤م.

(٣) المرجع نفسه.

الاجتماعية، أو هو: اختيار قولٍ ضعيفٍ، والحكم والإفتاء به، وتمالؤ الحكام والمفتين ـ بعد اختياره ـ للعمل به لسبب اقتضى ذلك[١].

وإيضاح ذلك: أن بعض المسائل يكون فيها خلاف بين فقهاء المذهب، فيعمد بعض القضاة إلى الحكم بقول يخالف المشهور لسبب من الأسباب، كدرء مفسدة أو خوف فتنة، أو جريان عرف في الأحكام التي سندها العرف لا غيره، أو تحقيق مصلحة، أو نحو ذلك. فيأتي من بعده، ويقتدي به، ما دام الموجب الذي لأجله خولف المشهور في مثل ذلك البلد وذلك الزمان قائماً. وهذا بناءاً على أصول المذهب المالكي[٢]؛ لأنه إذا كان العمل بالضعيف لدرء مفسدة فهو على أصل مالك في سد الذرائع، وإذا كان لجلب مصلحة فهو على أصله باعتبار المصلحة المرسلة، وكذلك الشان بالنسبة للعرف، لأنه من جملة الأصول التي بني الفقه عليها، وهو راجع إلى المصلحة المرسلة أيضاً، فيشترط فيه ما لم يخالف نصاً، أو يصادم مصلحة أقوى، حتى إذا زال الموجب الذي كان سبباً لقيام العمل؛ عاد الحكم المشهور[٣].

أما عن ابتداء العمل بما جرى به العمل في المغرب الأقصى: فإن هناك من جزم بأن العمل بالمغرب بدأ فعلاً في القرن ٨هـ، إذ يقول: «تنبه المغاربة خلال القرن ٨هـ إلى أصل من الأصول التي بنى عليها الإمام مالك مذهبه وهو عمل أهل المدينة، فنقلوا الشريعة إلى الحالة الاجتماعية، مع الرغبة في وحدة الأحكام والقضاء بقدر الإمكان، وكانوا في بادئ الأمر متأثرين بما جرى عليه العمل في الأندلس»[٤].

وقد ظهر نوعان من العمل في المغرب الأقصى:

الأول: يسمى بـ«العمل المطلق»: أي ما يجري العمل به مطلقاً في مذهب الإمام مالك غير مقيدٍ بقطرٍ معين، ولا مكان مخصوص.

والآخر: يسمى: «العمل الفاسي» أو «العمل السوسي» أو «عمل القيروان» أو«العمل الجبلي»، أي ما يجري العمل به في هذه الأماكن خاصة، وهو قاصر عليها لا

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٤٢.

(٢) الجيدي، العرف والعمل في المذهب المالكي، ص٣٤٣.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الجيدي، العرف والعمل، ص٣٥٢، نقلاً عن العراقي، محاضرات في التشريع ص١٣٢.

يجوز أن يُعتمد في غيرها من بقية الأقاليم الأخرى، إذ هو عرف خاص تابع لأعراف خاصة، اللهم إلا إذا نُص على تعميمه، أو قامت نفس الدواعي والمبررات التي دعت إليه فيها، ومن ثم أخذ هذا العمل الخاص ينمو شيئاً فشيئاً، تُغذيه الحوادث باستمرار، على خلاف الأول منه الذي بقي جامداً لا يتجدد، ولا يقتصر فيه على ما نقل منه قديماً فقط[١].

وقد اتفق على أنه لكي يصبح للعمل قوة النفاذ والاعتبار، ويعطى الصبغة القانونية، لابد فيه من توافر الأركان التالية[٢]:

١ـ أن يكون العمل المذكور صدر ممن يقتدى به في الأحكام.

٢ـ أن يثبت بشهادة العدول قواعد المتثبتين في المسائل الفقهية.

٣ـ أن يكون جارياً على قواعد الشرع وإن كان شاذاً.

وقد ظهرت مؤلفات عديدة فيما جرى به العمل ومنها[٣]:

ـ نيل الأمل فيما جرى به بين الأئمة العمل، لأبي العباب أحمد بن القاضي (ت١٠٢٥هـ).

ـ وتلاه العربي الفاسي (ت١٠٥٢هـ) الذي ألف كتاباً فيما جرى به العمل، من شهادة اللفيف خاصة.

ـ وجاء بعد هؤلاء: الشيخ ميارة (ت١٠٧٢هـ) فألف في مسأله بيع الصفقة[٤].

مما سبق يظهر لنا مدى استمداد مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي من المدرسة الأولى في المدينة المنورة، حيث اعتمد فقهاؤها ابتداءً: الأخذ عن إمام المذهب مباشرة، ثم عن تلاميذه الذين سمعوه، وقدموا الموطأ وهو المصدر الأول عند المالكية، ثم المدونة وهي المصدر الثاني، ومن ثم أمهات الفقه المالكي، التي وضعت حسب قواعد المذهب المالكي، ثم ظهر عندهم مبدأ العمل بما جرى به العمل، متأثرين في ذلك بفعل إمام المذهب الذي جعل ماجرى العمل به في المدينة أصلاً من أصوله.

---

(١) الجيدي، العرف والعمل، ص٣٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٥٢، نقلاً عن: المهدي الوزاني على شرح التاودي للامية الزقاق، ص٢٦٣.

(٣) الجيدي، العرف والعمل، ص٣٤٨.

(٤) يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم ٨٨٩د.

الخاتمة

توصلت إلى جملة من النتائج فيما يلي أبرزها :

١- أن مدرسة المغرب الأقصى في المذهب المالكي هي المدرسة الوحيدة الباقية في العصر الحاضر من مدارس الفقه المالكي.

٢- أن مدرسة المغرب الأقصى في المذهب المالكي ومدرسة القيروان ومدرسة الأندلس يكمل بعضها بعضاً من حيث المنهج والآراء الفقهية.

٣- كان لرحلات الحج والعمرة أثر كبير في نقل المذهب المالكي إلى المغرب.

٤- أن مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي بدأت نشأتها بدخول موطأ الإمام مالك إلى المغرب وتطورت بتأسيس جامع القرويين وجامعة القرويين، واستمرت بالتجذر والانتشار دون انقطاع.

٥- كان لسلاطين المغرب الأقصى دور فاعل في ترسيخ المذهب المالكي حيث كان عدد منهم من علماء المذهب، كما حملوا الأمة عليه وألزموا القضاة بالعمل به منذ الإمام إدريس الأول وحتى عصرنا الحاضر.

٦- تميزت مدرسة المغرب الأقصى في المذهب المالكي في كونها فرضت منهجاً ثالثاً في الفقه والتشريع ، حيث جمعت بين فقه أهل السنة في المدينة، وفقه أهل العراق، ويظهر ذلك جلياً عندما قدّم القاضي عياض أنموذجاً للدمج بين الطريقتين في شرحه للمدونة شرحاً جمع فيه بين الطريقة العراقية والطريقة القروية (القرويين)، واشتهر هذا الشرح باسم «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة».

٧- وتميزت مدرسة المغرب الأقصى في المذهب المالكي في كونهم وسّعوا باب الاجتهاد، فعملوا بالسياسة الشرعية، التي تعنى بالحفاظ على مصالح الأمة بإبعاد ما يضر بها، ومن السياسة الشرعية : التزام العمل بمذهب واحد، وإلزام القضاة الحكم بالراجح أو المشهور، أو ما جرى به العمل، حيث عملوا بأصل من أصول الإمام مالك، وهو ما جرى به العمل في المدينة، حيث يتفقان في المبدأ وإن اختلفا في الاعتبارات.

٨- كان لعلماء مدرسة المغرب الأقصى الأثر المباشر في نشر المذهب المالكي في جنوب الصحراء، وتخوم إفريقيا، وما وراء البحار.

٩- تعتبر مدرسة الفقه المالكي في المغرب امتداد لشجرة المذهب المالكي التي نبتت في المدينة المنورة، وامتدت فروعها إلى بغداد، فمصر، فالقيروان، فالأندلس، ففاس.

١٠- وإن كان من توصية: فإن الدراسة تدعو الباحثين والجامعات لتوجيه طلاب الدراسات العليا إلى تحقيق مخطوطات المغرب الأقصى ونشرها، من أجل الاستفادة من هذه الثروة الثمينة في الفقه المالكي، سواء منها ما كان في الخزائن العامة، أو في الخزائن الخاصة.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. صدق الله العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

ابن أبراهيم: العباس ، الإعلام في تاريخ مدينة مراكش.

ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة، رقم ٥٩٦، نشر كوديرا، مجريط.

ابن الآبار: معجم أصحاب الصدفي، رقم ٢٧٢، نشر كوديرا، مجريط.

ابن الزبير: صله الصلة، نشر: بروفنصال، رقم ٩٥، الرباط، ١٩٣٩م.

ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٢، ١٩٧٩م.

ابن القاضي: أحمد، جذوة الاقتباس، مطبعة فاس ١٣٠٩هـ، فاس، المغرب.

ابن بشكوال: الصلة، رقم ٥٥٩، مصر ١٣٧٤هـ.

ابن خلكان: أبو العباس ، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت.

ابن خلدون: عبد الرحمن، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن زيدان: النقيب، الدرر الفاخرة في مآثر العلويين بفاس الزاهرة، المغرب.

ابن عبد البر: أبي عمر يوسف بن عبد الله، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكري، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

ابن عاشور: محمد الفاضل، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مطبعة النجاح، تونس.

ابن عامر: تونس عبر العصور،تونس.

ابن فرحون: برهان الدين ابراهيم، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو دياك: صالح محمد فياض، الوجيز في أخبار المغرب والأندلس ط١، ١٩٨٨، مكتبة الكتاني، إربد، الأردن.

أبو يحيى: على، المدخل إلى مذهب الإمام مالك، رسالة دكتوراة، قسم الفقه وأصوله، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ٢٠٠١م، عمان، الأردن.

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢م.

التازي: عبد الهادي، الكتاب الذهبي، جامعة القرويين في ذكراها المئة بعد الألف، إدارة الشؤون الثقافية، وزارة التربية الوطنية، الرباط، المغرب.

الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، الترمذي، ط٢، ١٩٨٣م، بيروت.

التهامي: نقره، القيروان عبر العصور، تونس.

التنبكتي: أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت.

الجزنائي: جني روضة الآس، نشر: الأستاذ بيل، الجزائر وعبد الوهاب بن منصور، المغرب.

الحجوي: محمد بن الحسن الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م.

الحميدي: أبو عبدالله محمد بن فتوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: محمد بن تامر الطنجي، ١٩٥٢، القاهرة.

الجيدي: عمر بن عبد الكريم، محاضرات في تاريخ الفقه المالكي في الغرب الإسلامي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٤م.

الجيدي: عمر بن عبد الكريم، العرف والعمل في المذهب المالكي، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب ١٩٨٤م.

الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، مكتبة الحرم المكي، مكة المكرمة، ١٣٧٤هـ.

الزركلي: خير الدين، الأعلام، ط، بيروت، ١٩٩٠م.

السوسي: محمد المختار، المعسول، ١٩٦٠م. الدار البيضاء، المغرب.

الشلبي: أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي (ط ٥)، ١٩٧٤م، القاهرة.

الشيباني: أحمد بن حنبل، المسند دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

الشيرازي: أبو إسحاق جمال الدين، طبقات الفقهاء تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠م.

الظبي: أحمد بن يحيى، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: روحية السيوفي، ط١، ١٩٧٩م.

العلمي: عيسى، النوازل، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ١٩٨٩م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.، ١٩٨٣م، ١٩٨٨م.

العلمي: أبو الحسن، علي بن عيسى العلمي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ١٩٨٩م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.

العلوي الشنقيطي: عبد الله بن إبراهيم، نشر البنود على مراقي السعود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

الفاسي: علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب، ١٩٨٢م. الرباط، المغرب.

القادري: محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر، تحقيق: محمد حجي، وأحمد التوفيق، ط١، ١٩٨٢م، مكتبة الطالب، الرباط، المغرب.

الكتاني: محمد بن جعفر، مخطوطة بالخزانة العامة، رقم ٣٣٥٤، الرباط، المغرب.

المراكشي: عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: علي زينهم، نشر: محمد الفاسي ١٩٣٨م، المغرب، ثم محمد سعيد العريان ومحمد العلمي ١٩٤٩م، القاهرة.

المقري: أحمد التلمساني، نفح الطيب من غيض الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٦٣م.

المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، إشرف اللجنة المشتركة لإحياء التراث بين المملكة المغربية، والإمارات العربية المتحدة.

الناصري: أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب ١٩٥٤ .

النبهان: محمد فاروق، أبحاث إسلامية، ط١، ١٩٧٧م. بيروت.

النيفر: محمد الشاذلي، مقدمة موطأ الإمام مالك، ط٣، ١٩٨٠م.

النيسابوري: أبو عبد الله المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت.

الوزاني: أبو عيسى محمد المهدي، النوازل الصغرى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.

الوزاني: أبو عيسى محمد المهدي، النوازل الكبرى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.

الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م.

الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيي، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، تحقيق: أحمد أبو الطاهر الخطابي، الرباط، المغرب، ١٩٨٠م.

اليفرني: الفاسي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبد الله، التنبيه والإعلام في مستفاد القضاة والحكام، ط حجرية.

تيمور: أحمد، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة ١٩٩٥م.

سزكين: فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية.

عياض: عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: جماعة من علماء المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

غربال: محمد شريف، الموسوعة العربية الميسرة، صورة عن طبعة، ١٩٦٥م.

كحالة: عمر، معجم المؤلفين.

كنون: عبدالله، النبوغ المغربي، ط٢، بيروت، ١٩٦١م.

كنون: عبد الصمد، جني زهرة الآس في شرح نظم عمل فاس، مطبعة الشرق الوحيدة، مصر.

مخلوف: محمد بن محمد، شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، بيروت.

نجم: سليمان حسين، المذهب المالكي وأثره في الحياة الأندلسية، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، ١٩٨٨، عمان، الأردن.

ندوات علمية:

- ندوة الإمام مالك، فاس٢٥ - ٢٨ أبريل، ١٩٨٠م. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.
- ندوة الأندلس، ٣٠ أكتوبر - ٢ نوفمبر١٩٩٣م.
- الملتقى العلمي الرابع، المدرسة القيروانية بين الفقه و الحديث، ١٤-١٦-١٩٩٥، تونس.
- الكتاب الذهبي: جمع وتنسيق التازي، عبد الهادي، جامعة القرويين في ذكراها المئة بعد الألف، إدارة الشؤون الثقافية، وزارة التربية الوطنية، الرباط، المغرب.
- دورة القاضي عياض، مراكش، المغرب.

أبحاث في دوريات ومجلات علمية:

المدرسة العراقية بين الفقه والحديث، د. عبد المجيد الصلاحين، مجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون المجلد ٢٥، العدد١، تموز ١٩٩٨م، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

مجلة دار الحديث الحسنية، العدد الثاني، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٩٨١م.

مجلة دعوة الحق، الجذور الأولى للمذهب المالكي في المغرب، د. عمر بن عبد الكريم الجيدي، العدد ٢٧٣، ١٩٨٩م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.

مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، اصطلاح المذهب عند المالكية، علي محمد إبراهيم أحمد، العدد الثاني والعشرون، السنة السادسة، ١٩٩٤م، الرياض، المملكة العربية السعودية.

القسم الثاني

المدرسة المالكية بالعراق وصلاتها بالمدارس الأخرى



المدرسة الفقهية المالكية بالعراق
عوامل نشأتها، أبرز أعلامها
خصائصها ومميزاتها

إعداد

د. عبد المنعم التمسماني*

* أستاذ مساعد للدراسات الإسلامية بجامعة عبد الملك السعدي بتطوان. ولد في مدينة طنجة بالمغرب عام (١٩٦٨م)، حصل على الماجستير في الحديث النبوي من جامعة محمد الخامس بالرباط عام (١٩٩٣م) عن بحثه: «أبو هريرة راوية الإسلام وادعاءات المرجفين»، وكذلك الماجستير من دار الحديث الحسنية بالرباط عام (١٩٩٤م) عن بحثه: «أقوال العلماء في الإعجاز وأصول الخلاف بينهم»، وحصل على الدكتوراه في الفقه وأصوله من جامعة محمد الخامس بالرباط عام (٢٠٠٢م) عن بحثه: «نظام التعزير في المذهب المالكي - دراسة وموازنة». له العديد من الكتب والدراسات.

المقدمة

الحمد لله العلي العظيم، العليم الحكيم، الذي عم بريته بجزيل إحسانه وواسع فضله العميم، وهدى صفوته إلى صراطه المستقيم، ونهج شرعته على المنهج السديد القويم . أحمده تعالى حمداً يكافئ نعمه ويوافي مزيد التكريم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بالآيات البينات والذكر الحكيم، ففتح به أعينا عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً، وهدى به من الجهل الصميم، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الأكرمين، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فمن المعلوم أن المذهب المالكي – وكغيره من المذاهب الفقهية المعتمدة – قد كتب له الظهور والانتشار والذيوع في بقاع شتى من العالم الإسلامي على يد تلامذة الإمام مالك الذين أخذوا عنه مباشرة، ثم على يد من جاء بعدهم من أئمة المذهب .

وإذا كان فقهاء المالكية جميعاً ملتفين ومجتمعين حول أصول فقه إمامهم، فإنهم – ونظراً لاختلاف الأماكن والجهات التي استقروا فيها وعملوا على نشر المذهب في أوساطها، ونظراً أيضاً لتباين ظروف تلك الجهات والبيئات التي ترسخت فيها جذور مذهبهم، ونما وترعرع حتى استوى على سوقه – اختلفت اجتهاداتهم، وتباينت آراؤهم في كثير من فروع وجزئيات ومفردات المذهب .

وهكذا تكونت مدارس فقهية مالكية متعددة، مزيت كل منها بمزايا وسمات منهجية خاصة تفردت بها عن غيرها، سواء على مستوى التصنيف والتأليف، أو الاستنباط والتخريج، أو الاختيار والترجيح، وأسهمت بمجموعها في إثراء وإغناء الفقه المالكي عموما على مختلف المستويات .

فكيف إذن انتقل المذهب المالكي إلى العراق ؟ وما هي أسباب انتشاره في تلك الديار؟ ومن هم أهم الأعلام الذين أسسوا هذا الفرع الفقهي المتميز للمذهب المالكي ؟ وما هي أهم إنتاجاتهم العلمية التي تعكس اجتهاداتهم واختياراتهم ؟ ثم ما الذي يميز مدرسة

العراقيين[١] عن بقية مدارس الفقه المالكي على مستوى المنهج ؟

تلكم هي أهم الأسئلة التي سيحاول هذا البحث المتواضع الإجابة عنها بشيء من الإسهاب والتفصيل .

المبحث الأول : أسباب انتشار المذهب المالكي بالعراق :

ثمة عوامل شتى أسهمت في انتقال المذهب المالكي إلى العراق وانتشاره به، نجملها فيما يلي :

أولا : شخصية صاحب المذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى :

إن لإمام دار الهجرة والنصرة أبي عبد الله مالك بن أنس عليه رحمة الله تعالى ورضي عنه، من علو القدر، وعظيم الشأن، ورفعة المنزلة، وسمو المكانة، وكمال الشهرة ما يغني عن التوسع والإسهاب في التعريف به والترجمة له، وتعديد مناقبه، ونشر أحواله ومآثره، خصوصاً وأن عدداً جماً من أهل العلم، قديماً وحديثاً، قد تكفلوا بذلك، فتحدثوا عن حياته العامة والعلمية بما فيه الكفاية والغناء، وفي مقدمتهم : القاضي عياض عليه رحمة الله [٢].

---

(١) يلاحظ الدارس لمختلف مظان الفقه المالكي – وخاصة ما يتعرض منها للخلاف داخل المذهب – تصنيفا لأئمة وأعلام المالكية بحسب انتسابهم وانتمائهم لمركز من المراكز العلمية المنتشرة في جهات متعددة ، فيقال مثلا : (المدنيون) ، و(المصريون) ، و (المغاربة) ، و (العراقيون) أو (البغداديون) . وقد تكرر ترداد هذين المصطلحين الأخيرين المترادفين في كثير من مظان الفقه المالكي . (انظر على سبيل المثال : التمهيد : ١/١٤٣ ، ٢٠٩ ، ٣٢٨ ، ٢/٨٨، ٣/٥٠ ، ٦/٩٦ ، ١٦٣ ؛ الكافي ، ص : ١٢ ، ١٦ ، ١٢٠، ٣١٠ ؛ المنتقى ، للباجي : ١/٥٥، ٩٠، ٩٢، ١٥١، ١٥٦، ١٧٣ ؛ القوانين الفقهية ، ص : ١٢٦ ؛ التاج والإكليل : ١/٢٩١ و٢/١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢٠٧ ، ٣/١٠٦ ، ٢٧٩ ، ٣٥٣ ؛ مواهب الجليل : ١/٦٣ ، ٧٠ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ٢١٨ ... ؛ شرح الزرقاني على الموطأ : ٢/٩٨ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ، ٢٤١ و٣/١٦٠ ، ٣٩٤ ؛ الفواكه الدواني : ١/١١٣ ، ٣٥٠ و٢/٢٦٥ ؛ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير : ١/٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢/١١٧) .

قلت : إن هذا النوع من التصنيف لشيوخ المذهب له مغزاه ودلالته ، فهو يشي بان لكل صنف منهم منهجاً معيناً يتميز به أو ببعض معالمه عن الآخر على أكثر من مستوى .

(٢) راجع ترتيب المدارك ، الجزء الأول من ص : ١٠٤ إلى نهايته ، و الجزء الثاني بكامله ، وانظر حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني : ٦/٣١٦–٣٣٢ ؛ تذكرة الحفاظ ،لابن القيسراني : ١/٢٠٧–٢١٣ ؛ تهذيب الكمال ، للمزي : ٢٧/٩١–١٢٠ ؛ سير أعلام النبلاء : ٨/٤٨–١٣٢ ؛ تهذيب التهذيب : ١٠/٥–٧ ...

لذلك، فإنني سأحاول تقديم نبذة موجزة، وحكاية جمل باهرة وفقر مقتضبة من حياته العلمية وسيرته العطرة، بالقدر الذي يسمح بتجلية وإظهار علو المرتقى الرفيع الذي احتله هذا الإمام الجهبذ الذي ملأت شهرته الآفاق، مما كان له الأثر في تسهيل وتيسير دخول مذهبه إلى أقطار شتى، وانتشاره فيها على أوسع نطاق، فأقول وبالله التوفيق :

لقد كان الإمام مالك عليه رحمة الله آية من آيات الله العظام، ونادرة من نوادر عصره، وأعلم أهل زمانه(١)، لا يساهم ولا يزاحم، ولا يناضل ولا ينازع . جمع الله له من شمل الفضائل والفواضل والمزايا والمحاسن ما يكل اللسان عن تعدادها وتفصيلها، ويتكفكف(٢) سنا المزبر(٣) عن تسطيرها جميعها، وصدق من قال :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لقد آثر الله عز وجل هذا العلم الفذ بأن جمع فيه من العلم والبصارة، والضلاعة في الفقه والحديث، ورجاحة العقل، ولمعان الذهن، ودقة الفهم، ونصاعة الحكمة، ومتانة الدين، ونور البصيرة، وصفاء السريرة، ودماثة الخلق، والأدب الجم، والتواضع الكبير، وغير ذلك من المواهب والعطايا وكريم الشمائل والمزايا، مما جعله موضع الاتباع والاقتداء، ومحل التأسي والاحتذاء(٤)، ومرجعا للأمة الإسلامية في عصره .

---

(١) قال الإمام الشافعي رحمه الله : «لم يبلغ أحد مبلغ مالك في العلم» ، وكان الإمام الأوزاعي إذا ذكر مالكا قال : «عالم العلماء ، وعالم أهل المدينة ، ومفتي الحرمين» . ونقل عن أبي جعفر المنصور قوله : « إنه أعلم أهل الأرض » . وقال القاضي عياض : «لا خفاء على منصف بمنصب مالك من الإمامة في علوم الشريعة وعلم الكتاب والسنة أنه إمام المسلمين وأعلمهم في ... فقه بسنة ماضية وباقية» . وقال الذهبي : «لم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة والحفظ ...» .

(ترتيب المدارك : ١/٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ؛ سير أعلام النبلاء : ٨/٥٧، ٥٨، ٩٤) .

(٢) يقال : كفكف فلانا عن الشيء : رده وصرفه . وتكفكف عنه : انصرف . (انظر لسان العرب ، مادة : كفف : ٩/٣٠٣ ؛ المعجم الوسيط ، نفس المادة : ٧٩٢) .

(٣) المزبر – بكسر الميم – : القلم ، جمع مزابر . (لسان العرب ، مادة : زبر : ٤/٣١٥ ؛ مختار الصحاح ، نفس المادة ، ص : ١٢٣ ؛ المعجم الوسيط ، ص : ٣٨٨) .

(٤) قال يحيى بن سعيد القطان : «كان مالك إماماً يقتدى به» وقال سفيان بن عيينة : « إنما كنا نتبع آثار مالك » . وقال أيضا : «كان مالك سراجا ، حج الثوري فطفت معه ، فلم يكن معه كبير أحد . وقدم مالك فطاف البيت ، فضاق الطواف بالناس – يعني لكثرتهم – يأتمون به » . وقال سعيد بن منصور : « رأيت مالكا يطوف وخلفه سفيان الثوري ، كلما فعل مالك شيئا فعله سفيان يقتدي به » . وأثر عن الإمام الشافعي قوله : «جعلت مالكا حجة فيما بيني وبين الله تعالى » . (ترتيب المدارك : ١/٧٥,٧٨, ١٤٨,١٥٠,١٥٥,١٦٨,١٧٠,١٧٢ ، وانظر سير أعلام النبلاء : ٨/٧٣، ٩٤) .

لقد كان رحمه الله تعالى نجماً ساطعاً متألقاً، ازدانت بنور علومه الغزيرة ومعارفه الثرة ومداركه الواسعة وحكمه السامية وشمائله الحميدة جنبات المدينة المنورة وغيرها من أرجاء الجزيرة العربية، بل وربوع شتى من العالم الإسلامي(١) .

وقد أجمع أهل المدينة وغيرهم من أئمة عصره ومن تلاهم على إمامته وفضله(٢)، وشهد له أكابر علماء زمانه وغيرهم من أساطين العلم والمعرفة في العصور والأزمان اللاحقة بالنباهة والتفوق في مختلف علوم الشريعة، والضلاعة والنبوغ في علمين جليلين، انعقد له لواؤهما، وهما : علم الحديث، وعلم الفقه(٣) .

وهكذا ذاع صيت الإمام مالك، وطبقت شهرته الآفاق، وعرفه الخواص والعوام، فاستشرفت إليه العيون، وتوجهت إليه الأنظار، وتعلقت به القلوب والأفئدة، فضربت إليه

---

(١) قال سفيان بن عيينة : «مالك حجة في زمانه ، ومالك سراج الأمة ، وما نحن ومالك» ، وقال الشافعي : «إذا ذكر العلماء فمالك النجم» . (التمهيد : ١/ ٧٤ ؛ ترتيب المدارك : ١/ ٧٥ ، ٧٦ ، وانظر سير أعلام النبلاء : ٨/ ٥٧) .

(٢) قال يحيى بن معين : «مالك من حجج الله على خلقه ، إمام من أئمة المسلمين ، «مجمع على فضله» . وقال عتيق بن يعقوب :«مات مالك وما نعلم أحدا من أهل المدينة **إلا أجمع عليه**». (ترتيب المدارك : ١/ ٧٧ ، ٧٩ ، وانظر تذكرة الحفاظ ، لابن القيسراني : ١/ ٢١٢) .

(٣) قال عبد الرحمن بن مهدي :« الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة ، والأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، **ومالك إمام فيهما**» ، وقال أيضا : «مالك أحفظ أهل زمانه» ، وقال :«ما بقي على وجه الأرض أحد آمن على حديث رسول الله ﷺ من مالك» . وقال يحيى بن سعيد القطان :« مالك إمام الناس في الحديث» ، وقال أيضا :«مالك أمير المؤمنين في الحديث» . ونقل هذا أيضا عن علي بن المديني . وقال يحيى بن معين : «مالك نجم أهل الحديث ، المتوقف عن الضعفاء ، الناقل عن أولاد المهاجرين والأنصار» . وقال الشافعي : «من أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك» . وقال الإمام أحمد :«**هو إمام في الحديث والفقه** ، وسئل عمن يريد أن يكتب الحديث وينظر في الفقه حديث من يكتب ؟ وفي رأي من ينظر ؟ فقال : حديث مالك ورأي مالك» . (انظر الجرح والتعديل ، لابن أبي حاتم الرازي : ١/ ١٣-١٧ ؛ الحلية : ٦/ ٣١٨، ٣٣٢ ؛ التمهيد : ١/ ٦٢، ٦٣؛ ترتيب المدارك : ١/ ٧٦، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦ ؛ تهذيب الأسماء ، للنووي : ٢/ ٣٨٣ ؛ تهذيب الكمال : ٢٧/ ١١٦ ؛ سير أعلام النبلاء : ٨/ ٧٤، ٧٥، ٩٤ ؛ تهذيب التهذيب : ١٠/ ٧).

أكباد الإبل من مشارق الأرض ومغاربها [١]، وأَمَّه من لا يحصى عدداً من عشاق العلم والتحصيل وطلاب المعرفة والتزكية من الأكابر والأصاغر من كل حدب وصوب، تحدوهم الرغبة الملحة والشغف الكبير والتطلع الشديد إلى لقياه، والإصغاء إليه، والجثوة بين يديه في مجالسه وحلقاته العلمية العامرة ودروسه القيمة المفيدة، للاقتباس من فيض معارفه، والارتواء من منابع العلم وينابيع الحكمة التي يجري سلسبيلها على لسانه، فوجدوا عنده من العلوم والمعارف والمدارك ما يشبع نهمهم، ويصقل أذهانهم، ويغذي عقولهم، ويتجاوب مع أشواقهم وطموحاتهم، فنهلوا وعلوا، وأوعبوا واستوعبوا، حتى ملأوا الوُفض من بحره الزخار ومعينه الصافي الذي لا ينضب، وغدوا من العلماء الأفذاذ والنبغاء المرموقين، فحملوا مشعل الدعوة، ورفعوا لواء علوم الشريعة، وراحوا يبثون وينشرون ويذيعون ما سمعوه وتلقوه من هذا الإمام الحبر من علوم غزيرة ومعارف ثرة وحكم ناصعة، وكذا ما اقتبسوه منه من شمائل وسجايا خلقية رفيعة زكية، في مختلف البقاع والأصقاع، ونهضوا بالأمانة العلمية على أكمل وجه .

وقد حظيت بلدة (العراق) بنصيب وافر وحظ كبير من علم مالك وفقهه، نقله إليها ثلة من تلامذته اللامعين من الطبقة الوسطى .

---

(١) وقد انذر النبي ﷺبذلك في الحديث الصحيح المشهور :« يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة » . (رواه أحمد في المسند : ٢ /٢٩٩ ، والترمذي في جامعه : أبواب العلم ، باب ما جاء في عالم المدينة ، ح : ٢٨٢٠ ، وقال : حديث حسن صحيح - واللفظ له - ، والحاكم في المستدرك : ١ /١٦٨ وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في السنن الكبرى : كتاب الصلاة ، باب ما يستدل به على ترجيح قول أهل الحجاز وعملهم ، ح : ١٨١٠ ، وابن أبي حاتم الرازي في مقدمة الجرح والتعديل ، ص : ١١ ، ١٢ ، وابن حزم في« إحكام الأحكام » : ٦ /٢٨٣، ٢٨٤ ، وابن عبد البر في « التمهيد » : ١ /٨٤، ٨٥ ، وأبو بكر الخطيب في« الرحلة في طلب الحديث » ، ص : ١٩٥ ، وأبو بكر ابن نقطة في« التقييد » ، ص : ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، وذكره القاضي عياض في« ترتيب المدارك » : ١ /٦٨-٧٠ ، وابن فرحون في« الديباج » : ١ /٦٥ ، وغيرهم كثير .

وروي عن ابن جريج وابن عيينة وغيرهما من أهل العلم أن المراد بـ(عالم المدينة) في الحديث : الإمام مالك عليه رحمة الله ؛ لأن هذا الوصف عند الإطلاق ينصرف إليه . (انظر سنن الترمذي -مع تحفة الأحوذي- : ٧/٣٧٣ ؛ التمهيد : ٦ /٣٥ ؛ تاريخ بغداد : ٦ /٣٧٧ ؛ التعديل والتجريح ، لأبي الوليد الباجي : ٢ /٦٩٨ ؛ تهذيب التهذيب : ١٠ /٧ ؛ مجموع الفتاوى : ٢٠ /١٧٨ ؛ إضاءة الحالك عن ألفاظ دليل السالك ، لمحمد حبيب الله بن مايابى ، ص : ٩٣) .

وعموماً، فإن الشخصية العلمية والسلوكية الفذة والمتميزة لعالم المدينة مالك بن أنس رحمه الله تعالى كان لها الأثر الكبير في انتشار مذهبه في أرجاء شتى من العالم الإسلامي المترامي الأطراف، ومنها بلاد العراق التي كان أهلها معجبين جدا بالإمام مالك، يرون فيه المثل الأعلى والنموذج النادر في العلم والفضل، وكان لهم تعلق كبير بشخصه وولع شديد باجتهاده، وقد أسهمت طائفة من أهل العلم منهم في التعريف به، ونشر فضائله وأخباره، والإشادة بمناقبه وما أضيف من السير إليه، منهم : القاضي أبو عبد الله التستري (ت : ٣٤٥هـ ، فقد صنف في ذلك عشرين جزءاً، والقاضي أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي (ت : ٣٠١ هـ)، والقاضي أبو الحسين عبد الله بن المنتاب البغدادي المعروف بالكرابيسي (ت : ٣٣٠ أو ٣٣١ هـ)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن سهل البركاني البصري (ت : ٣١٩هـ)، والقاضي أبو الفضل بكر بن العلاء القشيري البصري (ت : ٣٤٤هـ)، والإمام أبوبكر محمد بن عبد الله الأبهري البغدادي (ت: ٣٧٥هـ)(١) .

ومما يدل أيضا على شدة إعجاب العراقيين وتعلقهم بشخصية الإمام مالك ما يلي :

أ – أن محمد بن الحسن الشيباني« كان إذا حدث أهل الكوفة عن مالك امتلأ منزله وكثر الناس عليه حتى يضيق عليهم الموضع، وإذا حدث عن غير مالك لم يجبه إلا اليسير، فكان يقول :« ما أعلم أحداً أسوأ ثناء على أصحابكم منكم، إذا حدثتكم عن مالك ملأتم علي الموضع، وإذا حدثتكم عن أصحابكم إنما تأتون متكارهين» (٢) .

ب – أن العراقيين لما بلغهم نبأ وفاة الإمام مالك عليه رحمة الله ورضوانه، كانت الفاجعة به في أوساطهم كبيرة، وكان الرزء به شديداً، وكانت اللوعة عامة، فقد ارتجت العراق واهتزت كلها لموته . نقل القاضي عياض عن محمد بن الحارث وأبي إسحاق الشيرازي ويحيى بن إسحاق قولهم :« رحل أسد إلى العراق فتفقه بأصحاب أبي حنيفة، ثم نعي مالك فارتجت العراق لموته . قال أسد : فوالله ما بالعراق حلقة إلا وذكر مالك فيها،

---

(١) انظر ترتيب المدارك : ١/٩-١١ ؛ سير أعلام النبلاء : ٨/٨٢ ؛ الديباج المذهب : ١/٣١٤، ٣٢١ و ٢/١٤٨، ١٤٩ .

(٢) الحلية : ٦/٣٣٠ و ٩/٧٤ ، وانظر تاريخ بغداد : ٢/١٧٣ ؛ تهذيب الأسماء : ١/٩٧، ٩٨ .

كلهم يقول : مالك، مالك، إنا لله وإنا إليه راجعون . قال أسد : فلما رأيت شدة وجدهم واجتماعهم على ذلك، ذكرته لمحمد بن الحسن – وهو المنظور فيهم – وقلت له لأختبره : ما كثرة ذكركم لمالك على أنه يخالفكم كثيرا ؟ فالتفت إلي وقال لي : اسكت، كان والله أمير المؤمنين في الآثار، فندم أسد على ما فاته منه، وأجمع أمره على الانتقال إلى مذهبه...»(١)

ثانيا : دخول المصادر العلمية الأولى للمذهب المالكي إلى بلاد العراق :

١ - الموطأ :

الموطأ كتاب جامع بين الأثر والنظر أو بين الفقه والحديث، خلافا لما ادعاه البعض من أنه كتاب فقه فقط، ومن هؤلاء بروكلمان في كتابه« تاريخ الأدب العربي »(٢)، وأحمد أمين في كتابه « فجر الإسلام »(٣)، وقد استدل هذا الأخير لدعواه بما حواه الموطأ من فتاوى مالك وآرائه واجتهاداته الشخصية في بعض المسائل، مما يدل – حسب رأيه – على أن مالكا لم يكن همه جمع الأحاديث المعروفة في عهده، وإنما كان غرضه أن يأتي بالتشريع المعزز والمؤصل بنص الحديث .

وهذا الدليل واه ولا ينهض حجة على صحة وسلامة الادعاء المذكور ؛ لأن الموطأ في بدايته كان ينطوي على قدر كبير من الأحاديث، اختلف في تحديد عددها، فقيل : عشرة آلاف حديث، وقيل : تسعة آلاف حديث، وقيل : ألف وسبعمائة وعشرون حديثاً، وقيل : ستمائة وستة وستون حديثاً، وقيل غير ذلك ..

فأخذ مالك رحمه الله تعالى يهذب موطأه، ويشنبه، وينقحه، ويختصره، ويعرض أحاديثه على الكتاب والسنة، حتى تقلص عددها إلى ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين حديثاً، حسب رواية يحيى الليثي، وألف وثمانية أحاديث، حسب رواية محمد بن الحسن الشيباني(٤).

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/٢٩٥ .

(٢) الجزء الثالث ، ص : ٢٧٥ .

(٣) ص : ٢٤٩ .

(٤) انظر ترتيب المدارك : ٢/٧٢، ٧٣ ؛ مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ : ١/٧ .

واختلف في تسمية الموطأ بهذا الاسم على أقوال، منها[١] :

أ ـ : أنه شيء صنعه مالك ووطاه للناس . قيل لابن أبي حاتم الرازي : لم سمي الموطأ موطأ ؟ فقال :« شيء صنعه ووطاه للناس حتى قيل موطأ مالك » .

ب ـ : أن فقهاء المدينة واطئوا مالكا عليه بعد أن عرضه عليهم، وقد أثر عن مالك رحمه الله تعالى أنه قال :« عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ » .

ج ـ : أن أبا جعفر المنصور طلب من الإمام مالك أن يؤلف للناس كتاباً ويوطئه لهم توطئاً، فاستجاب مالك لطلبه وألف الموطأ .

ومكث مالك في تأليف موطئه ومراجعته وتهذيبه نحو أربعين سنة[٢]، وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بفتاوى التابعين وأقوال فقهاء المدينة، وبوبه على أبواب الفقه فأحسن ترتيبه وتبويبه، وجعل باباً جامعاً في آخره ضمنه من المسائل ما لا يدخل في باب خاص من أبواب الفقه المعروفة، وهي ثلاثة أنواع : ما يتعلق بالعقيدة، وما يتعلق بالأقوال، وما يتعلق بالأفعال .

وتتكون المادة العلمية للموطأ من : الأحاديث المتصلة، والمرسلة، والمنقطعة، والموقوفة، والبلاغات ـ وهي التي يقول فيها مالك :« بلغني أن رسول الله ﷺ قال كذا »ـ، وأقوال الصحابة وفقهاء التابعين، وما استنبطه الإمام مالك من الفقه المستند إلى العمل أو إلى القياس أو إلى قواعد الشريعة[٣] .

---

(١) انظر تنوير الحوالك ، للسيوطي : ١/٧ ؛ مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ : ١/٧ ؛ فضل الموطأ وعناية الأمة الإسلامية به ، ص : ١٩ ؛ الفكر السامي : ١/٣٥٥ ؛ أقرب المسالك إلى موطأ الإمام مالك ، للشيخ محمد التهامي كنون ، ص : ٣٢ ؛ محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ، ص : ١٥٢ .

(٢) انظر التمهيد : ١/٧٨ ؛ ترتيب المدارك : ٢/٧٥ ؛ المواضع السابقة من« مقدمة شرح الزرقاني » و« الفكر السامي » و « محاضرات في تاريخ المذهب المالكي » .

(٣) انظر ترتيب المدارك : ٢/٧٣، ٧٤ ؛ كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطا ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، ص : ١٦، ١٧، ٢٧ ؛ الفكر السامي : ١/٣٣٥ ؛ مقدمة تحقيق كتاب« الجامع » ، لابن أبي زيد القيرواني : ١/١٣ ؛ محاضرات في تاريخ المذهب المالكي ، ص : ١٥٢، ١٥٣ .

هذا، وإن مناقب الموطأ ومزاياه كثيرة جدا، ويكفي أنه يضم بين دفتيه المادة العظمى للكتب الستة وغيرها من مصنفات السنة المعتمدة، حتى قيل : إن الكتب الستة مخرجة عليه[١] .

وهذه بعض شهادات أئمة أعلام في هذا الكتاب الجليل . قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :« ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صوابا من كتاب مالك »، وقال أيضا :« ما على الأرض كتاب أصح – وفي رواية : أفضل – من كتاب مالك، وما كتب الناس بعد القرآن شيئا هو أنفع من موطأ مالك، وإذا جاء الأثر من كتاب مالك فهو الثريا » . وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى :« ما أحسن الموطأ لمن تدين به » . وقال عبد الرحمن بن مهدي رحمة الله عليه :« ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ »[٢] .

ونظرا لهذه المزايا والفضائل التي حظي بها الموطأ، فقد أقبلت الأمة عليه في حياة مؤلفه الإمام مالك رحمه الله تعالى، ووصل تواترا في عهده إلى الآفاق، وأعجب به الخواص والعوام، ورحل جم غفير منهم – وخاصة من طلبة العلم – من مختلف الأقطار الإسلامية لسماعه من الإمام مالك وروايته عنه مباشرة .

وقد تعددت روايات الموطأ بتعدد رواته عن مالك، والمشهور منها : رواية يحيى بن يحيى الليثي، ورواية محمد بن الحسن الشيباني . فالأولى هي الأكثر شهرة وتداولاً، وهي التي اعتمدها الناس في المشرق والمغرب على حد سواء ؛ لأنها آخر ما استقر عليه رأي مالك، ولا يوجد بها ما روي عن مالك من الأخبار، وإليها ينصرف الذهن عند الإطلاق . أما الثانية، فقد تضمنت أحاديث يسيرة زيادة على سائر الموطآت، كما احتوت على اجتهادات كثير من علماء العراق والحجاز، إضافة إلى اجتهادات محمد بن الحسن التي خالف فيها مالكا وأبا حنيفة . وقيل : إن بها آثاراً ضعيفة من غير طريق مالك، وقد اهتم بها الأحناف لاشتمالها على ذكر الأحاديث التي عملوا بها ...[٣] .

---

(١) انظر الفكر السامي : ١/٣٣٦ .

(٢) ترتيب المدارك : ٢/٧٠ ، وانظر التمهيد : ١/٧٦ ، ٧٩ .

(٣) انظر ترتيب المدارك : ٣/٣٨٠، ٣٨١ ؛ التعليق الممجد على موطأ محمد ، لمحمد عبد الحي اللكنوي ، ص : ٣٥ ، ٣٦ ؛ الرسالة المستطرفة لبيان كتب السنة المشرفة ، ص : ١٣ ، ١٤ ؛ كشف المغطى ، ص : ٣٥ ، ٣٩؛ أقرب المسالك ، ص : ٣٤ ، ٣٥ .

واختلف الرأي فيمن كان أثبت الناس في رواية الموطأ، فقال يحيى بن معين :« أثبت الناس في الموطأ : عبد الله بن مسلمة القعنبي، وعبد الله بن يوسف التنيسي »، وتبعه في ذلك ابن المديني والنسائي . وقال أبو حاتم :« أثبت أصحاب مالك وأوثقهم معن بن عيسي » . وقال النسائي :« لم يرو أحد الموطأ عن مالك أثبت من ابن القاسم »، وبه صرح ابن فرحون في« الديباج » . وذكر محمد بن عبد الحكم أن أثبت الناس في الرواية عن مالك ابن وهب(١) .

وأفاد القاضي عياض رحمه الله تعالى أنه لم يعتن بكتاب من كتب الفقه والحديث بمثل ما اعتني بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تفضيله، وروايته، وتقديم حديثه وتصحيحه . وعد نحو تسعين رجلاً ممن تناولوه بالشرح وغيره من تعلقاته، ونظم فيه قصيدة رائعة، مما جاء فيها :

إذا ذكرت كتب العلوم فخيرها	كتاب الموطأ من تصانيف مالك
أصح أحاديثاً وأثبت حجة	وأوضحها في الفقه نهجاً لسالك
عليه مضى الإجماع في كل أمة	على رغم خيشوم الحسود المماحك
فعنه فخذ علم الديانة خالصاً	ومنه استفد شرع النبي المبارك
وشد به كف الصيانة تهتدي	فمن حاد عنه هالك في الهوالك(٢) .

وحاول الدكتور عمر الجيدي رحمه الله تعالى استقصاء أسماء الأعلام الذين خدموا هذا الكتاب الجليل واعتنوا به : شرحا، وتعليقا، واختصارا، ودراسة لأسماء رواته وأحوالهم، فوقف على مائة وستة وثلاثين علما(٣) .

* **رواة الموطأ من العراقيين :**

ذكر القاضي عياض رحمه الله تعالى في « المدارك » سبعة وخمسين راوياً للموطأ عن مالك رحمه الله تعالى، ثم قال معلقا :« فهؤلاء الذين حققنا أنهم رووا عنه الموطأ، ونص

---

(١) انظر الديباج المذهب : ١/٤٦٦ ؛ مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ : ١/٦ ، ٧ ؛ محاضرات في تاريخ المذهب المالكي ، ص : ١٥٨ .

(٢) انظر ترتيب المدارك : ٢/٧٨-٨٥ ؛ سير أعلام النبلاء : ٨/٨٥-٨٨ ؛ مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ، ص : ٩ .

(٣) انظر محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ، ص : ١٦١-١٧١ .

على ذلك أصحاب الأثر والمتكلمون في الرجال ... ولا مرية أن رواة الموطأ أكثر من هؤلاء من جملة أصحابه ومشاهير رواته، ولكن إنما ذكرنا من بلغنا نصاً سماعه له منه وأخذه له عنه، أو من اتصل إسنادنا له فيه عنه» (١) .

ونورد فيما يلي أسماء أهم رواة الموطأ من أهل العراق :

– من البصريين : عبد الرحمن بن مهدي (ت : ١٩٨ هـ)، ويحيى بن سعيد القطان (ت : ١٩٨هـ)، وجويرية بن أسماء (ت : ١٧٣هـ)، وروح بن عبادة (ت: ٢٠٥هـ)، وعبدالله بن مسلمة القعنبي (ت : ٢٢٠هـ أو ٢٢١هـ)، وهشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي (ت : ٢٢٧هـ)، وعبيد الله بن محمد بن حفص بن عمر (ت : ٢٢٨هـ) .

– ومن الكوفيين : محمد بن الحسن الشيباني (ت : ١٨٩هـ)، وأبو نعيم الفضيل بن دكين (ت : ٢١٨هـ) .

– ومن البغداديين : إسحاق بن عيسى بن نجيح الطباع (ت : ٢١٥هـ)، وسعد بن عبدالحميد بن جعفر (ت : ٢١٩هـ)، وأبو حذافة أحمد بن إسماعيل بن محمد بن نبيه السهمي (ت : ٢٥٩هـ)، وبربر – بموحدتين مفتوحتين بعد كل راء – المغنى .

– ومن أهل الموصل : إسحاق بن موسى الموصلي، مولى بني مخزوم(٢) .

– وروى الموطأ في العراق كذلك جماعة ليسوا بعراقيين أصلا، لكنهم رحلوا إلى العراق وحدثوا أهلها بموطإ إمام دار الهجرة، وتلقوه عنهم بشغف شديد . ومن هؤلاء : سويد بن سعيد الحدثاني الهروي الخراساني . قال الخطيب البغدادي في تاريخه :« قدم بغداد وحدث بها عن مالك بن أنس» (٣) .

وقد مثل هؤلاء الرواة الأوائل للموطأ في العراق القناة الأولى التي انتقل عبرها فقه مالك إلى العراق، والمصدر الأول الذي استمد منه العراقيون المذهب المالكي ؛ فقد أقبل

---

(١) ترتيب المدارك : ١/٨٩ .

(٢) انظر ترتيب المدارك : ٢/٨٦–٨٨ ؛ تهذيب الكمال : ٢٧/١٠٧–١١٠ ؛ سير أعلام النبلاء : ٨/٢٥ ؛ مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ : ١/٥ .

(٣) تاريخ بغداد : ٩/٢٢٨ ، وانظر الموضع السابق من مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ .

عليهم الناس ليأخذوا عنهم علم مالك من خلال كتابه «الموطأ» الذي تعلقوا به وبوأوه المكانة السامية اللائقة به في أوساطهم . يقول الحافظ ابن عبد البر عليه رحمة الله :

ومما به أهل الحجـــاز تفاخروا بأن الموطـــأ في العـــراق محبب

وكل كتاب بالعراق مؤلـــف نراه بآثار الموطأ يعصــــب[١] .

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا الصدد أن مالكاً رحمه الله تعالى كان يعرف في هذه المرحلة الأولى من مراحل انتشار مذهبه في الأوساط العراقية بوصفه محدثاً أكثر من وصفه فقيهاً مجتهداً .

٢ - الأسمعة والمسائل :

لقد حظي جم غفير من طلبة العلم من العراقيين وغيرهم من مختلف الأصقاع بملاقاة مالك وحضور دروسه وحلقاته العلمية، فسمعوا منه الكثير من المسائل التي درسها وأفتى بها، ودونوها، ثم أدخلوها إلى بلدانهم .

ونورد فيما يلي أسماء طائفة من أصحاب مالك من أهل العراق وغيرهم الذين نقلوا أسمعته ومسائله إلى بلاد العراق، وأسهموا بذلك في نشر مذهبه بتلك الديار :

أ - معن بن عيسى :

وهو من كبار أصحاب مالك وأوثقهم وأثبتهم، وقد خرج عنه البخاري ومسلم وغيرهما . وأفاد الحافظ ابن عبد البر أنه كان أكثر الناس ملازمة لمالك، وكان يتكئ عليه عند خروجه من المسجد، حتى قيل له : (عصية مالك)، وكان حريصاً على كتابة وتدوين كل ما يسمعه منه، حتى تجمعت له عنه مسائل كثيرة جداً . قال ابن حارث :«وله سماع معروف من مالك»، ذكره ابن عبدوس في المجموعة فيما ذكر، وأورد الإمام الترمذي في جامعه كثيرا من سماعه وروايته عن مالك، بل صرح في آخر كتابه بأن كل ما أدخله عن مالك هو من رواية معن . وقال علي بن المديني : «أخرج إلينا معن أربعين ألف مسألة سمعها من مالك» . توفي رحمه الله تعالى سنة : ١٩٨هـ[٢] .

---

(١) التمهيد : ١/٨٣ .

(٢) انظر طبقات الفقهاء، للشيرازي، ص : ١٥٤ ؛ ترتيب المدارك : ٣/١٤٨-١٥٠ .

ب - محمد بن عمر الواقدي :

مدني الأصل، سكن بغداد، فصار في عداد أهلها، وولي القضاء بها للرشيد وابنه المأمون . كان إماماً مبرزاً في الفقه، روى عن مالك حديثاً كثيراً [١]، وفقها ومسائل، إلا أن مسائله عنه فيها منكرات لا توجد عند غيره . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٠٧هـ[٢] .

ج - أبو يحيى هارون بن عبد الله بن محمد الزهري العوفي :

مكي الأصل، ثم نزل بغداد وأصبح في عداد أهلها، وهو معدود في الطبقة الصغرى من أصحاب مالك الفقهاء . وكان يقوم بنصرة قول أهل المدينة فيحسن . قال أبو إسحاق الشيرازي :«هو أعلم من صنف الكتب في مختلف قول مالك» . وذكر أبو إسحاق أيضا أنه ممن روى عن مالك، وأسندوا له أحاديث وحكايات تشهد بسماعه . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٢٨هـ[٣] .

د - قتيبة بن سعيد البلخي :

وثقه يحيى بن معين وأبو حاتم الرازي، وأثنى عليه الإمام أحمد . روى عنه كبار أعلام السنة المطهرة، منهم : الحميدي، وأبو بكر ابن أبي شيبة، وأبو زرعة وأبو حاتم الرازيان، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم .. و«له عن مالك الكثير من جيد الحديث والمسائل»، كما قال ابن شعبان . ولي قضاء بغداد . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٤٠هـ[٤] .

هـ - يحيى بن يحيى بن بكير بن عبد الرحمن التميمي :

سمع مالكاً وقرأ عليه الموطأ ورواه عنه، وقرأه عليه، ثم لازمه مدة للاقتداء به بعد أن فرغ من سماعه، وهو معدود في الفقهاء من أصحابه، توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٢٦هـ[٥] .

---

(١) وفي حديثه عنه منقطع كثير وغرائب ، ولذلك تكلم فيه ، فطرحه احمد ، ويحيى ، وابن نمير ، والنسائي، وغيرهم من ائمة الحديث . (انظر ترتيب المدارك : ٣ / ٢١٠) .

(٢) انظر المصدر نفسه .

(٣) انظر تاريخ بغداد : ١٤ / ١٣ ؛ طبقات الفقهاء ، للشيرازي ، ص : ١٥٨ ؛ ترتيب المدارك : ٣ /٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٤) انظر ترتيب المدارك : ٣ / ٣٦٠ ، ٣٦١ ؛ سير أعلام النبلاء : ٨ / ٨٤ .

(٥) انظر المصدر نفسه : ٣ /٢١٦ ، ٢١٧ ؛ الموضع السابق من« السير» .

و - عبد الملك بن عبد العزيز ابن الماجشون :

تفقه بأبيه ومالك وغيرهما حتى صار من كبار الأئمة الأعلام الفقهاء المبرزين الفطاحل، وكان بحراً في العلم لا تكدره الدلاء، كما قال يحيى بن أكتم القاضي . وعليه كانت تدور الفتوى في أيامه إلى موته، كما كانت تدور على أبيه من قبل، فهو فقيه ابن فقيه . تفقه به خلق كثير وأئمة أجلة، كابن المعذل، وابن حبيب، وسحنون . . . قال النسائي : ولعبد الملك ابن الماجشون كلام كثير في الفقه وغيره . قال ابن حارث القروي : وعلم كثير جدا . وله كتاب سماعاته، وهي معروفة[١] .

- هذا، **وأدخلت سماعات أخرى كثيرة إلى العراق عن طريق نخبة من أقطاب المذهب من العراقيين وغيرهم**، منها :

أ - سماعات يحيى بن عبد الملك الهديري (ت : ٢٠٦هـ) . رواها عنه تلميذه أبو يحيى الزهري . قال القاضي عياض - في سياق ترجمته للهديري - :« مشهور بصحبة مالك والرواية عنه حديثا ومسائل، له روايات رواها عنه أبو يحيى الزهري القاضي، وبه تفقه »[٢] .

ب - سماعات أبي مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري (ت ٢٤٢هـ) . أدخلها إلى العراق بعض أئمة الفقه المالكي بها كالقاضي إسماعيل وأخيه أحمد . قال القاضي عياض :« روى عن مالك الموطأ وغيره من قوله، وتفقه بأصحابه . . وله كتاب مختصر في قول مالك مشهور . . . روى عنه البخاري، ومسلم، والدهلي، وإسماعيل القاضي، وأخوه حماد، والرازيان »[٣] .

ج - سماعات عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي[٤] (ت : ١٩٧هـ)[٥] . قال

---

(١) انظر ترتيب المدارك : ٣/١٣٧، ١٣٨، ١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٣/١٥٨ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٣/٣٤٧، ٣٤٨ .

(٤) كان ابن وهب إمامًا في الفقه والرواية ، وكان يطلق عليه (ديوان العلماء) . صحب مالكا عشرين سنة ، وتفقه به ، وسمع منه قبل ابن القاسم ببضع عشرة سنة ، وكان مالك يجله ويقدره ويعترف بمنزلته العلمية ، وكان يصفه بانه :« إمام » ،« عالم » ،« مفتي مصر » . ويقال إن مالكا لم يكتب لأحد بفقه إلا إلى ابن وهب . . . قال ابن وضاح :« كان أهل الحجاز يحتاجون إلى ابن وهب في علم الحجاز ، وأهل العراق يحتاجون إليه في علم العراق » . وقال أحمد بن صالح :« ليس أحد من خلق الله أكبر في مالك من ابن نافع وابن وهب . . . وابن وهب المقدم في كثرة العلم والمسائل ، لم يكن مالك يتكلم بشيء إلا كتبه ابن وهب » . (انظر المصدر نفسه : ٣/٢٣٠-٢٣٤) .

(٥) وقيل : كانت وفاته سنة : ١٩٥هـ ، وقيل سنة ١٩٦هـ ، وقيل سنة ١٩٨هـ . وما أثبتناه في النص هو الأصح والأشهر ، كما قال القاضي عياض في« ترتيب المدارك » : ٣/٢٤١، ٢٤٢ .

القاضي عياض :« ألف تواليف كثيرة، جليلة المقدار، عظيمة النفع، منها : سماعه من مالك ثلاثون كتابا، وموطأه الكبير، وجامعه الكبير . . . » (١) .

ودخلت مسائل ابن وهب إلى العراق عن طريق قتيبة بن سعيد وأبي مصعب الزهري، اللذين يعتبران أروى الناس عنه . قال القاضي عياض :« وكان أبو مصعب يعظم ابن وهب، وسمع مسائله عن مالك، وكان يقول هي صحيحة » (٢) .

كما أسهم بعض من جاء بعد هذين العلمين في إدخال سماعات ابن وهب إلى العراق، كحماد بن زيد، وقد رواها عنه تلميذه أبو ثابت محمد بن عبد الله، ورواها عن أبي ثابت القاضي إسماعيل (٣) .

والخلاصة أن دخول المسائل والأسمعة المروية عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى إلى العراق بوساطة ثلة من أصحابه العراقيين وغيرهم، كان من أهم عوامل انتقال المذهب المالكي إلى البيئة العراقية وانتشاره بها .

المبحث الثاني : أهم أعلام المدرسة المالكية العراقية :

تعاقب على النهوض بتأسيس المدرسة المالكية العراقية والمساهمة في بناء صرحها الشامخ أعلام أفاضل وفقهاء فطاحل من مختلف ربوع العراق، بل من أقطار أخرى كثيرة ؛ وذلك منذ عهد إمام المذهب أبي عبد الله مالك بن أنس رحمه الله تعالى . ومن ثم، فإن القول بأن القاضي إسماعيل المتوفى سنة ٢٨٢ هـ، هو مؤسس الفرع المالكي بالعراق – كما ذكره محقق كتاب« التفريع » (٤) – غير صحيح، فقد وجد قبل هذا العلم أئمة كبار أسهموا جميعا – وبنسب متفاوتة – في وضع الحجر الأساس لبناء المدرسة المالكية العراقية، كابن مهدي العنبري (ت : ١٩٨هـ)، وابن المعذل (ت : ٢٣٠هـ)، وغيرهما .

---

(١) المصدر نفسه : ٣/٢٤٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣/٢٣٣ .

(٣) المصدر نفسه : ٤/٢

(٤) انظر ص : ٩٢ من كتاب« التفريع » .

وفيما يلي ذكر لأسماء أهم أقطاب ورواد هذه المدرسة، مع التركيز على إبراز جهودهم العلمية وأثر كل منهم في ترسيخ جذور المذهب والتمكين له بالعراق .

الطبقة الأولى :

وتتألف من تلامذة الإمام مالك من الطبقتين الوسطى والصغرى [١] الذين رووا عنه الفقه والحديث، ثم نقلوا ذلك إلى بلاد العراق، وعملوا على نشره وإذاعته في مختلف ربوعها وأرجائها، بدءاً بمدينة البصرة وانتهاء بمدينة بغداد . ونذكر من رجالات هذه الطبقة:

أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري :

الإمام الثقة، العالم بالحديث وأسماء الرجال، والفقيه المبرز . لزم الإمام مالكاً، وأخذ عنه كثير الفقه والحديث وعلم الرجال، وكان يذهب إلى قوله، وله معه حكايات . كما تفقه ببعض كبار أصحاب مالك، كالمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي (ت ١٨٦ أو ١٨٨هـ)، الذي كان مدار الفتوى في زمان مالك وبعده عليه، كما حكى ابن الماجشون، وعبد العزيز بن أبي حازم المدني (ت ١٨٥هـ)، الذي قيل : إنه لم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه منه . ويعتبر مترجمنا واحداً من الأئمة الجهابذة الذين انتقل فقه مالك بوساطتهم إلى العراق، وذلك من خلال حلقات الدرس التي كان يشرف عليها، وكذا المناظرات الفقهية التي كان يعقدها . وروى عنه طائفة من مشاهير أئمة الحديث، كابن حنبل، ويحيى بن معين، وابن المديني، وغيرهم، وخرج عنه البخاري ومسلم، كما تفقه به ثلة من أعلام المالكية، منهم : عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري، ويعقوب بن إسماعيل بن حماد أحد شيوخ القاضي إسماعيل . توفي ابن مهدي رحمه الله تعالى بالبصرة سنة : ١٩٨هـ [٢] .

---

(١) قسم القاضي عياض عليه رحمة الله في مداركه طبقات أصحاب مالك من الفقهاء الآخذين عنه إلى ثلاث طبقات : الطبقة الأولى : ويعبر بها عمن كان له ظهور في العلم مدة حياة الإمام مالك ، وقاربت وفاته مدة وفاته . الطبقة الوسطى : وتطلق على من جاء بعد هؤلاء ممن عرف بطول ملازمة مالك وصحبته ، وشهر بعده بتفقهه عليه وروايته . الطبقة الصغرى : وهم قوم صحبوا مالكا صغار الأسنان ، وتأخر بهم بعده الزمان ، فقارنوا اتباع أتباعه ، وفضلوا بشرف مجالسته ومزية سماعه . (انظر ترتيب المدارك : ١/ ٥، ٦، ٩، ١٤ و ٣/ ١) .

(٢) انظر تاريخ بغداد : ١٠/ ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٥-٢٤٧ ؛ ترتيب المدارك : ٣/ ٣، ٩، ١٠، ١٢، ٢٠٢، ٢٠٩، ٤/ ١٥

عبد الله بن مسلمة بن قعنب، التميمي الحارثي، المعروف بالقعنبي :

مدني الأصل، سكن البصرة وصار في عداد أهلها . كان إماماً، فقيهاً، حجة، ثبتاً . لازم مالكاً مدة عشرين سنة، وقرأ عليه كتبه، وروى عنه أصوله وفقهه وموطأه الجامع بين الفقه والحديث، وكان أثبت رواة الموطأ على الإطلاق حسب رأي ابن معين وابن المديني والنسائي، كما مر معنا . روى عنه أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان، وأبو داود، وأخرج عنه البخاري ومسلم . وكان له أثر واضح في التمكين للمذهب المالكي ونشره في ربوع العراق . ومن أقطاب مالكية العراق الذين تتلمذوا عليه : القاضي إسماعيل بن إسحاق . اختلف في سنة وفاته، فقيل توفي سنة : ٢٢٠هـ، وقيل سنة : ٢٢١هـ[١] .

أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي :

الإمام الفقيه المبرز، المتوفى سنة : ٢٠٧هـ[٢] .

يحيى بن يحيى بن بكير بن عبد الرحمن التميمي، الحنظلي بالولاء، المتوفي سنة : ٢٢٦هـ[٣] .

أبو يحيى هارون بن عبد الله الزهري العوفي، المعدود في الطبقة الصغرى من أصحاب مالك الفقهاء . توفي رحمه الله ٢٢٦هـ[٤] .

الطبقة الثانية :

وتتكون من تلامذة أصحاب الطبقة الأولى ممن لم يحظوا برؤية مالك والسماع منه مباشرة، فمنهم :

---

(١) انظر الفهرست ، لابن النديم ، ص : ٢٨١ ؛ ترتيب المدارك : ١٩٨/٣، ٢٠١ ؛ تذكرة الحفاظ ، للقيسراني : ٣٨٣/١، ٣٨٤ ؛ سير اعلام النبلاء : ٢٥٧/١٠، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٤ ؛ الفكر السامي : ٧٢/٣.

(٢) سبقت ترجمته بإيجاز في ص : ١٥ .

(٣) سبقت ترجمته في ص : ١٥ .

(٤) سبقت ترجمته في ص : ١٥ .

أبو الفضل أحمد بن المعذل :

الكوفي أصلاً، البصري سكناً، الإمام الحجة، الفقيه المبرز، المتكلم النظار، العابد الزاهد الورع، الأديب الشاعر، نادرة الدنيا في الحفظ، والمثل السائر في الذكاء، المتكلم الخطيب المفوه ... قيل : لم يكن لمالك في العراق أرفع منه، ولا أبصر بمذاهب الحجاز منه، لذلك اعتبرته بعض كتب التاريخ والطبقات الرائد الأول للمذهب بالعراق، فبدأت به الحديث عن تراجم أعلام المالكية بهذا القطر . أخذ عن عبد الملك بن الماجشون مفتي أهل المدينة في زمانه، ومحمد بن مسلمة أفقه أصحاب مالك في عصره، وغيرهما من الأئمة الأجلاء . تفقه به جماعة من كبار المالكية، منهم : القاضي إسماعيل بن إسحاق، وأخوه حماد، ويعقوب بن شيبة، وغيرهم كثير . وله مصنفات، منها :"كتاب الحجة"، وكتاب« الرسالة »[١] .

يعقوب بن إسماعيل بن حماد :

أخذ عن جماعة، منهم : سفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وبه تفقه . ولي القضاء بالمدينة المنورة، ثم رحل إلى بغداد، وأخذ ينشر مذهب مالك بها، من خلال الدروس العلمية التي كان يلقيها . وتفقه به جماعة، منهم : القاضي إسماعيل بن إسحاق . توفي بفارس وهو يتولى قضاءه سنة : ٢٤٦هـ[٢] .

الطبقة الثالثة :

وتتألف من تلامذة أصحاب الطبقة الثانية، ومن رجالاتها :

أبو يوسف يعقوب بن أبي شيبة بن الصلت :

الإمام المحدث، المسند الراوية، الفقيه المبرز، البارع في المذهب المالكي وصاحب التآليف الجديدة فيه، على حد تعبير ابن الحارث . تفقه بابن المعذل، وأصبغ بن الفرج، والحارث بن مسكين، وغيرهم من كبار أصحاب مالك . قال ابن كامل القاضي :« كان من

---

(١) انظر الفهرست ، لابن النديم ، ص : ٢٨٨ ؛ طبقات الفقهاء للشيرازي ، ص : ١٦٦ ؛ ترتيب المدارك : ٣/ ١٤٠، ٤/ ٥-٧، ٢٧٩ ؛ سير أعلام النبلاء : ١١/ ٥١٩، ٥٢٠ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٦٤، ٦٥ .

(٢) انظر تاريخ بغداد : ١٤/ ٢٧٥ ؛ ترتيب المدارك : ٤/ ١٥، ١٦ .

فقهاء البغداديين على قول مالك، ومن كبار أصحاب ابن المعذل ...» . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٦٢ هـ[١] .

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حمزة النيسابوري المعروف بالقطان :

تفقه بعبد الله بن عبد الحكم، ويونس بن عبد الأعلى، وغيرهما . وأفاد الحافظ أبو نصر ابن ماكولا أنه آخر من درس المذهب المالكي بنيسابور . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٩٩هـ[٢].

وقد عرف المذهب المالكي مع هذه الطبقة مزيدا من الذيوع والانتشار والتغلغل في مختلف أنحاء العراق، وازدادت مكانته سموا ورفعة، وتقوى نفوذه وسلطانه بسبب تقلد فقهاء المذهب بعض المناصب الحساسة في البلاد، كالقضاء، والحسبة، وولاية المظالم، وغيرها.

الطبقة الرابعة :

وتتكون من فقهاء مبرزين ينتسبون إلى (بيت آل حماد)، وهو بيت مشهور بالعلم والفضل والجاه والسؤدد في الدين والدنيا . وقد استمر العلم والفقه والنبوغ والعطاء والإبداع في هذا البيت العتيق مدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة .

وكان لفقهاء آل حماد عموماً أثر فعال في تثبيت وترسيخ دعائم المذهب المالكي بالعراق، وتحديد معالمه، وتقعيد قواعده، فقد أسهموا بحظ وافر ونصيب كبير في البناء الفقهي والأصولي للمدرسة المالكية العراقية، وتبوأ المذهب المالكي في عهدهم مكانة أسمى وأعلى من ذي قبل، فامتد سلطانه، وازداد نفوذه قوة، وعلا شأن فقهائه، وأصبحوا يتمتعون بصلاحيات واسعة، فإليهم تسند مناصب عليا في البلاد، كمنصب قاضي القضاة مثلا، ولا يقدر أحد على رد ما يحكمون به والمصير إلى خلاف ما يقضون به[٣] .

---

(١) انظر ترتيب المدارك : ٤/ ١٥٠، ١٥١، ١٥٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٢/ ٤٧٦-٤٧٩ ؛ شجرة النور الزكية، ص : ٦٥ .

(٢) انظر ترتيب المدارك : ٤/ ١٥٤ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٤/ ٢٧٦، ٢٧٧ ؛ الديباج المذهب : ١/ ٢٨٢، ٢٨٣ ؛ شجرة النور الزكية، ص :٦٥ .

ومن أبرز الفقهاء المنحدرين من هذه الأسرة العلمية الشهيرة :

القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد :

الإمام العلامة الموسوعي النحرير، المعروف بالإتقان والتحرير، الفقيه المالكي المجتهد المبرز .

قال أبو إسحاق الشيرازي : « كان – إسماعيل – جمع القرآن وعلم القرآن، والحديث وآثار العلماء، والفقه، والكلام، والمعرفة بعلم اللسان، وكان من نظراء المبرد في علم كتاب سيبويه، وكان المبرد يقول :« لولا اشتغاله برئاسة الفقه والقضاء، لذهب برئاستنا في النحو والأدب » (١) .

تتلمذ القاضي إسماعيل على نخبة من الأئمة الكبار الفطاحل، منهم : علي بن المديني، وأبو الوليد الطيالسي، وأبو بكر ابن أبي شيبة، وأبو مصعب الزهري، والقعنبي، وإسماعيل بن أبي أويس، وغيرهم كثير ... وتفقه بجماعة، منهم : ابن المعذل العلم الفذ الذي كان القاضي إسماعيل يرى نفسه محظوظاً بالتفقه عليه ويفتخر بذلك، فقد حكي عنه أنه كان يقول :« أفخر على الناس برجلين بالبصرة : أحمد بن المعذل يعلمني الفقه، وعلي بن المديني يعلمني الحديث » (٢) .

وحظي بالتتلمذ على الإمام إسماعيل القاضي جم غفير من طلبة العلم الذين أدركوا شأوه ومكانته العلمية السامقة، فقصدوه من جهات متعددة، لينهلوا من معينه العذب، وليرتووا من علومه الغزيرة الناضجة، ومن هؤلاء : موسى بن هارون الحافظ، وعبد الله بن حنبل، وأبو القاسم البغوي، وابن الأنباري، وأبو سهل ابن زياد، والنسائي، وابن المنتاب، وأبو بشر الدولابي، وأبو عبد الله التركاني، والفريابي، وقاسم بن أصبغ الأندلسي، وخلق كثير (٣) .

---

(١) طبقات الفقهاء ، للشيرازي ، ص : ١٦٦ ، ١٦٧ ، وانظر الديباج المذهب : ١/ ٢٨٥ .

(٢) طبقات الفقهاء ، ص : ١٦٦ ، وانظر ترتيب المدارك : ٤/ ٢٧٩ .

(٣) انظر ترتيب المدارك : ٤/ ٢٧٨ ؛ التقييد ، للحافظ أبي بكر ابن نقطة البغدادي ، ص : ٢٠١ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٣٣٩ ؛ الديباج المذهب : ١/ ٢٨٤ .

وقد اجتمع لمترجمنا من العلم والمعرفة والفضل ما تفرق في أسلافه من مالكية العراق، فقد كان علماً فذاً متميزاً نابغة، انفرد بالإمامة في وقته، وفاق أهل عصره في كثير من العلوم، وفي مقدمتها : علم الفقه، الذي أحرز دقائقه، وملك ناصيته، وقنص شوارده، وأبرز حقائقه، وكان فيه الإمام الفحل الذي لا يناضل ولا ينازع . وقد شهد له أئمة عصره ومن تلاهم بالتفوق والنبوغ وبلوغ أقصى مدارك العلم، فنصبوا رتبته على رؤوس الأعلام، ومنحوه من الأوصاف والألقاب ما لم يوصف به أحد من معاصريه، فهو "شيخ الإسلام" كما وصفه الذهبي، و« شيخ المالكية في وقته »، و« إمام تام الإمامة يقتدى به » على حد تعبير أبي محمد بن أبي زيد، وهو« من علماء الدنيا وسادة القضاة وعقلائهم » كما قال أبو طالب المالكي . وحكي عن مترجمنا قوله :« دخلت يوما على يحيى بن أكثم، وعنده قوم يتناظرون في الفقه وهم يقولون : قال أهل المدينة، فلما رآني مقبلا قال : قد جاءت المدينة » . وقال نصر بن علي الجهضمي :« ليس في آل حماد بن زيد أفضل من إسماعيل بن إسحاق »[١] . وناهيك بأمثال هؤلاء الأئمة الأعلام الفضلاء ثقاة شهوداً عدولاً .

هذا، وقدم الشيخ إسماعيل القاضي للمذهب المالكي في العراق خدمات جليلة، فمكث برهة طويلة يبسطه ويشرحه ويلخصه، ويحتج له، ويحدد معالمه، ويظهر محاسنه ومزاياه وخصائصه، ويدعو إليه ويرغب فيه[٢]، وينشر منه ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، حتى اعتبره بعض أهل العلم المؤسس الأول للفرع المالكي بالعراق[٣]، وقد عقبنا على هذا الرأي سلفا[٤]، وبينا ما فيه من المبالغة، وأوردنا أسماء بعض أسلاف القاضي إسماعيل من كبار مالكية العراق الذين كان لهم أثر واضح في التأسيس للمدرسة المالكية العراقية، وفي مقدمة هؤلاء : بعض شيوخ إسماعيل القاضي، كابن مهدي العنبري، وأحمد

---

(١) انظر تاريخ بغداد : ٦/ ٢٨٦ ؛ ترتيب المدارك : ٤ / ٢٨١ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٣ / ٣٣٠ ؛ الديباج المذهب : ١/ ٢٨٥ ، ٢٨٨ .

(٢) قال أبو حاتم القاضي الحنفي :« لبث إسماعيل أربعين سنة يميت ذكر أبي حنيفة من العراق » . (ترتيب المدارك : ٤/ ٢٨٠) .

(٣) انظر الفهرست ، لابن النديم ، ص : ٢٨٢ ؛ تاريخ بغداد :٦/ ٢٨٤ ، ٢٨٥ ؛ ترتيب المدارك : ٤ / ٢٨٠، ٢٨١ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٣٤٠ .

(٤) راجع ص : ١٩ .

بن المعذل، وغيرهم . فمما لا مرية فيه أن هؤلاء الأعلام قد أسهموا في وضع الحجر الأساسي لبناء المدرسة المالكية العراقية، ثم جاء إسماعيل القاضي ليرسخ جذور هذه المدرسة، ويوطد دعائمها، ويعلي شأنها، ويرفع لواءها، ويبوأها المكانة السامية اللائقة بها، وكانت جهوده ومساعيه في خدمة المذهب – بلا شك – أكثر ظهورا، وأقوى تأثيرا، لما حباه الله به من علم غزير، وفقه دقيق، ومعرفة موسوعية مستنيرة، فلم تعرف العراق نظيرا له من قبل . فهذا أبو الوليد الباجي يذكر من جمع فقه مالك وبلغ درجة الاجتهاد من أصحابه فيقول :« ولم تحصل هذه الدرجة بعد مالك إلا لإسماعيل القاضي »(١) .

وقد خلف هذا الإمام الجهبذ والفقيه الألمعي آثارا علمية جليلة القدر، غزيرة الفائدة، عظيمة النفع، شاهدة على نبوغه، واتساع معارفه ومداركه، وعلو كعبه، وطول باعه، ورسوخ قدمه في مختلف مجالات المعرفة الإسلامية، وخاصة في ميدان الفقه الذي كان يتسابق أهل زمانه في حلبة رهانه، فكان هو الإمام المتضلع فيه، المتألق فيه، الماسك بزمامه، والآخذ بناصيته، والمتمكن من حل مشكلاته المستعصية – كما سلف –، فقد بلغ غاية معارفه ونهاية مدارجه، حتى عد الإمام القطب الذي تدور حوله رحى الفقه .

ووصف القاضي عياض عليه رحمة الله تآليف هذا الإمام المقتدر بأنها « كثيرة ومفيدة، أصول في فنونها » (٢) . ونسرد منها ما يلي :

– « المبسوط »، ويسميه البعض« المبسوطة »، وهو من أهم مصادر الفقه المالكي وأعظمها قدرا وأرفعها شأنا، ويعتبر أحد الدواوين الفقهية السبعة المشهورة المعتمدة في المذهب، وهي – إضافة إلى المبسوط : المدونة، والموازية، والعتبية، والواضحة، والمختلطة، والمجموعة . ومن خلال هذا المصدر الفقهي الجليل وغيره عرفت طريقة المالكية البغداديين في الفقه والتأليف .

مختصر المبسوط . الرد على أبي حنيفة . الرد على الشافعي في مسألة الخمس وغيرها . الرد على محمد بن الحسن الشيباني، في مائتي جزء ولم يتمه . كتاب الفرائض . كتاب الأموال . كتاب الأصول .

---

(١) انظر الديباج المذهب : ١/٢٨٦ .
(٢) ترتيب المدارك : ٤/٢٩٢ .

«أحكام القرآن»، وهو كتاب كبير الحجم، لم يسبقه أحد من أصحابه إلى مثله، كما ذكر الخطيب البغدادي في«تاريخه» . -«معاني القرآن»، وهو كتاب كبير في خمسة وعشرين جزءا [١] . «الاحتجاج بالقرآن» في مجلدين . «القراءات» . «إعراب القرآن» المسند . زيادات الجامع على الموطأ، في أربعة أجزاء . شواهد الموطأ، في عشرة مجلدات، وذكر أنه في خمسمائة مجلد . حديث أبي هريرة . حديث مالك بن أنس حديث أيوب السختياني حديث أم زرع حديث ثابت البناني حديث يحيى بن سعيد الأنصاري. . .[٢] .

أبو إسماعيل حماد بن إسحاق، أخو القاضي إسماعيل :

كان ثقة، حسن القيام بمذهب مالك والاعتلال له . سمع من شيوخ أخيه، من أمثال : القعنبي وإسماعيل بن أويس وأبي مصعب الزهري وغيرهم، وتفقه هو أيضا بابن المعذل . روى عنه ابنه إبراهيم بن حماد، والقاضي الحسين بن إسماعيل المحاملي، وأبو بكر الخرائطي، وغيرهم . ترك مصنفات كثيرة في مختلف فنون الشريعة، منها : كتاب المهادنة، وكتاب الرد على الشافعي . ولي قضاء بغداد، وكانت له مكانة جليلة عند بني العباس . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٦٧هـ[٣] .

---

(١) وهذا الكتاب كان ابتداه أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة : ٢٢٤هـ، وبلغ فيه إلى«الحج» أو«الأنبياء» ، ثم تركه ولم يكمله ؛ وذلك أن الإمام أحمد بن حنبل كان قد كتب إليه :«بلغني أنك تؤلف كتابا في القراءات ، أقمت فيه الفراء وأبا عبيدة أئمة يحتج بهم في معاني القرآن ، فلا تفعل» ، فأخذه إسماعيل ، وزاد فيه زيادات ، وانتهى حيث انتهى أبو عبيد . (انظر ترتيب المدارك : ٤/ ٢٩٢ ؛ الديباج المذهب : ١/ ٢٨٩) .

(٢) انظر الفهرست ، لابن النديم ، ص : ٢٨٢ ؛ الإرشاد في معرفة علماء الحديث ، لأبي يعلى القزويني : ٥٠١/٢ ؛ التمهيد : ١/ ٣٤٤ ، ٢/ ٥٠ ، ٢٠/ ٢٦٦ ؛ تاريخ بغداد : ٦/ ٢٨٦ ؛ ترتيب المدارك : ٤/ ٢٩١، ٢٩٢؛ سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٣٤٠ ؛ الديباج المذهب : ١/ ٢٨٩ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٦٥ ؛ القاضي إسماعيل المالكي وفقهه ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية ، من إعداد الطالب : مصطفى هاشمي ، إشراف أستاذنا الدكتور : فاروق حمادة ، ص ، ٦٤-٦٦ .

(٣) انظر تاريخ بغداد : ٨/ ١٥٩ ؛ ترتيب المدارك : ٤/ ٢٩٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٣/ ١٦ .

محمد بن حماد بن إسحاق :

حدث عن سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت المديني، وروى عنه أخوه إبراهيم بن حماد . قال القاضي وكيع :« كان شاباً عفيفاً سرياً، قد كتب علماً كثيراً وفهم » . ولاه الموفق بالله قضاء البصرة وكَوْرة دجلة . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٧٦هـ[١] .

أبو محمد يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد :

العالم الفقيه، المحدث الثقة . غلب عليه علم الحديث، وكان مسندا فاضلا، وكان أكثر تفقهه مع ابن عمه إسماعيل القاضي . سمع مسلم بن إبراهيم، وسليمان بن حرب، ومحمد بن كثير، وغيرهم . وأخذ عنه جماعة، منهم : ابنه القاضي أبو عمر، وأبو عمرو بن السماك، وابن قانع، وغيرهم . ألف كتباً في الصيام، والزكاة، والدعاء، وفي فضائل أزواج النبي ﷺ . وكان ذا جلالة وقدر عظيم ببغداد، وكان أول ما ولي بها الحسبة سنة : ٢٧١هـ، ثم ولي قضاء البصرة سنة : ٢٧٦هـ، وضم إليها قضاء واسط والجانب الشرقي، كما ولي المظالم سنة : ٢٧٧هـ . وكان شديداً في حكمه وقضائه، مستقيم السيرة، محمود الطريقة . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٩٧هـ[٢]

الطبقة الخامسة :

وتتكون في معظمها من أصحاب القاضي إسماعيل الذين أخذوا عنه فقه مالك وحديثه، وانتقلت إليهم رئاسة المذهب بعده، وأغلبهم من آل حماد بن زيد، فمنهم :

أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأسدي :

الإمام العلامة الفاضل، الفقيه المبرز، المحدث الثقة، قاضي القضاة، سمع جده يعقوب ابن إسماعيل، وأحمد بن منصور الرمادي، ومحمد بن إسحاق الصنعاني، وغيرهم، وتفقه بابن عم أبيه القاضي إسماعيل بن إسحاق . روى عنه جماعة، منهم : أبو الحسن الدارقطني،

---

(١) انظر تاريخ بغداد : ٢/ ٢٧٢ ؛ ترتيب المدارك : ٤/ ٢٩٥ .

(٢) انظر تاريخ بغداد : ١٤/ ٣١٠ ؛ ترتيب المدارك : ٤/ ٢٩٥-٢٩٩ ؛ التقييد ، لأبي بكر ابن نقطة ، ص: ٤٩١ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٦٦ .

وأبو القاسم بن حبابة، وأبو بكر الأبهري وبه تفقه . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٢٠هـ[١].

أبو يعلى الحسين بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد :

كان فقيها عالما من أصحاب القاضي إسماعيل، وبنوه من آل حماد يعرفون ببني آل يعلى . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٠٦هـ[٢] .

أبو عبد الله أحمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد :

صحب إسماعيل القاضي وبه تفقه . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٢٩٩هـ

ابنه أبو أحمد عبد الله بن أحمد بن يوسف بن يعقوب :

تفقه أيضا بإسماعيل القاضي . وتوفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٠١هـ[٣] .

أبو إسحاق إبراهيم بن حماد بن إسحاق :

تفقه بعمه إسماعيل القاضي، وروى كتبه، كما روى عن أبيه حماد، ومحمد بن يحيى الخشني، وجعفر الفريابي، وأبي داود السجستاني، وغيرهم . وروى عنه أبو بكر الأبهري، وأبو الحسن الدارقطني، وأبو إسحاق الدينوري، والقاضي التستري، وغيرهم . ألف« اتفاق الحسن ومالك» . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٢٣هـ، وقيل : سنة : ٣٢٩هـ[٤] .

وهؤلاء الأعلام المذكورون من هذه الطبقة كلهم من آل حماد، أما بقية أعلام هذه الطبقة من غير آل حماد، فمنهم :

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سهل البرنكاني – ويقال : (البركاني – البصري) :

كان من كبار أهل الفقه والسنن من هذه الطبقة . روى عن أحمد بن عبيدة، وأبي حاتم وأبي زرعة الرازيين، ومحمد بن أحمد بن المعذل، وغيرهم، كما صحب إسماعيل

---

(١) انظر تاريخ بغداد : ٣/١٥٠-٤٠٥ ؛ طبقات الفقهاء، ص : ١٦٧ ؛ ترتيب المدارك : ٥/٢ ،٣، ٦,٥، ١٢.

(٢) انظر ترتيب المدارك : ٥/١٢ ، ١٣ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٧٨ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٥/١٣ .

(٤) انظر المصدر نفسه : ٥/١٣-١٥ .

القاضي وسمع منه، وبه تفقه . روى عنه القشيري والتستري وبه تفقها . ألف كتاباً في فضائل مالك، وكتابا فيما سئل عنه القاضي إسماعيل . ولي القضاء بفارس والبصرة . وتوفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٠٩هـ(١) .

أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن بكير، البغدادي، التميمي :

الإمام العالم، الفقيه الفاضل . روى عن إسماعيل القاضي وبه تفقه، وهو من كبار أصحابه الفقهاء . وروى عنه ابن الجهم، والقشيري، وأبو الفرج . له كتاب في مسائل الخلاف، وكتاب في أحكام القرآن، وكتاب في الرضاع . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٠٥هـ(٢) .

أخوه أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن بكير :

تفقه هو أيضاً بإسماعيل القاضي وعد في الفقهاء من أصحابه . روى عنه الدارقطني وأبوجعفر الكناني وعمر بن أحمد بن هارون . وتوفي رحمه الله تعالى بعد سنة ٣٣٣هـ(٣)

أبو يعقوب إسحاق بن أحمد بن عبد الله الرازي :

العالم الزاهد، الفقيه القاضي، من كبار أصحاب إسماعيل بن إسحاق(٤) .

أبو خشنان محمد بن إبراهيم بن هشام البصري :

سمع أبا داود السجستاني وأبا حفص الغلاس وطبقتهم، وتفقه بإسماعيل القاضي . روى عنه التستري والقشيري وغيرهما(٥) .

أبو محمد عبد الرحمن بن محمد المعروف بالعوفي :

من أصحاب القاضي إسماعيل . روى عن أبيه وأبي بكر الفريابي وإبراهيم بن شريك وغيرهم . وحدث عنه أبو القاسم الطوسي وأبو الحسن الحربي وغيرهما . توفي رحمه الله تعالى سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة(٦) .

---

(١) انظر المصدر نفسه : ٥/١٥، ١٦ ؛ مولد العلماء ووفياتهم ، لابن الربعي : ٢/٦٣٩ ؛ الديباج المذهب : ٢/١٨٣، ١٨٤ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٧٨ .

(٢) انظر ترتيب المدارك : ٥/١٦، ١٧ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٧٨ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٥/١٧ .

(٤) انظر طبقات الفقهاء ، للشيرازي ، ص : ١٦٧ ؛ ترتيب المدارك : ٥/١٧ ، ١٨ .

(٥) انظر ترتيب المدارك : ٥/١٨ .

(٦) انظر المصدر نفسه : ٥/١٩ .

أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الجهم، المعروف بابن الوراق، المروزي :

كان إماماً فاضلاً، صاحب حديث وسماع وفقه، وكان أيضا قاضيا عادلا . سمع من إسماعيل القاضي وتفقه معه، وروى عن إبراهيم بن حماد ومحمد بن عبدوس وإبراهيم الحربي وغيرهم . روى عنه أبو بكر الأبهري وأبو إسحاق الدينوري وجماعة . له مصنفات جليلة حسان على مذهب مالك، منها : كتاب «مسائل الخلاف الحجة لمذهب مالك»، و«الرد على محمد بن الحسن»، و«شرح لمختصر ابن عبد الحكم الصغير»، وغير ذلك من الآثار العلمية النافعة . توفي رحمه الله تعالى سنة ٣٣٣ : هـ، وقيل : سنة ٣٢٩هـ[١] .

أبو الطيب محمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه، التميمي، ثم الحنظلي : حفيد الإمام الشهير إسحاق بن راهويه . كان من مشاهير أئمة الفقه المالكي بالعراق . تفقه بإسماعيل القاضي . وذكره أبو القاسم الشافعي، وعده في فقهاء من لقيه من أصحاب مالك وحذاقهم ونظارهم وأئمة مذهبهم . حدث عنه عبيد الله الشافعي المعروف بعبيد، وأبو مروان السعدي القرطبي، وغيرهما . ولي قضاء الرملة، وتوفي بها سنة : ٣٣٦هـ[٢].

أبو الفرج عمر بن محمد بن عمرو الليثي :

أصله من البصرة، ونشأ ببغداد، وصحب ثلة من أئمة المالكية بها، وفي مقدمتهم : القاضي إسماعيل بن إسحاق، وبه تفقه . ويقال : إنه كان من كُتَّابه . روى عنه أبو بكر الأبهري، وأبو علي ابن السكن، وأبو القاسم عبيد الشافعي، وغيرهم .. وله كتاب معروف بـ«الحاوي» في مذهب مالك رحمه الله، وكتاب«اللمع في أصول الفقه». ولي قضاء طرطوس، وأنطاكية، والمصيصية، والكرخ ببغداد، وغيرها . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٣٠هـ وقيل : ٣٣١هـ[٣] .

أبو المثنى أحمد بن يعقوب بن أبي الربيع الحشمي :

كان من أهل العلم والفضل . قال الصولي :«هو أول قاض قتل في الإسلام صبرا»، وكان قتله على يد المقتدر العباسي في فتنة عبد الله بن المعتز سنة : ٢٩٦هـ[٤] .

---

(١) انظر المصدر نفسه : ٥/١٩، ٢٠ ؛ شجرة النور الزكية، ص : ٧٨، ٧٩ .

(٢) انظر تاريخ بغداد : ٣/٢١٥ ؛ ترتيب المدارك : ٥/٢٠، ٢١ .

(٣) انظر طبقات الفقهاء، للشيرازي، ص : ١٦٧ ؛ ترتيب المدارك : ٥/٢٢، ٢٣ .

(٤) انظر ترتيب المدارك : ٥/٢٣، ٢٤ .

أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري :

زعيم الطائفة الأشعرية . كان إماماً جليلاً، متكلماً، نظاراً، قائماً بنصرة مذهب أهل السنة، وقد صنف في ذلك تصانيف كثيرة ومهمة، منها :«الموجز»، و«اللمع الكبير والصغير»، و«الشرح والتفصيل»، و«إيضاح البرهان»، و«الرد على الفلاسفة»، و«الرد على الدهريين»، و«الرد على المنجمين»، و«مقالات الإسلاميين»، و«الإبانة في أصول الديانة»، وغير ذلك مما هو كثير . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٤٣٤هـ[١] .

أبو بكر الشبلي[٢] :

شيخ الصوفية في عصره، وصاحب الأنباء العجيبة والآثار الغريبة، أصله خراساني، ونشأ ببغداد . قال أبو عبد الرحمن السلمي :«كان عالما فقيها على مذهب مالك، وكتب الحديث الكثير» . أخذ عن محمد بن مهدي البصري، والقاضي إسماعيل، وغيرهما . وروى عنه أبو بكر الرازي، وأبو بكر الابهري، وجماعة . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٣٤هـ[٣]

أبو العباس أحمد بن محمد الطيالسي :

من كبار أئمة المالكيين ببغداد . أخذ عنه أبو الفرج البغدادي، وعده أبو القاسم عبيد الشافعي وابن حارث في أصحاب إسماعيل القاضي، وذكره أبو بكر الأبهري في كتابه، ونقل مسألته في عقد نكاح يوم الجمعة بعد الأذان، وذكر أنه ممن أدركه[٤] .

أبو العباس محمد بن أحمد بن الحسين بن بابونة الحنائي :

من مشاهير أصحاب إسماعيل القاضي من البغداديين، وروى عنه المبسوط[٥] .

---

(١) انظر ترتيب المدارك : ٥/ ٢٤، ٢٧، ٣٠ ؛ الديباج المذهب : ٢/ ٩٤-٩٦ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٧٩

(٢) اختلف في اسمه ، فقيل : دلف بن جحذر . وقيل : دلف بن جعفر . وقيل : جعفر بن يونس . وقيل غير ذلك . (انظر ترتيب المدارك : ٥/ ٣٠، ٣١)

(٣) انظر ترتيب المدارك : ٥/ ٣٠، ٣١، ٤٧ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٧٩ .

(٤) انظر ترتيب المدارك : ٥/ ٤٩ ؛ الديباج المذهب : ١/ ١٥٢ .

(٥) انظر ترتيب المدارك : ٥/ ٤٩ .

الطبقة السادسة :

وهي مكونة من أئمة أعلام نقلوا فقه مالك وحديثه عن رجالات الطبقة السابقة، ومعظمهم من فقهاء وقضاة ينتمون إلى بيت آل حماد بن زيد، فمنهم :

أبو الحسين عمر بن قاضي القضاة محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد :

الإمام العلامة، الفقيه المبرز، الحاذق بالمذهب، والآخذ من كل علم بالنصيب الأوفر .

تفقه بأبيه وبكبار أصحاب عمه إسماعيل القاضي الذي لم يدركه . وأخذ عنه جماعة، منهم : أبو بكر الأبهري وبه وبأبيه تفقه . له كتاب في« الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة »، وكتاب آخر سماه :« الفرج بعد الشدة ». خلف أباه في قضائه وهو صغير السن، ولم يعرف قاض في سنه . ولي منصب قاضي القضاة سنة : ٣٢٥ هـ . واخترمته المنية قبل استيفاء أمد أقرانه وطبقته، إذ توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٢٨ هـ وسنه تسع وثلاثون سنة (١) .

ابناه أبو نصر يوسف وأبو محمد الحسين :

كان أبو نصر متوسطا في علمه بالفقه، لكنه كان بارعا في الأدب، واسع العلم باللغة والشعر، حاذقا بصناعة القضاء . وقد جعل له الراضي قضاء القضاة ببغداد إلى المدائن . ويقال : إنه آخر من ولي القضاء ببغداد من ولد حماد بن زيد . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٥٦هـ .

أما أخوه أبو محمد، فقد جعل له الراضي قضاء ما بين المدائن إلى البصرة، ثم قلد مدينة المنصور سنة : ٣٢٩هـ، وفي هذه السنة عزلا جميعا عن القضاء ببغداد (٢) .

أبو بكر هارون بن إبراهيم بن حماد بن إسحاق بن إسماعيل :

ذكره ابن حارث فيمن تفقه بإسماعيل القاضي . ولي قضاء مصر سنة : ٣١٣هـ وهو ببغداد . وتوفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٢٨هـ(٣) .

---

(١) انظر طبقات الفقهاء، للشيرازي، ص : ١٦٨ ؛ ترتيب المدارك : ٥/٢٥٦-٢٦٠ ؛ شجرة النور الزكية، ص : ٧٨ .

(٢) انظر طبقات الفقهاء، للشيرازي، ص : ١٦٨ ؛ ترتيب المدارك : ٥/٢٦١-٢٦٣ .

(٣) انظر ترتيب المدارك : ٥/٢٦٣، ٢٦٤ .

أخوه أبو عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد بن إسحاق بن إسماعيل :

روى عن أبيه وأبي جعفر الطحاوي وغيرهما . وأخذ عنه أبو محمد بن أبي زيد . خلف أخاه على قضاء مصر ثم عزل . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٢٩هـ(١) .

أبو الحسين عبد الصمد بن الحسين بن يوسف بن يعقوب :

سمع من عمه القاضي أبي عمر، وذكر أنه سمع من إسماعيل بن إسحاق (٢) .

أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله الذهلي، البغدادي :

من بيوتات العلم ببغداد وذوي الأقدار بها . كان فقيهاً بمذهب مالك، مسنداً في الحديث، ثبتاً ثقة، أديباً كاملاً . سمع من بشر بن موسى، وأبي أحمد ابن عبدوس، وموسى ابن هارون، وأبي بكر الفريابي، وجعفر بن يحيى العطار، والقاضي أبي عمر الحمادي، وجماعة . وسمع منه : أبو الحسن الدارقطني، وعبد الغني بن سعيد وانتخب له أجزاء من حديثه، وأبو القاسم الجوهري، وغيرهم . له كتاب في الفقه أجاب فيه عن مسائل مختصر المزني على قول مالك، واختصر تفسير الجياني وتفسير البلخي . ولي قضاء بغداد ثم دمشق ومصر . وتوفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٦٧هـ(٣) .

أبو عبد الله محمد بن أحمد التستري :

الإمام الفقيه الجامع، العالم بمذهب مالك، الراوية الملازم للسنة . أخذ عن إبراهيم بن حماد، والبركاني، وغيرهما من أئمة المالكيين، وسمع من أبيه، وأحمد بن علي بن الحسن، وغيرهما . حدث عنه ابنه، وجعفر بن نصر الخلدي . له كتاب في فضائل المدينة والحجة بها، وكتاب في مناقب مالك في عشرين جزءاً . ولي قضاء البصرة سنين . وتوفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٤٥هـ(٤) .

- أبو الفضل بكر بن محمد بن العلاء بن محمد بن زياد القشيري، البصري ثم المصري :

أحد كبار فقهاء المالكية، وكان أيضاً راوية للحديث عالماً به . ذكره الشيرازي وأبو عمر الطلمنكي في أصحاب القاضي إسماعيل . سمع من أبي عمر وإبراهيم الحماديين،

---

(١) انظر المصدر نفسه : ٥/٢٦٤و٢٦٥ .

(٢) انظر المصدر نفسه : ٥/٢٦٦ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٥/٢٦٦-٢٦٨ ؛ الديباج المذهب : ٢/٣٠٥-٣٠٧ .

(٤) انظر المصدر نفسه : ٥/٢٦٨-٢٧٠ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٧٩ ، ٨٠ .

وجعفر بن محمد الفريابي، وابن خنشام، والبركاني، وغيرهم من أئمة الفقه والحديث . وحدث عنه جم غفير من أهل المشرق والمغرب كابن عراك، وابن مفرج، وابن عيشون، ونظرائهم . ألف كتبا جليلة، منها : كتاب الأحكام المختصرة من كتاب إسماعيل بن إسحاق بزيادة عليه، وكتاب أصول الفقه، وكتاب القياس، وكتاب في مسائل الخلاف، ورسالة إلى من جهل محل مالك في العلم، وكتاب مآخذ الأصول، وكتاب الرد على الشافعي في وجوب الصلاة على النبي ﷺ، وكتاب الرد على المزني، وكتاب الرد على القدرية، وكتاب ما في القرآن من دليل النبوة، وغير ذلك ... توفي رحمه الله تعالى بمصر سنة : ٣٤٤هـ(١)

أبو علي محمد بن سليمان بن علي المالكي، البصري :

روى عن زيد بن أخزم، وأبي حفص الفلاس، وبندار، وغيرهم . وحدث عنه الدارقطني، وسمع عنه بالبصرة أبو محمد بن إسماعيل . ولي القضاء بالبصرة (٢) .

أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم الدينوري، البغدادي :

سمع من أبيه، وكان يحفظ كتبه عن ظهر قلب، حفظه إياها أبوه في اللوح، وعدتها واحد وعشرون مصنفا في مختلف الفنون . وسمع منه خلق عظيم بالعراق ومصر، منهم : أحمد بن ولاد، وأبو جعفر النحاس، وأبو علي القالي، وغيرهم من جلة أهل الفقه والرواية والأدب . ولي قضاء مصر سنة : ٣٢١هـ، وتوفي بها سنة : ٣٢٢هـ(٣) .

الطبقة السابعة :

وتتكون من أئمة أعلام أفذاذ، حملوا لواء المذهب، وانتقلت إليهم رئاسته على مختلف المستويات، ويأتي في طليعتهم :

أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري، التميمي :

إمام المالكية في عصره، جمع بين القراءات وعلو الإسناد، والفقه الجيد، كما قال الشيرازي . وكان معظما عند سائر علماء زمانه، لا يشهد محضراً إلا كان المقدم فيه .

---

(١) انظر المصدر نفسه : ٥/ ٢٧٠-٢٧٢ ؛ الديباج المذهب : ١/٣١٣-٣١٥ .

(٢) انظر المصدر نفسه : ٥/ ٢٧٢ .

(٣) انظر ترتيب المدارك : ٥/ ٢٧٣ .

ووصفه ابن مفرج العنسي بأنه« القائم برأي مالك بالعراق في وقته ». تفقه ببغداد على القاضي أبي عمر وابنه أبي الحسين، وأخذ أيضاً عن القاضي أبي الفرج، وابن المنتاب، وغيرهم من الأئمة الأجلاء . وأخذ عنه جماعة، منهم : أبو بكر بن الجهم، وابن داسة، والبغوي، وأبو زيد المروزي ... ونقل عن مترجمنا قوله : كتبت بخطي (المبسوط)، و(الأحكام) لإسماعيل، وأسمعة ابن القاسم وأشهب وابن وهب، وموطأ مالك، وموطأ ابن وهب، ومن كتب الفقه والحديث نحو ثلاثة آلاف جزء بخطي، ولم يكن لي قط شغل إلا العلم، ولي في هذا الجامع – يعني جامع المنصور ببغداد – ستون سنة أدرس الناس وأفتيهم وأعلمهم سنن نبيهم ﷺ » . وحكى بعضهم عنه أنه قرأ مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة، والأسدية خمساً وسبعين مرة، والموطأ خمسا وأربعين مرة، ومختصر البرقي سبعين مرة، والمبسوط ثلاثين مرة . وحدث عنه إبراهيم بن مخلد، وابنه إسحاق، والبرقاني، ومحمد بن المؤمل الأنباري، والدارقطني، والقاضي أبو القاسم التنوخي، وأبو القاسم الوهراني، وخلق كثير . وتفقه عليه جم غفير من الأئمة النجباء من مختلف البقاع والأصقاع، كأبي جعفر الأبهري، وأبي سعيد القزويني، وأبي القاسم ابن الجلاب، والقاضي أبي الحسن ابن القصار، وابن خويزمنداد البصري، وأبي محمد الأصيلي، ونظرائهم . ولم ينجب أحد بالعراق من الأصحاب بعد إسماعيل القاضي ما أنجب أبو بكر الأبهري، فلم يكن لهذين العلمين الكبيرين قرين في المذهب بقطر من الأقطار إلا سحنون بن سعيد في طبقته، ثم أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني . وقيل : إن مترجمنا أبا بكر الأبهري كان أكثر الجميع أصحابا، وأفضلهم أتباعاً، وأنجبهم طلاباً . وقد خلف عليه رحمة الله آثاراً علمية غزيرة قيمة، وتصانيف عديدة نافعة ورائدة في شرح مذهب مالك، والاحتجاج له، والرد على مخالفيه، من ذلك : شرح المختصر الصغير والكبير، لابن عبد الحكم، وكتاب الأصول، وكتاب إجماع أهل المدينة، وكتاب الرد على المزني، ومسألة إثبات حكم القافة، ومسألة الجواب والدلائل والعلل . ومن حديثه : كتاب« العوالي »وكتاب« الأمالي »... توفي رحمه الله تعالى ببغداد سنة : ٣٧٥هـ، وقيل سنة : ٣٩٥هـ[١] .

---

(١) انظر تاريخ بغداد : ٥/٤٦٢ ؛ طبقات الفقهاء ، للشيرازي ، ص : ١٦٨ ، ١٦٩ ؛ ترتيب المدارك : ٦/١٨٣-١٩٢ ؛ الديباج المذهب : ٢/٢٠٦-٢١٠ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٩١ .

ومن رجالات هذه الطبقة أيضاً :

أبو الحسن محمد بن صالح، المعروف بابن أم شيبان :

روى عن السعدي وإبراهيم بن حماد، وحدث عنه أبو عبد الله الحكم، وأبو العباس أحمد بن محمد الكرخي، وأبو القاسم الوهراني، وغيرهم . وعنده كان يجتمع المالكية أصحاب أبي بكر الأبهري ببغداد للنظر . ولي قضاء الكوفة سنة : ٣٣٤ هـ، ثم ولي قضاء القضاة ببغداد. توفي سنة : ٣٦٩هـ(١) .

أبو الحسن علي بن ميسرة، القاضي البغدادي . له كتاب في إجماع أهل المدينة (٢)

أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن مجاهد الطائي، البغدادي :

صاحب أبي الحسن الأشعري . كان إماماً في المذهب المالكي مقدماً فيه، غلب عليه علم الكلام والأصول . أخذ عن القاضي التستري، وسمع أبا زيد المروزي والأصيلي، واستجاز أبا محمد ابن أبي زيد في كتابيه« المختصر »و« النوادر » . وعنه أخذ القاضي أبو بكر الباقلاني، وأبو القاسم ابن عبد المومن المكي المتكلم، وغيرهما . له كتب حسان، منها : كتاب أصول الفقه على مذهب مالك، ورسالته الشهيرة في الاعتقادات على مذهب أهل السنة، وكتاب هداية المستبصر وعدة المستنصر، وتواليف أخرى كثيرة (٣) .

أبو العلاء عبد العزيز بن محمد البصري :

الإمام العلامة الفقيه . قال أبو القاسم الهمداني : جالست بالبصرة أبا العلاء المالكي وذاكرته، وعليه مع ابن عطية كانت تدور الفتيا على مذهب مالك بالبصرة . له كتاب في إثبات القياس، وكتاب في مسائل الخلاف(٤) .

---

(١) انظر تاريخ بغداد : ٥/٣٦٣ ؛ ترتيب المدارك : ٦/١٩٤ ؛ الوافي بالوفيات ، للصفدي : ٣/١٥٦ ؛ الديباج المذهب : ٢/٣١٤ .

(٢) ترتيب المدارك : ٦/١٩٥ ، وانظر الديباج المذهب : ٢/٩٨ .

(٣) انظر تاريخ بغداد : ١/٣٤٣ ؛ ترتيب المدارك : ٦/١٩٦-١٩٩ العبر في خبر من غبر ، للذهبي : ٢/٣٥٨ هدية العارفين : ٢/٩٤ ؛ الديباج المذهب : ٢/٢١٠ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٩٢ .

(٤) انظر ترتيب المدارك : ٦/١٩٩ .

أبو العلاء الحسن بن محمد بن العباس البغدادي :

الإمام الفقيه . له اختصار لكتاب« المبسوط »سماه :« المقتضب من المبسوط »، وكتاب في« الفروق »[١] .

أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهم بن خنشام البصري :

أحد كبار أصحاب إسماعيل القاضي . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٧٧هـ[٢] .

أبو عبد الله محمد بن عطية البصري :

الإمام العلامة، الفقيه الفهامة، الذي كانت تدور عليه وعلى مترجمنا السابق أبي العلاء عبد العزيز الفتيا على مذهب مالك بالبصرة في وقتهما، كما ذكر أبو القاسم الهمداني[٣]

الطبقة الثامنة :

وتتكون من أئمة أعلام نبغاء، انتهت إليهم رئاسة المذهب، وكان لهم أثر كبير وجلي في ترسيخ معالمه وتثبيت أركانه والحفاظ على مكانته بمختلف ربوع العراق، وجلهم من أصحاب أبي بكر الأبهري، منهم :

أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر البصري ثم البغدادي، المعروف بابن الباقلاني: القاضي، الملقب بـ« شيخ السنة » و« لسان الأمة »، إمام المتكلمين على مذهب أهل السنة وطريقة أبي الحسن الأشعري، وعالم عصره، وشيخ المالكيين في وقته . درس« الأصول » على أبي بكر بن مجاهد صاحب أبي الحسن الأشعري، وتفقه بأبي بكر الأبهري، وأخذ عن غيرهما من العلماء الفطاحل الأجلاء . تخرج به أئمة كبار، من أمثال أبي ذر الهروي، وأبي عمران الفاسي، والقاضي أبي محمد عبد الوهاب بن نصر البغدادي . صنف تصانيف كثيرة بديعة في الكلام وغيره، منها :« الإبانة عن إبطال مذهب أهل الكفر والضلالة » « المقدمات في أصول الديانات » « شرح أدب الجدل »-« التمهيد »« شرح اللمع »« الأصول الكبير في

---

(١) انظر المصدر نفسه : ٦/١٩٩ .

(٢) انظر المصدر نفسه : ٦/٢٠٠ ، وغاية النهاية ، لابن الجزري : ١/٥٦٢ .

(٣) انظر المصدر نفسه .

الفقه»«الأصول الصغير»«التقريب والإرشاد»في أصول الفقه «المقنع»في أصول الفقه "أمالي إجماع أهل المدينة» «المسائل» «مختصر التقريب»«مناقب الأئمة» «الانتصار للقرآن» «كتاب إعجاز القرآن»... توفي رحمه الله تعالى سنة : ٤٠٣هـ(١) .

أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد البغدادي، المعروف بـ«ابن القصار»:

الفقيه المالكي الكبير، الأصولي النظار، من كبار تلامذة أبي بكر الأبهري وبه تفقه . قال عنه تلميذه أبو ذر الهروي :«هو أفقه من رأيت من المالكيين»وبه تفقه القاضي عبدالوهاب البغدادي، وابن عمروس، وغيرهما . له كتاب في مسائل الخلاف كبير، لا يعرف للمالكيين كتاب في الخلاف أحسن منه . ولي قضاء بغداد . وتوفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٩٨هـ(٢) .

أبو جفعر محمد بن عبد الله الأبهري :

كان يعرف بـ«الأبهري الصغير» و بـ«ابن الخصاص» . سمع أبا زيد المروزي وغيره، وتفقه بأبي بكر الأبهري، ثم رحل إلى مصر . وتفقه عليه خلق كثير . له كتاب كبير في مسائل الخلاف في نحو مائتي جزء، وكتاب«تعليق المختصر الكبير»مثله، وكتاب في الرد على ابن علية فيما أنكره على مالك . توفي رحمه الله تعالى سنة : ٣٦٥هـ(٣) .

أبو القاسم عبيد الله بن الحسن البصري، المعروف بـ«ابن الجلاب»:

الإمام العلامة، الفقيه الأصولي . تفقه بالقاضي أبي بكر الأبهري، وكان من أحفظ أصحابه وأنبلهم . قال الذهبي :"كان أفقه المالكية في زمانه بعد الأبهري، وما خلف ببغداد

---

(١) انظر تاريخ بغداد : ٥/٣٧٩ ؛ ترتيب المدارك : ٧/٤٤-٤٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٧/١٩٠-١٩٣ ؛ المرقبة العليا ، لأبي الحسن المالقي ، ص : ٣٧-٤٠ ؛ الوافي بالوفيات : ٣/١٧٧ شذرات الذهب : ٣/١٦٨ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) انظر تاريخ بغداد : ١٢/٤١ ؛ طبقات الفقهاء ، للشيرازي ، ص : ١٧٠ ؛ ترتيب المدارك : ٧/٧٠,٧١؛ الديباج المذهب : ٢/١٠٠ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٧/١٠٧ ، ١٠٨ ؛ العبر في خبر من غبر ، للذهبي : ٣/٦٤ ؛ وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، ص : ٣٩٧ ؛ الفكر السامي : ٢/١١٩ .

(٣) انظر طبقات الفقهاء ، للشيرازي ، ص: ١٦٩ ؛ ترتيب المدارك : ٧/٧٢ ؛ حسن المحاضرة ، للسيوطي : ١/١٥٤ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٩١ .

في المذهب مثله». وتفقه به القاضي عبد الوهاب البغدادي وغيره من الأئمة الكبار . له كتاب كبير في مسائل الخلاف، وكتاب «التفريع» في المذهب، مشهور ومعتمد . توفي رحمه الله تعالى منصرفه من الحج في آخر سنة : ٣٧٨هـ(١) .

أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن خويزمنداد (٢):

سمع من ابن داسة، وأبي الحسن المصيصي، وأبي العباس الأصم، وغيرهم، وتفقه بأبي بكر الأبهري . له كتاب كبير في مسائل الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وكتاب في أحكام القرآن . وعنده شواذ عن مالك، وله اختيارات خالف فيها المذهب، من ذلك قوله في أصول الفقه : إن العبيد لا يدخلون في خطاب الأحرار، وإن خبر الواحد يوجب العلم ..

وقوله في بعض المسائل الفقهية حكاية عن مالك في التيمم إنه يرفع الحدث، وإنه لا يعتق على الرجل سوى الآباء والأبناء ... (٣) .

الطبقة التاسعة :

وهي آخر طبقة انتهت إليها رئاسة المذهب المالكي في العراق، وقد استوعبت نخبة من الأئمة الفقهاء النبهاء الذين بذلوا قصارى جهدهم من أجل نصرة المذهب والتمكين له، وضمان ريادته وسيادته واستمرار نفوذه، والإبقاء على مكانته السامية وسلطته العلمية والاجتماعية في مختلف ربوع العراق . ويأتي في طليعة هؤلاء الأعلام :

أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي، القاضي :

الإمام الألمعي، العلامة المتبحر، الفقيه المبرز، الأصولي المكين، النظار المتفنن، الأديب الشاعر . كان نسيج وحده، وفريد وقته، وشيخ المالكيين في عصره، وأحد أبرز رواد المدرسة الفقهية المالكية بالعراق.

---

(١) انظر طبقات الفقهاء، للشيرازي، ص : ١٧٠ ؛ ترتيب المدارك : ٧/٧٦ ؛ الديباج المذهب : ١/٤٦١؛ شجرة النور الزكية، ص : ٩٢ ؛ الفكر السامي : ٢/١١٤ .

(٢) كذا كناه وسماه الشيرازي في «الطبقات»، وتبعه في ذلك ابن فرحون في «الديباج»، وصاحب «الشجرة» . وكناه القاضي عياض بـ«خوازمنداد»، وقال :«رأيت على كتبه تسميته بأبي عبد الله وفي نسبته محمد بن أحمد بن علي بن إسحاق" . وذكر ابن فرحون أنه رأى ذلك أيضا على كتبه بخطه . (انظر طبقات الفقهاء، ص : ١٧٠ ؛ ترتيب المدارك : ٧/٧٧، ٧٨ ؛ الديباج المذهب : ٢/٢٢٩ ؛ شجرة النور الزكية، ص:١٠٣) .

(٣) انظر المواضع السابقة من«الطبقات» و«ترتيب المدارك» و «الديباج» و«الشجرة» .

قال أبو بكر الخطيب :«لم نلق من المالكيين أحداً أفقه منه» . سمع من أبي عبد الله العسكري، وعمر بن محمد بن سُنْبُك، وأبي حفص ابن شاهين، وأبي عمر الهاشمي محدث البصرة، وأبي الحسن ابن الصلت، وأبي سعيد الكرخي، وغيرهم . كما صح سماعه من أبي بكر الأبهري، بل لقد حدث عنه وأجازه، خلافا لما ذهب إليه الشيرازي من أنه لم يسمع منه شيئاً . وتفقه على كبار أصحاب الأبهري من أمثال أبي الحسن ابن القصار، وأبي القاسم ابن الجلاب، ودرس الفقه والأصول والكلام على القاضي أبي بكر الباقلاني . روى عنه عبد الحق بن هارون الفقيه، وأبو بكر الخطيب البغدادي، والقاضي ابن الشماخ الغافقي الأندلسي، وصاحبه أبو القاسم المهدي بن يوسف، وجماعة، وعليه تفقه أبو الفضل محمد ابن عبيد الله بن عمروس، وأبو الفضل مسلم بن علي الدمشقي وغيرهما . ألف في المذهب والخلاف والأصول تآليف كثيرة، بديعة مفيدة، منها : النصرة لمذهب إمام دار الهجرة . - المعونة لدرس مذهب عالم المدينة . - الإشراف على مسائل الخلاف . - التلقين، وشرحه لم يتم . - شرح رسالة بن أبي زيد القيرواني . - شرح المدونة، لم يتم . - الممهد في شرح مختصر الشيخ أبي محمد، صنع منه نحو نصفه . - أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملة . - عيون المسائل في الفقه . - الفروق في مسائل الفقه . - الإفادة في أصول الفقه . - التلخيص في أصول الفقه . - الرد على المزني . . .

ولي القاضي عبد الوهاب قضاء الدينور وبادرايا وباكسايا من أعمال العراق، ثم رحل مضطرا إلى مصر وولي القضاء بها، فذاع صيته، وانثالت في يده الرغائب، لكن إقامته بها لم تتجاوز أشهرا، حتى وافته المنية عليه رحمة الله سنة : ٤٢٢هـ .

واختلف الرأي في سبب خروجه من بغداد ورحيله إلى مصر، فقيل : إن سبب ذلك قصة جرت له لكلام قاله في الشافعي وطرد لأجله، فعجل بالفرار منها خائفا على نفسه، وقد عبر عن شدة لوعته وتحسره على مغادرة موطنه مكرها بأبيات شعرية رائعة، منها قوله :

سلام على بغداد في كل موطـــن	**وحق لها مني ســلام مضاعف**
لعمرك ما فارقتهـــا عن قلى لهـــا	**وإني بشـــطي جانبيها لعارف**
ولكنها ضـــاقت علي برحبـها	**ولم تكن الأرزاق فيها تســاعف**
فكانت كخل كنت أهوى دنـــوه	**وأخلاقه تنأى بـه وتخـــالف**

وقيل : إن ذلك كان بسبب ما كان يعانيه من ضيق الحال وعسر العيش، وما لحقه من إفلاس كبير نتيجة تدهور الحياة الاقتصادية ببغداد، ولعل هذا هو السبب الأقوى والأشد تأثيراً على القاضي عبد الوهاب (١) .

ومما يؤكد ذلك أنه لما خرج من بغداد إلى مصر، تبعه عدد من الفقهاء والأشراف من أهلها وقالوا له : «والله لقد يعز علينا فراقك»، فقال لهم :«والله لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم لبلوغ أمنية، ولقد ترك أبي جملة دنانير ودارا، أنفقتها كلها على صعاليك ممن كان ينهض بالطلب عندي»، فنكس كل واحد منهم رأسه ثم أمرهم بالانصراف فانصرفوا (٢) .

ويجدر التنبيه على أن هذه الطبقة هي آخر طبقة انتهت إليها رئاسة المذهب المالكي في العراق تدريسا وإفتاء وقضاء . فمع رحيل القاضي عبد الوهاب إلى مصر بدأت تظهر عوامل ضعف المدرسة المالكية العراقية، التي أخذت في الانهيار والانقراض بعد ذلك، فخبت أضواؤها، وأفل نجمها في البيئة العراقية، وغابت شمسها التي ظلت ساطعة أكثر من قرنين من الزمن في مختلف ربوع العراق .

يقول القاضي عياض رحمه الله تعالى :« واستقر – أي المذهب المالكي – من بلاد العراق بالبصرة، فغلب عليها بابن مهديّ والقعنبيّ وغيرهما، ثم بأتباعهم من ابن المعذل ويعقوب بن شيبة، وآل حماد بن زيد، إلى أن دخلها بعض الشافعية، فتشارك المذهبان جميعا بها إلى وقتنا هذا، وكان آخر الأئمة بها من المالكيين في زمننا ومرتبة شيوخنا أبا يعلى العبدي، وأبا منصور ابن باخي، وأبا عبد الله بن صالح، فدخل هذا المذهب بغداد وغيرها من بلاد العراق، فانتشر بها مع غيره من المذاهب، ولكنه غلب وفشا أيام قضاء آل حماد بن زيد، وانقطع ببغداد فلم يبق له بها إمام من نحو الخمسين والأربعمائة عند وفاة أبي الفضل ابن عبدوس» (٣) .

---

(١) انظر رسالة (قواعد الفقه المالكي من خلال كتاب«الإشراف على مسائل الخلاف»، للدكتور محمد الروكي، ص : ٣٤ .

(٢) انظر تاريخ بغداد : ١١/ ٣١ ؛ طبقات الفقهاء، للشيرازي، ص : ١٧٠، ١٧١ ؛ البداية والنهاية : ١٢/ ٣١ ؛ ترتيب المدارك : ٧/ ٢٢٠–٢٢٦ ؛ المرقبة العليا، ص : ٤٠–٤٢ ؛ الديباج المذهب : ٢/ ٢٦–٢٩ ؛ شجرة النور الزكية، ص : ١٠٣، ١٠٤ ؛ الفكر السامي : ٢/ ٢٠٤، ٢٠٥ .

(٣) ترتيب المدارك : ١/ ٢٤ ..

المبحث الثالث :خصائص المدرسة المالكية العراقية ومميزاتها

لقد كانت« مدرسة المدينة المنورة » أو« مدرسة الحجاز »هي المدرسة الأم التي تفرعت عنها بقية المدارس المالكية في مختلف البقاع والأصقاع الإسلامية، وكانت تشكل ينبوعا متدفقا انبثقت منه كل روافد المذهب، ومنهلا عذبا استقت منه ونهلت وعلّت كل الاتجاهات الفقهية المالكية، ومعينا صافيا ارتوى منه الجميع . وقد اتسمت كل مدرسة من مدارس الفقه المالكي بسمات خاصة ومُيِّزت بمزايا محددة تفردت بها عن غيرها، سواء على مستوى المصادر المعتمدة، أو على مستوى المنهج الاستدلالي المحتدى وطريقة الاستنباط المتبعة .

ويمكن إبراز أهم خصائص ومميزات المدرسة الفقهية المالكية بالعراق فيما يلي :

أولاً : على مستوى المصادر المعتمدة :

اشتهر كل فرع من فروع المذهب المالكي باعتماد مصادر معينة في التلقين والتدريس والتأليف والتصنيف ... فبينما عرف مالكية القيروان والأندلس وإفريقية بالاعتماد على« المدونة »، و« الواضحة »، و« العتبية »، ومختصرها لابن أبي زيد القيرواني، وملخصها الموسوم بـ « التهذيب » لأبي سعيد البرادعيّ، عرف مالكية العراق بالاعتماد على مختصر عبدالله بن عبد الحكم .

قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة :« وعكف أهل القيروان على« المدونة »، وأهل الأندلس على« الواضحة »و« العتبية » . ثم اختصر ابن أبي زيد« المدونة » و« المختلطة » في كتابه المسمى بـ « المختصر »، ولخصه أيضا أبو سعيد البرادعيّ من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بـ « التهذيب »، فاعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه، وكذا اعتمد أهل الأندلس كتاب« العتبية »، وهجروا« الواضحة » وما سواها » (١) .

وعلى مختصر ابن عبد الحكم كان معول البغداديين في المدارسة والتأليف، فقد نال من الحظوة لديهم ما لم ينله غيره من مظان الفقه المالكي، وكان له عندهم القدر العالي والطيران الحثيث، فأقبلوا عليه إقبالاً شديداً، وعنوا به عناية فائقة . قال أبو القاسم ابن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص : ٤٥٠ .

ناجي :« إن أهل بغداد اعتنوا بمختصر ابن عبد الحكم أكثر من غيره »[١] . ونقل عن أبي بكر الأبهري قوله :« قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة »[٢] . وممن شرحه من مالكية العراق :

أ – أبو بكر الأبهري، شرح المختصرين : الكبير والصغير[٣]، الأول سنة : ٣٢٩ هـ، والثاني سنة : ٣٤٠ هـ .

ب – أبو بكر ابن الجهم، شرح المختصر الصغير، واختصر شرحه هذا أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني في كتابه المسمى :« المنتخب المستقصى » .

ج – ابن باخي البصري ..

وممن علق على مختصر ابن عبد الحكم : أبو جعفر بن الخصاص في نحو مائتي جزء، وهو أبو جعفر الأبهري [٤] .

ويمكن إرجاع أسباب كثرة عناية مالكية العراق بمختصر ابن عبد الحكم واعتمادهم عليه إلى أمرين اثنين، هما :

الأمر الأول : القيمة العلمية لهذا المصدر الفقهي الأصيل، فهو كتاب جليل، شهير المناقب، غزير الفوائد، عظيم النفع، يعد من أمهات كتب الفقه المالكي، جمع فيه صاحبه سماعاته من مالك وبعض كبار أصحابه، كابن القاسم وابن وهب وأشهب، ويحوي ثماني

---

(١) شرح كتاب التفريع ، ورقة : ١٧ . عن مقدمة تحقيق كتاب «التفريع» ، للدهماني ، ص : ٩٤ .

(٢) ترتيب المدارك : ١٨٦/٦ ؛ الديباج المذهب : ٢٠٧/٢ .

(٣) ويحتوي المختصر الصغير على ألف ومائتي مسالة ، وقد قصره ابن عبد الحكم على علم الموطإ . وله أيضا (المختصر الأوسط) ، يحتوي على أربعة آلاف مسالة ، وهو مروي عنه بروايتين ، الأولى : رواية ابنه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذي اشتهرت إمامته في المذهب حتى انتهت إليه رئاسته بمصر بعد أبيه – وإن كان الشيرازي قد عده من أصحاب الشافعي ، ورواية أبي عثمان سعيد بن حسان الصائغ من أهل قرطبة (ت : ٢٣٦هـ) . والثانية : رواية أبي زيد يزيد بن كامل بن حكيم القراطيسي (ت : ٢٨٧هـ) . (انظر ترتيب المدارك : ٣٦٣/٣، ٣٦٥، ٣٦٧ ، ١٥٧/٤، ١٦٠، ١٦٥ ، ١٨٩، ، ١٩٠ ؛ تاريخ علماء الأندلس : ١٩١/١ ؛ جذوة المقتبس، ص : ٢٢٩ ؛ بغية الملتمس، ص : ٣٠٧، ٣٠٨ ؛ دراسات في مصادر الفقه المالكي،٣٠) .

(٤) انظر ترتيب المدارك : ٣٦٦/٣ و ٢٠/٥ ، ١٨٤/٦ ، ٧٢/٧ ؛ الانتقاء في مناقب الثلاثة الأئمة الفقهاء ، لابن عبد البر ، ص : ٣٥ ؛ الديباج المذهب : ١٨٦/٢ ، ٢٠٩ ؛ شجرة النور الزكية ، ص : ٩١ .

عشرة ألف مسألة، ثم اختصر منه كتاباً صغيراً . وعلى الكتابين مع غيرهما كان يعول مالكية بغداد في المدارسة، كما سلف . قال القاضي عياض :« ولابن عبد الحكم سماع من مالك الموطأ ونحو ثلاثة أجزاء . روى عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب كثيراً، وصنف كتاباً اختصر فيه أسمعته، ثم اختصر منه كتابا صغيراً، وعلى هذين الكتابين مع

غيرهما معول المالكيين من البغداديين في المدارسة . . » [١] .

الأمر الثاني : المكانة العلمية السامقة والمتميزة التي كان يتبوأها صاحب الكتاب، فهو إمام جليل ثقة، انتهت إليه رئاسة المذهب بمصر بعد أشهب، وكان "أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، كما شهد بذلك الإمام أبو إسحاق الشيرازي وغيره[٢] . وثقه أبو زرعة وابن حبان وغيرهما[٣]، ووصفه ابن وارة ومحمد بن مسلم وأحمد بن صالح بأنه « شيخ أهل مصر »[٤] . وقال ابن حبان :« وكان – عبد الله بن عبد الحكم – ممن تفقه على مذهب مالك وفرّع على أصوله » [٥] . وقال الحافظ ابن عبد البر :« كان رجلاً صالحاً ثقة، محققاً لمذهب مالك » [٦] . وقال الإمام الحافظ الذهبي :« عبد الله بن عبد الحكم ... الإمام الفقيه، مفتي الديار المصرية »[٧] .

ثانيا : على مستوى المنهج :

ثمة اختلاف وتباين بين مختلف مدارس الفقه المالكي على مستوى المنهج عموما .

يقول الإمام شهاب الدين أحمد المقري محدداً بعض الخصائص المنهجية للمدرسة الفقهية المالكية العراقية في تناول مسائل المدونة :« وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في

---

(١) ترتيب المدارك : ٣ / ٣٦٤ ، وانظر الانتقاء في مناقب الثلاثة الأئمة الفقهاء ، لابن عبد البر ، ص : ٥٣ ؛ دراسات في مصادر الفقه المالكي ، ص : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) انظر طبقات الفقهاء ، ص : ١٥٦ ؛ ترتيب المدارك : ٣ / ٣٦٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٢٢٢ .

(٣)انظر الثقات ، لابن حبان : ٨ / ٣٤٧ ؛ ترتيب المدارك : ٣ / ٣٦٣ ، ٣٦٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٢٢١ .

(٤) انظر ترتيب المدارك : ٣ / ٣٦٣ ؛ سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٢٢٢ .

(٥) الثقات : ٨ / ٣٤٧ ، وانظر سير اعلام النبلاء : ١٠ / ٢٢١ .

(٦) ترتيب المدارك : ٣ / ٣٦٣ .

(٧) سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٢٢٠ .

تدريس المدونة اصطلاحان [١] : اصطلاح عراقي، واصطلاح قروي – نسبة إلى القيروان[٢]، فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب – يعني المدونة – بتصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين . وأما الاصطلاح القروي، فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أوخالفها » [٣] .

ويمكن تحديد أهم معالم ومميزات المنهج العراقي من خلال النص المذكور وغيره فيما يلي :

١- الإكثار من التفصيل والتفريع :

مما يميز منهج العراقيين الإكثار من تفريع المسائل الفقهية، وذلك بانتهاج أسلوب الفقه الفرضي أو التقديري الذي عرف به أهل العراق عموماً، وخاصة الأحناف، والقائم على أساس افتراض حوادث غير واقعية أو محتملة الوقوع والبحث عن حكم شرعي لها[٤] .

قال أحمد أمين في كتابه « فجر الإسلام » :« وكان لمدرسة الرأي ... مميزات واضحة :

١ – كثرة تفريع الفروع حتى الخيالي منها، وقد ألجأ إلى ذلك أولاً كثرة ما يعرف لهم من الحوادث نظرا لمدنيتهم، ثم ساقهم ذلك إلى الجري وراء الفروض، فأكثروا من "أرأيت لو

---

(١) ويقصد بالاصطلاح ما يعبر عنه اليوم بالمنهج .

(٢) ويجدر التنبيه على أن هذا الاصطلاح /المنهج في دراسة المدونة ليس خاصاً بالقرويين ، بل هو أيضاً منهج رواد مدرستي الأندلس ومصر من المالكيين ، وهذه المدارس الثلاث : (مدرسة القيروان ، ومصر ، والأندلس) تعتمد منهجاً واحداً في التدريس والتأليف يقابله منهج العراقيين . وإنما خصص صاحب النص أهل القيروان بالاصطلاح المذكور ؛ لأن الفضل في إخراج المدونة إلى الوجود يرجع إلى بعض أكابر أئمتهم ، وفي مقدمتهم : سحنون الذي تنسب إليه المدونة .

(٣) أزهار الرياض في أخبار عياض : ٣/ ٢٢ .

(٤) انظر مقدمة التفريع : ١/ ١٣٦ .

كان كذا« ؟ فيسألون المسألة ويبدون فيها حكماً، ثم يفرعونها بقولهم : أرأيت لو كان كذا؛ ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة أحياناً» (١) .

أمثلة على إكثار مالكية العراق من التفصيل والتفريع :

أ – قول ابن الجلاب – في بيان حكم من لم يتبين الماء الطاهر من النجس – :« ومن كان معه إناءان، أحدهما طاهر، والآخر وقعت فيه نجاسة لم تغيره، ولم يتبين له الطاهر من النجس، وأشكل ذلك عليه، فالحكم في ذلك : أنه يتوضأ بأيهما شاء ؛ لأن ما لم يتغير من الماء بنجاسة فهو طاهر مطهر . والاختيار أن يتوضأ بكل منهما، ويصلي صلاتين، ويغسل أعضاءه من الإناء الثاني قبل أن يتوضأ به، ثم يتوضأ ويصلي . فإن كان معه ثلاثة أوان، اثنان طاهران وواحد نجس، فإنه يتوضأ باثنين ويترك واحدا . وإن كان معه اثنان نجسان وواحد طاهر، توضأ منها كلها ثلاث مرات، وصلى ثلاث صلوات، وعلى هذا حكم الأواني إذا كثرت » (٢) .

ب – قوله – في حكم من نسي صلاة مفروضة دون تحديدها – :«ومن نسي ظهرا أو عصرا ليومين مختلفين، لا يدري أيتهما قبل الأخرى، ثم ذكر ذلك، صلى ثلاث صلوات، ظهرا بين عصرين أو عصراً بين ظهرين، وأي صلاة بدأ بها أعادها . ومن نسي صلاة واحدة بعينها، فذكرها وهو لا يذكر يومها الذي هي منه، صلاها ونوى بها يومها . ومن نسي صلاة واحدة من صلاة النهار لا يدري أي صلاة هي، قضى ثلاث صلوات : صبحا وظهراً وعصراً . وإذا تيقن أنها من صلاة الليل لا يدري أيتهما هي، صلى صلاتين : مغرباً وعشاءً . فإن ذكر أنها من صلاة يوم وليلة، لا يدري أهي من صلاة الليل أو من صلاة النهار، فإنه يصلي خمس صلوات» (٣) .

---

(١) فجر الإسلام ، ص : ٢٤١ ، ٢٤٢ . وقد كان أهل الحديث يسمون هؤلاء «الارايتيون» . قال الشعبي : «والله لقد بغض هؤلاء القوم إلي المسجد حتى لهو ابغض إلي من كناسة داري ؛ قيل : من هم يا ابا عمر ؟ قال : "الارايتيون» . وقال : «ما كلمة أبغض إلي من أرأيت» . قال أبو محمد ابن حزم الأندلسي : «وقد روينا عن الشعبي أنه قال : قد ترك هؤلاء الأرايتيون المسجد أبغض إلي من كناسة أهلي» . وروي عن الشعبي أيضا أنه قال لداود : «ألا احفظ عني ثلاثا» ، وذكر منها : «إذا سئلت عن مسالة فاجبت فيها فلا تتبع مسالتك أرايت ، فإن الله قال في كتابه : ﴿أرايت من اتخذ إلهه هواه﴾ حتى فرغ من الآية» . (انظر الموافقات : ٤ /١٨٦، ١٨٧ ؛ الإحكام في أصول الأحكام : ٦ /٢٢٣) .

(٢) التفريع ، فصل : ٥٢ ، ص : ٢١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، فصل : ١٢٦ ، ص : ٢٥٥ .

ج – قوله – في حكم من نسي صلاتين مرتبتين فأكثر – :« ومن نسي صلاتين مرتبتين من يوم وليلة، لا يدري الليل قبل النهار أو النهار قبل الليل، صلى ست صلوات، وبدأ بالظهر اختيارا، وإن بدأ بغيرها أجزأه، وأي صلاة بدأ بها أعادها . وإن نسي ثلاث صلوات على الشرط الذي ذكرناه، قضى سبع صلوات . وإن كن أربعا، قضى ثماني صلوات . وإن كن خمسا، قضى تسع صلوات » (١) .

د – قوله في باب زكاة الدين :« والدين مسقط للزكاة عن العين، وغير مسقط لها عن الحرث والماشية . فمن كان دينه مثل عينه فلا زكاة عليه في عينه، وسواء كان الدين عينا أو عرضاً، حالاً أو مؤجلا . فإن فضل من عينه نصاب عن دينه، زكى الفضل عن دينه . ومن كان عليه دين وله عرض وعين، جعل دينه في عرضه وزكى عينه، وسواء كان عرضه للتجارة أو للقنية » (٢) . وإن كان عرضه لا تفي قيمته بدينه، ضم إليه من عينه ما بقي عليه من دينه، وزكى الفضل إن كان نصاباً من بعد دينه . ومن كان عليه دين وله عين وعبد مكاتب جعل دينه في قيمة كتابة عبده، وزكى عينه . وإن كان له مدبر، جعل دينه في رقبته في قول ابن القاسم . وقال غيره : يجعل دينه في قيمة خدمته، وبه أقول . ومن كان عليه دين وله دين، وفي يديه عين، جعل دَيْنه في دِينه، إذا كان في مِلاَء وثقة، وأخرج الزكاة من عينه"(٣) .

هـ – قوله –في بيان حكم الصيد في الحج– :« ومن رمى صيداً في الحل، وهو في الحرم فقتله، فعليه جزاؤه . وإن كان هو في الحل والصيد في الحرم فرماه فقتله، فعليه جزاؤه وإن كان هو والصيد جميعا في الحل فرماه فقتله، فلا جزاء عليه، إلا أن يكون محرما، فعليه الجزاء . ومن أرسل كلبه على صيد في الحل، فقتله الكلب في الحرم، فلا جزاء عليه، إلا أن يكون أرسله بقرب الحرم مغرِّرا، فعليه جزاؤه . وإن لم يدخل الحرم فقتله في الحل قريبا من الحرم، فلا جزاء عليه ؛ لأنه قد سلم من التغرير» (٤) .

---

(١) المصدر نفسه ، فصل : ١٢٧، ص : ٢٥٥ .

(٢) عروض القنية : هي ما يملك للانتفاع به لا للتجارة ، كالدار والخادم وأثاث البيت والدابة ونحو ذلك . (انظر مختصر الدر الثمين والمورد المعين ، لميارة ، ص : ٦٢) .

(٣) المصدر نفسه ، فصل : ١٦٤ ، ص : ٢٧٦ .

(٤) المصدر نفسه ، فصل : ٢٧٣، ص : ٣٣١ .

و – قوله – في بيان ما يجوز الانتفاع به من الميتة – :« وإذا ماتت دجاجة فأخرجت منها بيضة، فهي نجسة، ولا يحل أكلها . وإذا سلق بيض، فوجد في بعضه فرخ ميت، فهو نجس، لا يجوز أكله، وكذلك لبن الميتة ...» [١] .

ز – قول القاضي إسماعيل – في سياق حديثه عن مسألة النكاح بدون ولي – :« فإذا كانت المرأة بموضع لا سلطان له فيه ولا ولي لها، فإنها تصير أمرها إلى من يوثق به من جيرانها فيزوجها، ويكون هو وليها في هذه الحال ؛ لأن الناس لابد لهم من التزويج، وإنما يعملون فيه بأحسن ما يمكن، وعلى هذا قال مالك في المرأة الضعيفة الحال إنه يزوجها من تسند أمرها إليه ؛ لأنها ممن تضعف عن السلطان وأشبهت من لا سلطان بحضرتها ... وإذا صيرت المرأة أمرها إلى رجل وتركت الأولياء، فإنها أخذت الأمر من غير وجهه وفعلت ما ينكره الحاكم عليها وينكره المسلمون، فيفسخ ذلك النكاح من غير أن يعلم حقيقة أنه حرام، لما وصفنا من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ولما في ذلك من الاختلاف، ولكن لتناولها الأمر من غير وجهه، ولأنه أحوط في الفروج وتحصينها . فإذا وقع الدخول وتطاول الأمر لم يفسخ ؛ لأن الأمور إذا تفاوتت لم يرد منها إلا الحرام الذي لا شك فيه ... وأما ما قال مالك : إن المرأة إذا زوجها غير ولي ففسخه الحاكم أنها تطليقة، فإنما قال ذلك لما وصفنا أنه ليس يعلم حقيقة أنه حرام، ولو كان يعلم حقيقة أنه حرام لكان فسخا بغير طلاق . ولم يكن عند ابن القاسم عن مالك في المرأة إذا تزوجت بغير إذن وليها ثم مات أحدهما جواب في توارثهما، وقال : كان مالك يستحب أن لا يقام على ذلك النكاح حتى يبتدئ النكاح جديداً ولم يكن يحقق فساده . قال إسماعيل : والذي يشبه عندي على مذهب مالك أن هذين يتوارثان إن مات أحدهما ؛ لأن الفسخ يقع عنده بطلاق، والنكاح ثابت حتى يفرق بينهما ...» [٢] .

ح – قوله وهو يتحدث عن مسألة القرعة :« وهي إما في الحقوق المتساوية، وإما في تعيين الملك »، ثم فرع عن القرعة في الحقوق المتساوية جزئيات عديدة، بلغت ثمان عشرة

---

(١) المصدر نفسه ، فصل : ٤٢٢ ، ص : ٤٠٨ .

(٢) التمهيد : ١٩/ ٩٣، ٩٤ .

جزئية، فقال :«فمن الأول : عقد الخلافة إذا استووا في صفة الإمامة، وكذا بين الأئمة في الصلوات، والمؤذنين، والأقارب في تغسيل الموتى، والصلاة عليهم، والحاضنات إذا كن في درجة، والأولياء في التزويج، والاستباق إلى الصف الأول، وفي إحياء الموات، وفي نقل المعدن، ومقاعد الأسواق، والتقديم بالدعوى عند الحاكم، والتزاحم على أخذ اللقيط، والنزول في الخان المسبل ونحوه، وفي السفر ببعض الزوجات، وفي ابتداء القَسْم، والدخول في ابتداء النكاح، وفي الإقراع بين العبيد إذا أوصى بعتقه ولم يسعهم الثلث . وهذه الأخيرة من صور القسم الثاني أيضا، وهو تعيين الملك» (١) .

٢ - الإكثار من الاستدلال للمسائل الفقهية :

من الملاحظ أن فقهاء المالكية لم يسلكوا منهجا واحدا في التأليف الفقهي، بل كان بينهم اختلاف على هذا المستوى على النحو الآتي :

أ - اختار جلهم (المنهج التجريدي) القائم على أساس إيراد المسائل الفقهية عارية عن أدلتها النقلية والعقلية، وهو ما طغى على الإنتاج الفقهي للمذهب المنتمي إلى جل المدارس المالكية (المصرية، والأندلسية، والمغربية) .

وثمة ثلاثة عوامل كان لها الأثر في تكوين ودعم هذا المنهج التجريدي الذي عرف به هؤلاء وترسخ مع مرور الأزمان : العامل الأول : يرجع إلى ما اشتهر به إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى من صفات علمية ودينية وشخصية رفيعة، أهلته لأن يتبوأ مكانة سامية في صدور أهل العلم من المحدثين الفقهاء وغيرهم . العامل الثاني : يرجع إلى منهج الإمام مالك التعليمي، القائم على أساس الاتباع . العامل الثالث : يرجع إلى بدايات تدوين المذهب(٢) .

ب - واختار أصحاب المدرسة العراقية منهجا مغايرا يقوم على أساس التأصيل وبناء الفقه على الأدلة، فكانوا يذكرون المسائل الفرعية مقرونة بأصولها ومصحوبة بأدلتها من الكتاب

---

(١) فتح الباري : ٥/ ٢٩٤ .

(٢) راجع تفصيل القول في هذه العوامل في بحث الدكتور بدوي عبد الصمد طاهر المعنون بـ« منهج كتابة الفقه المالكي بين التجريد والتدليل» ، المنشور بمجلة الأحمدية ، العدد الأول ، محرم : ١٤١٩ ، من ص : ١٦٧ إلى ١٨٥ .

والسنة والآثار، أو بغيرها من الأدلة العقلية النظرية التي ينبني عليها الفقه المالكي، وهكذا جاءت كتبهم مطبوعة بـ«**المنهج التدليلي**» .

- ويمكن إرجاع أسباب تأثر معظم أئمة الفقه المالكي بالعراق بهذا المنهج التأصيلي الاستدلالي إلى عاملين اثنين، هما (١) :

أ - **البيئة العلمية التي ظهر فيها المذهب**، وهي بيئة المدينة المنورة : دار الهجرة، ومهبط الوحي، ومنبع الدعوة، ومدرسة النبوة، وموئل العلم، والتي انتشر منها الإرث النبوي إلى الآفاق . ففي هذه البيئة العلمية المتشبعة بروح الأثر نشأ الإمام مالك عليه رحمة الله، وترعرع، وطلب العلم، وصار إماماً تضرب إليه أكباد الإبل من كل صوب وحدب لتلقي العلم عنه ... وفيها ولد مذهبه، وتكونت مدرسته التي كانت قائمة على أساس منهج مؤصل تأصيلاً عملياً بمنهج مالك في حياته العلمية والعملية، ونظريا بما وضعه في موطئه من أصول وما خطه فيه من منهج .

وقد تأثر كثير من تلامذة الإمام مالك الذين تلقوا عنه الحديث والفقه والمسائل - وفي طليعتهم مالكية العراق - بهذا المنهج المؤصل الذي طبعت به المدرسة المالكية الأم، فتربت في نفوسهم ملكات التأصيل والتخريج على أصول إمامهم، وتوفرت لديهم القدرة الكافية للاستدلال والاحتجاج لمذهبهم، بعد توفر العدة اللازمة من الأحاديث والآثار والأصول التي أصلها إمامهم، وانعكس كل ذلك على إنتاجاتهم العلمية عموما، ومصنفاتهم الفقهية على وجه الخصوص .

ب - **ما يرجع إلى منهج تأليف الموطأ، وهو منهج قائم على أساس بناء الفروع على الأصول-** كما مر معنا - .

ولما كان لرواة الموطأ من المالكيين السبق في تعريف العراقيين بمذهب مالك ونشره بين أوساطهم، كان من الطبيعي أن يتأثر منهج التأليف عند أهل العراق بهذه الخاصية المنهجية، وهكذا وجدناهم يتميزون فعلا عن غيرهم من مالكية بقية الأقطار الأخرى بالسير المطرد على هذا المنهج التأليفي في الغالب الأعم، فيتجهون إلى تأصيل المسائل والاستدلال لها بما يوجد من

(١) راجع بحث الدكتور بدوي المذكور، ص : ١٨٦-١٩٤ .

الأدلة النقلية من كتاب وسنة وأثر .. وعند انعدام الحجج النقلية لمسألة من المسائل يلجأون إلى الاجتهاد بإعمال القياس وغيره من الأدلة العقلية في استنباط الأحكام .

أمثلة على إكثار مالكية العراق من الاستدلال للمسائل الفقهية، من خلال كتاب "الإشراف على مسائل الخلاف"، للقاضي عبد الوهاب :

أولاً : الاستدلال بالقرآن الكريم :

أ – « مسألة : يكره استعمال أواني أهل الكتاب ولبس ثيابهم التي لبسوها من غير تحريم، خلافا لمن حكي عنه تحريم ذلك، لقوله تعالى : ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ** ﴾ (١)،(٢) .

ب – « مسألة : والفرض من الرأس إيعابه ... لقوله تعالى : ﴿ **وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ** ﴾(٣)، والحكم إذا علق باسم وجب استيفاء ما يتناوله ....» (٤).

ج– « مسألة : لا يجوز للمجنب ولا للمحدث مس المصحف، خلافا لداود، لقوله تعالى: ﴿ **لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ (٥) ...»(٦).

د – « مسألة : إذا خلع الخف بطل المسح خلافا لداود، لقوله تعالى : ﴿ **وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ** ﴾ (٧)، (٨).

هـ – « مسألة : ولا يجوز وطء الحائض بعد انقطاع دمها وقبل غسلها ... ودليلنا قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ** ﴾ (٩) .. فعلق جواز إيتائهن بأن يتطهرن، وذلك هو الاغتسال » (١٠) .

---

(١) المائدة : ٥ .

(٢) الإشراف على مسائل الخلاف : ١/ ٦ .

(٣) المائدة : ٦ .

(٤) الإشراف : ١/٨و٩ .

(٥) الواقعة : ٧٩ .

(٦) الإشراف : ١/ ١٢ .

(٧) المائدة : ٦ .

(٨) الإشراف : ١/ ١٧ .

(٩) البقرة : ٢٢٢ .

(١٠) الإشراف : ١/ ٥٥ .

و – « مسألة : لا يجوز أن يصلي الظهر قبل الزوال، خلافاً لما يحكى عن ابن عباس وغيره، لقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ (١)، معناه : حال الدلوك » (٢).

ز – « مسألة : وجميع بدن المرأة عورة إلا وجهها وكفيها، خلافا لمن قال لا يجوز لها كشف الوجه واليدين، وهو أحمد بن حنبل، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (٣) . قيل : الوجه والكفان . . . » (٤) .

ح – « مسألة : إذا أسلم المرتد لم يلزمه قضاء ما ترك من الصلاة والصوم في حال ردته . . . لقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ (٥)، (٦)» .

ط – « مسألة : القصر جائز في السفر الواجب والمباح . . . لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ (٧)، فعم » (٨) .

ي – « مسألة : المسلم إذا سب النبي ﷺ قتل، ولم تقبل توبته . . . دليلنا أن ذلك علم على ارتداده، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٩)، (١٠)» .

ثانياً : الاستدلال بالسنة المطهرة :

أ – « مسألة : لا يجوز استعمال أواني الذهب والفضة، لا في وضوء ولا في أكل ولا في شرب ولا غير ذلك . . . لنهيه عليه السلام عن الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة، وقوله :« إن الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في جوفه نار جهنم » (١١) .

---

(١) سورة الإسراء ، أية ٧٨ .

(٢) الإشراف : ٥٦/١

(٣) سورة النور ، أية ٣١ .

(٤) الإشراف : ٩٠/١ .

(٥) سورة الأنفال ، أية ٣٨ .

(٦) الإشراف : ٩٦/١ ، ٩٧ .

(٧) سورة النساء ، أية ١٠١ .

(٨) الإشراف : ١١٦/١ .

(٩) سورة النساء ، أية ٦٥ .

(١٠) الإشراف : ٢٢٥/١ .

(١١) المصدر نفسه : ٦/١ .

ب – « مسألة : تكرار مسح الرأس بماء جديد غير مسنون ... لما روي عنه عليه السلام أنه توضأ فغسل أعضاءه كلها ثلاثا ثلاثا ومسح برأسه مرة ... » [١] .

ج – « مسألة : التسبيح في الركوع والسجود غير واجب ... لقوله عليه السلام : »ثم اركع حتى تطمئن راكعا، واسجد حتى تطمئن ساجدا »، ولم يأمره بذكر فيهما . وقوله :« أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء »، ولم يأمره بالتسبيح »[٢] .

د – « مسألة : الطمأنينة في الركوع واجبة ... لحديث أبي حميد أنه عليه السلام كان يركع فيضع راحلتيه على ركبتيه ويعتدل . وقال للذي علمه الصلاة : » واركع حتى تطمئن راكعا »، وقال :« لا تتم صلاة أحد حتى يتوضأ – إلى أن قال – ثم يركع حتى تطمئن مفاصله » [٣]

هـ – « مسألة : الطمأنينة واجبة في السجود ... لقوله :« اعتدلوا في السجود ». وقوله :« أتموا الركوع والسجود ». وقوله :« ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله من الأرض ». وروي أنه عليه السلام نهى عن نقرة الغراب ... »" [٤] .

و – « مسألة : إذا دفع المار بين يديه لم تبطل صلاته ... ودليلنا قوله عليه السلام : » إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحداً يمر بين يديه وليدرأه ما استطاع ... » [٥] .

ز – « مسألة : إذا شك في عدد الركعات بنى على يقينه، كان شكه نادرا أو معتادا، ما لم يكن استنكاحاً ... لقوله عليه السلام :« إذا شك أحدكم في صلاته فليلغ الشك وليبن على اليقين ... » [٦] .

ح – « مسألة : وتقضى الفوائت من الفرائض في الأوقات المنهي عنها ... لقوله عليه السلام : من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها ... » [٧] .

---

(١) الإشراف : ١/٨ .
(٢) المصدر نفسه : ١/٨١ .
(٣) المصدر نفسه : ١/٨٢ .
(٤) المصدر نفسه : ١/٨٣ .
(٥) المصدر نفسه : ١/٩٢ .
(٦) المصدر نفسه : ١/٩٧ .
(٧) المصدر نفسه : ١/١٠٦ .

ط – « مسألة : صفة الوتر أن يأتي بركعة واحدة قبلها شفع منفصل وليس لها قبلها من الشفع حد، وأقله ركعتان . . . ودليلنا قوله عليه السلام :« صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى » . فنص على أن الركعة تكون وترا . وروت عائشة أن النبي ﷺ كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة يوتر منها بواحدة . وروي أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن صلاة الليل فقال بأصبعه :« هكذا مثنى مثني » (١) .

ي – « مسألة : حد الزاني المحصن الرجم . . . لقوله ﷺ :« واغْد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها » . وروى جابر أن النبي ﷺ رجم ماعزا ولم يجلده، وكذلك الغامدية . . . ويجب في حد الزاني الذكر البكر تغريبه عاما . . . لقوله ﷺ :« البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » . وفي حديث أبي هريرة وزيد بن خالد في الذي قال للنبي ﷺ إن ابني كان عسيفا على هذا وزنى بامرأته، فذكر القصة إلى أن قال : وجلد ابنه مائة وغربه عاماً »(٢) .

ثالثاً : الاستدلال بعمل الصحابة وإجماعهم :

أ – « مسألة : إذا عجز عن القيام صلى قاعداً متربعاً . . . لأن ذلك مروي عن ابن عمر وابن عباس وأنس . . . » (٣) .

ب – « مسألة : يجوز القنوت قبل الركوع وبعده . . . لإجماع الصحابة عليه . . . »(٤) .

ج – « مسألة : سجود التلاوة مستحب غير واجب لا على القارئ ولا على المستمع . . لأنه إجماع الصحابة، وروي عن عمر أنه قرأ سجدة على المنبر يوم الجمعة، فنزل وسجد، وسجد الناس معه، فلما كان في الجمعة الأخرى قرأها، فتهيأ الناس للسجود، فقال : على رِسْلِكم إن الله تعالى لم يكتبها علينا إلا أن نشاء » . وفي طريق آخر :« من سجد فقد أحسن، ومن لم يسجد فلا إثم عليه »، وذلك بمحضر المهاجرين والأنصار، فلم ينكر ذلك أحد ولا حكي فيه خلاف » (٥) .

---

(١) الإشراف : ١/١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١/٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه : ١/٩٣ .

(٤) المصدر نفسه : ١/٨٨ .

(٥) المصدر نفسه : ١/٩٤ .

د – « مسألة : دعاء القنوت غير مسنون في الوتر . . . إلا في النصف الأخير من شهر رمضان، ففيه روايتان، أحدهما : مسنون . والأخرى : أنه ليس بمسنون . فدليلنا : أن عمر ابن الخطاب جمع الناس على أبي بن كعب، فصلى بهم عشرين ليلة، ولم يقنت في النصف الأول، وتخلف في منزله العشرة الأخيرة، فقدموا معاذا، فصلى بهم بقية الشهر، فدل على أنه إجماع منهم على أنه لا يقنت في النصف الأول من الشهر ؛ لأنهم لم ينكروا على أبي ترك القنوت » (١) .

رابعاً : الاستدلال بالرأي والنظر :

أ – « مسألة : إذا كان لا يحسن شيئا من القرآن أصلا، لزمه أن يكبر للإحرام، ولم يلزمه من طريق الوجوب تسبيح ولا تحميد ولا غيره، ويستحب له أن يقف وقوفا ما، فإن لم يفعل وركع أجزأه . . . دليلنا أنه ذكر بدل عن القراءة، فلم يلزمه للعجز عنها كسائر الأذكار ؛ ولأنه ذكر غير مقدر كالدعاء ؛ ولأن الأذكار في الصلاة إذا عجز عن شيء منها فانتقل الوجوب إلى غيرها لم ينتقل إلا إلى معين كالركوع والسجود، فلما كان الذكر الذي يتنقل إليه عند العجز عن القراءة غير متعين دل على أنه لا يلزمه » (٢) .

ب –« مسألة : إذا صلى في جماعة لم يعدها في جماعة أخرى . . . لأن إحدى الجماعتين لا فضيلة لها على الأخرى ؛ ولأنه لو استحب إعادتها لم يكن لذلك حد يقف عنده » (٣) .

ج – « مسألة : إذا لم يسجد الإمام لسهو سجد المأموم . . . لأن صلاة المأموم متعلقة بصلاة إمامه، فإذا دخل على صلاة الإمام نقص دخل على صلاة المأموم، فوجب أن يجبره بسجود السهو ؛ ولأنه سجود لزم الإمام، فإذا لم يأت به أتى به المأموم كالسجود الأصلي »(٤) .

---

(١) الإشراف : ١/ ٢٩١ .
(٢) المصدر نفسه : ١/ ٩٩، ١٠٠ .
(٣) المصدر نفسه : ١/ ٩٣ .
(٤) المصدر نفسه : ١/ ٩٩ .

د – « مسألة : المني نجس ... لأنه مائع خارج من السبيل كالبول، ولأنه مائع ينقض خروجه الطهر وأشبه المذي والبول، ولأنه مائع يوجب البلوغ كدم الحيض، ولأنه مائع يجري في مجرى النجس، فلو كان طاهراً في الأصل لوجب أن ينجس لذلك » (١) .

هـ –« مسألة : السنن من الصلاة لا تقضى بعد انقضاء أوقاتها ... لأنها صلاة نفل،فوجب أن تسقط بفوات وقتها كالكسوف، ولأنها سنة كالأضحى إذا انقضت أيام النحر، وكالتسمية إذا فرغ من الذبح » (٢) .

خامساً : الاستدلال بإجماع أهل المدينة :

أ –« باب : يجوز أن يؤذن للفجر قبل وقتها ... لأن ذلك إجماع أهل المدينة وعملهم المتصل، فهو حجة » (٣) .

ب – « مسألة : التكبير أول الأذان واحدة سراً ... لأنه إجماع أهل المدينة نقلا » (٤)

ج – « مسألة : الترجيع في الأذان مسنون ... لأن ذلك إجماع أهل المدينة وعملهم المتصل » (٥) .

سادساً : الاستدلال بالقواعد الفقهية والأصولية :

أ – « فصل : واتخاذها – أي أواني الذهب والفضة – غير جائز ... لأن اتخاذها إنما يراد للاستعمال، وإذا حرم الاستعمال حرم الاتخاذ » (٦) .

ب –« فصل : لا يجوز التيمم لصلاة قبل دخول وقتها ... لأن"كل رخصة أبيحت للضرورة والحاجة لم تستبح قبل وجودها" » (٧) .

ج –« مسألة : لا يجوز التيمم إلا بعد طلب الماء وإعوازه ... لقوله تعالى :﴿ **إِذَا قُمْتُم إِلَى الصَّلاَةِ** ﴾ إلى قوله :﴿ **فَلَم تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ** ﴾(٨) .. ففيه دليلان، أحدهما :

(١) الإشراف : ١/ ١٠٤ .
(٢) المصدر نفسه : ١/١٠٦
(٣) المصدر نفسه : ١/٦٧ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) المصدر نفسه : ١/٦ .
(٧) المصدر نفسه : ١/٣٣ .
(٨) سورة المائدة : آية ٦ .

أن« الأمر المعلق بالفعل أمر به وبما لا يتم إلا به » . . . والثاني :« أن المفهوم من اشتراط عدم الوجود بعد تقدم الأمر بالفعل وجوب الطلب . . . ولأنه بدل عن مبدل مرتب، فوجب أن "لا يجوز له الانتقال إلى البدل إلا بعد طلب المبدل" » (١) .

د – « ووجه سقوط القضاء – على من صلى بتيمم ثم وجد الماء – أن « كل من سقط عنه تكليف فعل الصلاة سقط عنه قضاؤها » كالحائض والمغمى عليه، ولأن "كل شرط كان عدمه مؤثرا في وجوب الأداء كان مؤثرا في سقوط القضاء" كالحيض » (٢) .

هـ –« مسألة : ويمسح على الجبائر والعصائب إذا خيف الضرر بمباشرة العضو بالماء. . . » لأن خوف الضرر يجوز معه الانتقال إلى البدل في الطهارة كالتيمم » . مسألة : إذا خاف الضرر الذي هو التلف أو زيادة المرض غسل الصحيح من أعضاء وضوئه ومسح على العضو الكسير ولم يلزمه التيمم مع ذلك . . . لقوله عليه السلام :« امسح على الجبائر »ولم يأمره بالتيمم، وهذا كالنص ؛ لأن "تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز" » (٣) .

و –« مسألة : يغسل الإناء من ولوغه – أي من ولوغ الكلب – في الماء، فأما في غيره من الأشربة والأطعمة ففيها روايتان . . . ووجه قوله لا يغسل : أن الخبر وارد في الماء، و« العبادة التي لا يعقل معناها لا يجوز القياس عليها » (٤) .

ز – « مسألة : من صلى منفردا خلف الصف أجزأته صلاته، خلافا لأحمد بن حنبل ؛ لأن« كل من صحت صلاته خلف الصف إذا كان مع غيره صحت إذا كان منفرداً » (٥) .

ح – « ودليلنا على من أوجبهما – أي التشهدين – أن رسول الله ﷺ قام من اثنتين فمضى،، ثم سجد للسهو، « وسجود السهو لا ينوب عن مفروض »، ولأن« كل ذكر صحت الصلاة بتركه سهوا صحت بتركه عمداً » (٦) .

---

(١) الإشراف : ١/ ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١/ ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه : ١/ ٣٩ .

(٤) المصدر نفسه : ١/ ٤١و٤٢ .

(٥) المصدر نفسه : ١/ ١١٣ .

(٦) المصدر نفسه : ١/ ٨٥ .

ط –« مسألة : ولا يجوز الترخيص في السفر في سفر المعصية ... لأن الرخصة تابعة للحال التي وجبت الرخصة لأجلها، وإذا كانت تلك الحال ممنوعة امتنع سقوط الرخصة فيها ؛ لأن المعصية تنفي الرخصة والتخفيف »(١) .

٣ – اعتماد الأسلوب الحجاجي الجدلي في تحرير الأدلة ومناقشة المخالفين :

من أهم خصائص ومميزات المنهج الذي سار عليه مالكية العراق : اعتماد طريقة أهل الجدل في تحرير الأدلة ومحاجة المخالفين في الرأي والاجتهاد، والرد عليهم، وتفنيد مستنداتهم وحججهم، ودحض شبهاتهم . وقد كان المالكية العراقيون متأثرين في ذلك بالبيئة العلمية لبلادهم، والتي نشأت وترعرعت فيها مدرستهم . فقد كانت تلك البيئة تعرف حركة دائبة، ونشاطاً فكرياً وعلمياً مكثفاً ومزدهراً، إذ كانت تزخر بشتى العلوم والمعارف الإنسانية، وتعج وتموج بمختلف التيارات الفكرية والفلسفية والسياسية والدينية .

وكان للفقهاء على وجه الخصوص أثر بارز في تنشيط الحركة العلمية، حيث ازدهر في أوساطهم ما يسمى بـ(علم الخلاف)، وكان الجدل والنزاع والتنافس بينهم على أشده، فكانت تقام مناظرات ومساجلات في أصول الفقه وفروعه يسعى من خلالها كل طرف لإفحام الطرف الآخر وقهره بقوة حججه الذي يستند إليها لتعزيز رأيه وتدعيم منهجه .

ولم يكن لمالكية العراق بد من السير على هذا النهج باعتماد الطريقة الاستدلالية الحجاجية وانتهاج الأسلوب الجدلي في مناقشة مخالفيهم والرد عليهم، وخاصة من الأحناف والشافعية.

وهكذا تميز فقهاء المالكية العراقيون عن غيرهم من فقهاء المذهب في مختلف الربوع بوفور البضاعة ورسوخ القدم وطول الباع في ميدان المناظرة والحجاج، فكانوا يستثمرون كل الأدلة العقلية والنقلية، ويوظفون كل ما يمكن توظيفه من القواعد الأصولية والفقهية للانتصار لمذهبهم، والذب عنه، والاحتجاج له، ومحاجة مخالفيهم والرد عليهم .

ومن أوائل أئمة الفقه المالكي بالعراق الذين أصلوا هذا المنهج الحجاجي ورسخوه في المدارسة والتأليف : القاضي هارون بن عبد الله (ت : ٢٢٨ أو ٢٣٢هـ)، فهو وإن لم يؤثر عنه تأليف في هذا المجال، فإنه كان – كما قال الزبير بن بكار في كتابه "جمهرة أنساب

(١) الإشراف : ١/١١٦ .

قريش: « يقوم بنصرة قول أهل المدينة فيحسن » (١) . ثم أتى بعده أئمة كبار عمقوا هذا المنهج أكثر وزادوه تأصيلا وترسيخا بما وضعوه من مؤلفات قيمة في الاحتجاج للمذهب، وفي طليعتهم : الإمام القاضي إسماعيل الذي صار مثالا يحتذى في هذا الباب . قال طلحة ابن جعفر بن محمد الشاهد – كما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه – :« وصنف – إسماعيل القاضي – في الاحتجاج لمذهب مالك والشرح له ما صار لأهل هذا المذهب مثالا يحتذونه وطريقا يسلكونه » (٢) .

وإن نظرة سريعة إلى عناوين مختلف الآثار العلمية لأقطاب المدرسة المالكية العراقية، وفي مقدمتهم القاضي إسماعيل وخاتمة المالكيين بالعراق القاضي عبد الوهاب، تؤكد طغيان الصبغة الاحتجاجية والجدلية على مجموع تراث مالكية العراق .

وهذه بعض العناوين التي تعكس ذلك بوضوح :

– كتاب «**النصرة لمذهب إمام دار الهجرة**» ، للقاضي عبد الوهاب البغدادي والذي قال فيه القاضي عياض :« **وألف في المذهب والخلاف والأصول تواليف مفيدة**» (٣) .

– كتاب «**الرد على أبي حنيفة**»، للقاضي إسماعيل بن إسحاق .

– كتاب «**الرد على محمد بن الحسن**»، لكل من القاضي إسماعيل، والقاضي أبي بكر ابن الجهم .

– كتاب «**الرد على الشافعي في مسألة الخمس وغيره**»، للقاضي إسماعيل بن إسحاق

– كتاب «**الرد على الشافعي في وجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة**»، لأبي الفضل بكر بن العلاء القشيري البصري .

– كتاب «**الرد على المزني**»، لكل من أبي الفضل بكر بن العلاء الفهري، والقاضي عبدالوهاب البغدادي، والقاضي أبي بكر الأبهري، الذي قال فيه القاضي عياض : « وله التصانيف في شرح مذهب مالك والاحتجاج له والرد على من خالفه » (٤).

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/٣٥٣ .

(٢) تاريخ بغداد : ٦/٢٨٥ ؛ ترتيب المدارك : ٤/٢٨١ .

(٣) ترتيب المدارك : ٧/٢٢١ .

(٤) المصدر نفسه : ٦/١٨٣

- كتاب «**الرد ابن علية فيما أنكره على مالك**» لأبي جعفر الأبهري .

- كتاب «**الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة**» - وهو نقد كتاب الصيرفي -، لأبي الحسين عمر بن محمد بن يوسف من آل حماد .

- كتاب «**مسائل الخلاف والحجة لمذهب مالك**»، للقاضي أبي بكر بن الجهم .

- كتاب «**مسائل الخلاف والحجة لمالك**» في نحو مائتي جزء، لأبي الحسن عبد الله بن المنتاب .

- كتاب «**أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملة**»، للقاضي عبد الوهاب البغدادي

- كتاب «**الإشراف على مسائل الخلاف**»، له أيضاً :

- كتاب «**مسائل الخلاف**»، لمحمد بن جعفر البصري، المعروف بالخفاف .

- كتاب «**الاحتجاج بالقرآن**»، للقاضي إسماعيل(١) .

أمثلة على انتهاج مالكية العراق طريقة أهل الجدل في تحرير الأدلة ومناقشة المخالفين، من خلال كتاب «**الإشراف على مسائل الخلاف**» للقاضي عبد الوهاب :

أ- «مسألة : التسليم فرض من صحة الصلاة، خلافا لأبي حنيفة في قوله إنه يتحلل بأي شيء شاء مما يقصد به الخروج من الصلاة، لقوله عليه السلام :«وتحليلها التسليم»، وذلك يمنع أن يكون لها تحليل سواه من وجهين، أحدهما : دليل الخطاب، والآخر : خروجه مخرج البيان عن جنس التحليل، فمفهومه أنه ليس له تحليل سواه . وقوله عليه السلام :«صلوا كما رأيتموني أصلي»، لأنه أحد طرفي الصلاة، فلم يصح إلا بنطق معين كالدخول . وقد حكى أصحابنا عنهم أن الفرض التحليل من الصلاة، وهم في هذا العصر ينكرون ذلك، فيدل عليه أنه لو أقام عليها حتى يخرج وقتها من غير خروج منها أو إحداث قبل السلام لا يقصد بذلك الخروج ساهيا لبطلت صلاته، فثبت افتقارها إلى معنى يخرج به منها، فإذا ثبت ذلك وجب أن يكون معينا كسائر الأركان . (فصل) ويعرض الكلام في أن السلام من الصلاة يقع فيها، خلافا لأبي حنيفة في قولهم : إن ابتداء ألفاظه يقع في الصلاة، فإذا أكمله وقع كله خارج الصلاة ؛ لأن ما قالوه يقتضي إحالة ؛ لأنهم يزعمون أن ابتداء

(١) انظر ترتيب المدارك : ٥/ ٢، ٢٠، ٢٧١ ، ٦/ ١٨٨، ٢٠١ ، ٧/ ٧٢، ٧٦، ٢٢١، ٢٢٢ .

خروج السلام يقع في الصلاة، ثم بفراغه من الميم يقع السلام كله خارج الصلاة، وهذا لا يتصور ؛ لأنه إذا وقع ابتداؤه في الصلاة فالفراغ منه لا يخرج أوله عن الوجه الذي يقع عليه ؛ لأنه ذكر مشروع في موضع يجوز أن يرد عليه ما يفسد الصلاة، فوجب أن يكون من الصلاة اعتبارا بما قبله ؛ ولأنها عبادة لها تحليل وتحريم، فوجب أن يكون التحليل منها جزءا من أجزائها كالرمي والطواف في الحج . . . » (١).

ب –« مسألة : سجود السهو في النقصان قبل السلام وفي الزيادة بعد السلام، خلافا لأبي حنيفة في قوله : إن جميعه بعد السلام، وللشافعي في قوله : إن جميعه قبل السلام . فدليلنا على أبي حنيفة حديث عبد الله بن بحينة أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ، ثم قام فلم يجلس، فقام الناس معه، فلما قضى صلاته وانتظرنا تسليمه، كبر وسجد سجدتين وهو جالس قبل السلام، ثم سلم . ولأن سجود النقص جبران للنقص الواقع في الصلاة، فوجب أن يكون في الصلاة كما كان هدي المتعة والقران في الحج، لكونه جبرانا للنقص الواقع فيه ؛ ولأنه سجود لسبب وقع في الصلاة يتعلق بها، فجاز أن يكون قبل السلام كسجود التلاوة . ودليلنا على الشافعي : ما روى ثوبان أن رسول الله ﷺ قال :"لكل سهو سجدتان بعدما يسلم" . . . وقوله ﷺ : «إذا شك أحدكم في صلاته فليتحر الصواب، وإذا سلم فليسجد سجدتين »، ولأن هذا السهو قد اقتضى زيادة لأجل الصلاة، فلو قلنا إنه يكون فيها لكان زيادتين في الصلاة، وذلك لا يجوز » (٢) .

ج – « مسألة : إذا قرأ في المصحف وهو في الصلاة لم تبطل صلاته خلافاً لأبي حنيفة؛ لأنها إذا بطلت لم يخل أن يكون لأجل القراءة في المصحف، وذلك باطل ؛ لأنه لو قرأ فيه وهو بين يديه لم تبطل، أو لتصفحه الورقة، وذلك لا يجوز ؛ لأنه ليس بعمل متوال، ولأنه من مصلحة الصلاة » (٣) .

د –" مسألة : بول الصبي إذا لم يأكل الطعام يغسل، خلافا للشافعي في قوله يكفي أن يرش عليه الماء، لقوله عليه السلام : «إنما يغسل الثوب من المني والبول ». ولأنه بول آدمي

(١) الإشراف : ١/٨٦ .
(٢) الإشراف : ١/٩٨ .
(٣) المصدر نفسه : ١/٩٢ .

كالأنثى، واعتبارا به بعد أكل الطعام . والحديث المروي في رشه قال مالك : ليس بالمتفق عليه . مسألة : أبوال ما يؤكل لحمه وأرواثه طاهرة، خلافا لأبي حنيفة والشافعي، لقوله تعالى :﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ... الآية** ﴾(١)، ولما روي أنه عليه السلام أباح للعرنيين أن يشربوا من أبوال الإبل وألبانها، وقوله :« ما أكل لحمه فلا بأس ببوله »، وقوله :« ليس بشرب بول كل ذي كرش بأس »، وقوله :« جنبوا صبيانكم ومجانينكم مساجدكم » . ومعلوم أن ذاك لتوقي النجاسات ؛ لأنه لا يؤمن وقوعها من صبي ومجنون . ثم روي أنه عليه السلام طاف بالبيت على بعيره، فدل أن بوله طاهر، وإلا كان ذلك مناقضة ؛ لأن فيه تعريض المسجد لما أمر بتنزيهه عنه ؛ ولأنه ﷺ أباح الصلاة في مرابض الغنم مع العلم بأنها لا تخلو من أبوالها غالبا؛ ولأنه مائع ورد الشرع بإباحة شربه على الإطلاق كاللبن، أو إباحة التداوي به، ولأن البول يجب أن يكون في الإباحة والحظر معتبرا بلحم ذلك الحيوان، أصله بول الآدمي والخنزير . وتحريره أنه بول فوجب أن يكون تابعا للحمه كأبوال الآدميين . وعلى أبي حنيفة أنه رجيع الحيوان مأكول اللحم من غذاء طاهر كزرق الحمام» (٢) .

هـ – « مسألة : لا يجوز للكافر دخول المسجد أصلا خلافا لأبي حنيفة في تجويزه ذلك في كل مسجد من المسجد الحرام وغيره، والشافعي في تجويزه في كل مسجد إلا المسجد الحرام . فدليلنا على أبي حنيفة، قوله تعالى :﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ﴾ (٣) ؛ ولأنه لما منع الجنب والحائض تعظيماً لحرمته وهما أقرب للطهارة وأولى بالإباحة من الكافر، كان الكافر أن يمنع منه أولى . ودليلنا على الشافعي : الاعتبار بالمسجد الحرام، ولأن كل من لا يجوز له قراءة القرآن لحرمة القرآن فلا يجوز له دخول المساجد كلها، أصله الجنب والحائض» (٤) .

---

(١) سورة الأنعام ، أية ١٤٥ .

(٢) الإشراف : ١/١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) سورة التوبة ، أية ٢٨ .

(٤) الإشراف : ١/١٠٥ .

الخاتمة

حاولت من خلال هذا البحث المتواضع، الذي أرجو أن يكون مجزياً، الإلمام بأطراف موضوعه، فبسطت الحديث في المبحث الأول منه عن عوامل نشأة المدرسة المالكية العراقية وتحدثت في المبحث الثاني عن أهم أقطاب ورواد هذه المدرسة الذين شكلوا أعمدتها وأركانها التي قامت عليها، ذاكراً من أخبارهم ومناقبهم وإنتاجاتهم العلمية ما يبرز مكانتهم، ويعكس اختياراتهم وتوجهاتهم . وفصلت القول في المبحث الثالث والأخير عن أهم الخصائص والسمات المنهجية التي تتسم بها مدرسة الفقه المالكي بالعراق .

وفيما يلي عرض لأهم النتائج العلمية المتوصل إليها :

١ - يمكن إجمال العوامل التي كان لها الأثر في انتقال المذهب المالكي إلى بلاد العراق وانتشاره بها في أمرين اثنين : أولاً : الشخصية العلمية والسلوكية الفذة والمتميزة لصاحب المذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى . ثانيا : دخول المصادر العلمية الأولى للمذهب المالكي إلى بلاد العراق، ممثلة في الموطأ والأسمعة والمسائل المروية عن إمام دار الهجرة مالك عليه الرحمة والرضوان .

٢ - إن القول بأن القاضي إسماعيل المتوفى سنة ٢٨٢ هـ، هو مؤسس المدرسة المالكية بالعراق غير صحيح، فقد وجد قبل هذا العلم الفذ أئمة كبار أسهموا جميعا - وبنسب متفاوتة - في وضع الحجر الأساس لبناء المدرسة المالكية العراقية، ومن هؤلاء : الإمام أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي العنبري (ت : ١٩٨هـ)، الذي كان له إسهام كبير في التعريف بالفقه المالكي والترويج له في العراق، من خلال حلقات الدرس التي كان يشرف عليها، وكذا المناظرات العلمية التي كان يعقدها، والإمام عبد الله بن مسلمة القعنبي (ت : ٢٢٠هـ/ ٢٢١هـ)، الذي كان له أيضاً أثر بين وجلي في نشر المذهب المالكي والتمكين له بتلك الديار .

٣ - لقد كان لفقهاء المالكية المنتسبين إلى (بيت آل حماد) المشهور بالعلم والفضل أثر فعال وإسهام كبير في البناء الفقهي والأصولي للمدرسة المالكية العراقية، وعرف المذهب في عهدهم مزيدا من الذيوع والانتشار والتغلغل في مختلف أنحاء العراق، فازدادت مكانته سموا ورفعة، وامتد سلطانه، وتقوى نفوذه أكثر من ذي قبل، بسبب ما كان يتمتع به أولئك

الفقهاء من صلاحيات واسعة، فإليهم كانت تسند مناصب عليا في البلاد، كمنصب قاضي القضاة مثلا، ولم يكن بإمكان أحد أن يرد ما يحكمون به ويصير إلى خلاف ما يقضون به .

٤ – يعتبر القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد أفضل وأعلم وأفقه وأبرز الأعلام المنحدرين من هذه الأسرة العلمية الشهيرة، فقد قدم للمذهب المالكي في العراق خدمات جليلة، حيث مكث برهة طويلة يبسطه ويشرحه ويلخصه، ويحتج له، ويحدد معالمه، ويظهر محاسنه ومزاياه، وينشر منه ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، وهذا ما جعل البعض يعتبره المؤسس الأول للفرع المالكي بالعراق . وقد ألمعنا إلى عدم صحة هذا الرأي بهذا الإطلاق . وإن كانت جهود القاضي إسماعيل ومساعيه في خدمة المذهب – بلا شك – أكثر ظهوراً، وأقوى تأثيراً، لما حباه الله به من علم غزير، وفقه دقيق، ومعرفة موسوعية مستنيرة . . .

٥ – من أبرز الأئمة الفقهاء الفطاحل الذين انتقلت إليهم رئاسة المذهب بعد إسماعيل القاضي، وأسهموا بحظ وافر ونصيب كبير في تثبيت أركانه، وترسيخ دعائمه، وتحديد معالمه، وتقعيد قواعده :

أ – أبو بكر محمد بن أحمد بن الجهم، المعروف بابن الوراق، المروزي .

ب – أبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري : إمام المالكية في عصره، و القائم برأي مالك بالعراق في وقته، والذي لم ينجب أحد بالعراق من الأصحاب بعد إسماعيل القاضي مثل ما أنجب . . .

ج – أبو الحسن علي بن محمد البغدادي، المعروف بـ « ابن القصار »، شيخ القاضي عبد الوهاب، والذي قال عنه تلميذه أبو ذر الهروي : "هو أفقه من رأيت من المالكيين" .

د – أبو القاسم عبيد الله بن الحسن البصري، المعروف بـ « ابن الجلاب »، شيخ القاضي عبد الوهاب أيضاً، والذي قال فيه الحافظ الذهبي : « كان أفقه المالكية في زمانه بعد الأبهري، وما خلف ببغداد في المذهب مثله » .

هـ – أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي القاضي، الذي لم يكن يوجد من مالكية العراق في عصره من يضاهيه في العلم والفقه، فقد كان نسيج وحده، وفريد وقته، وخاتمة أقطاب المدرسة الفقهية المالكية العراقية .

٦ – مع رحيل القاضي عبد الوهاب إلى مصر بدأت تظهر عوامل ضعف المدرسة المالكية العراقية، التي أخذت في الانهيار والانقراض بعد ذلك، فخبت أضواؤها، وأفل نجمها في البيئة العراقية، وغابت شمسها التي ظلت ساطعة أكثر من قرنين من الزمن في مختلف ربوع العراق .

٧ – تفرد مالكية العراق بالاعتماد على مختصر عبد الله بن عبد الحكم والتعويل عليه في المدارسة والتأليف .

٨ – من أهم وأبرز الخصائص والسمات المنهجية التي تفردت بها المدرسة المالكية العراقية عن غيرها من مدارس الفقه المالكي الأخرى :

أ – الإكثار من تفريع المسائل الفقهية، وذلك بانتهاج أسلوب الفقه الفرضي أو التقديري الذي عرف به أهل العراق عموماً، وخاصة الأحناف، والقائم على أساس افتراض حوادث غير واقعية أو محتملة الوقوع والبحث عن حكم شرعي لها .

ب – اعتماد (المنهج التدليلي) القائم على أساس إيراد المسائل الفقهية مقرونة بأصولها ومصحوبة بأدلتها النقلية والعقلية .

ثمة عاملان أساسيان كان لهما الأثر في تكوين ودعم المنهج التأصيلي الاستدلالي لدى فقهاء مالكية العراق، وهما : أولاً : البيئة العلمية التي ظهر فيها المذهب، وهي بيئة المدينة المنورة المتشبعة بروح الأثر ؛ لأن المدينة كانت مهبط الوحي، ومحضن الرسالة، وموئل الحديث النبوي الشريف . ثانياً : ما يرجع إلى منهج تاليف الموطأ، وهو منهج قائم على أساس بناء الفروع على الأصول . ولما كان لرواة الموطأ من المالكيين السبق في تعريف العراقيين بمذهب مالك ونشره بين أوساطهم، كان من الطبيعي أن يتأثر منهج التاليف عند أهل العراق بهذه الخاصية المنهجية .

ج – اعتماد الأسلوب الحجاجي الجدلي في تحرير الأدلة ومناقشة الخصوم، والرد عليهم، وتفنيد حججهم، ودحض شبهاتهم .

فهرس المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

- أ -

- **الإحكام في أصول الأحكام**

أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ، نشر : دار الحديث – القاهرة .

- **الإرشاد في معرفة علماء الحديث**

الخليل بن عبد الله بن أحمد الخليلي أبو يعلى القزويني (ت : ٤٤٦هـ)، تحقيق : د. محمد سعيد عمر إدريس، الطبعة الأولى : ١٤٠٩هـ، نشر : مكتبة الرشد – الرياض .

- **أزهار الرياض في أخبار عياض**

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، نشر : صندوق إحياء التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة .

- **الإشراف على مسائل الخلاف**

عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي (ت : ٤٢٢هـ)، نشر : مطبعة الإرادة .

- **إضاءة الحالك من ألفاظ دليل السالك**

محمد حبيب الله بن ما يأبى الجكني ثم اليوسفي الشنقيطي، وهي حاشية انتقاها من شرحه على دليل السالك، المسمى : "تبيين المدارك لنظم دليل السالك"، الطبعة الأولى : ١٣٥٤هـ، نشر : مطبعة الاستقامة .

- **أقرب المسالك إلى موطأ الإمام مالك**

محمد التهامي كنون، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية : ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م

- **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**

أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت : ٤٦٣هـ)، نشر : دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

- ب -

- البداية والنهاية

أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ)، طبع مصر ١٣٥١هـ .

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس

أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، طبعة ١٩٦٧م، نشر : دار الكتاب العربي – القاهرة .

- ت -

- التاج والإكليل لمختصر خليل

أبو عبد الله محمد بن يوسف العبدري الشهير بالمواق (ت ٨٩٧ هـ)، مطبوع بهامش "مواهب الجليل" ، الطبعة الثانية : ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م، نشر : دار الفكر .

- تاريخ الأدب العربي

كارل بروكلمان، طبعة دار المعارف – مصر .

- تاريخ بغداد

أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، نشر : دار الكتب العلمية – بيروت

- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس

أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ)، صححه ووقف على طبعه : السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية : ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، نشر : مكتبة الخانجي – القاهرة .

- تذكرة الحفاظ

محمد بن طاهر بن القيسراني (ت ٥٠٧هـ)، تحقيق : حمدي عبد المجيد إسماعيل السلفي، الطبعة الأولى : ١٤١٥هـ، نشر : دار الصميعي – الرياض .

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت ٥٤٤هـ)، الطبعة الثانية : ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، مطبوعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية .

- **التعديل والتجريح لما خرج له البخاري في جامع الصحيح**

سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي (ت : ٤٧٤هـ)، تحقيق : د. أبو لبابة حسين، الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، نشر : دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض .

- **التعليق الممجد على موطأ محمد**

أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، طبعة ١٩٨٢م، نشر : سعيد كمبني - كراتشي .

- **التفريع**

عبيد الله بن الحسن البصري أبو القاسم، المعروف بابن الجلاب (ت : ٣٧٨هـ)، دراسة تحقيق : د. حسين سالم الدهماني، الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، نشر : دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان .

- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**

أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق : جماعة من الأساتذة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية .

- **تنوير الحوالك**

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، طبعة الحلبي بمصر .

- **تهذيب الأسماء واللغات**

أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، الطبعة الأولى : ١٩٩٦م، نشر : دار الفكر، بيروت - لبنان .

- **تهذيب التهذيب**

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، نشر : دار الفكر - بيروت .

- **تهذيب الكمال**

يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي (ت ٧٤٢هـ)، تحقيق : د. بشار عواد معروف، الطبعة الأولى : ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، نشر : مؤسسة الرسالة - بيروت .

- ث -

- **الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني**

صالح عبد السميع الآبي الأزهري (ت ١٢٨٥هـ)، طبعة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، نشر : دار الفكر، بيروت - لبنان .

- **الثقات**

محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت : ٣٥٤هـ)، تحقيق : السيد شرف الدين أحمد، الطبعة الأولى : ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، نشر : دار الفكر .

- ج -

- **جذوة المقتبس في ذكر الأندلس**

أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي، طبعة ١٩٦٦م، نشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة .

- **الجرح والتعديل**

أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي (ت ٣٢٧هـ)، الطبعة الأولى : ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م، نشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت .

- ح -

- **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، طبعة مصر : ١٢٩٩هـ

- **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير**

شمس الدين محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت ١٢٣٠هـ)، نشر : دار الفكر .

- **حلية الأولياء**

أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ)، الطبعة الرابعة : ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي - بيروت .

- د -

- **دراسات في مصادر الفقه المالكي**

ميكلوش موراني، ترجمة : د. سعيد بحيري و د. عمر صابر عبد الجليل ومحمود

رشاد حنفي، الطبعة الأولى : ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، نشر : دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان .

- درة الحجال في غرة أسماء الرجال

أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن القاضي، تحقيق : د. محمد الأحمدي أبو النور، طبعة دار التراث – مصر .

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب

برهان الدين ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ)، تحقيق وتعليق : د. محمد الأحمدي أبو النور، طبعة ١٩٧٢م، نشر : دار التراث – القاهرة .

- ر -

- الرحلة في طلب الحديث

أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر البغدادي (ت : ٤٦٣هـ)، تحقيق : نور الدين عتر، الطبعة الأولى : ١٣٩٥هـ، نشر : دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة

محمد بن جعفر الكتاني (ت ١٣٤٥هـ)، كتب مقدماتها ووضع فهارسها : محمد المنتصر بن محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني، الطبعة الرابعة : ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، نشر : دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان .

- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، وإفريقية، وزهادهم، ونساكهم، وسير من أخبارهم، وفضائلهم وأوصافهم

أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، تحقيق : بشير البكوش، مراجعة : محمد العروسي المطوي، طبعة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، نشر : دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان

- س -

- سنن الترمذي المسمى بالجامع الصحيح – مع شرحه تحفة الأحوذي

أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، نشر : دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

- السنن الكبرى

أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى : ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، نشر : دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان .

- سير أعلام النبلاء

محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي أبو عبد الله (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، الطبعة التاسعة : ١٤١٣هـ، نشر : مؤسسة الرسالة - بيروت .

- ش -

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية

الشيخ محمد بن محمد مخلوف، طبعة ١٣٥٠هـ، نشر : دار الفكر .

- شذرات الذهب في أخبار من غبر

عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت : ١٠٨٦هـ)، نشر : المكتب التجاري، بيروت .

- شرح الزرقاني على الموطأ

محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١١٢٢هـ)، نشر : دار الفكر .

- ط -

- طبقات الفقهاء

أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق : خليل الميس، نشر : دار القلم - بيروت .

- ع -

- العبر في خبر من غبر

محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت : ٧٤٨هـ)، طبعة الكويت : ١٩٧٠م .

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية

أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، تحقيق : رابح بونار، طبعة ١٩٧٠م، نشر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر .

- غ -

- **غاية النهاية**

ابن الجزري، طبعة مصر : ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م .

- ف -

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، نشر : دار المعرفة، بيروت - لبنان .

- **فجر الإسلام**

أحمد أمين، الطبعة الحادية عشرة : ١٩٧٥م، نشر : دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان .

- **فضل الموطأ وعناية الأمة الإسلامية به**

محمد بن علوي المالكي الحسني، الطبعة الأولى : ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، نشر : مطبعة السعادة - القاهرة .

- **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي (ت ٣٧٦هـ)، خرج أحاديثه وعلق عليه : عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، الطبعة الأولى : ١٣٩٦هـ، نشر : المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

- **الفهرست**

محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم (ت ٣٨٥هـ)، طبعة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، نشر : دار المعرفة - بيروت .

- **الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**

أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي (ت ١١٢٥هـ)، طبعة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، نشر : دار الفكر، بيروت - لبنان .

- ق -

- **القاضي إسماعيل المالكي وفقهه**

مصطفى هاشمي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط . السنة الجامعية : ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .

- قواعد الفقه المالكي من خلال كتاب"الإشراف على مسائل الخلاف"للقاضي عبد الوهاب البغدادي

محمد الروكي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط . السنة الجامعية : ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م، .

- القوانين الفقهية

أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ)، الطبعة الثالثة : ١٣٨٢هـ – ١٩٦٢م، مطبعة الأمنية – الرباط .

- ك -

- الكافي في فقه أهل المدينة

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، الطبعة الأولى : ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية – بيروت .

- كتاب الجامع في السنن والآداب، والمغازي، والتاريخ

أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت : ٣٨٦هـ)، تحقيق وتقديم : عبد المجيد تركي، الطبعة الثانية : ١٩٩٠م، نشر : دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان .

- كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطا

محمد الطاهر بن عاشور، طبعة ١٩٧٥م، نشر : الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع – تونس .

- ل -

- لسان العرب

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الطبعة الثالثة : ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، نشر : دار الفكر، بيروت – لبنان .

- م -

- المجلة الأحمدية

العدد الأول : محرم ١٤١٩هـ، والعدد الثاني : جمادى الأولى : ١٤١٩هـ :"منهج كتابة الفقه المالكي بين التجريد والتدليل، للدكتور بدوي عبد الصمد الطاهر .

- مجموعة الفتاوى

تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (ت : ٧٢٨هـ)، اعتنى بها وخرج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز، المجلد العاشر، الطبعة الثانية : ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، نشر : دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ودار ابن حزم .

- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي

عمر الجيدي، طبعة ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م، منشورات عكاظ، مطبعة النجاح - الدار البيضاء

- مختار الصحاح

محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت : ٦٦٦هـ)، الطبعة الأولى : ١٩٩٧م، نشر : دار الفكر العربي، بيروت - لبنان .

- مختصر الدر الثمين والمورد المعين

محمد بن أحمد الفاسي ميارة، طبعة الحلبي بمصر : ١٩٥٢م .

- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ويسمى أيضا :"تاريخ قضاة الأندلس"

أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، الطبعة الخامسة : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، نشر : دار الآفاق الجديدة، بيروت - لبنان .

- المستدرك على الصحيحين في الحديث

محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى : ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، نشر : دار الكتب العلمية - بيروت .

- مسند أحمد

أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت ٢٤١هـ)، نشر : مؤسسة قرطبة - مصر .

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، نشر : دار الفكر ن بيروت - لبنان

- المعجم الوسيط

قام بإخراجه : إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجار، طبعة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، نشر : المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول - تركيا .

- المقدمة

أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت ١٣٢هـ)، نشر : دار الرشاد الحديثة .

- المنتقى شرح الموطأ

أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي (ت ٤٩٤هـ)، الطبعة الأولى : ١٣٣٢هـ، نشر : مطبعة السعادة – مصر .

- الموافقات في أصول الأحكام

أبو إسحاق ابراهيم اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، طبعة ١٣٤١هـ، نشر : دار الفكر – بيروت .

- مواهب الجليل شرح مختصر خليل

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المعروف بالحطاب (ت ٩٥٤هـ)، الطبعة الثانية : ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م، نشر : دار الفكر .

- مولد العلماء ووفياتهم

محمد بن عبد الله بن أحمد بن سليمان الربعي (ت : ٣٩٧هـ)، تحقيق : د. عبد الله أحمد سليمان الحمد، الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ، نشر : دار العاصمة – الرياض .

هـ

- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين

إسماعيل باشا البغدادي، نشر : مكتبة المثنى – بغداد . .

- و -

- الوافي بالوفيات

الصفدي، الطبعة الثانية : ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن خلكان (ت ٦٨١هـ)، طبعة ١٣٦٧هـ، نشر : مطبعة السعادة – مصر .

فهرس الموضوعات



المدرسة المالكية العراقية
النشأة والمميزات

إعداد

د. حميد لحمر*

* أستاذ التعليم العالي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس – المغرب. ولد بفاس سنة (١٩٥٩م)، حصل على دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب بجامعة المولى إسماعيل، ودبلوم الدراسات العليا المعمقة من دار الحديث الحسنية بالرباط تخصص الفقه والقانون، وحصل على دكتوراه الدولة من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس في الفقه. له العديد من الكتب والدراسات.

الباب الأول : المذهب المالكي ومدارسه

أ - مؤسس المذهب :

هو شيخ الإسلام ، إمام دار الهجرة ، أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو ابن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث الأصبحي المدني.

أمه تسمى العالية بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك الأسدية. ولد بالمدينة المنورة سنة ثلاث وتسعين (٩٣هـ) في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ونشأ في بيت علم وصلاح. فقد ذكر المؤرخون أن جده أبا عامر بن عمرو كان صحابياً شهد المغازي كلها مع النبي ﷺ خلا بدر ،وأن ابنه مالكاً (جد الإمام مالك) من كبار التابعين ، ذكره غير واحد ، يروي عن عمر ، و طلحة ، وعائشة ، وأبي هريرة ، وحسان بن ثابت.

وكان لمجتمع المدينة الزاخر بالعلماء وطلاب المعرفة أثر في بناء شخصية الإمام مالك العلمية ، فقد سأل أمه وهو صغير هل يذهب ليكتب العلم كما يفعل الآخرون ، فقالت له : تعال فالبس ثياب العلم ، فالبسته ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسه وعممته فوقها ، ثم قالت : اذهب فاكتب العلم الآن ، ونصحته بأن يبدأ بالإمام ربيعة فيتعلم من أدبه قبل علمه.

وقد أخذ الإمام مالك عن كثير من الشيوخ فاق عددهم تسعمائة شيخ [1] ، من التابعين وأتباعهم ، من أشهرهم ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ المدني ، المعروف بربيعة الرأي ، فهو أول شيخ التقى به الإمام مالك فاستفاد كثيراً من أدبه وسلوكه المتميز ، قبل أن يأخذ الفقه والحديث ، ثم لزم الشيخ الفاضل أبا بكر عبد الله بن يزيد المعروف بابن هرمز سبع سنين متصلاً لا يخلط به أحداً من الشيوخ ، ولزم أيضاً الشيخ الإمام أبا عبد الله نافع بن

---

(١) انظر كتاب : شيوخ مالك لابن خلفون الأزدي ، تحقيق محمد زينهم ، طبعة تونس.

جرجس مولى عبد الله بن عمر ، وكان الإمام مالك ينتظر في الطريق في حر الشمس وما يظله شيء حتى يلتقي به ويأخذ عنه ، وطالت صحبته له بعد أن كف بصره ، فكان مالك يقوده من منزله بالبقيع إلى المسجد النبوي. وعلى العموم فشيوخ الإمام مالك كثر.

ورغم كثرة شيوخه فإنَّه كان شديد التحري والانتقاء ، لا يأخذ إلا عن الثقة ، ولا يحدث إلا بما صح عنده ، فقد نقل القاضي عياض عن ابن أبي زنبر قال : سمعت مالكاً يقول : كتبت بيدي مائة ألف حديث(١) .

وروى ابن وهب عنه أيضاً أنه قال : أدركت بهذه البلدة أقواماً لو استسقي بهم المطر لسقوا ، قد سمعوا العلم والحديث كثيراً ، ما حَدَّثْتُ عن أحد منهم شيئاً ، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد ، وهذا الشأن يحتاج إلى رجل معه تقوى وورع وصيانة وإتقان وعلم وفهم ، فيعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه غداً ، فأمَّا رجل بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به ، ولا هو حجة ولا يؤخذ عنه(٢) .

مجلسه العلمي ومناقبه :

ذكر القاضي عياض أن الإمام مالك انتصب للدرس وهو ابن سبع عشرة سنة ، وما جلس حتى شهد له سبعون شيخاً من أهل العلم.

قال الإمام مالك رحمه الله : « ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل ، وأهل الجهة من المسجد ، فإن رأوه أهلا لذلك جلس ، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع ذلك »(٣) .

---

(١) ترتيب المدارك : ١/ ١٣٣ .

(٢) ترتيب المدارك : ١/ ١٣٧ .

(٣) ترتيب المدارك : ١/ ١٤٢ .

وقد كانت حلقات درس الإمام تعقد في أول الأمر بالمسجد النبوي ، ثم انتقل من المسجد إلى البيت بسبب المرض الذي لم يعلنه ، لأنَّه لا يقدر أن يتكلم بعذره [١]– والله أعلم – .

ونقل ابن فرحون عن الواقدي أنه قال : كان مالك يأتي المسجد ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز ، ويعود المرضى ويقضي الحقوق ويجلس في المسجد فيجتمع إليه أصحابه، ثم ترك الجلوس في المسجد ، فكان يصلي وينصرف إلى مجلسه . وترك حضور الجنائز ، فكان يأتي أصحابه فيعزيهم ، ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة ولا يأتي أحداً يعزيه ، ولا يقضي له حقاً ، واحتمل النَّاس له ذلك ، حتَّى مات عليه، وكان ربما قيل له في ذلك ، فيقول : ليس كل النَّاس يقدر أن يتكلم بعذره [٢] .

وقد تميزت مجالسه العلمية بالوقار والسكنية ، والابتعاد عن لغو القول وما لا يحسن بمثله ، وكان يرى ذلك لازماً لطالب العلم ، وكان يقول : حق على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية [٣] .

كما اجتمعت للإمام مالك مناقب لم تجتمع لغيره من الأئمة ، وقد جمعها الإمام الذهبي فقال : وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره ، أحدها : طول العمر ، وعلو الرواية ، وثانيها : الذهن الثاقب ، والفهم وسعة العلم ، وثالثها : اتفاق الأمة على أنَّه حجة صحيح الرواية ، ورابعتها : تجمعهم على دينه وعدالته ، واتباعه السنن ، وخامستها : تقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده [٤] .

---

(١) وقيل بأن مرضه سلس البول .

(٢) الديباج المذهب : ١/١٠٦ .

(٣) الإمام مالك لأبي زهرة : ص ٤٤ .

(٤) طبقات الحفاظ : ١/١٩٨ .

مؤلفاته :

قال القاضي عياض : « اعلموا وفقكم الله أنَّ لمالك رحمه الله أوضاعاً شريفة مروية عنه ، أكثرها بأسانيد صحيحة في غير فن من العلم ، لكنه لم يشتهر عنه منها ، ولا واظب على إسماعه ورواياته ، غير الموطأ ، مع حذفه منه وتلخيصه له شيئاً بعد شيء . وسائر تواليفه إنَّما رواها عنه من كتب بها إليه ، أو سأله إياها ، أو آحاد من أصحابه ، ولم تروها الكافة .

فمن أشهرها رسالته إلى ابن وهب في القدر ، والرد على القدرية ، وهو من خيار الكتب في هذا الباب ، الدال على سعة علمه بهذا الشأن رحمه الله[١] .

ومن ذلك رسالة مالك في الأقضية ، كتب بها لبعض القضاة ، عشرة أجزاء ، رواها عنه عبد الجليل بن عبد الجليل .

ومن ذلك أيضاً رسالة إلى أبي غسان محمد بن مطرف في الفتوى ، وهي مشهورة يرويها عنه خالد بن نزار ومحمد بن مطرف ، وقد نقل إسحاق بن سعيد أقوال مالك في هذه الرسالة منها في كتابه .

ورسالته إلى هارون الرشيد المشهورة في الآداب والمواعظ[٢] .

ومن ذلك كتابه في التفسير لغريب القرآن الذي يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومي[٣] ، وكذلك رسالته إلى الليث بن سعد في إجماع أهل المدينة[٤] .

---

(١) ترتيب المدارك : ١ / ٩٠، ٩١ .

(٢) لدي نسخة مخطوطة من هذه الرسالة ، وقد شكك مجموعة من العلماء في صحة نسبتها إليه .

(٣) ونظراً لفقدان هذا التفسير فقد قمت بجمعه وتوثيقه في كتاب خاص سميته : تفسير الإمام مالك جمع وتحقيق وتقديم ، قدم كرسالة لنيل الماجستير في سنة ١٩٩٢م ، وطبع بدار الفكر بيروت – لبنان ١٩٩٥م .

(٤) مشهورة متداولة .

وفاته:

لقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، كما اختلفوا في سنة ميلاده ، إلا أنَّ الذي رجحه أئمة المؤرخين وأصحاب الطبقات كالقاضي عياض ، أن وفاته كانت في ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ في يوم الأحد [١] .

ب- نشأة المدارس الفقهية المالكية وأهم رجالاتها:

من المعلوم أنَّ المذهب المالكي نبع بالمدينة ، موطن الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – ففيها تفجر ، ومنها انتشر ، فكانت المدينة كلها في عصره على رأيه ومنهجه ، ومنها خرج إلى جهات أخرى من أنحاء العالم عن طريق التلاميذ الوافدين عليه من المشرق والمغرب قصد الرواية والسماع ، فانتشر في أماكن أخرى من بلاد الحجاز ، فمنها خرج إلى اليمن وانتشر هناك عن طريق يحيى بن ثابت [٢] كاتب الإمام مالك ، وأبو قرة موسى بن طارق السكسكي[٣]، ومحمد بن حميد بن شروس [٤] .

وانتقل المذهب إلى مصر على يد كبار تلامذة مالك ، منهم :

عثمان بن الحكم الجذامي[٥]، وهو أول من أدخل علم مالك مصر ، وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد[٦] شيخ عبد الرحمن بن القاسم ، وعنده تفقه قبل رحلته إلى مالك ، وسعد

---

(١) ترتيب المدارك : ١/١٤٨، ١٤٩ .

(٢) انظر ترجمته في المدارك : ٥/٥٣ .

(٣) انظر ترجمته في المدارك ، والديباج : ٢/٣٣٤ .

(٤) انظر ترجمته في المدارك : ١/١٩٤ .

(٥) من أصحاب الإمام مالك المصريين ، له روايات مشهورة عن مالك ، وله عنه أيضاً سبعة عشر حديثاً ، روى عنه ابن وهب كثيراً في موطئه وفي المدونة ، توفي سنة ١٦٣هـ .
[انظر ترتيب المدارك: ٣/٥٣ ، والديباج المذهب : ١/٨٣] .

(٦) تفقه عنده ابن القاسم بمصر ، قبل رحلته إلى مالك ، وكان يجمع بين الزهد والعلم ، وقد روى عن مالك الموطأ، وروى عنه الليث، وابن وهب، توفي سنة ثلاث وستين ومائة بالإسكندرية وسنه ثلاث وخمسون سنة .
[انظر ترتيب المدارك : ٣/٥٤-٥٥] .

ابن عبد الله المعافري [١] شيخ عبد الله بن وهب المصري وبه تفقه.

وفي هذا الشأن يقول القاضي عياض : « وأمَّا أرض مصر ، فأول أرض انتشر بها مذهب مالك بعد المدينة وغلب عليها ، وأصفق أهلها على الاقتداء به إلى أن قدم عليهم الشَّافعي ، فكان واحداً منهم ، معدوداً فيهم ، إلى أن أكثر عليه فتيان بن أبي السمح من فقهائهم ، وجرت بينه وبينه خطوب ، اقتضت تحيزه مع أصحابه ، فنبع بها حينئذ مذهب الشَّافعي ، وكثر أصحابه والمتعصبون له ، وقد انتشر في الآفاق ، ومذهب مالك في كل ذلك ظاهر بها غالب عليها إلى وقتنا هذا »[٢].

كما عرف المذهب المالكي طريقه نحو بلاد إفريقية والغرب الإسلامي ، فاستقر أولاً بالقيروان مع أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمرو بن غانم القاضي[٣]، وأبي الحسن على بن زياد التونسي [٤] ، وهو أول من أدخل بلاد المغرب الموطأ ، وفسر لأهلها قول مالك ، ولم يكونوا يعرفونه من قبل [٥] .

يقول الشيخ الشاذلي النيفر: « وهذه المدرسة التي وضع لبنتها علي بن زياد ، هي مدرسة مالك بن أنس ، فهو الذي أدخل مذهبه هذا للديار المغربية وعرف به ، وشرحه للنَّاس ، وبيَّن قواعده ، حتَّى اقتنعت به الأفكار، ولم يجتذبها إليه بسلطان ولا نفوذ » [٦].

---

(١) هو أبو عمرو ، وقيل: أبو محمد ، وقيل: أبو عثمان ، من أقران عبد الرحيم من كبراء أصحاب مالك المصريين. سمع منه ابن القاسم ، وأشهب ، وابن وهب ، وابن عفير ، وابن بكير ، وغيرهم ، توفي بالإسكندرية سنة ثلاث وسبعين ومائة (١٧٣هـ).

[انظر ترتيب المدارك: ٣/٥٦، ٥٧] .

(٢) المدارك: ١/٢٥ .

(٣) المدارك : ٣/٦٥ . وطبقات أبي العرب التميمي ، ص :١١٦ .

(٤) انظر الديباج: ٢/٩٢ . وطبقات أبي العرب ، ص :٢٢٠ .

(٥) انظر تاريخ المذهب المالكي بالغرب الإسلامي ، ص: ٢٣ .

(٦) مقدمة محقق كتاب الموطأ برواية علي بن زياد ، ص:٣٥ .

ويذكر القاضي عياض أن عبد الله بن غانم (ت١٩٠هـ) أول من التقى بمالك من أبناء القيروان ، سمع منه الموطأ ، وكان مالك يجله ويقربه إليه [١] ، وقد سُرَّ لما بلغه خبر توليه قضاء القيروان ، كما كان يكاتب مالكاً في بعض النوازل خلال مدة توليه القضاء فيجيبه عنها .

ثم تطورت هذه على يد أسد بن الفرات وسحنون ، وإن كان أسد قد مال إلى المذهب الحنفي الذي ينسب إليه إدخاله إلى إفريقية في حين أنَّه في الحقيقة من أول الذين نشروه بها ، وأما أول دخوله إليها فقد ثبت أنه كان على يد عبد الله بن فروخ (ت١٧٢هـ) . كما كان لأسد الفضل في تدعيم المدرسة الفقهية القيروانية بشعبتيها المالكية والحنفية ، فقد علم المذهبين معاً بالإضافة إلى اعتباره أعلم العراقيين بالقيروان[٢] .

أمَّا الذي دعم المدرسة المالكية القيروانية حتَّى جعل لها الصدارة على الحنفية فهو سحنون بن سعيد خاصَّة بعد توليه القضاء فهو رأس المالكية الإفريقية وإمامها في عصره .

ومن أبرز المالكية القيروانية في القرن الثالث : محمد بن سحنون (ت٢٥٦هـ) ، الذي يعتبر إماماً في الفقه والكلام ، ولم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه ، وكان أكثر اعتماده على أبيه سحنون كما سافر إلى المشرق ، فلقي أبا مصعب الزُّهْري (ت٢٤٢هـ) صاحب مالك وغيره من فقهاء المالكية ، ثم رجع إلى القيروان وانتصب للتدريس فتخرج على يديه كثير من أهل العلم[٣] .

وانتهت رئاسة المذهب المالكي بالقيروان بعد ابن سحنون إلى أبي عثمان سعيد بن الحداد (ت٣٠٢هـ) الذي اشتهر بنبذه للتقليد واجتهاده وردوده ومناقشته الفقهاء والمتكلمين.

---

(١) انظر : ترتيب المدارك : ٣/٦٦ .

(٢) انظر: معالم الإيمان: ٢/١١ ، وترتيب المدارك : ٢/٤٧٤ .

(٣) انظر : ترتيب المدارك : ٣/١٠٤ .

وبفضل مجهودات هؤلاء الفقهاء التزم القيروانيون بالمذهب المالكي ، ولم يرضوا بأي مذهب آخر ، بديلاً عنه ، وذلك رغم انتشار المذهب الحنفي في نفس الفترة ، وهو المذهب الذي وجد عناية من الفقهاء ثم من أهل السلطة.

أمَّا بلاد الأندلس : فقد ظل أهلها على رأي – أو مذهب – أبي عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام منذ الفتح الإسلامي ، إلى أن رحل إلى المشرق جماعة من أبناء الأندلس ، من أجل الحج وطلب العلم. فالتقوا بالإمام مالك ، وسمعوا منه ، وأخذوا عنه كتاب الموطأ ، فلما رجعوا إلى بلادهم وصفوا للنَّاس فضله وسعة علمه وجلالة قدره ، وجلسوا في حلقات الدرس يعلمون الناس أحكام الدين ورواية ما حملوه معهم من المشرق ، وبالأخص موطأ الإمام مالك ، ويأتي الفقيه الغازي بن قيس في مقدمة هذه النخبة ، فهو أول من أدخل الأندلس موطأ الإمام مالك.

ويرى بعض الباحثين أن أول من أدخل موطأ مالك بن أنس الأندلس هو يحيى بن يحيى الأندلسي[١] . أمَّا إحسان عباس ، فيرى : أنه من الصعب تحديد من هو أول من أدخل مذهب وموطأ مالك بن أنس إلى الأندلس ، قال : « فمن قائل إنَّه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، لأنه أول من أدخل الموطأ إلى بلده ، ومن قائل إنَّ الغازي بن قيس دخل الأندلس بالموطأ في أيام عبد الرحمن »[٢] .

أمَّا بلاد خراسان ، وما وراءها من أرض المشرق : فقد دخلها المذهب المالكي في البداية مع تلامذة الإمام – رحمه الله – وعلى رأسهم يحيى بن بكير التميمي الذي أقام بالمدينة مدة انتهائه من الأخذ والسماع ملازماً الإمام مالك للاستفادة من هديه وشمائله. كما كان له أئمة بهذا البلد على مر العصور ، وفشا بقزوين وأبهر وما والاها من بلاد الجبل،

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، ص : ٢٨ .

(٢) نفسه .

وكان آخر من درس فيه بنيسابور أبو إسحاق بن القَطَّان . وغلب على تلك البلاد مذهب أبي حنيفة والشَّافعي[١] .

وأمَّا بلاد الشام : فكان الغالب عليها مذهب أبي عمرو الأوزاعي ، ودخلها المذهب المالكي عن طريق أصحاب مالك : أبي العباس الوليد بن مسلم بن أبي السائب ، وأبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي[٢] .

ج- نشأة المدرسة المالكية العراقية :-

وأمَّا في بلاد العراق : فقد دخلها المذهب المالكي واستقر فيها بالبصرة مع أبي عبدالرحمن عبد الله بن مسلمة القعنبي ، الذي لازم الإمام مالك لمدة عشرين سنة[٣] . كما ازدهر فيها بواسطة أصحاب مالك كعبد الرحمن بن مهدي[٤] . وبعد هؤلاء ازدهر بواسطة أتباعهما وتلامذتهما كابن المعذل[٥] .

على أنَّ المذهب المالكي ، سوف يزدهر أكثر في عهد أسرة آل حماد بن زيد ، كالقاضي إسماعيل بن إسحاق ، الذي تولى القضاء بها لمدة طويلة زادت عن اثنتين وثلاثين سنة . ومما لا شَكَّ فيه أنَّ تنظيم القضاء وفق مذهب معين ، وتحت إشراف الدولة ، من شأنه أن ينمي ويعطي القوة والتمكين للمذهب الذي يتنزل على واقع النَّاس والمتقاضين . وهذا نفسه هو الذي حصل في هذه الفترة – خصوصاً في عهد أسرة آل حَمَّاد المالكية – .

وتولى القضاء بعده ابن عمه أبو عمر محمد بن يوسف ، وظل يتولى هذا المنصب إلى أن توفي سنة ٣٢٠هـ[٦] .

---

(١) انظر المدارك : ١ / ٢٤ . والمذاهب الفقهيه الاربعة لاحمد تيمور باشا ، ص:٦١-٦٢ .

(٢) انظر المدارك : ٣/ ٢١٩ . والديباج : ٢/ ٥٣ .

(٣) انظر المدارك : ٣/ ١٩٨ . والديباج : ١/ ٥١١ .

(٤) انظر ترجمته في المدارك : ١/ ٢٤ .

(٥) انظر ترجمته في المدارك : ٤/ ٥-٧ .

(٦) المدارك : ٥/ ١٠-١٢ .

وجاءت بعد هؤلاء طبقة أخرى خدمت المذهب المالكي بفضل ما أنتجت من أصول علمية تناولت موضوعات انفردت بها عن باقي البقاع المالكية ، وبمناهج جديدة مبتكرة وجدت القبول والشهرة والتداول في مجالس العلم ، وتجاوزت حدود العراق ، فتناولتها الأقلام بالشرح والتعليق والتنكيت والاختصار ، فأعطت نفساً جديداً لمالكية العراق وشجعتهم على المزيد من الابتكار ، كأبي بكر الأبهري ، وأبي بكر الباقلاني ، وابن الجلاب ، وابن القصار ، والقاضي عبد الوهاب البغدادي . وبموت هؤلاء ، وتوقف حلقاتهم العلمية ، ضعف المذهب المالكي في العراق ، بل يمكن أن يقال : إن بموتهم وبخروج القاضي عبد الوهاب من بغداد إلى مصر ، كانت نهاية هذه المدرسة المالكية .

وبانتشار المذهب المالكي في هذه الأماكن تكونت مجموعة من المدارس عملت على خدمة المذهب المالكي ، كان لها مؤسسون ، وجاء بعدهم بناة تأسست على عاتقهم هذه المدارس ، وهي في مجموعها أربع :-

١- المدرسة المصرية .

٢- المدرسة القيروانية .

٣- المدرسة الأندلسية .

٤- المدرسة العراقية .

والمدرسة العراقية هي وليدة مدرسة المدينة - المدرسة الأم - ، غير أن منهجها الفقهي تأثر بالبيئة الفقهية في العراق ، وهو منهج مدرسة أهل الرأي الغالب عليها .

ونتيجة لهذا التأثر تميزت مدرسة العراق المالكية ، ومن العراق سلكت طريقها إلى باقي المدارس المالكية .

لقد امتاز علماء المالكية بالعراق على أقرانهم ، بسعة الاطلاع على المذاهب الأخرى،

والاقتباس من طرقها وأساليبها ، فتعاطوا علم الأصول [١] ، وأنشأوا قواعد [٢]على غرار الأصوليين الأحناف والشافعية . ولم يسبقهم في ذلك أحد من المغاربة أو الأندلسيين أو المصريين الذين كانوا فقهاء أكثر منهم أصوليين ، وتناولوا المسائل الفقهية بالتحليل والتفريع ، وفق مناهج منطقية تقوم على الافتراض والتقدير . وتعاطوا تخريج الفروع اعتماداً على الاجتهاد .

ودرسوا إلى جانب المذهب المالكي المذاهب الأخرى ، فألفوا في الخلافيات– أو علم الخلاف الفقهي العالي – مع سلكهم منهج الاستدلال اعتماداً على النقل – القرآن والحديث والأثر – كما سوف نبين في مبحث أسس الخلافيات ، كما ألَّفوا في الذب عن المذهب[٣] وصاحبه [٤] والرد على مخالفيه[٥] .

(١) لقد تفرد مالكية العراق بالسبق المنظم إلى التصنيف في أصول الفقه والتبريز في ذلك ، وإلى التصنيف في الفروق الفقهية ، حيث كان مؤلف أبي العلاء لحسن بن محمد البغدادي من أول من صنف في المذهب في ذلك، وإلى الحديث المفصل عن قواعد الفقه المالكي من خلال كتاب الإشراف للقاضي أبي محمد .

(٢) يلحظ ذلك من يقرأ في كتاب التفريع لابن الجلاب الذي يمثل خلاصة فكر المدرسة العراقية الفقهي. ولعل اهتمام مالكية العراق بالتقعيد يرجع إلى احتكاكهم بالمذاهب الأخرى ، كالمذهب الحنفي والمذهب الشافعي اللذين بدأ فيهما التقعيد كفن في مرحلة مبكرة بالنسبة للمذهب المالكي.

(٣) منها : كتاب الحجة في مذهب مالك للقاضي أبي محمد بن الجهم المعروف بابن الوراق (ت٣٢٩هـ) ، وكتاب النصرة لمذهب مالك في مائة جزء للقاضي أبي محمد عبد الوهاب البغدادي (ت ٤٢٢ هـ). ويحكى بأن هذا الكتاب وقع بيد بعض قضاة الشافعية فالقاه في النيل. انظر الشجرة: ص ١٠٤ . وألف أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله الهذلي البصري كتاباً في الفقه أجاب فيه عن مسائل مختصر المزني على قول مالك ، انظر الشجرة : ص ٩١ .

(٤) منها : كتاب في مناقب مالك للقاضي الدينور أبي بكر بن جعفر بن محمد بن الحسين (ت ٣٠١ هـ) . انظر الشجرة : ص ٧٧ . وكتاب :فضائل مالك للقاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سهل البركاني البصري (ت ٣١٩هـ). انظر الشجرة : ص ٧٨ . ورسالة إلى من جهل محل مالك في العلم لأبي الفضل بكر بن العلاء البصري (ت٣٤٤هـ). انظر الشجرة : ص ٧٩ . وكتاب مناقب مالك ، نحو عشرين جزءاً للقاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد التستري (ت ٣٤٥ هـ). انظر الشجرة : ص ٧٩ – ٨٢ . وكتاب فضائل مالك لأبي ذر الهروي (ت ٤٣٥ هـ). انظر الشجرة : ص ١٠٨ .

(٥) منها: كتاب الرد على الشافعي لأبي اسماعيل حماد بن إسحاق بن حماد البغدادي(ت٢٦٩هـ). وكتاب الرد على المزني والرد على الشافعي والرد على القدرية لأبي الفضل بكر بن العلاء القشيري البصري =

ولعلَّ من أهم ما تميز به فقهاء المدرسة المالكية العراقية :

١- ممارستهم للفقه الافتراضي - أو التقديري - وتخريج الفروع .

٢- تأسيسهم لعلم الخلاف ، وتفوقهم فيه.

***

= (ت٣٤٤هـ) . وكتاب الرد على أبي جعفر الإسكافي لأبي محمد عبد الملك بن مروان (ت٣٦٣هـ). وكتاب الرد على ابن علية فيما أنكره على مالك لأبي جعفر محمد بن عبد الله الأبهري (ت ٣٦٥ هـ). وكتاب الرد على الشافعي لأبي العباس أحمد بن عبد الوهاب الحمادي . انظر شجرة النور الزكية: ص ٦٥، ٧٩، ٩٠، ٩٣ . وكتاب الرد على محمد بن الحسن لأبي بكر بن الجهم المالكي (ت ٣٢٩هـ) تمم به كتاب إسماعيل القاضي. انظر الفهرست : ص ٢٥٣ .

الباب الثاني : من مميزات المدرسة المالكية العراقية

المبحث الأول : ممارسة المدرسة المالكية العراقية للفقه الافتراضي أو التقديري[١] وتخريج الفروع[٢]

أ- البيئة العراقية ومدى تأثيرها في المدرسة المالكية بها :

لقد سلكت كل مدرسة – من المدارس السالفة الذكر- طريقاً ومنهجاً في التفكير والاستنباط خاصاً بها ويلائم البيئة والظروف المحيطة بها .

غير أن علماء العراق من المالكيين ، كان طبيعي أن يتأثروا بفقه العراق ومنهجهم ، الذي يختلف عن فقه ومنهج أهل الحجاز – كما أشرنا سابقاً – وكما ينص على ذلك العلامة ابن خلدون ، قال في مقدمته : « وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس ، وهم : أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث ، وهم : أهل الحجاز ، وكان الحديث قليلاً في أهل العراق كما قدمناه ، فاستكثروا من القياس ، ومهروا فيه. فلذلك قيل: أهل الرأي ، ومقدم جماعتهم استقر المذهب فيه ، وفي أصحابه أبو حنيفة ، وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده »[٣] .

---

(١) الافتراض أو التقدير: هو افتراض امور فقهية لازالت لم تحدث بعد ، لإيجاد حلول لها مسبقاً ، حتى إذا ما نزلت بالأمة ، كان حكمها جاهزاً يمكن تنزيله على الواقعة.

(٢) التخريج : بعد أن جمعت أقوال الأئمة المجتهدين ، وصار لكل إمام أصحاب وتلاميذ ، يشتغلون بحفظ أقواله ورواياتها فقد أصبحت الحصيلة – عند من جاء بعدهم – علماً يدرسه المنتسبون إلى مذهب ذلك الإمام. ولما كانت أقوال إمام المذهب على كثرتها لا تكفي لمواجهة كل ما جد بعد عصره من مسائل ، فقد عكف أتباعه الملتزمون باصوله ، والمتقنون لقواعده ، على قياس المسالة التي لا نص للإمام فيها على المسألة المنصوص عليها ، بعد تحقيق المناط – العلة – ، فكان هذا الإلحاق والعملية هي المسماة بعد ذلك بتخريج الاقوال في المذهب. والقائم بهذا العمل من أهل التخريج ، وهو في نفس الوقت من مجتهدي المذهب. فإن كان مقلداً غير عارف بالأصول ، فإنه لا يجوز له القياس أصلاً. وقد عرف التخريج المذهبي بكونه قياساً ، ولكنه من نوع خاص ، ليس كقياس الأصوليين.

(٣) المقدمة : ص ٤٤٦ .

ووفقاً لما قاله العلامة ابن خلدون ، فقد سار فقهاء العراق المالكية على طريقة أصحاب الرأي والجدل ، كما قلدوهم في الفقه الافتراضي أو التقديري والتفريع والتخريج .

في حين احتفظ علماء الغرب الإسلامي بمنهج أهل الحجاز في الاعتماد أساساً على النقل والأثر ، كما حاولوا تطوير منهجهم ، وذلك بمزجه بالطريقة العراقية في تفريع المسائل بالافتراض والتقدير ، بسبب احتكاكهم بمالكية علماء العراق ، أثناء رحلاتهم العلمية إليها، وبسبب تطور الحضارة بها والتي أدت إلى كثرة النوازل .

وإلى هذا يشير المقري ، ومن خلال مقارنته لطريقة العراقيين والقرويين[١] ، قائلا : وقد كان للقدماء – رضي الله عنهم – في تدريس المدونة اصطلاحان : اصطلاح عراقي ، واصطلاح قروي .

فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس ، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس ، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ، ومناقشة الألفاظ . ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل ، وتحرير الدلائل ، على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين .

وأمَّا الاصطلاح القروي: فهو البحث عن ألفاظ الكتاب[٢]، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب ، وتصحيح الروايات ، وبيان وجوه الاحتمالات ، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب ، واختلاف المقالات ، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار ، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع ، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها »[٣] .

---

(١) المراد بهم علماء القيروان بشمال إفريقيا .

(٢) المراد بالكتاب في اصطلاح المالكية : المدونة ، ويطلق عليها احيانا : الأم ، وتارة يعبر عنها بـ : فيها .

(٣) أزهار الرياض : ٣ / ٢٢ .

إذن فمن السمات التي تميزت بها المدرسة العراقية المالكية ، الاعتناء بالفقه الافتراضي، وذلك – وكما قلنا – لعله يعود إلى التأثر بالبيئة .

فقد كان مالكية العراق يعايشون فقهاء الحنفية الذين ازدهر لديهم الفقه الافتراضي أو التقديري، وتخريج الأقوال منذ النشأة الأولي للفقه ، مما ترك أثراً واضحاً في مؤلفاتهم .

ولقد كان الدافع لإنشاء علم الفروع والتخريج والافتراض أو التقدير في الفقه المالكي بالعراق – إضافة إلى ما سلف ذكره من تأثرهم بالفقه العراقي ومنهجهم المتميز – المستوى الحضاري المتميز الذي عرفته وبلغته بغداد ، بسبب المدنية المتطورة ، خصوصاً في القرن الثالث والرابع ، والتنوع البشري ، وما يحمل من عقليات متنوعة ، إضافة إلى تكاثر الحوادث والنوازل الطارئة بسبب الغنى المادي والرفاهية – وهو الذي سوف يحصل فيما بعد بالأندلس – .

ومعلوم أنَّه كلما ازداد التقدم والازدهار والنمو الاقتصادي والاجتماعي ؛ تولدت الحوادث ، وحلت المشاكل ، ووجد الفقهاء أنفسهم مضطرين إلى توسيع دائرة خيالهم وتحريك سواكن أفكارهم ؛ لإيجاد الحلول المناسبة وحل النزاعات والخلافات بصفة حاسمة، ذلكم لأنه وكما يقال: النصوص محدودة ، والنوازل ممدودة . فالأصول والقواعد الثابتة المتناهية لا يمكن أن تستوعب كل النوازل الحادثة وغير الحادثة.

فأخذ الفقهاء يعالجون الأمور بدراسة الأصول والقواعد وتحديد غاياتها ، وضبط عللها، والقياس عليها ، واستنباط قواعد فرعية مستخرجة منها ، وإصدار حكم شرعي لكل حادثة جديدة. فنشأ عن ذلك علم الفروع ، فكثر التفريع والتخريج.

أمَّا التخريج: فبعد أن جمعت أقوال الأئمة المجتهدين ، وصار لكل إمام أصحاب وتلاميذ ، يشتغلون بحفظ أقواله ورواياتها ، فقد أصبحت الحصيلة – عند من جاء بعدهم – علماً يدرسه المنتسبون إلى مذهب ذلك الإمام. ولما كانت أقوال إمام المذهب على كثرتها لا تكفي لمواجهة كل ما جد بعد عصره من مسائل ، فقد عكف أتباعه

الملتزمون بأصوله ، والمتقنون لقواعده ، على قياس المسألة التي لا نص للإمام فيها على المسألة المنصوص عليها ، بعد تخريج المناط[١] – العلة – ، فكان هذا الإلحاق والعملية هي المسماة بعد ذلك بتخريج الأقوال في المذهب . والقائم بهذا العمل من أهل التخريج ، وهو في نفس الوقت من مجتهدي المذهب . فإن كان مقلداً غير عارف بالأصول ؛ فإنَّه لا يجوز له القياس أصلاً .

وقد عرف التخريج المذهبي بكونه قياساً ، ولكنه من نوع خاص ، ليس كقياس الأصوليين .

والفرق بين التخريج والقياس ، هو أنَّ القياس ما يفعله المجتهد المطلق من إخراج المسائل على النص ، أي الآية والحديث . والتخريج ، هو ما يفعله مجتهد المذهب[٢] من إخراج مسألة على نظيرتها ، قال في مراقي السعود :

---

(١) معنى تخريج المناط : البحث عن علة الحكم . وأكثر من اشتغل بذلك علماء الحنفية ، فقد كان كثير من الأحكام التي رووها عن أئمتهم غير معللة فاجتهدوا في بيان الأصول التي جرى عليها الأئمة في استنباطهم ، وقد يختلف العلماء في تخريج هذه العلل ، وبيان العلة يفتح أمامهم باب الفتيا فيما ليس فيه نص عن الإمام متى عرفت علة ما نص عليه ، ووضعوا عند ذلك ما سموه بأصول الفقه اجتهاداً منهم أن هذه أصول أئمتهم التي بنوا عليها استنباطهم . يقول ولي الله الدهلوي : واعلم أني وجدت أكثرهم يزعمون أن بناء الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي على هذه الأصول المذكورة في كتاب البزدوي ونحوه . وإنما الحق أن أكثرها أصول مخرجة على قولهم .

[انظر : تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري بك ، ص : ٢٤٠ ، ٢٤١ ، وانظر موافقات الشاطبي : ٤ / ٩٨] .

(٢) مجتهد المذهب : هو من يتبع المجتهد المستقل في الأصول والفروع التي انتهى إليها ، وعمله في استنباط أحكام المسائل التي لا رواية فيها عن الإمام ، وعمله في الاجتهاد هو تحقيق المناط ، أي تطبيق العلل الفقهية التي استخرجها سابقوه ، فيما لم يعرض له السابقون من المسائل . وهؤلاء يسمون أصحاب الوجوه، لأنهم يخرجون ما لم ينص عليه على أقوال الإمام ، ويسمى ذلك وجهاً في المذهب أو قولاً فيه ، وليس لهم أن يجتهدوا في مسائل قد نص عليها في المذهب إلا في دائرة معينة ، وهي التي يكون =

إن لم يكن لنحو مالك ألف
قول بذي وفي نظيرها عرف
فذاك قوله بها المخرج
وقيل : عزوه إليه حرج

ومثله في جمع الجوامع وقف على هذا الفرق فإنَّه فرق حسن [(١)] .

وقد بيَّن الخطيب الشربيني المراد باصطلاح التخريج عند الشافعية فقال : « التخريج أن يجيب الشافعي بحكمين مختلفين في صورتين متشابهتين ، ولم يظهر ما يصلح للفرق بينهما ، فينقل الأصحاب جوابه في كل صورة إلى الأخري ، فيحصل في كل صورة منهما قولان : منصوص ، ومخرج المنصوص في هذه المخرج في تلك ، والمنصوص في تلك هو المخرج في هذه ، فيقال فيهما قولان بالنقل والتخريج .

والغالب في مثل هذا عدم إطباق الأصحاب على التخريج ، بل منهم من يخرج ، ومنهم من يبدي فرقاً بين الصورتين ، والأصح أن القول المخرج لا ينسب للشافعي ؛ لأنه ربما روجع فيه ، فذكر فارقاً »[(٢)] .

أمَّا في اصطلاح الحنابلة فالمراد به : « هو نقل حكم مسألة إلى ما يشبهها والتسوية بينهما »[(٣)] . وقال في مكان آخر : « إن تخرج من نص ونقل إلى مسألة فيها نص يخالف ما خرج فيها ؛ صار فيها رواية منصوصة ، ورواية مخرجة ، وإن لم يكن فيها ما يخالف النص

= استنباط السابقين فيها مبنياً على اعتبارات لا وجود لها في عرف المتاخرين بحيث لو رأى السابقون ما يرى الحاضرون لأعرضوا عما قالوا .

[انظر كتاب : العلاقة بين الفقه والدعوة لمفيد خالد عيد أحمد عيد . صفحة : ٦١– ٦٣] .

(١) انظر : العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل للسلطان مولاي عبد الحفيظ ، ص : ٥٥ .

(٢) مغني المحتاج : ١ / ١٣ .

(٣) المدخل لابن بدران : ص ٥٦ .

المخرج فيها من نصه في غيرها ؛ فهو وجه لمن خرجه ، فإن خالفه غيره من الأصحاب في الحكم دون طريق التخريج ؛ ففيها لهما وجهان ، ويمكن جعلهما مذهباً لأحمد بالتخريج دون النقل ، لعدم أخذهما من نصه ، وإن جهلنا مستندهما ؛ فليس أحدهما قولاً مخرجاً للإمام ، ولا مذهباً له بحال »[1] .

ب- روافد استمدادهم لممارسة الفقة الافتراضي ، وتخريج الفروع :

ويرجع الفضل في ظهور هذه الحركة الفكرية المتميزة ، إلى الإمام أبي حنيفة النعمان[2] (ت ١٥٠هـ) . فهو أول من فرض المسائل التي لم تقع بعد في إطار منهجه الفقهي، وبين أحكامها ، حتى إذا ما نزلت ؛ كان حكمها جاهزاً يمكن تنزيله عليها .

ومنه انتقلت عدوى هذا النوع من الفقه الافتراضي أو التقديري إلى المذهب المالكي على يد أسد بن الفرات[3] ، الذي كان يسأل مالكاً عن المسألة ، فإذا أجابه ، قال له : وإن

---

(١) نفس المصدر . وانظر أيضاً : الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف لعلاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المراداوي ، تحقيق محمد حامد الفقي ، طبعة السنة المحمدية ١٩٥٨م .

(٢) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى (٨٠- ١٥٠ هـ) . ولد بالكوفة ، تلقى الفقه عن حماد بن أبي سليمان وعطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر . عرض عليه العباسيون ولاية القضاء فأبى وضرب من أجل ذلك . وكان متعاطفاً مع زيد بن علي بن الحسين بن علي الشيعي ، ويرتزق من تعاطي تجارة الخز .

وتتمثل أهم آرائه في طريقته للاستنباط ، حيث يقول عن نفسه : إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته ، فما لم أجده فيه أخذت سنة رسول الله ﷺ ، والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات ، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ أخذت بقول أصحابه من شئت ، وادع قول من شئت ، ثم لا اخرج من قولهم إلى قول غيرهم . فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب فلي أن أجتهد كما اجتهدوا .

وكان أبو حنيفة إماماً في القياس ، وقد ارتبط باسمه الراي ، واطلق على مذهبه : أصحاب الرأي . كما اشتهر بالحيل الشرعية التي ينسب إليه تأسيسها .

[انظر : تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري : ص ٢٣١] .

(٣) انظر علي سبيل المثال المدونة ، فإنها مملوءة بقوله : أرأيت لو كان ...

واسد بن الفرات هو تلميذ محمد بن الحسن الشيباني الحنفي ، وقد أخذ عنه فقه الأحناف .

كان كذا وكذا ، فضاق عليه يوماً ، وقال له : هذه السلسلة بنت سلسلة ، إن كان كذا ، كان كذا ، إن أردت هذا فعليك بالعراق[١] .

وفي المدرسة المالكية العراقية ، وجد الفقه التقديري والتخريج المذهبي ، التربة الخصبة المساعدة على نموه وازدهاره ، ومن العراق سوف تنقل شتائله إلى باقي المدارس المالكية ، كالأندلس [٢] ، وشمال إفريقيا .

وهذا يذهب بنا إلى القول ، بأنّ أول حركة نمو المذهب المالكي بعد أن انتقل الإمام مالك إلى جوار ربه ، كان للمذهب العراقي دخل فيها ، أو كان موجهاً لها- يبدو ذلك واضحاً من خلال الأثر الأسدي السحنوني ، أعني : المدونة - هذه التي سوف تاخذ بالباب وعقول مالكية العراق ، ويتأثرون بمنهجها - العراقي المدني - . ذلكم لأن أسد بن الفرات أراد أن يجيب عن المسائل التي اشتملت عليها كتب الإمام محمد بن الحسن ببيان أحكامها عند مالك ، ولكنه لم يقابله ، بل جاء إلى المدينة فوجده قد توفي- كما لم يتيسر له ذلك في حياته- فاتجه إلى تلاميذه ، وأحفظهم لفقهه ، وأوثقهم رواية له . فأخذ ابن القاسم يجيب عنها ، مما كان لمالك رأي محفوظ فيه ، أجاب بما أثر عنه رضي الله عنه ، وما لم يكن لمالك فيه رأي محفوظ ، أجاب بالقياس على رأي مالك في شبيه هذه المسألة . فإن لم يتيسر له ذلك ، أجاب برأيه ، ونسبه إلى نفسه .

---

(١) انظر ترتيب المدارك ٢ / ٤٦٦ . وقد قيل : إنه سال مالكاً يوماً عن مسالة فاجابه فيها ، فزاد أسد في السؤال فاجابه ، فزاد في السؤال فاجابه ، ثم زاد فقال له مالك : « حسبك يا مغربي أحببت الراي فعليك بالعراق » . [انظر رياض النفوس للمالكي : ١ / ٢٥٦ ، ٢٥٧] .

(٢) خصوصاً مع الإمام أبي الوليد الباجي بحيث يعد كتابه المنتقى ، من الكتب المالكية التي اعتنت بتخريج فروع المالكية على أصولهم في الموطأ ، فتجده يربط المسألة بالحديث الذي تندرج تحته ، مع الإشارة إلي قاعدته من أصول الفقه أو قواعده . يقول في مقدمته : « وأعرضت فيه عن ذكر الأسانيد واستيعاب المسائل والدلالة ، وما احتج به المخالف ، وسلكت فيه السبيل الذي سلكت في كتاب الاستيفاء من إيراد الحديث والمسألة من الأصل ، ثم أتبعت ذلك بما يليق به من الفروع ، وأثبته شيوخنا المتقدمون من المسائل ، وسد من الوجوه والدلائل » : ١ / ٣ .

ولا شَكَّ أن هذه أول تنمية وتفريع للمذهب المالكي ، قد أفاد منها المذهب فائدة عظيمة ، ذلك لأن فقه العراقيين كان فقهاً كثير التفريع ، وكان فيه الفرض والتقدير والتخريج ، فلم تقتصر فيه الفتاوي على المسائل الواقعة ، بل يفرض الفقيه ويفتي حتى في المسائل المتوقعة ، وهو مخالف لما كان يجري عليه العمل عند الإمام مالك[1]. فما كان مالك - رحمه الله - يفتي إلا فيما يقع من المسائل ، باستثناء ما كان أصحابه يتحايلون به عليه ، فيفرضون صوراً يسألونه عنها بلسان غيرهم ليتوهم أنها مسائل واقعة ، لا مفروضة أو مقدرة، فيجيب على هذا الاعتبار.

ما كان لأي مدرسة فقهيه مالكية أن تجرأ على هذا الاتجاه الفقهي غير مدرسة العراق ، مسايرة لبيئتها كما ذكرنا.

وعلى العموم ، فلا شك أن الفقه التقديري له محاسنه ، إذ فيه تفريع المسائل وضبطها ، وفتح الطريق أمام الفقيه للتخريج والبناء على المسائل التي استنبطت على أساس الكتاب والسنة والقياس.

---

(١) الإمام مالك - رحمه الله - في حياته لم يسلك مسلك الإمام أبي حنيفة- مسلك الرأي- كما لم يفتح لتلاميذه باب المناقشة ، ومنازعته المقاييس والآراء ، بل كان يلقي أحكام المسائل مبيناً طريق مأخذها ، ويدون عنه تلاميذه ما يتمكنون من تدوينه ، فلم يكن لاشخاصهم مكان يظهرون فيه بجواره ، ومنهم من اطال ملازمته ، وصحبته ، ومنهم من سافر معه ، ولم ينقطع عن الاتصال العلمي به ، ومنهم من قصرت صحبته .

وعموماً لم يكن لاحد راي بجوار راي شيخه ، ولكن بعد وفاته ظهرت آراء لكبار تلاميذه خالفوه فيها ، ودونوا تلك المخالفات ، واعلنوها مع تقديرهم لشيخهم ، وحرصهم علي رواية علمه ونشر فكره ، وتوجيه آرائه ، والتخريج علي أصوله فيما يرد عنه راي فيه. والاخبار كثيرة متضافرة في إثباتها مخالفة التلاميذ لآراء شيخهم ، ولكنها مخالفة لم تظهر في حياته ، بل ظهرت من بعد وفاته ، وكان اختفاؤها في حياته ، لحرصهم على التلقي عنه ، والاستفادة منه ، دون المناظرة والمناقشة ، ولانه كان لا يحب الجدل والنقاش .

وإن محاولة أسد بن الفرات ، قد نجحت نجاحاً كبيراً ، وشجعت مالكية العراق ، وكانت ثمرتها تلك المدونة التي توارثتها الأجيال من بعد ، وهي محاولة غذت الفقه المالكي عموماً ، والمالكي العراقي خصوصاً ، بغذاء صالح ، اجتمعت فيه مزايا الفقه المدني ، وبعض مزايا الفقه العراقي ، وهو بذلك يكون قد جمع الحسنيين ، أدى إلى النمو العظيم ، وأثمر الثمرات الطيبة .

والواقع أن الاختلاط والمزج بين النتائج المثمرة لنوعين من التفكير يكون تغذية لكل نوع منهما .

فاختلاط المذهب المالكي بتفريع أهل العراق ، قد وسع دائرة الاستنباط فيه ، وكان تطبيقاً حسناً لأصوله ، حازت به المدرسة المالكية العراقية شرف السبق في التأثر والتطبيق والتأثير ، حيث انتقلت عدواه بعد ذلك إلى باقي المدارس المالكية ، عن طريق تداول أصوله وكثرة الرحلات العلمية إلى العراق .

على أنَّ هذه الحركة الاجتهادية – المالكية العراقية – سوف تزدهر وتتطور بالمدرسة الإفريقية في القرنين الخامس والسادس ، وسوف تؤدي أو تشجع على خلق ظاهرة فقهيه جديدة في المذهب المالكي ، وهي ظاهرة نقد النصوص ، بواسطة الاجتهاد المذهبي والاختيار ، إلى حد الخروج عن المذهب ، كما وقع للإمام الشيخ أبي الحسن اللخمي التونسي[١] ، الذي كان مغرى بتخريج الخلاف في المذهب ، واستقراء الأقوال[٢] .

***

(١) يظهر ذلك واضحاً من خلال كتابه : التبصرة في الفقة المالكي .

(٢) انظر : مباحث في المذهب المالكي في المغرب ص ١٥٢ .

المبحث الثاني : تأسيسهم لعلم الخلاف الفقهي ، وتفوقهم فيه

الاختلاف ، لغة : ضد الاتفاق ، والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله[١] .

واصطلاحاً : يستعمل الاختلاف في قول بني على دليل[٢] .

ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع ، استعير ذلك للمنازعة والمجادلة . قال تعالى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾[٣] ، وقال : ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[٤] . والاختلاف غير الخلاف ، فالخلاف أعم من الضد ، لأنَّ كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين .

ويتضح من هذين التعريفين أن الاختلاف : أن يكون الطريق مختلفاً ، والمقصود واحد . والخلاف : أن يكون كلاهما- أي الطريق والمقصود- مختلفاً ، والاختلاف : « ما يستند إلى دليل » . والخلاف « ما لا يستند إلى دليل » . والاختلاف من آثار الرحمة والخلاف من آثار البدعة ، ولو حكم القاضي بالخلاف ، ورفع لغيره ، يجوز فسخه ، بخلاف الاختلاف ، فإن الخلاف هو ما وقع في محل لا يجوز فيه الاجتهاد ، وهو ما كان مخالفاً للكتاب والسنة والإجماع[٥] .

---

(١) المفردات ، مادة: خلف ، ص ١٥٦ . وانظر المصباح المنير ، للفيومي ، مادة : خلف .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ، للتهانوي.: ٢ /٤٤١ . حول حقيقة الاختلافات الفقهية ونشأتها وأسبابها وموقف العلماء منها : انظر كتاب دراسات في الاختلافات الفقهية للبيانوني.

(٣) سورة مريم ، الآية: ٣٧ .

(٤) سورة هود ، الآية: ١١٨ .

(٥) الكليات للكفوي: ٦١ - ٦٢، وانظر: أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين لمحمد عوامة، ص: ٨، ٩ .

قال ابن العربي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...﴾ سورة آل عمران، الآية ١٠٣ - « المسألة الثالثة : التفرق المنهي عنه يحتمل ثلاثة أوجه : =

فالخلاف ما يحمل في مضمونه النزاع والشقاق والتباين الحقيقي.

والاختلاف : ما يحمل التغاير اللفظي لا الحقيقي ، ولهذا يجري على لسان أهل العلم أثناء تقرير المسائل الخلافية : هذا اختلاف لا خلاف ، إذا كان الاختلاف لفظياً ، والجمع بين الفريقين ممكن ، وقد يقال عنه: هذا اختلاف تنوع ، لا تضاد. ويقال : خلاف حقيقي وجوهري (١) .

علم الخلاف أو الخلافيات :

إنَّ السبب الرئيسي لنشوء علم الخلاف هو ذلك الاختلاف الذي وقع بين الأئمة في فروع الشريعة الإسلامية مما يجعل أثر ذلك الاختلاف على علم الخلاف واضحاً وجلياً .

قال العلامة ابن خلدون : « فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافاً لابد من وقوعه ، واتسع ذلك اتساعاً عظيماً ، ثم لما انتهى الأمر إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار ، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم ، اقتصر الناس على تقليدهم ، فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة ،

= الأول : التفرق في العقائد ، لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ... ﴾ الآية ١٣ من سورة الشورى .

الثاني : قوله عليه السَّلام : « لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً » .

الثالث : ترك التخطئة في الفروع والتبري فيها ، وليمض كل أحد على اجتهاده ، فإنَّ الكل بحبل الله معتصم ، وبدليله عامل .

وقد قال ﷺ : « لا يصلينّ أحدٌ منكم العصر إلا في بني قريظة » ، فمنهم من حضرت العصر فأخرها حتّى بلغ بني قريظة أخذاً بظاهر قول النبيّ ﷺ ، ومنهم من قال : لم يُرد هذا منّا ، يعني وإنَّما أراد الاستعجال فلم يعنف النبيّ عليه السَّلام أحداً منهم .

والحكمة في ذلك أنَّ الاختلاف والتفرق المنهي عنه إنَّما هو المؤدي إلى الفتنة والتعصب وتشتيت الجماعة، فأمَّا الاختلاف في الفروع فهو من محاسن الشريعة ... ». انظر أحكام القرآن: ١ / ٢٩١ – ٢٩٢ .

(١) صفحات في أدب الرأي :ص ١٠ .

وأجرى الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف فى النصوص الشرعية والأصول الفقهية ، وجرت بينهم المناظرات فى تصحيح كل منهم مذهب إمامه ، تجرى على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذى قلده وتمسك به ، وأجريت فى مسائل الشريعة كلها وفى كل باب من أبواب الفقه ، فتارة يكون الخلاف بين الشافعى ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما ، وتارة بين مالك وأبى حنيفة والشافعى يوافق أحدهما ... وهكذا .

وكان فى هذه المناظرات بيان مآخذ الأئمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم . **وكان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات**، وهو علم جليل الفائدة[1] فى معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ، ومران المطالعين له على الاستدلال عليه ، وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية ، لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم ، فهم لذلك أهل النظر والبحث . وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدهم ، وليسوا بأهل نظر . ولهذا قال الشيخ الخضرى بك : « ... وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد وغيرهم »[2] .

وللغزالي فيه كتاب : المآخذ[3] ، وللدبوسي كتاب التعليقة ، ولابن القصار من

---

(١) بين الحجوي الثعالبي منشأ الخلافيات قال : « وعن الجدل نشأ علم الخلافيات ، وممن الف فيه ابن جرير الطبري كما نبه إلى مساوئه التى نص عليها الغزالي » . انظر الفكر السامي : ٢/١٤٥ .

(٢) تاريخ التشريع الإسلامى للشيخ الخضرى بك : ص ٢٤٥ .

(٣) بين الإمام الغزالى آفات الاشتغال بعلم الخلاف ، وما يدخل به من الرزايا كالحسد والحقد والكبر والغيبة والتجسس بتتبع العورات ، والفرح لمساءة الناس والنفاق والرياء ، والاستنكاف عن الحق لكونه ظهر على لسان الخصم ، والمخاتلة فيه مع تيقنه به إلى غير ذلك ، وبين شروط جواز الاشتغال به . انظرها فى محلها إحياء علوم الدين : ١/٥٥ ، مبحث فى سبب إقبال الخلق على علم الخلاف .
وانظر أيضا الفكر السامى : ٢/١٤٦ .

شيوخ المالكية عيون الأدلة ، وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبني عليها من الفقه الخلافي مدرجاً في كل مسألة ما ينبني عليها من الخلافيات [١] .

وهكذا تجد في كلامه أن علم الخلاف مبناه ومنشؤه الاختلاف في فروع الشريعة الإسلامية بين الأئمة الأربعة وغيرهم . هذا ولقد اهتم بعض العلماء بالتصنيف في هذه المسائل الخلافية جامعين أقوال الأئمة وأدلتهم في تلك المسائل ، سنذكر منها مجموعة لعلماء المالكية انظرها في محلها [٢] .

---

(١) المقدمة ، ص ٨١٨ - ٨٢١ - بتصرف - مبحث الخلافيات .

(٢) الصفحة رقم ٢٧ .

ومن مصنفاتها لعلماء المذاهب المختلفة مما يغلب على الظن ان يكون علماء المالكية قد استفادوا منها :

كتاب اختلاف العلماء للمروزى .

وكتاب اختلاف الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة المجتهدين للبروي .

وكتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) نشره المستشرق فريدريك كورن الألماني .

وكتاب اختلاف الفقهاء لابي جعفر الطحاوي الحنفي (ت ٣٢١ هـ) حققه ونشره الدكتور محمد صغير حسن المعصومي .

وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر .

وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف للوزير ابن هبيرة .

وكتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن محمد الباهلي الشافعي (ت ٣٢١ هـ) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون : ١ / ٣٣ .

وكتاب اختلاف الإمامين الشافعي وأبي حنيفة للإمام البيهقي .

وكتاب النكت في المسائل المختلف فيها بين الإمامين الشافعي وأبي حنيفة للفيروزآبادي .

وكتاب التعليق الكبير في المسائل الخلافية بين الأئمة للقاضي أبي يعلى .

وكتاب الأم (به فصول في الخلاف) للإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) مطبوع متداول . دار الفكر .

وكتاب الحجة على أهل المدينة لمحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة (ت ١٨٩ هـ) حققه السيد المهدي حسن الكيلاني .

وإنَّ أول كتاب صنف في الخلاف المجرد ، كتاب : « المحرر في النظر » لأبي علي الحسين بن القاسم الطبري الشافعي (ت ٣٠٥ هـ) ببغداد قاله ابن خلكان . فهو كتاب الطبري هذا الذي هو سبب محنته ، وذلك لأنَّه ذكر فيه اختلاف مالك والأوزاعي والثوري والشافعي وأبي حنيفة مع أبي يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم ، ولم يذكر أحمد بن حنبل. قيل : إنه سئل عن ذلك فقال : لم يكن أحمد فقيهاً إنَّما كان محدثاً ، وما رأيت له أصحاباً يعول عليهم ، فأساء ذلك الحنابلة ، ورموه بالرفض بسبب قوله بالمسح على القدمين وهو قول رافضي . وقيل: إنه يقول بالمسح والغسل معاً . وأهاجوا عليه العامة يوم دفنه ، فمنعوا دفنه نهاراً ، ومنعوا النَّاس من الدخول إليه في حياته . وقيل : إنهم سألوه عن حديث الجلوس عن العرش فقال : إنه محال ، وأنشد :

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

فرموه بمحابرهم والحجارة ، وكانوا ألوفاً . ولم يخرج كتابه اختلاف الفقهاء حتى مات سنة ٣١٠ هـ رحمه الله [١] .

وعلى العموم فهل يعتد بمذهب أحمد بن حنبل في الخلافيات ؟ وهل له موقع في المدرسة الخلافية المالكية العراقية ؟

لم يعتبر ابن جرير الطبري في الخلافيات مذهب ابن حنبل - كما ذكرنا سابقاً - وكان يقول : إنما هو رجل حديث لا رجل فقه ، وامتحن لذلك ، وقد أهمل مذهبه كثير ممن صنفوا في الخلافيات كالطحاوي ، والدبوسي ، والنسفي في منظومته ، والعلاء السمرقندي ، والفراهي الحنفي أحد علماء المائة السابعة في منظومته : ذات العقدين ، وكذلك أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي المالكي (ت ٣٧٢ هـ) في كتابه : « الآثار

(١) انظر الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : ٢ / ٤٤-٤٥ .

والدلائل في الخلاف بين مالك والشافعي وأبي حنيفة » ، وابن رشد في البداية ، والغزالي في « الوجيز » ، وأبو البركات النسفي في : « الوافي » ، ولم يذكره ابن قتيبة في : « المعارف »، وذكره المقدسي في : « أحسن التقاسيم » في أصحاب الحديث فقط مع ذكره داود الظاهري في الفقهاء ، واعتبره كثير من المتقدمين كالإمام الترمذي في جامعه ، فإنه مع عدم ذكره لأبي حنيفة وصاحبه إلا نادراً أو في جملة عموم الكوفيين ينص على مذهبه بالخصوص ، واعتبره كثير من المتأخرين أيضاً منهم ابن هبيرة الحنبلي في كتابه « الإشراف في مذاهب الأشراف » الذي ألفه في مسائل الخلاف بين الأربعة ، وغيره [(١)] . وقال في « المدارك » إنه دون الإمامة في الفقه وجودة النظر في مأخذه عكس أستاذه الشافعي ، لكن أصحابه لا يسلمون ذلك بل يعتبرونه من الرعيل الأول في الفقه والاستنباط .

وإذا كان الأمر كذلك فهل حظي بالحضور في درس الخلافيات عند مالكية العراق ؟ هذا ما سوف نجيب عنه في محله ، بآخر هذه الورقة .

أ- مؤهلات علم الخلاف بالمدرسة المالكية العراقية :

لقد امتازت المدرسة العراقية المالكية على غيرها من المدارس بسعة الاطلاع على المذاهب الأخرى ، والاقتباس من طرقها ، وأساليبها .

كما درسوا إلى جانب المذهب المالكي ، مذاهب فقهية أخرى ، حتى كان من المالكية عدد ممن يصحح النقل عن أئمة المذاهب الأخرى ، ويرجع إليه علماؤها فيما أشكل عليهم من ذلك ، كالشيخ أبي بكر الأبهري الذي قيل عنه : « لم يعط أحد من العلم والرياسة فيه ، ما أعطي الأبهري في عصره من الموالفين والمخالفين ، لقد رأيت أصحاب

---

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : ٢ / ٢٥-٢٦ ، وانظر : المدخل إلى دراسة المدارس والمذاهب الفقهية ص ١٥١ للدكتور عمر سليمان الأشقر .

الشّافعي وأبي حنيفة إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم يسألونه فيرجعون إلى قوله ، وكان يحفظ قول الفقهاء ، حفظاً مشبعاً » [١].

وهذا مكنهم من إحكام المقارنة بين الفقه المالكي ، وغيره من فقه المذاهب السنية [٢]، ومنحهم فرصة التأليف في الخلافيات[٣] – أو الخلاف الفقهي العالي – فتمكنوا من أن يعطوا للدرس الفقهي المالكي اللاحق من المصنفات ، ما سوف يعول عليه اللاحقون من أهل الحجة والنظر ، الأمر الذي أقر لهم به شيوخ مدارس المذاهب الأخرى .

ويتضح ذلك من خلال الوصية التي أوصى بها الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦ هـ) ، أحد طلابه حين أراد دخول العراق والاستفادة من علمائها ، حيث شجعه على اغتنام الفرصة بالاستفادة من مصنفات كتب الخلاف المالكية العراقية بالتحديد ، حيث قال : « ... وإن كانت لك رغبة في الرد على المخالفين من أهل العراق والشافعي فكتاب ابن الجهم [٤] إن وجدته ، وإلا اكتفيت بكتاب الأبهري [٥] إن كسبته ، وكتاب الأحكام لإسماعيل القاضي [٦] ، وإلا اكتفيت باختصارها للقاضي ابن العلاء[٧] ، وكتاب الحاوي لأبي الفرج حول الأحكام إن كسبته ففيه فوائد ، وإلا استغنيت عنه بمختصر

---

(١) انظر ترتيب المدارك : ٦/ ١٨٥ .

(٢) خصوصاً : المذهب الحنفي والشافعي والحنبلي ومذهب الأوزاعي ، وابن جرير الطبري . انظر ذلك في كتاب عيون المجالس للقاضي عبد الوهاب : ١/ ٣٤١، ٣٥٤، ٣٦٩ .

(٣) فانتجوا أصولاً علمية في غاية الأهمية انظرها في محلها بالصفحة رقم : ٢٧ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بخزانة القرويين منسوبة إليه خطأ . تحمل رقم : ؟؟؟

(٥) وهو كتاب مسائل الخلاف لأبي جعفر محمد بن عبد الله الأبهري ، يعرف بالأبهري الصغير (تـ ٣٦٥ هـ) . انظر : الشجرة : ص ٩٠ .

(٦) منه مجموعة من القطع الرقية المصورة المتناثرة بمكتبة الدكتور ميكلوش موراني من جامعة بون / ألمانيا ، أصلها من مكتبة رقادة بالقيروان بتونس .

(٧) أفادنا الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي بأن هذا المختصر منه نسخة مخطوطة بخزانة كوبريلي بتركيا .

ابن عبد الحكم [١] أو كتاب الأبهري [٢] ، وأحسن ما كسبت في الفقه للمالكيين كتاب ابن المواز .

وإن دخلت العراق فاكتب في مسائل الخلاف ما تجد لأهل الوقت من الحجة والاستدلالات ، وإن رغبت في شيء من التفاسير ، فتفسير إسماعيل القاضي إن كان يوجد . وأمّا تفسير محمد بن جرير فبلغني أنه حسن ، ولا أدري محل الرجل عند أهل بلده في التمسك وبعض الناس يتهمه ، وأنا لا أحقق عليه ، ولإسماعيل كتاب الشواهد فلو وجد لكان حسناً ، والمنهوم في الكتب لا يشبع ... » [٣] .

ويتضح من خلال هذا النص أن أبي ابن زيد القيرواني ، كان على اطلاع جيد وواسع على هذه الأصول العلمية الخلافية ، والتي سوف نجد لها أثراً في كتابه النوادر والزيادات[٤]، وأنها قد دخلت المدرسة المالكية القيروانية في وقت مبكر إجازة أو تبادلاً ثقافياً – أو هدية – والراجح أن تكون الطريقة الخلافية – أو علم الخلاف – قد ساهم ابن أبي زيد بحظ كبير في إدخاله لدائرة المذهب المالكي بالمدرسة القيروانية .

---

(١) لعله يقصد بذلك المختصر الكبير له ، منه قطعة رقية مخطوطة بخزانة القرويين بفاس تحمل رقم: (٨١٠) .

(٢) الراجح أن يكون المراد به الشيخ أبو بكر الأبهري ، له تعليق على مختصر ابن عبد الحكم الصغير والكبير ، منه نسخة مبتورة بخزانة كوطا بالمانيا تحمل رقم : (١١٤٣)، ونسخة مبتورة أيضا بخزانة الأزهر رواق المغاربة تحمل رقم (١٦٥٥) .

(٣) إرشادات إلى طالب علم لابن أبي زيد القيرواني ، مخطوطة أصلها من مكتبة تشستير بيتي بإيرلنده ، رقم: (٤٤٧٥) ، نسخه وسمعه على مؤلفه محمد بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأندلسي ، وتوجد منه مصورة عنه في ميكروفيلم بدار الكتب القطرية ، رقم : (١٠٠) .

(٤) هذا الكتاب الذي سوف يحظى بعناية خاصة من طرف مالكية العراق إلى درجة أن بعضهم من العراقيين المالكية سوف يستجيزه من الشيخ ابن أبي زيد القيرواني . انظر رسالة الاستجازة ص: ٤٦–٥١ .

كما يستفاد من النص وبشهادة صاحبه أيضا ؛ أن مدرسة العراق ، وإلى حدود القرن الرابع الهجري كانت المدرسة الخلافية الرائدة النموذج ، وأنها المؤسسة الوحيدة المرشحة آنذاك للتلمذة على رجالها[١] والاستفادة منها ، وأخذ منهج وطريقة الخلاف .

ولكي تصل بغداد إلى هذه المرتبة ، فقد فرضت الحاجة العلمية على مالكية علمائها الاطلاع الواسع والجاد على مختلف مذاهب العلماء ، وكذا دراسة مصنفاتها ، والوقوف عند أقوال أصحابها، والتحقيق فيها وتحليلها ونقدها، بقصد حجاجها بأدوات منهجية متكاملة .

كما تفردت مدرسة المالكية البغدادية بنوعية الاتصال بمصادر المذاهب واختلاف العلماء . بخلاف المدارس المالكية الأخرى ، كالأندلس ، فقد اهتم علماؤها بالمذاهب الأخرى ، وأدخلوا كتبها بلدهم . غير أن الباعث على ذلك ، الراجح أن يكون المذاكرة بين خاصتهم كما يقول المقري ، وقصد إغناء الفتوى ومحاضر الأحكام ، وتعضيد ما عليه العمل عندهم ، بذكر الأقاويل المشهورة لعلماء الأمصار أحياناً ، وهذا واضح في كتب النوازل والقضاء والشروح[٢] التي اعتنت بسرد آراء المذاهب المختلفة[٣] . وقد نبه أبو إسحاق

---

(١) ولذلك وجدنا كتب التاريخ تحدثنا أن الرحلات العلمية كانت غالبا من المغاربة نحو بلاد المشرق ، وهي في الغالب الأعم ذات صبغة علمية ، اتجاهها نحو الحجاز لأداء فريضة الحج مرورا بمصر قصد اللقاء بعلمائها والأخذ عنهم ثم تنتهي بالعراق .

فهذا علي بن زياد الذي أخذ الموطأ عن مالك بالمدينة يذهب إلى العراق ، ويأخذ عن سفيان سنده ، فكان أول من أدخل إلى المغرب الموطأ وجامع سفيان . كما كانت لابن غانم رحلة إلى الحجاز والعراق ، فسمع من مالك ومن سفيان الثوري ومن أبي يوسف .

كما كان لأهل الأندلس كالباجي وغيره رحلات متعددة إلى العراق ، يقول المقري في أزهاره : «وقد ارتحل أعلامهم إلى بغداد لتحصيل الفقه عن الأبهري وحده »: ٣ / ٢٧ .

(٢) مثل كتاب : المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي الذي يتعرض فيه أحياناً لذكر الأقاويل المشهورة في المذاهب الأخرى . وهو ممن تتلمذ على فقهاء العراق المالكية .

كما له مناظرات شهيرة مع ابن حزم الظاهري كانت سببا في إثراء الحوار ونصرة المذهب المالكي وتفوقه بالأندلس .

(٣) ومن إنتاجات مالكية الأندلس في هذا المجال نذكر الكتب التالية : =

الشاطبي على خطورة قصر طالبي علم الفقه على مذهب واحد ، فقال : « إن تعويد الطالب على أن لا يطلع إلا على مذهب واحد ، ربما يكسبه ذلك نفورا وإنكارا لكل مذهب غير مذهبه ، ما دام لم يطلع على أدلته ، فيورثه ذلك حزازة في الاعتقاد في فضل أئمة أجمع النَّاس على فضلهم وتقدمهم في الدين ، وخبرتهم بمقاصد الشرع وفهم أغراضه »[١] .

وذهب محمد بن الحسن الحجوي إلى أن فقهاء الأندلس لم يقروا بخلاف فقهاء المشرق[٢] باستثناء بعض الفقهاء ممن شارك في الرد على الشافعي[٣](ت ٢٠٤ هـ) حيث ذكر المقري أن أبا عمر يوسف بن يحيى الأزدي المغامي القرطبي (ت ٢٨٨ هـ) ، دفين القيروان ، كان معنياً بالدفاع عن مذهب أهل المدينة كغيره من فقهاء المالكية – كما سوف

= ١- كتاب مسائل الخلاف لأبي الوليد الباجي (تـ ٤٧٤ هـ) .

٢- الإنصاف فيما بين العلماء من الخلاف لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (تـ ٤٦٣ هـ) .

٣- كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف للقاضي أبي بكر العربي الأشبيلي (تـ ٥٤٣ هـ) .

٤- كتاب الاستذكار لابن عبد البر القرطبي (تـ ٤٦٣ هـ) .

٥- كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد لأبي الوليد بن رشد الحفيد (تـ ٥٩٥ هـ)

(١) ما لا يجوز فيه الخلاف لعبد الجليل عيسى ص : ٩٣ .

(٢) انظر : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : ٢/١٤٤ .

(٣) الشافعي هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان الشافعي المطلبي من عبد المطلب بن عبد مناف ، وهو الأب الرابع لرسول الله ﷺ ، ولد سنة ١٥٠ هـ بغزة ، ونشأ بمكة المكرمة ، ثم خرج إلى هذيل بالبادية ، ولما عاد منها لازم شيخه مسلم بن خالد الزنجي . ورحل إلى المدينة للسماع من الإمام مالك رضي الله عنه ، كما سمع من محدث مكة سفيان بن عينية ، وقد اتهم الشافعي بالتشيع في عهد هارون الرشيد ، والقي عليه القبض وحمل إلى بغداد ، ولما افرج عنه تمكن من الاختلاط بكبار الاحناف والاطلاع على كتبهم واستقى منها ، ثم عاد إلى مكة التي كانت موفد العلماء من كل الأقاليم . وفي سنة ١٩٥ هـ سار إلى بغداد في عهد الأمين وانتصب للتدريس ، وتمكن من نشر مذهبه القديم المسمى بالعراقي ، وتحول الشَّافعي إلى مصر في نهاية القرن الثاني فنزل بالفسطاط ضيفا على عبد الله بن عبد الحكم صاحب الإمام مالك ، وظهرت مواهب الشَّافعي فاملى على تلاميذه مذهبه الجديد . ومكث بمصر إلى أن توفي سنة ٢٠٤ هـ . [مقدمة طبقات الشافعية لأبي بكر بن هداية الله الحسيني] .

نذكر بعد – وكان له كتاب : الرد على الشَّافعي[١] .

أمَّا المدرسة المالكية المصرية والقيروانية فقد تميزت في مجال التأليف في الخلافيات في الغالب الأعم بظاهرة الرد على الإمام الشافعي (ت٢٠٤ هـ) وسرد الخلاف داخل المذهب[٢] .

ويرجع هذا إلى منافسة المذهب الشَّافعي للمذهب المالكي بشمال إفريقيا ، ولمخالفة الشَّافعي إمامه وشيخه مالك بن أنس . وقد برز خلافه مع شيخه مالك حول عمل أهل المدينة الذي لم يقبله الشَّافعي ، كما خالف الشَّافعي مالكاً في مسالتي : سد الذريعة ، والمصالح المرسلة ، هاته المسائل التي ناقشها الشافعي في كتابه : الرسالة ، وفي كتابه : اختلاف مالك والشافعي ، وكانت مناقشته هنا للمالكية أشد وأعنف .

فهذه المواقف مجتمعة والتي حددت أصول المذهب الشافعي واجتهاداته المخالفة لبعض أسس المذهب المالكي هي التي أدت إلى هذه الحملة في الرد عليه ، حيث انتشر هذا الخلاف في البيئات التي اشتهرت بالعمل بمذهب مالك خصوصاً البيئة الإفريقية والمصرية ، خصوصاً في القرن الثالث والرابع . أمَّا بعد هذه الفترة الزمنية ، القرن الخامس وما بعده ، فقد حصل نوع من التزاوج بين المدرستين ، دعت إليه أسباب علمية محضة وأخرى سياسية، وسوف يبدو هذا واضحاً منذ رحلة الإمام الباجي وبعده ابن زيتون ، تلك الرحلة التي حاولا فيها الاستفادة من طريقة أئمة الشافعية الأصولية والفقهية القائمة على حسن التقسيم والتبويب والتفريع وبراعة التعليل ، بل تجاوزت ذلك إلى الاستفادة من طريقة الترتيب الفقهي كما ظهر عند الإمام ابن شاس من خلال ديوانه الفقهي الموسوم بـ : « عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة » ، والذي تسرق فيه طريقة الإمام الغزالي من خلال

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ٢/ ٥٢٠ .

(٢) انظر على سبيل المثال : كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني .

كتابه : « الوجيز في فقه الشافعية » حتَّى أدخل فيه آراء الشافعية الفقهية ، وسوف يأتي بعده مختصر ابن الحاجب في مختصره الفرعي . وهذا الأخير سوف يؤثر في الشيخ خليل مختصره . وقد وقف شراح الشيخ خليل عند كل هذه المخالفات للفقه المالكي ، والتي تسربت إلى المذهب المالكي عن طريق ابن شاس ، ومن خلال كتابه : « الجواهر الثمينة » المتأثر بوجيز الغزالي (١) .

يقول بعض الباحثين : ولعل من الأسباب التي جعلت المالكية يفزعون إلى المذهب الشّافعي بالذات دون غيره من المذاهب الأخرى هو التقارب الواضح والتشابه في الأصول نتيجة لكون الإمام الشافعي كان من كبار تلاميذ الإمام مالك ، ولعلَّ هذا هو السر فيما يلحظ من اهتمام أئمة المذهبين بمؤلفات كل منهما خاصة الأصولية منها ، فنجد أئمة المالكية يشرحون أصول الشّافعية كما فعل القرافي في شرحه لمحصول الرازي واختصاره له ، وكما فعل البناني وغيره في حاشيته على جمع الجوامع لابن السبكي ، والعكس أيضاً فنجد أئمة الشافعية أيضاً يعتنون بكتب المالكية الأصولية ، فنجد عبد الله الإيجي وشمس الدين الأصفهاني وغيرهما يشرحون مختصر ابن الحاجب الأصولي . كما أنه يمكن أن يكون من أسبابه محاولة أئمة المذهبين التكاتف في وجه العدو المشترك ألا وهو العبيديون الذين حاولوا القضاء على كلا المذهبين خاصة في مصر وما جاورها . فرأى أئمة المذهبين ألاَّ حلَّ إلا بالتكاتف والتآزر ، وأن الفرقة والخلاف لا يستفيد منها إلا الشيعة المعتدون ، وقد ترجموا تلك الوحدة من خلال استفادة بعضهم من بعض ، سواء من خلال المناهج التعليمية أو التأليفية بل وحتى التقليد والاتباع في الآراء الفقهية كما بينا سابقاً (٢) .

---

(١) انظر كتاب « عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة » لابن شاس . تحقيق ودراسة الدكتور حميد لحمر . الجزء الأول – قسم الدراسة .

(٢) انظر : محمد المختار مامي : المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته : ٧٤–٧٥ .

ففي مصر ردَّ عليه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحكم المصري (ت ٢٦٦ هـ) بكتاب : « الرد على الشافعي فيما خالف فيه الكتاب والسنة » ، ومحمد بن عبدالله بن الحكم جالس الشافعي طويلاً وأخذ عنه كثيراً . قال عياض : « كان محمد من أصحاب الشافعي وممن يتعلم منه »[1] .

وفي إفريقية نجد عناية كبيرة بالرد على الشافعي ، وقد اشترك أغلب فقهائها في الرد على الشَّافعي كـ : محمد بن سحنون ، وكتب يحيى بن عمر كتاب : « الحجة في الرد على الشَّافعي » .

كما رد على الشَّافعي أحمد بن مروان بن محمد المالكي المصري (ت ٢٩٠ هـ) في كتابه : « فضائل مالك والرد على الشَّافعي » [2] .

كما رد على الشَّافعي من علماء إفريقية أبو العباس عبد الله بن طالب (ت٢٩٦ هـ)[3] ، و أبو بكر محمد اللباد القيرواني (ت ٣٣٣ هـ)[4] .

وعموماً فشمال إفريقيا – بما فيها مصر والأندلس – برزت فيها ظاهرة الردود على المخالف أكثر من عرض آراء المخالفين والمقارنة بينها ، وهذه الردود ركزت ، وكما ذكرنا سلفاً – على الإمام الشافعي بالخصوص ، بحيث لم تبرز فكرة علم الخلافيات واضحة كقضية أفرزتها البيئة الإفريقية الأندلسية .

أمَّا في العراق ، فقد كان العلم بالخلاف يدخل أساساً في صلب بناء تكوين الشخصية الفقهية ، بمعنى أن العالم العراقي المالكي لا يرقى إلى سلم أو رتبة « فقيه » إلا إذا كان على اطلاع واسع بآراء فقهاء المذاهب ، وأتقن علم الخلاف وترك فيه شيئاً .

---

(١) ترتيب المدارك : ٣ / ٦٤ .

(٢) منه نسخة مخطوطة في مكتبة القيروان حسب ما أفادنا به الباحث محمد أبو الأجفان في دراسة حول يحيى بن عمر نشرها في مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ٢٩ ، ج (٢) ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

(٣) رياض النفوس للمالكي العلوي : ١ / ٥٠٤ .

(٤) وكتابه مطبوع متداول . تحقيق الدكتور عبد المجيد بن حمده ، ١٩٨٦ م .

ولهذا قال السبكي في طبقاته : « إن المرء إذا لم يعرف علم الخلاف والمأخذ لا يكون فقيهاً إلى أن يلج الجمل في سم الخياط ، وإنما يكون ناقلاً مخبطاً حامل فقه إلى غيره ، لا قدرة له على تخريج حادث بموجود ، ولا قياس مستقبل بحاضر ، ولا إلحاق غائب بشاهد ، وما أسرع الخطأ إليه ، وأكثر تزاحم الغلط عليه ، وأبعد الفقه لديه »[(١)] .

وينضاف إلى هذا العامل عامل خاص ذو اتصال بالسابق ، ألا وهو تحصيل المالكية للردود والانتقادات التي وجهها إلى الإمام مالك ومذهبه الكثير من الأئمة المخالفة له في الرأي ، مما انعكس على تآليفهم في الخلاف والجدل ، ومناظراتهم مع المذاهب الأخرى[(٢)] .

وبإمعان النظر في المسألة سوف نرى بأن تفرد المدرسة العراقية بهذا النوع من التأليف يعود بالأساس – إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه – إلى دوافع كثيرة أهمها : البيئة العلمية، فكثرة المذاهب الفقهية بالعراق ، والتنافس الحاد الذي كان بينها نحو الإبداع ، ومحاولة كل مذهب نصرة مذهبه ، والدفاع عن إمامه ؛ أدى إلى بروز هذا النوع من التأليف .

بخلاف باقي المدارس الفقهية المالكية ؛ فأغلبها كان يسيطر عليها المذهب المالكي بدون منافس .

ب – أهم مؤلفاتهم في الخلافيات :

وعلى رغم قصر الفترة الزمنية التي ازدهرت فيها المدرسة الفقهية المالكية بالعراق ؛ فقد استطاعت أن تقدم أصولا علمية في غاية الأهمية في علم الخلاف الفقهي المذهبي ، نورد منها ما أمكننا الوقوف عليه من خلال فهارس الفقهاء المالكية :

---

(١) طبقات السبكي : ١/ ١٦٩ .

(٢) على رأس هؤلاء : محمد بن الحسن الشيباني والإمام محمد بن إدريس الشافعي والليث بن سعد .

١– كتاب مسائل الخلاف للقاضي أبي بكير بن أحمد بن عبد الله بن بكير التميمي (ت ٣٠٥ هـ)[١] .

٢– كتاب مسائل الخلاف للقاضي أبي بكر محمد بن أحمد بن الجهم المعروف بابن الوراق (ت ٣٢٩ هـ) .

٣– كتاب مسائل الخلاف لأبي الفضل بكر بن العلاء بن محمد بن زياد القشيري البصري (ت ٣٤٤ هـ) .

٤– كتاب مسائل الخلاف لأبي جعفر محمد بن عبدالله الأبهري يعرف بالأبهري الصغير (ت ٣٦٥ هـ) .

٥ – كتاب مسائل الخلاف لأبي القاسم عبيد الله بن الحسن بن الجلاب (ت ٣٧٨ هـ)[٢] .

٦– كتاب عيون الأدلة في مسائل الخلاف لأبي الحسن علي بن أحمد البغدادي المعروف بابن القصار (ت ٣٩٨ هـ) .

٧– كتاب رؤوس المسائل لنفس المؤلف .

٨– كتاب مسائل الخلاف لأبي سعيد أحمد بن زيد القزويني (ت ٣٩٠ هـ)[٣] .

٩– الإشراف على مسائل الخلاف للقاضي أبي محمد عبد الوهاب البغدادي (ت ٤٢٢ هـ)[٤].

---

(١) الديباج : ٢/١٨٥ .

(٢) لا نعرف عن هذا الكتاب شيئاً ، وهو في عداد الكتب المفقودة ، وإن مشاركة ابن الجلاب في علم الخلافيات تظهر واضحة من خلال شرحه على المدونة ، والذي تحتفظ خزانة القرويين بنسخة منه تحمل رقم (٧٩٩) ، ومنه نسخة بالرباط تحمل رقم (١٤٤٧) .

(٣) ترتيب المدارك : ٧/٧٤ ، والديباج :٢/١٨٥ .

(٤) الديباج : ٢/٢٧ .

١٠- المعونة لمذهب إمام عالم المدينة للمؤلف السابق [١].

١١- كتاب اختصار عيون المجالس لنفس المؤلف .

١٢- كتاب اختصار عيون الأدلة لنفس المؤلف .

١٣- أوائل الأدلة في مسائل الخلاف لنفس المؤلف [٢].

جـ- أسس الخلافيات عند مالكية العراق :

من الأسس التي اعتمدها الخلاف العالي عند مالكية العراق : النقل – القرآن والسنة بالأساس – ، وظهر النقل واضحاً في مؤلفاتهم[٣] ، واعتمادهم المصادر الفقهية المتميزة ، إضافة إلى إلمامهم برأي المخالف .

أولاً : الاعتماد على النقل :

أ- المعرفة بالقرآن :

لقد كان من آثار المعرفة القرآنية التي عرف بها مالكية العراق أن كان النزوع بالقرآن ركناً في احتجاجهم واستدلالهم ، وعرفوا بشكل لافت بالنزوع به في معرض وقائع كثيرة ، وما أثر عنهم ونقل أكثر وأغزر من أن يستوعب هنا [٤] .

---

(١) الديباج : ٢/٢٧ .

(٢) الديباج : ٢/٢٨ ، والشجرة :ص ١٠٤ .

(٣) كابن الجهم الذي كان صاحب حديث وسماع وفقه ، قال الخطيب : له مصنفات حسان ، محشوة بالآثار، يحتج على مذهب مالك ، ويرد على مخالفيه ، انظر ترتيب المدارك ٥/٢٠ .

خلافاً لمساهمة المدرسة الخلافية الإفريقية فقد اكتفى رجالها بنسبة الأقوال إلى قائليها دون أن يربطوها بالدليل ، وذلك لا يرجع إلى جهلهم بالدليل ، وإنما لثقتهم بأئمة المذهب الذين مهدوا لهم الفقه ، ودونوا فروعه عن صاحبه ، فثقتهم بهم اغنتهم عن البحث في الدليل ، بل إن البعض منهم كان يرى أن البحث عن الدليل ينافي الأدب معهم ، لأنهم ما دونوا هذه الفروع إلا بعد أن وقفوا على أدلتها .

(٤) مما أثر عن نزوعهم بالقرآن في مجالس الدرس أو النظر أو في وقائع مختلفة ما رواه الخطيب البغدادي =

وعن مالكية العراق نقول كثيرة جداً في مصنفات أحكام القرآن والفقه عن احتجاجهم بالقرآن ونزوعهم بآياته ، وقد يخالفون المذهب أحياناً تمسكاً بدلالاته ومؤدى معانيه ، وكل ذلك دال على أن العلم بالقرآن وأحكامه من الأسس الضرورية التي اعتمد عليها علم الخلاف بمدرسة العراق المالكية (١) .

ب- المعرفة بالسنة النبوية :

أمَّا السنة النبوية فقد كانت القضية الكبرى للخلاف الفقهي بالعراق ، ومما زاد من قوة الخلاف الفقهي اعتبار الحديث أو عدم اعتباره (صحةً وضعفاً) .

وقد حاول مالكية بغداد ربط الفقه بالسنة(٢) ولو كانت ضعيفة ، واجتهدوا كثيراً في رد كل فرع فقهي إلى دليله الأثري(٣) . والأمثلة على ما نقول كثيرة جداً (٤) .

= قال : « إن إسماعيل بن إسحاق القاضي دخل عنده عبدون بن صاعد الوزير ، وكان نصرانياً ، فقام له ورحب به ، فرأى إنكار الشهود ومن حضره ، فلما خرج قال لهم : قد علمت إنكاركم ، وقد قال تعالى : ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ...﴾ الآية ، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين ، وهو سفير بيننا وبين المعتضد ، وهذا من البر ، فسكت الجماعة لما أخبرهم » . تاريخ بغداد : ٦ / ٢٩٠ .

(١) انظر النماذج من كتب علم الخلاف بآخر الورقة .

(٢) وممن عرف بالاستدلال بالحديث الضعيف القاضي أبو محمد البغدادي ، وحذر الناس من أحاديثه ، قال المقري في قواعده : « حذر الناصحون من أحاديث الفقهاء ، وتحميلات الشيوخ ، وتخريجات المتفقهين، وإجماعات المحدِّثين ، وقال بعضهم : احذروا أحاديث عبد الوهاب والغزالي ، وإجماعات ابن عبد البر ، واتفاقات ابن رشد ، واحتمالات الباجي ، واختلافات اللخمي » : ١ /٣٤٩ .

(٣) فقد ألَّف أبو بكر الأبهري كتاباً شرح به رسالة لابن أبي زيد القيرواني سماه : « مسلك الجلالة في مسند الرسالة » ، تتبع فيه جميع مسائلها التي تبلغ أربعة آلاف ، فرفع لفظها ومعناها إلى رسول الله ﷺ أو إلى أصحابه رضي الله عنهم ، وبذلك دعم الفروع بحججها .

(٤) انظر على سبيل المثال كتاب : « الإتحاف بتخريج أحاديث الإشراف » للدكتور بدوي عبد الصمد الطاهر صالح . وانظر النماذج في الصفحة الموالية .

ثانياً : اعتمادهم على مصادر فقهية مالكية - قيروانية مصرية - متميزة :

لقد اعتمدت كل مدرسة من مدارس الفقه المالكي على أصول علمية أغلبها يعود بالأساس إلى إنتاجات الطبقات الأولى لكل مدرسة ، إضافة إلى تراث إمام المذهب .

ولقد لفتت هذه الظاهرة نظر ابن خلدون حتى قال في مقدمته أثناء الحديث عن مدارس الغرب الإسلامي : « وعكف أهل القيروان على هذه المدونة ، وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية...، وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها، ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع ... » [1].

وكذلك الشأن بالنسبة لمدرسة العراق المالكية فقد اختارت لنفسها مصادر أمهات جعلت منها مدار الاشتغال والاعتماد في المناظرة والحجاج ، يأتي في مقدمة هذه الأصول آثار الإمام مالك – الموطأ – وبعض الأصول القيروانية المصرية خصوصاً المدونة ومختصرها لابن أبي زيد والرسالة والنوادر والزيادات له ومختصرات ابن عبد الحكم المصري .

أ- كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس – رحمه الله – :

يعتبر كتاب الموطأ من أوائل المصنفات المالكية التي دخلت العراق ، واستفادت منها المدرسة المالكية ، فبواسطة عبد الله بن مسلمة القعنبي البصري (ت ٢٢١ هـ)[2]، ومحمد بن الحسن الشيباني الكوفي (ت ١٨٩ هـ)[3] وغيرهم – دخل كتاب الموطأ العراق ، وانتشر خبره في أرجاء بغداد والبصرة والكوفة .

والراجح أن بدخول الموطأ العراق سوف ينتشر خبر مالك وتنتشر آراؤه الفقهية ،

---

(١) المقدمة : ص ٤٥٠ .

(٢) له رواية عن مالك للموطأ ، طبعت منها القطعة المتوفرة بتحقيق عبد الحفيظ منصور .

(٣) له رواية عن مالك للموطأ كاملة مطبوعة متداولة .

ب- كتاب المدونة لسحنون بن سعيد التنوخي :

لا يعرف عن كتاب في المذهب بعد الموطأ نال من الإطراء والتقدير ما نالته المدونة على ألسنة المتقدمين والمتأخرين ، فهي أصل علم المالكيين .

ذلك لأنَّه نتاج أفكار أربعة من المجتهدين : الإمام مالك ، وتلاميذه : ابن القاسم وأسد بن الفرات وسحنون .

وقد أثر عن سحنون أنَّه كان يقول : عليكم بالمدونة فإنها كلام رجل صالح وروايته . وكان يقول أيضاً : « المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن من القرآن تجزئ في الصلاة عن غيرها، ولايجزئ غيرها عنها ، أفرغ الرجال فيها عقولهم ، وشرحوها وبينوها ، فما اعتكف أحد على المدونة ودراستها إلا عرف ذلك في ورعه وزهده ، وما عداها أحد إلى غيرها إلا عرف ذلك فيه ، ولو عاش عبد الرحمن أبداً ما رأيتموني أبداً » [١] .

وقد كان لأهمية هذه المكانة للكتاب ، أن قام الإمام سحنون أيضاً بتوثيق مسائل المدونة بالاحتجاج لها بالأحاديث والآثار ، فأسس بذلك قاعدة رد المسائل إلى أصولها الأولى ، وبهذا جمعت المدونة بين منهجين : مالكي وعراقي .

وإلى هذا نبه المقري في أزهاره ، أن أهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس ، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس ، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ، ومناقشة الألفاظ ، بل كان دأبهم القصد إلى إفراد المسائل ، وتحرير الدلائل ، على رسم الجدليين وأهل النظر الأولين [٢] .

---

(١) المدارك : ٢ / ٤٧٢ .

(٢) أزهار الرياض ٣ / ٢٢ .

كما اعتنى علماء العراق المالكية بالمدونة شرحاً وتعليقاً ، ولقيمة رجالاتها ومركزها في المشرق رجح القاضي عبد الوهاب البغدادي مسائل المدونة لرواية سحنون لها عن ابن القاسم ، وانفراد ابن القاسم بمالك وطول صحبته له ، وأنه لم يخلط به غيره إلا في شيء يسير ، ثم كون سحنون أيضاً مع ابن القاسم بهذا السبيل ، مع ما كان عليه من الفضل والعلم [١] .

كما اعتنى بها فشرحها [٢] ، كما شرح مختصر المدونة لابن أبي زيد القيرواني في كتاب سماه : « الممهد في شرح مختصر الشيخ أبي محمد » [٣] .

كما تصدى لشرحها أبو القاسم عبيد الله بن الحسن بن الجلاب (ت ٣٧٨ هـ) [٤] .

وللأبهري عليها شرح ذكره القاضي عبد الوهاب في الإشراف [٥] .

***

---

(١) انظر الديباج : ١/٤٦٦ ، والمدارك ٣/٤٦٤ .

(٢) انظر المدارك : ٧/٢٢٢ .

(٣) صنع فيه نحو نصفه ، ولم يتمه . انظر المدارك : ٧/٢٢٢ ، والشجرة : ص ١٠٤ . ويوجد الجزء الخامس من هذا الشرح العظيم في مركز المخطوطات بمعهد البحث العلمي بجامعة أم القرى يحمل رقم : (٤٨) فقه مالكي .

(٤) من هذا الشرح توجد قطعة مخطوطة بخزانة القرويين ، تحمل رقم (٧٩٩) نسخت سنة ٦٨٠ ، منها نسخة مصورة على شريط بالخزانة العامة بالرباط تحمل رقم (١٤٤٧) .

(٥) انظر الإشراف : ١/١٢٥ ، وترتيب المدارك : ٦/١٨٥- ١٨٦ .

ج- مختصرات عبد الله بن عبد الحكم[1] المصري :

وهي ثلاثة : كبير وأوسط[2] وصغير . ولكن اهتمام المدرسة العراقية بالمختصر الكبير كان أكثر ، فهو المصدر الذي تواصوا به وعكفوا عليه ، وركزوا اهتمامهم عليه في شرحه والتعليق عليه ، يؤكد ذلك ما قال ابن عبد البر في انتقائه في هذا الشأن : « صنف – يعني ابن عبد الحكم – كتاباً اختصر فيه تلك الأسمعة بألفاظ مقربة ، ثم اختصر من ذلك الكتاب كتاباً صغيراً ، وعليهما مع غيرهما يعول البغداديون في المدارسة ، وإياهما شرح الشيخ أبو بكر الأبهري »[3] .

ويعود اهتمام مالكية العراق بهذه المختصرات إلى أمور يجملها فيما يلي :

أولاً : لأنَّها حاولت أن تجمع سماعات تلامذة الإمام مالك الثلاثة : ابن القاسم

---

(٦) مختصرات ابن عبد الحكم ثلاثة : المختصر الكبير والأوسط والصغير .

ومن المختصر الكبير ، قطع رقية بخزانة القرويين تحمل رقم (٨١٠) . وقد عثرنا مؤخراً ، على قطع أخرى منه في صناديق الخروم بالخزانة المذكورة أيضاً .

وقد قام الطالب الراضي الشنابري بتحقيق القسم الأول من هذا الكتاب تحت إشرافي بكلية الآداب ، قسم الدراسات الإسلامية جامعة فاس .

وبعده قام المستشرق الدكتور بروكوب جوناثان Jonathan BROKOP من جامعة بار بامريكا بدراسة وتحقيق أجزاء من الكتاب ، وهي : كتاب المكاتب وكتاب أمهات الأولاد لنيل درجة الدكتوراه ، طبع سنة ٢٠٠٠ في BRILL تحت عنوان :

EARLY MALIKI LAW ibn Abde Alhakam and his major compendiun of jurisprudence

ومن المختصر الصغير مجموعة قطع رقية مبثورة بخزانة رقادة بالقيروان ، منها نسخة بحوزة المستشرق السالف الذكر – انظر : المرشد الوثيق إلى أمهات المذهب المالكي وقواعد التحقيق ، للدكتور حميد لحمر . ص : ١٠ .

(٢) لم يذكره عياض في مداركه ، وابن عبد البر في انتقائه ، وشكك في صحة نسبته الباحث جوناثان بروكوب .

(٣) الانتقاء : ص ٩٩ .

وأشهب وابن وهب[١] ، هذه الأسمعة التي كانت تجد قبولاً كبيراً لدى مالكية العراق . يقول أبو بكر الأبهري : « كتبت بخطي المبسوط ، والأحكام لإسماعيل القاضي ، وأسمعة ابن القاسم وأشهب وابن وهب ، وموطأ مالك ، وموطأ ابن وهب... »[٢] .

ثانياً : لأن ابن عبد الحكم ، كان على علم كبير باختلاف أقوال مالك ، قال الشيرازي عنه في طبقاته : « كان ابن عبد الحكم أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله »[٣] .

ثالثاً : لأن أغلب مسائله تستند إلى دليل - نقلي أو أثري - يقول أبو عبد الله البركاني البغدادي المالكي : « عرضت مختصر ابن عبد الحكم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فوجدت لكلها أصلاً إلا اثنتي عشرة مسألة لم أجد لها »[٤] .

ولأهمية هذا الكتاب البالغة فقد اعتنى به الشيخ أبو بكر الأبهري ، وخصه بالقراءة المتعددة ، قال في المدارك : « قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة ، ومختصر الترقي خمسين مرة ، والأسدية خمساً وسبعين مرة ، والموطأ خمساً وأربعين مرة »[٥] .

كما قام بشرحه[٦] ، وشرح كذلك المختصر الصغير له أيضاً[٧] .

على أن هناك اهتمامات أخرى بهذا الكتاب من طرف أعلام آخرين من المدرسة

---

(١) انظر أمثلة ذلك في عيون المجالس : ١/ ٢١١-٢١٣ .

(٢) المدارك : ٦/ ١٨٦ .

(٣) طبقات الفقهاء : ص ١٦٧ .

(٤) المدارك : ٥/ ١٦ .

(٥) المدارك : ٦/ ١٩٤ .

(٦) منه نسختان مخطوطتان : إحداهما بالمكتبة الأزهرية تحمل رقم (١٦٥٥) فقه مالكي ، وهي تشتمل على الأجزاء التالية : ٣-٤-٧-١٢ (لدي نسخة منها على شريط) .

والنسخة الثانية : بمكتبة جوتة تحمل رقم (١١٤٣) (لدي منها نسخة على شريط) ، أشتغل حاليا بتحقيق كتاب الجامع منه اعتماداً على النسختين .

(٧) المدارك : ٧/ ٧٥ .

المالكية العراقية ، كالخفاف الذي شرح المختصر الكبير ، وأبو جعفر الأبهري الذي له تعليق على المختصر الكبير ، وابن الوراق الذي شرح المختصر الصغير لابن عبد الحكم .

ولأبي عبد الرحمن محمد بن عبد الله صديق الشيخ الأبهري تعليق على المختصر الكبير[1]، ولهذا قال أبو القاسم بن ناجي في مقدمة شرحه للتفريع : « إن أهل بغداد قد اعتنوا بمختصر ابن عبد الحكم أكثر من غيره ، فهم إذا وجدوا في المسألة قولين لمن ذكر ، قدموا قول ابن عبد الحكم » .

وعلى العموم فهذه جملة من المؤلفات المالكية ، التي شكلت الحجر الأساس في بناء المؤلفات الخلافية لمدرسة مالكية العراق . وعليها عول الأصحاب هناك في ربط حبل الاتصال العلمي بين المدرسة العراقية والمدرستين المصرية والقيروانية .

وقد يتساءل الباحث عن سبب غياب المدرسة الأندلسية عن حضور الدرس المالكي العراقي – من الصعب جداً أن نقطع في هذه المسألة ؛ لأنَّ القضية تحتاج إلى وقت طويل وجهد ، مما لا يتوفر لدينا الآن .

أما وللاستئناس فيمكن أن نقول : أن ذلك يعود – والله أعلم – إمَّا إلى بعد المسافة بين البلدين ، وإمَّا أن العراقيين كانوا يرغبون في حب الظهور بالمدرسة المصرية القيروانية أكثر ، تدرجاً للانتقال والترحال إلى هناك ، وبالتالي هيؤوا لذلك بهذا الاهتمام العلمي . يدل على ذلك أنَّ القاضي عبد الوهاب البغدادي سوف يتمكن من الانتقال إلى مصر ويبلغ مراده ، بعد أن كانت رغبته تتجاوز حدود مصر إلى القيروان .

د – كتاب الرسالة والنوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني :

يعتبر كتاب الرسالة من أهم ما ألف في المذهب المالكي ، ويعد من حيث الأهمية والتداول الكتاب الثالث بعد الموطأ والمدونة .

---

(١) المدارك : ٧/ ٧٥ . وطبقات الشيرازي : ص ١٦٧ .

وقد جمع ابن أبي زيد في الرسالة ما يجب على المكلف معرفته من عقائد الإيمان ، وأحكام العبادات والمعاملات ، وما يسن أو يندب من الآداب ، وكان ذلك من الأسباب التي دفعت العلماء إلى أن يتسابقوا إلى اقتنائها . فيحكي ابن ناجي أنه لما تم تأليفها كتب منها نسختين بعث بواحدة إلى الشيخ أبي بكر الأبهري كبير فقهاء المالكية في بغداد ، فأبدى إعجابه بها ، ولم يتمالك أن أثنى على صاحبها وأشاع خبرها بين النَّاس ، وعرف بمؤلفها ، وأمر ببيعها فبيعت بمائتي دينار ، ولكنه لم يرض إلا بأن تباع بوزنها ذهباً (١) .

كما شرحها في كتاب سماه : « مسلك الجلالة في مسند الرسالة » تتبع فيه جميع مسائلها التي تبلغ أربعة آلاف ، فرفع لفظها إلى رسول الله ﷺ أو إلى أصحابه رضى الله عنهم وبذلك دعم الفروع بحججها (٢) .

ولأهميتها وشيوع خبرها ببغداد تصدى لشرحها أيضاً القاضي أبو محمد عبد الوهاب البغدادي(٣) كبير علماء الخلاف في وقته ، وقد كان لاهتمام القاضي أبي

---

(١) معالم الإيمان للدباغ ، وانظر محاضرات في تاريخ المذهب المالكي : ص ١٩٥ .

(٢) وبعث ابن أبي زيد بالنسخة الثانية إلى أبي بكر بن أبي زرب بقرطبة فاخفاها ، وأخذ في تأليف : « كتاب الخصال » عوضها ، ثم أظهرها بعد ذلك .

وكتب ابن أبي زيد إلى أبي بكر الأبهري يخبره بما فعل ابن زرب فراجعه الأبهري بأبيات يقول فيها :

أعجب ما في الأمور عندي ... إظهار ما تدعي القلوب

تأبى نفوس قوم ... وما لهم عندهم ذنوب

وتصافى أنفس نفوساً ... وما لها عندهم عيوب

ما ذاك إلا لمضمرات ... يعلمها الشاهد الرقيب

(٣) انظر المدارك : ٧ / ٢٢٢ . ذكر القلشاني في مقدمة شرحه أن القاضي عبد الوهاب أول شارح للرسالة . وذكر ابن ناجي في معالم الإيمان أن شرح القاضي عبد الوهاب يقع في نحو ألف ورقة . وأول نسخة من هذا =

محمد بأصول المدرسة المالكية القيروانية الأثر الواضح في مؤلفاته ، حتى تميزت بعنصرين أعطاها ما تستحقه من اهتمام علماء المالكية واعتمادهم عليها :

أول هذين العنصرين : أن كتبه زبدة التطور في آراء علماء المالكية في العراق ، فمؤلفها وارث أبي بكر الأبهري وابن الجلاب وأبي الحسن القصار .

وثاني العنصرين : أن كتبه تمثل الاندماج بين آراء قمة مدرستين مالكيتين : القاضي عبد الوهاب زعيم المدرسة العراقية ، وابن أبي زيد القيرواني (مالك الصغير) زعيم المدرسة القيروانية ، ويظهر هذا الاندماج في مؤلفات القاضي عبد الوهاب التي تناول فيها كتب ابن أبي زيد ، حيث شرح الرسالة والمدونة ومختصرها لابن أبي زيد القيرواني - كما أشرنا سابقاً [1] .

على أن اهتمام المدرسة المالكية العراقية بأصول أو مؤلفات زعيم المدرسة المالكية القيروانية بدأ في وقت قبل القاضي أبي محمد .

= الشرح بيعت بمائة مثقال ذهباً . معالم الإيمان : ٣ / ١٤٠ .

وقد مدح القاضي عبد الوهاب الرسالة في أبيات قال فيها :

رسالة علم صانها العلم النهد
قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد
أصول أضاءت بالهدى فكأنما
بدا لعيون الناظرين بها الرشد
وفي صدرها علم الديانة واضح
وآداب خير الخلق ليس لها ند
لقد أم بانيها السداد فذكره
بها خالد ما حج واعتمر الوفد

[انظر ندوة الإمام مالك :٣/٥٢] .

(١) انظر اصطلاح المالكية ص : ٣٥٦ .

وإن هذا الاهتمام الواضح بمؤلفات رئيس المدرسة القيروانية قابله اهتمام مماثل من ابن أبي زيد ، فقد بلغ من تقديره لأبي بكر الأبهري أن كتب إليه يستجيزه ، وظلت الرسائل بينهما تحمل الأسئلة التي ضمنها ابن أبي زيد في ديوانه الضخم المعروف بالنوادر والزيادات على ما في المدونة وغيرها من الأمهات .

يبدو ذلك واضحاً من خلال رسالة مخطوطة نادرة كتبها محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب ابن مجاهد الطائي البصري المالكي (ت ٣٧٠ هـ) يستجيز الفقيه الشيخ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦ هـ) كتاب مختصر المدونة وكتاب النوادر والزيادات لأهمية ما اشتملت عليه من اختلاف الروايات واختلاف الأصحاب على حد تعبيره [(١)] . وحتى يستفيد منه في هذا المجال .

ولأهمية رسالة ابن مجاهد الطائي وجوابها لابن أبي زيد القيرواني ننشرها ضمن هذه الورقة ولأول مرة عن نسخة مخطوطة بمكتبة تشستربيتي بإيرلندة تحمل رقم : (٤٤٧٥).

رسالة محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي إلى ابن أبي زيد

للشيخ الفاضل أبي محمد عبد الله بن أبي زيد الفقيه المالكي القيرواني أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وسعادته وكفايته ونعمته وحراسته وتوفيقه من محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي البصري .

يوصل القيروان حضرة الشيخ الفاضل ابن أبي زيد أدام الله عزه .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا النبي محمَّد .

أطال الله بقاء الشيخ الفاضل وأدام عزه وتأييده وسعادته وكفايته وحراسته ومعونته وتوفيقه ... وجمع لنا وله خير الدنيا والآخرة، وجَّهْتُه عن سلامة وعافية، أحمد الله عليهما وأسأله أن يجزل حظه منهما، وصَلَّى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

وما يتصل بنا من أخبار الشيخ الفاضل، وما وهبه الله من الفضائل وخصه به من شرف المنازل قد أبهجنا ، وزاد في منتنا ، وقويت به أنفسنا ، فكثرت رغبتنا إلى الله تعالى في

---

(١) يقول ابن خلدون : « جمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر ، فاشتمل على جميع أقوال المذهب ، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب ، ونقل ابن يونس معظمه في شرحه على المدونة » . المقدمة : ص ٨٠٨ .

الدعاء له ومسألتنا حسن الدفاع عنه ، كما هو عليه أيده الله من الإقبال على العلم والاهتمام به والتوفير على أهله ، حتى قد شرح من فنون العلم ما كان مشكلاً ، وفتح من عيونه ما كان مطبقاً ، وانهج من سبله ما كان وعراً ، وجمع من شواذه ما كان متفرقاً ، فأحسن الله جزاءه وأطال بقاءه .

ولقد وقع إلينا من تصنيفه – أيده الله – قطعة من المختصر ، وجدناه – أيده الله – قد أحسن في نظمه ، وألطف في جمع معانيه ، وكشف عما كانت النفوس تتوق إليه ، وكفى مؤونة الرحلة ، وطلب المصنفات ، بالكلام السهل والمعاني البينة التي تدل على حسن العناية ، وكثرة المعرفة ، والحرص على منافع الراغبين في العلم والمتعلقين به ، فأحسن الله – أيُّها الشيخ – جزاءك وأجزل ثوابك وأمتع بدوام سلامتك .

ثُمَّ بلغنا أنَّه – أيده الله – قد صنف كتاباً كبيراً جمع فيه مذهب الشيخ الإمام مالك رضوان الله عليه ورحمته واختلاف الروايات واختلاف أصحابه رضي الله عنهم ، فدلنا ما شهدنا من هذه القطعة من المختصر على عظم قدر هذا المبسوط ، واشتماله على المحاسن وجمعه لكل متفرق من المذهب ، وشرح كل غلق فيه ، فتاقت النفوس إليه ، وانصرفت الهمم نحوه ، فلولا طول المسافة والعوارض التي تقطع كثيراً من أهل العلم عمَّا يؤثرونه من المبالغة فيه ، والقصد إلى الشيخ المنفرد في هذا – أيده الله – لما بعد طريق يوصل إليه أيده الله ، ولخف كل ثقيل يؤدي إلى فوائده ، وينال به العلم الذي لا يوجد إلا عنده .

وما يتصل بنا من فضل الشيخ – أيده الله – ورغبته في الثواب قد نشطني إلى تعريفه – أيده الله – ما بنا الحاجة إلى هذين الكتابين ، وبتطلعي وبتطلع من قبلي الطالبين . والشيخ الفاضل – أطال الله بقاءه – يتفق في ذلك بما هو أهله ، ويمن بذلك علي ، أني إليه وجماعة من إخوانه والراغبين في مذهب الشيخ الإمام – رضوان الله عليه – متطلعين إليه . فإن رأى الشيخ أيده الله – أن يتفضل بإنفاذهما بعد عرضهما بحضرته وإجازته ، ويتفضل

بمكاتبتي بأخباره وأحواله ، وما يعرض قبلنا من مهماته وحوائجه ، وما يعرض لأصحابه لي ولغيري من أصحابنا ممن آثر ذلك وأحبه .

– حفظهم الله – بالعراق ، وليسدي بذلك – أيده الله وعلى من بحضرته من إخوانه وأهل العلم – السلام . وأنا أسأل الشيخ – أيده الله – أن يشركني في دعائه ، فما أغفل ذلك له ، أجابنا الله وإياه ، وفتح لنا وله برحمته ، إنَّه قريب مجيب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصَلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً .

وكتب هذا الكتاب في السبت لتسع خلون من ذي القعدة سنة ثمان وستين وثلاثمائة (٣٦٨ هـ) ، وجعلته على نسختين استظهاراً في البلاغ ، وأرجو أن تبلغنا إن شاء الله ، والحمد لله أولاً وآخراً .

جواب ابن أبي زيد إلى محمد بن أحمد بن مجاهد البصري

بسم الله الرحمن الرحيم

أدام الله للشيخ الجليل البقاء في نعم دراة وعين قارة وأحوال سارة ، مكلوءاً بحراسته محفوظاً برعايته ، ميسراً إلى محابه وطاعته ، وعصمه من الزيغ والفتنة ... من الصفح والرحمة ، وأيده بالتوفيق في البيان عن دينه ، وإظهار حجته ونشر حكمته وحصنه فيما يقول ، ويعمل بعصمته ، وجعله من عباد الله المتقين ومسّكه بصالح سلفه المتقدمين .

كتبت – أحمد الله إليك – على ما بنا من ظاهر نعمة الله وباطنها في الدين والدنيا – وهبنا الله وإياك من شكره ما يرضاه عليها شكراً ويكون لنا عنده ذخراً – ولا حول لنا ولا قوة في ذلك وفي عدّه إلا به ، وصَلَّى الله على سيدنا محمد نبي الرحمة وعلى آله وسَلَّم .

وردني كتاب الشيخ – أجل الله قدره ورفع في الدارين ذكره – بما أبهجني من سلامته – أدامها الله له وواصلها عنده – وبما عظمت به يد الشيخ عندي من ابتدائه بالمكاتبة ، وما

بسط من المواصلة ، وما دل على جميل القصد والطوية والنية الخالصة المرضية ، ينفعه الله بذلك ونفع به ، وجزاه أفضل جزاء المتواصلين له يوم تقاطع المتحابين لغيرهم ، والقلوب – أيد الله الشيخ – أجناد متواصلة وجوارح متعارفة ، وعلى هذا الدين مؤتلفة وإن نأت الديار ، وهو يجمع من الألفة ويوجب من الحرمة ما لا يوجبه قريب النسب ووشائج الرحم ، وصلك منه ببره وحماك من مساخطه .

وعندنا من أخبار الشيخ – أيده الله – مما تعم مسرته من نصرته في هذا المذهب ، وذبه عنه ومحاماته عليه ، حماه الله من كل مكروه – أولاً وأخيراً – برحمته .

وذكر الشيخ – أطاب الله أخباره – ما وقع إليه من المختصر الذي عملناه ، وسهلنا فيه السبيل ، وقربنا فيه المعنى بمبلغ الطاقة ، وأرجو أن يسلمنا الله وإياك في كل قول وعمل .

وذكر الشيخ – صانه الله – ما أعجبه من ذلك ، واستحسن منه ومن بيانه وتقريب المعنى فيه ، فقد أنست إلى ملتمس الشيخ – أيده الله – ونرجو أن يجعله الله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يرفعنا من حال التكلف إلى حال النصيحة لله ولرسوله و... الدين الذي هو السبب المبلغ إلى رحمته .

ورغب الشيخ – رعاه الله – في إيصال هذا الكتاب إليه كاملاً ، لينتفع به الصادر والوارد ، وليثبت في البلاد وينفعه الله به وينفعنا ، فجزا الله الشيخ عنا وعن جميع المسلمين جزاء المتناصحين له وفيه ، وكنت علي أن أجيد نسخ نسخه ، وأجتهد في مقابلتها وأبعثها، فلم يتسع بي الوقت إلى ما أردت من ذلك .

وذكرت أن شابين ممن يقرب منا توجها إلى الشيخ من مكة للقياه ، ولقيا أبي بكر الشيخ الأبهري – رعاه الله – ، فذكرت أنهما حملا معهما هذا المختصر مصححاً مقابلاً ، مع كل واحد منهما نسخة ، وهما شابان ممن عني وفهم ، وهما : محمد بن خلدون ،

وإسماعيل بن إسحاق ، يعرف بابن عزره ، فإن انتسخ من نسخة أحدهما فهو صحيح ، ومع ذلك فأنا على ما أردت من تجويد نسخه وبعثها إلى الشيخ ، أيده الله .

وأمَّا الكتاب – الكبير – المبسوط – الذي ذكره الشيخ – حفظه الله – الذي جمعنا فيه اختلاف أقاويل الشيخ الإمام ابن عبد الله مالك بن أنس – رحمة الله عليه – واختلاف أصحابه – رحمهم الله – ، والذين من بعدهم من المالكيين إلى عصرنا هذا قد جمعناه من الدواوين الكبار التي فيها ما ابتغينا من ذلك ، فيه مجتمع ومتفرق ، وجمعناه بالاجتهاد لتعظم الرغبة وتكثر الفائدة . فهذا الكتاب – أيد الله الشيخ – أنا فيه بدأت ، وقد تخلص من الكتب التي نسخ منها الملحق والمستدرك ، وبقي أن ينقل من هذه النسخة مهذباً ، لا إلحاق فيه ولا تقديم ولا تأخير ، وقد هذبت من هذه الصفة نحو الثلاثين جزءاً ، ولم يقابل بعد لشغلي بتمام تخلصها من النسخة العويصة .

وكتبت هذا الكتاب وما قوبل منها إلا كتاب الطهارة والجزء الأول من الصلاة ، وقد بعثت بهما إلى الشيخ ، مقابلين ، ليرى أول الكتاب وكيف يندرج ، وأنا أسأل الله وبه أستعين، إذا كمل الكتاب على ما ينبغي، عملت على أن يصل إليه منه نسخة إن شاء الله .

والكتاب المبسوط – أيد الله الشيخ – أقله إذا تم نحو الخمسين جزءاً إلى خمس وخمسين ، المختصر من نحو ثلاثمائة مع ما ضم إليه من الأطراف والفوائد من سائر ما استندر من الكتب ، ولقبانه : كتاب النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات . وأرجو أن يعين الله على مبلغ الأمل منه ، وينفع به المسلمين ، ويعيننا على ذلك بالتأييد في الإصابة لما يرضاه من عباده من الاجتهاد وحسن النية برحمته . والسَّلام على الشيخ ورحمة الله وبركاته ، وعلى من يحضره الشيخ من إخوانه وأوليائه وعلى خاصة وعامة الطالبين عنده ، بارك الله فيهم ونماهم وكثرهم ، ومن كل من قبلنا من إخواننا ومن يحضرنا وخاصتنا ومن يلوذ بنا ، على الشيخ السَّلام ورحمة الله وبركاته من جميعهم مع سلامي .

وصَلَّى الله على محمد نبيه وآله وسَلَّم ، وعلى الشيخ أبي بكرمحمد بن عبد الله بن صالح الأبهري .

وما ذكر الشيخ – أيده الله – من إجازة الكتابين فهما له إجازة ، ولكل من رغب في حمله عنَّا ، فذلك لهم إذا وصل إليهم مصححاً إن شاء الله .

وما ذكر الشيخ من الدعاء فهذا واجب له ، وكذلك يرغب إليه فيما رغب فيه ، أجاب الله لنا وله صالح الدعاء .

وكتبت هذا الكتاب في غرة شعبان من سنة تسع وستين وثلاثمائة (٣٦٩هـ) .

ويبدو من عدة وجوه أن هذه الرسائل لها قيمة تاريخية علمية في غاية الأهمية .

فهي من جهة تؤرخ للتواصل العلمي الذي كان بين مالكية مدرستين كبيرتين : بغدادية – قيروانية ، كما تسجل حرص مالكية بغداد في الإفادة من أصول علمية اعتنت بجمع روايات المذهب المختلفة واختلاف الأصحاب ، وهو نوع من التأليف الخلافي تميزت به المدرسة الإفريقية ، حمل لواءه ابن أبي زيد القيرواني من خلال مؤلفه الضخم: النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات – وهو محل الاستجازة – .

وهو جانب مهم يدخل في صميم تكوين شخصية فقيه الخلاف – العالي – الذي تميزت به المدرسة المالكية العراقية ، إضافة إلى أن مناقشة المخالف في المذهب تستدعي قبل الإلمام برأيه الاطلاع الواسع على الخلاف المذهبي الداخلي للأصحاب ووجوهه .

كما يعود اهتمام مالكية العراق وشغفهم بكتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد إلى أمور نجملها في ثلاث نقط أساسية :

١– لأنَّه كتاب حاول أن يجمع سماعات تلامذة الإمام مثل : ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم . غير أن أسمعة الثلاثة المنصوص عليهم كانت تجد قبولاً لدى مالكية العراق ، ويستعان بها في الرد على المخالف .

٢- حاول الكتاب أن يختصر أصولاً علمية كثيرة قد يتعذر وصولها إلى العراق .

٣- لأنَّ ابن أبي زيد القيرواني كان على علم واسع باختلاف أقوال الإمام مالك وأصحابه ، وهذا جانب مهم لدى مدرسة العراق - كما ذكرنا سابقاً .

فهرس المصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز البحث

١- القرآن الكريم برواية ورش .

٢- أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء ، محمد عوامة ، دار السلام ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

٣- أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين لمحمد عوامة ، دار البشائر ، الطبعة السابعة ١٩٩٨م .

٤- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض .

٥- الإشراف في مسائل الخلاف للقاضي أبي محمد عبد الوهاب البغدادي .

٦- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف لولي الله عبد الرحيم الدهلوي ، مكتبة دار النفائس- الرياض ، تعليق عبد الفتاح أبو غدة .

٧- الانتقاء لابن عبد البر القرطبي .

٨- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف لعلاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي ، تحقيق محمد حامد الفقي ، طبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ م.

٩- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للإمام القاضي عياض بن موسى اليحصبي ، طبع وزارة الأوقاف المغربية .

١٠- التبصرة في الفقه المالكي للشيخ أبي الحسن اللخمي ، مخ الخزانة العياشية .

١١- تاريخ المذهب المالكي بالغرب الإسلامي للدكتور عمر الجيدي .

١٢- تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة .

١٣- تاريخ بغداد للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب، المكتبة السلفية - المدينة المنورة .

١٤- تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ الخضري بك ، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٥م .

١٥- جامع بيان العلم وفضله للإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٦- دراسات في الاختلافات الفقهية لمحمد أبي الفتح البيانوني ، دار السلام للطباعة والنشر ، ١٤٠٥ هـ .

١٧- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون ، مطبعة المعاهد بالقاهرة ، ١٣٥١ هـ .

١٨- الذب عن مذهب مالك لابن أبي زيد القيرواني ، مخ تشستربيتي إيرلندة رقم (٤٤٧٥) .

١٩- رياض النفوس للمالكي - القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م .

٢٠- شجرة النور الزكية في طبقات علماء المالكية لمحمد مخلوف .

٢١- شيوخ مالك لابن خلفون الأزدي ، تحقيق محمد زينهم ، مكتبة الثقافة الدينية ، تونس ، ١٩٨٩ م .

٢٢- اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - دبي ٢٠٠٠ م.

٢٣- صفحات في أدب الرأي لمحمد عوامة ، طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة . ١٤١٢هـ

٢٤- طبقات أبو العرب التميمي .

٢٥- طبقات الشافعية لأبي بكر بن هداية الله الحسيني ، حققه وعلق عليه عادل نويهض ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

٢٦- طبقات الفقهاء للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي ، دار الرائد العربي ، تحقيق إحسان عباس ، ١٤٠١ هـ .

٢٧- العلاقة بين الفقه والدعوة لمفيد خالد عيد أحمد عيد ، مكتبة دار البيان ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م.

٢٨- الفروق الفقهية لأبي الفضل مسلم بن علي الدمشقي ، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان وحمزة أبو فارس ، طبع دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٢ م.

٢٩- الفهرست لابن النديم .

٣٠- العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل للسلطان مولاي عبد الحفيظ ، مطبعة أحمد يمني بفاس ، ١٣٢٦هـ .

٣١- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي علق عليه الدكتور عبد العزيز القارئ ، طبع مكتبة دار التراث ، القاهرة – مصر .

٣٢- في شرعية الاختلاف ، علي أومليل ، المجلس القومي للثقافة العربية ، المغرب ، طبعة ١٩٩١ م.

٣٣- القواعد للإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري ، طبع شركة مكة للطباعة والنشر ، تحقيق ودراسة أحمد بن عبد الله بن حميد .

٣٤- كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد بن علي التهانوي بنكَال كلكتا ١٢٨٠ هـ .

٣٥- الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢هـ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري .

٣٦- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي للدكتور عمر الجيدي .

٣٧- المدخل في مذهب الإمام أحمد ، لعبد القادر بن أحمد المعروف بابن بدران ، طبعة دار إحياء التراث العربي .

٣٨- مدونة سحنون عن ابن القاسم ، دار صادر ، بيروت .

٣٩- المدخل إلى دراسة المدارس والمذاهب الفقهية للدكتور عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م.

٤٠- المذاهب الفقهية الأربعة لأحمد تيمور باشا .

٤١- المرشد الوثيق إلى أمهات المذهب المالكي وقواعد التحقيق للدكتور حميد لحمر ، ٢٠٠٠ م .

٤٢- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، تأليف أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت .

٤٣- مالك لمحمد أبي زهرة ، الدار المصرية .

٤٤- معالم الإيمان لعبد العزيز الدباغ .

٤٥- مغني المحتاج للخطيب الشربيني ، طبعة مصطفى الحلبي ١٩٥٨ م.

٤٦- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

٤٧- المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٤ م.

٤٨- الموطأ للإمام مالك برواية علي بن زياد ، تحقيق الشاذلي النيفر ، طبع دار الغرب الإسلامي .

٤٩- ما لا يجوز فيه الخلاف لعبد الجليل عيسى ، طبع دار لبنان ، الكويت ، ١٩٦٩ م .

٥٠- ندوة الإمام مالك المنعقدة بفاس ، تنظيم وطبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية .

٥١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر .

***

مناقشات وتعقيبات

د. محمد الدسوقي

بالنسبة للمدرسة العراقية المالكية، هناك شيء مهم جداً في هذا وهو: أن الفقهاء الأحناف وخاصة الإمام محمد بن الحسن الشيباني جلس في حلقة الإمام مالك نحو ثلاث سنوات. وروى الموطأ وهو يعتبر أول كتاب في الفقه المقارن، كما أنه ألف كتاباً آخر وهو الرد على أهل المدينة – وهو كتاب من أربعة أجزاء – وكان الإمام محمد في هذه الكتب، سواء في الموطأ أو في الرد موضوعياً، انتصر لرأي الإمام مالك في بعض القضايا. وانتصر لرأي أئمة أهل المدينة دون رأي أهل العراق وأعتبر هذين الكتابين من أوائل ما كتب في الفقه المقارن.

بعد ذلك، قضية التوسع في القياس أو التوسع في الأثر. فكما قال الحجوي رحمه الله في الفكر السامي: ما من فقيه إلا قال بالأثر وقال بالنظر، لكن المشكلة: هناك من توسع في الأثر وهناك من توسع في النظر، لأسباب موضوعية: إما لظروف البيئة وإما لكثرة المشاكل، وإما لقلة الآثار في مكان دون مكان.

د. عصام البشير:

إن علماء المغرب تميزوا بأمر لم تتميز به مدرسة المالكية العراقية، وهو أنهم خدموا علم المقاصد، رأيناه من الإمام الشاطبي، ثم انتهاءً في عصرنا بالعلامة الشيخ ابن عاشور، ومَنْ كتب من المحدثين الشباب: نظرية المقاصد للدكتور أحمد الريسوني، والفاسي... وغير هؤلاء.

فعلماء المغرب في المذهب أو في المدرسة المالكية وتأثراً ببيئة الأندلس الحضارية أثروا علم المقاصد أيما إثراء وهذا يحسب للمدرسة المالكية في الأندلس فهذا مما ينبغي أن يشار إليه. وشكراً جزيلاً.

د. أحمد علي الإمام:

الحمد لله رب العالمين، ولا يزيد على الوقت أن أبالغ في الصلاة على النبي ﷺ لأقول: اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلاة تكرمنا بها بنور الفهم، وتذهب بها عنا ظلمات الوهم، وتوضح لنا بها ما أشكل حتى نفهم، وعلى آله وصحبه وسلم.

وشكر الله لشيخنا العلامة الأستاذ الدكتور أحمد نور سيف ولداره العامرة أن أحيوا التراث وأن عقدوا هذا المؤتمر للدراسات الإسلامية لنشر علم عَلَمٍ من أعلامنا من غير غمط لغيرنا:

فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وشكر الله الأخ الفاضل رئيس الجلسة الذي لم ينسني وأسأل الله أن يوفقني حتى لا أطيل وحتى أوجز من غير إعجاز.

كنا نود لو أن الحديث خصص للمدارس الفقهية، أو خصص جزء منه للمدارس الفقهية وجهود علماء المالكية في بلاد كثيرة، أنتجت علماً وافراً معروفاً لدى المنتمين إلى هذه البلاد من نحو ما جئت وغرب إفريقيا، وعلى سبيل المثال فإن الشيخ عثمان بن فوديو له اجتهادات عظيمة جداً في الفقه المالكي، خاصة وقد كان هو يدير أمر دعوة ودولة وأمة، وهذا الفقه المالكي هو الذي حفظ لبلادنا منهاج الاعتدال والتوسط واتباع السنة النبوية.

وأرجو أن تتضمن التوصيات لهذا المؤتمر في ختامه إن شاء الله تعالى بعض ما أنا ملقٍ من حديثٍ الآن، وأهم ذلك عندي اعتبار أثر إخلاص الإمام مالك في الانتفاع بكتبه فلم تكن الألقاب كافية ولا غالية عن الإجازة العلمية على أيدي علماء من أهل البركة والاختصاص من قراءة الكتاب المؤلَّف من أوله إلى آخره، فهذا باب قد ضعف جداً، لا بد من إحيائه في مثل هذا المؤتمر.

وإذا كان الإمام مالك يأتي إليه تلاميذه يشكون له أن الناس قد أكثروا من تأليف الموطآت فيقول: ما قصد به وجه الله يعلو، وقدر الله ألا يبقى في المطبوعات أو المخطوطات إلا كتابه، لأنه كان يصلي في الروضة النبوية بعد استعداد لذلك نفسي وروحي وجسدي وهو القائل: إن هذا

العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، وهذا كلام يستحق أن يكتب أمامنا لنستحضره دائماً.

ومسألة أخرى يشوش بها على الفقه المالكي وهي: أن كتبه مجردة من الأدلة، نقول فيها: إن تجريد الكتب من الأدلة طريقة في التأليف كانت سائدة على المتون، وأما المطولات المعروفة في الفقه المالكي فأدلتها معروفة مفصلة لأهل العلم. وما لم ننشر فقهنا نحن في الاعتدال والتوسط فإننا سندخل في دائرة مغلقة متعبة جداً على نحو ما قيل: ما زلنا حول غسل أو مسح قدم حتى صرنا لا نملك في وجه الأرض موضع قدم.

وقبل الأخير أدعو إلى أهمية رعاية الخلاف واحترام رأي الآخرين حتى لا نقع فيما وقع فيه الإمام الزمخشري في مواجهة المتعصبين وأكتفي بالبيت الأول من قصيدته:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به وأكتمه كتمانه لي أسلم

وآخر ولا أقول أخيراً، والآخر آخر كل شيء فأسأل الله أن يوفقنا لإحياء هذا الفقه ليأخذ مكانه في العالم الإسلامي والمستقبل بإذن الله كائن لكل بلاد الإسلام انتشاراً وظهوراً ولجزيرة العرب بحديث النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً» تزول الصحاري كلها وتأتي المروج والأنهار ويكون النصر والعز وحسبنا أن النبي ﷺ بشرنا أن هذه الأمة باقية ولا تستأصلها قوة على وجه الأرض بإذن الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المدرسة المالكية العراقية
نشأتها، خصائصها، أعلامها

إعداد

د. عبد الفتاح الزنيفي*

* أستاذ التعليم العالي ورئيس قسم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك - الدار البيضاء، ولد عام (١٩٦٢م) بالدار البيضاء - المغرب، حصل على الماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء عام (١٩٩٢م) وكان عنوان رسالته: «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لابن القطان - دراسة وتحقيق»، وحصل على الدكتوراه من جامعة أبي شعيب الدكالي عام (١٩٩٨م) وكان عنوان رسالته: «الفجر الساطع على الصحيح الجامع للشبيهي - دراسة وتحقيق». له العديد من الكتب والدراسات.

المدرسة المالكية العراقية
نشأتها، خصائصها، أعلامها

مدخل عام:

خص الله سبحانه وتعالى المدينة النبوية بمزايا كثيرة، منها: كونها مهاجر النبي ﷺ ومستقره، ومنبع الهدى والعلم الذي عم أرجاء المعمورة.

وبعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، أصبحت المدينة المنورة عاصمة خلفائه الثلاثة، وازدهرت فيها المجالس العلمية، وقصدها طلاب العلم ليأخذوا منها السنة النبوية.

واستمر هذا الإشعاع العلمي في عصر التابعين مع كبارهم، وبرز منهم الفقهاء السبعة الذين واصلوا نشر العلم بين أهل المدينة، ومن جاء من طلاب العلم من الأقطار الأخرى.

في هذا الجو العلمي، برزت شخصية الإمام مالك عالم دار الهجرة، الذي جمع بين الإمامة في الفقه والإمامة في الحديث. وخصه الله تعالى بمزايا كثيرة منها: أن مذهبه انتشر في حياته بالأندلس، «فقد ألزم هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أمير الأندلس المتوفى سنة ١٨٠هـ جميع الناس مذهب مالك[١]. وطلب الخليفة العباسي المهدي من الإمام مالك، أن يضع كتاباً يحمل الأمة عليه[٢]، وفي رواية: «أنه هم بنشر كتاب الموطأ بين الناس وحملهم على الأخذ به».

وانتشر مذهبه في كثير من البقاع، فعم جهات مختلفة من الحجاز، وانتقل إلى العراق ومصر والقيروان والمغرب والأندلس وصقلية. وانتشر في جهات أخرى من العالم الإسلامي، فوصل إلى اليمن والشام، ودخل خراسان، وفشا بقزوين، وأبهى، وما والاها ...، ودخل بلاد فارس وغيرها[٣].

إلا أن المذهب المالكي استقر بشكل قوي في بعض الأماكن وهي: المدينة والعراق ومصر والقيروان والأندلس، واستقرت في كل منطقة من هذه المناطق، مدرسة قائمة بذاتها،

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ٢٧).

(٢) الانتقاء لابن عبد البر ص(٤٠ و ٤١).

(٣) ترتيب المدارك (١/ ٢٤).

تنتمي في أصلها إلى المذهب المالكي، وتختلف عن غيرها بمميزات خاصة بها. ومن ضمن هذه المدارس، المدرسة المالكية العراقية، التي سأتحدث عن نشأتها، وخصائصها، وأعلامها. من خلال مدخل، وثلاثة فصول، على الشكل الآتي:

مدخل: **أتناول فيه المسائل التالية**:

- التعريف بالمدرسة
- الفرق بين المذهب والمدرسة
- التعريف بالقطر العراقي وتحديد موقعه وحدوده

الفصل الأول: **نشأة المدرسة المالكية العراقية**:

أ - عوامل انتشار المذهب المالكي

ب - عوامل نشأة المدرسة المالكية بالعراق

جـ - تاريخ المدرسة المالكية بالعراق:

أولاً: طور البداية والنشأة

ثانياً: طور التأسيس

ثالثاً: طور النضج والكمال

رابعاً: طور الضعف والانهيار

الفصل الثاني: **خصائص المدرسة المالكية العراقية**:

- تمهيد
- الخصائص:

١ - الاهتمام بالتقعيد الفقهي

٢ - مراعاة الخلاف العالي

٣ - العناية بالتخريج على أصول مذهب مالك

٤ - الميل إلى تفريع المسائل وتعاطي الفقه الافتراضي

الفصل الثالث: **أعلام المدرسة المالكية بالعراق**:

١ - أعلام القرن الثاني

٢ - أعلام القرن الثالث:

- الأعلام الذين سمعوا من مالك وأخذوا عنه

- الأعلام الذين لم يأخذوا عن مالك، وإنما سمعوا من تلامذته

٣ - أعلام القرن الرابع

٤ - أعلام القرن الخامس

٥ - بقية الأعلام بعد القرن الخامس

مدخل:

إن محور هذا العرض يدور حول المدرسة المالكية العراقية من حيث النشأة والخصائص والأعلام، ويجدر بنا إتماماً للفائدة التعريف بمفهوم المدرسة لغة واصطلاحاً، وتبيين الفرق بينها وبين المذهب، وتحديد موقع العراق جغرافياً.

أولاً: التعريف بالمدرسة لغة واصطلاحاً:

أ) المدرسة لغة:

- درس الشيء، والرسم، يدرس دروساً: عفا. ومنه قول عمر بن عبد العزيز في رسالته إلى أبي بكر بن حزم: «فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء»[١].

والدرس: الطريق الخفي.

ودرس الكتاب يدرسه، درساً ودراسة: ذلله بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه، أو عانده حتى انقاد لحفظه.

ودرست: قرأت. ودارست: ذاكرت، ومنه درست السورة: حفظتها. وفي الأثر «تدارسوا القرآن» أي اقرأوه وتعهدوه لئلا تنسوه.

الدُّرْسة: الرياضة.

المِدْرَاس والمِدْرَس: الموضع الذي يدرس فيه، والمدرس الكتاب، والمُدَارس: الذي قرأ الكتب ودرسها[٢].

ب) المدرسة اصطلاحاً:

«المدرسة» في الاصطلاح التاريخي، هي مؤسسة علمية تلقن فيها وبشكل جماعي معارف عامة أو خاصة ضرورية[٣] وهي تضم مفكرين وباحثين بنوا اجتهاداتهم، وألفوا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ٣٤ . (١/١٤٩ فتح).

(٢) انظر المعاجم التالية:

- «كتاب العين» الخليل بن أحمد الفراهيدي (٦/٢٢٧).
- «مجمل اللغة» أبي الحسن بن زكرياء الرازي (ص٢٨٥).
- «لسان العرب» جمال الدين بن منظور (٦/٧٩-٨٠). (١/٣٩٩).
- «القاموس المحيط» الفيروزآبادي (ص٤٩٠).

(٣) Dictionnaire encyclopedique.

كتبهم بناءً على مرجعية موحدة لتحقيق هدف واحد، ونصرة اتجاه محدد معين، ومواجهة الأفكار والآراء، والمدارس المخالفة، بالدرس والتعليل والتحليل أحياناً، وبالمناظرة أحياناً أخرى.

والمدرسة بمفهومها هذا تكون منبثقة عن قاعدة أُمٍّ ومشتقة عنها إلا أنها تختلف معها في بعض القضايا، فلا بأس أن تخالفها في بعض الفروع دون الأصول، وأن تجدد منهجها المتبع من واقعها المعيش وثقافة وحضارة بيئتها بجميع معطياتها.

وإذا تأملنا هذين التعريفين اللغوي والاصطلاحي، فبناءً على الأول وهو التعريف اللغوي نجد من علماء المدرسة العراقية في فترة النشأة من عكف على فهم وقراءة وحفظ بعض الكتب سواءً في المذهب أو خارجه، مثل أبي بكر الأبهري الذي كان على اطلاع واسع بالمذاهب الأخرى وخاصة منها المذهب الشافعي والحنفي، ناهيك عن المذهب المالكي، مما أكسبه مكانة علمية راقية بين علماء عصره، وفي هذا يقول القاضي أبو العلاء الواسطي: «كان أبو بكر الأبهري معظماً عند سائر علماء وقته لا يشهد محضراً إلا كان هو المقدم فيه، وإذا جلس قاضي القضاة أبو الحسن بن أم شيبان أقعده عن يمينه، والخلق كلهم من القضاة والشهود والفقهاء وغيرهم دونه»[1].

كما أن علماء هذه المرحلة لم يكتفوا بقراءة كتب المخالفين وفهمها فحسب، بل تصدوا للرد عليها ومناقشتها، مثل ما قام به القاضي إسماعيل في كتابه «الرد على محمد بن الحسن»[2] وكتبه في الرد على الشافعي وأبي حنيفة خاصة؛ وكذا الأبهري في كتابه «الرد على المزني»[3] وابن القصار في كتابه «الحجة لمذهب مالك» قال عنه القاضي عبد الوهاب: «تذاكرت مع أبي حامد الإسفرائيني الشافعي في أهل العلم وجرى ذكر أبي الحسن القصار وكتابه في (الحجة لمذهب مالك) فقال لي: ما ترك صاحبكم لقائل ما يقول»[4].

---

(١) «تاريخ بغداد» الخطيب البغدادي (٥/٤٦٣). ترتيب المدارك (٢/١٢٥).

(٢) «ترتيب المدارك»: (١/٤٧١).

(٣) «ترتيب المدارك»: (٢/١٢٧).

(٤) «ترتيب المدارك»: (٢/٢١٤).

ومنهم من أسهر ليله، لفهم وشرح بعض الكتب، وإضفاء صفة التوضيح والبيان عليها، كالأبهري في شرحه «للمختصر الصغير والكبير» لابن عبد الحكم[١]. والقاضي عبد الوهاب في شرحه «لرسالة» ابن أبي زيد القيرواني و «الممهد في شرح مختصر ابن أبي زيد للمدونة»[٢].

وبناءً على الثاني وهو التعريف الاصطلاحي، تميز السير العلمي في العراق عما كان عليه بالمدينة، إذ سار هؤلاء الفقهاء والأصوليون والمحدثون سيراً جديداً، ونهجوا نهجاً مخالفاً لما كان عليه إمام المذهب، فجاء عملهم الفقهي مزدوجاً بين أثر مالك ـ رضي الله عنه ـ ومنهج فقهاء الرأي الذي ساد المنطقة العراقية، فأعملوا عقولهم وأطلقوا العنان لتفكيرهم، لا يردهم عن ذلك إلا ما عارض مقاصد الشريعة، وجر ضيقاً أو حرجاً على المكلفين. وكذا مخالفة المدرسة للمذهب في بعض المسائل الفرعية الفقهية انطلاقاً من التعليل الذي اعتمده الفقهاء، أو الدليل، أو البينة التي فرضت عليهم المخالفة.

ثانياً: الفرق بين المدرسة والمذهب:

المذهب كلمة مشتقة من الأصل الفعلي لذهب، وذهب لغة: سار ومشى وراح إلى حاله. وأذهب: أزال ومحا، يقال: «اللهم أذهب عني المرض»، أي أزله وامحه عني. والمذهب مفعل من الذهاب، وهو الطريق ومكان الذهاب، يقال ذهب القوم مذاهب شتى أي ساروا في طرائق مختلفة، وذهب الشخص مذهبه سار في طريقه[٣].

أما في الاصطلاح: «فالمذهب حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة في الأحكام الاجتهادية استنباطاً وترجيحاً واختياراً[٤]. ويطلق عند المتأخرين من أئمة المذاهب على ما به الفتوى فيقولون» «المذهب في المسألة كذا». من باب إطلاق الشيء على جزئه الأهم، كقول النبي ﷺ: «الحج عرفة»[٥]. لأن ذلك هو الأهم عند الفقيه المقلد[٦].

---

(١) «ترتيب المدارك»: (٢/ ١٢٥).

(٢) «ترتيب المدارك»: (٢/ ٢٧٣).

(٣) انظر مختار الصحاح. ولسان العرب. مادة ذهب.

(٤) مواهب الجليل شرح مختصر خليل. للحطاب (١/ ٢٤).

(٥) رواه أبو داود (١٩٤٩) والنسائي (٢/ ٤٥-٤٦) والترمذي (١/ ١٦٨) وغيرهم.

(٦) انظر شرح الزرقاني على شرح اللقاني للمختصر (ص ١٣٣).

هذا هو معنى المذهب لغة واصطلاحاً. وبه يتضح الفرق بين المدرسة والمذهب، فالمدرسة منضوية تحت المذهب، ومتفرعة عنه، فهي لا تخرج عنه في أصوله، وإنما تختلف عنه في بعض المسائل الفرعية، وفي طريقة الاحتجاج، وأيضاً في شرح مقفل غوامض المذهب، والاهتمام بالروايات المنقولة عن الإمام وتمحيصها وترجيح بعضها على بعض، ... إلى غير ذلك من القضايا التي تعمل على خدمة المذهب، وليس الخروج عنه.

ثالثاً: التعريف بالقطر العراقي وتحديد موقعه وحدوده:

العراق هو الجزء الجنوبي من بلاد ما بين النهرين. عرف بأسماء عديدة، عند الجغرافيين، والمؤرخين، فهو العراق، وبلاد الرافدين، أو النهرين، وبلد الحيرة. إلا أن المعلومات عنه ليست كافية لدرجة تمكن من تعيين حدوده بدقة[١]. لكن بعض الدارسين المحدثين، حاولوا وضع مقاربات لتحديد حدوده القديمة. فقد شكل «المنطقة الممتدة من هضبة أرمينيا في الشمال، حيث ينبع نهرا دجلة والفرات، حتى الخليج العربي في الجنوب. ومن الفرات غرباً حتى ما وراء دجلة شرقاً»[٢].

(١) انظر تاريخ العراق الاقتصادي في «القرن ٤هـ»: عبد العزيز الدوري (ص ١٩).

(٢) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد أمين سليم (ص ٢١٣).

الفصل الأول
نشأة المدرسة المالكية العراقية

انتشر المذهب المالكي في الآفاق شرقاً وغرباً، واتخذه الناس مذهباً في دينهم في كثير من الأقطار الإسلامية.

أ - عوامل انتشار المذهب المالكي

ساعدت كثير من العوامل في هذا الانتشار منها:

العامل الأول: مميزات شخصية صاحب المذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ. ويمكن إبرازها من جهتين:

الجهة الأولى: ما عرف عنه من تمسكه بالسنة، ومحاربة البدعة، وتشبثه التام بآثار الصحابة والتابعين، والتزامه الصارم بالكتاب والسنة والقياس الواضح، إضافة إلى استقامته وجديته، وحسن سيرته[١].

الجهة الثانية: جمعه بين الإمامة في الفقه، والإمامة في الحديث. يقول عبد الرحمن ابن مهدي «الثوري إمام في الحديث، وليس بإمام في السنة. والأوزاعي إمام في السنة، وليس بإمام في الحديث. ومالك إمام فيهما معاً»[٢].

العامل الثاني: الموطن الذي خرج منه المذهب المالكي، وهو المدينة النبوية، التي هاجر إليها رسول الله ﷺ واستقر بها بقية عمره، ونزل بها الوحي الرباني. وكانت مقام كثير من الصحابة وأولادهم من التابعين فمن بعدهم. فكانت بهذا أهم مدينة إسلامية، تغري طلبة العلم للوفود إليها والنهل من علم علمائها.

العامل الثالث: صحة الأصول التي اعتمد عليها الإمام مالك في الاحتجاج للمسائل الفقهية. وهي الكتاب والسنة والإجماع. بالإضافة إلى عمل أهل المدينة الذي تفرد

---

(١) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي الدكتور المرحوم عمر الجيدي (ص ٢٩).

(٢) ترتيب المدارك (١/١٥٣).

بالاحتجاج به عن بقية الأئمة. يقول ابن تيمية «من تدبر أصول الإسلام، وقواعد الشريعة، وجد أصول مالك، وأهل المدينة أصح الأصول والقواعد»[١].

العامل الرابع: ما ورد في الأثر أن النبي ﷺ قال: «يوشك أن يضرب الناس أكباد المطي في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة»[٢]. وهذه بشارة عظيمة من النبي ﷺ، وكرامة للإمام مالك. قال سفيان بن عيينة: «كانوا يرونه مالك بن أنس»[٣].

العامل الخامس: طول المدة التي مكثها مالك يدرس الحديث والفقه، حيث قضى نحواً من أربعين سنة يلقي الدروس بين صفوف طلبة العلم.

هذه العوامل وغيرها، كانت من الأسباب التي حملت الطلاب وأهل العلم على الرحلة إلى المدينة للالتقاء بمالك والأخذ عنه، وبالتالي السعي من طرف هؤلاء إلى نشر علمه في بلدانهم.

ب - عوامل نشأة المدرسة المالكية بالعراق

برزت النواة الأولى في نقل المذهب المالكي إلى العراق على يد بعض كبار أصحاب مالك وتلاميذه الذين لقوه وسمعوا منه الفقه والحديث، وتفقهوا عليه، ثم نقلوا علمهم إلى العراق بدءً بالبصرة وانتهاءً ببغداد[٤].

وفي مقدمة هؤلاء التلاميذ والأصحاب الذين كان لهم الفضل في إدخال المذهب المالكي إلى العراق، سليمان بن بلال، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وعبد الرحمن بن مهدي، ومحمد بن عمر الواقدي، ويحيى بن يحيى بن بكر، وتلاهم بعد ذلك تلامذتهم الذين واصلوا عملهم في نشر المذهب المالكي كابن المعذّل ويعقوب بن شيبة، وآل حماد بن زيد. ويمكن حصر العوامل التي ساعدت على ترسيخ المذهب المالكي بالعراق في أربعة عوامل هي:

١ - القضاء، ٢ - التدريس، ٣ - المناظرات، ٤ - المؤلفات.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/٣٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٩٩) والترمذي (١/١٥٢-١٥٣ عارضة) وانظر: التمهيد لما في الموطأ لابن عبد البر (١/٨٥).

(٣) التمهيد لما في الموطأ (٦/٣٥).

(٤) الديباج المذهب: (١/٦١) - مقدمة شرح التلقين: (ص ١٢).

١ - القضاء: يعتبر القضاء من أهم العوامل التي ساهمت في ترسيخ هذا المذهب بالعراق، «ذلك أنه وفر لعلماء المالكية الأوائل فرصة التطبيق لآرائهم الفقهية وإثراء اجتهاداتهم، وجعلهم أمام القضايا المستحدثة التي لا يملكون لها نصاً عن مالك وأصحابه. الأمر الذي دفعهم للاجتهاد فيها على قواعد المذهب وأصوله، أو تخريجها على أقوال الإمام مالك رحمه الله»[١].

ومن هؤلاء الأعلام الذين تولوا منصب القضاء وكانوا فقهاء نَجِدُ سليمان بن بلال (ت١٧٦هـ) ولاه الرشيد قضاء بغداد[٢]. ومحمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧هـ) ولي القضاء للرشيد وابنه المأمون[٣]. وهارون بن عبد الله الزهري أبو يحيى المكي (ت٢٢٨هـ) نزل بغداد وولي قضاء العسكر بها[٤]. وقتيبة بن سعيد الخراساني (ت٢٤٠هـ) ولي قضاء بغداد[٥] إلى غيرهم من أصحاب مالك وتلامذتهم الذين تولوا منصب القضاء وولاية المؤسسات الاستشارية، وغير ذلك من أنواع المسؤولية التي أصبح المذهب المالكي يتبوأ بها درجة من درجات الحكم والفتوى والقيادة والتوجيه[٦].

ويرتبط بهذا العامل وجود بعض الأسر العلمية بالعراق التي نشطت في تدعيم المذهب المالكي، كأسرة آل القعنبي، وأسرة الذهليين[٧]، وأسرة آل حماد. ورد في ترتيب المدارك عند ترجمة رجال الطبقة الثالثة من فرع العراق «ثم من آل حماد بن زيد أئمة هذا المذهب وأعلامه ... وهم الذين نشروا هذا المذهب بكثرة رجالهم، وشهرة أعلامهم، فمنهم من أئمة الفقه والمشيخة في الحديث والسنن كلهم أئمة أجلة، ورجال سنة، روي عنهم في أقطار الأرض، وانتشر ذكرهم ما بين المشرق والمغرب، وتردد العلم في طبقاتهم، وبينهم نحو

---

(١) قواعد الفقه الإسلامي من خلال كتاب الإشراف على مسائل الخلاف (ص ٣٣-٣٥) للدكتور محمد الروكي.

(٢) انظر ترتيب المدارك (٢/ ١٦٨).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٣٦).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٢٩٩).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ٣٠٢).

(٦) انظر مقدمة تحقيق كتاب الإشراف (١/ ٣٥).

(٧) انظر شجرة النور (ص ٩١) وترتيب المدارك.

ثلاثمائة عام من زمن جدّهم الإمام حماد بن زيد، وأخيه سعيد ... إلى وفاة آخرهم المعروف بابن أبي يعلى »[١].

ويمكننا أن نستخلص من خلال ما سبق أن المذهب المالكي بالعراق ازدهر في البداية بتبني الدولة العباسية له وتولية أئمته القضاء.

٢ - التدريس: يعتبر الدرس الفقهي المالكي من الوسائل التي عملت في تركيز أسس المذهب المالكي بالعراق « وذلك بكفاءة رجالاته وأساتذته الذين اشتهروا بسعة علمهم واطلاعهم على أقوال المذاهب الأخرى وطريقة تصنيفهم التي كانت تدور حول علم الخلاف وعلم الأصول والاحتجاج لآراء المذهب بالأدلة النقلية والعقلية ومناظرة علماء المذاهب الأخرى والرد عليهم ونقض مؤلفاتهم مما أدى إلى تهافت طلبة العلم على حلقاتهم التدريسية »[٢].

ومما يدعم هذا الرأي قول القاضي عياض ـ رحمه الله ـ عند ترجمته لأبي عمران الفاسي: « ولما دخل بغداد شاع أن فقيهاً من أهل المغرب مالكياً قدم. فقال الناس: لسنا نراه إلا عند القاضي أبي بكر الباقلاني وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق وإمام الناس »[٣].

٣ - المناظرات: عرفت العراق اضطرابات فكرية وسياسية، فهي تزخر بالمتناقضات الناتجة عن اختلاط المسلمين مع غيرهم، واختلاط التيارات الفكرية الإسلامية فيما بينها، بالإضافة إلى عوامل أخرى.

انطلاقاً من هذا الوضع قام الدرس المالكي العراقي على المناظرات مما أدى إلى تثبيته بالرغم من وجود المذاهب الإسلامية الأخرى، ومما يدل على ذلك أمور كثيرة منها:

أولاً: عند الوقوف على تراجم أعلام مالكية العراق نجد وصفاً سائداً ينعت به كثير منهم، وهو: « كان نظاراً ».

ثانياً: بعض النقولات منها:

نصح الإمام مالك ـ رحمه الله ـ تلميذه أسد بن الفرات أن يترك حلقته ويلتحق

---

(١) ترتيب المدارك (٢ / ٤٦٣).

(٢) انظر الصلات الثقافية بين العراق وبلاد المغرب (ص١٦-١٧).

(٣) ترتيب المدارك (٢ / ٢٨١).

(٤) انظر المناظرة في أصول التشريع الإسلامي دراسة في التناظر بين ابن حزم والباجي (ص ١٥).

بمدارس العراق ليتعلم فيها فن المناظرة والجدل اللذين يحققان له رغبته التي لمسها لديه من خلال أسئلته التي توضع في سياق: «هذه سلسلة بنت سلسلة، إن كان كذا كان كذا»[١].

٤ - المؤلفات: اهتم علماء المذهب المالكي في العراق بالتأليف، وشمَّروا عن سواعدهم، وانبرت أقلامهم للدفاع عن المذهب المالكي، بتدوينه والاحتجاج له والرد على المخالفين. ويمكن تقسيم أنواع المصنفات لديهم إلى خمسة أقسام:

١ - كتب اهتمت بنقل أقوال الإمام مالك.

٢ - كتب اهتمت بتدوين المسائل الفقهية وفق المذهب المالكي. من ذلك كتاب «المبسوط» في الفقه للقاضي إسماعيل بن إسحاق، وكتاب «شرح المختصر الصغير والكبير» لابن عبد الحكم للأبهري وكتاب «الإشراف في مسائل الخلاف»، وكتاب «التلقين»، كلاهما للقاضي عبد الوهاب.

٤ - كتب الردود: وهي الكتب التي ألفها بعض المالكية للرد على العلماء الذين لا ينتمون إلى المذهب المالكي، وتعد كتب الردود من العوامل التي وطدت المذهب المالكي في العراق، لما تمتاز به من قوة في الاحتجاج للمذهب والرد على المخالفين. ومن هذه الكتب: «كتاب الرد على محمد بن الحسن الشيباني» - صاحب أبي حنيفة - في مائتي جزء - إلا أنه لم يتم -. «وكتاب الرد على أبي حنيفة»، و «كتاب الرد على الشافعي». كلُّها للقاضي إسماعيل وكتاب الرد على المزني - صاحب الشافعي - للأبهري.

٤ - كتب الاحتجاج للمذهب المالكي، وهي الكتب التي صنفت في الاحتجاج لما ذهب إليه الإمام مالك، ومن هذه المؤلفات: «كتاب الحجة لمذهب مالك» لابن القصار. قال عنه القاضي عبد الوهاب: «تذاكرت مع أبي حامد الإسفرائيني الشافعي في أهل العلم، وجرى ذكر أبي الحسن بن القصار وكتابه في الحجة لمذهب مالك فقال لي: ما ترك صاحبكم لقائل ما يقول[٢]».

٥ - كتب أصول الفقه: وهي الكتب التي عنيت بأصول وقواعد المذهب المالكي. وكان لها دور مهم في توطيد دعائم المذهب بالعراق، لأنها تمتاز بالتأصيل للقواعد

---

(١) انظر ترتيب المدارك (١/ ٢٧٠-٢٧١). والصلات الثقافية بين العراق وبلاد المغرب (ص ١٥).

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٢١٤).

والاحتجاج والتدليل للأصول. خصوصاً في بلد مثل العراق الذي حوى زخماً فكرياً واتجاهاً عقلياً لا يقبل القضايا والمسائل إلا بالبرهنة والاستدلال.

وممن ألف في أصول الفقه ابن القصار في كتاب «مقدمة في الأصول». والقاضي إسماعيل صاحب كتاب «الأصول»[(١)]. والإمام الباقلاني ذو المؤلفات المفيدة في الأصول كـ «الإرشاد» وغيره.

جـ- تاريخ المدرسة المالكية بالعراق:

يتجلى الحديث عن تاريخ المدرسة المالكية بالعراق في أربعة أطوار: طور البداية والنشأة وطور التأسيس، وطور النضج والكمال، وطور الضعف والانهيار.

أولاً: طور البداية والنشأة:

سبقت الإشارة إلى أن المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم. كانت قبلة الوافدين لزيارة المسجد النبوي الذي تشد الرحال إليه، ثم تلقي العلم عن علمائها.

وكان للرحلة أثر كبير في نقل الفقه المالكي إلى العراق على يد جماعة من العلماء، سواء منهم ذوو الأصول العراقية أو الذين اتطؤوا العراق، بعد مجالستهم وسماعهم علم مالك وحملهم ما تحملوه عنه مثل: الموطأ، والسماعات، والأجوبة.

فأما الذين اشتهروا بأخذ الموطأ عن مالك مباشرة، ولهم روايات:

١ - محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة (١٨٩هـ) روايته للموطأ مشهورة. وهو إن كان حنفي المذهب إلا أنه كان يثني على مالك كثيراً ويذكره بين طلبته، بل يعقد له مجالس يحدث فيها بحديث مالك، ويناقش آراءه وبعض أصول مالك وألف في ذلك كتابه: «الحجة على أهل المدينة». وكان المجلس الذي يخصه لحديث مالك يعرف استجابة تبرز في كثرة الحاضرين من أهل العراق. ذكر ابن عبد البر القرطبي في «الانتقاء» عن محمد بن الحسن الشيباني أنه كان إذا حدث عن مالك امتلأ منزله وكثر الناس عليه، حتى يضيق بهم الموضع، وإذا حدث عن غير مالك من شيوخ الكوفيين، لم يجئه إلا اليسير، وكان يقول: «ما أعلم أحداً أسوأ ثناء على أصحابكم منكم، إذا حدثتكم عن مالك ملأتم علي الموضع وإذا حدثتكم عن أصحابكم - يعني الكوفيين - إنما تأتون متكارهين»[(٢)].

---

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٤٧١).

(٢) الانتقاء (ص ٢٥).

٢ – عبد الله بن المبارك، المحدث الفقيه، أصله من مرو، سكن العراق، وتوفي سنة (١١٨هـ) بمدينة على الفرات تعرف بـ «هيت»، روى الموطأ وتفقه على مالك[1].

٣ – عبد الرحمن بن مهدي، البصري، المحدث، المتوفى سنة (١٩٨)، لزم مالكاً وأخذ عنه وانتفع به[2].

٤ – إسحاق بن عيسى الطباع، المتوفى سنة (٢١٥هـ)[3].

٥ – عبد الله بن مسلمة القعنبي، التميمي، المدني، سكن البصرة (ت ٢٢١هـ)[4].

٦ – قتيبة بن سعيد الخراساني (ت ٢٤٠هـ)، ولي قضاء بغداد[5].

٧ – يحيى بن يحيى بن بكر، التميمي النيسابوري، المحدث، رحل إلى بغداد، قرأ على مالك الموطأ ولازمه توفي سنة (٢٢٦هـ)[6].

فهؤلاء الأعلام سمعوا الموطأ ونزلوا العراق فحدثوا به، ومعلوم أن موطأ مالك مصنف، مرتب على الأبواب الفقهية، ويتضمن بجانب المرفوعات الموقوفات والمقطوعات ورأي مالك الفقهي.

وبهذا فروايتهم للموطأ لم تكن مقتصرة على رواية الحديث النبوي، بل شملت رواية فقه مالك.

وأما الذين لقوا مالكاً وكانت لهم أسمعة عنه، وحملوها إلى العراق ونشروها هناك، فلنذكر منهم:

١) سليمان بن بلال التميمي، قاضي بغداد، كان من أجلّ أصحاب مالك وأخصهم به، توفي ببغداد سنة (١٧٦هـ)[7].

---

(١) شجرة النور (ص ٥٧ و ٥٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تزيين الممالك (١/ ٥٢).

(٤) ترتيب المدارك (٣/ ١٩٨).

(٥) المصدر السابق (٣/ ٣٦٠).

(٦) المصدر السابق (٣/ ٢١٢).

(٧) شجرة النور (ص ٥٧).

٢) محمد بن عمر الواقدي، (ت٢٠٧هـ) الإخباري الشهير، سكن ببغداد، وتولى القضاء بها للرشيد والمأمون[١].

٣) هارون بن عبد الله الزهري المكي (ت٢٣٢هـ) نزيل بغداد، القاضي العادل، ولي قضاء العسكر لبغداد، روى عن مالك، وكان أعلم من صنف الكتب في مختلف قول مالك[٢].

فهؤلاء الأعلام سمعوا عن مالك وتقلدوا القضاء ببغداد. وبهذا، فرواة الموطأ بالعراق مع من سمع من مالك ممن تقلد القضاء يشكل البذرة الأولى لتأسيس الإطار العام للمذهب المالكي بالعراق الذي سيعتمد ويرتكز عليه من أتى بعدهم من تلامذتهم ومن جاء بعدهم.

ثانياً: طور التأسيس:

لا شك أن النواة التي سعى في زرعها أصحاب مالك بالعراق، تعاهد على سقيها وإخراج شطبها جماعة من الفقهاء المالكية الذين تتلمذوا على أصحاب مالك، بالتدريس والتأليف في مذهب مالك، وعقد المناظرات لنصرته، وإبطال حجج المخالفين من الحنفية والشافعية.

ومما دعم أسس المذهب المالكي بالعراق وانتشاره ووطد أركانه، منصب القضاء الذي شغله كبار علماء المالكية الذين كانوا يصدرون الأحكام ويفصلون في المنازعات وفق أصول مذهب مالك.

ويأتي على رأس هؤلاء الفقهاء المالكية:

١ - أبو الفضل أحمد بن المعذل العبدي، البصري الإقامة، الكوفي الأصل، الفقيه، المتكلم، الزاهد، النظار، نادرة الدنيا في الحفظ، والمثل السائر في الذكاء. له مؤلفات. «لم يكن لمالك بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة»[٣].

٢ - يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد، البصري، الفقيه العالم الثقة، القاضي، المتوفى سنة (٢٤٦هـ)[٤].

---

(١) ترتيب المدارك (٣/٢١٠).

(٢) شجرة النور (ص ٥٧).

(٣) المدارك (١/٢١٩) والديباج لابن فرحون (١/١٤٤).

(٤) شجرة النور (ص ٦٤).

٣ - يعقوب بن شيبة السدوسي، البغدادي، الإمام الفقيه المحدث، من أعلم أهل الحديث المسندين. له: تأليف في مذهب مالك، وتوفي سنة (٢٦٢هـ)[١].

٤ - حماد بن إسحاق بن حماد، أبو إسماعيل، الفقيه الإمام، ألف كتباً كثيرة منها: «المهادنة»، وكتاب: «الرد على الشافعي». توفي سنة (٢٦٩هـ)[٢].

٥ - الحارث بن مسكين بن محمد، أبو عمرو، الفقيه الزاهد، القاضي العادل، سكن بغداد ست عشرة سنة وحدث بها. دوّن أسمعة شيوخه: ابن القاسم، وأشهب، وابن وهب. له كتاب فيما اتفق عليه رأيهم ورأي الليث. توفي سنة (٢٥٠هـ)[٣].

٦ - إسماعيل بن إسحاق بن حماد، أبو إسحاق القاضي، الإمام، العلامة في سائر الفنون والمعارف، المحصل على درجة الاجتهاد. به استغلظ المذهب المالكي واستوى على سوقه. وتفقه عليه المالكية من أهل العراق، وانتشر هناك المذهب. من تأليفه: الموطأ، وأحكام القرآن، والمبسوط في الفقه، ومختصره وكتاب في الفرائض، وشواهد الموطأ، وكتاب الأصول. توفي سنة (٢٨٢هـ) أو (٢٨٤هـ)[٤].

ثالثاً: طور النضج والكمال:

يبتدئ هذا الطور من النصف الثاني من القرن الثالث إلى حدود العقد الثاني من القرن الخامس الهجري، وتتميز هذه الفترة باستمرار تنامي الخط التصاعدي للمذهب المالكي، واتساع دائرة انتشاره وتكاثفها ، ووفرة المصنفات، وتجديد المنهج وكثرة العلماء النوابغ الذين كان لهم أثر واضح في إثراء المذهب المالكي وإغنائه، وفي استمرار بقائه، وذلك من خلال ما خلفوه من مؤلفات امتازت بالكثرة، واستفاد منها مالكية المدارس الأخرى عصراً بعد عصر، ويمثل القاضي إسماعيل حلقة وصل بين المرحلة السابقة مرحلة التأسيس، وهذه المرحلة.

ويمثل فترة النضج والكمال:

أولاً: أسرة وبيت آل حماد، ينتسبون لجدهم الأكبر المحدث الثقة حماد بن زيد بن جهضم الأزدي. وبيتهم مشهور بالعلم والفضل والعدالة والجاه والجلالة والسؤدد في الدين

---

(١) المصدر السابق (ص ٦٥).

(٢) شجرة النور.

(٣) المصدر السابق (ص ٦٧).

(٤) المصدر السابق (ص ٦٥).

والدنيا، تردد العلم في بيتهم مدة تزيد على الثلاثمائة سنة[١]. هم الذين نشروا المذهب بالعراق، فمنهم أئمة الفقه والمشيخة والحديث والسنن، كلهم أجلة ورجال سنة، روي عنهم في أقطار الأرض، وانتشر ذكرهم في المشرق والمغرب، قال أبو محمد الفرغاني: نال بنو حماد في الدنيا منزلة ومزية رفيعة، وأول نكبة نكبوها أيام المعتز، ولم يبلغ أحد ممن تقدم من القضاة ما بلغوه من اتخاذ المنازل والضياع والكسوة والآلة ونفاذ الأمر في جميع الآفاق.

وكان آخر من وصف منهم بالعلم ابن أبي يعلى[٢]. فكان إسحاق بن إسماعيل بن حماد (ت٢٣٠هـ) متولياً للمظالم بمصر أيام المأمون، والخطابة والإشراف أيام المعتصم ثم ولي ولاية مظالم البصرة[٣]. وتقلد أكابرهم القضاء بدءً من يعقوب بن إسماعيل بن حماد المتوفى سنة (٢٤٦هـ) وإسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد المتوفى سنة (٢٨٢هـ) ويوسف ابن يعقوب بن إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٩٧هـ، وهؤلاء الثلاثة أبناء عمومة.

ثم ابن الأخير أبو عمر محمد بن يوسف، المتوفى سنة (٣١٦هـ) ثم ابنه أبو الحسن عمر بن محمد بن يوسف المتوفى سنة (٣٢٨هـ) وهو ممن أفتى بقتل الحلاج سنة (٣٠٩هـ).

ثانياً: علماء أفذاذ خدموا المذهب المالكي بالعراق، وعملوا على نشره، بتدريسه بين طلبة العلم، وبالتأليف في مسائله، وأصوله، وبالإفتاء وفق ما ذهب إليه مالك. فكانوا بحق فحول هذه المدرسة في هذه الفترة. نذكر خمسة منهم، سادسهم القاضي إسماعيل بن إسحاق الذي تتجاذبه الفترة السابقة وهذه الفترة وقد سبق التنويه به.

وهؤلاء الأعلام هم:

- أبو بكر الأبهري المتوفى سنة (٣٧٥هـ)، الفقيه الثقة المشهور، انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي بالعراق. له مصنفات منها: «كتاب إجماع أهل المدينة»، وكتاب «مسالك الجلالة في سند الرسالة»[٤].

---

(١) شجرة النور (ص ٦٥).

(٢) ترتيب المدارك (١/٤٦٩) (٤/٢٧٦-٢٧٧) والمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للبناهي (٣٢/٣٣).

(٣) ترتيب المدارك (٢/٣٢٤).

(٤) ترتيب المدارك (٢/١٢٧) وشجرة النور (ص ٩١).

- أبو القاسم بن الجلاب البصري، المتوفى سنة (٣٧٨هـ)، الفقيه الأصولي الحافظ، له شرح المدونة، وكتاب التفريع، وهو مشهور معتمد في المذهب[١].

- أبو الحسن بن القصار المتوفى سنة (٣٩٨هـ). الأصولي الفقيه النظار. له «عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار»، وكتاب الحجة لمذهب مالك. وغيرهما[٢].

- أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة (٤٠٣هـ) شيخ السنة ولسان الأمة، الجدلي الكبير، والنظار النحرير، له مصنفات كثيرة منها: «التقريب» و «الإرشاد» في أصول الفقه، و «أمالي إجماع أهل المدينة»[٣].

- القاضي عبد الوهاب بن محمد البغدادي المتوفى سنة (٤٢٢هـ) الفقيه الحجة الحافظ النظار المتفنن، له تآليف مفيدة منها: «التلقين»، و «الإشراف على نكت مسائل الخلاف» و «شرح رسالة ابن أبي زيد» وغيرها[٤].

رابعاً: طور الضعف والانهيار:

بعدما سطعت شمس المدرسة المالكية العراقية، وملأ نورها أرض العراق، عطاء ونشاطاً وتوجيهاً علمياً، وعكست أشعتها على من نزحوا إليها من مناطق شتى طلباً للعلم والتعلم، والتمرس على مناهجها الخاصة، إن على مستوى التدريس والتصنيف أو على اختيار منهج يوافق العقلية العراقية مع الواقع العلمي المعيش، أفل نجمها في بداية القرن الخامس وانهار برجها وضعف كيانها وتهاوى وجودها.

واصطلحنا على نعت هذا الطور بالضعف والانهيار بناء على بعض المعطيات العلمية التي تفيد أن الضعف لم يدب إليها تدريجياً كسائر المدارس الأخرى، مثل المدرسة الأندلسية والقيروانية والمصرية، التي عرفت به مرحلة التطور والازدهار العلمي، مرحلة اختصار التآليف القديمة بحصر المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، ليسهل حفظها وتلقينها لطلبة العلم، وكذا الشروح والحواشي لهذه المختصرات الغامضة التي هي أقرب إلى الألغاز، فضلاً عن خلوها عن الأدلة.

---

(١) ترتيب المدارك (٢/٢١٦).

(٢) ترتيب المدارك (٢/٢١٤).

(٣) ترتيب المدارك (٢/٢٠٣).

(٤) ترتيب المدارك (٢/٢٧٢).

وإنما هوت المدرسة المالكية العراقية من قمة العطاء إلى الضعف مباشرة دون تدرج، وكان جائحة أصابتها فهدمت جدرانها ونقضت بناءها واستأصلت أسسها، ولم تترك منها إلا بقايا تقاوم وتعاند عسى أن يظل للمذهب ذكر بالعراق. ونتساءل عن الأسباب المباشرة التي أدت بالمدرسة إلى مهاوي السقوط، بغية الوقوف على طبيعتها واستكشاف حقيقتها.

وتلمح الجواب من المعطيات التاريخية للقرن الخامس التي نلخص من خلالها عوامل ضعف المدرسة في المسائل التالية:

أ – طبيعة الدور التشريعي.

ب – تقريب الحكام لفقهاء الشافعية وتبني مذهبهم.

جـ – خروج القضاء عن مالكية العراق إلى غيرهم.

د – خروج القاضي عبد الوهاب إلى مصر.

أ – طبيعة الدور التشريعي:

درج بعض العلماء المهتمين[١] بتاريخ الفقه الإسلامي على تقسيم الفقه إلى مراحل نشأة وتطور وانهيار، وأرخ بعضهم فترة انحطاط الفقه بما عرفته الخلافة العباسية من تمزق وتشتت[٢]، إذ انقطعت الروابط السياسية بين الأقاليم الإسلامية، وصارت الخلافة العباسية في صراع مع جميع الأقطار التي عاشت بؤراً متردية بين الاستقرار والتمزق السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

أما بغداد مقر الخلافة فعرفت سطوة بني بويه الذين كانوا أصحاب السلطة الفعلية والمباشرة لتسيير شؤون الدولة على المنابر ... وبضعف الخلافة أصبح العالم الإسلامي منقطع الأوصال، مفصوم العرى، ليس له جامعة سياسية تجمع شتاته، وتحافظ على كيانه، وصار كل فريق من المتغلبين يعادي الآخر ويكيد له، فالفاطميون الذين قويت شوكتهم في مصر، اجتهدوا في إرسال دعاتهم إلى جميع الأقطار الإسلامية لبث دعوتهم وكسب عطف الناس متلفعين برداء الانتساب إلى الشجرة المحمدية الزكية. والعباسيون المغلوب على أمرهم كانوا يعقدون المجالس للنيل منهم وإبعادهم عن هذا النسب...

---

(١) مثل محمد بن الحسن الحجوي الفاسي في كتاب «الفكر الإسلامي في تاريخ الفقه الإسلامي». والفاضل ابن عاشور في كتابه «ومضات فكر». ومصطفى أحمد الزرقاء في كتابه «المدخل الفقهي العام».

(٢) تاريخ الخلفاء: (ص ٣٨٠)، الكامل في التاريخ (٧/ ١٤٨).

وبهذا نقول إن تدهور الأوضاع السياسية وعدم الاستقرار أثرا لا محالة على المسيرة العلمية. وعطاء العلماء، الشيء الذي دفع بالعديد منهم إلى هجرة أوطانهم باحثين عن الاستقرار مبتعدين عن الإكراه والفتوى لصالح القواد والساسة. هذا وإن حاول الفاطميون خاصة في مصر إظهار اهتمامهم بالعلم والعلماء، لكن التاريخ يبقى شاهداً على سوء نواياهم ومعاملتهم للعلماء المخالفين، وفي تردي الوضع التشريعي وحال العلماء يقول الأستاذ الخضري: «ما يجب الاعتراف به، أن روح الاستقلال في التشريع ضعفت لضعف الاستقلال السياسي، تلك الروح العالية التي كانت تملي على أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ومالك والشافعي وأحمد وداود بن علي بن محمد ـ رحمهم الله ـ وأضرابهم، لم يبق لها إلا أثر ضعيف، تلك الروح التي أملت على أبي حنيفة أن يقول في أسلافه: «هم رجال ونحن رجال» وأملت على مالك قوله: «ليس من أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ»[١].

وبهذا يظهر أن الفقه في هذه المرحلة قد طوى مرحلة النضج والكمال ودخل دائرة التقوقع والتقليد للمذاهب الأربعة خلافاً لما كان عليه أيام قوة الخلافة وتماسكها، فانصهر الاجتهاد المطلق بغلبة الاجتهاد المحدود والمقيد بأصل من أصول إمام من الأئمة الأربعة، ولم يعد الفقه في هذه المرحلة إلا اجتراراً لما سبق، وهذا ما أقره ابن خلدون بقوله: «ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ... ولم يبق إلا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها ...»[٢].

في خضم هذه الأوضاع المزرية ضعفت المدرسة المالكية العراقية نتيجة شدة الصراع، والخلاف بين الفقهاء وسيطرة التعصب المذهبي.

ب - تقريب الحكام لفقهاء الشافعية وتبني مذهبهم:

بدأت محاولة تبني مذهب معين مع الخليفة المتوكل على الله جعفر المتوفى سنة (٢٤٧هـ) الذي يعتبر من أول من تمذهب من الخلفاء على المذهب الشافعي، وكان يرجو

---

(١) «تاريخ التشريع» الخضري: (ص ٢٣٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون: (ص ٤٤٨).

أن يتخذ من الشافعية. وهم أهل السنة، عضداً يجابه به العلويين الذين ما انفكوا يناضلون دون غايتهم الاستخلافية ... وعهد إلى يحيى بن أكثم بمنصب قاضي القضاة، إلا أن توجه المتوكل لم يكن له الأثر البالغ على المذهب المالكي بالعراق، بل استمر المذهب قاضياً ومفتياً ومتزعماً لحركة الفتيا والقضاء، بل متقلداً مناصب قاضي القضاة في أغلب الأحيان.

لكن في عهد القادر بالله (٤٢٢هـ) الذي زامن القاضي عبد الوهاب تمّ تقريب الشافعية بشكل صارخ، وإبعاد من دونهم من المذاهب الأخرى، وتفقه على المذهب الشافعي، وكان أستاذه العلامة ابن بشر الهروي الشافعي. مما جعل ابن الصلاح يعده من فقهاء الشافعية، وذكره ضمن طبقاتهم.

بالإضافة إلى هذا أن مدة خلافته كانت أطول، مما ساعد على تقوية المذهب الشافعي وضمان مكانة عالية عند الخلفاء وبالتالي عند الناس. وما أن تقرب الشافعية من الخليفة وتولوا مناصب القضاء حتى أعلنوا العداء العلمي على فقهاء المالكية بالعراق خاصة شيخهم أبو حامد الإسفرائيني[١] المتوفى سنة (٤٠٨هـ) حيث انتهت إليه رئاسة الفقه ببغداد فضيق على المالكية وزاحمهم على ماكنتهم حتى إنه نسب للمذهب ما ليس منه وما لم يقله فقهاؤهم ونجد إشارات لهذا في كتاب «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب، ففي المسألة (١٧٤) يقول: «... وحكى الإسفرائيني الشافعي عنا أنا لا نجوز أن نصلي الظهر عقيب الزوال حتى يصير الفيء ذراعاً، ولا أعلم هذا قولاً لأحد من المسلمين، وإذا قلنا لأصحابهم هذا غلط علينا لا أصل له، قالوا: لا يحكي شيخنا إلا الصواب»[٢].

وكذلك المسألة (١٣٤٢): «إذا كانت له أربع نسوة فقالت له إحداهن: طلقني، فقال: كل امرأة لي طالق، أو قال كل نسائه طوالق، فأطلق ذلك، طلقت المسائلة وغيرها إلا أن يعلم من قصده أنه أراد غير السائلة، وحكى الإسفرائيني عنا أن السائلة لا تطلق ويطلق من سواها، وأخطأ علينا في ذلك كعادته فيما يحكيه عنا وعن غيرنا ...»[٣].

(١) الإسفرائيني: أحمد بن محمد بن أحمد، أبو حامد الفقيه الإسفرائيني، قدم بغداد وهو حدث فدرس فقه الشافعي على أبي الحسن المرزبان، أقام ببغداد مشغولاً بالعلم حتى صار أوحد وقته انتهت إليه الرياسة وعظم جاهه عند الملوك والعوام. كان الناس يقولون: «لو رآه الشافعي لفرح به». وله مصنفات ... تاريخ بغداد: (٤ / ٣٦٩)، «طبقات الشافعية» (هداية الله الحسيني) (ص ١٢٧).

(٢) «الإشراف» القاضي عبد الوهاب: (١ / ٢٠١).

(٣) «الإشراف» القاضي عبد الوهاب: (٢ / ٧٤١).

على ضوء ما قرره القاضي عبد الوهاب في كتابه «الإشراف» يظهر لنا عمق الشرخ الواقع بين الفقهاء، ومدى تحجر الفكر وخطورة العصبية، والتقليد الذي وصل إليه حال الفقهاء، وكذلك انكسار الهمم عن البحث والتحري في قول الآخر، والوقوف على دليله وتعليل ما ذهب إليه مثلما كان في عهد الشيوخ والفقهاء الأوائل. بل صار هَمُّ المتأخرين التشنيع على المخالف وإن لم يقم لديه دليل على ما يقول: خلافاً لما عهدناه ممن سبقهم من الأئمة الذين اعتمدوا النقد البناء الموجه والمصحح بالاعتماد على الأدلة واحترام الرأي المخالف.

وبهذا يحق لنا القول: إن هذا الصراع كان له الوقع المباشر على ضرب المدرسة المالكية العراقية، وتكسير حركتها، واجتذاب أصولها التي أبت إلا المقاومة داخل هذه الحلقة من الصراعات المتنوعة والمختلفة.

جـ - خروج القضاء عن مالكية العراق إلى غيرهم:

اشتد عود المدرسة المالكية منذ التأسيس مع القاضي إسماعيل ، قاضي القضاة، المفتي المجتهد، واستمرت شجرته مذهرة شامخة حتى القرن الخامس، حين زاحمهم الشافعية وغيرهم من الأحناف مما تسبب في خروج القضاء عنهم وضعف شوكتهم وقلة واردي المذهب، وعز طالبوه. وقد أقر هذا عياض بقوله: «بعد موت الأبهري، وكبار أصحابه لتلاحقهم وخروج القضاء عنهم إلى غيرهم من مذهب الشافعي وأبي حنيفة، ضعف مذهب مالك بالعراق، وقل طلبه لاتّباع الناس أهل الرئاسة والظهور»[1].

د - خروج القاضي عبد الوهاب من العراق:

إن خروج القاضي عبد الوهاب من أرض العراق نحو مصر، كان له الأثر البالغ في ضعف المدرسة وانهيارها إذ كان هو الإمام والرائد والمجتهد والموجه للمدرسة ببغداد في وقته، ومعلوم إذا غاب الأستاذ ولم يترك خلفاً قادراً على التحمل والمواجهة يكون مآل المدرسة التشتت والضعف.

ما نخلص إليه أن هذه العوامل المتظافرة فيما بينها، مترابطة الواحدة بالأخرى، زلزلت الأرض من تحت أقدام المدرسة المالكية العراقية وفسحت المجال للمذهب الشافعي والحنفي.

---

(١) «ترتيب المدارك» (٢/ ١٢٧).

وخير ما نختم به هذا المبحث قول الدكتور محمد الروكي: «استمر المذهب المالكي قاضياً ومفتياً وموجهاً في بلد العراق إلى مطلع القرن الخامس الهجري، حيث قد اشتدت المنافسات بين فقهاء المذاهب الأخرى، وبين أئمة المالكية. بل إن هذا التنافس قد اتسع نطاقه، فعم المذاهب الفقهية كلها واحتدم الخلاف بين الفقهاء وخصوصاً في القضاء والفتيا وغيرهما من مناصب الحكم.

وفي مطلع هذا القرن أيضاً كان المذهب الشافعي قد تألق نجمه، وبرز إلى معترك الخلاف، ساعدهم في ذلك تقربهم من رجال الحكم، وذوي السلطان من الأمراء والوزراء والقواد. فكان ذلك إيذاناً بظهور الشافعية وتوليهم مناصب القضاء والفتيا والمظالم وغيرها بالعراق»[1].

وبالرغم من سقوط المدرسة المالكية العراقية فقد ظلت حاضرة بجميع مقوماتها الفقهية والأصولية في جميع المدارس المالكية الأخرى، خاصة منها الأندلسية التي استقى أعلامها من معين هذه المدرسة مادة فقهية خصبة. ومنهجاً أصولياً جدلياً متيناً تلمسه في شخصية الحافظ الفقيه الناقد أبي الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ) وغيره من الأعلام الكبار.

---

(١) «مقدمة قواعد الإشراف» د. محمد الروكي: (ص ٤١).

الفصل الثاني
خصائص المدرسة المالكية العراقية

تمهيد :

تميزت المدرسة المالكية العراقية بمنهجها الخاص في التفكير والاستنباط، متأثرة ببيئتها الفكرية التي تقوم على إعمال الرأي، والتمرس على الأقيسة بكل أنواعها، والميل إلى التحليل المنطقي، والاستدلال الأصولي، وذلك بإفراد المسائل وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين وهو المنهج الذي يشار إليه «بطريقة العراقيين». وهذا الأمر هو السبب الرئيسي في اختلاف منهج التأليف لكتب الفقه المالكي بين أصحاب المدرسة العراقية والمدارس الأخرى، فجاء منهج العراقيين قائماً على الأدلة، بينما سار منهج الآخرين على طريقة تدوين الأسمعة. الذي لم يكن ينكر أدلة المسائل. وقد شرح المقري منهج العراقيين ومنهج غيرهم فقال: «وقد كان للقدماء ـ رضي الله عنهم ـ في تدريس المدونة اصطلاحان، اصطلاح عراقي، واصطلاح قروي[١]، فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذاهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ. ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين، وأما الاصطلاح القروي فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب وتصحيح الروايات، وبيان وجود الاحتمالات، والتشبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها»[٢].

يستفاد من كلام المقري (ت١٠٤١هـ) بعض خصائص منهج علماء المذهب المالكي بالعراق في تفريعهم للمسائل بإفراد كل مسألة بالذكر، ثم الاستدلال لكل مسألة بما لها من أدلة، سواء أدلة الكتاب والسنة أو أدلة النظر والقياس، مع تحرير هذه الأدلة على طريقة أهل

---

(١) المراد به اصطلاح أهل القيروان.

(٢) أزهار الرياض في أخبار عياض: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري (٣/ ٢٢).

الجدل والأصوليين، وهي الطريقة التي كانت شائعة عندهم، واتبعها أصحاب المذاهب، في حلق دروسهم وفي مؤلفاتهم. كما أن بيئتهم فرضت عليهم أن يؤلفوا في موضوعات لعل بعضها لم يكن يشغل بال إخوانهم في المدارس الأخرى، فألفوا في الفقه ـ وهذا شيء لم ينفردوا به ـ وألفوا في أصوله، وفي الخلاف، وفي نصرة المذهب والذب عنه، وفي مناقب أهل المدينة، وفي مناقب إمامها، وهذه الموضوعات لعلهم هم السباقون إليها، لأنها جاءت وليدة التنافس والصراع الذي كان في بيئتهم.

وأنتجت هذه الجهود ثماراً يانعة عادت بالفوائد الجمة على المذهب المالكي خصوصاً، وعلى الفقه الإسلامي على وجه العموم.

ونستعرض خصائص المدرسة المالكية العراقية في أربعة محاور مع التمثيل لكل خصيصة بنماذج من كتب بعض أعلام هذه المدرسة، مثل: المعونة والإشراف للقاضي عبد الوهاب، والتفريع لابن الجلاب. وهذه المحاور هي كالآتي:

١ - الاهتمام بالتقعيد الفقهي

٢ - مراعاة الخلاف العالي

٣ - العناية بالتخريج على أصول مذهب مالك

٤ - الميل إلى تفريع المسائل وتعاطي الفقه الافتراضي

١- الاهتمام بالتقعيد الفقهي

التقعيد مصدر من قعد، يقعد، تقعيداً، والقاعدة لغة: أسس وأصول الشيء سواء كان حقيقة أو مجازاً «فقواعد البناء أساسه»[١] ويقال: بنى أمره على قواعد، ومنه قواعد الفقه قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**﴾[٢]. وقواعد الهودج: خشباته الجارية مجرى قواعد البناء. (والقواعد من النساء): اللاتي قعدن عن الولد وعن الحيض وعن الزوج[٣].

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن (ص ٤٢٤) للراغب الأصفهاني.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٣) لسان العرب (٣/٣٥٨).

والتقعيد الفقهي: كلمتان ركبتا تركيباً وصفياً، وصارتا بمنزلة اسم واحد، هو لقب يدل على معنى معين، وقد حدد هذا المعنى «د. محمد الروكي» فقال: «هو عمل علمي فقهي ينتهي بالفقيه إلى صياغة الفقه قواعد وكليات، تضبط فروعه وجزئياته، فالقاعدة هي حكم كلي، والتقعيد هو إيجادها واستنباطها من مصادرها»[١].

وقد اهتم مالكية العراق بهذا الفن، فكانت عنايتهم متجهة إلى تأصيل الأصول، وتقعيد القواعد، بالتدوين فيه في وسط علمي معزز بكبار الأصوليين من الشافعية والأحناف على الخصوص، فانكبوا على دراسة فتاوى الإمام وأقواله، وبحثوا في أدلتها ومصادرها مستخلصين قواعد عامة يقع تقريرها أصلاً من أصول المذهب، وبهذا العمل القائم على استقراء فتاوى الإمام استطاعوا استكشاف مجموعة من القواعد الأصولية والفقهية التي لم ينص عليها الإمام أو لم يشر إليها، محتجين لكل هذه القواعد بواسطة الأدلة العقلية والنقلية.

ويعد ابن الجلاب من الأوائل الذين تعاطوا فن التقعيد الفقهي، الذي كان يمثل طوراً من أطوار التشريع، ووسيلة تيسّر عمل الفقيه، ويكفي الفقيه كلفة التفتيش عما يريد إدراكه من الجزئيات. وفي ثنايا كتابه التفريع قواعد فقهية متفرقة.

ويتجلى تفوق مالكية العراق في هذا الفن من خلال ما خلفوه من مؤلفات منها: «كتاب النظائر في الفقه» للقاضي عبد الوهاب. يقول عنه د. حميش عبد الحق محقق كتاب المعونة: «إن ثبتت نسبة الكتاب إليه، فإنه يعتبر من أول ما ألف عند المالكية في هذا الفن»[٢].

ومن مؤلفاتهم في هذا الباب أيضاً: «كتاب الفروق أو البروق في مسائل الفقه» له أيضاً[٣] وهو أول كتاب مالكي في الفروق، حيث لا يعلم من ألف من المالكية في هذا الفن قبل القاضي عبد الوهاب، كما يوجد لدى مالكية العراق رصيدهم من القواعد الفقهية مبثوثة لديهم في كتب فروعهم، وهذه القواعد متنوعة، تدور حول محاور عدة تمثل لها ببعض الأمثلة من العبادات والمعاملات:

---

(١) نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء (ص ٢٩).

(٢) المعونة على مذهب عالم المدينة للقاضي عبد الوهاب البغدادي (١/ ٤٣).

(٣) ترتيب المدارك (٢/ ٢٧٣).

أ - قواعد فقهية من العبادات :

- في عدم الوضوء من السلس والاستحاضة : قاعدة : « كل خارج من البدن إذا خرج في الصلاة لم يمنع المضي فيها ولم يوجب فسادها فإن خروجه خارجها لا ينقض الوضوء »[١] .

- وفي وجه اعتبار اللذة لمس يؤثر في نقض الطهر . قاعدة : « كل معنى تعلق بالذكر أوجب الطهارة العليا ، فمن جنسه ما يوجب الطهارة الدنيا »[٢] .

- وفي مس الذكر على وجه الخطأ والسهو قاعدة : « كل معنى نقض الطهر مع العمد نقضه مع السهو كالحدث »[٣] .

- وفي عدم الوضوء من القهقهة في الصلاة قاعدة : « كل ما لم ينقض الوضوء في غير الصلاة لم ينقض في الصلاة »[٤] .

- وفي عدم بطلان صلاة المتيمم مع رؤية الماء في صلاته قاعدة : « كل صلاة جاز له المضي فيها مع عدم الماء ، جاز له المضي فيها مع وجوده »[٥] . وقاعدة : « كل جنس لو وجد القليل منه لم تبطل صلاته ، فكذلك كثيره »[٦] .

- وفي عدم جواز الجمع بين صلاتي فرض بتيمم واحد قاعدة : « كل مكلف جاز له الصلاة بالتيمم لم يجز له أن يجمع بين صلاتي فرض كالمستحاضة »[٧] .

- وفي وجوب الزكاة في مال الصغير كوجوبها في مال الكبير . قاعدة : « كل زكاة لزمت الكبير ، لزمت الصغير »[٨] .

---

(١) الإشراف : (١/ ١٤٢) .

(٢) الإشراف : (١/ ١٤٩) .

(٣) الإشراف : (١/ ١٤٩) .

(٤) الإشراف : (١/ ١٥٢) .

(٥) الإشراف : (١/ ١٦٤) .

(٦) الإشراف : (١/ ١٦٤) .

(٧) الإشراف : (١/ ١٦٦) .

(٨) المعونة : (١/ ٣٧٧) .

- وفي مسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما أفضلية تجديد الماء لهما، والقاعدة تقول: «المغسولات نفلاً تنفرد عن المغسولات فرضاً فيجب أن تنفرد الممسوحات نفلاً عن الممسوحات فرضاً»[١].

- وفي كون المرأة لا تكون إماماً في فرض ولا نافلة. قاعدة: «كل من لم يصح أن يكون حاكماً لنقصه لم يكن إماماً في الصلاة»[٢].

ب - قواعد في المعاملات:

- في عدم ثبوت خيار المجلس. قاعدة: «كل خيار كان من مقتضى العقد، جاز أن يبقى بعد الافتراق، كخيار العيب، وكل خيار لا يثبت بعد الافتراق فليس من مقتضى العقد كالخيار في غلاء الثمن وإرخاصه»[٣].

- وفي كون خيار الشرط موروث. قاعدة: «كل من ورث شيئاً ورثه بحقوقه كالدَّيْن والرهن وغيره»[٤].

- وفي ثبوت جواز إسلام الذهب والفضة في الحديد والرصاص وغيرهما من الموزونات وتحرير العلة في ذلك. قاعدة: «كل شيئين جاز إسلام أحدهما في الآخر لم يجمعهما علة واحدة في الربا. أصله الذهب والحنطة، وكل شيئين امتنع إسلام أحدهما في الآخر مما فيه، فإنهما يجتمعان في علة واحدة، أصله الذهب والفضة ولأن كل جنس جاز التفاضل بين معموله ومهمله فلا ربا فيه، أصله التراب والقصب»[٥].

- وفي جواز بيع الرطب بالرطب متماثلاً. قاعدة: «كل جنس جاز بيعه بجنسه حال جفافهما. جاز حال رطوبتهما، كاللبن باللبن ... وكل حال كانت طريقاً للمماثلة بين اليابسين فكذلك بين الرطبين، كحال الجفاف»[٦].

---

(١) المعونة: (١/١٢٤). والإشراف (١/١٢٢) والنص منه.
(٢) المعونة: (١/٢٥١).
(٣) الإشراف: (٢/٥٢٢).
(٤) الإشراف: (٢/٥٢٣).
(٥) الإشراف: (٢/٥٣٢).
(٦) الإشراف: (٢/٥٣٨).

- وفي كون لبن الآدميات طاهر يجوز بيعه وشربه قاعدة: «كل ما جاز شربه جاز بيعه، أصله الماء»[١].

- وفي ضمان ما يضمن منه بقيمته. قاعدة: «كل عين ضمن تلفها فقيمتها كسائر المتلفات»[٢].

- وفي كون الخلع جائز مع التراضي واستقامة الحال. قاعدة: «كل حال جاز أن يطلق فيها بغير عوض، جاز أن يطلق فيها بعوض»[٣]. وقاعدة: «كل مشاع جاز بيعه، جازت هبته». وقاعدة: «كل عقد صح في المشاع الذي لا ينقسم صح في الذي ينقسم كالبيع»[٤].

ج - قواعد في المشقة والضرر:

في عدم جواز التيمم لصلاة قبل دخول وقتها قاعدة: «كل رخصة أبيحت للضرورة والحاجة. لم تستبح قبل وجودها»[٥].

د - قواعد في العرف والعادة:

في عدم جواز بيع التمرة قبل بدو صلاحها على الإطلاق من غير شرط القطع. قاعدة: «الإطلاق محمول على العادة، والعادة: التبقية على ما بيّناه، فوجب الحمل عليها»[٦].

- وفي مسألة اختلاف المرتهنين في قدر الحق قاعدة: «العرف أصل يرجع إليه في التخاصم إذا لم يكن هناك ما هو أولى منه»[٧].

- إذا تنازعا جداراً بين دارين ولأحدهما فيه تأثير يشهد العرف بأنه يفعله المالك، حكم له به. قاعدة: «العرف والعادة أصلان يرجع إليهما في التنازع»[٨]. كما نرى ابن

---

(١) الإشراف: (٢/ ٥٣٨).

(٢) الإشراف: (٢/ ٥٨٣).

(٣) الإشراف: (٢/ ٧٢٥).

(٤) المعونة: (٣/ ١٦٠٩) [باب في صحة ولزوم عقد الصدقة].

(٥) الإشراف: (١/ ١٦٦).

(٦) الإشراف: (٢/ ٥٤٣).

(٧) الإشراف: (٢/ ٥٨٥).

(٨) الإشراف: (٢/ ٥٩٧).

الجلاب في كتابه التفريع يعرض المسألة مقلباً لجميع وجوهها وظروفها ثم يصرح بعد ذلك بحكمها مستخلصاً قاعدة يمكن تطبيقها على كل المسائل التي من نوعها. ومن أمثلة ذلك:

- في شأن طلاق المعسر بالنفقة حيث يقرر الحكم بقوله: «وطلاق المعسر بالنفقة رجعي. ورجعته موقوفة على يسره. فإن أيسر في عدتها كانت له رجعتها، وإن لم يوسر حتى انقضت عدتها فلا رجعة عليها، ولا يلزمه نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملاً فتكون لها النفقة والسكن في العدة» ثم يستخلص من ذلك قاعدة: «وكذلك كل مطلقة بائن كالمختلعة وغيرها فهن بمنزلة المبتوتة»[١].

- وفي حكم من اشترى شيئاً معيباً ثم تصرف فيه بعد علمه بعيبه يقرر الحكم بقوله: «ومن اشترى أمة معيبة ثم وطئها بعد علمه بعيبها لزمه عيبها ولم يرجع على بائعها بشيء من أرشها. فإن وطئها قبل علمه بعيبها ردها ورجع بثمنها» ثم استخلص قاعدة: «وكذلك كل من اشترى شيئاً معيباً ثم تصرف فيه بعد علمه بعيبه لم يجز له ردّه، ولم يكن له على البائع أرش عيبه»[٢].

- وفي ترتيب الوصايا والكفارات والنذور يقرر حكمها في قوله: «... ومن أوصى بعتق معين وزكاة، فالزكاة مبدأة، وقال عبد الملك: يبدأ العتق على الزكاة، ومن أوصى بزكاة وكفارة، فالزكاة مبدأة على الكفارة، ومن أوصى بوصايا وكفارات ونذور، فالكفارات والنذور مبدأة على الوصايا». ثم استخلص قاعدة: «وكذلك كل ما بعضه آكد من بعض إذا أوصى به جميعاً فإنه يبدأ بالآكد فالآكد»[٣].

والقواعد في كتاب التفريع كثيرة، مثل ما في كتابي الإشراف والمعونة للقاضي عبد الوهاب، واللذين يحتويان على عدد ضخم من القواعد الأصولية، والفقهية.

ولذلك يعد القاضي عبد الوهاب أول المشاركين في تأسيس قواعد فقهية للمذهب المالكي، وهو أحسن ما يمثل المنهج البغدادي في الدراسات الفقهية.

---

(١) التفريع: (٢/ ٥٥).
(٢) التفريع: (٢/ ١٧٥).
(٣) التفريع: (٢/ ٣٢٤).

٢- مراعاة الخلاف العالي

سمي بالخلاف نظراً لاهتمامه بالأدلة الأصلية العليا من الشريعة، وبدأ التأليف فيه منذ القرن الثاني الهجري. ونشأ علم الخلاف استجابة ووفاء بحاجات المتعلمين والمتناظرين والمستفتين والمفتين.

وممن تحدث عن نشأة علم الخلاف وتطوره، ومفهومه ومعناه، وفائدته وأثره العلامة المؤرخ «عبد الرحمن بن خلدون ٨٠٨هـ» في مقدمته تحت عنوان «أصول الفقه وما يتعلق بالجدل والخلافيات» قال فيه بعد أن فرع من الكلام عن أصول الفقه: «... وأما الخلافيات، فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه. واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤوا منهم، ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم، اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملة، وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية، وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذي قلده وتمسك به، وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه ... كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ...»[١].

ثم جاء بعد ابن خلدون من يتحدث أيضاً عن علم الخلاف وهو: «أحمد بن مصطفى، الشهير بطاش كبري زاده -٩٨٦هـ» في موسوعته القيمة «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم» فعقد فصلاً لعلم الخلاف بدأه قوله: «وهو علم باحث

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ الغرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» (ص ٥٧٨).

عن وجوه الاستنباطات المختلفة من الأدلة الإجمالية والتفصيلية. الذاهب إلى كل منها طائفة من العلماء. أفضلهم وأمثلهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه. ومن أصحابه: أبو يوسف، ومحمد، وزفر. والإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل - رضي الله تعالى عنهم -، ثم البحث عنها بحسب الإبرام والنقض لأي وضع أريد في تلك الوجوه. ومباديه مستنبطة من علم الجدل، فالجدل بمنزلة المادة، والخلاف بمنزلة الصورة، وله استمداد من العلوم العربية والشرعية، وغرضه: تحصيل ملكة الإبرام والنقض، وفائدته دفع الشكوك عن المذهب وإيقاعها في المذهب المخالف»(١).

وحاجي خليفة المتوفى (١٠٦٧هـ) عرفه بقوله: «هو علم يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية، ودفع الشبه، وقوادح الأدلة الخلافية، بإيراد البراهين القطعية، وهو الجدل الذي هو قسم من المنطق، إلا أنه خص بالمقاصد الدينية»(٢).

وقد اشتهر مالكية العراق بكثرة تصنيفهم في الخلافيات. ولعل مرد ذلك وجودهم في جو علمي تكثر فيه المذاهب الفقهية، لمعاصرتهم للحنفية والشافعية فيه، إضافة لما عرفته بغداد من تنافس بين المذاهب الفقهية، ونشاط لجميع التيارات العلمية بكل ألوانها السياسية والعقدية والفقهية والحديثية، واللغوية والصوفية ... وغير ذلك من النحل والمذاهب. إذ اتخذت كل طائفة من بغداد موطئ قدم تثبت به وجودها، وتقوم فيه بالدعاية لنفسها، ونشر مذهبها وبيان صحة أصولها، كما سعى علماء هذه المذاهب المتنافسة لنصرة مذاهبهم من خلال الرد على مخالفيهم، وإبطال احتياجاتهم فعقدت لذلك المجالس، وأقيمت بينهم المناظرات، وغالباً ما تكون في مجلس الخليفة، وفي مجالس ذوي الجاه والسلطان، فنشأ عن ذلك علم الخلاف. وفي وسط هذا النشاط العلمي ساهم مالكية العراق في تنشيط الحوار بين المذاهب من خلال التصنيف في الخلافيات مستعملين منهج الرد ونقض آراء المخالفين، وهذا المنهج النظري العقلي استقام لمالكية العراق، ونبغوا فيه بشكل لا نجد له نظيراً في المدارس

---

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم (١/ ٣٠٦). تاليف: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده.

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٧٢١). تاليف: حاجي خليفة.

المالكية الأخرى، ويعد القاضي إسماعيل بن إسحاق من الذين نبغوا في الاحتجاج للمذهب المالكي وشرحه، وبيان أدلته وأصوله. ومن عهده بدأت مشاركة المالكية ببغداد في تأسيس وتطوير علم الخلاف مما سيكون له فضل في تدعيم مركز المذهب المالكي بالعراق، وفي هذا يقول القاضي عياض في حق القاضي إسماعيل: «هو أول من بسط قول مالك واحتج به وأظهره بالعراق، وكان أبو حاتم القاضي الحنفي يقول: لبث إسماعيل أربعين سنة يميت ذكر أبي حنيفة من العراق»[١].

وقال أيضاً: «وتقدم في العلم حتى صار علماً، ونشر من مذهب مالك وفضله ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، وصنف في الاحتجاج له والشرح ما صار لأهل هذا المذهب مثالاً يحتذونه، وطريقاً يسلكونه»[٢].

وعلى نهج القاضي إسماعيل سار نخبة من العلماء منهم: أخوه «حماد بن إسحاق» (٢٦٧هـ) صاحب كتاب: «الرد على الشافعي»[٣] والقاضي «أبو الحسن بن المنتاب البغدادي» صاحب كتاب «مسائل الخلاف والحجة لمالك»[٤]. و «أبو بكر بن الجهم» (٣٢٩هـ) و «محمد بن بكير البغدادي» (٣٠٥هـ) وكلاهما ألف أيضاً في مسائل الخلاف.

ومن خلال هذه المؤلفات، أخذت معالم المسلك الذي تمتاز به المدرسةالمالكية ببغداد تتوضح بجلاء.

وقد اتخذ الرد على المخالفين ونقض آرائهم عند مالكية العراق شكلين:

الشكل الأول: عبارة عن كتب مستهدفة، منها:

- كتب القاضي إسماعيل بن إسحاق في «الرد على محمد بن الحسن» - وهو في مئتي جزء، لم يتم - وفي «الرد على أبي حنيفة»، و «الشافعي في مسألة الخمس»[٥].

---

(١) المدارك: (١/ ٤٦٥).

(٢) المدارك: (١/ ٤٦٥).

(٣) المدارك: (١/ ٤٧٢).

(٤) شجرة النور الزكية (ص ٧٧).

(٥) المدارك: (١/ ٤٧١).

- و «كتاب الرد على المزني لبكر بن العلاء القشيري البصري (٣٤٤هـ) و «كتابه في الرد على القدرية»[١].

- و «نقض كتاب الشافعي في رده على مالك» - في ستة أجزاء - لأحمد بن محمد ابن عمر الدهان البصري[٢].

- و «كتاب الرد على ابن علية فيما أنكره على مالك» لأبي جعفر الأبهري (٣٦٥هـ)[٣].

- و «كتاب الرد على المزني» للقاضي عبد الوهاب بن نصر[٤].

- و «كتاب الرد على الشافعي» لأحمد بن أبي يعلى البصري[٥].

الشكل الثاني: عبارة عن كتب الخلاف العالي:

- «كتاب مسائل الخلاف: لبكر بن العلاء القشيري (٣٤٤هـ)[٦].

- و «كتاب في مسائل الخلاف» لأبي بكر بن علوية الأبهري[٧].

- و «كتاب عيون الأدلة في مسائل الخلاف» للقاضي أبي الحسن ابن القصار (٣٧٨هـ). قال عنه القاضي عياض نقلاً عن أبي إسحاق الشيرازي: «لا أعرف للمالكيين كتاباً في الخلاف أحسن منه»[٨]. وهو كتاب فقه مقارن، يعرض آراء المذاهب المختلفة وأدلتهم.

---

(١) المدارك: (٢/١٢). وبكر هو ابن محمد بن العلاء. كنيته أبو الفضل، وهو من أصل البصرة، وانتقل إلى مصر، وهو من كبار فقهاء المالكية رواية للحديث، تقلد أعمالاً للقضاء. له كتاب الأحكام المختصر من كتاب إسماعيل بن إسحاق، وكتاب أصول الفقه. توفي بمصر سنة ٣٤٤هـ.

(٢) المدارك: (٢/١٣٣). وأحمد الدهان من أئمة المالكية بالمشرق والمتأخرين، روى عن ابن شاهين عن مصعب الزبيري. له تآليف أخرى.

(٣) المدارك: (٢/٢١٥).

(٤) المدارك: (٢/٢٧٣).

(٥) المدارك: (٢/١٢٤).

(٦) المدارك: (٢/١٢).

(٧) المدارك: (٢/١٢٩). والأبهري هذا من الفقهاء النظار المحققين وجلة أئمة المالكيين.

(٨) المدارك: (٢/٢١٤).

- و «كتاب كبير في مسائل الخلاف» - نحو من مائتي جزء - وهو لأبي جعفر الأبهري[١].

- و «كتاب المعتمد في الخلاف» لأبي سعيد القزويني (٣٩٠هـ) وهو نحو مائة جزء، وهو من أهذب كتب المالكية[٢] وله أيضاً «كتاب الإلحاق في مسائل الخلاف»[٣].

- و «كتاب نكت الأدلة» لأبي تمام علي بن محمد بن أحمد البصري، وهو كتاب مختصر في الخلاف، وله «كتاب آخر في الخلاف الكبير»[٤].

- و «كتاب كبير في الخلاف» لأبي بكر بن خويز منداد[٥].

- وللقاضي عبد الوهاب «كتاب أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملة» و «كتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف» و «كتاب النصرة لمذهب إمام دار الهجرة» في مائة جزء[٦].

وعموماً فإن أغلب مؤلفات مالكية بغداد تدل عناوينها على أنها تدور حول مسائل الخلاف بين المالكية وبين غيرهم.

ويعد كتابا «المعونة» و «الإشراف على مسائل الخلاف» من أهم كتب مالكية العراق في تناولهما لعدد كبير من مسائل الفقه المقارن. وهذه المسائل موزعة على سائر الأبواب الفقهية، تناول فيها القاضي عبد الوهاب الاستدلال عليها لدعمها والإقناع بها دون أن يتعرض لبيان أدلة المخالفين، وإنما يقتصر على مجادلتهم، ويحتج عليهم منتصراً لرأي إمامه مالك، ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله في مخالفته لأبي حنيفة في وصف الماء وغيره بأنه طهور: «يفيد فيه أنه طاهر مطهر خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنه يفيد كونه طاهراً ولا يفيد كونه مطهراً. لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾[٧] فوصف أنه طهور، ثم قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم

---

(١) المدارك: (٢/٢١٥).

(٢) و (٣) ترتيب المدارك: (٢/٢١٦).

(٤) و (٥) ترتيب المدارك: (٢/٢١٧).

(٦) ترتيب المدارك: (٢/٢٧٣).

(٧) الفرقان، آية: ٤٨.

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾[١] فكان ذلك تفسيراً لكونه طهوراً، فدل على أن معناه طاهر مطهر . . . »[٢].

– وفي مخالفة أحمد بن حنبل وداود الظاهري، يقول: «غسل اليدين قبل إدخالهما الإناء مستحب غير واجب، خلافاً لأحمد بن حنبل وداود. للظاهر، والخبر، ولأنه غسل يفعله المكلف في نفسه لا من حدث ولا نجس، فلم يكن واجباً كسائر الأغسال المستحبة»[٣].

– ويقول أيضاً في مخالفتهما: «المضمضة والاستنشاق سنتان في الوضوء خلافاً لأحمد ولداود، للظاهر والخبر، ولأنهما طهارة من حدث كالتيمم، ولأنه باطن في أصل خلقة الوجه كداخل العينين»[٤].

– وفي مخالفة الشافعي يقول: «إذا صلى في جماعة لم يعدها في جماعة أخرى خلافاً للشافعي لأن إحدى الجماعتين لا فضيلة لها على الأخرى، ولأنه لو استحب إعادتها لم يكن لذلك حد يقف عنده»[٥].

– ويقول أيضاً في مخالفته: «إذا عجز عن القيام صلى قاعداً متربعاً خلافاً للشافعي في قوله يصلي مفترشاً. لأن ذلك مروي عن ابن عمر وابن عباس وأنس. ولأن ذلك أيسر للتمكين وأتم في وقار الصلاة، وليفصل بين قعوده الأصلي وبين قعوده البدل، ولأن ذلك أبلغ في حفظ صلاته وأبعد عن التشويش عليه وشكه»[٦].

– ويقول أيضاً في مخالفته: «لا يزال عن الميت شعر ولا ظفر خلافاً للشافعي لأنه قطع شيء من بدنه كالقلفة، لأنه إذا قطع احتيج إلى دفنه معه، وما يدفن مع الميت، إذا ترك عليه فلا يفرد عنه كسائر أعضائه»[٧].

---

(١) الأنفال، آية: ١١.

(٢) الإشراف على نكت مسائل الخلاف (١/١٠٧) [باب الطهارة].

(٣) الإشراف: (١/١١٦). [باب الوضوء، مسالة ٢٥].

(٤) الإشراف: (١/١١٧). [باب الوضوء، مسالة ٢٦].

(٥) الإشراف: (١/٢٦٨). [باب إعادة الصلاة في جماعة، مسالة ٢٨٦].

(٦) الإشراف: (١/٢٦٨). [باب العجز عن القيام في الصلاة، مسالة ٢٨٧].

(٧) الإشراف: (١/٣٥٣). [كتاب الجنائز، مسالة ٤٥٧].

- وفي مخالفته ابن علية يقول: «إذا قال لغير المدخول بها أنت طالق ثلاثاً طلقت ثلاثاً، خلافاً لابن علية في قوله: لا تطلق إلا واحدة. لحديث ابن عمر أنه قال: يا رسول الله! أرأيت لو كنت طلقتها ثلاثاً؟

قال: كانت تبين منك وتكون معصية[١]. ولم يفصل. ولأنها حال زوجية كبعد الدخول. ولأن قوله «ثلاثاً» تفسير لمراده بقوله: أنت طالق، بدليل أنه لو اقتصر على قوله: أنت طالق، وقال: أردت به الثلاث، لقبل منه. وإذا كان كذلك وجب وقوعه»[٢].

- وفي مخالفته لأبي حنيفة في مسألة ضمان الشيء المغصوب باليد يقول: «الشيء المغصوب مضمون باليد، فمن غصب شيئاً فقد ضمنه إلى أن يرده، فإن ردّه كما غصبه سقط عنه الضمان، ولزم المالك قبوله، فإن تلف عنده على أي وجه تلف، ضمنه بقيمته يوم الغصب، إما بمثله إن كان ممّا له مثل أو بقيمته إن كان مما لا مثل له، أي نوع كان من ذهب أو فضة أو حيوان أو متاع أو عروض أو عقار. خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إن كل ما لا يصح نقله كالضياع والعقار، فإن الغاصب لا يضمنه بإخراجه عن يد مالكه، إلا بأن يجني هو عليه فيتلف، فيضمنه بالإتلاف. ودليلنا أن كل معنى يضمن به ما ينقل ويحول من الأعيان، فإنه يضمن له ما لا ينقل منها، ولا يحول كالقبض في البيع واعتباراً بما لا ينقل ولا يحول، بعلة أنها أعيان مقصورة، ولأن الغصب سبب للضمان، فوجب أن يضمن به العقار والنخل كالإتلاف به»[٣].

- وفي مخالفته لأبي حنيفة والشافعي في مسألة شهادة الأخرس والشهادة على الشهادة يقول: «شهادة الأخرس جائزة إذا فهمت إشارته، خلافاً لأبي حنيفة والشافعي، لأن الشهادة علم يؤديه الشاهد إلى الحاكم، فإذا فهم منه بطريق يفهم من مثله قبلت، كالناطق إذا أداها بالصوت، ولأنها معنى يحتاج إلى النطق ليقع الفهم به، فإذا تعذر النطق به، جاز أن تقوم الإشارة مقامه إذا وقع الفهم بها، أصله الإقرار والطلاق»[٤].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الخلع والطلاق، باب (١٣) الاختيار للزوج الا يطلق إلا واحدة، (٧/٥٤٠) من طريق الحسن عن ابن عمر.

(٢) الإشراف: (٢/٧٤٦). [كتاب الطلاق، مسألة ١٣٥٣].

(٣) المعونة: (٢/١٢١٤). [كتاب الغضب والتعدي].

(٤) المعونة: (٣/١٥٥٨). [باب شهادة الأعمى].

- وفي مخالفته للشافعي في ولاية الفاسق يقول: «تكره ولاية الفاسق إذا وجد ولي عدل، فإن عقد جاز، خلافاً للشافعي، لأن الغرض من الولي الحفظ للمزوجة، وإيقاعها مع كفء. والفاسق لا ينافي ذلك بل ربما أثر في زيادة الاحتياط، والأنفة من العار، ولأنه عصبة حر مسلم يصح أن يعقد على نفسه، فجاز أن يعقد على وليته كالعدل»(١).

- وفي مخالفته لأبي حنيفة والشافعي، في مسألة الدليل أن حدوث العيب عند المشتري لا يمنع الرد يقول: «وإنما قلنا: إن حدوث العيب عند المشتري لا يمنع الرد، خلافاً لأبي حنيفة والشافعي، لأن البائع لم يوفد ما أوجب له العقد من سلامة المبيع، فكان له الرد، إذا لم يرض بالإمساك، أصله: إذا لم يحدث عنده عيب، ولأن الرد أحد نوعي الخيار الواجب للمشتري بالعقد فلم يمنعه حدوث العيب عنده كالإمساك، وأخذ الأرض، ولأنه نقص حدث بالمبيع فلم يمنعه رده مع أخذ أرشه، أصله حلب المصراة»(٢).

(١) المعونة: (٢/ ٧٣٩). [باب خلع الأب على ولده الصغير].

(٢) المعونة: (٢/ ١٠٥٦). [باب في الغش والتدليس في البيوع].

٣- الاهتمام بالتخريج على أصول مذهب مالك

التخريج في اللغة يأتي لعدة معان منها: أرض مخرجة: كمنقشة نبتها في مكان دون مكان، «وعام فيه تخريج»: فيه خصب وجدب، «ورجل خرجة» كثير الخروج والولوج. «وتخريج الراعية المرعى»: أن تأكل بعضاً وتترك بعضاً. «وخرجت خوارجه»: ظهرت نجابته وتوجه لإبرام الأمور. «وأخرج»: أدى خراجه. «والاستخراج» و«الاختراج»[١]: الاستنباط. «وخرج اللوح تخريجاً»: كتب بعضاً وترك بعضاً. وخرّج العمل جعله ضروباً وألواناً[٢]. «وخرجها»: هذبها وأدبها كما يتخرج الإنسان[٣].

وفي الاصطلاح: يدور معنى التخريج عند الفقهاء، والأصوليين في أكثر من نطاق، وإن كان بين هذه المعاني تقارب وتلاحم. ومن تلك الاستعمالات:

أ - إطلاق التخريج على التوصل إلى أصول الأئمة وقواعدهم التي بنوا عليها أحكامهم الفقهية المنقولة عنهم، وذلك من خلال تتبع الفروع الفقهية، واستقرائها استقراء شاملاً.

ب - إطلاق التخريج على رد الخلافات الفقهية إلى القواعد الأصولية على نمط ما في كتاب «تخريج الفروع على الأصول» للأسنوي، أو «القواعد والفوائد الأصولية والفقهية» لابن اللحام. وهو بهذا المعنى يتصل اتصالاً واضحاً بالجدل وبأسباب اختلاف الفقهاء، وما ينبني على ذلك الاختلاف من اختلاف في الفروع الفقهية في إطار مذهب معين، أو في إطار المذاهب المختلفة.

جـ - وقد يكون التخريج ـ وهو غالب استعمال الفقهاء ـ بمعنى الاستنباط المقيد، أي بيان رأي الإمام في المسائل الجزئية التي لم يرد عنه فيها نص، عن طريق إلحاقها بما يشبهها من المسائل المروية عنه، أو بإدخالها تحت قاعدة من قواعده، والتخريج بهذا المعنى هو ما تكلم عنه الفقهاء والأصوليون في مباحث الاجتهاد والتقليد، وفي الكتب المتعلقة بأحكام الفتوى[٤].

(١) القاموس المحيط: مادة خرج.
(٢) لسان العرب: (٢/٢٤٩).
(٣) معجم مقاييس اللغة (٤/٢٩١) لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا.
(٤) التخريج عند الفقهاء والأصوليين (دراسة نظرية تطبيقية تأصيلية)/ د. يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين.

وعموماً فالتخريج يتنوع إلى الآتي:

- تخريج الأصول من الفروع.
- تخريج الفروع من الأصول.
- تخريج الفروع من الفروع.

وقد يشتبه التخريج بالقياس إلا أن بينهما فرقاً، فالقياس: ما يفعله المجتهد المطلق من إخراج المسائل على النص: «الآية والحديث». والتخريج: ما يفعله مجتهد المذهب من إخراج مسألة على نظيرها. وذكر ولي الله الدهلوي عن تطور نظر العلماء إلى الأحكام فقال: «فمهدوا الفقه على قاعدة التخريج وذلك أن يحفظ كل أحد كتاب من هو لسان أصحابه، وأعرفهم بأقوال القوم، وأصحهم نظراً في الترجيح، فيتأمل في كل مسألة وجه الحكم، فكلما سئل عن شيء، أو احتاج إلى شيء رأى فيما يحفظ من تصريحات أصحابه، فإن وجد الجواب فيها، وإلا نظر إلى عموم كلامهم فأجراه على هذه الصورة، أو إلى إشارة ضمنية لكلام فاستنبط منها»[١].

وبناءً على ذلك فمعنى التخريج أن ينظر مجتهد المذهب في مسألة غير منصوصة عليها فيقيسها على مسألة منصوص عليها في المذهب، مع مراعاة ضوابط التخريج من علة وغيرها.

- وفي هذا المعنى يقول العربي اللوه: «هو التمكن من تخريج الوجوه والأحكام التي يبديها ويستنبطها مجتهد المذهب على نصوص إمامه، كأن يقيس ما سكت عنه على ما نص عليه لوجود الجامع بين المنصوص عليه والمسكوت عنه، أو دخوله تحت عموم ذكره، أو قاعدة قررها، وهو بهذا يفارق المجتهد المطلق الذي لا يتقيد بطريقة غيره، ولا بمراعاة قواعده وشروطه، لذا تعتبر نصوص الإمام وقواعده بالنسبة لمجتهد المذهب كنصوص الشارع بالنسبة للمجتهد المطلق»[٢].

---

(١) الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ولي الله الدهلوي (ص ٥٨).

(٢) أصول الفقه/ العربي اللوه (ص ٣٩٢).

- وقال الشيخ محمد يحيى الولاتي في المخرِّج: « ... أي متمكناً من النظر في أصول إمامه بالتخريج لغير المنصوص على المنصوص لإمامه، بالترجيح للضعيف من أقوال إمامه إذا اقتضى النظر في دليله ترجيحه وكان آخذاً من مذهب إمامه بحظ وافر معتبر»(١).

- وشرط القرافي في القائم بالتخريج الإحاطة التامة بعلم القياس وبمقاصد الشريعة إذ أنها مبنية على مصالح، ودرء مفاسد، وشروط القواعد.

- يقول القرافي: « ... والمخرج على أصول إمامه نسبته إلى مذهبه وإمامه كنسبة إمامه إلى صاحب الشرع، في اتباع نصوصه، والتخريج على مقاصده. فكما أن إمامه لا يجوز له أن يقيس مع قيام الفارق، لأن الفارق مبطل للقياس والقياس الباطل لا يجوز الاعتماد عليه، فكذلك هو أيضاً لا يجوز له أن يخرج على مقاصد إمامه فرعاً على فرع نص عليه إمامه مع قيام الفارق بينهما ... وكذلك إذا كان إمامه قد اعتبر مصلحة سالمة عن المعارض لقاعدة أخرى، فوقع له هو فرع فيه عين تلك المصلحة، لكنها معارضة بقاعدة أخرى، أو بقواعد، فيحرم عليه التخريج حينئذ لقيام الفارق ... فكذلك هذا المقلد له، لأن نسبته إليه في التخريج كنسبة إمامه لصاحب الشرع، والضابط له ولإمامه في القياس والتخريج أنهما متى جوّزا فارقاً يجوز أن يكون معتبراً حرم القياس، ولا يجوز القياس إلا بعد الفحص المنتهي إلى غاية أنه لا فارق هناك ولا معارض ولا مانع يمنع من القياس وهذا قدر مشترك بين المجتهدين والمقلدين للأئمة المجتهدين فمهما جوز المقلد في معنى ظفر به في فحصه واجتهاده أن يكون إمامه قصده أو يراعيه حرم عليه التخريج فلا يجوز التخريج حينئذ إلا لمن هو عالم بتفاصيل أحوال الأقيسة والعلل ورتب المصالح وشروط القواعد وما يصلح أن يكون معارضاً وما لا يصلح وهذا لا يعرفه إلا من يعرف أصول الفقه معرفة حسنة»(٢).

وتظهر فائدة التخريج في إيجاد الحلول المناسبة للأحداث الطارئة والنوازل الجديدة التي يواجهها المفتي، خاصة أن الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدة، وإنما أتت بأمور كلية، وعبارات مطلقة. ولأجل ذلك اهتم مالكية العراق بالتخريج، وتوسعوا في

---

(١) فتح الودود على مراقي السعود ونيل السول على مرتقى الوصول/ عبد الله بن الحاج إبراهيم الشنجبطي والإمام أبي بكر محمد بن محمد بن عاصم الاندلسي الغرناطي. (ص ٣٤٩).

(٢) الفروق: أحمد بن إدريس القرافي. (الفرق الثامن والسبعون).

القياس، الأمر الذي لا نكاد نجد نظيراً له عند غيرهم من المالكية. ويبدو هذا واضحاً من خلال بعض مصنفات مالكية العراق، كالقاضي عبد الوهاب في الإشراف، وابن الجلاب في التفريع.

ومن الأمثلة على ذلك:

- **قول القاضي عبد الوهاب في كتاب البيوع المسألة ٨٤٤**: «إذا وجد المبيع بالصفة على الصفة المشترطة لزم، ولم يكن للمبتاع خيار الرؤية، إلا أن يكون اشترطه، خلافاً لبعض الشافعية، لأنه عقد صحيح على مبيع موصوف لم يشترط فيه خيار وجد على صفته، فلم يكن فيه خيار الرؤية، أصله السلم، ولأنه مبيع سليم، لم يشترط فيه خيار، ولا هناك عرف يوجبه، فأشبه سائر المبيعات، ولأن الصفة في بيوع الأعيان قد أقيمت مقام الرؤية، فيجب إذا وجد المبيع عليها، ألا يثبت فيه خيار، كما لو بيع على رؤيته»[١].

- **وفي مسألة ٨٩٥ يقول**: «إذا نما المبيع في يد المبتاع بولادة الأمة، أو نتاج الماشية، وإثمار النخل والشجر، ثم وجد بالأصل عيباً، فله الرد خلافاً لأبي حنيفة في قوله، إن كان ذلك يبطل حقه من الرد، لأنه نماء حادث في يد المشتري بعد العقد فلم يمنع الرد بالعيب، كالغلة والكسب، ولأن الرد لا يسقط إلا بالفوات، والفوات هاهنا هو تلف المبيع، أو تلف منافعه، وإن كان العين قائمة، أو شيء يؤثر في الملك، فما عدا هذا فليس بفوات، ولأنهم قد وافقونا على أن العبد إذا أفاد عند المشتري مالاً بوصية أو هبة، أو وجد ركازاً أو التقط لقطة، ثم وجد به عيباً أنه يرده به، ولا يمنعه ذلك من رده، فنقول في مسألتنا، بأنه نماء لو كان منفعة لم يمنع الرد، وكذلك إذا كان عيباً، أصله نماء العبد، ولأن أكثر ما في الولادة والنتاج أن يكون عيباً، وقد ثبت أن حدوث عيب عند المشتري لا يمنع الرد»[٢].

- **وفي مسألة ٩٢١ يقول**: «ومن قتل لرجل كلباً لصيد أو زرع أو ماشية، فعليه قيمته على الوجهين جميعاً في بيعه، خلافاً للشافعي، لأنه عين مأذون في اتخاذها للانتفاع بها، فوجب إذا تلف على صاحبها أن يلزم القيمة متلفها كسائر الأعيان، ولأنه حيوان تصح الوصية به، كالخيل والبغال، ولأنه حيوان مأذون في الانتفاع به كسائر الحيوان، ولأنها بهيمة

---

(١) الإشراف: (٢/٥٢٢).

(٢) الإشراف: (٢/٥٤٩).

يجوز الاصطياد بها كالبازي، ولأن إجارته جائزة على أصح وجهي أصحاب الشافعي، وما صحت إجارته جاز وجوب القيمة على متلفه كسائر البهائم»[١].

- **وفي كتاب الرهون يقول في مسألة ٩٥٤** : «يجوز الرهن في السفر والحضر، خلافاً لمجاهد في قوله لا يجوز إلا في السفر، لأن كل وثيقة جازت في السفر جازت في الحضر كالضمان، ولأنها حال يجوز أن يتوثق فيها بالضمين فجاز بالرهن كالحضر»[٢].

- **وفي كتاب الحجر يقول في مسألة ٩٩٧** : «لا ينفك الحجر عن الصغيرة وإن بلغت حتى تتزوج، ويدخل بها زوجها، وتكون حافظة لما لها، وقال أبو حنيفة والشافعي ينفك الحجر بنفس البلوغ من غير حاجة إلى تزويج، فدليلنا أن كل حال جاز للأب إنكاحها بغير إذنها، كان الحجر على المال مستداماً فيها كالصغيرة، ولأن البنت لا تخبر مصلحتها ولا تعرف المعاملات، ولا تخبر معانيها، ومصالح المال بنفس البلوغ دون التزويج، لأنها إذا زوجت ودخل بها عرفت حينئذٍ الأمور وخبرتها، فحينئذ ينفك الحجر عنها»[٣].

- **وفي كتاب الشركة يقول في مسألة ١٠٢٢** : «شركة الأبدان جائزة في الجملة، خلافاً للشافعي، لأن المقصود من شركة المال هو العمل، بدليل أن نماء المال واستحقاق الربح يكون من العمل، وأنهما لو شرطا العمل على أحدهما لم يجز. وإن شرطا المال من أحدهما والعمل من الآخر لصح، وكان ذلك مضاربة. وإذا صح هذا، وجب متى اشتركا في عمل البدن أن يصح، لإيقاعهما العقد على المعنى الذي يقصد له وهو الأصل فيه. ولأن العمل أحد نوعي القراض، فصحت الشركة به كالمال. ولأن كل ما جاز أن يستفاد به الربح في حق أحدهما جاز أن يشتركا عليه كالمال»[٤].

- **وفي باب الطهارة يقول** : «إذا تغير أحد أوصاف الماء بزعفران أو عصفر أو غيره، مما ينفك منه غالباً، فلا يجوز الوضوء به، خلافاً لأبي حنيفة، لأن كل ما لو تغير الماء به عن

---

(١) الإشراف: (٢/٥٦٣).

(٢) الإشراف: (٢/٥٧٦).

(٣) الإشراف: (٢/٥٩٥).

(٤) الإشراف: (٢/٦٠٤).

طبخ، منع الوضوء به، فكذلك إذا تغير من غير طبخ، أصله ماء الباقلاء، ولأنه تغير بما ليس بقرار له، وبما ينفك عنه غالباً، فأشبه إذا أُغلي فيه»[١].

- **وفي باب صلاة المسافر يقول في مسألة ٣٧٦**: «إذا نسي صلاة في سفر، فذكرها في السفر قبل أن يصير مقيماً، فإنه يقضيها سفرية، خلافاً لأحد قولي الشافعي: أنه يلزمه الإتمام، لأنها صلاة تؤدى وتقضى، فوجب أن يكون قضاؤها كأدائها. أصله إذا فاتته في الحضر فذكرها في الحضر، ولأن الحضر أولى بالإتمام من السفر، ثم قد ثبت أنه لو نسي صلاة في سفر فذكرها في حضر، أنه يقضيها سفرية، فإذا ذكرها في السفر كان القصر أولى، ولأن لفرض الصلاة نوعين: إتمام وتخيير بين الإتمام والقصر، وقد ثبت أن أحد النوعين يقضى على ما هو عليه في حاله وغير حاله، وهو الإتمام، فيجب أن يكون كذلك النوع الآخر»[٢].

- **ومن الأمثلة ما جاء عند ابن الجلاب في كتابه التفريع** في الترجيح بين المواقف وتوضيح ما بلغه من الاجتهاد، ما أورده في غسل الجنابة والجمعة حيث رجح تخريج شيخه الأبهري، **يقول ابن الجلاب في فصل ٤٠**: «الجمع بين غسل الجنابة وغسل الجمعة»: «ومن كان جنباً، فاغتسل لجنابته وقصد بنيته نيابته عن غسل الجمعة أجزأه. وإن كان ناسياً لجمعته وذاكراً لجنابته، فاغتسل لها، لم يجزه ذلك، عن غسل جمعته. ولا يجزيه غسل جمعته، عن غسل جنابته، وقال محمد بن مسلمة: يجزئه غسل جمعته عن غسل جنابته، ويجزيه عن وضوء حدثه. وإن اغتسل لجمعته وجنابته غسلاً واحداً. وخلطهما في نيته، لم يجزه عن واحد منهما. ويحتمل أن يجزيه عن جمعته، ولا يجزيه عن جنابته. وهذه المسألة مخرجة غير منصوصة. ذكرها الشيخ أبو بكر الأبهري. وبقوله أقول»[٣].

- **وفي فصل ٥١: «في الماء المكروه والنجس»**: «ومن لم يجد إلا ماءً ولغ فيه كلب، توضأ به، ولم يتيمم، عند مالك، وقال عبد الملك ومحمد: يتوضأ به، ويتيمم، ويصلي صلاة واحدة، ومن لم يجد إلا ماءً وقعت فيه نجاسة، لم تغيره، فإنا نستحب له أن يتوضأ به ويتيمم، فإن اقتصر على الوضوء وترك التيمم، أجزأه، والاختيار ما ذكرناه، ويبدأ

---

(١) الإشراف: (١/١٠٩).
(٢) الإشراف: (١/٣١١).
(٣) التفريع: (١/٢١٠).

بالوضوء، قبل التيمم، ثم يتيمم، ويصلي صلاة واحدة. وهذا قياس على أصول مالك رحمه الله. وقال ابن القاسم: يتيمم ولا يتوضأ. وقال بعض المتأخرين من أصحابنا: يتيمم ثم يتوضأ ويصلي صلاتين إحداهما بالتيمم والأخرى بالوضوء، ليسلم جسده من وجود النجاسة التي عليه»[١].

- **وفي فصل ٥٤: «في المسافر يحضر والحاضر يسافر»** يقول ابن الجلاب:

«فأما المسافر يحضر والحاضر يسافر، فإنه إذا سافر الحاضر، في آخر النهار، وقد بقي مقدار ثلاث ركعات، قبل غروب الشمس، فإنه يقصر الصلاتين جميعاً، الظهر والعصر، وإذا كان أقل من ذلك أتم الظهر، وقصر العصر. وإن سافر ليلاً وقد بقي من الليل قبل طلوع الفجر قدر أربع ركعات، قصر العشاء. وإن كان أقل من ذلك، ففيها روايتان: إحداهما أنه يقصر العشاء، والأخرى أنه يتمها. وإذا قدم المسافر نهاراً وأدرك من النهار قدر خمس ركعات أتم الصلاتين جميعاً، الظهر والعصر. وإن كان أقل من ذلك قصر الظهر، وأتم العصر. وإن قدم المسافر ليلاً فأدرك من الليل قدر أربع ركعات، أتم العشاء. وإن كان أقل من ذلك، فإنها تتخرج على روايتين: إحداهما أنه يتم العشاء، والأخرى أنه يقصرها»[٢].

هكذا يتجلى لنا مدى اهتمام مالكية العراق بالتخريج، واعتمادهم الرأي والقياس، أكثر من إخوانهم المغاربة والمصريين. مستعملين ذلك على نطاق واسع. فاستطاعوا بذلك على الرغم من قصر فترة ظهور وقوة المذهب المالكي بالعراق، أن يفرضوا وجودهم داخل المنظومة الفقهية، باجتهاداتهم وتخريجاتهم، فساهموا في تنمية وإثراء المذهب المالكي، وجعله مرداً لقبول الأحكام للحوادث المختلفة وكما قال أبو زهرة: « ... وكذلك كان مذهب مالك رضي الله عنه اتصل بالحياة اتصالاً وثيقاً، لأن مخرجيه اجتهدوا في أن يفهموا خصائص الأمور التي يطالبون بها ومقدار المصلحة فيما يفتون، أو دفع المضرة عنه. وربط ذلك بالأصول العامة. فكان مذهباً حياً، يسد حاجة الأحياء. وليس مذهباً جامداً، يقف عند نصوص السابقين، لا يتحرك عنها قيد أنملة»[٣].

---

(١) التفريع: (١/٢١٦).

(٢) التفريع: (١/٢٢٠).

(٣) مالك، حياته، وعصره، آراءه، وفقهه/ (ص ٣٧٥). لأبي زهرة.

٤- الميل إلى تفريع المسائل وتعاطي الفقه الافتراضي

التفريع في اللغة: «من فرعت الشيء فرعاً إذا علوته، والفرع: المال الطائل المعد. وتفرعت بني فلان: تزوجت سيدة نسائهم، وفرعت رأسه بالسيف: علوته. وفرعت الجبل: صرت في ذروته، والفرع: أول نتاج الإبل والغنم. وأفرعت في الوادي: انحدرت[١]. وفرع كل شيء: أعلاه، ومن القوم شريفهم[٢]. وفرع تفريعاً: انحدر وصعد. ضدّ: وتفرع القوم: ركبهم وعلاهم. وتفرعت الأغصان: كثرت[٣].

وفي الاصطلاح: «علم الفروع»: العلم الذي يعنى بدراسة مذهب الإمام وتدريسه ونشره ودراسة كتب رجال المذهب، وتصنيف كتب ومتون جديدة تعرض مختلف أبواب الفقه، ووضع الشروح عليها، وذكر آراء كبار ورجال المذهب في كل مسألة. وعرفه حاجي خليفة فقال: «علم الفروع هو المعروف بعلم الفقه»[٤]. وعلم الفقه كما عرفه طاش كبري زاده: «هو علم باحث عن الأحكام الشرعية الفرعية العلمية من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية. ومبادؤه مسائل أصول الفقه، وله استمداد من سائر العلوم الشرعية والعربية. وفائدته حصول العمل به على الوجه المشروع، والغرض منه تحصيل ملكة الاقتدار على الأعمال الشرعية»[٥].

ويعد كتاب التفريع لابن الجلاب، مثالاً بارزاً لتفريع الفروع، وتطور الفقه من طور الاجتهاد والابتكار انطلاقاً من الكتاب والسنة، إلى طور التطبيق والتفريع والتحليل والتفصيل. خاصة وأن الاجتهاد المطلق قد سد بابه، لذلك اتجه فقهاء القرن الرابع الهجري إلى اتجاهات أخرى بما فيها علم الفروع.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: (٤/ ٤٩١).

(٢) القاموس المحيط: (٣/ ٦١).

(٣) نفس المصدر: (٣/ ٦٢).

(٤) كشف الظنون عن أسامي انكتب (٢/ ١٢٥٦).

(٥) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم (٢/ ١٩٤).

وقد كان الدافع لإنشاء علم الفروع في الفقه: هو المستوى الحضاري الرفيع الذي بلغته بغداد في القرن الثالث والرابع الهجري، مع تكاثر النوازل وزيادة الترف وأنواع الرفاهية. مما دفع بالفقهاء إلى معالجة مستجدات الأمور، بدراسة الأصول والقواعد، مع تحديد غاياتها، وضبط عللها، والقياس عليها، ثم استنباط قواعد فرعية مستخرجة منها، وإصدار حكم شرعي بكل حادثة طارئة. فنشأ عن ذلك علم الفروع، وكثر التفريع والتوسيع، والتخريج والتأليف في المذاهب الأربعة على أيدي كبار أتباعها. كما كثر تعاطي مالكية العراق للفقه الافتراضي: وهو: ما عرف بفرض المسائل وتقدير وقوعها، وهو نتيجة للإكثار من استعمال القياس، حيث أصبح الفقه التقديري ميداناً لتطبيق الأقيسة ومجالاً لاختيار العلل.

- **ويقصد بالفقه التقديري**: «الفتوى في مسائل لم تقع. ويفرض وقوعها، وقد كثر هذا النوع من الفقه عند أهل القياس والرأي من الفقهاء، لأنهم إذ يحاولون استخراج العلل للأحكام الثابتة بالكتاب والسنة، يوجهونها فيضطرون إلى فرض وقائع، لكي يسيروا بما اقتبسوا من علل للأحكام في مسارها واتجاهها، فيوضحوها بتطبيقها على وقائع مفروضة لم توجد»[1].

وقد انتقل هذا النوع من الفقه إلى المذهب المالكي على يد «أسد بن الفرات» الذي كان يسأل مالكاً عن المسألة فإذا أجابه قال له: «وإن كان كذا وكذا» فضاق عليه يوماً وقال له: «هذه سلسلة بنت سليسلة. إن كان كذا كان كذا، إن أردت فعليك بالعراق»[2].

ولعل وجود مالكية العراق بين الأحناف وغيرهم من أرباب المذاهب الفقهية، قد نمى لديهم الميل إلى تفريع المسائل وتوليدها، وهو ما أصبح يعرف بالفقه الفرضي، أو التقديري، وهذا الأمر يختلفون فيه عن المدارس المالكية الأخرى التي عنيت بتصحيح الروايات.

واعتبر «الحجوي الفاسي» أن أبا حنيفة هو الذي أحدث الفقه التقديري فقال: «كان الفقه في الزمن النبوي هو تصريح بحكم ما وقع بالفعل، أما من بعده من الصحابة وكبار التابعين وصغارهم فكانوا يبينون حكم ما نزل بالفعل في زمنهم. ويحفظون أحكام ما كان نزل في الزمن قبلهم، فنما الفقه وزادت فروعه نوعاً، أما أبو حنيفة فهو الذي تجرد لفرض

(١) أبو حنيفة (حياته وعصره، آراؤه وفقهه) لأبي زهرة (ص ٢٠٢).

(٢) ترتيب المدارك: (١/ ٢٧٠).

المسائل وتقدير وقوعها، وفرض أحكامها. إما بالقياس على ماوقع، وإما باندراجها في العموم مثلاً: فزاد الفقه نمواً وعظمة وصار أعظم من ذي قبل بكثير قالوا: إنه وضع ستين ألف مسألة، وقيل: ثلاثمائة ألف مسألة. وقد تابع أبا حنيفة جل الفقهاء بعده، ففرضوا المسائل، وقدروا وقوعها، ثم بينوا أحكامها ...»[١].

- أما أبو زهرة فيرى أن أبا حنيفة لم يحدث الفقه التقديري، ولكنه نماه ووسعه، حيث قال: «... نحن نرى أن أبا حنيفة لم يحدث الفقه التقديري، ولكنه نماه ووسعه وزاد فيه بما أكثر من التفريع والقياس، وعندي أن الفقه التقديري وجد قبل أبي حنيفة في وسط فقهاء الرأي، وإن كان إبراهيم النخعي قد تحاماه أو على التحقيق لم يسر فيه إلى مداه ...»[٢].

وبناءً على ذلك نهج فقهاء العراق، فساروا على منوال أصحاب الرأي، مقلدين طريقتهم في تعاطي الفقه الفرضي، وتقرير أحكام تلائمه بإعمال الرأي والقياس، وكثرة تفريع الفروع، والجري وراء الفروض حتى الخيالي منها حيث يسألون عن المسألة ويبدون الحكم فيها ثم يفرعونها إلى فروع لا حصر لها بقولهم: «أرأيت لو كان كذا؟» ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة، ولذلك سماهم أهل الحديث «الأرأيتيين» نسبة إلى الرأي فيقولون: «ربيعة الرأي مثلاً»[٣].

ذلك أن فقه العراقيين كان فقهاً قياسياً كثير التفريع، وكان فيه الفرض والتقدير، فلم تقتصر فيه الفتاوى على المسائل الواقعة، وقد خالف ذلك مالك ـ رضي الله عنه ـ، فما كان يفتي إلا فيما يقع من المسائل، إلا ما كان أصحابه يتحايلون به عليه، فيفرضون صوراً يسألونه عنها بلسان غيرهم ليتوهم أنها مسائل واقعة لا مفروضة فيجيب على هذا الاعتبار.
ومن أوضح الأمثلة على تغلغل هذا النوع من الفقه الفرضي في المدرسة العراقية هو «كتاب التفريع» لابن الجلاب البصري حيث توخى فيه صاحبه منهجاً يقوم على التفريع والتفصيل سعياً لتغطية أكثر ما يمكن من المسائل الحادثة أو المتوقعة الحدوث، وتقرير أحكام لمختلف

---

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي الثعالبي الفاسي (٢/٤١٩).
(٢) أبو حنيفة (حياته وعصره، آراءه وفقهه): (ص ٢٣٢).
(٣) أصول الفقه/ العربي اللوه (ص ٢٦).

المسائل الفقهية، وتقسيمها تقسيماً منطقياً يتناول كل الوجوه المحتملة عقلاً ليعطي لكل صورة حكمها.

ومن النماذج على هذا النمط:

- **ما جاء في الفصل ٥٢** في: «حكم من لم يتبين الماء الطاهر من النجس» يقول ابن الجلاب: «ومن كان معه إناءان، أحدهما طاهر، والآخر وقعت فيه نجاسة، لم تغيره. ولم يتبين له الطاهر من النجس، وأشكل ذلك عليه، فالحكم في ذلك أنه يتوضأ بأيهما شاء، لأن ما لم يتغير من الماء، بنجاسة فهو طاهر مطهر، والاختيار أن يتوضأ بكل منهما، ويصلي صلاتين، ويغسل أعضاءه من الإناء الثاني قبل أن يتوضأ به، ثم يتوضأ ويصلي، فإن كان معه ثلاثة أوان، اثنان طاهران، وواحد نجس، فإنه يتوضأ باثنين، ويترك واحداً، وإن كان معه اثنان نجسان وواحد طاهر، توضأ منها كلها، ثلاث مرات وصلى ثلاث صلوات، وعلى هذا حكم الأواني إذا كثرت»[(١)].

- **وفي فصل ٣٨٥** في: «حكم من حلف ألا يأكل طعاماً خاصاً فأكل آخر من جنسه» يقول: «ومن حلف ألا يأكل من رطب نخلة، فأكل من تمرها، حنث في يمينه، وإن حلف ألا يأكل من تمرها، فأكل من رطبها أو طلعها، لم يحنث في يمينه، ولو حلف ألا يأكل لحماً فأكل شحماً، حنث في يمينه، ولو حلف ألا يأكل شحماً فأكل لحماً لم يحنث في يمينه، ولو حلف ألا يأكل رؤوساً فأكل رؤوس الطير حنث في يمينه، وكذلك لو حلف ألا يأكل لحماً، فأكل سمكاً، حنث في يمينه»[(٢)].

- **وفي فصل ٥٠٤** في: «حكم الصداق المنقوص أو الفاسد» يقول: «ومن نكح امرأة على درهمين، فإن دخل بها، أكمل لها ثلاثة دراهم، ولا يفسخ النكاح، وإن طلقها قبل الدخول بها، لزمه درهم واحد، ولم يفسخ النكاح، ومن تزوج امرأة على عرض موصوف، ثم دفعه إليها، فاستحق من يدها، فعليه مثله وإن نكحها على عرض بعينه ثم دفعه إليها، فاستحق من يدها، فعليه قيمته، ومن تزوج امرأة بصداق فاسد، صح العقد وبطل الصداق. فإذا دخل بها. فلها مهر مثلها. وإن طلقها قبل الدخول بها، فلا شيء لها»[(٣)].

---

(١) التفريع: (١/ ٢١٧).

(٢) التفريع: (١/ ٣٨٥).

(٣) التفريع: (٢/ ٣٨).

- **وفي فصل ٩٨٢** في: «في الحكم بالبينة واليمين» يقول: «ومن كان له على رجل حق ببينة، فادعى الذي عليه الحق أنه قد قضاه إياه، حلف صاحب الحق أنه ما اقتضاه، وبرئ من دعواه. فإن نكل عن اليمين، حلف الذي عليه الحق، وسقط الحق عنه. وإن نكل عن اليمين، غرم الحق، وسقطت دعواه ولو مات الذي له الحق حلف ورثته ما يعلمون أن مورثهم اقتضى حقه، ولا شيئاً منه، واستحقوا حقوقهم، فإن نكلوا عن الأيمان حلف الذي عليه الحق وبرئ»[١].

- **وفي فصل ١٢٦** في: «حكم من نسي صلاة مفروضة دون تحديدها» يقول: «ومن نسي ظهراً أو عصراً من يومين مختلفين، لا يدري أيتهما قبل الأخرى، ثم ذكر ذلك، صلى ثلاث صلوات، ظهراً بين عصرين أو عصراً بين ظهرين، وأي صلاة بدأ بها، أعادها، ومن نسي صلاة واحدة بعينها فذكرها وهو لا يذكر يومها الذي هي منه، صلاها ونوى بها يومها، ومن نسي صلاة واحدة من صلاة النهار، لا يدري أي صلاة هي، قضى ثلاث صلوات، صبحاً وظهراً وعصراً وإذا تيقن أنها من صلاة الليل لا يدري أيتهما هي، صلى صلاتين، مغرباً وعشاءً، فإن ذكر أنها من صلاة يوم وليلة لا يدري أهي من صلاة الليل أو من صلاة النهار فإنه يصلي خمس صلوات»[٢].

وبالإضافة لهذه الخصائص التي سبق ذكرها، فقد امتازت المدرسة البغدادية بالاستدلال والمناقشة، وهذا أمر يلاحظ خصوصاً عند مالكية العراق دون غيرها، وهذا ما دفع بالمقري للتفريق بين منهجهم ومنهج المغاربة في التعاطي مع المدونة السحنونية، وسمي منهج كل منهما: بالاصطلاح القروي. كما عرفت المدرسة البغدادية بتوسعها في القياس، وهذا أمر قلما نجد له نظيراً عند غير العراقيين، ويبدو هذا واضحاً جلياً من خلال مصنفات أعلام هذه المدرسة كالإشراف للقاضي عبد الوهاب، والتفريع لابن الجلاب وبفضل هذه الخصائص استطاع مالكية العراق أن يبرزوا الجانب العقلي في المذهب المالكي أصولاً وفروعاً نتيجة لميلهم للتحليلات المنطقية للصور الفقهية والاستدلالات الأصولية، فعملوا بذلك في تدعيم مكانة المذهب المالكي العلمية، وحفظه من الاندثار الذي آلت إليه كثير من المذاهب.

---

(١) التفريع: (٢/ ٢٤٤).

(٢) التفريع: (١/ ٢٥٥).

الفصل الثالث
أعلام المدرسة المالكية
بالعراق

١ - أعلام القرن الثاني الهجري[١]

- **سليمان بن بلال**، أبو أيوب أو أبو محمد المدني، قاضي بغداد، فقيه ثقة ثبت. روى عن مالك، وكان من أجل أصحابه وأخصهم به، روى عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم، وأخرج له البخاري ومسلم، ولي القضاء ببغداد للرشيد. وتوفي وهو عليه. وصلى عليه الرشيد وذلك سنة ١٧٦هـ، وقيل سنة ١٧٧هـ، وقيل قبل ذلك[٢].

- **عبد الله بن المبارك بن واضح**، أبو عبد الرحمن المروزي، الفقيه الإمام المحدث، متفق على جلالته علماً وعملاً وزهداً وأمانة. سمع من أعلام، كهشام بن عروة، وابن عون، والأعمش، والأوزاعي، وغيرهم. وروى الموطأ عن مالك، وبه تفقه. أخذ عنه ابن مهدي وابن وهب وعبد الرزاق وغيرهم، وأخرج عنه البخاري في الصحيح. ألف كتاب الزهد والرقائق. وكان أولاً من أصحاب أبي حنيفة ثم تركه ورجع عن مذهبه. قال ابن وضاح: ضرب آخراً في كتبه على أبي حنيفة، ولم يقرأه للناس، وتوفي سنة ١٨١هـ[٣].

- **عبد الرحمن بن مهدي بن حسان**، أبو سعيد البصري، الإمام الثقة الأمين العالم بالحديث وأسماء الرجال. سمع السفيانين والحمادين وغيرهم. ولزم مالكاً وأخذ عنه وانتفع به. أخذ عنه الجلة كابن وهب، وأحمد بن حنبل، وابن المديني، وغيرهم. توفي سنة ١٩٨هـ[٤].

---

(١) وقع ترتيب الاعلام حسب القرون اعتباراً لوفياتهم. وانتقيت أسماء هؤلاء الاعلام من كتابي: ترتيب المدارك وشجرة النور، غير مدع الإحاطة.

(٢) ترتيب المدارك (١/١٦٧). شجرة النور (ص ٥٧).

(٣) ترتيب المدارك (١/١٦٩). شجرة النور (ص ٥٧).

(٤) ترتيب المدارك (١/٢٣٣). شجرة النور (ص ٥٨).

٢ - أعلام القرن الثالث الهجري

أ - الأعلام الذين سمعوا من مالك وأخذوا عنه:

- **محمد بن عمر بن واقد الواقدي**، أبو عبد الله، مدني، عداده في البغداديين، سكن بغداد وولي القضاء بها للمأمون. روى عن مالك. كان واسع العلم كثير المعرفة، أديباً نبيلاً، عالماً بالحديث والسير والأخبار، روى عن مالك حديثاً كثيراً، وفقهاً ومسائل. وفي حديثه غرائب، وكذا في مسائله عنه منكرات على مذهبه، فتكلم الناس فيها، وضعفه جماعة. توفي وهو على قضاء عسكر المهدي ببغداد سنة ٢٠٧هـ[١].

- **عبد الله بن مسلمة بن قعنب**، أبو عبد الرحمن، أصله مدني وسكن البصرة، فهو من عداد البصريين الإمام الحافظ الثقة. روى عن مالك وابن أبي ذئب، والليث، وسليمان بن بلال وغيرهم وأخرج عنه البخاري ومسلم. وروى عنه أنه قال: لزمت مالكاً عشرين سنة حتى قرأت عليه الموطأ. توفي سنة ٢٢٠هـ[٢].

- **يحيى بن يحيى** بن بكر بن عبد الرحمن، التميمي. الإمام المحدث الحافظ. روى عن مالك الموطأ. وقيل: قرأه عليه. وروى عن الليث والحمادين وابن لهيعة وغيرهم. أقام عند مالك سنة بعد أن فرغ من سماعه للاستفادة من شمائله. وعده ابن عبد البر في الفقهاء من أصحاب مالك. وكان ثقة مأموناً مرضياً، وكان له مال في نيسابور، وحفظ في الفقه. وكان ورعاً يشك في الحديث كثيراً فسموه الشكاك. وكان متقناً. ونقله الجلة من العلماء وتوفي سنة ٢٢٦هـ[٣].

- **هارون بن عبد الله** بن محمد بن معن بن عبد الرحمن بن عوف، القاضي أبو يحيى الزهري المكي، روى عن مالك. وتفقه بأبي مصعب الزبيري وسمع من ابن وهب. وغيرهم. وكان أعلم من صنف الكتب في مختلف قول مالك. وكان يقوم بنصرة أهل المدينة. وعده وكيع القاضي من الفقهاء لمذهب أهل المدينة من أصحاب مالك. وعده القاضي عياض من المكيين ممن عداده في البغداديين. ولاه المأمون قضاء المصيصة ثم صرخد ثم قضاء الرقة. ثم

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ٢٣٥). شجرة النور (ص ٥٧).

(٢) ترتيب المدارك (١/ ٢٣١). شجرة النور (ص ٥٧).

(٣) ترتيب المدارك (١/ ٢٣٧). شجرة النور (ص ٥٨).

صرفه، ثم قضاء عسكر المهدي ببغداد، ثم صرفه، ثم ولاه قضاء مصر. توفي سنة ٢٢٨هـ[١].

ب - الأعلام الذين لم يأخذوا عن مالك وإنما سمعوا من تلامذته:

- **أحمد بن المعذّل** بن غيلان بن الحكم، أبو الفضل، الكوفي البصري الفقيه المتكلم الشاعر. من أصحاب ابن الماجشون ومحمد بن مسلمة. سمع من ابن أبي أويس وبشر بن عمر، وغيرهما. تفقه به جماعة من كبار المالكية كإسماعيل القاضي وأخيه حماد ويعقوب ابن شيبة وغيرهم. كان فقيهاً بمذهب مالك. لقب بالراهب لفقهه وزهده ونسكه. ولم يكن لمالك بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة. له مصنفات منها: الحجة وكتاب الرسالة. توفي وقد قارب الأربعين[٢].

- **يعقوب بن إسماعيل** بن حماد بن زيد المصري أبو يوسف، كان من حملة العلم، أخذ عن يحيى بن سعيد وابن مهدي وغيرهما، وولي قضاء المدينة، وقدم بغداد فحدث بها. روى عنه إسماعيل القاضي وعبد الله بن أبي سعد الوراق وابن أبي الدنيا وعبد الله بن أحمد ابن حنبل، توفي بفارس وهو يتولى قضاءه سنة ٢٤٦هـ[٣].

- **يعقوب بن شيبة** بن الصلت بن عصفور، أبو يوسف السدوسي مولاهم، البغدادي أخذ عن ابن المعذّل وأصبغ بن الفرج والحارث بن مسكين، ولقي جماعة من أصحاب مالك. وكان من فقهاء البغداديين على قول مالك، ومن كبار أصحاب ابن المعذّل. وصنف مسنداً معللاً، إلا أنه لم يتمه. توفي سنة ٢٦٢هـ[٤].

- **حماد بن إسحاق** بن إسماعيل بن حماد بن زيد البغدادي أخو إسماعيل القاضي، سمع من شيوخ أخيه كأبي مصعب الزهري وأبي محمد الحكمي والقعنبي وتفقه بابن المعذّل، وبرع وتقدم في العلم. ألف كتباً كثيرة منها: كتاب المهادنة، وكتاب الرد على

---

(١) ترتيب المدارك (١/٢٩٨). شجرة النور (ص ٥٧).

(٢) ترتيب المدارك (١/٣١٩). شجرة النور (ص ٦٤).

(٣) ترتيب المدارك (١/٣٢٤). شجرة النور (ص ٦٤).

(٤) ترتيب المدارك (١/٣٩٦). شجرة النور (ص ٦٥).

الشافعي، وكتاب تركة النبي ﷺ وهو مطبوع. وامتحن على يد المهتدي بالله بن الواثق سنة ٢٥٥هـ. توفي سنة ٢٦٧هـ(١).

- **محمد بن حماد** بن إسحاق بن إسماعيل، كان شاباً عفيفاً سرياً، ولي قضاء البصرة. وكان يصحب الموفق حيث كان. وكان كتب علماً كثيراً. توفي سنة ٢٧٦هـ(٢).

- **إسماعيل بن إسحاق** بن حماد بن زيد البغدادي، القاضي. كان إماماً علامة في سائر الفنون والمعارف، فقيهاً محصلاً على درجة الاجتهاد، حافظاً، معدوداً في طبقات القراء وأئمة اللغة. سمع أباه والقعنبي وابن المديني وغيرهم، وأخذ القراءة على قالون. وتفقه بابن المعذّل. روى عنه جماعة منهم: عبد الله بن أحمد بن حنبل والبغوي، وابن صاعد، وجماعة من أسرته. وتفقه به المالكية من أهل العراق، وغيرهم. قال الخطيب: شرح المذهب، واحتج له ... وشرح مذهب مالك بالعراق. قال عن نفسه: أتيت يحيى بن أكثم وعنده قوم يتناظرون فلما رآني قال: قد جاءت المدينة. ولي قضاء بغداد ثنتين وعشرين سنة، وولي قبلها قضاء الجانب الشرقي في سنة ٢٤٦هـ. وكان وافر الحرمة ظاهر الحشمة، كبير الشأن. له تآليف كثيرة منها: الموطأ، وأحكام القرآن، والمبسوط في الفقه، ومختصره، وكتاب في الفرائض، وشواهد الموطأ، وكتاب الاحتجاج بالقرآن، وكتاب الأصول، وكتاب الشفاعة، وكتاب في الصلاة على النبي ﷺ. حتى أنه مر يوماً على المبرد فلما رآه قام إليه وقبل يده وأنشد:

كريم إذا ما أتى مقبلاً حللنا الحبا وابتدرنا القياما

فلا تنكرن قيامي له فإن الكريم يجل الكراما

ولد سنة ٢٠٠هـ وتوفي سنة ٢٨٢هـ(٣).

- **يوسف بن يعقوب** بن إسماعيل بن حماد، العالم المحدث الجليل القدر، كان ثقة صالحاً عفيفاً مهيباً، سديد الأحكام. تفقه مع ابن عمه القاضي إسماعيل، وسمع مسلم بن إبراهيم، وسليمان بن حرب ومحمد بن كثير، وأبي الربيع الزهراني وسفيان بن فروخ، أخذ عنه ابنه القاضي أبو عمر وغيره. وحدث عنه الناس وسمعوا منه. ولي القضاء بالبصرة

(١) ترتيب المدارك (١/ ٤٧٢). شجرة النور (ص ٦٥).
(٢) ترتيب المدارك (١/ ٤٧٣).
(٣) ترتيب المدارك (١/ ٤٦٣). الديباج المذهب (١/ ٢٨٢). شجرة النور الزكية (ص ٦٥).

وواسط في سنة ٢٧٦، وضم إليه قضاء الجانب الشرقي من بغداد. ألف في فضائل أزواج النبي ﷺ كتاباً. وكتاب الصيام والدعاء والزكاة. ولد سنة ٢٠٨، وتوفي سنة ٢٩٧هـ[١].

- **عبيد الله بن المنتاب** بن الفضل البغدادي، قاضي المدينة النبوية، الإمام الحافظ النظار. تفقه بالقاضي إسماعيل، وأخذ عنه جماعة منهم أبو إسحاق بن شعبان[٢].

٣ - أعلام القرن الرابع الهجري

- **جعفر بن محمد** بن الحسين، أبو بكر الغرياني. أحد أوعية العلم، ومن ذوي المعرفة والفهم، طاف الشرق والغرب، وسمع بخراسان وما وراء النهر والعراق والحجاز ومصر والشام. واستوطن بغداد. وكان ثبتاً ثقة. له كتاب في مناقب مالك. وكانت مجالسه مكتظة بالسامعين. قُدّر من حضر بمجلسه للسماع نحو الثلاثين ألفاً، وكان المستملون ثلاثمائة وستة عشرة. ولد سنة ٢٠٧هـ، وتوفي في المحرم سنة ٣٠١هـ[٣].

- **أحمد بن يوسف** بن يعقوب، أبو العباس البغدادي، من آل حماد، الإمام العالم المتفنن الفقيه، تفقه بالفقيه القاضي إسماعيل بن إسحاق. توفي سنة ٣٠١هـ[٤].

- **الحسن بن يوسف** بن يعقوب، أبو يعلى البغدادي، أخو السابق، كان فقيهاً فاضلاً عالماً، أخذ عن القاضي إسماعيل وغيره. توفي سنة ٣٠٦هـ[٥].

- **محمد بن يوسف** بن يعقوب، أبو عمر البغدادي، أخو السابقين، القاضي العادل، تفقه بإسماعيل وغيره، وأخذ عنه جماعة منهم: ابنه أبو الحسن عمر، وأبو بكر الأبهري والدارقطني. حمل الناس عنه علماً واسعاً في الحديث والفقه. وكان ممن لا نظير له في الأحكام عقلاً وذكاء واستيفاء للمعاني الكثيرة وبالألفاظ اليسيرة. ولي قضاء مدينة المنصور سنة ٢٨٤هـ، ثم قلده المقتدر بالله الجانب الشرقي وعدة نواح، ثم قلده قضاء القضاة سنة ٣١٧هـ، مات سنة ٣٢٠هـ[٦].

---

(١) ترتيب المدارك (١/٤٧٣). شجرة النور (ص ٦٦).
(٢) شجرة النور (ص ٧٧).
(٣) ترتيب المدارك (١/٤٧٦). شجرة النور (ص ٧٧).
(٤) شجرة النور (ص ٧٨).
(٥) شجرة النور (ص ٧٨).
(٦) شجرة النور (ص ٧٨).

- **عمر ابن القاضي محمد** بن يوسف، عالم جليل متفنن فقيه متقن، أخذ عن والده، وهو ممن أفتى مع أبيه بقتل الحلاج، تولى القضاء بعد أبيه، توفي سنة ٣٢٨هـ، وسنة تسع وثلاثون سنة[١].

- **محمد بن أحمد** بن عبد الله بن بكير، التميمي، القاضي أبو بكر البغدادي، الإمام الفقيه العالم الثقة الأمين، تفقه بالقاضي إسماعيل، وهو من كبار أصحابه، وعنه ابن الجهم وأبو عبد الله التستري، له كتاب في أحكام القرآن وكتاب الرضاع، وكتاب في مسائل الخلاف كتاب جليل. توفي سنة ٣٠٥هـ[٢].

- **محمد بن أحمد** بن سهل البركاني، القاضي أبو عبد الله البصري، الإمام الفقيه العمدة، صحب القاضي إسماعيل وبه تفقه، وروى عنه الحديث وعن أبي حاتم وأبي زرعة الرازيين وجماعة، وبه تفقه الإمام القشيري والتستري. ألف كتاباً فيما سئل عنه القاضي إسماعيل وكتاباً في فضائل مالك. مات سنة ٣١٩هـ[٣].

- **إبراهيم بن حماد** بن إسحاق، أبو الأزهر أو أبو إسحاق الحمادي من آل بيت حماد. إمام عالم فقيه صدوق فاضل، تفقه بابن عمه إسماعيل القاضي. وروى عن أبيه حماد وجعفر الغرياني وأبي قلابة وجماعة. وعنه ابناه هارون وأحمد. وأبو بكر الأبهري والدارقطني وغيرهم. ألف اتفاق الحسن ومالك. ولد سنة ٢٤٢هـ ومات سنة ٣٢٣هـ[٤].

- **علي بن إسماعيل** بن بشر، أبو الحسن الأشعري البغدادي، الإمام المتكلم الحافظ النظار القائم بنصرة مذهب أهل السنة، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية، صنف لانتصار أهل السنة التصانيف المهمة، وهي كثيرة مشهورة، عليها المعول منها اللمع والموجز وإيضاح الأصول والإيضاح والتبيين وغير ذلك مما هو كثير. كان مالكي المذهب. ترجمته عالية، خصت بالتآليف. مات سنة ٣٢٤هـ[٥].

---

(١) شجرة النور الزكية (ص ٧٨).

(٢) شجرة النور (ص ٧٨).

(٣) شجرة النور (ص ٧٨).

(٤) شجرة النور (ص ٧٨).

(٥) الديباج المذهب (ص ١٩٣). شجرة النور (ص ٧٩).

- **محمد بن أحمد** بن الجهم، القاضي أبو بكر بن الوراق المروزي، الإمام الثقة الفاضل، العالم بأصول الفقه، القاضي العادل. سمع القاضي إسماعيل وتفقه معه، وروى عن إبراهيم بن حماد ومحمد بن عبدوس وجماعة، وعنه أبو بكر الأبهري وأبو إسحاق الدينوري وجماعة. ألف كتباً جليلة في مذهب مالك منها: كتاب في بيان السنة، وكتاب مسائل الخلاف، والحجة في مذهب مالك، وله شرح مختصر ابن عبد الحكم الصغير، وغير ذلك مما ينبي عن مقدار علمه. مات سنة ٣٢٩هـ[١].

- **عمر بن محمد الليثي**، القاضي أبو الفرج البغدادي، الإمام الفقيه، الحافظ الثقة العمدة. تفقه بالقاضي إسماعيل، وكان من كتّابه. وأخذ عنه أبو بكر الأبهري وابن السكن وغيرهما. ألف الحاوي في مذهب مالك، واللمع في أصول الفقه. توفي سنة ٣٣١هـ[٢].

- **خلف بن جحدر الشبلي**، أبو بكر البغدادي، صاحب الأنباء العجيبة والآثار الغريبة، أوحد وقته علماً وحالاً، تفقه على أصحاب مالك وصحب الجنيد ومن في عصره. وأخذ عن القاضي إسماعيل وغيره. وأخذ عنه أبو بكر الأبهري وجماعة. قال: كتبت الحديث عشرين سنة، وجالست الفقهاء عشرين سنة. توفي سنة ٣٣٤هـ[٣].

- **بكر بن العلاء** محمد بن زياد القشيري البصري. الإمام الفقيه النظار المحدث الراوية. مذكور في أصحاب القاضي إسماعيل، وسمع من أبي عمر محمد وإبراهيم والحمادين وجعفر ابن محمد الغرياني وجماعة. حدث عنه جماعة من أهل المشرق والمغرب. ألف كتباً جليلة منها: الأحكام المختصرة من كتاب القاضي إسماعيل بالزيادة عليه، وكتاب الرد على المزني، وكتاب أصول الفقه، وكتاب القياس، وكتاب في مسائل الخلاف، وكتاب في الرد على الشافعي في وجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة، ورسالة إلى من جهل محل مالك في العلم، وكتاب مآخذ الأصول وغير ذلك. سكن مصر وبها توفي سنة ٣٤٤هـ، وقد جاوز الثمانين[٤].

---

(١) شجرة النور (ص ٧٨).

(٢) شجرة النور (ص ٧٩).

(٣) الشجرة (ص ٧٩).

(٤) الديباج المذهب (ص ١٠٠). شجرة النور (ص ٧٩).

- **محمد بن أحمد القاضي**، أبو عبد الله التستري، الإمام الفقيه الجامع، الراوية، الملازم للسنة النبوية، أخذ عن إبراهيم بن حماد وأبي عبد الله محمد بن أحمد البركاني وسمع من أبيه وغيره، وأدرك قريبه سهل بن عبد الله التستري. ألف كتاباً في فضائل أهل المدينة، وكتاباً في مناقب مالك نحو عشرين جزءاً. توفي سنة ٣٤٥هـ. وله اثنان وسبعون سنة(١).

- **محمد بن عبد الله**، أبو جعفر المعروف بالأبهري الصغير وبابن الخصاص، الإمام العالم بالفقه، المتفنن العمدة. تفقه بأبي بكر الأبهري الآتي ذكره. وسمع من ابن زيد المروزي. روى عنه جماعة منهم الأصيلي. له كتاب كبير في مسائل الخلاف، وكتاب في تعليق المختصر الكبير. وكتاب في الرد على ابن علية فيما أنكره على مالك. توفي في حياة شيخه أبي بكر الأبهري سنة ٣٦٥هـ(٢).

- **محمد بن أحمد** بن عبد الله، الذهلي البصري القاضي أبو الطاهر البغدادي، من بيوت العلم بها وذوي الأقدار. الثقة الأمين، الفقيه الكثير السماع. سمع من بشر بن موسى وأبي بكر الغرياني والقاضي أبي عمر الحمادي وجماعة. وسمع منه أبو الحسن الدارقطني وعبد الغني بن سعيد الأزدي ـ وانتخبا له جزءاً من حديثه ـ وأبو الحسن الجوهري وغيرهم. له كتاب في الفقه أجاب فيه عن مسائل مختصر المزني على قول مالك. واختصر تفسير الجياني وتفسير البلخي. تولى قضاء بغداد ثم مصر. ولد سنة ٢٧٩هـ، وتوفي سنة ٣٦٧هـ(٣).

- **محمد بن عبد الله** بن صالح بن عمر، أبو بكر الأبهري، القاضي الفقيه المقري الصالح الحافظ النظار القيم برأي مالك. إليه انتهت رئاسة المذهب ببغداد. تفقه على القاضي أبي عمر وابنه أبي الحسن، وأخذ عن جماعة منهم ابن المنتاب وابن بكير والبغوي وغيرهم. حدث عنه إبراهيم بن مخلد وأبو بكر الباقلاني وغيرهما، وخرج عنه جماعة من الأئمة كأبي جعفر الأبهري وابن الجلاب وابن القصار والقاضي عبد الوهاب. له الفقه الجيد وعلو الإسناد والتصانيف المهمة، منها: شرح المختصر الكبير والصغير لابن عبد الحكم، وكتاب الأصول، وكتاب إجماع أهل المدينة وكتاب الرد على المزني، وكتاب فضل المدينة على مكة. طلب

---

(١) الشجرة (ص ٨٠).

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٢١٥). شجرة النور (ص ٩١).

(٣) شجرة النور (ص ٩١).

لقضاء بغداد فامتنع من ذلك وأشار بأبي بكر الرازي. ولد قبل ٢٩٠هـ ومات سنة ٣٧٥هـ[١].

- **عبيد الله بن الحسن**، أبو القاسم بن الجلاب البصري الإمام الفقيه الأصولي العالم الحافظ، تفقه بالأبهري وغيره، وكان من أحفظ أصحابه وأنبلهم. وتفقه به القاضي عبدالوهاب وغيره من الأئمة. له كتاب في مسائل الخلاف، وكتاب التفريع في المذهب وهو مشهور معتمد، وقد طبع. توفي سنة ٣٧٨هـ[٢].

- **محمد بن أحمد** بن مجاهد الطائي، أبو عبد الله البغدادي. الإمام الفقيه الأصولي العالم النظار المتكلم صاحب أبي الحسن الأشعري. أخذ عن القاضي التستري. وعليه درس القاضي أبو بكر الباقلاني الكلام وحدث عنه أبو بكر ابن عزرة وأبو بكر بن عودة وغيرهم. له كتب حسان في الأصول منها كتاب أُصول الفقه على مذهب مالك، ورسالة في الاعتقادات على مذهب السنة، وكتاب هداية المستبصر وعدة المستنصر. وكان مالكي المذهب إماماً فيه مقدَّماً. غلب عليه علم الكلام والأصول[٣].

- **أحمد بن محمد** بن زيد، أبو سعيد القزويني، الفقيه الإمام العالم المحقق الأصولي، تفقه بأبي بكر الأبهري وهو من كبار أصحابه، وأبي بكر بن علوية، وغيرهما. وسمع من أبي زيد المروزي. له كتاب المعتمد في الخلاف، نحو مائة جزء. وهو من أهذب كتب المالكية. وله كتاب الإلحاف في مسائل الخلاف. مات بعد ٣٩٠هـ[٤].

- **علي بن عمر** بن أحمد البغدادي، القاضي أبو الحسن ابن القصار الأبهري الشيرازي. إمام فقيه أصولي نظار. تفقه بأبي بكر الأبهري وغيره. وتفقه به أبو ذر الهروي والقاضي عبد الوهاب وابن عمروس وجماعة. له كتاب في مسائل الخلاف بعنوان: «عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار». لا يعرف للمالكيين كتاب في الخلاف أكبر منه. منه نسخة خطية بالقرويين تحت رقم ٤٩٧. كما في تاريخ التراث لسزكين (٥ / ١٦١) وله أيضاً كتاب الحجة لمذهب مالك. قال أبو ذر: هو أفقه من لقيت من المالكيين. وكان

---

(١) ترتيب المدارك (٢ / ١٢٩). شجرة النور (ص ٩١).

(٢) ترتيب المدارك (٢ / ٢١٦). شجرة النور (ص ٩٢).

(٣) ترتيب المدارك (٢ / ١٣١). شجرة النور (ص ٩٢).

(٤) ترتيب المدارك (٢ / ٢١٥). شجرة النور (ص ١٠٣).

يقال: لولا الشيخان: أبو محمد ابن أبي زيد وأبو بكر الأبهري، والمحمدان: محمد بن سحنون ومحمد بن المواز، والقاضيان: أبو الحسن ابن القصار وأبو محمد عبد الوهاب لذهب المذهب المالكي. توفي سنة ٣٩٨هـ[١].

٤ - أعلام القرن الخامس الهجري

- **محمد بن الطيب** بن محمد البصري، القاضي أبو بكر الباقلاني، شيخ السنة ولسان الأُمة. وإمام الأئمة. انتهت إليه رئاسة المالكيين بالعراق. أخذ عن أبي بكر الأبهري وغيره. وعنه أبو ذر الهروي وأبو عمران الفاسي، قيل لأبي ذر: من أين تمذهبت بمذهب مالك ورأي الأشعري مع أنك هروي؟ فقال: قدمت بغداد وكنت ماشياً مع الدارقطني فلقينا أبو بكر بن الطيب، فلزمه الدارقطني بعدما قبل وجهه وعينه، فلما افترقا قلت: من هذا؟ قال: هذا إمام المسلمين والذاب على الدين، القاضي أبو بكر. فمن ذلك الوقت ترددت عليه وتمذهبت بمذهبه. له مصنفات كثيرة منها: المقدمات في أصول الديانات، والإرشاد في أصول الفقه، والمقنع في أصول الفقه، وغيرها. توفى سنة ٤٠٣هـ[٢].

- **أحمد بن أبي يعلى** عبد الوهاب بن حسين بن يوسف بن يعقوب الحادي أبو علي، فقيه إمام عمدة. سمع من عمه القاضي أبي الحسن عبد الصمد بن الحسين، ومن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن حماد، وابن داسة، وغيرهم. وعنه أبو عمر الطلمنكي وغيره. ألف كتاب اللقطة، وكتاب الحجة في القبلة. وكتاب الرد على الشافعي[٣].

- **محمد بن أحمد** بن عبد الله أو علي، أبو بكر أو أبو عبد الله ابن خويز منداد. إمام عالم فقيه أصولي. تفقه بأبي بكر الأبهري، وروى عن ابن داسة وأبي الحسن التمار. له كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وفي أحكام القرآن. قال القاضي عياض: ولم يكن بالجيد النظر، ولا بالقوي الفقه[٤].

---

(١) ترتيب المدارك (٢/٢١٤). الديباج (٢/١٠٠). شجرة النور (ص ٩٢).

(٢) ترتيب المدارك (٢/٢٠٣). شجرة النور (ص ٩٢).

(٣) ترتيب المدارك (٢/١٢٤). شجرة النور (ص ٩٣).

(٤) ترتيب المدارك (٢/٢١٧). شجرة النور (ص ١٠٣).

- **أحمد بن محمد** بن يوسف بن محمد، أبو عبد الله بن دوست البزار البغدادي، كان فهماً في الحديث، عارفاً بالفقه على مذهب مالك، مكث مدة يملي في جامع المنصور. تكلموا فيه من أجل أنه كان يكتب الأجزاء ويرتبها لترى أنها عتق. توفي سنة ٤٠٧هـ(١).

- **محمد بن عبد الله البصري**، من أصحاب الأبهري. كان فقيراً متقنعاً منقبضاً متنسكاً، لم يكن له بيت، إنما كان يأوي إلى المساجد ويودع كتبه عند إخوانه. وكانت له كتب كثيرة. وكان ما يقع له يبتاع به كتباً. وكان الناس يعرفونه بالشهرة بالعبادة وطلب العلم. وكان الأبهري يحبه ويجله. وتوفي بهمذان(٢).

- **عبد الوهاب بن علي** بن نصر البغدادي، أبو محمد، الفقيه الحافظ الحجة النظار المتفنن، الأديب الشاعر، من أعيان علماء الإسلام. تفقه بأبي بكر الأبهري، وأخذ عن كبار أصحابه كابن القصار وابن الجلاب والباقلاني وغيرهم. قال الخطيب: كتبت عنه، ولم ألق في المالكيين أفقه منه. ألف في المذهب والخلاف والأصول تآليف بديعة مفيدة ككتاب التلقين وكتاب النصرة لمذهب إمام الهجرة، وكتاب المعونة، وكتاب الرد على المزني، وكتاب الإفادة في أصول الفقه، والإشراف على مسائل الخلاف. وغيرها. تولى القضاء بعدة جهات من العراق. وخرج في آخر عمره إلى مصر. وبها توفي سنة ٤٢٢هـ(٣).

- **عبد بن أحمد** ويقال حميد بن محمد، أبو ذر الهروي، الإمام المحدث الحافظ الحجة النظار، ضربت له أكباد الإبل من الأمصار. أخذ عن أعلام منهم القاضي الباقلاني وابن القصار. وغيرهما. وغلب عليه الحديث فكان إماماً فيه. روى صحيح البخاري عن المستملي والكشميهني والسرخسي ومحمد بن المكي عن الفربري عن البخاري. وأصله من أصح الأصول، وعوّل عليه كثير من العلماء والأعلام. له تآليف منها: المسند الصحيح المخرج من البخاري ومسلم، وكتاب الدعوات، وكتاب فضائل القرآن، ومسانيد الموطآت، وفضائل مالك، وكتاب الرجال، وشهادة النبي ﷺ وأصحابه. وغير ذلك. جاور بالحرم إلى أن مات سنة ٤٣٥هـ أو ٤٣٤(٤).

---

(١) ترتيب المدارك (٢/٢١٩).

(٢) ترتيب المدارك (٢/٢٢٠).

(٣) ترتيب المدارك (٢/٢٧٢). شجرة النور (ص ١٠٣).

(٤) ترتيب المدارك (٢/٢٧٥). شجرة النور (ص ١٠٤).

- **علي بن هارون التميمي**، القاضي أبو الحسن، من شيوخ المالكية من أهل البصرة. أخذ عنه أبو يعلى العبدي إمام البصرة. سمع أبا يعقوب المحرمي. وله كتاب بصحة ما صح فيما يلزم المسلمين في دينهم ودنياهم(١).

- **محمد بن عبد الله** بن أحمد بن محمد بن عمروس البزار، أبو الفضل البغدادي، إمام عمدة فاضل فقيه أصولي، كان من حفاظ القرآن ومدرسيه. درس على القاضي ابن القصار والقاضي عبد الوهاب. وحدث عنه أبو الوليد الباجي والخطيب البغدادي. إليه انتهت الفتيا في مذهب مالك ببغداد. له تعليق حسن كبير مشهور في المذهب. ومقدمة حسنة في أصول الفقه. ولد سنة ٣٧٢هـ. ومات سنة ٤٥٢هـ(٢).

- **محمد بن المؤمل**، أبو بكر البغدادي، مالكي، يعرف بغلام الأبهري، يروي عن ابن داسة، حدث عنه أبو الوليد الباجي وقال فيه: شيخ لا بأس به(٣).

- **علي بن محمد بن قيس**، أبو الحسن البغدادي. كان مالكياً راوية، سمع من الأبهري، وأبي حفص الكتاني وأبي علي الفهري. سمع منه أبو الوليد الباجي وقال: هو شيخ من أهل المعرفة باللسان، مالكي لا بأس به(٤).

- **أحمد بن محمد**، أبو يعلى العبدي، إمام المالكية بالبصرة، وصاحب تدريسهم ومدار فتواهم، ذو التآليف في وقته مذهباً وخلافاً، أخذ عن أبي الحسن بن هارون التميمي. وبه تفقه مالكية البصرة، منهم: أبو عبد الله بن صالح وأبو منصور بن باقي وغيرهما. وسمع منه القاضي أبو علي الصدفي وغيره. توفي سنة ٤٨٩هـ(٥).

---

(١) ترتيب المدارك (٢/٣٢١).

(٢) ترتيب المدارك (٢/٣٢١). شجرة النور (ص ١٠٥).

(٣) ترتيب المدارك (٢/٣٢١).

(٤) ترتيب المدارك (٢/٣٢٢).

(٥) ترتيب المدارك (٢/٣٤٠). شجرة النور (ص ١١٦).

٥ - أعلام ما بعد القرن الخامس الهجري

- **الحسن بن أبي القاسم**، قاضي القضاة عز الدين البغدادي النبيل، الإمام العالم الجليل الفقيه الصدر العمدة. كان مدرس المالكية بالمدرسة المستنصرية، أخذ عن أعلام، وأخذ عنه شهاب الدين بن عسكر. له تصانيف مفيدة منها: كتاب الهداية في الفقه، وتأليف في مسائل الخلاف، وتأليف في الأصول وتأليف في الطب. واختصر كتاب ابن الجلاب اختصاراً حسناً. توفي سنة ٧١٢هـ[١].

- **عبد الرحمن بن محمد** بن عسكر شهاب الدين البغدادي. الفقيه العالم، الصالح الفاضل، الإمام المحدث، العمدة الكامل، أخذ عن جماعة منهم القاضي النبيل وعنه ابناه القاضي أحمد والقاضي محمد، ألف التصانيف الحسنة المفيدة، منها: المعتمد غزير الفائدة والعلم، ذكر فيه مشهور الأقوال. والعمدة والإرشاد، أبدع فيه كل الإبداع، جعله مختصراً وحشاه بمسائل وفروع لم تحوها المطولات. مع إيجاز بليغ. وله غير ذلك. وكتبه تدل على فضله. توفي سنة ٧٣٢هـ[٢].

- **محمد بن عبد الرحمن** بن عسكر القاضي شمس الدين أبو عبد الله البغدادي الإمام العلامة المتفنن في العلوم الفهامة، القائم بلواء مذهب مالك بالعراق. كان من العباد وأعلام الفضلاء الزهاد. أخذ عن والده وغيره. له تآليف منها: شرح إرشاد والده وشرح مختصري ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وله تفسير كبير وتعليقه في علم الخلاف وغير ذلك. مولده سنة ٧٠١هـ وتوفي ٧٦٧هـ[٣].

- **أحمد بن عبد الرحمن** بن عسكر القاضي شرف الدين البغدادي، إمام العلماء وعالم الفقهاء الفضلاء. أخذ عن والده وتولى قضاء دمشق ثم رحل إلى مصر واجتمع به برهان الدين بن فرحون بمنزله ولزم بيتاً هناك للسماع والإفادة. أخذ عنه ابن مرزوق الجد وغيره[٤].

---

(١) شجرة النور (ص ٢٠٤).

(٢) شجرة النور (ص ٢٠٤).

(٣) شجرة النور (ص ٢٢٢).

(٤) شجرة النور (ص ٢٢٢).

لائحة المصادر والمراجع

- أبو حنيفة، حياته وعصره، آراؤه وفقهه: أبو زهرة. دار الفكر العربي، ط٢، ١٣٦٩هـ-١٩٤٧م.

- أزهار الرياض في أخبار عياض: شهاب الدين أحمد المقري. تحقيق سعيد اعراب ومحمد بن تاويت. اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المغرب وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة. الرباط. المغرب.

- الإشراف على نكت مسائل الخلاف: القاضي عبد الوهاب البغدادي. قارن بين نسخه وخرج أحاديثه وقدم له الحبيب بن طاهر. دار ابن حزم. ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- أصول الفقه: العربي اللوه. ط٢، تطوان ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: ابن عبد البر. دار الفكر، بيروت، لبنان.

- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف: ولي الله الدهلوي، راجعه وعلق عليه: عبد الفتاح أبو غدة، دار النفائس، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي. دار الفكر، بيروت، لبنان.

- تاريخ التشريع: الخضري. دار الفكر.

- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري. عبد العزيز الدوري.

- التخريج عند الفقهاء والأصوليين، دراسة نظرية تطبيقية تأصيلية. د. يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين، مكتبة الرشد، الرياض.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: القاضي عياض، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٨٨م.

- التفريع: أبو القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري، دراسة وتحقيق: د. حسين بن سالم الدهماني. دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٧٨م.

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ابن عبد البر. مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب. طبعة ١٤٠٧/١٩٨٧.

- دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد أمين سليم.

– الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: ابن فرحون. مطبعة السعادة مصر، ط١، ١٣٢٩هـ.

– شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: الشيخ محمد بن محمد مخلوف. دار الفكر.

– شرح التلقين: المازري. دار الغرب الإسلامي.

– شرح الزرقاني على شرح اللقاني للمختصر. دار الفكر.

– الصلات الثقافية بين العراق وبلاد المغرب: د. عبد الهادي التازي.

– فتح الودود على مراقي السعود ونيل السول على مرتقى الوصول: عبد الله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي والإمام محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي. ط١، بالمطبعة المولوية بفاس ١٣٢٧هـ.

– الفروق: أحمد بن إدريس القرافي بعناية الدكتور محمد رواس قلعه جي. دار المعرفة، بيروت، لبنان.

– الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

– القاموس المحيط: مجد الدين الفيروز آبادي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

– قواعد الفقه الإسلامي من خلال كتاب الإشراف على مسائل الخلاف: الدكتور محمد الروكي.

– الكامل في التاريخ: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، تحقيق عبد الوهاب النجار، دار الطبع المنيرية، ط١، ١٣٥٣هـ.

– كتاب العين: الخليل بن أحمد.

– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، مصورة دار الفكر.

– لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين بن منظور، دار بيروت ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

– مالك حياته وعصره، آراؤه وفقهه: أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٥٢م.

– مجمل اللغة: ابن فارس. تحقيق زهير عبد المحسن، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٢ ١٤١٦هـ-١٩٨٦م.

– مجموع الفتاوى: ابن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد العاصمي وابنه. مطابع الرياض، الرياض ١٣٨٢هـ.

– المدخل الفقهي العام: مصطفى أحمد الزرقا. دار القلم.

– محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي: الدكتور عمر الجيدي، منشورات عكاظ، مطبعة النجاح الجديدة ١٩٨٦م.

– المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا: البنّاهي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان.

– معجم مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر.

– معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر.

– المعونة على مذهب عالم المدينة: القاضي عبد الوهاب البغدادي، تحقيق ودراسة: حميش عبد الحق، دار الفكر.

– مفتاح السعادة ومصباح السيادة: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده، مراجعة وتحقيق: كامل بكري وعبد الوهاب (أبو النور)، دار الكتب الحديثة.

– مقدمة تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: الأستاذ خليل شحادة. دار الفكر، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

– مواهب الجليل شرح مختصر خليل: الحطاب، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

–نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء: د. محمد الروكي، مطبوعات كلية الآداب الرباط ١٩٩٤م.

– ومضات فكر: الفاضل بن عاشور، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، ١٩٨٢م.

فهرس المحتويات